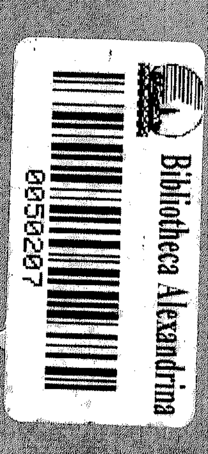


على مبارك

علم الدين

الجزءان الثالث والرابع

تقديم ا . د سمير سرحان



طبعة مصورة

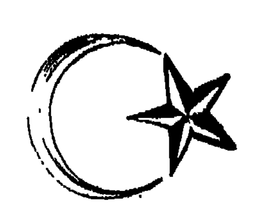
بمناسبة الاحتفال بالذكرى المائة .



عَلَمُ الدِّين



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



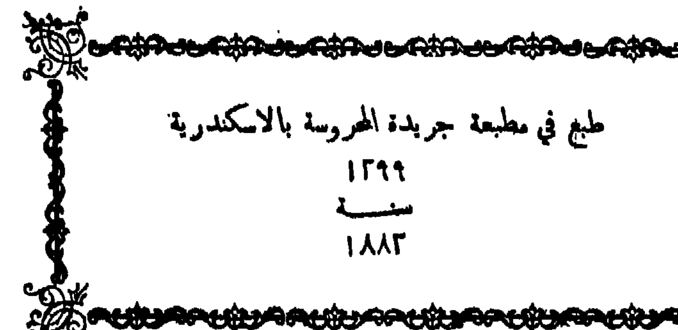
علم الدين

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقا

الجزء الثالث



طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة الثامنة والمتون

عودٌ الى حكاية يعقوب

فقال يعقوب بعد ان دفع ذلك السائح ما دفعه وحصل التراضي بين سيدي وبينه بتنا تلك الليلة في البلد وباث يودعني من كنت اعرفه خصوصاً من كنت عنده وجميع اهل بيته فلما اصبح الصباح قمنا للسفر فركبنا قاصدين الساحل فلم نصله الاَّ بعد عشرة ايام شاهدنا فيها من حر الطريق ووعره مشقات عظيمة لان جميع الطرق بهذه البلاد قد تخللتها الجبال والغابات والبرك والاجمات فكنا نبيت تارة في بعض القرى وتارة في محلات اخرى خالية عن القرى وكان مع السائح اوامر واعلامات من لدن الحكومة

ومأمورون من قبل الملك فكنا اذا مررنا بقرية او حلة حصل لنا من اهلها الاكرام والاحترام ولكن كان يحتف بنا اهلها يستغربون صورتنا ويتأملون في هيأتنا فكان من معنا من المامورين بتوصيلنا ينحونهم عنا واذا احتجنا الى شي بادروا به ودفع السائح ثمنه من عنده وغير ذلك كان يعطي لمشائخ البلاد التي كنا ننزل بها بعض هدايا مما يحب في تلك الجهات مثل قطع من قماش وشي من الخرز واساور من زجاج وكانوا يهدون الينا بعض اشربة من الروم والنبيذ وما زلنا سائرين حتي وصلنا مدينة (بوري) وهي محل اقامة الملك المتصرف في جهات (سياد البونا) (اعني نهر جبال السباع) وهي على بعد ثمانية فراسخ من مصب النهر المذكور في البحر وكان خبرنا وصل اليه قبل قدومنا عليه فارسل لاستقبال صاحبي السائح جماعة من امرائه وقواد عسكره فاستقبلونا بالبشر والطلاقة مع التوقير والاحترام ومزيد الاكرام وساروا بنا الى ان وصلنا اليه فوجدناه جالساً على حصير وحوله امراؤه وحشمه وعلى البعد منه بعض عساكره واهل بلاده فلما رآنا قام لنا وتلقانا ومد يده الى السائح فصافحه وهز يده واجلسه بجانبه ثم سأله عني فاخبره بقصتي وشرح له قضيتي وكيف خلصني ممن كنت معهم حتى صرت معه فهنأني الملك ببعض كلمات انكليزية وكان يعرف قليلاً من لغة الانكليز بسبب ان لهم بالقرب منه محلات للتجارة فيها حاكم انكليزي كان يزور الملك لبعض حاجاته ويزوره الملك في

بعض الاحيان فتعلم بعض هذه اللغة بسبب المخالطة

ثم اهدى اليه صاحبنا السائح زجاجات من نبيذ وبعض اقمشة فكافأه عليها بعشر اواق من ذهب واربعة اعبد ثم استأذنه وقمنا فبتنا تلك الليلة بمحل قد اعد هناك للضيافة

وفي اليوم الثاني توجهنا الى محل حكومة الانكليز بهذه البلاد فوجدنا سفينة عتيد سفرها الى بلاد الانكليز الاّ انها في انتظار اتمام حمولتها فاقمنا يومين الى ان تم وسقها فركبناها وحمدت المولى على قرب مسافة الانتظار وتخلصي من اهل تلك الديار وكان ما عندي من شدة الفرح بالعود الى الوطن والخروج من ارض الغربة والتخلص من هذه الكربة وشدة شوقي الى بلدي قد جعل عليّ مدة اليومين اللذين مضيا في الانتظار طويلة الى الغاية حتى كنت اتخيل انها اطول من مدة اقامتي في هذه البلاد كلها وهي اربع سنين فلم اكن في هذين اليومين يهدأ لي سر ولا يهنأ لي عيش حتى انقضت ونزلنا في السفينة كما ذكرت وسارت بنا فداخلني من الفرح والسرور ما لا اقدر على وصفه وعزمت على اني متى وصلت بلدي اقمت بها ورجعت الى صنعتي ورضيت منها بكل ما تيسر واقمت مع اختي الى ان يرزقها المولى بمن يتزوج بها ويغنيها عن الخدمة وتعبها

وكان ذلك الرجلُ السائح الذي كنت بصحبته لحسن طاعتي

له رقيامي بخدمته احبني والفني وجعلني عنده بمنزلة ولده وهكذا كان دأبه معي برًّا وبحرًا سفرًا وحضرًا حتى انه نفعني كثيرًا بعد وصولي الى بلدي واقامتي بوطني كما اذكره لحضرتكم وطالما افادني مدة صحبتي له في السفر اخبارًا كثيرة مما شاهده في سياحته وعلمني امورًا كنت اجهلها ووصف لي كثيرًا من خواص حيوانات الافريقة ونباتها واشكال طيرها وعجائب الخلائق البرية والبحرية بها ولا يخفى على حضرتكم ان ارض افريقة على العموم بها من جميع انواع الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية كالاسد والنمر والفيل ما لا يوجد بغيرها وفي الجهات التي كنت بها كثير من هذه الحيوانات مأواها الغابات والصحاري واشدها واقساها السبع وهو في جهات (السني غال) و(غمبيا) عظيم الجثة مهول الخلقة كثير الجرأة ذو قوة عظيمة وبأس شديد فهو اعظم مما يوجد من هذا النوع في سائر الجهات كجبال الاطلس مثلاً

ولما خرجنا من الجهة التي كنت بها قاصدين جهة الساحل وجدنا في طريقنا بعد مسيرة ثلاثة ايام من قرية (تابو) غابة واسعة فيها اشجار عظيمة قد انطبقت اعاليها وتلاقت فروعها فكنا نراها كالقبة فوق رؤسنا وقد حجبت عنا اشعة الشمس فلم نكن نراها الاّ قليلاً نادرًا ولهذا السبب كان داخل هذه الغابة ابرد من خارجها وكنا في مدة سيرنا بها نسمع للسبع من جميع جهاتها اصواتًا مزعجة

حتى كنا نتخيل لشدة الخوف ان تحت كل شجرة سبعًا وكان من معنا من الحرس والخفراء يسرعون ويحثون على السرعة في السير خوفًا من اذاها ولكنا والحمد لله لم نرَ شيئًا منها وما زلنا نجد في السير حتى خرجنا من هذه الغابة قريب العصر وسرنا حتى امسينا على عين ماء هناك للمبيت فنزلنا عندها ومن عادتهم في تلك الجهة انهم اذا باتوا في الخلاء اوقدوا نارًا على البعد وتركوها للصباح لتنفير السباع والوحوش عنهم وكذلك فعل من كان معنا من الخفراء وبتنا على الخوف والخشية من الوحوش والسباع وكانت المسامرة تلك الليلة كلها في ذكرها فكان كل من الحاضرين يذكر ما سمعه او رآه من امرها وشرها

٧٩٠

المسامرة التاسعة والستون

السباع

(من حكاية يعقوب)

فمما جرى ذكره في تلك الليلة ما حدثنا به بعض الخفراء وقد رأينا باحدى فخذيه اثرًا غائرًا في لحمه فسألناه عنه فقال هذا موضع اكل السبع وذلك اني خرجت مرة مع بعض اصحابي لنصطاد فيلاً من بعض الغابات فلما دخلنا الغابة تفرقنا فبعدت عنهم فقصدني سبع فتجلدت ورميته بحربة كانت معي فاصابته ولكنها لم تذهب بقوته فهجم عليّ بشدة وكان معي سكين ماضية فذبحته بها بعد ان انشب مخالبه في جهات من جسمي واقتطع من فخذي هذا قطعة عظيمة من لحمي فوقعت على الارض ووقع بجانبي ميتاً ثم حضر اصحابي فوجدوني جريحًا طريحًا على الارض والاسد بجانبي غريق في دمه فاحتملوني معهم وبقيت مدة من الزمن مريضاً الى

ان شفيت وقال اخر بينما انا سائر مرة في واد واذا باسد قد تعرض لي في الطريق وكنت وقتئذٍ لا سلاح معي فلما رأيته لصقت بالارض واشرت اليه اشارة المتذلل بين يديه فلما رأى مني ذلك اتى اليّ ودار مرة او مرتين حواليّ ثم تركني وانصرف

قال يعقوب وهكذا قضينا ليلتنا في امثال هذه الاحاديث والاخبار الى ان طلع علينا النهار فرحلنا وسرنا في طريقنا الى ان وصلنا الى الساحل كما ذكرنا وكان من جملة ما افادني ذلك السائح من خواص الحيوان ان لسان السبع غليظ خشن يعلو سطحه شوك دقيق كالسل الاّ انه صلب مادته تشبه مادة القرن مائل الى جهة الخلف نحو الحلق وقد يبلغ طول الشوكة قدر اربعة خطوط فاذا لحس انسانًا او حيوانًا تجرح وسال دمه فتتحرك منه نهمة الاكل فيفترسه

قال ومن ذلك ان احد الفرنساوية كان اصطاد اسدًا صغيرًا فرباه حتى كبر عنده وكان لذلك الفرنساوي خادم يلاعب الاسد وينام معه وتارة يعطيه يده فيلحسها فنهاه سيده عن ذلك ونصحه فلم يرجع ولم يقبل نصحه فبينما هم نائمون ليلة واذا بالشبل قد عمد الى الخادم وصار يلحس يده بلسانه على العادة فسال الدم فلما رآه لم يتمالك نفسه فهجم على ذلك الخادم وافترسه فتنبه سيده فرآه كذلك ففر هاربًا واستغاث بمن حوله واجتمعوا عليه واطلقوا الرصاص على الاسد فقتلوه وللاسد في كل فك من فكيه اربعة

عشر سنًا اربعة اماميه واربعة من خلفها وستة اضراس في كل ناحية من شدقيه ثلاثة وعلى رقبة الذكر خاصة شعر ينتشر اذا هاج وهو لبدته ويقال ان الانثى من هذا النوع أقوى من ذكره وفي ارجله قصر بالنسبة لتركيب اعضائه وفي كل من الرجلين المقدمتين خمسة اظافر وفي كل من المؤخرتين اربعة وذنبه طويل وشعره خشن متلبد قصير وقد ضرب المثل بجرأته لانه لا يبالي بجبوان ولا يخشى من انسان قلّ او كثر خصوصًا اذا اشتد به الجوع فاذا لم يرد الهجوم والافتراس مضى في طريقه من غير اكتراس ولا مبالاة وليس من طبعه الفرار من عدوه مهما كان فان الجئ الى ذلك تقهقر قليلاً قليلاً مع البطء والتأني حتى يصل الى مكمن ينزوي فيه ويقال انه مصاب بحمى دائمة وان سبب ذلك التهاب دائم في دمه وزعم كثير من الناس انه لا يفترس المرأة وقال بعضهم ان ذلك لا اصل له ولكنه شوهد مرارًا كثيرة يعف عمن وقع تحت قبضته وخضع له من الادميين بل ربما شارك في طعامه من عف عنه ابقاء على حياته

ومن طبعه انه يحتمل العطش ثلاثة ايام او اربعة فاذا وقع على الماء شرب كثيرًا ومن طبعه ايضًا الخوف من الثعبان ويعلم ذلك منه العرب وسكان الصحراء فاذا وقع باحدهم جعل عمامته على صورة الثعبان ومدها على الارض فاذا رأى ذلك الاسد تركه

ومضى

ويقال ان خيل العرب مع ما لها من القوة وخفة الحركة وسرعة الجري اذا رأت الاسد استولى عليها الرعب وعدمت الحركة فتثبت في مكانها ولا تقدر على السير فاذا رأى البدوي ذلك نظر الى جهة الاسد فان كان قريبًا نزل عن فرسه ونام على بطنه وترك فرسه للاسد فيفترسها الاسد وينجو هو بنفسه وان كان بعيدًا اوقد نارًا فاذا رآها الاسد مضى لسبيله وتركه

وتلد انثى الاسود اربعة فاكثر وليس لها غير ثديين وقد اعتاد الاعراب اخذ اولادها وهي صغيرة ليبيعوها للافرنج فاذا رأتهم اللبوة هجمت عليهم فيرمون لها بواحد منها فتحمله الى موضعها وترجع اليهم لتلحقهم وتاخذ بقية اولادها وفي هذه المدة يكونون قد نجوا بما معهم ومن طبع الاسد حفظه للود ووفاؤه بالعهد فاذا صنع احد معه معروفًا لا ينساه ابدًا

• فمن ذلك ما اخبرني به بعض اصحابي • قال كان عند حاكم (سيار البونا) اسد ظهر على جسده بعض قروح اضرت بصحته واضعفت جسمه وكان هناك حكيم فأخذته الرأفة عليه والشفقة به فعالجه حتى برئ واندملت قروحه وتراجعت صحته وقوته فألفه واحبه وصار يطيعه وينقاد له ويتبعه كما يتبع الكلب المعلم صاحبه

المسامرة السبعون

ابن آوي

(من حكاية يعقوب)

قال ثم ان ذلك الحكيم مرض مرضاً مات فيه فظهر على الاسد الحزن حتى منعه من الطعام فمات ولم يعش بعده الاّ قليلا وفي جهات سواحل افريقا غير ما ذكر كثير من الوحوش والقرَدة والطيور العجيبة ذات الالوان اللطيفة والاشكال الظريفة وانواع الحيوانات الغريبة فلا يكاد يمر الانسان من جهة الى غيرها الاّ رأى من عجائب المخلوقات ما لم يكن رآه من قبل ومن جملة ما بها من الحيوانات ابن آوي وهو حيوان مفترس في جرم الثعلب وكأنما اصله من كلب وذئب لانه يشبهها خلقة وتركيباً ولونه اصفر ناصع ولهذا سماه (فيتاوس) الكلب المذهب وبعضهم يسميه بالكلب الوحشي وانيابه غليظة في طول اصبع قوي الاظفار ذو قسوة

شديدة يفترس كل ما قدر عليه من انسان وحيوان وكثيرًا ما رأيته في البلاد التي كنت بها يقرب من مباني البلد ويدخل في بعض الدور وياخذ ما وقع به من الغنم والخنازير ودخل ذات ليلة بيت جارية فاختطف منه بنتًا لها وحملها على عاتقه وجرى بها وكان يسندها باحدى قوائمه ويمشي على الثلاث مع السرعة والخفة فصاحت البنت فتنبهت الناس لصياحها فقاموا خلفه فرماها لهم ولم يجدوا بها الاَّ اثرًا صغيرا محل اظافره التي كان قابضًا بها عليها ويقال ان هذا الحيوان يهيء الصيد للاسد فيدور من جهة الى جهة ليبحث عن الصيد فمتى عثر به صاح باعلى صوته فيسمعه الاسد ويجاوبه ويلحقه وقيل ان ذلك لم يصح وانما الصحيح انه اذا جرى وزاء طريدته فادركه الاسد شاركه فيما اصاب

وقد يتألب من هذا الحيوان في بعض الاحيان اربعون او خمسون فتنبعث للصيد وتأخذ في عواء شديد جهير واذا اتحدت وهي على مثل هذه الحال كانت مكافئة للوحوش الضارية في اجامها وتعرضت لاقواها ويساعد بعضها بعضًا في الصيد ونبش المقابر وهي تستكن نهارًا منفردةً في احجارها وتجمع عند المساء سربًا وتغير على القرى للقتل والاغتيال وبين ابن آوي والكلب من العداوة ما لا صلح معه فلا يلتقيان مرة الاَّ سطا احدهما على الاخر

المسامرة الحادية والسبعون

النمر

(من حكاية يعقوب)

ومنها النمر وهو حيوان في جرم الكلب السلوقي ومنه ما يكبر ويعظم جسمه حتى يصير كالعجل وشعره ناعم براق منقط بنقط سود وراسه كراس الهر اصفر العينين حاد الاسنان خشن اللسان طويل الارجل والذيل قصير الشعر حاد الاظافر الى الغاية عظيم الجراة يقدم على الفيل ويهجم عليه وهو كالهر في غالب صفاته وافعاله وحركاته مع الشدة والشهامة كما انه يشبهه في شكل الجسم وان كان اكبر من القط في الحجم واكثره قوة وجراة ما يوجد بافريقا والنمر لبسالته وزيادة قوته لا يصاد حيًا الا نادرًا لانه اذا وقع في حبالة قلّ ان يسلم منه صائده ولذلك يتخذون لصيده نبالا مسمومة السنان وهو يعدو على الفيل فيبرق خرطومه باظافره

وانيابه فيموت لان خرطوم الفيل بالنسبة له كيده يتناول بها
الغذاء وسلاحه الذي يدفع به عن نفسه الاعداء فاذا فقدت مات
من عدم الغذاء وتسلط الاعداء ومع جرأة النمر وشدة قوته قد
شوهد مرة من بعض الخنازير مقاومته بالكثرة فقد اتفق لبعض
السائحين وكان يقتني الخنازير انه اصطاد نمراً صغيراً ورباه فعمد
ذات يوم الى خنزير من تلك الخنازير ليفترسه ففر الخنزير منه الى
مكان ضيق بحيث لم يبق للنمر سبيل عليه الاّ من جهة واحدة
فتبعه النمر وضايقه فلما لم يرَ الخنزير الى الخلاص منه سبيلاً صاح
على اخوته باعلى صوته وكانت منتشرة في نواحي البيت فلما سمعت
هرعت اليه واحاطت بالنمر فلم ينجُ منها الاّ بالفرار فولى وتركها
والنمر انواع متعددة يتميز بعضها عن بعض بالالوان والنقط وكبر
الجثة وهو يستحب لحم ما عداه من الحيوان على لحم الآدمي ثم لحم
السودان على لحم البيض والاروبيين لكنه اذا جاع لا يفرق بين
ادمي وغيره والسودان ياكلون لحمه كما ياكلون لحوم الفيلة
والاسود وغيرها وكثيرا ما يقتلون من يقصد الاتجار في جلده
ويقال ان فيه قابلية للتعليم الى ان يصير كالكلب المعلم الاّ انه لا
يوثق به لانه ربما يغلب عليه طبعه بعد حين ويقرب منه نوع
يسمى القط النمري وهو كالنمر في طبعه ولونه الاّ انه اقل منه جسماً
ويكون في ارتفاع القط المعتاد الاّ انه اغلظ منه حجماً وياكل
الفار وابن عرس وغيرها ومنه نوع يعرف بالقياس بوصف

بصفات النمر الافريقي غير ان طوله قلما يجاوز ثلاث اقدام ونصفاً
الاّ ان شعره اطول وكذا ذنبه بالنسبة الى جثته ولونه ما بين
الصفرة والبياض ولكن بطنه اشد بياضاً من ظهره ونقطه كالنقط
التي في النمر وضعاً وتوشك ان تصير على مؤخره خطوطاً وهو
من الحيوانات المفترسة الاّ انه لا يتعرض للآدمي الاّ ان تعرض
له ولم يمكنه الفرار منه فعند ذلك يثب عليه وينشب مخالبه في
وجهه ويكرر ذلك مراراً حتى يقتله وبين هذا الحيوان والكلب
عداوة شديدة فمتى رآه بادر الى الهجوم عليه ليفترسه ويأكل من
لحمه ولو مع اقتحام المخاوف والتعرض للتلف وقد يدرب في بعض
الجهات ويغرى بالصيد ولكنه ليس له قوة شم حادة كما للكلب
ويقال ان بعضاً من هذا النوع ربي تربية حسنة حتى كان يؤخذ
باليد ويحتضن

المسامرة الثانية والسبعون

القِرَدَة

(من حكاية يعقوب)

وهناك حيوانات غير ما ذكر متوحشة كالذئب والخنزير وغيرها وكلها تشبه في شكلها وتركيب صورتها ما يوجد منها في سائر البلاد الاَّ ان الموجود منها في افريقيا اعظم جسماً واشد توحشاً واكثر عدداً ويوجد في غاباتها من الحيوانات المتوحشة الجاموس والبقر الاَّ انها اقل وجوداً من غيرها وقد يكبر الجاموس عندهم حتى يصير كالفيلة وان تعرض له احد بالاساءة هجم عليه فان لحقه داسه بارجله واتلفه ومن طبعه انه يحب الماء حبًّا زائداً ولحمه مستطاب لذيذ واما البقر فيهرب من الانسان ويسكن الغابات ويتناسل فيها فيكثر عدده الى الغاية فيأتي اهل تلك الجهة

وياخذون منه كثيرًا ولولا ذلك لضاقت عنه الارض وهناك من
نوع الظبا كثير واكثر وجوده بجهة (امندا) والساحل وهو انواع
ومنه نوع يداه اقصر من رجليه ويشابه الجمل في ذيله وراسه
ووبره وحول اجفانه دائرة من الشعر سوداء كاعين الايل وصوته
كصوت المعز ويقبل التاليف والتربية ومما يكثر وجوده في تلك
الجهات الايل وله اوقات معلومة يخرج فيها للمرعى قطائع متجمعة
تسافر من شمال نهر (السينجال) الى جهة جنوبه في طلب المرعى
واهل تلك الجهة يعرفون اوقات رجوعها فيستعدون لاصطيادها
بان يضرموا النار في الحشيش من جميع الجهات ما عدا جهـــة
النهر ويقف جماعة منهم بشاطئ النهر فاذا رأت قطائع الايل النار
قد احاطت بها من كل جانب فرت الى جهة النهر فيقوم عليها
الذين كمنوا لها هناك فيقتلون منها ما يقتلونه وياخذون بالحيوة ما
ياخذونه وما يذبحونه يجففون لحمه في الشمس لياكلوه وجلده
يبيعوه للاوربيين او غيرهم وقد اخبرني ذلك السائح الانكليزي
انه رأى هناك حيوانًا صغير الجثة في قدر خنزير مضى عليه سنة
من عمره شعره ابيض قصير دقيق صلب وراسه كراس الدب
وعينه ضيقة ذات لمعان وله اظافر حادة يصعد بها الشجر وياكل
من ثمارها ويقيم بين اغصانها وهو بحري بري يعيش في الماء وفي
الهواء فلهذا يرى دائمًا فوق اغصان الاشجار بالقرب من شواطئ

الانهار والسودان يصطادونه وياكلونه

وليس هناك اكثر من القرَدة عددًا وانواعًا ولا اعجب منها طباعًا وتسرح مجتمعة قطائع عظيمة قد يبلغ عدد القطيع الواحد منها ثلاثة الاف فاكثر ولا يمشي واحد منها الاّ مع ابناء نوعه ويقال ان لكل قطيع منها رئيسا تطيعه وتنقاد له وحرسا يرتب من اعظمها جثة وقوة وانها اذا سارت يكون الرئيس امامها والحرس خلفها والانثى تحمل ولدها تحت ابطها فان كان لها اكثر من واحد حملت ما بقي على ظهرها وسارت بها

وفي هذا النوع من الحذق والخفة والقوة والجرأة ما يقضي منه العجب ولا يوجد في كثير من الحيوانات فقد رأيتها حين عودتنا مع السائح الانكليزي وهي فوق الشجر تثب من غصن الى غصن ومن شجرة الى شجرة كانها فوق الارض ولها اصوات مختلفة منها الرفيع ومنها الغليظ وما بين ذلك ولكنها كانت تارة تصيح دفعة واحدة فيظن من لم يرَها انه صوت واحد منها وقد يسمع لبعضها في جوف الليل صوت عال يعلو جميع اصواتها فتسكت جميعا برهة من الزمن ثم ترجع الى ما كانت فيه وكنت رأيت هناك بيوتا صغيرة كثيرة العدد مصنوعة من اغصان الشجر قليلة الارتفاع عن وجه الارض متجاورة فسالت عنها بعض الحرس الذين كانوا معنا فاخبرني انها بيوت للقرَدة تتقي بها حر الشمس وضرر العوارض

وكل ما رأيته من القرَدة له ذيل ولكن اخبرني بعض السائحين ان منها ما لا ذيل له والقرَدة انواع فمنها نوع صغير الجثة غير مؤذ وصوته يشبه بكاء الاطفال ونوع اكبر منه خلقة وضرره كثير وفيه بعض فطنة وله حركات واشارات تقرب مما للآدمي من ذلك فضلاً عن الايدي والارجل حتى ان السودان يعتقدون ان في امكانه النطق وانما يمنعه من ذلك خوفه من ان يكلف الاعمال الشاقة كالآدمي وضرره على المزارع كثير ومن عادته انه اذا اراد الدخول في مزرعة من مزارع الارز او الذرة اجتمع منه نحو الاربعين والخمسين وصعد كبيرها على شجرة لينظر الى كل جهة والبقية تدخل في الزرع وتجمع ما شاءت فاذا لمح الذي على الشجرة صاحب الزرع او غيره مقبلاً الى جهتهم على بعد صاح صيحة مهولة فياخذ كل واحد ما جمعه ويصعد به الى شجرة ولا يزال يثب من غصن الى اخر ومن شجرة الى غيرها واذا كان فيه انثى ذات اولاد اخذتها وصعدت بها كذلك وفعلت فعل البقية حتى تتخلص الجميع ولا يحصل صاحب الزرع الا على الاسف ولذلك كانت كراهة السودان لهذا النوع اشد منها لغيره

ونقل بعضهم عن اهل تلك الجهة ان القرَدة كثيرا ما تختطف بنات صغيرة في نحو تسع سنين من العمر وترفعها الى اعالي الاشجار وتبقيها عندها ويصطاد السودان من القرَدة في كل سنة عددًا

كثيرًا ويأكلون لحمها ومن طرقهم في اصطيادها من فوق الشجر
ان يخدشوا وجوهها بعصي او رماح طويلة فاذا فعلوا بها ذلك
تركت الاغصان التي هي متعلقة بها ووضعت يديها على محل الجرح
فتسقط على الارض فياخذونها وبالجملة فاستيفاء الكلام على هذا
الحيوان على مثلي متعسر وتفصيل انواعه وافعاله وطباعه غير
متيسر وما من احد الاّ رأى كثيرًا من افراده ويعلم هيأتها واشكالها
وبعض احوالها وانما اقول لحضرتكم ان الذي رأيته من عادتها
اللازمة لها ان افراد كل جنس منها تكون مع بعضها ولا تختلط
بغيرها ومنها نوع يعيش في الغابات ولا يفارقها وهذا النوع اسود
الوجه ما عدا الخد فانه ابيض وفي ذقنه شعرات قليلة كاللحية ولون
جسده يضرب الى الزرقة او البياض او يكون منقطًا بنقط زرق
او بيض او حمر ومنه ما نكون هائل المنظر والسودان ياكلون
لحمه فيجففونه ويدخلونه في طبخ الارز ويزعمون انه من احسن
الاطعمة وانت خبير بان مجرد منظره كافٍ في تغير المعدة ومنه
جنس يوجد في بعض اعضائه نوع شبه لاعضاء الآدمي كالوجه
والاذان والذراع وقصبة الرجل والكعب وغير ذلك وكثيرا ما
يرى ماشيًا على رجليه الخلفيتين منتصب القامة حاملاً لاثقال
عظيمة ويبلغ طول هذا النوع خمس اقدام وهو عبل الذراعين
ضخم الجثة قوي البنية الاّ انه قليل الاذى لين الجانب ياخذه بعض

الناس صغيرًا فيعوده على بعض الخدمة والعمل فيحمل آنية الماء على راسه منتصبًا ويدير الرحى ويملأ الاواني من ماء الابار والعيون والانهار ويشوي اللحم الى غير ذلك من خدم يعود عليها ويعلمها فيعلم ويعود على ما يراد منه من صغره ولا يؤخذ للتربية الاّ في صغره وهو في حال توحشه صعب الانقياد شديد القوة يغالب الرجل فيغلبه ويقلع عينيه ويفعل به افعالاً قبيحة تؤدي الى تلفه وكثيرا ما يقع بين القرَدة محاربات شديدة تؤدي الى قتل بعضها بعضًا

المسامرة الثالثة والسبعون

سنور الزباد

(من حكاية يعقوب)

وهناك من الحيوانات قط الزباد او سنور الزباد وقد يقال له قطة المسك ويوجد كثيرًا بين جبل (الاطلس) و (السينجال) وفي ولاية (ناطيا) من ارض الحبش وولاية (كوجا) فوق (سيالبونا) وقد اختلف الطبيعيون في صفة هذا الحيوان فزعم بعضهم انه نوع من الضباع وقال انه في شكل الضبع وقال اخرون انه في حجم الكلب وله خرطوم رقيق الطرف وفي عينيه واذنيه ضيق وله شوارب كشوارب القط وله ذيل غليظ يشبه ذيل الثعلب وعلى ارجله شعر طويل اسود وله في كل رجل خمسة اظافر سود مستقيمة حادة وهو من الحيوانات المفترسة وجرحه مضر

فاذا اراد الصيادون صيده حفروا له حفرةً في طريقه فيقع فيها فياخذونه ويضعونه في اقفاص من خشب ونحوه ويطعمونه لحما نيئًا قطعوه له قطعًا صغيرة ومادة الزباد من هذا الحيوان تجتمع تحت ذيله في غشاء كالكيس نحو ثلاث اصابع طولاً واصبعين ونصف عرضًا وداخله اغشية متعددة ومن داخلها تلك المادة ويوجد هذا الكيس في الذكر عند دبره وفي الانثى عند فرجها وفي الغالب يصاد هذا الحيوان في صغره فيوخذ ويربى وتؤخذ منه تلك المادة وكيفية اخذها منه انهم بعد ان يصطادوه يضعونه في شي كالقفص ثم يأتون اليه كل يومين او ثلاثة فيزعجونه بعصي او نحوها حتى ينزوي في ركن من اركان القفص فيقبضون على ذيله ويسحبونه من بين عيدان القفص بعنف وشدة فيمسك الحيوان برجليه الخلفيتين في القفص بكل قوته فعند ذلك يوضع تحت بطنه شي يمنعه الحركة وحينئذٍ يسهل اخذ المادة منه فياتون بشيء كالملعقة فيدخلونها في ذلك الكيس وياخذون ما تجمع من تلك المادة بالاتكاء على غشاء الكيس وغاية ما يستخرج من تلك المادة كل مرة درهم ونصف او درهمان وهذه المادة تكون في اول امرها بيضاء مشوبة ببعض زرقة ثم تشتد بياضًا ورائحتها على البعد الطف منها على القرب لانها اذا كانت قريبة كانت مصدعة لقوتها ولذلك كان تجار الاعطار يخلطون بهذه المادة غيرها فتعتدل رائحتها ومن هذا الحيوان في بلاد الفلمنك كثير ولهذا السبب كان اكثر ما

يجلب من الزباد الى بلاد الانكليز والفرنسيس وغيرهم وارداً من الفلمنك وغالب قوت هذا الحيوان عند من يصطاده البيض واللبن ويقولون انه اي هذا القوت يصفي بياض المادة المستخرجة منه ولذا كان المجلوب من بلاد الفلمنك اشد بياضاً من المجلوب من أفريقا واسيا لان قوته في هاتين الجهتين اللحم خاصة ويوجد هذا الحيوان ايضاً بكثرة ببلاد الهند الاّ ان ما يؤخذ منه لا يساوي ما يؤخذ من حيوان جهات الفلمنك لان زباد هذا اعلى وثمنه اغلى والمشتغلون بتجارته يرسلونه الى البلاد البعيدة فيربحون فيه ارباحاً كثيرة ومن يقتني هذا الحيوان في تلك الجهات ينفق عليه نفقات كثيرة وذلك لانهم لا يطعمونه الاّ لحم الدجاج والطير واوان اصطياده الصيف حين تكون اشجار الغابات كثيرة الاوراق ويبلغ ثمن الواحد منه نحو اثنى عشر شلينا انكليزية وغذاؤه في حال صغره ثريد يعمل له من لحم طير او سمك مطبوخ مع ذرة ويستحب اقتناء الذكور من هذا الحيوان على الاناث لان زباد الذكور احسن واجود فانه في الانثى كثيرا ما يصل اليه بولها فيغيره

المسامرة الرابعة والسبعون

الوصول الى باريس

قال ناقل الحديث فلما وصل يعقوب الى هذا الموضع من كلامه كانوا قد قربوا من مدينة باريس فقال الانكليزي انه يوجد في ارض افريقة وفي الجهات التي كان بها يعقوب غير ما ذكره حيوانات كثيرة هائلة الخلقة ومؤذية منها الافعى والتمساح وفرس البحر وانواع غيرها من الحيوان قد وصفها السائحون في كتبهم فمنها ما يسكن في البر ومنها ما يسكن في البحر ومنها ما يعيش فيهما جميعا وفيها من الاعشاب والنباتات ما ليس في غيرها وكنا نحب ان نسمع منه بقية ما شاهده هناك ورآه وما سمعه ممن اجتمع عليهم من اهل تلك البلاد ولكن حيث اشرفنا على باريس فنكتفي منه الان بما سمعناه ونستوفي الكلام في وقت اخر

فقال الشيخ لقد قطعنا الطريق بهذه المحادثات اللطيفة بحيث لم نشعر بطول المسافة واستفدنا في ضمنها فوائد كثيرة من معرفة احوال تلك البلاد وما فيها من انواع المخلوقات وغرائب احوالها وبودي لو عرفت ما حصل لاخت يعقوب بعد غيبته عنها وكيف كانت حالتها ومعيشتها بعده

فقال يعقوب ان قصة اختي كقصتي بل اغرب وغصتها بعد فراقي لها كغصتي واصعب وساشرح لكم ما قاسته بعدي من المشقات والمصائب وانواع المحن والشدائد حتى اضطرها الحال الى قطع النظر عما يستدعيه سنها من اللذات والشهوات الدنيوية فاعرضت عن الدنيا وما فيها ودخلت ديرًا من ديور الراهبات وترهبت فيه الى ان ماتت ولم ارَها وبينما هم في هذا الحديث واذا بالوابور وصل الى موقف سكة الحديد بباريس فنزلوا به وذهب يعقوب فاحضر لهم عربة فركبوا جميعا وساروا الى لوكندة قد سماها الانكليزي ليعقوب فاخبر بها العربجي فاوصلهم اليها بعد نصف ساعة فكان الشيخ مدة سير العربة ينظر الى ازدحام الناس في الطرقات وكثرة الدكاكين وحركة التجارة وهيئة المنازل وانتظامها ورونقها ونظافة الطرق وبهجتها ويتعجب في نفسه من حسن ذلك كله وكذلك ابنه كان لا يصرف نظره من شباك العربة حيث رأى بشوارع باريس احسن مما رآه سابقا بمدينة مرسيليا فلما وصلوا الى اللوكاندة نزل يعقوب من العربة واخذ بيد الشيخ فنزل وكذلك

نزل الانكليزي وبرهان الدين ودخلوا فقابلهم الخادم وذهب بهم
الى حجرات لائقة بامثالهم فلما اطمأنوا في مجالسهم امر الانكليزي
باحضار الطعام فاكلوا وشربوا القهوة وجلسوا برهة لطيفة في
محادثات خفيفة وكان ذلك قبيل الظهر فقام كل الى محله المختص
به ليزيل عنه اثر السفر ويخلع ما عليه من الثياب ويلبس ثيابا
اخرى وبالجملة قام الشيخ الى حجرته فاستراح ورقد برهة ثم قام
فتوضأ وصلى وغير ثياب السفر وكذلك فعل ابنه واختار برهان
الدين احسن ثيابه وقعد في انتظار يعقوب ليخرج للتفرج في المدينة
فلما علم والده منه ذلك قال له يابني ان خرجت الآن بهذه الهيئة
حدق الناس اليك بابصارهم واحاط بك كل من مررت به
من رجالهم ونسائهم واطفالهم وربما كان ذلك لأذيتك مانعا لك
عن بلوغ اربك فالاولى أن تصبر حتى نعرف رأي صاحبنا فهذه
بلاده وهو ادرى باحوالها ونحن فيها اغراب فقال برهان الدين
الراي ما تراه وسكت ثم حضر عندهما يعقوب وهناهما بالسلامة وقال
لها ان الانكليزي امره ان ينظر الشيخ هل قام من النوم وهل ينشط
لملاقاته فيأتي اليه ويسلم عليه ام يؤخر ذلك برهة فشكره الشيخ
واثنى على اخلاقه وذكر معروفه وقال له انه يحب ان يراه فليحضر
على الرحب والسعة ان احب فرجع يعقوب الى الانكليزي واخبره
بما قال له الشيخ فقام الانكليزي وحضر الى الشيخ فتلقاه بالترحب
واخذا يتجاذبان اطراف الحديث من بعيد ومن قريب فقال

الانكليزي ان هذه المدينة من احسن مدن الدنيا واعظمها لحسن
نظامها وكثرة ما فيها من المباني اللطيفة والاشياء الظريفة فان
استحسن الشيخ جعلنا لنا في كل يوم وقتا للتفرج عليها والوقوف على
كل شي على حدته واريد ان احصل رخصة للدخول في المحلات
الشهيرة التي لا يباح الدخول فيها الاّ بالاذن فقال الشيخ انت
ادرى ببلادك وانا على رايك ومرادك فما وافق اتيناه وما لم يوافق
ابيناه ولا ترى منا الاّ طاعة الرفيق الموافق للخل الصادق وعندنا
من الشوق الى معرفة احوال هذه المدينة العظيمة والوقوف على
احوال اهلها وتعرّف ما بها من الآثار الباهرة وروائع الصنائع
الزاهرة ما تشتد به حاجتنا الى استطلاع ما عندك واتباع رايك
والوقوف عند اشارتك لا سيما وقد رأينا من معروفك ومحاسن
اخلاقك واستفدنا من فوائدك ما نقدر قدره ولا ننسى اثره ولا
نهمل ذكره ونسال الله ان يتولى هدايتنا جميعًا الى طرق الرشاد
ويكافئك على حسن هذا الصنيع فهو القادر على ما اراد

فقال الانكليزي اني ارى من الواجب عليّ وجوب الفروض
اللازمة ان ابذل اقصى جهدي وغاية ما عندي في استجلاب رضاكم
وادخال السرور عليكم حيث كنت السبب في تغربكم الى هذه
البلاد ومفارقة الاهل والوطن والاولاد وتحمل متاعب السفر فلا
هم لي سوى الاشتغال بما يخفف عليكم مشقة الغربة وصعوبة الفراق
بالاطلاع على ما تحبون الاطلاع عليه من احوال هذه البلاد

وتحصيل ما يتعلق به اغراضكم ومقاصدكم وما يكون فيه سروركم وتنشرح به صدوركم فارجوك الاّ تحاشى من طلب شي تريده فذلك غاية مرادي وبغية فوادي وحيث كانت هذه بلادنا وانت فيها غريب فان رأيتم فيها شيئًا تحبون الوقوف على حقيقته فاسئلوا عنه فان كان عندي فيه علم ابديته لحضرتكم والاّ سألت عنه من يعرفه واخبرتكم به ونحن نحتاج الى الاقامة في هذه الحاضرة مدة من الزمان لقضاء بعض اغراض تلزمني فنصرف اوقات الفراغ من هذه المدة في التفسح في ميادين المدينة ومنتزهاتها والتفرج على مبانيها وعماراتها الشهيرة والمسامرة في احوالها وتواريخها وحوادثها القديمة والحديثة

فقال الشيخ لا عدمت معروفك وغاية مرادي ان اقضي هذه المدة في استفادة ما عساه يكون فيه منفعة اوطاننا وفي نيتي ان اكتب مجموعًا اضمنه كل ما اراه واستحسنه في هذه السياحة في كتاب ليكون تذكرة لي اذا عدت الى سكني وطرفة مجلوبة الى اهل وطني

فقال الانكليزي لا يخفى على حضرتكم ما حصل من اهل مرسيليا حين كنا بها من تجمعهم عليكم واحاطتهم بكم حين رأوكم في الهيئة المصرية فان كنتم تتضررون من ذلك فلا بأس بالتزيي بزي هذه البلاد مدة الاقامة بها لتتشبهوا باهلها وتختلطوا بهم

فقال الشيخ لا ضرر عليّ من تجمعهم بل ربما كان فيه فائدة

زائدة وذلك لاني اتمكن حينئذٍ من رؤيتهم والتامل في ذاتهم وهيأتهم والوقوف على احوالهم وعاداتهم على ان بقائي بهذه الهيئة ربما كان سببًا في الرعاية والتوقير اذ من العادة الجارية كثرة احترام الغريب وتوقيره والتجاوز عما عساه يحصل من تقصيره فالاوفق بنا البقاء على ما نحن فيه لا سيما ونحن اذا غيرنا هذه الملابس التي اعتدنا عليها من صغرنا ولم نعرف غيرها في عمرنا احتجنا الى مدة من الزمن للتعود على تلك الهيئة الجديدة واتقانها

قال الانكليزي ذلك اليك ونعم ما رأيت وما عرضت عليك هذا الامر الاّ لاني خطر ببالي ان ذلك ربما يكون من اغراضك فاسعى في تحصيله واذ لم ترد ذلك لنفسك فهل تأذن فيه لبرهان الدين

قال الشيخ امر برهان الدين اليه فنسأله عما يريد لنفسه وان كان بقاؤه على هيئته الاصلية احب اليّ فاني كلما رأيته تذكرت الوطن واهله وصرت كاني لم افارق وطني

فقال برهان انا ايضًا احب ان ابقى على هذه الهيئة ولا ضرورة لتغييرها اذ لسنا على نية التوطن بهذه البلاد ودوام الاقامة بها وانما نقيم فيها مدة يسيرة لا تحوج الى ذلك ولو غيرنا ملابس بلادنا في هذه الحاضرة للتخلص من تزاحم الناس علينا لزمنا لهذا الغرض ان نغيرها في كل جهة انتقلنا اليها فان الملابس والهيئات تختلف باختلاف الجهات

٥

فقال الانكليزي الامر اليكم واخبركم اني قد اكتريت عربة وجعلتها تحت امركم وخاصة بكم فمتى اردتم الخروج الى شوارع البلد او ظاهرها فمروا يعقوب ان يحضرها لكم فان لم اكن معكم لبعض موانع قد تعوقني عن الانتظام في سلك صحبتكم في بعض الاحيان فهو يلازمكم ويقوم بكل ما يلزم لكم ثم استأذن وانصرف الى حجرته وكذلك انصرف يعقوب الى محله وبقي الشيخ وابنه وكان الشيخ قد اعتراه بعض تعب من ارتجاج العربة وطول القعود بها فاحب ان يريح بدله فقال لولده اذا جاء الانكليزي وسأل عني فاخبره انني لا رغبة لي في الخروج في هذه الليلة ثم تحول الى فراشه لينام فقام ولده واغلق عليه الباب وذهب الى حجرته الخاصة به فلم يجد له صبرًا على المكث بها وحده خصوصًا وقد كان مغرمًا بسماع بقية حكاية يعقوب وبالتفرج على شوارع المدينة وما فيها فخرج من حجرته وذهب الى محل يعقوب وقال له ان الوالد كان وعد بالخروج في هذه الليلة ثم اثر الاستراحة بسبب ما وجد في نفسه من مشقة السفر فهل ترى ان نخرج وحدنا او نقيم الليلة فقال يعقوب لا ينبغي ان نخرج الاّ باذن فالصواب ان نصبر الى اخر النهار ثم نستأذن بعد الطعام ونتوجه اما الى التياتر واما الى البالو

فقال برهان الدين اما التياتر فقد رأيته وعرفته حين كنا بمرسيليا واما البالو فلا اعرفه فما هو.

فقال يعقوب البالو محل يجتمع فيه كثير من الرجال والنساء

يلبسون فيه احسن ملابسهم ويرقصون مع بعضهم على نغم الآلات
الموسيقية فقال برهان الدين لا بأس برؤية هذا المحل ولكن احب
في هذه الليلة الاقتصار على المرور في البلد ورؤية شوارعها ومبانيها
وفيما بعد اذا وجدنا فرصة حملنا الخواجا على الذهاب اليه وبوجهنا
معه فاتفقا على ذلك وانتظرا تحصيل الرخصة وانتهاز الفرصة ثم ان
برهان الدين قام من عند يعقوب ورجع الى مخدعه واخذ كراسة
وصار يكتب ما علق بذهنه مما حكاه يعقوب في اثناء الطريق وضم
الى ذلك ما حضره مما كان يشاهده بنفسه عند المرور ببعض
الجهات واستمر على ذلك الى قبيل الغروب ثم قام وتوجه الى محل
والده فوجده قائمًا يصلي فصلى خلفه فلما تمت الصلاة وما يتبعها
حكى له ما اتفق عليه مع يعقوب وطلب الاذن فأذن له واوصاه
ان يعود عاجلا ليريح بدنه كذلك من تعب السفر وقال له الايام
بيننا وما لم نره في هذه الليلة سنراه فيما بعدها فقابل قول والده
بالسمع والطاعة وعزم على الرجوع سريعًا بقدر الاستطاعة وحضر
الطعام فاكلوا وبعد ذلك خرج مع يعقوب الى شوارع البلد
ونواحيها

المسامرة الخامسة والسبعون

لمحة

في باريس

فعجب من حسن نظامها وكثرة العالم بها وسعة شوارعها وتنظيمها وحركة التجارة بها ومن زخرفة محلات التجار ونظافتها وحسن بهجتها وكان ينتقل من مكان الى مكان ومن دكان الى دكان ويقف عند بعض المحلات فيسرح فيها طرفه وينظر لما فيها من انواع البضائع النفيسة ويشرح له يعقوب كل ما سأل عنه من هذه البضائع ويذكر له اسمه ونوعه وجنسه والجهة التي يجلب منها وكانا كلما وقفا على دكان او خان احتاط بهما كثير من الناس من نساء ورجال ينظرون لهيئة برهان الدين وملبسه وكان هو ايضًا ينظر اليهم والى هيئاتهم وملابسهم ويقارن ما رآه هناك بما

كان يراه وهو بمصر فلم يجد بينهما نسبة وما زالا ينتقلان من دكان الى دكان ومن خان الى خان الى ان مضى عليهما من غروب الشمس نحو اربع ساعات ومع ذلك كان يرى العربات متوالية مع السرعة والكثرة بحيث كانا اذا ارادا الانتقال من محل الى غيره مكثا زمانًا طويلاً ينتظران فرجة يمرون منها ورأى ضوء المصابيح الغازية المنتشرة في الطرقات قائمًا مقام نور القمر او ضوء الشمس بحيث يمكن فيه قرأة الخط الدقيق ونقد الدراهم بغير عسر ولا صعوبة وكذلك رأى ضوء المصابيح الغازية في الازقة والحارات يزداد بما يصل اليها من ضوء مصابيح الدكاكين وغيرها لانه ما من دكان او محل قهوة او خان الا كان امامه عدة من المصابيح نحو الخمسة او الستة او اكثر فكانت اشعتها تنبعث امامها وتزيد البضائع الموضوعة خلف الزجاج حسنًا ورونقًا وكذلك كانت اشعتها تنعكس في المرايا المركوزة في الطرق كما ان هذه المرايا كان ينعكس فيها ايضًا صور كل ما قابلها او مر امامها من الناس والعربات وغيرها فيرى فيها الرائي صورًا مختلفة واشكالاً متنوعة فمضى على برهان الدين الزمن من غير ان يشعر وذلك لاشتغال حواسه بما كان يراه من الاشكال المتنوعة والصور المتجددة واستغراق خاطره في التامل والاستغراب والاستحسان لما يراه من حسن الرونق وانتظام المنظر بحيث يتخيل الرائي ان المدينة في زينة مرتبة بالخصوص لامر عظيم او موسم حاضر وكان كلما قطع مسافة رأى

فيما بعدها شيئًا لم يكن رآه وكان يتامل في الدكاكين وحواصل التجار ويعجب من حسن انتظامها وسعتها فيجد النسبة بينها وبين ما كان يراه في القاهرة منقطعة والمقارنة ممتنعة لانه رأى الدكان في باريس عبارة عن محل عظيم يشتمل على عدة محال بعضها من داخل البعض منها ما هو مفروش بالرخام ومنها ما هو مفروش بالبسط النفيسة ومنها ما بعضه من هذا وبعضه من هذا وابوابها محكمة التركيب مليحة الوضع مصنوعة من الخشب الثمين كخشب الجوز والبلوط والفرغاج ونحو ذلك مدهونة بالوان تسر الناظرين وتجذب قلوب المارين مقسمة بالواح الزجاج او البلور حتى لا يحجب شي ما بداخلها عن بصر كل من يمر بها والبضائع فيها مرتبة حسن ترتيب مضفوفة على الرفوف مع كمال الانتساق وحسن الوضع بحيث تستدعي لشرائها كل من يمر بازائها وفي كل دكان نساء حسان الوجوه متجملات باحسن الملابس والطف الهيئات مستعدات لعرض ما يلزم عرضه لو بيع ما يلزم بيعه فترى الشاري لا يضطر للوقوف في الطريق امام الدكان واطالة الكلام بغير طائل بل يدخل ويطلب ما اراد من البضاعة مع اللطف والادب وعدم رفع الصوت فاذا وقع الاتفاق على الثمن ادّاه واخذ ما اشتراه في ورقة او ربطة لطيفة تلفه فيها احدى النساء اللاتي في الدكان فان بدا له عدم اخذه معه واراد ارساله الى منزله فليس عليه الاّ ان يعرف البائع نمرة الدار ونمرة المحل الذي هو مقيم به

ثم يذهب الى سبيله ويصل ما اشتراه الى محله وفي هذه الحالة
لا مانع من دفع الثمن في الحال او ابقائه الى ان يرسله صحبة من
يذهب بالبضاعة لان ذلك امر جارٍ بينهم ومعتاد لهم وما زال
برهان يسير مع يعقوب ويتفرج وهو مبتهج بما يراه مشغول الخاطر
بالتأمل فيه ويعقوب يشرح له ويوضح الى ان وصلا الى باب كبير
فرأى امامه مصابيح كثيرة منورة بالغاز ومن داخل الباب زقاق
مستطيل اسفله مفروش بالرخام واعلاه مستور بالزجاج وفي
جانبيه دواليب مدهونة باحسن الالوان فيها نقوش لطيفة وصور
ظريفة ورأى في كل جانب خلقًا كثيرًا من رجال ونساء كلهم
مشتغلون بترتيب بضائع متنوعة يضعونها في صناديق وعلب كثيرة
وكان المحل يضيء بمصابيح الغاز المنتشرة في جميع ارجائه فمالت نفس
ابن الشيخ الى دخوله فدخله هو ويعقوب فوجداه ابهج من جميع ما
رأياه والطف وفي داخله طرق نافذة بعضها الى بعض فسلكا في
في احداها فوجد كل منهما صورته منطبعة امامه في مرآة مستوعبة
لجميع عرض الحائط وارتفاعه حتى يظن السالك انها نافذة وان
هذه الصور اشخاص تسير الى جهته فرجعا واخذا في مسلك اخر
ومنه الى غيره وكان في كل جهة دخلاها من هذا المحل جملة من
الناس يشتغلون بتصفيف البضائع وتنظيمها ووضعها في الصناديق
والعلب وكان كل من هولاء الناس ينظر اليهما مع السكون
والوقار من غير ان يفارق محله او يترك شغله ولم يريا هناك بيعًا

ولا شراء ولا اخذا ولا اعطاء فتعجبا من عظم هذا المحل وسعته وحسن زخرفته وارادا الرجوع من حيث دخلا فاخطأا الطريق وصارا يترددان من جهة الى جهة ومن طريق الى طريق ولا يعارضهما احد الى ان ظهر عليهما انهما اخطأا الطريق فتقدم اليهما فتى قصير القامة فحياهما باحسن تحية وكلمهما باللغة العربية وسألهما عما يريدان فقال له يعقوب ليس لنا غرض سوى التفرج وقد ضللنا الطريق ولا ندري كيف نخرج وقد تحيرت افكارنا لما شاهدناه في هذا المكان من كثرة اصناف التجارة فانا ما سلكنا في جهة من جهاته الاّ وجدنا فيها جماعة يشتغلون بترتيب اشياء من اصناف التجارة غير ما كنا رايناه من قبل فاي محل تجارة هذا

فقال الرجل هذا المحل قد بني في عهد قريب وهو خاص باثنين اخوين بني من مالهما فلما اكملا بناءه سمياه باسم مدينة باريس وجميع ما فيه من البضائع انما هو من مالهما خاصة لا يشاركهما فيه احد من الناس وفيه من جميع اصناف التجارة جليلها وحقيرها فلا يكاد يسأل الطالب عن شيء الاّ وجده فيه فمن ذلك الكشميري الثمين من شغل الهند واقمشة الحرير من عمل اهل الصين والهند والفرنسيس وغيرهم واقمشة الكتان والقطن على تعدد اشكالها وانواعها والبسط العجمية على تنوع اوضاعها وآنية الفضة والذهب وحلي الجوهر الى غير ذلك وهذه الانواع منها ما يباع على تجار البلد للبيع في داخل المدينة ومنها ما يرسل الى بلاد المشرق وبلاد

المغرب والترك واسيا الصغرى والكبرى وبلاد الغرب والاقطار
الحجازية وبلاد الانكليز وغيرها فما من جهة من هذه الجهات الاّ
ويرد لها من هذه الاصناف وكذلك هذه الجهات ترسل كثيرًا من
مصنوعاتها واصناف تجارتها الى هذا المحل وجميع من تراه هنا من
رجال ونساء انما هم خدم بمرتبات شهرية تصرف لهم من لدن
هذين الاخوين وعددهم مائة وخمسة وعشرون شخصًا وانا من
جملتهم وقد راٰكما احد الاخوين فارسلني اليكما لالازمكما واكون في
خدمتكما حتى تقضيا غرضكما وها هو قريب منا فان اردتما ان تجتمعا
عليه ذهبت بكما اليه فعجب برهان الدين من مقاله واثني عليه
وعلى صاحبه الذي ارسله واظهر علائم الشكر والابتهاج بصنيعه ثم
مشيا مع الفتى الى صاحب المحل فقام لهما واكرمها واجلسهما عنده
فشكراه واثنيا عليه وامر بالقهوة فشربوا ثم قال لهما لولا ضيق الوقت
لقمت معكما وطفت بكما على جميع مخازن الخان واريتكما ما فيها وقد
حضر وقت انصرافنا واغلاق المحل ولكن لا مانع الآن من ان
نريكما ما فيه من صنف الكشميري على حسب الامكان واذا
حضرتما في غدٍ اريتكما باقي مخازنه وما فيها فاعادا له الشكر والثناء
فقام معهما وتوجه بهما الى محل عالي البنيان منتظم الشكل مزخرف
الاركان في سقفه صور متنوعة ورسوم مختلفة وفي مداره من اعلاه
الى اسفله دواليب متقنة الصنعة كلها من خشب الجوز وارضه
مفروشة بالبسط النفيسة وفي وسطه مائدة (طرابيزه) كبيرة

مستديرة معلق فوقها تحفة من البلور الصافي النفيس موقدة بالشمع
الابيض النقي الطيب الرائحة ثم طاف بهما الرجل على جميع ارجاء
المحل وصار يفتح الادراج ويريهما ما فيها من قماش الكشمير
الخفيف الوزن الغالي الثمن فرايا كل واحد منها موضوعا على
حدته في ظرف محكم لحفظه ولكل نوع منها دواليب خاصة به على
حسب قيمته وجهة وروده وقد رأيا منها ما ثمنه قدر مائتي كيس
فاكثر فاستغرب بن الشيخ من هذا الثمن وقال في نفسه اذا كان
ثمن الواحد من هذا النوع هكذا فما يكون ثمن الجميع ثم ماذا يكون
ثمن البضائع الموجودة في هذا المكان وبعد ذلك فما يكون قيمة
البضائع الموجودة في غيره من محلات هذه المدينة ثم ماذا يكون
قدر اموال اهلها وما صرفوه في زخرفتها وبنائها ثم بعد ان اطلعهما
الرجل على جملة كثيرة من ذلك اعتذر لهما بضيق الوقت ووعدهما
بان يطلعهما على سائر ما في المحل ان حضرا بعد ذلك في سعة
من الوقت فاستأذناه للانصراف فشيعهما خطوات وضم اليهما من
مشى معهما الى باب المحل حيث دخلا فخرجا وركبا العربة ورجعا
وكان قد مضى نصف الليل فوجد برهان الدين والده قد اغلق
عليه باب مخدعه ونام فدخل هو كذلك حجرته ونام فيها الى
الصباح فقام وادى ما وجب عليه ثم ذهب الى والده ليقبل يده
فما استقر به المقام حتى اتى يعقوب وحضر الطعام فاكلوا ما تيسر
وجلسوا يتحدثون وحكى برهان الدين لابيه ما رآه في هذه المدينة

من فرط الانتظام والزينة وما يلوح عليها من علائم الفخار ومزيد الثروة واليسار وما حمله على العجب والاستغراب مما لم يكن له قبل في حساب فسر الشيخ بمقالته ورغب في ان يعلم طرفا من اخبار هذه المدينة وكيف كانت حالتها وتقلباتها في الازمان الماضية وما الاسباب التي اوصلتها الى هذه الدرجة من العز والرفعة والغنى والثروة

فقال يعقوب ان معلوماتي في هذا الامر قاصرة والاولى ان يؤخذ علم ذلك من الخواجا لاتساع دائرة معلوماته وكثرة اطلاعه على كتب التواريخ والسير

فقال ابن الشيخ قد توجهت الى محله لاسلم عليه فوجدته مشغولاً بشخص عنده فلما اردت الانصراف من عنده قال لي بلغ حضرة الاستاذ الوالد بان عندي شغلا ربما امتد الى وقت الزوال فاقرأ عليه السلام مني واعتذر له عني

فقال الشيخ عذره مقبول فان كان قد بقي عند يعقوب شي من خبره وما حصل له بعد فراقه لاخته فليحدثنا به لنقطع الزمن الى ان يقضي صاحبنا شغله وينتهي عذره ويأتي فنخرج جميعاً ونتفرج في شوارع المدينة

المسامرة السادسة والسبعون

الحيوان العجيب

(من حكاية يعقوب)

فقال يعقوب قد اخبرت حضرتكم اني لشدة شوقي الى اختي وما حصل لي من المشاق في البلاد التي وقعت بها كنت دائمًا اترقب فرصة الخروج من تلك الارض واخاف ان يطرأ حادث يعوقني عن رجوعي الى وطني الى ان نزلنا في السفينة وخرجنا وقد تألفت برجالها والفوني وكنت اساعدهم في اشغالهم بما عندي من المعرفة في صناعتهم فحصل لي منهم غاية الاكرام وكنت اخبرتهم بقصتي وما جرى لي ايام كنت صغيرًا الى ان صرت في يد هؤلاء القوم اسيرًا فعطفت قلوبهم عليّ وغمروني باحسانهم فكنت بينهم كواحد منهم كذلك مالت اليّ قلوب ضباط السفينة لما سمعوا

بما جرى لي لاني كنت تارة اقص ذلك على بعض الضباط وتارة
على الاحاد فلانت لي قلوب الجميع وساعدوني باموالهم من غير ان
يلزموني بشي من اعمالهم حتى ان القبطان الكبير لما علم بقصتي كتب
ورقة وصدرها باسمه ومن بعده جميع من كان بالسفينة من الضباط
وغيرهم ثم وضع امام اسمه ثلاثة جنيهات وكذلك جميع الضباط
والاحاد كل على حسبه فاجتمع لي من ذلك خمسة وثمانون جنيهًا
انكليزيًا وبعض ثياب فلما رأى ذلك السائح الذي كنت بصحبته
هذه الورقة وما فيها اخذها وأكملها من عنده مائة ووعدني انه
عند وصولنا يوصلني الى بلدي على نفقته وان يكتب الى احد
روساء بلدي بالوصية عليّ لينظر لي طريقة اتعيش منها انا واختي
فشكرت الجميع على صنيعهم واقمت مكرمًا بينهم لا اجبر على عمل
ولا ازعج من محل الى محل ولكن كنت في بعض الاوقات اذا رأيتهم
في ازدحام اقوم من نفسي واساعدهم ثم نجتمع فيحكي كل منا ما عنده
من غرائب الاخبار فبقينا كذلك ثلاثة ايام وكان الهواء فيها مساعدًا
لنا وكان سير المركب مع سرعتها في غاية الانتظام الى ظهر اليوم
الرابع فما نشعر الاّ واحد الملاحين قد اتى الى القبطان وكان
جالسًا في حجرته واخبره ان احد روساء المركب رأى شيئًا على وجه
الماء من بعد فقام بسرعة واخذ نظارته لينظر بنفسه وقمنا نحن جميعًا
ننظر الى ذلك الشي فرأيناه يلوح من بُعد ولكنا اختلفنا في تعيينه
فمنا من كان يقول انه زورق ومنا من كانِ يقول انه رمة حيوان

ومنا من كان يزعم انه حشيش جمعه الموج والقبطان ناظر اليه بنظارته لا يتكلم بشي وبعد ذلك التفت الينا وقال انه حيوان يجري له ارجل يحركها ولكن لم اتحقق ما هو وكان ذلك السائح الذي كنت بصحبته قد بلغه الخبر فحضر ونظر بنظارته مثل ما نظرنا ثم قال ان الشي الذي ترونه حيوان عجيب الشكل مهول الخلقة وقد بالغ في وصفه جميع الملاحين والمؤرخين والسياحين ولغرابته وعجيب خلقته كان بعض اهل التاريخ الطبيعي ينكره ويقول ان جميع ما قيل فيه اوهام لا اصل لها فلما سمع القبطان منه ذلك قال لعله ذو الثمانية الارجل الذي تخافه الملاحون فقال نعم هو ذاك وعند ذلك امر القبطان رجاله بتوجيه السفينة نحوه وحضهم على الاستعداد له بالسلاح والمزاريق والكلاليب والاوهاق (الخيّات) فاعد كل منهم ما عنده من هذه العدة فما استعدوا الاّ وقد خرج الريح واختلف وتموج البحر وعلا موجه ومع ذلك لم نزل نرى ذلك الحيوان يسبح على وجه الماء وكأنه يريد الفرار منا لاننا كلما قربنا منه نراه قد بعد عنا ولكن مع البطئ والتأني فلما تمكنوا منه ضربوه بالبارود فاصابه نحو عشرين رصاصة فلم يظهر فيه اثر ولم يتحول من مكانه وكانها لم تصبه ثم رموا عليه الكلاليب والاوهاق فتعلق بعضها بجسمه فارادوا ان يزيدوا في عددها ليتمكنوا من ضبطه فتقلبت السفينة من شدة الموج فانفلت وغاص في جوف البحر ولم يظفروا منه الاّ بقطعة من ذنبه بقيت في وهق (خية) .

من الاوهاق التي القوها عليه فعزم الملاحون على القاء الزوارق في البحر ليحيطوا به ويصطادوه فنهاهم القبطان عن ذلك خوفًا عليهم وهذا الحيوان على حسب ما شاهدته يبلغ طول جسمه قريبًا من ستة امتار وكذلك كل رجل من ارجله الثمان ولونه احمر كلون الآجر وجثته منتفخة من جهة وسطه وله عينان كالطبق مستويتان لا يظهر فيهما تحديب ولا حركة ويظهر لهما لمعان يرى من بعيد وكان في اثناء اشتغالهم بصيده يقذف من جوفه دمًا ورغوة ومواد تشم منها رائحة مسكية وبعد ان انفلت منهم صار يغطس بجانب السفينة من جهة ويظهر من جهة غيرها فيحصل للسفينة تموج اشبه بما يحصل من اشتداد الريح ولم ينقطع ذلك الاّ بعد ان بعدت عنه السفينة بقدر ميل في البحر وقد وزنوا القطعة التي وصلت اليهم من ذنبه فكانت اربع عشرة اقة فاعتبروا بنسبتها جميع هذا الحيوان فقدروه بنحو ستين قنطارًا وقد وصفه السائح الذي كنت بصحبته فقال انه حيوان كالقربة المملوءة ويتشكل في صور متعددة فتارة يكون في هيئة البيضة وتارة يكون كروي الشكل وتارة يكون مستطيلاً وله راس غليظ وعيناه متسعتان في استواء يرى في اعلى راسه شي صلب مجوف كالقرن هو فمه وله على سطح لسانه شبه الشوك وفكاه راسيان وله ارجل ثمان او عشر اصولها منضمة الى بعضها حول فمه في هيئة التاج وفي ظاهر كل منها صفان من الصمامات متوازيان كل صمامة كالفنجان اسفلها يتحرك باختيار

الحيوان فاذا اراد ان يقبض على شي الصق رجله او بعضها به فلا يتخلص منه وذلك لان تلك الصمامات اذا باشرت شيئًا من حيوان او غيره كان الغشا الذي في اسفلها اولا قريبًا من الحرف الاعلى ثم يسقط الى اسفل فيتكون من ذلك فراغ خال من الهوا كما يحصل في قرن الحجامة فتعلق بذلك الشي وتلصق به وتمسكه فاذا كان عدد الصمامات الماسة للشي كثيرة كانت قوة الالتصاق والتعلق به وامساكه عظيمة بحيث لا يتأتى فصل ذلك الشي عنها وبهذه الكيفية يتحصل على غذائه من الحيوانات البحرية فيأخذها برجليه ويوصلها للقرن الذي في اعلى راسه وهو فمه كما ذكر فيقطعها به ثم ياكلها وكأن هذه الارجل لم تكن الاّ آلة للتخويف وللقبض بها واما كيفية تنفسه وحصوله على الهواء اللازم له فهو ان يدخل قدرًا من الماء في خياشيمه فتنقبض الخياشيم فيدخل الماء في مجرى موجود في راس الحيوان بين العينين وبعد ذلك تعود الخياشيم الى ما كانت عليه فيخرج الما ثم يأخذ قدرًا جديدًا من الماء ويفعل به كذلك وهكذا وبهذه الكيفية يحصل له استنشاق الهواء وهذا الماء الخارج يسقط بقوة فيدفع الماء الراكد حوله فيندفع الحيوان الى جهة امامه وهي الجهة المقابلة لاتجاه الماء المقذوف فيسهل عليه بهذه الطريقة قطع المسافات البعيدة ولذلك لما رأى المتقدمون شكل هذا الحيوان وعلموا سبب اندفاعه الى جهة الامام ارادوا محاكاة ذلك في سير السفن فعملوا في بعض السفن مجاري مجوفة متسعة

يجري فيها الماء فيملأها وسلطوا عليها طلنبة تجذب هذا الماء وتقذفه الى خلف فتندفع السفينة الى الامام الاَّ انهم لما رأوا كثرة المصاريف في ذلك تركوا هذه الطريقة وهجروها وما يشاهد من هذا النوع بسواحل اوروبا وان تعددت اشكاله ليس شيئًا بالنسبة لما يشاهد في البحور العميقة على ما نقله السائحون والملاحون وقد ذكر هذا الحيوان بعض الاقدمين (كارسطو وبلين) وغيرهما ووصفوه بصفات هائلة كان المتأخرون ينكرونها الى ان عثر به الملاحون في زمننا هذا فاصطادوه ونقلوه من جهة الى جهة فصار امرًا مشهورًا معدودًا من انواع المخلوقات بعد ان كان يعد الكلام فيه من الخرافات وحكى (تريبوس) في بعض كتبه ان حيوانًا من هذا الجنس كان يخرج من البحر في جزيرة (كاريتافيا) جميع ما اصطاده الصيادون في يومهم فانهم كانوا يضعون كل ما اصطادوه في مناشر جهة البحر فيخرج هذا الحيوان كل ليلة فياكله ويعود الى البحر وهكذا كان دأبه معهم كل ليلة حتى احرمهم ثمرة تعبهم فلما اشتد ضررهم منه نصبوا حول هذه المناشر خشبًا احاطوها بها فلم تفد شيئًا لانه كان يصعد على شجرة قريبة من المناشر ثم ينزل بها فاقام ذلك الحيوان معهم على ذلك الامر مدة الى ان اطلعت عليه الكلاب ليلة فهجمت عليه ومنعته من العود الى البحر وجاء الحرس فضربوه وصار هو يدافع عن نفسه ويضرب بارجله فما زالوا به الى ان مات ففاح منه رائحة كريهة فعجبوا من خلقته وغريب صفته لانهم كانوا لم يروه

قبل ذلك ثم انهم بعد قتله حزوا رأسه فكانت في حجم البرميل الكبير وقاسوا رجليه فوجدوا طول كل رجل ثلاثين قدمًا وغلظها بقدر ما يملأ حضن الرجل ووزنوا ما بقي من جثته فكان سبع مائة اقة وهذا النوع قد يعتريه في البحار الكثيرة الصخور والاحجار ما يعوقه عن الحركة ويسوقه الى التهلكة وذلك ان تدخل رجل من ارجله بين الصخور فتعلق بها ولا يمكنه ان يستخلصها وكلما حاول تخليص رجل علقت غيرها فيقف عن السير ويبقى على هذه الحالة الى ان يموت وينتن وعند ذلك تفوح له روائح كريهة يشمها اهل تلك الجهة من عدة فراسخ فاذا شموها خافوا على انفسهم من الوباء لشدة نتن تلك الرائحة ولكنها لا تطول مدتها فان الامواج تقطع الحيوان وتقذف بقطعه الى جهات بعيدة حتى لا يبقى لرائحته اثر وهذا النوع وان كان يوجد في كثير من الجهات الا ان اكثر وجوده بالارض الجديدة وهناك يصطادون منه كل سنة شيئًا كثيرًا يدخلونه في ماكلهم واهل الجهات الشمالية جميعًا يقولون ان الصيادين عندهم اذا خرجوا للصيد في ايام الحر وبعدوا عن شاطئ البحر بعض اميال يرون في بعض الاحيان نقصان عمق الماء من تحت زوارقهم بغتة حتى ينزل الى نحو ثلاثين باعًا بعد ان كان ثمانين فاكثر فيستدلون بذلك على وجود هذا الحيوان ويتحققون انه بين الزورق وبين قاع البحر ويكون ذلك علامة عندهم على وجود كثير من السمك في ذلك المحل فعند ذلك

يلقون سنانيرهم وآلة صيدهم ويغتنمون منه مغنمًا عظيما فاذا اخذ الارتفاع في النقص علموا ان هذا الحيوان يريد ان يظهر على وجه الماء لاجل ان يستنشق الهواء فياخذون في الفرار منه بغاية السرعة فاذا بعدوا عنه ونظروا رأوه قد ظهر على سطح الماء وغطى مقدارًا من البحر بقرب من ميل ونصف ميل ويرون كثيرًا من السمك يتواثب على ظهر الماء وهو في هياج عظيم واضطراب كثير ويرون ارجله قائمة مثل اعواد الشراعات وهو في غاية الصلابة والقوة حتى انه يقدر ان يحضن السفينة بين رجلين من ارجله ويقلبها في قاع البحر فاذا اراد ان ينزل كان للبحر عند نزوله دوامات وامواج عظيمة حتى انها لو صادفت سفينة لاغرقتها وقد ذكروا في هذا الحيوان كثيرًا من الغرائب والعجائب وان كان اكثرها لا يخلو عن بعض الغلوّ حتى قال بعضهم ان الواحد منه قد يكبر حتى يكون كالجزيرة

فقال القبطان قد حكى لي قبطان امريكاني حكاية غريبة تتعلق بهذا الحيوان فقال كنت ذات يوم في بعض سياحاتي في جهات الهند قريبًا من سواحل افريقا عند جزيرة (سنت هيلينة) فسكن الهواء سكونًا تامًا فلم يمكن المسير فاقمنا هناك ثلاثة ايام ننتظر هبوب الريح وكان قد مضى على المركب مدة ونحن في غفلة عن تنظيفها فلما طالت اقامتنا في ذلك المكان نصبنا السقايل على جوانبها ونزل العمال عليها لاجل تنظيفها واذا بصياح من ناحية

من نواحي المركب فذهبت لاعلم الخبر فوجدت هذا الحيوان قد اختطف رجلين من فوق السقالة باحدى ارجله وانزلهما الى قاع البحر ومد الاخرى لياخذ بها ثالثًا كان قد صعد الى الشراعات فاصابته رجل الحيوان عند وصوله الى اول القماش ولكنها تكلبت في حبال الشراعات فلم يتأت للحيوان تخليصها وبقي الرجل معلقًا بها وهو يصيح ويستغيث من شدة الالم فقام من في السفينة الى السلاح والسنانير والفؤس والحبال وآلات الصيد وبادر بعضهم الى قطع رجل الحيوان المتعلقة بالرجل فسقطت ووقع الرجل مغشيًا عليه فلم يمكث الاّ قليلاً ومات ثم حمل باقي الجماعة على الحيوان بالسلاح والحراب والسنار فاصابه كثير منها وكانوا كلما رأوه ينزل الى قاع البحر يطاولون له الحبال ثم يجذبونه الى اعلى واستمروا على ذلك مدة ثم هبط الحيوان دفعة واحدة فانفلت من ايديهم وانقطعت منه قطعة عظيمة بقيت في الحبال وقد قاسوا ما قطع من رجله فبلغ طوله خمسًا وعشرين قدمًا في غلظ نصف متر ونسب ما بقي من رجله الى ما قطع فقدرت على هذه النسبة رجله باربعين قدمًا تقريبًا في غلظ متر عند راسها

قال يعقوب فاعتراني مما شاهدته وسمعت به ما لا مزيد عليه من القلق وبقيت طول النهار في وجل فكنت كلما رأيت موجة على بعد ظننتها حيوانًا من هذا النوع وانه يجري خلفنا ليدركنا فاشتد خوفي وفزعي وكان الملاحون يضحكون مني ويسخرون بي

لكثرة اعتيادهم على اهوال البحر وعجائبه وقلة معرفتي بذلك فكنت اتخيل انه ليس في المخلوقات اعجب من هذا الحيوان وصورته وكانت صورته مرسومة دائمًا في مخيلتي لا تفارقني في ليل ولا نهار وربما كنت اراه في النوم فاقوم من نومي فزعًا مرعوبًا فلما رأى ذلك السائح ما بي من الكآبة رثى لي واخذته الشفقة بحالي واخذني بجانبه وصار يسليني ويذكر لي نوادر وحكايات ليزيل بها ما في وهمي الى ان قال لي الا تعلم ان عجائب البحر اعظم من عجائب البر واكثر وما نظرته او سمعت به ليس شيئًا بالنسبة لما لم تره ولم تسمع به

المسامرة السابعة والسبعون
حية البحر والهائشة
(من حكاية يعقوب)

ومن اعجب حيوان البحر وحينانه (البال) المعروف بالهائشة واعجب منه حية البحر وكل ما في البر والبحر من حيوان ليس باعجب من نوع الانسان حيث كان بتدبيره وقوة عقله لا يغلبه شي من ذلك كله مع صغر جثته وضعف بنيته فتراه يحتال على اعظم حيوان حتى يقع في قبضته ويدخل تحت تصرفه فيفعل فيه ما شاء متى شاء فقلت له ما هذه الهائشة وما حية البحر فقال اما حية البحر فقد كثر كلام الناس فيها قديما وحديثا ولغرابتها وبشاعة صورتها كان منهم من يقول بوجودها ومنهم من ينكرها مع انها مذكورة في كتب كثيرة قديمة وحديثة وقد ذكر لها حكايات غريبة

ونوادر كثيرة واقدم ذلك ما ذكر في التوراة من ان (ليفا طان)
وهو الثعبان البحري له اسنان مفزعة وعلى ظهره قشور كبيرة كالدرق
بعضها فوق بعض وعيناه براقتان كانهما يرميان بالشرر واذا فتح
فمه خرج منه لهب وكذلك انفه اذا تنفس ظهر منه شرر لم تكن
تؤثر فيه الاسلحة التي كانت مستعملة في الازمان القديمة كالسيف
والمقلاع والنشاب وعند ظهوره يحدث للماء دوامات وتموج عظيم
ويرى الماء كانه يتلهب وقد وصف هذا الحيوان بعض المؤلفين
بانه يقدر على ان يبتلع الفيل واكثر وجوده في بحر الهند ويبلغ طوله
عشرين ذراعا ويعبر بحر الهند سابحا واذا مر في بعض سياحته على
بعض الجزائر فزع اهلها منه وخافوا خوفا شديدًا ولم تشتهر معرفته
والعلم بوجوده الاّ في سنة ١٧٥٢ للميلاد الموافقة لسنة ١١٦٦ للهجرة
بناء على ما نقله السائحون والملاحون عن اهل البلاد الشمالية
كسكان (السكنديناوة) وغيرهم وقد قالوا انه نوعان احدهما لا
يعيش الاّ في البحر والاخر يعيش في البر والبحر وهذا الاخير يبقى
في البر الى ان يكبر ويعظم جسمه فتعسر عليه الحركة خارج الماء
لثقل جثته فاذا رأى من نفسه ذلك تحول الى البحر ليقيم فيه وعند
ذلك يسمع لمشيه بين الاشجار والغابات صوت من مسافة بعيدة
فيدك كثيرًا من الشجر والمباني التي يمر عليها في طريقه الى البحر
وزعم بعض السائحين ان هذا الحيوان يخرج بالليل الى السواحل
الصخرية ويأخذ مما يصادفه من السفن كل ما قدر عليه وحكى

بعض الملاحين انه رأى بقرب بعض الجزائر ثعبانا من هذا الجنس
يسبح فوق الماء كما يزحف الثعبان البري على الارض ويغير ثوبه
مثله وان طوله خمسون قدما وجميع ما قيل في هذا الحيوان يدل
على ان راسه كراس الفرس وانه يقذف من انفه ماء فيرتفع الى
الجو ارتفاعا عظيما ولا يرى هذا الحيوان في الغالب الاّ اذا كان
الهواء ساكنا والجو معتدلاً واهل (نرويج) يقولون ان هذا الحيوان
قد يهجم على السفن فيغرقها بثقل جسمه ثم يلتقط رمم الغرقى من
الماء وبعضهم يقول انه اذا قرب من السفينة يرفع راسه من الماء
الى اعلى السفينة ويلتقم بفمه من اراد ممن يراه على ظهرها وانه يفر
من رائحة المسك ولذلك يضعون فوق مراكبهم شيئا منه فلا يقربها
وفي شهر اغسطس سنة ١٨١٧ للميلاد وسنة ١٢٣٣ للهجرة وصل
الخبر للمجلس العلمي بجهة (ايتازوبي) من جهات امريكا بظهور
حيوان بحري عظيم الخلقة بشع المنظر يشبه الثعبان في شكله
وحركته ظهر عندهم على بعد ثلاثين ميلاً من ناحية (بوستون)
فانتدب من الجمعية بعض اعضائها لمشاهدة ذلك الحيوان والوقوف
على حقيقته وشرح ذلك في تقرير يعرض على المجلس فتوجهوا الى
تلك الناحية وكتبوا تقريرًا بما شاهدوه يتضمن انهم رأوا هذا الحيوان
فوجدوا طوله مائة قدم وقطره عشر اقدام وحركته سريعة وانه
تارة يسير على استقامة وتارة يسير بانعطاف ويكون راسه في
الغالب مرتفعا عن الماء بقدر قدمين وانه يخاف من الآدمي ولم

يعهد منه اذى لاحد ولا ياتي الى البر الاَّ لخلع ثوبه فاذا خلعه عاد
سريعًا الى لجة الماء وفي الجهات الحارة كثير من حيات الماء غير
هذا الثعبان الهائل وكلها شكله مستدير وله اذيال مفترشة يستعملها
في سباحته كالمجذاف واما (البال) المعروف بالهائشة فهو اكبر
الحيوانات على الاطلاق برّيها وبحريها وحشيها وانسيها وهو انواع
منها ما جلده املس وما ليس كذلك ومنها ما له اجنحة وما ليس
له ورأس الجميع كبير مستطيل وفمه كمحل متسع مفتوح من الامام
منطبق من جهة الخلف وفي ناحيتي الفم من اعلاه مكان الاسنان
صفان من صفائح فوق بعضها قرنية المادة سوداء اللون تفصل عن
بعضها وتباع لاغراض مختلفة وطرفها الداخل ملتصق بمادة خيطية
موجودة داخل الفم واما فكه الاسفل فمجرد من الاسنان والصفائح
وله شفة عريضة سريعة الحركة عرضها بقدر تلك الصفائح فاذا
كان الفم منطبقًا غطت المسافة التي بين الصفين فاذا تدلت ظهر
عند ذلك فتحة كبيرة فيدخل فيها جزء عظيم من الماء ومعه بعض
حيوانات صغيرة ثم يخرج الماء من بين هذين الصفين وتبقى جميع
الحيوانات التي كانت بالماء عند دخوله كالسمك الصغير والمحار
فيكون منها غذاوه واما الحيوانات الكبيرة فانها اذا رات تموج الماء
الداخل في فمه هربت وبعدت عنه وانفه في اعلى راسه وفيه خروق
فاذا اراد استنشاق الهواء دخل معه من تلك الخروق مقدار من
الماء فيجتمع في محل مخصوص من جهة الخلف وحين يكون في

جوف الماء تصيق مجاري حلقه فلا يصل الماء الى رئته فاذا اراد اخراج الهواء الفاسد ضغط على مخزن الماء فيخرج ما فيه من الهوا ومعه بعض ابخرة مائية ولهذا يرى دائمًا من جانب راسه خيطان من الماء مرتفعان الى الجوّ كالعامودين ولكون غذائه لايكون الا من حيوانات صغيرة اقتضت الحكمة ان يكون حلقه ضيقًا بخلاف فمه فانه واسع جدًّا ومن هذا يعلم انهُ لاصحة لما قيل من ان هذا الحيوان قد يبتلع الرجل ولكن لا يخفى ان عادة الناس لاتميل الا لسماع المستغربات فكثيرا ما يمزجون المبالغة والكذب بالحقيقة ويخلطون بعضها ببعض ويصفون الشيء الغريب باغرب مما هو عليه وان كان لا اصل لهُ وتارة يجعلون لهُ مقادير فاحشة تزيده غرابة على غرابته وتمنحه من الشناعة والفظاعة فوق ما يستحقه باصل خلقته اغراقًا في الوصف واغرابًا في القول فان كان المتكلم ممن يوثق بهِ اخذ الناس قولهُ بالقبول من غير مناقشة ولا بحث فيجري على الالسن حتى يملأ الارض وينتقل من جيل الى جيل فمن ذلك هذا (البال) فانه لما كان اكبر الحيوانات جعل له اغرب الصور واكبر المقادير فتارة جعلوا طوله تسعمائة قدم وتارة جعلوه اكبر من ذلك حتى قال بعضهم ان سفينة قد سارت بجنبه ثلاثة ايام ما بين راسه الى ذنبه وقال بعضهم ان الدنيا كلها على ظهر هائشة تتحرك بحركتها وتسكن بسكونها وجعل ذلك سببا لوجود الزلازل التي تحدث فيها وبعضهم يزعم ان الشيطان كان لامها على تحملها هذا

الحمل الثقيل فهمت بالقاء الدنيا من فوق ظهرها فامرها المولى باستمرارها على ما هي عليه ومن مبالغة الصينيين في شانها قولهم انها اذا تحركت في البحر ظهرت حركتها في اربعمائة وثلاثة وثلاثين فرسخا بحريا وانها اذا انتهت في الكبر وتقدمت في العمر صارت كالجبال العظيمة الشاهقة وقال بعضهم انها تحب من انواع السمك الطوبار والبوري والبقر البحري فتتبعها في سيرها فتقع بين تلال الرمال عند نزول البحر فلا يمكنها التخلص فاذا تحركت فرقت الرمل وجعلته في جنبيها كالجبال فيشعر بها اهل تلك الجهة فياتون اليها فيقطعونها وزعم بعضهم انها تقصد السفن فتهشمها بين فكيها وتاكل ما بها الى غير ذلك مما لا يعول عليه ولا يصغى اليه وكذلك قول بعضهم انها قد تقف في جهة من البحر مدة فيتراكم فوق ظهرها كثير من الطين والرمل وزبد البحر حتى تكون كالجزيرة فترسو عليها المراكب ويقيم اهلها على ظهرها اياما وليالي وهم لا يشعرون بها والصحيح من ذلك كله ان طولها خمسة وثلاثون مترًا ولها اجنحة فوق ظهرها تعوم بها وراسها عظيم جدًّا وعيناها بالنسبة لراسها صغيرتان جدًّا واذنها لا ترى الاَّ قليلاً وفي فكها الاعلى من خمسمائة صفيحة الى ستمائة وجلدها صلب املس ليس به قشر وتحته دهن في سمك قدم فاكثر ويعمل من صفائح الفك الاعلى عمد الشمسيات والصدور التي تلبسها نساء الافرنج

قال الشيخ ما ذكرت من ان طولها يكون خمسة وثلاثين مترًا

على الصحيح يقرب مما قاله الدميري في حياة الحيوان فقد قال ان
طولها يبلغ خمسين ذراعًا وقد قرأت في بعض الكتب المترجمة من
اللغة الانكليزية ان طولها في البحر الشمالي يبلغ نحو تسعين قدمًا
وهناك يعتادها الصيادون كل سنة ويصطادونها فاما في المحال
التي تعيش مطمئنة تامة الحجم فينيف على مائة وخمسين وان رأسها
عبارة عن ثلث طولها وعيناها في جرم عين الثور ولكنها في قفاها
فتمكن لها رؤية الاشياء من الخلف والامام وذنبها هلالي فاما لونها
فليس على نمط واحد ففيه اختلاف عظيم ربما كان سببه السمن
او غيره ومن طبع هذا الحيوان ان لا يطمع لغير زوجه ولا تمنعه
مخالطته ومجانسته مع الغير عن الاقتصار عليها ثم انه وان يكن
اكبر جميع الحيوانات الاَّ انه اودعها واهدأها جاشًا وبسالته انما هي
في الدفاع عن نفسه وعن ذويه وله اعداء كثيرة تتعرض له وتقصده
فقد يلتصق به نوع من السمك صغير له جلد صدفي فيرتفع في
شحمه واخر يسمى السمك السائف وهو ايضًا اعظم داهية عليه بعد
الانسان وربما سلم من مكر خصمائه المائية باعمال القوة او بالهرب
فاما من ابن آدم المسلط على جميع المخلوقات فهيهات له ذلك فانه
يتبعه بحيلة وتصرف ناجح يستحثه على ذلك طمع التجارة فيه او سد
خلة المعيشة وقد علم بالتحقيق انه يتأهب في كل سنة عدة سفن
لصيد هذا الحيوان في شطوط (كرتيلاند) وفي البحر الجنوبي
فينشبون فيه نحو كلاب مربوط فيه حبل فاذا احس بالجرح جرى

مسافة طويلة فيتركونه ريثما يتنفس ما شاء ثم يرمونه بكلاب اخر الى ان يكل ويبلغ منه الالم ويسيح منه الدم فيؤخذ حينئذٍ ويقطع منه دهنه ويوضع في براميل ثم يذاب ويجعل زيتًا يدخل في عمل الشمع واجزاء الدباغة وصناعة بعض الثياب والظاهر ان له مدخلا عظيمًا في التجارة

فقال يعقوب كانت التجارة فيه واسعة فيما سبق لكثرة وجوده اذ ذاك ثم لم يزل يتناقص ويغلو ثمنه شيئًا فشيئا الى الآن وكان المتحصل من هذا الزيت سنة ١٨٥٩ للميلاد وهي سنة ١٢٧٦ للهجرة الفين وثمانية وسبعين برميلا وفي التي بعدها الفا وتسعمائة وفي التي بعدها الفا وسبعمائة فترتب على هذا النقص افلاس شركات كومبانيات عديدة كانت مقتصرة على التجارة في هذا النوع وهذا النقص انما حصل من قلة وجود هذا الصنف فقد علم من الاخبار المحفوظة ان الذي اصطاده الصيادون منه في سنة ١٦٩٧ من الميلاد نحو الف وتسعمائة وسبعة وخمسين والذي اصطيد من سنة ١٧١٩ الى سنة ١٧٧٨ منه نحو ستة الاف وتسعمائة وستة وثمانين ومن سنة ١٧٨٤ الى سنة ٢٨٤٠ نحو ثلاثة الاف واربعمائة ومن هذا التاريخ الى سنة ١٨٥٦ للميلاد وهي سنة ١٢٧٣ للهجرة لم يضبط الا ثلاثة الاف فقط ومن هذا يعلم السبب في تناقص كمية هذا الزيت في كل سنة عن السنة التي قبلها وهو السبب في غلو سعره ففي سنة ١٨٢٠ كانت اقة الزيت منه تباع بستين سنتيما

واقة صفائح الاسنان اذا كانت على حالها الاصلي بثلاثة من صنف
الافرنك ونصف واذا كانت مقطعة قطعا بعشرة منه وبلغت اقة
الزيت في سنة ١٨٦٣ افرنكا واحدا وثمانية عشر سنتيما وثمن الصفائح
غير مقطعة ثلاثة عشر فرنكا والمقطعة مثلها ومقدار ما دخل في
سنة ١٨٦٣ من صفائح الاسنان تبلغ قيمته مليونين من الافرنك
تقريبا ولحمه يوكل بل هو مرغوب جدًا عند بعض سكان الجهات
الشمالية وبينه وبين لحم البقر قرب في الطعم والعادة ان ينضجوه
في الماء بعد تقطيعه وجميع اهل اوروبا ياكلونه ولكن على حسب
ما اعتادوا في ذلك فمنهم من يضيف له الحمص او غيره حين الطبخ
ومنهم من يقليه في الزيت

قال يعقوب وحين كنا نخوض في حديث (البال) كان بالقرب
منا رجل من ضباط المركب عمره يقرب من اربعين سنة وله علم
باحوال البحر والصيد كان يسمع حديث السايح بتمامه فلما فرغ
السايح من كلامه دنا منا وقال ان اصطياد الهوائش من البحر
اصعب شي ويحتاج الى عدد واحتراسات وقوة وجرأة وصبر على
اهوال البحر وشدائده وكان يسافر في الزمن السالف لصيد الهوائش
مراكب عديدة من جميع جهات اوروبا ويجتمع منها في الجهات
الشمالية المتجمدة اساطيل عظيمة وقبل وجود السفن البخاريه لم
يكن الا سفن الشراع فكانت مدة الصيد ذهابا وايابا تبلغ اربعة
اشهر واكثر اذا كانت سليمة العاقبة وكان كثير من السفن يفقد

بين الصخور الثلجية فيموت ملاحوها وكل من فيها ولا يصل خبرهم لبلادهم الاّ بالاشاعة واما الان فصار السفر على سفن التجار اسهل واسرع ولكن لا يسافر لصيد هذا النوع الاّ سفن قليلة من فرنسا والانكليز وامريكا وهولاندة وغيرها لعدم وجوده بكثرة كالاول وكانت آلات الصيد رماحًا طوالا وحرابا كبيرة وصغيرة كل واحدة منها عبارة عن قطعة حديد احد طرفيها مركب في نصاب من الخشب والطرف الاخر على شكل رقم الثمانية من الارقام الهندية هكذا (٨) وقد جعلت على هذه الصورة لتنشب في جسم الحيوان فاذا دخلت فيه فلا يكاد يتخلص منها ويستصحبون مع هذه الآلات حبالا طويلة يبلغ طول الواحد منها ثمانين قامة فاكثر الى مائة قامة وفضلا عن هذه الآلات لا بد من وجود ستة زوارق او اكثر ويكون في كل سفينة نحو اربعين رجلا غير القبطان والضباط والطبيب وهم منقسمون الى قسمين قسم يمسك الرماح والحراب لاجل طعن الهوائش بها حين رؤيتها وقسم هم الملاحون فيستعملون مدة السفر في خدمة السفينة وعند الصيد في اعمال المجاذيف لاجل تتبع الهائشة واقتفاء اثرها حين ترى في موضع من البحر فاذا وصلت السفينة محل الصيد ووجدت الهائشة تلقي الزوارق في البحر وتتفرق الرجال بحيث يكون كل ستة او سبعة منهم في زورق ويسيرون باستعمال المجاذيف الى ان يكونوا قريبًا من الهائشة وعند ذلك تقوم الرجال التي بايديها الرماح والحراب

مربوطا بها الحبال فيمسك الرجل المزراق بكلتا يديه ويهزه هزًا موزونًا حتى اذا رضيه رمى به الهائشة فيدخل في جسمها على حسب قوة الرامي وحذقه فاذا احست السمكة بالجرح غاصت في جوف البحر وقد قبض على طرف الحبل المربوط في المزراق رجل من اللاحين فيراخي لها فيه فان لم يكفِ ربط فيه غيره ولا يزال يطاولها الى ان تظهر على وجه الماء في جهة من البحر وللصيادين من الحنكة والتدرب ما يعرفون به اين تظهر السمكة من الماء بعد ان تغطس ويستدلون على ذلك باتجاه ذنبها حين تنزل فيسيرون الى قرب المحل الذي يتعين عندهم انها تظهر منه فمتى ظهرت من الماء حملوا عليها بالمزاريق والحراب فلا يزالون يضربونها الى ان تزهق روحها ولا يخفى ان الهائشة من وقت طعنها الى ازهاق روحها يحصل منها حركات عنيفة قد توجب احيانا غرق الزورق ومن فيه خصوصا اذا كان المسك للحبل غير مستعد لمطاولتها واطلاق الحبل لها بالتدريج الذي يترتب عليه ان تكون حركتها هينة وكثيرا ما تضرب الزوارق او من فيها بذنبها فانها عند مكابدة طلوع الروح يكثر اضطرابها وهياجها ويكثر ضربها الماء بذنبها ويخرج منها دم كثير يتغير به لون الماء الذي حول الزوارق ويبقى متغير اللون بعد موتها مدة من الزمن فاذا ماتت الهائشة بادروا الى قطع ذنبها ثم يربطونها بحبل الى زورق ويربطون باقي الزوارق به ويسحبونها في الماء الى ان يصلوا بها الى

السفينة وترفعها الرجال بالبكرات والحبال ثم يقطعونها ويخلصون الدهن من اللحم ويذيبونه على النار لاستخلاص الزيت ولهم في ذلك طرق مختلفة

وقد اخترع في امريكا لصيد (البال) الهائشة جلة ترمى بالآلات النارية فتدخل في جسمها فتمزق في داخل الجسد فيموت الحيوان في الحال واخترع اخرون جلة ادخلوا فيها مع البارود بعض مواد سمية فمتى دخلت الجلة جسم الحيوان وتصدعت ينتشر فيه السم ويفعل افاعيله فيموت الحيوان في مدة اربع دقائق او خمس. قال وحضرت الصيد بنفسي وسني خمس وعشرون سنة فما رأيت في عمري هولاً اكبر منه وينبغي لارباب هذه الصنعة ان لا يكون للخوف سلطان عليهم بل يكونون بمكانة من الجرأة والقسوة وقوة القلب بحيث لا يهابون الموت ولا يخشون الاخطار ولا تزعجهم الاهوال ويلزم ان يكون قائد الزورق مع ذلك حديد البصر ماضي العزم وان يكون عنده مزيد تبصر وتدبر ومعرفة بما يلزم في هذه الاحوال بحيث متى نظر الهائشة بادر بمن معه الى اجراء جميع ما يستدعيه الحال من الحركات والاعمال لحصول الغرض المقصود بغير اخلال بشي من ذلك فان الهائشة لا يكفي لموتها حربة واحدة او اثنتان بل كثيرا ما يلزم ضربها عشرين او ثلاثين مرة يخاطر في كل منها بنفسه ورجاله فانها متى احست بالجرح والالم هاجت واضطربت فان لم يكن جرحها بليغًا وفي الموضع

الموجب لموتها بالسرعة تاخذ في الطرق المخلصة لها فتغوص في
البحر بقوة عنيفة يندفع بها الزورق بسرعة عظيمة تفوق سرعة النبل
وقد يتكرر منها هذا الصنع مرارًا عديدة فتظهر على وجه الماء ثم
تغطس فيه وتعود وهكذا وتتجه اتجاهات مختلفة وتقطع في ذلك
مسافات بعيدة فان لم يكن الصياد متبصرًا كل التبصر متدبرًا كل
التدبر فربما انقطع الحبل فلا يحصل عليها او غرق الزورق فانها
قد تمر بمواضع فيها صخور من الثلج ومحال جمد ماوها فاذا مر
الزورق بهذه الاماكن متتبعًا لها فربما وقع في خطر يوءدي الى
تلف جميع الملاحين او ضياع ثمرات تعبهم وتخلف مقصودهم وفي
اثناء هذه الاحوال تسمع اصوات مزعجة بعضها من الهائشة وبعضها
من ضرب الماء بذنبها مضافًا ذلك الى اضطراب الماء وعدم استقرار
الزورق فيكون الهول عظيمًا والخطب جسيمًا فلا بد للرئيس ان
يكون في هذه الاحوال ساكن الجاش غير مكترث بما يراه من تلك
الاهوال ولا يشتغل باله الاّ بقتل الهائشة ويحتاج ان يكون رجاله
منقادين له مطيعين لقوله متبعين لاشارته مبادرين الى تنفيذ اوامره
على غاية من السكون والهدء وكل منهم يشتغل بما وكل له من
الاعمال مقبلاً عليه بكليته لا يشغله عنه شاغل سواه وكلما بدت
لهم فرصة لضرب الحيوان انتهزوها ولا يزالون كذلك حتى يروا
شؤبوبَي الماء المقذوفين من خياشيمها قد تغير لونهما من البياض
الى لون الدم الاحمر فيعلمون بذلك ان الهائشة اشرفت على الهلاك

وان علموا قرب على الانتهاء فيهجمون عليها ويزيدون في جراحها حتى ترفع راسها الى السماء وتنظر اخر نظرة الى الشمس نظرة من يئس من البقاء ويخرج النفس الاخير ويدركها الممات وتنقطع منها الحياة

ثم ان كثيرًا من محلات صيد هذا الحيوان في فصل الصيف والخريف يرى لون الماء فيه احمر كلون الدم وسببه ظهور سمك صغير احمر اللون ينتشر في الماء بحيث يملأ فضاء تسير فيه السفن يومًا فاكثر طول الواحدة منه نحو ميليمترين اثنين وغلظها نصف ذلك ويتكوّن من هذا السمك طبقات كثيرة يبلغ طولها مسافات مختلفة فتارة عشرة اميال ومرة عشرين او ثلاثين ميلا وسمكها يبلغ ثلاثة امتار او اربعة والهائشة تحب هذا النوع اكثر من غيره فمتى وصلت احدى هذه الطبقات تسير الهوينا وتاخذ في صيده فتراها تفتح فاها وتنزل فكها الاسفل فحينئذٍ يدخل فيه ماء وسمك بقدر اتساع الفم وقدره سبعة امتار مكعبة وكلما سارت جهة امامها يدخل ماء جديد بما فيه من السمك والماء القديم يخرج من خلال الاسنان وتستمر سائرة هكذا الى ان تقطع نحوًا من اربعين او خمسين مترا ثم ترفع راسها وتحرك لسانها لضم السمك الصغير وهي تنفث الماء فيخرج ويبقى السمك على شكل كرة قدر النارنجة فتبتلعها وتبتدئ في العمل كالاول

وهذا الحيوان مع كبر جثته وعظم خلقه في غاية من الجبن

والخور فلا يعتمد في طلب النجاة غالبا الاَّ على الهرب والفرار والهزيمة امام العدو

وفي اول فصل الخريف يرى الذكر منه منفردا عن الانثى غالبًا فيظن انه يبحث عنها وتراه كثيرًا في حركات غريبة وتقلبات عجيبة فتارة يتمرغ ويظهر في الما صدره وراسه وتارة يرفع فوق الما قريبا من ثلثه فيتموج البحر من هذه الحركات ويضطرب ويرغي ويزبد وهذه الامور علامة على ندآ غيره من جنسه واستدعآ ذوي نوعه فيجتمع كثير منها ويستمر الجميع على هذه الحركات واللعب زمنا طويلا اذا لم يقطعها عن ذلك ظهور مراكب الصيد ومتى حصل بين الذكر والانثى ائتلاف في هذه الجمعية انفردا عن البقية وسارا مع بعضهما فان اصاب الانثى طعنة من الصيادين ترى الذكر يحوم حولها ويحاول خلاصها ويكثر منه ذلك حتى انه ربما حل به ما اراد ان يخلصها منه فيصير كالباحث عن حتفه بظلفه وهذا كله في ابتداء الصحبة وحداثة المحبة فاذا تقادمت المودة ومضت عليها في الصحبة مدة ضعفت علائق الحب والوفاق وصار ادنى الاسباب موجبا للفراق وهذا النوع يحب الذراري اكثر من الازواج فترى للام حنوًا شديدًا على ولدها وتحافظ عليه اكثر من محافظتها على نفسها ولهذا كان من عادة الصيادين اذا رأوا مع الانثى ولدها ان يبادروا لصيده اولاً لعلمهم بانها لا تفارقه فيسهل عليهم بهذه الواسطة صيدها ايضًا فتراها في اثناء مناوشة الصيادين

لابنها تبذل في مساعدته جهدها وتاتي باقصى ما عندها فتارة تدفعه باجنحتها وتارة تدفعه بصدرها فان لم تجد فيه قوة على الهرب حملته على عاتقها وغاصت به في الماء فان لم يتبعها لما اصابه من الجراح لا تتركه بل تستمر على محاولة انقاذه باقصى وسعها وغاية ما عندها فتارة تجذبه ومرة تدفعه وتارة تحوم حوله وتحثه على الفرار والهرب ويرى عليها في اثناء ذلك من اثار الكآبة والحزن ويسمع لها من شدة النفس والصوت ما يدل على شدة تألمها وهول مصابها وتنسى نفسها في اثناء هذه الاحوال بالمرة حتى يكون ذلك سببًا لهلاكها وتقع فيما كانت تتخلص منه لولا فرط حبها لولدها وانهماكها على مساعدته وتخليصه وتبلغ زنة الواحدة من هذا النوع مائة وخمسين قنطارًا تقريبًا ان كان طولها عشرين مترا فان كان ثلاثين مترًا كان الوزن على حسبه وطول راسها ثلث طولها كما ذكرت ويختلف عرض فكيها من اربعة امتار الى سبعة وطول سنها يختلف من متر الى خمسة امتار بالنسبة لفمها وقوتها عظيمة جدًا بحيث يمكنها قذف الزورق بمن فيه في الجو الى غاية عظيمة ويوجد على جلدها بعض محار وحيوانات مائية صغار وتلد عادة فرادى ومثنى وولدها حين الوضع يبلغ طوله ستة امتار تقريبًا ومن حين الولادة تنصب عليه رواق الحنو والشفقة فترضعه وتحضنه وتعلمه السباحة

المسامرة الثامنة والسبعون

كاشالو او العنبر

(من حكاية يعقوب)

وفي الحيوانات البحرية نوع هائل يسمى بالافرنجية (كاشالو) وهو العنبر يقرب من الهائشة في الصورة الاّ ان بينهما في بعض الاعضاء اختلافًا لان هذا الحيوان يوجد في فكه من الجانبين انياب اسطوانية او مخروطية وفي الفك الاعلى انياب غيرها صغيرة جدًا لا تكاد ترى من اللثة فاذا اطبق الحيوان فمه دخلت انياب فكه الاسفل في تجاويف مقابلة لها في الفك الاعلى وطول راسه قريب من نصف طول جسده وارتفاعه يبلغ مترين تقريبًا

ويستخرج منه مادة بيضاء زيتية تجمد اذا بردت وهذه المادة في اوعية براسه متصلة باخرى في البدن متوزعة فيه فيستخرج ما في

سائر جسده اكثر ما تحتويه الاوعية التي في الراس وقدر ما يستخرج من الحيوان الواحد نحو من اربعة وعشرين برميلا من الزيت وكل برميل يسع مائة واربعًا وعشرين (نبادية) والنبادية مكيال كانت الفرنسيس تستعمله في كيل المائعات ومقداره مائتان واربعون درهما مصريا تقريبًا وهذا الحيوان يقيم على سطح الماء اكثر من الهائشة وفي جوف الماء مدة طويلة كذلك ويستخرج منه ما عدا المادة الزيتية المذكورة دهن يذاب ويستخرج منه زيت مثل زيت الهائشة ولكنه قليل واذا كان هذا الحيوان مريضًا يخرج منه الطيب المشهور بالعنبر فليس هو الّا من ابرازات يخرجها عند مرضه فتكون فوق الماء او على الساحل قطعا تقرب القطعة من خمس عشرة اقة والصيادون يعرفون مواضعه فيخرجونه منها بمذاري طوال معدة لذلك وقد اخبرني رجل من الامريكانيين ان بعض الصيادين عثر بقطعة من العنبر بلغ وزنها خمسا وستين اقة وليس في ذلك مبالغة منه لان هذا الحيوان يبلغ طوله خمسة وثلاثين مترا ويتغذى هذا الحيوان بالحيوانات الصدفية والحيوان ذي الثمانية الارجل وفيه من الجراة والبطش ما ليس في غيره فلا يرهب شيئًا من حيوانات البحر الكبيرة ضعيفة او قوية ولا يترك شيئًا يصادفه في طريقه سواء كان انسانا او حيوانا فاذا احس بجربة الصياد في بدنه قصد الزورق مع كمال الشهامة والسرعة ويرفع راسه اليه ويحمل عليه فان لم يتحيل الصياذون في خلاص انفسهم في الحين

هشم القارب ومن فيه من الملاحين بين انيابه الخمسين ولهذا كان اصعب حيوان يتقرب منه الصيادون وكل من يروم صيده يلزمه استعمال كثير من الحيل والتدابير للسلامة من خطره ولهذا الحيوان في السير سرعة عظيمة بحيث يقطع في الساعة الواحدة اثنى عشر ميلا واكثر ونفخه متتابع بين كل نفختين ثانية من دقيقة وعدد النفخ خارج الماء يختلف فتارة ينفخ خمس عشرة مرة وتارة عشرين واخرى ثلاثين ثم ينزل في الماء

المسامرة التاسعة والسبعون

تتمة قصة يعقوب

ثم قال يعقوب فهذا ما حضرني الان مما سمعت في هذه الحيوانات واعود لاتمام حديثي في السياحة حسب اقتراح سيدي الاستاذ فاقول قد اقمنا في السفينة التي قدمنا ذكرها عائدين الى بلادنا ثلاثين يومًا لم يكن لنا فيها شغل سوى اشغال المركب وحديث بعضنا مع بعض والنظر الى الماء والجو وكنت اميل كل الميل لسماع ما يقال حولي من الاحاديث واذا سمعت شيئًا كتبته وحفظته عندي خوفًا عليه من الضياع وقد جمعت من ذلك شيئًا كثيرًا في كراريس عديدة وهي الان عندي مصونة اعدها من خير الذخائر اتذكر بها ما مر عليّ من الحوادث ومن اجتمعت بهم من الناس واذكر بها من احسن اليّ ومن اساء عليّ فهي بالنسبة

لي احسن ثمر اجنيه واثمن متاع اقتنيه لان طول هذه المدة لم يساعدني الدهر فاكون من ارباب المناصب العالية ولا اكتسبت مالاً يقيني نكبات الايام العادية وقد بلغت خمساً واربعين سنة من العمر وانا لا املك شيئاً غير ما تراه عليّ من الثياب وثلاثين جنيهاً انكليزياً اجرة ثلاثة اشهر كانت لي عند القونبانية اخذتها حين لحقت بحضرتكم وكل ما اكتسبته في الايام السابقة ضاع وذهب سدى فمنه جزء ضاع في مصر وجزء عظيم كنت اودعه عند واحد من الناس فادعى انه سلمه اليّ بالزور والبهتان واقيمت بيني وبينه قضية كانت له عليّ فيها الغلبة لمعرفته بكثير من الناس امكن له بواسطتهم غش المأمورين بالتحقيق فحكموا له عليّ فتخلص وضاع المال عليّ ومع ذلك فانا احمد الله على هذه القسمة ولست متأسفاً على ما فات ولا متكدرا بما صرت اليه من الحال في هذه الاوقات

ولا نبالي اذا ارواحنا سلمت * بما فقدناه من مال ومن نسبِ

فلما انقضت مدة هذا السفر ودخلنا سواحل بلاد الانكليز احاط بجميع من في السفينة مزيد الفرح والسرور والانس والحبور لان كلا منهم كان يترقب الاجتماع باخوته وقرابته واهله واحبته وصار كل يعانق صاحبه ويهنئه بالسلامة ويعده بالاجتماع في اماكن معينة وعلى ذلك وصلنا مينا لوندرة فلبس كل واحد افخر ما عنده من اللباس وتهيأ للخروج وانا كذلك في جملة الناس تهيأت للخروج فاحضرت خرجي واحتملته على عاتقي واردت ان

اخرج واذا بصاحبنا السائح الذي كنت معه نحضر لديّ وقال لي
ماذا تصنع فقلت اريد الخروج الى المدينة فقال انت رجل فقير
ولا تعرف الناس ولك اخت فقيرة محتاجة كل الاحتياج واخشى
ان تستهلك ما عندك من الدراهم في الصرف على نفسك وتبقى
صفر الكف فقلت له وماالرأي فقال الراي عندي ان استحسنته
ان تكون معي في منزلي فهو خير لك فشكرت صنيعه وحمدت الله
سبحانه حيث جعل لهذا الرجل العظيم الحنو والشفقة عليّ ثم اكترينا
عربة وضعنا بها ما لنا من المتاع وركبنا معًا وتوجهنا سائرين وبعد
توطني اخذت اسأل حتى عرفت محل اقامة زوجة القبطان المتوفي
التي كنت جعلت عندها مائتي جنيه فسرت اليها فلما رأتني قابلتني
بمزيد البشر والفرح والطلاقة وقالت لي بعد برهة يسيرة اني لما
وجدت غيابك قد طال ولم يصلني من اخبارك ما يوقفني على
حقيقة الحال جعلت وديعتك التي استودعتنيها في احد بيوت
الصيارفة لاجل النمو لتجد اذا حضرت اكثر مما تركت ثم قامت
وفتحت خزانة عندها واخرجت منها سند الاستلام وحسبت الربح
فوجدته يبلغ مائة جنيه تقريبًا ففرحت بذلك وشكرتها على معروفها
وحسن تدبيرها ودعوت لها ولما اردت الانصراف ابت الاّ ان
اتغذى معها فاجبت دعوتها وصرنا نتحدث معًا قريبًا من ساعتين
سألتني فيهما عن سبب طول الغيبة فانبأتها بقصتي وبما صار لي
ولمن كان معي وكيف نجوت من الغرق ووقعت في يد سكان

افريقة فبكت على ما نابني من المصائب والمصاعب وقالت هكذا حال الدهر ثم انها قامت واخذت بيدي وتوجهنا الى الصيرفي واظهرنا له السند فقال الدراهم عندي حاضرة ان شئت اخذتها وان شئت ابقيتها للربح فشاورتها في ذلك واخبرتها ان لي اختاً يتيمة فقيرة تركتها في خدمة خاتون بمدينة (بورك) ومن حين انفصالنا لم يصلني من اخبارها ولا وصلها من اخباري شي ولست اعلم أ ماتت ام هي في الحياة واريد ان امضي اليها لانظرها فان وجدتها ارسلت لحضرتك خطاباً اعلمك فيه بما يظهر لي في شان الدراهم فاستحسنت رايي وقالت انت عندي في مقام ولدي فلا تتاخر عن طلب ما يعرض لك من حاجة فستجد مني المسارعة الى اعانتك بكل ما قدرت عليه اكراما للمرحوم فعند ذلك قبلت يدها وغيرت السند باسمي وتركت الدراهم عند الصيرفي وصرت معها حتى وصلت لمنزلها ثم توجهت الى السائح واخبرته بقصة الدراهم واستشرته في الذهاب الى (بورك) لاعلم حقيقة خبر اختي وعرفته رغبتي في السفر اليها فوافقني على ذلك وقال لي ان طاب لك المقام ولم ترد ان تعود الى لندرة فاعلم اني لك صديق محب على البعد والقرب فسلني عن كل ما بدالك ولا تقطع عني اخبارك وان اردت الرجوع الى هذه الجهة فانا على ما تحب فشكرته على ذلك وبتنا ليلتنا فلما اصبح الصباح تأهبت للسفر فذهب معي الى

موقف سكة الحديد وبقي معي حتى ركبت العربة ثم ودعني وانفصلنا

المسامرة الثمانون

سوق في باريس

قال ناقل الحديث فبينما هم كذلك حضر الانكليزي وقرع الباب فقام يعقوب وقال في وقت اخر اتم لك سياق الحكاية ودخل الانكليزي فتلقاه الشيخ وولده بالتحية والاكرام واخذ يعتذر لهم عن تاخره ويشرح لهم الاسباب التي عاقته ثم سألهم عن حالهم وصحتهم فشكروا الله واثنوا عليه ثم قال الشيخ انا قضينا هذه المدة مع يعقوب في حديث ما جرى له وما رآه في البحر من حين سفره الى عوده

لبلاده فقطعنا الوقت في لذة الحديث واخبره بما رآه برهان الدين
بالامس وقال له انا سألنا يعقوب عن تاريخ باريس وطلبنا منه
ان يقص علينا اخبارها فاحال عليك واعتذر بقلة ما عنده في
ذلك فقال الخواجا حبًا وكرامة وسنجعل مسامرتنا بعد العود من
الفسحة في ذلك لاني احب ان تقضوا ايام الاقامة بهذه المدينة في
لذة وطيب خاطر واريد ان اكون دليلكم في الذهاب والعود
لاطلعكم على بعض ما لهذه الحاضرة من المآثر الفاخرة والان وقت
الطعام فان شئت تطلبه فقال الشيخ لا بأس ثم امر الانكليزي
باحضار الطعام في مكانه المعد له وقاموا فاكلوا وركبوا عربة
وداروا في نواحي المدينة يتفرجون فاعجب الشيخ بانتظام طرقها
وسعتها ونظافتها وحسن اشكال ما فيها من البيوت وما لها من
اتقان الصنعة وتناسب الاوضاع واختلاف الصور وزيادة ارتفاع
الاماكن وصار كلما ابصر شيئًا واعجبه سأل عنه الانكليزي فيصفه
له ويذكر ما حضره من خبر يتعلق به او نادرة تؤثر عنه ويبين
له ما طرأ عليه من صروف الحدثان وتقلبات الازمان وتنقلاته
من حال الى حال الى ان آل امره الى ما آل ولم يزالوا على ذلك
حتى انتهوا الى مكان واسع فيه خلق كثير من نساء ورجال في
ازدحام واشتغال ورأوا سقايف من حديد مرفوعة على اعمدة منه
وكلها في ازدحام عظيم من كثرة الناس الواردين من المدينة من
كل جهة والمنصرفين بعد قضاء اغراضهم فكان الشيخ يرى الناس

في كثرة حركاتهم واختلاف تنقلاتهم وتقاطع مسالكهم اشبه شي
بتيارات مياه مختلفة الاتجاه فاعجبه هذا الموضع زيادة عن غيره
فاحب معرفة امره وسأل الانكليزي عنه وعن الغرض منه فقال
له قبل ان ندخل في شرح هذا المحل نجلس برهة في احد مواضع
القهوة لنستريح ونزل الانكليزي ومعه الشيخ وولده ويعقوب فدخل
بهم الى قهوة لطيفة الشكل واسعة الارجاء كثيرة الزينة والزخرفة
في جميع جهاتها مبلطة بالمرمر وهي تشتمل على عدة اماكن يوصل
بعضها للاخر وفي كل مكان منها موائد (ترابيزات) بعضها من
الحديد وبعضها من الرخام وحول كل واحدة منها جماعة من
نساء ورجال بعضهم يقرأ اوراق الاخبار وبعضهم يلعب باوراق
القمار وبعضهم يلعب النرد وغير ذلك من آلات اللعب وبعضهم
يشرب قهوة وبعضهم يشرب غيرها من انواع المشروبات فاخذ
الخواجا مكانًا خاليًا في احد الاركان وجلسوا فيه جميعًا ثم بعد ان
جلس كل منهم في مكانه واحضر خادم القهوة جميع ما طلبوه
قال الانكليزي ان هذه السقائف العالية والابنية الخالية معدة
لبيع جميع انواع المأكولات والاسماك واللحوم والفواكه والخضراوات
ولم تكن قبل هذه الايام على ما هي عليه الان من الحسن والانتظام
الذي تراه بل كانت في غاية الضيق والوخامة من عدم التفات
الحكام وارباب الزعامة فكانت من كثرة العالم الذين يشترون
ويبيعون بها يقع ازدحام يضر بالمارين لضيق دروبها وكانت احوالها

ليست مضبوطة وامور الصحة بها مهملة غير مربوطة فكانت تتراكم بها القاذورات وتتعفن منها الطرقات وربما اضرت بصحة اهل الازقة والحارات المجاورين لها فكثر التشكي من سكان تلك الاماكن حتى من اصحاب البضائع وماموري الضبط والصحة لعدم تمكنهم من اجراء ما تقتضيه المصلحة فلو رايته وهو على ما كان اولاً عليه لانفت نفسك من النظر اليه ولكن لما كانت هذه المدينة بسبب كثرة توارد الناس اليها آخذة في اتساع البناء تكلم ارباب المجالس في هذا الشان فاستقر رايهم على ازالة ذلك الضرر ثم عرضوا ذلك على ارباب الحكومة فصدقوا عليه وصدر الامر للمهندسين بامضائه وعمل رسم بما يقتضيه التنظيم فرسموه وكتبوا معه ما يلزم لمصلحة البلد وصحة اهلها في الحال والاستقبال وقدموه ولكن لم يظهر لذلك اثر الاّ في عهد قريب لانه لم يبدأ في اساسها الاّ في سنة ١٨٥١ للميلاد مع ان التشكي والامر بازالة الضرر كانا قبل ذلك بنحو اربعين سنة وقد تم في سنة ١٨٥٦ وهذا الميدان كله عبارة عن عشر سقائف مغطاة بالواح من التوتيا مرفوعة على عمد من الحديد ومساحتها بما فيها من الخانات والطرقات تبلغ ستين الف متر مسطح عبارة عن اربعة عشر فدانًا مصريًا ونصف فدان تقريبًا وتحت كل سقيفة من هذه السقائف ثلثمائة وخمسون دكانا وهي كما رأيت منقسمة الى قسمين كبير وصغير يفصل بينهما شارع عرضه ثلاثون مترًا فالقسم الكبير تبلغ ارضه عشرين الف

متر والصغير عشرة الاف والباقي وهو ثلاثون الف متر مساحة
الطرق والميدان والجنينة التي رأيتها فبسبب هذا الاتساع صار
هذا المحل من احسن ما يرى والطفه فهو وان كان معدًا لبيع هذه
الاصناف الاَّ انه صار معدودا من المحلات التي تهرع اليها الناس
وتجتمع بها للتفسح والاستئناس وتحت هذه السقف جميعها دور من
البناء كله مخازن في اعلا كل مخزن فتحة للاستضاءة ودخول الهواء
وبين تلك المخازن وبعضها طرق عليها قضبان من الحديد
موصلة الى السكة العمومية فترى العربات تسير في باطن الارض
بانواع البضاعة ولا يشعر بها احد ممن هناك من الباعة فبهذه
الوسائل كثر ورود جميع اصناف المأكولات من غير ان يترتب
على ذلك ادنى ازدحام ولا نوع ايلام وصار اهل المدينة على ثقة
من وجود ما يحتاجون اليه لوروده في وقت معين من جمع
الجهات وكذلك اهل البضائع صاروا في امن على بضائعهم من
العوارض التي كانت تعرض لها قبل ذلك هذا خلاصة ما يتعلق
بذات المكان قديما وحديثا واما ما يباع فيه في كل سنة من البقول
ونحوها فشيء كثير وقد احصي ما بيع فيه سنة ١٨٥٦ من الميلاد
فكان مقدار ما بيع من صنف سمك البحر خاصة ٨٧٨٥٣٢٠
كيلو جرام والكيلو جرام عبارة عن اربعة اخماس اوقة مصرية اعني
ثلاثمائة وعشرين درهما ومن سمك الماء العذب ٩٠٨٢١٢ كيلو
جرام ومن الزبد ١٧٦٠٢٢٢١ كيلو جرام ومن صنف البيض ما

بلغ ثمنه ١٦٧١ر٨٦٠٨ من الافرنك ومن اصناف الخضراوات ما بلغ
ثمنه اربعين مليونًا من الافرنك ومن اللحم ٤٧٢ر١٣٦ر٢٨ كيلوجرام
ومن النبيذ المباع في براميله على اختلاف اجناسه مليونين من
اللترات واللتر رطل انكليزي فبلغ ثمنه نحو خمسين مليونا من
الافرنك وما من سنة الاّ وتزيد على ما قبلها

فقال الشيخ كذلك يجب ان تكون المدن التي وضعها على
ان تكون مسكونة باهل الصناعات واصناف التجارات يرد اليها
القرويون والغرباء بانواع الحيوانات الموقرة بالبضائع المختلفة وهذا
من الامور المعقولة التي تضطر اليها طبيعة الاجتماع البشري فكلما
مست الحاجة لسعة الطرق لزم ان توسع حتى تندفع الحاجة ويأمن
الناس من الاصطدام والاصطكاك ويسلموا من اذى الازدحام
فعند ذلك نظر الى الشيخ صاحبه كانه يذكره امر مصر فقال سألت
بعض المعمرين بمصر عن الاسباب التي دعت اهلها لتضييق الطرق
فقال حدثني بعض اسلافنا بما عاينت طرفًا منه وهو ان مصر كانت
مسكونة بامم مختلفة الطباع متباينة الاخلاق لا تزال العداوة بينهم
قائمة والشرور محتدمة فكان من عرف نفسه بالقوة متسلطًا على
الضعفاء بالنهب والسلب مجاهرة يجوسون خلال الديار ويتسورونها
فرأى الناس مدافعة تلك الشرور بتضييق الطرق حيث لا يمكن
للكثير ان يمروا بها جملة واحدة واذا دخلوا اوزاعا تمكن الناس
ان يحذفوهم بالاحجار فقل النهب من داخل البلد وبقيت كثيرة

في الاطراف وبذلك السبب كان المصريون يتخذون ابواب الدروب صغيرة مستورة الوجه بالمسامير المفرطحة الروس لتكون لها بمنزلة الدروع فلما هدأت الفتن وعم الامن وغلبت السلامة اخذت مصر في محاسن الاحوال ولطائف الاشكال من طرق بالغة في السعة وابنية متراصفة متناسقة تؤمن فيها غوائل المرور ويطيب الهواء وتصلح للاقامة وذلك من حسنات الدولة القائمة بامرها حرسها الله وكان لها رداء معينًا وركنًا حصينًا فانها لم تزل ناظرة في اسباب العمران واتساع دائرة الامن والرفاهية وحسن تعاون طوائف الناس بعضهم لبعض وشواهد الاحوال ناطقة بان ذلك لا يزال على احسن غاياته فالناس مقبلون على تعلم الالسنة وقرآة الكتب واجتناء ثمرات العلوم ومن العادة ان الانسان اذا ترك حالة الى احسن منها بذل جهده في تغيير ما لا يرضاه فاين مصر الآن مما كانت عليه ولو بعد بقايا كثيرة من ضيق الطرق واختلاف الابنية بالدخول والخروج وسوء الوضع الموجب لوخامة الاهوية واضطراب الامزجة وتزاحم الناس واشتغالهم بما يقل نفعه ويكثر خسرانه ثم ما احسن اتخاذ مثل هذا الميدان فانه ربما كان سببًا لكثير من المرافق كسرعة عود ذوي الاشغال الفلاحية الى اشغالهم بعد فراغهم من شان منقولاتهم وكضبط الاسعار وقلة التغابن فان الفلاح يبيع بضاعته جملة ثم اهل التجارة فيها يوزعونها حسب طلب الجهات بخلاف ما اذا كان الفلاح يتولى توزيعها بنفسه

عطلته زمنا طويلا وربما بارت عليه وبالجملة فاتخاذ الطرق لتسهيل المعاملات بحسب الامكنة والازمنة امر لا شبهة في حسنه

فقال الانكليزي هو كما قلتم لا سيما اذا كانت الامة مراعية للشركة العامة والمصالح الشاملة غير مهملة لها وقتا ما ثم قاموا سائرين وهم يتحدثون فيما يرون عليه الى ان وصلوا محلهم فاجتمعوا جميعا في غرفة الشيخ فطلب برهان الاذن من والده بالتوجه مع يعقوب الى البالّو فاذن له وبقي الخواجا مع حضرة الشيخ

المسامرة الحادية والثمانون

باريس

فقال الخواجا قد طلبتم مني ملخص تاريخ هذه المدينة واصل وضعها فقال له الشيخ نعم فقال لا يخفى ان حالها الآن ليس كحالها في غابر الازمان بل لا نسبة بين الحالين لان جميع ما تراه من الابنية الحسنة والشوارع الواسعة المستحسنة وان كان كله من نتيجة افكار المتقدمين الّا انها لا يوجد بها الآن اثر من الآثار الاولى لان كل جيل اتى يغير من اثار قبله فبتداول الازمان على هذه المدينة وصلت الى هذه الدرجة التي صارت بها منفردة بين المدن وبلغت من الفخر الغاية ومن الشهرة النهاية حتى شهد لها غيرها من سائر المدن انها فازت بجميع انواع اللطائف وحازت اصناف الزخارف ومع ذلك فلم تزل كل يوم تنتقل من حال

الى احسن ويتجدد بها من انواع الحسن في كل يوم ما لا يتجدد بغيرها في زمن فهي في الثروة ليس لها مثيل وما تبلغه في زمن قليل لا يصل اليه غيرها في زمن طويل وهلم جرا وكل من رآها في سنة ثم رآها في اخرى قال انها تغيرت الى شكل احسن مما كان وليس في الامكان حصر ما بها من الغرائب ولا ضبط ما يحدث فيها من العجائب فان الانسان ولو اطال بها المقام واتخذها وطنًا مدة من الاعوام لا يمكنه حصر بعض ذلك ولا الوقوف على ما يحدث فيها كل يوم من البناء والمسالك ومع ذلك فاني اذكر لحضرتكم ما يحضرني من تاريخها فاقول لا يخفى ان بين كل مملكة وكرسيها ارتباطا كارتباط الجزئيات بالكليات لان كرسي كل مملكة اصل في حوادث مملكته وحوادث كل مملكة راجعة الى كرسيها سواء كانت الحوادث دينية او دنيوية فمن اراد التكلم على احداها اضطر الى التكلم على الاخرى وشرح الكلام في هذا يطول فلا نذكر الاّ ما هو ضروري فنقول

من المعلوم ان الجزء اصل للكل وان الفردية سابقة على الزوجية وان العدم سابق على الوجود وان اصل الاعداد الواحد فاذا تمهد ذلك فلا مانع من ان يكون اصل كل مدينة او قبيلة ناس قليلون ثم يتزايدون شيئًا فشيئًا اما من نسلهم او ممن ياتي اليهم طمعا في ارزاقهم او احتمائه بهم فهذا هو اصل اتساع المدن والقبائل وكثرة اهلها

فقال الشيخ هذا كله مقبول ومعقول وقد اصابوا فيما فعلوا حيث تخيروا هذا الموضع وجعلوه مقرا لهم فقد وجد فيه ما ذكروه في اتخاذ المدن حيث قالوا يجب في كل موضع اريد اتخاذه مدينة ان يكون مشتملا على ما يقي من المضار وتسهل به المنافع والمرافق فاما ما يقي من المضار فبأن يدار حولها سياج الاسوار وان يكون وضعها في ممتنع من الارض اما على جبل ليصعب على العدو صعوده واما ان يحيط بها بحر ليصعب عليه عبوره وكذلك مراعاة الوقاية من العوارض الجوية بان تكون طيبة الهواء لان الهواء اذا كان خبيثًا بان كان ساكنًا او مجاورًا لمياه فاسدة او لمناقع متعفنة اضر بما حوله من انسان وحيوان كما هو مشاهد واما ما تسهل به المنافع والمرافق فامور منها وجود الماء العذب والمرعى وقرب المزارع والاشجار منها للاحتطاب والبناء لان قرب ذلك يسهل على الساكن مرافقه ومنها قربها من البحر لتسهيل الحاجة القاصية من البلاد النائية فاذا لم تراع هذه الامور في المدينة قبل اختطاطها اسرع اليها الخراب كما وقع في بعض مدن العرب التي اختطوها بالعراق وافريقة والكوفة والبصرة والقيروان حيث لم يراعوا فيها الاّ الأهم عندهم من مرعى الابل وما يلزم لهم من الشجر ولم يراعوا الماء العذب ولا المزارع ونصوا ايضًا انه يجب في المدن الساحلية ان تكون في جبل او بين امة موفورة العدد والعُدد للاستنصار بها اذا دهم العدو لان المدينة اذا لم يكن بقربها عمران ولا طريقها

وعراً كانت طعمة لكل من ارادها واظن ان هذه الامور جميعها
كانت متوفرة فيها حين وضعها

فقال الانكليزي لا شك ان معظم هذه الامور متوفرة في هذا الموضع لان النهر موجود فيه وكذلك هواؤه خالص نقي والحجر عندهم كثير للبناء به بدل الخشب فهذا هو السبب في اختيار هذه البقعة والاقامة بها وكان ابتداء وضعها حين كانت الارض كلها سائلة ونفرق الخلق عن سطحها وعذرهم في عدم استيفائهم بجميع شروط الاختطاط ما ذكره المؤرخون من ان هذه البقعة وغيرها قبل ان تسكن لم يكن بها الاّ آكام وصحارى مملوة بمياه ملحة واستدلوا على ذلك بوجود اجزاء حيوانات بحرية واصداف عثروا بها خلال اجزاء الاحجار والظاهر ان محل باريز قبل ذلك وبعده بزمن طويل كان مغمورا بالماء وفي صورة خليج وان كان مدن (منت ودروه · وفونتينبلو ونومور · ومونترو) وغيرها كانت على شواطئه وكان وسط الماء اماكن مرتفعة كالجزائر وكانت سواحله خالية من النبات والمخلوقات ليس بها الاّ الصدف وميتة السمك ونحوه من الحيوانات البحرية وبعد انقضاء تلك الايام صار الماء ينحسر والارض تجمد شيئاً فشيئاً فكان كلما انحسر الماء عن موضع كسي بالنبات والشجر حتى كثر ذلك فاوجد الله بين تلك الاشجار انواعاً من الحيوانات فظيعة المنظر مهولة الخلقة فصارت تتناسل وتنتشر في جميع البقاع وبقيت هذه البقعة على حالها الى ان

جاء طوفان نوح عليه السلام وكان خروجه من الجهة الجنوبية الشرقية فقلع الاشجار والنبات وغرق اكثرما على وجه الارض من الحيوانات ولم ينج منها الاَّ القليل فاختلط بعضه ببعض وتناسل حتى ملأ الارض فلما قضى الله ما اراد من الخراب وسكنت الارض بعد الاضطراب وعمرت بما بقي من نوع الانسان تفرق الخلق في ارجائها وعمروا نواحيها فكان منهم طائفة وهم على ما حققه المورخون قوم من اهل الصين ذهبوا الى تلك الجهة وكان مأواهم حين نزولهم بهذا الموضع الخيام كعرب البادية فلما سكنوا بها وعمروها سموا جال اي زراع الارض وكانوا قبائل وعشائر ولكل طائفة رئيس يحكم فيها وينظر في دعاويها ويقودها في الحرب وكانوا يصدقون بوجود الخالق ويسمونه هوذ ومعناه الخالق الاكبر المؤثر في الكون ولكنهم كانوا يعتقدون ان معه الهة اخرى وان كل اله موكل بقوة من القوى المؤثرة في تدبير الكون وهذا الاعتقاد يشبه اعتقاد اليونان فانهم يقولون بتعدد الآلهة وان منها ما هو موكل بنار الدنيا وما هو موكل بالرعد وما هو موكل بالانهر والخلجان الى غير ذلك وكانوا يزعمون ان ديانتهم ماخوذة عن توت اي ادريس عليه السلام وانه الاصل في جميع الفنون والصنائع والمزارع وكانت اعيادهم وقت دخول الفصول في بعضها فيكثرون فيها من شرب المسكر وتعاطي المنكر ويقربون من الادميين لآلهتهم قربانا ولم يزالوا كذلك الى قبيل ظهور الديانة المسيحية بنحو سبعمائة سنة فهاجر من

جهة اسيا الى حدود البحر الاسود عدة قبائل فوجدوا هناك قوماً يسمون كيرميس فازعجوهم من مساكنهم وسكنوا مكانهم فرحل الكيرميس الى جهات نهري الطونه والرين واقاموا بارض الجول التي هي الان فرنسا فتدينوا بديانتهم ورفضوا الديانة القديمة ثم انتشروا في بلاد الانكليز وهولانده وسكان بلاد الجول اي فرنسا الى الان يتكلمون بلغة الكيرماسيين فلما ارتحل الكيرماسيون الى ارض الجول تخيروا منها موضعاً وبنوا به مدينة سموها (دروه) وجعلوها مركزاً لاهل ديانتهم كمدينة رومة الموجودة الآن لاهل الديانة المسيحية وكانت تسمى هذه البقعة بالارض الوسطى ومركز الديانة العامة ومقر العلماء والمحبين لازميس وما قدمناه في شانهم من الاعتقاد انما هو معتقد كهنتهم ومن تبعهم

واما عوامهم فكان اعتقادهم مجرد اوهام وتلبيسات تلقيها اليهم كهنتهم فكانوا يكتمون عنهم عقائدهم التي يعتقدونها ليمتازوا بها عنهم ومن جملتها اعتقاد وحدة الاله وانه الذي لا نهاية لعلمه وان كل ما اراده في الكون من خير او شر لا بد ان يكون وانه الخالق لكل شيء الذي يهيئ كل ما خلق لما خلق له فيرفع اهل السعادة الى الدرجات العلى وهي دار النعيم ويخفض اهل الشقاء الى الدرك الاسفل وهو محل العذاب المقيم والدرك الاسفل عندهم عبارة عن الفراغ المطلق والدرجات العليا عبارة عن المحل الذي تقيم فيه الارواح المنعمة وان الانسان اذا ارتكب خطيئة او ذنباً ثم مات

نزل الى الدرك الاسفل اعني الفراغ الذي خرج منه وان كان
جاريا في عمله على مقتضى علمه لا يرجو به حصول ثواب ولا فرارًا
من عقاب كان مآله النعيم المقيم وان كل من فترت عن الطاعة
قواه اهبط الى الدرك الاسفل وكان قرينه الشيطان الذي اضله
واغواه واقام في دار الشقاء والندامة وحرم من انواع اللذة والكرامة
واما من صعدت روحه الى ارواح الابرار فانه لا يجد ما يؤلمه في
تلك الدار بل يكون دائمًا في عز وصيانة آمنًا من الوقوع في الذل
والاهانة متحليًا بجميل الصفات كالراحة الدائمة وحسن الافعال
ونور الذات متخليا عن سائر الرذائل اقلها المذلة والخوف من القلة
ومن الكيرماسيين قبيلة تسمى البلج ومعناها في الاصل المحاربون ثم
اطلقت على سكان مملكة البلجيقا وتسمى عند مؤرخي العرب بالفلمنك
تحولوا من شاطئ نهر الرين الى جهة الجلوانيين وهم القاطنون
بشواطئ نهر الوان فاذنوا لهم في المقام معهم واختلطوا بهم ومن ذلك
الوقت سموا بالباريزيين اي سكان الوان هذا ما يحضرني الان
من خبر هذا الموضع وسكانه واما طباعهم فكانت وقت ذاك وحشية
واجسامهم عارية وعوراتهم بادية وكانوا يسمون اجسامهم ويتركون
شعر رؤسهم حتى يصل الى اكتافهم وكانت القبائل التي حولهم
تشهد لهم بالقوة وتخشى باسهم وكانوا اذا خرجوا للحرب وقتلوا احدا
علقوا راسه في عنق الخيل للفخر وجعلوها آنية يشربون بها الماء
والخمر وكانت الارض التي نزلوا بها اذ ذاك ضيقة لان الجوليين

محيطون بها من كل جانب فلما استقروا فيها اخذوا يرتادون محلا يجعلونه مركزًا لحكومتهم فاختاروا موضعًا جهة نهر السين كان به سبع جزائر يقرب بعضها من بعض فبنوا فيه مدينة جعلوها مقر التخت وسموها لوتيس وكان ذلك قبل هجوم الرومانيين على ارض الجول واستيلائهم عليها بمدة كبيرة فهذه المدينة التي تراها ويعجبك ما فيها من المباني الفاخرة وزيادة ثروة اهلها قد عوضت لوتيس القديمة بعد استيلاء الرومانيين عليها وكان بناء لوتيس من خشب واغصان شجر ومساكنها صيقة منخفضة ليس بها منافذ ولبرودة ارضها كانوا يستعملون تنانير كاهل ريف مصر وكانت خالية من المعابد فاذا ارادوا ان يجتمعوا وقت الاعياد والمواسم خرجوا الى صحراء قريبة منهم فيجتمعون بها وكانت معائشهم من الزروع وكانوا يزرعون فيدخرون مؤنتهم ويتجرون فيما فضل عنها ولخصوبة الارض وحسن منبتها كانوا في ثروة وطيب عيش ثم حصل لهم بعد ذلك اضطراب فتضعضع حالهم وآل امرهم الى الخراب وسبب ذلك ما قرأته في بعض الكتب وهو ان الرومانيين في تلك المدة بعد تخريبهم لبلادهم واستيلائهم على لوتيس مقر تختهم كما قدمنا كان تحت قبضتهم قبائل من الجال خرجوا عن طاعتهم ورفعوا لواء العصيان عليهم فلما رأى الروم ذلك وكانت عساكرهم متفرقة في الحرب الى جهات متعددة وليس فيهم كفاية لمقاومة الجميع دبّر قيصرهم في ايقاع الفتنة بين تلك القبائل وقال لاهل مشورته انّا

لا تتمكن منهم الاّ اذا وقع الخلف بينهم فارسل اولا اليهم يطلب منهم مددا فابوا جميعًا فطلب منهم خيلا فمنهم من اجاب ومنهم من امتنع ووقع الخلف بينهم فتمت حيلته وتوجه بعسكره اليهم فخرب مدينتهم لوتيس مع جزائرها السبع وقتل من قتل وأسر من أسر ومن ذلك الوقت غيروا اسم لوتيس بباريز واشتهرت بهذا الاسم الى الان وهذه الحادثة كانت قبل ظهور المسيح بخمسين عامًا ومن ذلك الوقت اختلط الرومانيون بالباريزيين وصارت ديانتهم واحدة ومكث الباريزيون واهل فرانسا تحت حكم الرومانيين نحو الف سنة فكان القياصرة يتوارثونها قيصرًا عن قيصر ولم ينازعهم احد منهم في ديانتهم فبنوا بالمدينة معابد وهياكل واعلوا بنيتها ونظموا شوارعها ووسعوا اسباب متاجرها ومزارعها وما زالوا كذلك الى سنة ٢٤٥ ثم لما ظهرت بها الديانة العيسوية كان كلما كثر اهلها تقهقر حالهم ولكن بقيت اهل الديانة العيسوية الى القرن الثامن من غير رئيس ومع ذلك فكانت الديانة العيسوية هي الغالبة فلما حصل القول بباريز بربوبية عيسى عليه السلام حدثت الكنائس ورتبت القسس فتفرقوا في مواضع كثيرة فكان العيسويون بشاطى نهر السين ووان واما المتمسكون بالديانة القديمة فكانوا متفرقين في مواضع كثيرة ولكل طائفة رئيس منها يسوسها ويحكم فيها الاّ ان طائفة الفرنج وان كانت قليلة العدد كانت تميل الى السلب والنهب فكانت الحروب بينها وبين من جاورها من الباريزيين وغيرهم لا تنقطع

وكانت جميع القبائل تحسب حسابها وتهاب حربها وذلك لانها
التقت مرة مع جيش الرومانيين فهزمته وكانت لا تبلغ اربعة الاف
وجيش الرومانيين اكثر من ذلك باضعاف فمن ذلك توهموا
شجاعتها وهابوا سطوتها الاّ ان الباريزيين عرفوا كيف يتخلصون
من شرها ويامنون من ضررها وذلك انهم استمالوا قلوب الفرنج
حتى ادخلوهم في ديانتهم وزوجوا اميرهم بنتا من بنات ساداتهم
وملكوه عليهم فعدل فيهم واحسن سياستهم وذب عنهم من ناواهم
حتى خلصهم من ذل الفرنج وقبضة الرومانيين وحكمهم عليهم وكان
ذلك سنة ٤٧٥ من الميلاد فامنوا على انفسهم واموالهم وزادت
ثروتهم وحسنت عيشتهم وملأت المعمورة شهرتهم ولاجل تاكيد
الالتئام والائتلاف ودفع توهم العود الى ما كانوا عليه من الخلاف
بنى ذلك الملك كنيسة باسم الحواريين اي انصار عيسى وهم بولس
وبطرس واوصى ان يدفن فيها اذا مات ففعلوا وكان اسم من
زوجوه بنتهم كلوفس وهو الذي قتل جميع اقاربه وكانوا ملوكا
فاستحوذ على ممالكهم وخلف من الذكور اربعة فلما مات قسموا
المملكة بينهم فتملك احدهم على باريز والثاني على ستير والثالث على
سواسون والرابع دليان ثم مات ملك دليان وخلف ثلاثة من
الاولاد فاتفق ملك باريز وملك سواسون على قتلهم وقسمة مملكة
ابيهم بينهما فارسلا الى والدتهم رسولا يخبرها بان ترسل الاولاد الى
عمامهم ليربوهم ويعلموهم السياسة الملوكية لانهم سيصيرون ملوكا

فتوجه اليها الرسول واخبرها بما قالوه فصدقته وارسلت الاولاد
الى اعمامهم ثم ارسلوا اليها رسولا ومعه سيف ومقص وقالوا له مرها
ان تختار ايهما شاءت ويخبرها انها اذا اختارت المقص فلا حق
لاولادها في الملك واذا اختارت السيف فلا بد من قتلهم فلما
وصل اليها واخبرها بما قالوه قالت اختار السيف وقتلهم اسهل
عندي من بقائهم محرومين من حقوقهم فرجع الرسول واخبر اعمام
الاولاد بما قالته امهم فقام احد اعمامهم وضرب احد الاولاد بخنجر
فخر ميتا والتجأ الثاني الى عمه الثاني فلم يمكنه حمايته من اخيه وخلى
بينه وبينه فقتله واما الولد الثالث ففر من بينهم ولم يوقف له على
خبر ويقال انه دخل ديراً ولم يخرج منه حتى مات وفي ايامهم
حسنت حال اهل هذه المدينة وتقدمت الملة العيسوية الاّ ان
ملكهم مات ولم يعقب الاّ ولدًا واحدًا فتملك بعده ولم تطل مدته
بل مات ايضًا ولم يخلف سوى بنتين فاتفق عماه على ان يقتسما
مملكة باريز وان لا يجعلاها مقرًا وان لا يدخلها احدهما الاّ ومعه
الاخر فمضى الامر على ذلك وهجرت باريز ولم يبقَ فيها الاّ اهاليها
ولما كانت سنة ٥٨٤ من الميلاد خطب ملك الاندلس لابنه ابنة
ملك سواسون فاجابه وجهزها له وارسلها في موكب عظيم جمع
فيه اولاد امراء باريز واعيانها وامر ان يمروا بالموكب من وسط
المدينة ففعلوا ومات اكثرهم في الطريق لبعد المسافة الاّ انه لم تطل
ايامه بل عجل له حمامه ولم يعقب الاّ زوجة وولدًا رضيعًا وكانت

امه مالات قوما واغرتهم على قتل ملك ميتز فلما لم يتم ذلك خافت على نفسها منه فاخذت ابنها وذهبت به الى باريز وكان رئيس الديانة بها يومئذٍ رجل من ذوي المروءه والفتوة المشهورين بالشجاعة والقوة واجتمعت به فانزلها عنده واكرم نزلها وكانت الحرب في ذلك الوقت قائمة وعيون الفتن مستيقظة غير نائمة والفرنج منقسمة قسمين كل قسم منعزل بموضع والعدوان من بينهم لا ينقطع لكن كان القسم الغربي يميل الى السلم ويغلب عليه طبع الحلم لما عنده من عوائد المتمدنين حتى كان يعد من الرومانيين واما القسم الشرقي فكان يغلب عليه طبع الخشونة والتوحش ثم ان تلك المرأة بعد ذلك ذهبت بابنها الى ملك البرجون واستغاثت به في ابقاء ابنها في ملك ابيه فشمر ذلك الملك عن ساعد الجد وشد منها العضد واخذها وذهب بها الى باريز فصادف دخوله يوم الاحد وهم مجتمعون للصلاة فدخل الكنيسة وتلا عليهم مقالة حثهم فيها على ان يساعدوه على ملك ميتز وان يمنعوه عن باريز اذا قصدها فاجابوه الى ذلك فلما جهز ملك ميتز جيوشه واتى بها الى باريز لم يتأخر من اهلها احد بل قاموا جميعا عليه وقاتلوه حتى ارتد بجيوشه خائبًا وصار مطلوبا بعد ان كان طالبا وامنت باريز من ذلك الوقت من طروق الحوادث ولم تمتد اليها يد عادٍ ولا عابث الى سنة ٨٢١ انما كان يحصل بها احيانًا بعض حوادث كقحط ووباء ومرض وغلاء ومع ذلك كان اهلها يتزايدون الى ان كانت سنة ٨٤٥ للميلاد فاغار

الجرمانيون عليها وهي اول غارة اغاروها على فرنسا فقتلوا رجالها ونهبوا اموالها واستولوا على ارضها وكان ملكها وقتئذٍ شارل الاصلع فلما عجز عن مقاومتهم ويئس من الخلاص من يدهم طلب الصلح معهم فصالحوه على ان يدفع لهم ٧٠٠٠ ليرا فاعطاها لهم فاخذوها ورجعوا الى بلادهم ثم بعد عشر سنين رجعوا ثانيا فاعطاهم كذلك فلما علم الجرمانيون ضعف الفرنسيس وعدم مقاومتهم لهم لم يقنعوا بالمال بل طمعوا فيهم فصاروا ياتون كل عام لنهب اموالهم وسبي ذراريهم وقتل رجالهم وهدم معابدهم وهتك حرمة مقدسيهم ولكن لمحافظة الفرنسيس على حرمة مقدسيهم كانوا اذا استشعروا بقدوم الجرمانيين يقدمون موارات المقدسين على محافظتهم لانفسهم وفي سنة ٨٨٥ اغاروا على المدينة غارة كبيرة فدافع عنها اهلها مدة ثم حاصرها الجرمانيون وضيقوا على اهلها وقتلوا من عثروا به في ضواحيها من نساء ورجال واطفال والقوا رممهم في الخنادق وطال الحصار فحصل لاهل البلد ما لا مزيد عليه من الكرب لقلة الزاد وتعذر وصول الميرة اليها فجاء الملك شارل ودخلها بعد محاربة جرت بينه وبين الجرمانيين ولكنه رأى من الصواب ان يصطلح معهم على ان يدفع لهم مبلغا فاخذوه وانصرفوا ولكن كان النهب في البلاد الاخرى لم يزل واقعاً واذا سالوهم عن فوائد الصلح يقولون لهم ان ما اخذناه وجرى عليه الصلح انما هو عن باريز خاصة فزاد كرب الاهالي من هذه الافعـال الشنيعة التي هي من اثار توحشهم

وخشونتهم وقسوة قلوبهم ولما رأى اهل باريس ان ذرية مينار وهم
ابناء ملك مينار قد غلب الجبن على طباعهم ونزلوا في الهمة الملوكية
عن اوضاعهم وتغير شعارهم وكادت ان تخرب من القتل والسلب
ديارهم وان استمرار الجرمانيين على هذه الحال مما يزيد في امرهم
الاختلاف اجمعوا امرهم على ان يجعلوا لها ملكا وان تعود باريز الى
ما كانت عليه من الاستقلال فولوا عليهم رجلا يسمى اود ورضوا
حكمه فعمل لهم قوانين مشوا عليها ثم ان القرال الاكبر المسمى اشيل
وكان مقره اذ ذاك مدينة ايكس انكر على الباريزيين امرًا حصل
منهم فخرج اليهم بجيوشه وقتل رجالهم ونهب اموالهم وتغلب على مملكة
باريز ولكن لم تطل مدته ولم يوجد من يقوم مقامه في مملكته من
ذريته واهل دولته فولوا مكانه رجلا اسمه هوج كابي فسار فيهم
احسن سير ودبر لهم كل ما فيه خير وجدد لهم مصانع ومعالم ظهروا
بها بعد خمولهم بين العالم وقويت في ايامه شوكة الدولة الفرنسوية
وصار لها شهرة بين الامم وشهد لها جميع الدول التي حولها من
انكليز وعجم وجدد بها مدارس وورد اليها من اصناف التجارة ما
لم يرد في ايام من قبله وضم اليه من اهل المعارف من ساعده
وقوى في تدبير المملكة ساعده وكانت بيوتهم دورًا واحدًا من
خشب فلما اتسعت عليهم الارزاق وانتهم التجارة من سائر الافاق
بنوها بانواع الاحجار وجعلوها ثلاثة ادوار الدور الاول معقود
كالقبة والذي فوقه مسطح ومرضض بالخزف واللبن وفتحوا في

الثالث شبابيك ووجد بالمدينة كل ما يلزم لاهلها من سلاح وملبس وطعام وكثرت بها العمارات والحوانيت في تلك الايام وثارت في ايامه فتنة بينه وبين الامراء القاطنين بالارياف وكان من حزب الملك الاشراف فحسم امرها واطفاء شررها وكانت احكام الديانة في ايامه تؤخذ بالتقليد المحض والنقل البحت سواء كان المنقول صحيحًا او غير صحيح ومعقولاً او مخالفًا للعقل

واستمروا على ذلك الى ان بنى بطرس ابيار وهو احد اغنياء الامراء اذ ذاك مدرسته بجبل المقدسة ودرست فيها الفنون فانطلقت السنتهم واتسعت دائرة معارفهم وكان اهل هذه المدينة في ذلك الوقت يبيعون ماكولاتهم في اماكن متعددة غير منتظمة ولم يكن بها معرض عمومي كالذي رايته وكانت عرضة للحوادث السماوية كالمطر والشمس الى ان كانت ايام الملك فيليب اوغست فامر بعمل سقائف وعين لكل سقيفة نوعًا يباع تحتها ويستظل اهله بها وهو الذي بنى سراية اللوفر وفرش شوارع المدينة بالحجر واول من بنى خانات للفقراء وابناء السبيل وعمل اسوارًا حول المقابر وتقدمت في مدته الفنون والصنائع فكانت ايامه كلها منافع لكن كانت ادارة البلاد محالة على مشائخها فظلموا اهلها وامتدت ايديهم الى اخذ الرشوة في الحكم وكانت المناصب تباع وتشرى ولا يولى فيها الاَّ من بذل لاجلها المال او كان من اقارب شيخ البلد او اهله فحصل لاهلها من الذل والاهانة ما لم يسمع بمثله وخربت البلاد وتفرق

اهلها الى ان هلك فيليب وتملك بعده سنلويز وكان يميل لاهل
الديانة والانصاف ويحب عمارة البلاد وينفر عن الظلم واهله فنشر
عليهم الوية عدله وامر بابطال ما فيه شائبة ظلم من اصله ورتب
لمأموري الاحكام مرتبات من طرف الدولة وانتخب من اهل كل
بلد رجالا معروفًا بالصداقة ولاه عليها فعمرت البلاد وتراجع اهلها
وزادت عدتهم وربحت في ايامه تجارتهم وعمل قوانين ونشرها في
مملكته فيها بيان ما يجب على المحترفين في حرفتهم جزاء ارباب
الجنايات ومن احكامها ان يكون اداني الناس واسافلهم في جهة
مخصوصة وقد كانوا منتشرين في البلد لا يتميز ذو الشرف من
الوضيع ولا الدعي من ذي النسب الرفيع ورتب مجلسًا للنظر في
تنظيم البلد وجعل على ارباب الحرف اموالا تصرف في ذلك
وقدر للباريزيين اوقاتهم بضرب الدفوف فكانت تضرب وقت
الفجر لايقاظهم من نومهم ووقت الزوال لغذائهم واستراحتهم من
اعمالهم وجعل في الكنائس نواقيس تضرب وقت العشاء فاذا ضربت
امتنع عليهم الخروج من منازلهم الاّ من كان معه اذن من ضابط
البلد او شيخها ووضع على ابواب الدروب سلاسل باقفال فكانوا
اذا جاء الليل قفلوها فلا تفتح الى طلوع الفجر ورتب على ارباب
الصنائع خفرًا يدور بالليل حول البلد وداخلها وعليهم مفتشون
فاذا حدث امر كتبوه وعرضوه على الملك والمأمورين واصدر امره
ان لا يعافى من الخروج الى الخفر الاّ ارباب الديانة وذووا

العاهات والزمانة وطائفة المعمار والضربخانه وروساء الحرف وجعل على كل من لزمه الخفر ولم يخرج له مائة وخمسين فرنكًا في كل سنة الاّ ان بعض الناس كان يحتمي ببعض الامراء فيتخلص بهم من اداء ما يجب عليه وربما وزعوها على غيرهم فاشتكت الفقراء ذلك اليه فصرفها عنهم والزم بها اهل الحرف خاصة وقتئذٍ وكان عدد اهالي باريز ٢١٥٨٦١ نفسا وعدد كنائسها ٣٦ لكن لم يبقَ الان منها واحدة على حالها بل منها ما هدم وبني ثانيًا ومنها ما ازيل بالكلية وفي زمن فيليب اشتدت رغبة الناس في سكنى باريز فاشترط انه اذا اراد احد درج اسمه ضمن عدادها لا يجاب الى ذلك الاّ اذا توجه الى شيخ البلد واشترى قطعة من ارضها وان يتم بناءها في سنة وان لا ينقص قيمته عن ثلاثمائة فرنك ويشهد عليه بذلك شاهدين ويشرط عليه ايضًا ان يحضر اوقات الاجتماع كالمواسم والاعياد ومن ذلك الوقت صار اهلها درجات

الاولى اهل الديانة وهي التي لها الكلمة على اهل الملة ورئيسهم منهم

الثانيه الامراء ووجوه الناس والاغنياء

الثالثة اصحاب الاملاك والمتوسطون من الاغنياء ورئيس هاتين الدرجتين الملك

الرابعة الاغراب

الخامسة رعاع الناس وآحادهم ودرجة هاتين الطائفتين

كدرجة الارقاء فلا يخرجون من يد الا وقعوا في اخرى وحدث
في ذلك العهد شقاق بين الملك والبابا في شان ارض فرنسا لان
البابا كان يقول ان جميعها من حقوق الكنيسة والملك يمنع ذلك
فاجتمع ارباب الحكومة واجمعوا على حسم هذه المادة واتفقوا على عقد
مجلس مشتمل على ثلاثة عشر من الاشراف ومثلهم من رؤساء
الديانة ومثلهم من اعضاء مجلس المدينة وسموا ذلك المجلس مجلس
النواب لان كل صنف من رجاله نائب عن طائفة وعينوا لهم
موضعًا يجتمعون فيه ووضعوا على بابه صورة اسد رافع راسه الى
اعلى وباسط ذراعيه اشارة الى انه يلزم كل من يريد الدخول
في هذا المكان الاذعان للحق كيف كان وكان عقد هذا المجلس في
سنة ١٣٠٢ والذي انحط عليه رأيهم هو ان الارض وما عليها لله
سبحانه وتعالى وان الخليفة عنه فيها ملكها وان لا حق للبابا فيما
يدعيه فلما اعلنوا ذلك كثرت المنازعات الدينية واختل امر الحكومة
ودخل بين رجالها الغش والنقص فيما يتعاملون به من النقود
حتى ضجر الاهالي وشكوا فلم يسمع منهم فقاموا على رجال الحكومة
ووقع بين الطائفتين قتال شديد مات فيه كثير منهما واسرت
العساكر بعض الاهالي وقبضوا على نحو عشرين رجلا منها وقتلوهم
وصلبوهم على ابواب المدينة وكان في هذه المدة ضربت نقود جديدة
فامر بابطالها والمعاملة بالقديمة فتوقف الباعة وارباب العقارات في
اخذها وحصل بين الناس ورجال المملكة مثل ما حصل

اولا وكثرت الجرائم وتفتحت ابواب المظالم وغلت النقود غلوًا لا
يطاق وضجت الخلق واشتد الامر واتقد في قلوبهم الجمر لاسباب
اعظمها الانكباب على الترفه والزهو والاكثار من اللعب واللهو
حتى قامت الاهالي على الحكومة سنة ١٣١٢ من الميلاد فرفعت
عنهم المظالم فلم يكفهم ذلك بل طلبوا اخراج اليهود من المدينة
لانهم السبب في فقرهم وذهاب اموالهم فلم تمكنهم الحكومة من ذلك
فقاموا جميعًا دفعة واحدة على بيوت الصيارفة واليهود ونهبوها
وقتلوا من وجدوه فيها وحرقوا دفاترهم وصاروا يتتبعون اثر اليهود
فلم ينج منهم الاَّ من الحق نفسه بالعسكرية او آوى الى ركن شديد
وبعد ان اخمدت نار هذه الفتنة عمل الملك لولده فرحًا زينت له
المدينة واوقدت الشوارع بالشموع وفرشت الطرق وساق اهل
المدينة الى الملك هدايا جسيمة واوقدت الشموع نهارًا في محلات
الوليمة وكانت براميل الشراب على عربات والناس يشربونه من
حنفيات ومكث الفرح كذلك اياما وبعد انتهائه امر بموكب ضرب
لاجله من النواقيس ثلاثون الفًا حتى تعجب الناس من وجود هذا
القدر في مدينة واحدة وفي سنة الف وثلاثمائة واربعة عشرة
اتهمت الملكة واختها وامرأة معها بالزناء فحكم على الملكة بالحبس
سبع سنين وقتل الاخريين وكذلك ادعي على كثيرين بان لهم
دخلا في هذا الامر فقتلوا جميعًا ولم يكن اشد على الامراء والاهالي
من ايام فيليب السادس لانه من حين جلوسه على التخت انفتح

عليهم من المصائب ابواب وضاقت عليهم الرحاب فمن قسوته وعنفه
قتله للامراء والاعيان سنة ١٣٤٣ واعقب ذلك وباء عظيم مات
فيه اكثر اهل المدينة فلما اتت سنة ١٣٥٠ الزم اهل المدينة باموال
جسيمة ليستعين بها في حرب الانكليز فادوها اليه بالرغم ولما خرج
لحرب الانكليز لم ينجح له سعي بل غلب واسر كما هو شان مثله من
اهل البغي فولي الحكم من بعده ولي عهده فكان اقبح منه سيرًا
واعظم ضررًا وشرًا ووقع بينه وبين اهل المدينة اختلاف في الاراء
فقدمت اليه صكوك من جميع الامراء يرجون فيها رفع المظالم وكل
مستخدم في وظيفته لا يليق بها فلم يلتفت الى ما قالوه بل جمعهم وتلا
عليهم مقالة نمقها على حسب عقله فلم يقبلوا شيئًا منها وقاموا جميعًا
الى بيوت الامراء ونهبوها وقتلوا من وجدوه منهم وكذلك فعلوا
باتباعهم وكل من ينسب اليهم فعظم الخطب واشتد على ولي العهد
وحاشيته الكرب فكان تارة يلين جانبه ان راى حزبه مغلوبًا وتارة
يرجع الى طبعه وعادته ان رآه غالبًا ولم يزل الخلاف بينهم وبين
اهل البلد يزداد لا الاهالي تمتثل لحكمه ولا هو ينقاد لرايهم ولما لم
يدرك منهم اربًا فرّ هو ومن تبعه هربًا وكان راس العصبة التي
قامت عليه شيخ المدينة فقال في نفسه اني لا يسعني الاّ الصلح مع
ولي العهد والانتماء اليه وارسل له سرًّا يعده بفتح باب من ابواب
المدينة ليدخل منه هو ومن معه وعين له الباب والليلة والساعة
فلما وصل الرسول الى ولي العهد واخبره بذلك صدقه وجاء بمن

معه في الوقت الذي عين له فلما احس شيخ البلد بمجيئه امر رئيس
الحرس ان يفتح الباب فامتنع وقال له انت تريد خيانة الاهالي
فاغلظ شيخ البلد عليه في الكلام فضربه ببلطة كانت بيده فخر ميتاً
وشاع الخبر في المدينة بان شيخها كان مقصوده الخيانة فكانوا لا
يرون احداً من اصحابه الاّ قتلوه فقامت البلدة على ساق وتعطلت
فيها الاسواق ودخل الناس بيوت الاغنياء فنهبوا ما فيها ولولا ان
ادركهم اهل المجلس لهلك الاغنياء جميعاً وبقيت باريز محاصرة تدافع
ولي العهد الى ان دخلها عنوة لكنه ألان لهم بعد ذلك جانبه وعاملهم
بالانصاف وتتبع اهل التعصب فقتلهم واعطى بعض اهل المدينة
علامات شرف والحقهم بالديوان وانشأ بالمدينة مباني فاخرة
ورخص لشيخ البلد وارباب المجلس في الحضور الى مجلس النواب
لسماع ما يتعلق باستحقاق ولي العهد للملك اذ بلغ عمره اربع عشرة
سنة وكان رشيداً ولما اتسعت التجارة وكثر اهل المدينة امر بتوسيع
الدروب وكان الناس يصورون منازلهم بصور حيوانات ويكتبون
على ابوابهم بعض كلمات وكثر في ايامه اللعب بالنرد والكرة
والمنقلة وسائر الملاهي ما عدا الورق فانه لم يظهر حين ذاك فكانوا
يصرفون في ذلك دراهم كثيرة فامر بابطال ذلك كله وقال انها
تفسد الاخلاق وتضيق الارزاق ورخص في اللعب بكل ما فيه
صحة للجسم وفائدة ولما مات حل بالاهالي ما ساءهم لان جميع ما
كان مدخراً في خزائنه مما كان حصله ايام ظلمه وعدوانه واسائته

وطغيانه لم يفِ بمصروف ولده الذي خلفه في الملك وهو شارل السادس الذي استولى بعده لانه كان مكبًا على السكر وانواع الملاهي في جميع اوقاته صارفًا ليله ونهاره في لذاته لا يخلو مجلسه من الرقص والغناء والات الطرب ولا يلتفت الى الحكومة وبالجملة كانت اوصافه كلها مذمومة وكان قائمًا حينئذٍ بتدبير المملكة وكان امر المملكة في ايامه بيد امرائها فمدوا ايديهم الى واردات الحكومة وتصرفوا فيها بما يعود على الناس بالضرر وكثرت المظالم وزادت الجرائم وعلا من الاهالي النحيب واستغاثوا فلم يجدوا من يجيب فلما رأوا انهم لم يسمع لهم شكاية قاموا على الملك ورفعوا ألوية العصيان ودخلوا بيوت اليهود فنهبوها فلما رأى الملك منهم ذلك عاملهم بالحلم ورفع عنهم الظلم حتى خمدت نيران فتنتهم وهمدت شوكة صولتهم ثم رجع الى سيره الاول وعاد ظلمه الى ما كان فقاموا ثانيًا فقبضت الحكومة علي بعضهم فسجنوا ايامًا ثم وضعوا في غرائر واخرجوا ليلاً ورمي بهم في نهر السين والزمت الاهالي بغرامة باهظة فازدادوا ضنكًا على ضنك وكان لهذا الملك افعال لا تليق بالملوك بل لا يقبلها على نفسه صعلوك منها انه لم يقنع بسراريه وحسان جواريه بل تهتك وعربد وتتبع لنساء البلد فما اعجبه منهن حازه ولم يقتصر على ذلك بل كان يطوف البلاد وكلما حل ببلدة فعل بها مثل ذلك حتى اختل عقله وجفاه رجاله فخلا الجو لزوجته واتحدث مع النساء اللاتي كن في حوزته وخرجت عن حدها وارتكبت ما

اوجب هتك عرضها ومكنت الامراء من اغراضهم فساروا في المملكة اقبح سير لا يصدر عنهم الاّ ما يعود على الرعية بالضير وتقاسموا ايراد الحكومة قسمة الغنائم ولم يولوا فيها الاّ من كان معينًا لهم على المغارم والمظالم وتطلعت اعين بعض عائلة الملك للملكة وتطلع لها اخرون كل ذلك والملك في مرض الجنون فكان اذا افاق وبلغه شي من هذه الامور ندم على ما فعل وربما بكى بكاء الاطفال فلما اشتد ضرر الاهالي اجمعوا رايهم على ان يولوا رجلا منهم وعينوه ثم قاموا على محل الملك فوجدوه جالسًا مع زوجته واخيها وبعض الامراء المتحدين معها وطلبوا ان يسلموهم زوجة الملك وخمسين رجلا عينوا اسماهم ليقتصوا منهم فطلبت زوجة الملك مهلة ثمانية ايام فلم يجبها احد منهم فلما لم يجد اخوها حيلة غير التسليم قام وسلم نفسه لهم فغضبت اخته مما فعل ثم هلكت بعد ايام قليلة ثم انهم تحصلوا بعد ذلك على امر من الملك برفع عوائد الاملاك وما كان عليهم من المغارم وكانت السنة الثالثة عشرة بعد الاربعمائة والالف ايام شارل السادس مشتملة على حوادث فظيعة من قتل ونهب وافعال شنيعة ومات في ذلك عريف البلد فنصب بدله الكونت بيديار واحيل عليه نظارة المالية فسلك طريق الظلم واكثر من الجرائم وضاعف على الناس المغارم حتى ضاق بهم الحال وحل بهم الويل فاضمروا قتله فلما بلغه ما اضمروه قبض على كثير منهم فمنهم من صلبه ومنهم من احرقه ومنهم من قطع راسه ومنهم من اغرقه

فاخذ الكرب عند ذلك نهايته واشتد البلاء بالناس فعول كثير
منهم على ان يكونوا من حزب الدوك دوبورجونيا فانضموا اليه
وصارت البلد فرقتين فقامت كل فرقة على الاخرى فمن وجدوه
ليس منهم قتلوه ثم حضر الدوك دوبورجونيا بعسكره فقابله الحزب
الذي كان التجاء به وذهبوا جميعا الى منزل عريف البلد فقتلوه
مع جميع قرابته وحزبه واحبته وقطعوهم قطعا ورموا بهم في
الدروب فكانت تحوم عليهم الطير وتعبث بهم النساء والصبيان
ويلعنهم اللاعنون على سؤ سيرتهم فاستقامت احوال البلد بعد
ذلك وافاق اهلها مدة غير طويلة ثم عاد عليهم الجور والذل بما
نغص عيشهم وازعج نفوسهم حتى كادوا يهاجرون من وطنهم
خصوصًا وقد كتب ولي العهد في ذلك الوقت الى ملك الانكليز
يعزم عليه ان يجيء باريس ليفوض زمام المملكة اليه فلما اتى اليهم
عملوا له يوم قدومه مهرجانًا عظيمًا زينوا فيه البلد واخترعوا لعبة
لم تكن معروفة قبل ذلك وذلك انهم اتوا بخشبة اطول ما يكون
وطلوها بالدهن والصابون حتى صارت ملساء وجعلوا في احد
طرفيها مبلغا من النقود مع بعض طير غالي القيمة حسن المنظر ثم
رفعوها واباحوا ذلك جميعه لكل من وصل اليه فاستمر الناس
يومًا كاملا يعانون صعود تلك الخشبة واحدًا بعد واحد لاخذ
ما عليها فلم يصل اليه الاّ واحد اخذه ونزل به ومن ذلك الوقت
صار البارزيون تحت حكم الانكليز فلم يخرجوا عن حكمهم الاّ على

يد جان دارك المعروفة بالبكر وكانت اميرة على جيش فما خرجت في حرب الاّ عادت منصورة مظفرة فهي التي اخرجت الانكليز واجلست شارل السابع على التخت وذلك سنة ١٤٤٦ من الميلاد فسار فيهم سيرًا حسنًا الى ان أمن شرهم وتمكن منهم ثم بغى عليهم واصدر اوامر ظلمه اليهم فالزمهم باموال يؤدونها اليه لا يستثنى منها احد وجعلهم ثلاث درج

الدرجة الاولى من اربعة الاف فرنك الى الف وخمسمائة

والثانية من ستمائة الى مائة وخمسين

والثالثة من عشرين الى عشرة

ولم يقتصر على ذلك بل طمح نظره الى ما في الكنائس من النقود والحلي فاخذه جميعه وصرفه في لذاته وقضاء اوطاره الفاسدة

وبسبب انكبابه على حظوظ نفسه وغفلته عن تدبير امر الحكومة امتدت ايدي عساكر الانكليز الى البلاد فوقعت بينهم حروب تعطلت بسببها المزارع وكثر عندهم القحط والوباء فكان من مات من المدينة خمسة واربعين الفًا وخرب من البلاد ما لا يعد ولا يحصى ومع هذا كله لم يتحول الملك عن سيء حاله بل ازداد سفهًا وترك المملكة للمتصرفين فيها بالفساد

وبالجملة لو اردت حصر احوال هذه الاهوال وما لحق المدينة واهلها من الاضمحلال لطال الشرح واتسع مجال المقال ولم يزالوا كذلك الى ان هلك الملك فملك بعده لويز الحادي عشر سنة

١٤٦١ فزينت له المدينة وعملت الولائم وفرح الباريزيون به فرحا شديدا وعملوا له موكبا لم يعمل مثله لمن قبله من الملوك فكان مما ابتدعوه في ذلك الموكب ان صوروا رجلا امام الملك على صدره صورة مركب من فضة يعنون بذلك باريز وخلف ذلك الرجل خمس نساء هدية للملك على صدر كل واحدة منهن حرف من حروف باريز ووضعوا على الباب الذي دخل منه الموكب مركبا فيها ثلاثة الوية لون كل لواء غير لون الاخر اشارة الى طوائف الملة الثلاث ورسموا صورة الملك بين عمودين متساويين في البعد اشارة الى العدل ورسموا امامه صورة ملكين يقودانه الى الحق ويحفظانه من كل امر ذميم وجعلوا في صدر الموكب رجالا ونساء عليهم ثياب المتوحشين كانهم يقتتلون ومن خلفهم ثلاث بنات متجردات يغنين بالحان الآلات وخلفهن عربات عليها شي كثير من المشروبات يشرب منها كل من اراد ومما كان في هذا الموكب صورة المسيح وامه وصورة روح القدس والشهوات النفسية وطائفة في هيئة الصيادين بشباكهم وكلابهم وكأنهم يعانون الصيد وقوم في هيئة الانكليز كأنهم يحاربون رجال الملك وكأن رجال الملك غلبتهم واسرتهم وبعد ذلك كله طير مختلفة الانواع متشكلة باشكال غريبة الابداع ولم يزل الموكب سائرًا امامه حتى ادخله الكنيسة على العادة ليؤدي ما يجب على امثاله من العوائد والعبادة ولم تحضر الملكة زوجته الاّ في سنة ١٤٦٧ وكان سيرها في البحر فلما

بلغ اهل المدينة قدومها خرج للاقاتها الامراء والاغنياء في زوارق
واكرموها غاية الاكرام وصنعوا معها ما لا مزيد عليه من الاحترام
وادخلوها بموكب عظيم وعملوا لها فوق ما يليق لمثلها من التعظيم
وكانت سيرة هذا الملك جميلة وهمته عالية جليلة ومحبة الباريزيين
له صادقة والسنتهم بالثناء عليه ناطقة يبذلون في رضاه انفسهم
واموالهم ويتركون لرأيه ارآهم واعمالهم ولذلك لما وقع بينه وبين ملك
الانكليز ما وقع سنة ١٤٦٧ خرج معه منهم سبعة وثمانون الف
مقاتل بسلاحهم ومؤنهم فلما رأى الملك منهم ما رأى شكر فضلهم
وامر بشراب لهم سرورًا بهم ومن مبتدعاته الحسنة مدرسة الطب
التي بالمدينة فانه اول من احدثها وكذلك النور الذي بالشوارع
حتى انه امر اصحاب البيوت والخانات ان يضع كل واحد منهم على
باب خانه او بيته قنديلا وكان رأوفًا بالضعفاء شديدًا على الامراء
يجلس للناس من غير حجاب ولا يمنع من الدخول اليه احد وكان
حميد السيرة الاّ انه كان اذا امر بشي لا ينزل عنه وكان مولعًا بحب
الطير والحيوانات الغريبة ومن شغفه بها كان اذا اعجبه شي منها
كتب اسمه وخاصته والجهة التي جلب منها والكلمة التي يحكيها
بصوته ومع ذلك لم يغفل عن تدبير الحكومة ولم يرتكب لسببه خصلة
مذمومة بل عافى الناس من عدة ضرائب واعان ارباب الصنائع
فيما يعود نفعه اليهم فمن ذلك ترخيصه في فتح دار الطباعة ولم تكن
موجودة من قبل واول من فتحها بباريز جماعة من الالمانيين سنة

١٤٦٦ فلما فتحت اضرت بالخطاطين والنساخين فشكوا الى المجلس وساعدتهم ارباب الديانة بقولهم انها من افعال الشيطان فصدر امر المجلس بابطالها وضبط الكتب التي بها فلما بلغ الملك ذلك امر بفتحها الاّ أن الناس لما زالت عنهم بعدله الاكدار وامنوا مما كانوا يقاسونه من الظلم وظهرت عليهم الرفاهية تشبهت النساء البغايا بالحرائر فصرن يلبسن جميعا ملابس الاحرار ولا تعرف البريئة منهن من الفاجرة وسكنت البغية بجوار الحرة وانتظمت الصدفة في سلك الدرة فلما كثر ذلك صدر امر الحكومة ان لا يتزيّ احد بزي غيره لانه كان عين لهن ما يلبسنه كالاحزمة القصب والفساتين ذات الذيل الطويل وارسال الياقة الى خلف الظهر وكان يكثر من ذم الامراء والاعيان الذين يميلون الى التغالي بالزينة والزخرفة وكان خطيب ذات يوم يحض الناس على التباعد عن الزخارف التي تأباها الديانة والمروة فاشيع عنه انه سب الملك فقاموا عليه وكادوا يقتلونه فلما بلغ الملك ذلك سكن الفتنة وامر بابطال الخطبة وان يخرج الخطيب من البلد وينجو بنفسه ولحلم الملك ولين طبعه كانت اسافل الناس في اخر مدته يهزأون باهل الديانة حتى صوروا البابا والحواريين في الملاعب وكثر ذلك منهم في مدة من تولى بعده ولكن كانت الحكومة محافظة على ناموس الديانة فكان لا يرفع اليها احد طعنًا في الديانة الاّ عاقبته فمن ذلك ما حصل لبعض الطباعين حين تجرأ على طبع كتاب فيه

ذم الديانة فضبطت كتبه واخذ وشنق ومن ذلك انهم حين
اخذوه ليشنقوه صار الناس في اثناء الطريق يسبونه ويؤذونه فقال
لهم رجل ان قتله كافٍ في جزائه فضربوه ضرباً مبرحا وادعوا عليه
انه نسب الى العذراء والمسيح ما لا يليق بهما فحكم عليه ايضا بالقتل
والقائه في النار ومن ذلك الوقت صارت الديانة في اضطراب
وادخل فيها بعض القسس اكاذيب من كل باب ونسبوها الى
المسيح وادعوا انها من الكتب المقدسة وتمادى بهم الحال الى ان
اشتبه الصواب بالمحال وافترقوا ما بين مانع ومدافع ومجادل
ومنازع فظهرت الديانة البروتستانية فافتتن الناس بها وكثر
الراغبون فيها حتى ادعى اهلها ان ديانتهم هي ديانة المسيح وذموا
الكنيسة الرومانية ورجالها وصارت كل فرقة تبيح ذم الاخرى
وتدعي ان طريقتها اولى بالاتباع واحرى حتى قام بعضهم على بعض
ونشبت الحرب بينهم فقتل من الفريقين في ليلة واحدة زهاء
الف الف وسبب هذه الفتنة ان امرأة يقال لها (ماري دوميديسي)
دست على الملك ان الملك لا يلتئم وراحة رعيته لا تتم الاّ اذا
قطع البروتستانيون عن اخرهم ولم تزل به حتى خدعته وصرفت
همته الى ما اليه دعته ثم ذهبت الى البروتستان وغرتهم حتى
ادخلتهم باريز واستوطنوا بها ثم اتفقت مع ووجيز ان يحصي اسماء
الدوكات من دفاتر الفردة ويعلم منازلهم بالطباشير وان يجمع
الحرس ويفرق فيهم السلاح وان ينتشروا في شوارع البلد وحاراتها

وان يستعدوا لتنفيذ امر الملك بقتلهم ففعل جميع ذلك من غير ان
يشعر به احد من البروتستانيين فلما كانت ليلة الرابع والعشرين
من شهر اغوسطس الافرنجي سنة ١٥٧٢ ارسل الدوك دوجيز
الى اصحابه واتباعه فايقظهم من نومهم وجمعوا له العسكر والحرس
وعرفهم بالعلامات التي جعلت على ابواب المنازل وامرهم انهم متى
سمعوا ضرب الناقوس هجموا عليهم دفعة واحدة فقالوا سمعا وطاعة
وانصرفوا فلما كان نصف الليل ضرب الناقوس فهجموا على بيوتهم
وقتلوهم عن اخرهم ومن شدة كراهتهم لهم كانوا يشقون بطن الحبلى
فيخرجون جنينها فامتلأت من رممهم الدروب وانتن من رائحتها
شمال وجنوب وكان عدد من قتل من امرائهم واعيانهم خاصة في
هذه الوقعة ستمائة فاصبحت منازل الجميع خرابا وقام حاكم كل
بلد من بلاد باريز على من ببلده من البروتستانيين ففعل بهم ما
فعلت باريز بمن بها منهم واصل هذه الفتنة امرأة فانظر كيف
اعقبت الخراب والبين وابدت العداوة بين الطائفتين

فقال الشيخ هكذا فتن النساء فانهن يضرمن نار الشر حتى
يصل لهبها الى عنان السماء فكم لهن مثل ذلك وكم اوقعن رجالا في
مهاوي المهالك

فمن ذلك القتال الذي استمر بين بكر وتغلب اربعين عاما
حتى ضرب به المثل في الشر وليس سببه الا امرأة تسمى هيلة
ويقال لها البسوس وهي خالة جساس ابن مرة وكان لها ناقة

يقال لها سراب وكان من عادة كليب ان يحمي اوديته فلا يرعى
فيها غير ابله حتى انه كان يحمي مواقع السحاب ويقول وحش
كذا في جواري فلا يهاج فمر يومًا بمرعى كان قد حماه وفيه قنبرة
قد باضت فلما رأته صرصرت وخفقت بجناحيها فقال لها من
روّعك وانت في ذمتي وانشد يقول

يا لكِ من قنبرة بمعمرِ
خلا لكِ الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئتِ ان تنقري

فما جسر صاحب بعير ان يدخل ذلك المرعى فاتفق ان مرت
ابل كليب على ناقة البسوس فعركت الناقة عقالها حتى قطعته
وتبعت ابله فلما وردت الماء مع ابل كليب عرفها وظن ان جساسًا
اطلقها مغايظة له فانف وغضب ورماها بسهم فاصاب ضرعها
فصارت الناقة تعدو والسهم في ضرعها حتى اتت الى فناء صاحبتها
وضرعها يشخب دمًا ولبنًا فلما سمعت البسوس عجيج الناقة طرحت
خمارها واقبلت اليها فاذا السهم معترض في ضرعها فصكت وجهها
وقالت واذلاّه فلما سمع جساس قولها اسكتها وقال والله ليقتلن
غدًا فحل هو اعظم من ناقتك يعني كليبًا ثم انتجع الحي فمروا على
نهر يقال له شبيث فنهاهم كليب عنه وقال لا تردن منه قطرة ثم
مروا على نهر اخر يقال له الأحص فنهاهم عنه فمضوا حتى اتوا
الذنائب ونزلوا فمر جساس بكليب وهو واقف على غدير الذنائب

منفردًا فقال طردت اهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا فقال كليب والله ما منعناهم من الماء الاّ ونحن له شاغلون فقال له جساس هذا كفعلك بناقة خالتي فقال او قد ذكرتها اما اني لو وجدتها في غير ابلي مرة اخرى لاستحللت تلك الابل فعطف عليه جساس بفرسه فطعنه بالرمح فارداه ووجد الملك فقال ياجساس اسقني فقال هيهات تجاوزت الأحص وشبيثًا ثم اجهز عليه وعطف الى اهله فلما رأته اخته من بُعد قالت لابيها ان لجساس شأنًا قد جاءنا خارجة ركبتاه فقال ابوها والله ما خرجت ركبتاه الاّ لامر عظيم يعني انه كان بركبتيه وضح لا يظهره فلما جاء قال له ابوه ما وراءك يابني قال طعنت طعنة لتشتغلنّ بها شيوخ وائل زمنًا فقال أقتلت كليبًا قال نعم ثم نظر جساس الى اخته وكان اسمها نضلة فقال لها

وانى قد جنيت عليك حربًا * تغص الشيخ بالماء القراحِ
مذكّرة متى ما يصحُ منها * فتى شبت لآخر غير صاحِ

فاجابته تطيب نفسه وقالت

وان تكُ قد جنيت عليّ حربا * فلا واهٍ ولا رثّ السلاحِ

ثم هرب جساس وقام مهلهل في طلب ثار اخيه ووضع الحرب بين الحيين فاستمرت اربعين عامًا حتى ضرب بها المثل وكم لذلك من امثال ونظائر واغرب منه ما كان من الزباء الى ان

وضع قصير من قتلها في الغرائر فحدثنا كيف كان حال المملكة بعد هذه المعركة

قال عم الخراب ضواحيها وسرى منها الى سائر نواحيها وصار من بقي من البروتستان يترقب فرصة للقيام واهل الديانة الاصلية تحزب احزاب الانتقام وتغريهم بمن بقي من البروتستان وكان الرئيس على المدينة وقت ذاك الدوك ووجيز فاراد الملك هنري الثالث الاستبداد والاستقلال فتنازعا وصار الناس قسمين واريقت بينهما الدماء حتى وصل غبار الحرب عنان السماء واختل امر الحكومة اي اختلال وتمادى الامر على هذا الحال الى ان عقد مجلس الستة عشر وانما سمي بذلك لان اعضاءه كانت اولا كذلك ثم زادوا وبلغوا اربعين فكانت امور المدينة مسندة اليهم لا يبالون بملك ولا غيره فحنق الملك من ذلك وامر بابطال المجلس فلم يلتفتوا الى قوله ولم يعول احد من اهل المدينة على رأيه فاغلظ عليهم في ابطاله فقام عليه اهل المدينة وقتلوا معظم رجاله واما هو ففر هاربا ثم وجدوه مقتولا فدفنوا رمته وعدوه من المقدسين

فقال الشيخ يحكى انه في زمن الملك قباذ والد كسرى انوشروان حدثت فتنة من هذا القبيل وكان سببها ان ظهر في ايامه رجل زنديق يقال له مزدك فادعى النبوة واحدث مقالات في اباحة الفروج والاموال وقال ان الناس في ذلك سواء لانهم جميعا اولاد آدم وحواء وحرم سفك الدم واكل اللحم فاتبعه خلق

كثير فكان قباذ ممن تبعه فدخل مزدك عليه ذات يوم فوجد عنده زوجته ام كسرى وكانت من اجمل النساء فاعجبته فقال لقباذ اني اريد ان انكحها فان في صلبي نبياً واريد ان يكون منها فاطاعه قباذ لكونه على مقالته وعقيدته فلما هم مزدك بها دخل عليه كسرى وكان صغيرًا فقبل قدميه وتضرع اليه ان لا يفعل بها فوهبها مزدك له فلما مات قباذ وقعد ابنه كسرى انوشروان على التخت مكانه جمع جميع خواصه ليعاهدهم فكان مما قاله لهم اني اشهدكم على اني لا ادع احد من المزدكية الاّ قتلته لانهم اباحوا نساء الناس واموالهم وجعلوها مشتركة بينهم لا يختص احد بامرأة ولا مال حتى اختلط اسافل الناس بعناصر الكرماء وسهل سبيل الفواجر والفاجرات الى قضاء الشهوات واتصلت السفلة اللئام بالنساء الكرام اللآتي ما كان لمثل اولئك ان ينظروا اليهن اذا رأوهن في طريق

فقال له مزدك الزنديق هذا فساد في الارض والله ولاك لتصلح لا لتفسد

فقال له انوشروان اتذكر يابن الخبيثة حين سألت والدي ان ياذن لك في المبيت عند امي فاذن لك فمضيت نحو حجرتها فلحقت بك وقبلت رجلك وان نتن جواربك ما زال في انفي الى الان وسالتكها فوهبتها لي قال نعم فامر به فقتل واحرقت جيفته ونودي باباحة دماء المزدكية والمانوية المجوسية واظهر الديانة القديمة

وكتب بذلك الى عمال الولايات فقتل منهم خلق كثير وقسم اموالهم على الفقراء ورد الاموال التي لها اصحاب الى اصحابها والحق كل مولود اختلف فيه بمن يشبهه وان كان من المزدكية جعله عبدًا لمن حملت به منهم وامر بالنساء اللآئي تبرأ منهن اهلهن او مات من يقوم بهن فجمعن في موضع واجرى عليهن ما يلزم لهن وان يزوجن من مال والده واضاف البنين الذين لم يوجد لهم اب ولا شبيه الى مماليكه ثم قال الشيخ فغالب ما يحصل بين اهل الديانات من مثل هذه الحوادث الفظيعة سببه آكاذيب واوهام تلقيها اهل الباطل فيما بينهم ثم يدخلونها على العوام فاما ان يقيض الله لها من يدحضها والا عدت حكما من الاحكام

فلما سكت رجع الانكليزي الى بقية حديثه وقد علم رغبة الشيخ في سماعه فقال ثم انه بعد هذه الحادثة وموت هنري الثالث قام هنري الرابع وكان بروتستانيا واراد دخول المدينة فقفلت دونه الابواب وقالوا له لا نملّك علينا الاّ من كان منا فحاصرها ومنع دخول كل ما كان يرد اليها فاشتد في المدينة الغلاء وحل باهلها القحط والوباء ومع هذا كانت القسس تحثهم على القتال وتحذرهم من التسليم له فكان بعضهم وهو في اخر رمق يأخذ سلاحه ويخرج مع المقاتلين ويقول ان لم يكن في ذلك صلاح في الدنيا ففيه حفظ للدين فلما طالت مدة المحاصرة وعجزوا عن المقاومة وخلت المدينة من الفتيل والنقير والحبة والقطمير ورأوا القسس تبيع شيئًا

كثيرًا من الغلال ولا ترثي لما هم فيه من القحط لم يسعهم الاّ ان
قاموا دفعة واحدة على بعض الديورة فوجدوا فيها شيئًا كثيرًا من
بر وخبز وادام ولحم قديد فاخذوه وتقاسموه ثم امر المجلس بتوزيع
الفقراء وذوي العاهات على الديورة كل دير بحسبه وقدّر لكل
شخص شيئًا معلومًا من الخبز والادام فلما علم القسس ان لا مفر من
امر المجلس صاروا يصطادون كل ما عثروا به من الحيوانات
ويطبخونه لهم بدمه وامعائه وياتون مكان الخبز بعظام الموتى فيسحقونها
ويلتونها بتراب وماء ويعملون منه خبزًا فلما تمادى الحصار وراوا
ان حالهم آل الى الهلاك والدمار فر منهم خلق كثير وذهبوا الى
الملك وطلبوا ان يأذن لهم بالخروج لاجل ان يتحصلوا على ما
يقتاتون به فاذن للفقراء والعجائز والنساء فخرج منهم نحو ثلاثة الاف
نفس ثم امر بالمنع من الخروج ثم لما راى ان حصارهم قد طالت
مدته ولم تحصل به امنيته دبر في نفسه انه لا يتمكن من المدينة
واهلها ما دام على المذهب البروتستاني واهل المدينة كاثوليك وان
الراعي والرعية لا يستقيمان الاّ اذا كانت ملتهما واحدة ودعوتهما
متحدة ثم اخبر خواصه بذلك فقالوا الراي ما رأيت فلما علم انهم
وافقوه ارسل الى المدينة يخبرهم بدخوله في دينهم وذلك سنة ١٥٩٥
ففرحوا به وفتحوا له الابواب وكانت مدة الحصار نحو خمس سنين
فلو رأيتهم حين دخلها لرأيت منهم شيئًا عجيبًا وقد قويت منهم العزائم
واكثروا لاجله الولائم ولما تملك ودخل المدينة لم يكن له غرض

سوى عمارتها وانتظام امورها فاول شي بدأ به ان عمل قوانين
للعدل بين اهلها ثم اتخذ في اسباب انتعاشهم واتساع دائرة معاشهم
فنظم طرقا وفتح شوارع ووسعها الاّ انه عانى في فتح هذه الشوارع
مشقة عظيمة حتى ارضى اصحاب الاملاك لاسيما القسس منهم لانهم
كانوا يتعرضون للبنايين والفعلة لعدم سابقة لمثل هذا ومع ذلك
فقد تم مراده واصبحت المدينة كثيرة الميادين والشوارع خصوصاً
الميدان الذي هو داخل السراي الملوكية الآن ومن حبه لنظافة
المدينة واهلها خص قوماً بكنس قماماتها ودفع وحلها وفي ايامه وايام
من بعده وهو لويز الثالث عشر كثرت العربات وترتب على ذلك
كثرة العربجية فكثرت حركاتهم بالليل ووقعت بينهم المنازعات
حتى سرت منهم الى ابناء الامراء وسبب ذلك كله النساء فتضرر
الاهالي ولم يزل الحال على هذا الى ان عمل ريشيليو قوانين
العقاب فنقص بعض نقص ثم لما تغيرت احوالهم وانتقلت الى درجة
الرفاهية غيروا هيئة بيوتهم فبنوها بالحجر بدل الخشب وزخرفوها
بالرسوم خصوصاً اعيانهم واغنياؤهم ولم يزالوا في تقدم الى ان تولى
لويز الرابع عشر فزادوا في الرفاهية والتمدن وفتحت في ايامه مدارس
العلم واحترمت اهله وانشاء رصدخانة ومعامل لتكرير البارود
وكثرت في ايامه انواع الملاهي والملاعب المسماة بالتياترات وزين
اللوفر بالعمد التي حوله واحدث في المدينة ميادين للنزاهة منها
ميدان الكاذوريل الذي عمله للوليمة سنة ١٦٦٢ وميدان فندوم

وميدان النصر وانشأ حول المدينة ابوابًا غير ابوابها الاصلية منها
باب النصر الذي وضع اساسه مارتان وردم بابًا كان انشأه انتون
وقد هدم سنة ١٧٧٧ وردم الخنادق وغرس الاشجار التي ترى
الآن حول البلوار وازال تلالاً كانت تضر بصحة اهل المدينة ومن
حولها وبنى محلها ابنية بديعة ورتب مصابيح في الطرق وخص
رجالا لاطفاء الحريق وظهرت في مدته العربات الكبيرة المعروفة
بالامنيبوس ولم تكن موجودة من قبل وخصصها باماكن معينة
وجعل لكل مكان اجرة معلومة ولكن لغلو اجرتها كان لا يركبها
الاَّ من لا يستطيع ركوب العربات المعتادة ومنع من ركوبها
العربجية ونحوهم وكانت اولا سبعًا ثم صارت اثنى عشرة ولهذا
كانت قليلة الربح ثم في سنة ١٨٢٨ رخص في ركوبها لكل من
اراد وفي ذلك الوقت كان مأمور الضبطية وناظر المالية واحدا
فلما راى الملك ان الواحد لا يقوم بالوظيفتين كما ينبغي امر ان يعين
لكل وظيفة واحد وبسبب هذا التنظيم أَمن النـاس على اموالهم
واهليهم واتسعت عمارة المدينة وكثر الوافدون اليها حتى بلغ عددهم
في ايامه خمسمائة الف نفس وعدد الدروب خمسمائة وعدد الميادين
مائة والقناطر تسعًا وعدد المنازل اثنى عشر الفًا الكبير منها اربعة
الاف ولكن في ايامه عزت النقود وبلغ دين الحكومة غايته لما احدثه
من العمارات والتنظيمات واحصي الدين بعد موته فكان ثلاثة
مليارات من الافرنك فانشأ جان لاوو بنكا للمصارفة وجمع فيه

ستة ملايين من الليرات فجزأها الى الف ومائتي سهم كل سهم ستة الاف وستمائة وكان من شروط ذلك البنك ان يقبل فيه بدل النقود اوراق حوالات فلما اخترع ذلك تعامل بها الناس غنيهم وفقيرهم حتى صار ملحقًا بالتجارة وهرع اليه الناس ولما اشتهر امره وضع صاحب البنك في جهات امريكا عدة مساهمين ثم اجتمع البنك والكومبانية وصار مالها واحدًا وادارتها واحدة فبلغت قيمة السهم الواحد تسعة الاف ليرا وذلك سنة ١٧٢٠ ثم في سنة ١٧٢١ صدرت اوامر الحكومة بنقص قيمة الاسهم تدريجًا وحدد لذلك ميعاد غايته اول شهر ديسمبر من السنة المذكورة وان كل من تاخر عن الميعاد المذكور نقص قيمة سهمه فتضرر من ذلك اكثر الناس وفي سنة ١٧٧٠ اجتمع ناس وارادوا ان ينوروا شوارع باريز بالزيت وجعلوا على كل مصباح في السنة الواحدة ثلاثة واربعين ليرة واثنى عشر صولدي ليس منها ثمن العواميد التي تحمل المصابيح فكانت باريز في تلك الايام على غاية في التقدم وكثر بها المؤلفون ورحل اليها كثير من اهل اوروبا وخفف فيها شان العقوبات فكان كل انسان يتكلم بحريته ويكتب ما شاء من احوال الخلق سواء كانت خصوصية او عمومية سياسية او دينية وظهر فيها رجال ذوو افكار فالفوا كتبًا انتشرت في سائر الاقطار فانجلت عنهم غياهب الجهل وتميزوا على غيرهم بالعقل وبلغ عدد منازل باريز في تلك الايام خمسين الفًا منها خمسون لوكندة وعدد الدروب

ذات المصابيح سبعمائة وسبعة وستين وكان بها من الكنائس
ذات النواقيس ست واربعون ومن غيرها عشرون واحدى عشر
تكية للفقراء ثلاث للرجال وثمان للنساء ومن الديورة مائة وثلاثة
وثلاثون ومن المدارس عشر وكان بها تسعة وعشرون مارستانًا
وخمسة واربعون مجرىً لاخراج القاذورات وستون حنفية واثنتا
عشر سوقا وثلاثة ابواب يقال لكل واحد منها باب النصر وخمسة
هياكل من التنخ فان لحق باريز من القيام الاول بعض الاضمحلال
الاّ انها من بعده الى الآن لم تزل آخذة في التقدم بكثرة المباني
والمعابد الدينية والمدارس والامكنة الخيرية كالمارستانات
واللوكاندات ومحلات اللهو والتياترات فترى كل من احب
ان يتمتع نظره جاءها او يرى ابدع مخترع قصد ارجاءها فهي
مركز اللهو والانبساط وكل بدعة في الدنيا لها بها ارتباط لانها
قد حازت محاسن الدنيا اجمع وليس من يرى كمن يسمع ومما يدل
على انها انتقلت من حالها الاول ان مساحتها في الاصل كانت
لا تزيد عن ستين فدانًا مصريًا يحيط بها سور مبني كبناء القرى
ثم ما زالت تتسع ويكثر اهلها الى ان بلغت مساحتها خمسمائة
فدان وذلك بعد موت فيليب دوكيش وبني حولها سور محكم في
غاية الارتفاع وجعل فيه ابراج ومزاغل في غاية الاحكام والتحصين
ثم بلغت في القرن الرابع عشر والخامس عشر تسعمائة فدان وفي
ايام لويز السادس عشر وقيام الدولة الفرنسوية القيام الاخير

وذلك سنة ١٧٧٢ بلغت مساحتها الفين وستمائة وسبعين فدانًا ثم في سنة ١٨٠٠ بلغت ستة الآف وخمسمائة فدان واما الآن فهي ضعف ذلك ولا يخفى على حضرتكم ان سعة المكان تابعة في الغالب لكثرة السكان فقد بلغ عددهم الآن نحو مليون ونصف بعد ان كانوا في القرن التاسع والعاشر لا يزيدون عن ٢٣٠٫٠٠٠

ثم قال الانكليزي وفيما ذكرناه كفاية وان كان ما قيل بالنسبة لما يقال في حقها قليلاً الّا ان ما لا يدرك جله لا يترك كله ولكن بقي امر اريد ان اخبركم به وهو ان صاحبنا الذي كنا اجتمعنا به حين كنا ببرسيليا ارسل تذكرة يسلم فيها على حضرتكم وعلى نجلكم ويعتذر اليكم في عدم ارساله جوابا مخصوصا لكم بان لسانه في العربية لا يفي بما يجب لجنابكم وانه بعد يومين يكون عندنا بباريس وارسل ايضا يستفهم مني عن امر يتعلق بجنابكم كان سألني اياه حين كنا هناك ولم اتفق معه فيه على شي وقد ارسل الآن يطلب الافادة عنه

فقال الشيخ وما هذا الامر

فقال انه كان تمنى عليّ ان ارجى حضرتكم في ان تعطوا بجمعية المعارف المشرقية بعض دروس من الفنون العربية وانما لم اخبركم بذلك حين كنا هناك لكونه لم يكرر عليّ فظننت انه نأى عنه وهذا الرجل من اعيان تلك الجمعية فها هو الآن ارسل يطلب الجواب وهو موقوف علي راي الجناب وهولاء الجماعة كلهم امراء

علماء كرماء وتعرفكم بهم مما يزيد في شهرتكم ويرفع من درجتكم فضلا عن الحصول على مال بوجه حلال وقد اخبرني ذلك الرجل ان مرادهم ان يجعلوا لحضرتكم في كل درس خمسين فرنكا ولا مشقة عليكم في ذلك فان زمن الدرس ساعة ونصف فالراي عندي انه اذا اتى وخاطبكم في هذا الشان ان لا تمتنعوا فان فيه فوائد كثيرة اقلها اطلاعكم على غوامض عوائدهم التي لا تعلم الاّ منهم خصوصا وقد قيل بارك الله في من نفع وانتفع

فاثنى الشيخ على مقصده الحسن وكان قد حان وقت الصلاة فاستاذن وقام الى مصلاه فصلى ثم نام

المسامرة الثانية والثمانون

الباآلو

ولما اسفر الفجر قام وصلى ثم دخل عليه ولده فقبل يديه فسأله كيف كانت ليلتكم وما الذي رأيتموه فيها فقال ما رأيت الاّ نوعا من الجنون حتى تحقق عندي معنى قولهم الجنون فنون رأيت الشيخ هناك لا يوقر شيبته والامير لا يراعي مقامه وابهته وكل انسان تنازل عن قدره لا تمييز بين وضيعهم وشريفهم ولا بين غنيهم وفقيرهم ورأيت اقواما في صفات مختلفة منهم من ستر وجهه بقماش رقيق ومنهم من ستره بالجلد ومنهم من ستره بالورق ومنهم من صبغه بلون الورد ومنهم من تلثم وكأن الشيب لاح بعارضيه ومنهم من جعل له لحية وكأنها جاوزت ثدييه ورأينا الوان اجسامهم مختلفة فمنهم الاسود والاحمر والابيض والاشقر وغير ذلك من الالوان التي

لا تكاد توجد في نوع من الانسان ومنهم من ستر عورته بجلد كالجراب ومن وضع على ظهره فروة كهيئة الاعراب وغير ذلك من الهيئات والصفات وسمعت هناك اصواتا مختلفة وانغامًا متنافرة غير مؤتلفة ولما رأيت ما هم فيه من الجنون تمنيت الرجوع ولا احضر هذا المجون ولولا ان من شرط المرافقة اللين والموافقة لرجعت ولا كنت رايت ولا سمعت فان يعقوب حين وصلنا الى هناك قبض على يدي فتبعته فسار بي نحو ساعة الى ان وصلنا محل التذاكر فاخذ تذكرتين ودفع في كل تذكرة افرنكين ثم سرنا في متسع من الارض حتى وصلنا ميدانًا فيه من انواع اللطائف واشكال الرسوم والزخارف ما لا يحصى فوجدناه ملآنا نساء ورجالا وكهولا واطفالا ولاختلاف هيئاتهم لا تعلم اجناسهم وحول ذلك الميدان غرف كثيرة منها ما يسع واحدًا ومنها ما يسع اكثر ومنها المظلم ومنها المضيء فقعدنا في احداها فلم يمض الا لحظات واذا بالآلات قد ضربت وقام غالب من بالميدان فرقص عليها فكانت تسرع تارة وتبطئ اخرى وهم معها في البطئ والسرعة فكانوا يقومون للرقص مثنى وفرادى الرجل مع المرأة والمرأة مع الرجل فيرقصون ساعة ثم يقعدون ليستريحوا ثم يقومون ثانيًا او يقوم غيرهم ولهم في رقصهم حالات فتارة يقومون صفين ويسيرون خلف بعضهم الى وسط الميدان ثم يعود كل صف الى موضعه الذي بدا منه او يقوم موضع الاخر وتارة ياخذ احدهما بيد الاخر ويدوران خلف بعضهما

وكيفية حركتهم في حال رقصهم ان يضربوا الارض بارجلهم فتارة يضعون واحدة ويرفعون الاخرى وتارة يضعونهما ويرفعونهما جميعا ومن الغريب ان غالب الراقصين والراقصات من المتفرجين لا من ارباب المحل ولكل كيفية من هذه الكيفيات اسم معروف بينهم كما اخبرني يعقوب منها ما يسمى بولكا ومنها ما يسمى الكانكان ومنها ما يسمى الولس وقد اخذني يعقوب في بعض سكتات الاستراحة ودخل بي مكانا داخل المكان الاول فرايت فيه قوما اخرين منهم من يلعب القمار ومنهم من يشرب السجارة وغير ذلك والكل في هيئته المعتادة لم يغير منها شيئا فما نظرت الى رجل منهم الاّ وهو يلاغيني ولا امرأة الاّ وهي تناغيني ففهمت من كلامهم ان مقصودهم الرقص معي او الجلوس معهم ولكون معرفتي بلغتهم لم تبلغ درجة معرفتهم بها كان يعقوب يبادر بالاجابة عني ويخبرهم اني مصري لا معرفة لي بشي من هذا الامر من اصله وان مجيئي انما هو من باب قولهم العلم بالشيء خير من جهله وما رأيت هناك رجلا الاّ ومعه المرأة والمرأتان وتارة يكون مع المرأة الرجل والرجلان فسألت يعقوب هل بين هولاء النساء والرجال نسب فقال لا نسب ولا حسب وانه ربما يجتمع الرجل مع زوجته او امه او ابنته ويقطعون زمنا في هزليات وسخريات ثم يفترقون ولا علم لاحدها بالآخر لما يحصل من التغيير والتشكيل الذي رأيته وانه قد يجتمع في مثل

هذه الليالي كثير من الشبان فيصرفون فيها مبالغ جسيمة وان الفاحشة بينهم ليست قاصرة على اهل المدينة لانه يحضر من الارياف بعض نساء اما لتعثر لها على خدمة واما لتنظر لها صاحباً فلذلك يكثر الفحش والمنكر في مثل هذه المواضع من غير منكر ولا مانع هذا ما كان واظن انه بعض ما حواه ذلك المكان ولا اكتم عنك ما رأيت ولا ما ارى لعل ببركتكم يغفر لي ما خطه القلم وبه جرى

فقال الشيخ لولده او قد نظرت الى ذلك كله وملأت عينيك مما لم يقل احد بحله ألهذا ارسلتك او على مثله عودتك أما علمت ان من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم أنسيت قوله عليه الصلاة والسلام عن ربه ذي الجلال والاكرام النظر سهم مسموم من سهام ابليس من تركها من مخافتي ابدلته ايماناً يجد حلاوته في قلبه فللتوبة استعد ولمثلها لا تعد وبينما الشيخ يعظ ولده ويعنفه على ما حصل واذا بيعقوب عليهما قد دخل فقطع الشيخ كلامه ووجه الخطاب الى يعقوب ولامه انما ألان له الخطاب ليقف على ما عنده من الجواب فقال لم يكن مقصودي من ارساله معك الاّ لتطلعه على احوال هذه المدينة واهلها لا لتطلعه على مثل هذه الامور اذ لا ضرورة الى معرفتها

فقال يعقوب يعتذر اليه ياسيدي لا تواخذني فاني اعلم يقيناً

ان حضرتكم تأنفون من حضور هذه المواضع ولكن عذري ما علمته فيكم من الرغبة في الوقوف على عوائد هذه البلاد واهلها فذهبت به اليها لتقفوا به على معرفة هذه العادة ولو كنت اعلم ان ذلك يخل بحسن التربية ما ذهبت به والذي اخبركم به نحلكم وان كان منافيا للوقار والكمال الاّ انه مألوف لهم مرغوب فيه عندهم فان لهم بالبالو والرقص شغفا زائدا حتى ان الامراء والملوك لتفعله في بيوتهم ويدعون اليه احبابهم من نساء ورجال

واما الاماكن المعدة له كالذي كنا به الليلة فلا يذهب اليها الاّ فقراء الناس وغرباؤهم

ومن عوائدهم ان كل من دعي الى البالّو ولو كان دني الحرفة لا يذهب الاّ في ثياب غالية القيمة زائدة الكلفة وانهم يعتنون بشان نسائهم اكثر من اعتنائهم بانفسهم حتى ان الرجل منهم ليرغب في ان تكون امرأته او بنته هي المنظور اليها دون من عداها فتجدهم يبالغون في حلية نسائهم ويصرفون فيها اكثر مما يصرفونه على انفسهم حتى لو اعسر الرجل لا تلتمس له امرأته عذرا بل تضايقه حتى يأتي لها بما تتزين به جبرًا وقهرًا ومن عوائدهم ان لكل وقت عندهم هياة مخصوصة لا يتعداها ولا يلبس فيه ما عداها وان نسائهم هن اللائى بيدهن الحل والربط داخلا وخارجا فلا يتصرف الرجل منهم في شي الاّ باذن امرأته

فقال الشيخ لعمري ما في هذا كله شي يمدح بل لا ثمرة له الاّ الشقاق وفساد الاخلاق فان المرأة بالنسبة للرجل كالنار بالنسبة للحطب فكما يترتب على اجتماع الحطب والنار الالتهاب والاتقاد كذلك يحصل من اجتماع الرجل بالمرأة وقوع كليهما في كثير من انواع الفساد ولولا تمكن هذه العوائد منهم وتوارثهم لها عن متقدميهم لما الفوها ولا شكروها ولكن العادة محكمة

المسامرة الثالثة والثمانون

اهرام مصر

والمقاييس

ثم قام الشيخ واخذ ولده ويعقوب وتوجهوا الى محل الانكليزي فسلموا عليه ثم خرج ابن الشيخ مع يعقوب وبقي الشيخ والانكليزي يتجاذبان اطراف الحديث من القديم والحديث وبينما هما كذلك وإذا برجل من اصحاب الانكليزي فقام له واجلسه بجوار الشيخ ثم اخذ يعرف الشيخ باحواله وكثرة سياحته وإن له معرفة تامة باللغة الفارسية والتركية والعربية وعليه في مدرسة الجمعية المشرقية دروس يلقيها بهذه اللغات فلما سمع الشيخ ذلك عظم الرجل في عينه وقال الان تم الارب حيث ظفرت في هذه البلاد برجل يعرف لغة العرب فلعلي اكتسب من معلوماته فوائد تحلى من

سياحتي محل واسطة العقد من الفرائد اذ لذة مجالسة العلماء فوق لذة الظمآن بشرب الماء

ثم قال الرجل للشيخ ايها الاستاذ ان طبعنا يميل كل الميل لمعرفة اخبار بلاد المشرق وقلوبنا مجبولة على حب اهلها لا سيما المصريين فان جميع العلوم النافعة في بلادنا منقولة لنا منها بواسطة الرومانيين وغيرهم والتقدم الذي تفتخر به بلادنا منشأه مصر فلها علينا الفضل بل على جميع سكان الكرة فكلما نحن فيه من التقدم والثروة سببه المصريون فيا لهم من قوم ادخروا ذخائر انتفع بها بعدهم الاواخر فانهم قد وضعوا اساسات انبنى عليها لمن بعدهم هذه التقدمات وهذه العلوم الموجودة الآن هم المؤسسون لها وهذه الصنائع الفاخرة كان لهم فيها اليد الطولى على اهل القرون الاولى وما بقي بعدهم من الاثار والماثور عنهم في كتب الاخبار من الابنية الجليلة والصنائع الجميلة يعرب عن مزيد قدرتهم وشدة مهارتهم وعلو افكارهم

فقال الشيخ ما ذكرته لمصر من المحاسن بهذا الاسلوب من باب نظر المحب للمحبوب كما قال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما ان عين السخط تبدي المساويا

فقال الرجل ايها الاستاذ وحق من جعلك للعلوم كهفا وحباك كمالا ولطفا انه لولا المصريون لكنا الى الان غرقى في

بحار الجهل حائرين في اودية الضلال لا نعرف كيف التمتع بلذات الدنيا التي اعدها الله لنا سبحانه فوحقك اني منذ ازمان احب ان اسافر لتلك البلدان وادور في نواحيها واطلع على ما فيها من عجائب الآثار التي لا نظير لها في قطر من الاقطار ولكن يحول بيني وبين ذلك خطوب الزمان وصروف الحدثان ومع ذلك فاني عازم على السفر فى هذا العام ولعلنا نجتمع معا على شاطئ بحر النيل

نعم ان السياحين ما تركوا خبرًا الا ذكروه ولا اثرًا الاّ تقلوه على حسب ما شاهدوه ولكن ليس الخبر كالعيان وفي هذه المدة سهل السفر في البر والبحر بواسطة آلات البخار فانها تقطع بعيد المسافات في اقرب الاوقات فخفت مشقة السفر وصار الامن عامًا وامتنع ما كان يخشى في الاسفار من الغوائل

فاجابه الشيخ بالبشر واظهار المسرة والشكر والارتياح للقائه في مصر

فشكر الرجل الاستاذ ثم قال له هل بمصر الان ما يسهل الامر على السياحين من بيوت معدة لاقامتهم ووابورات برية وبحرية تسهل امر الذهاب والاياب وغير ذلك مما يلزم ايام السفر

فقال الانكليزي الان لا فرق بين القاهرة ومدن اوروبا فان فيها لوكندات مختلفة الانواع وفي نيلها وابورات مختلفة القوى تسير على راحة السياحين وتذهب بهم حيث شاؤا فضلا عن

السفن الشراعية المزخرفة باحسن الزخارف المستكملة الآلات والادوات فتجد السائح يختار احدى السفن ويركبها مع من احب او بمفرده ولا يزيد عليه المصروف عن مائتي جنيه مدة شهري السياحة اللذين يقضي بعضهما في الاقامة بمصر وضواحيها وبعضهما السياحة جهة صعيدها ما بين اكل وشرب واجرة اماكن وسفن ورجال وغير ذلك

وان منّ الله سبحانه عليّ وكنت بمصر ذاك الوقت لازمتكم وكنت لكم الدليل لاني وان سبق لي رؤية كثير من بقاعها واطلعت على جميع الاثار الموجودة بها لكن اود ان اراها مرة ثانية فانه كلما تكرر نظرك اليها ازددت علما جديدًا واظن ان كل جيل يأتي لا بد ان يرى غير ما رايناه ويعلم غير ما علمناه فانظر الى اهرامها وعظيم بنيانها حيث وصفه كل انسان من بعد امعان النظر اليه كل الامعان جيلا بعد جيل ومع ذلك فكل وصفه بغير ما وصفه به الاخر من الكيفيات مع ان كلا ما ذكر الا ما رأى فتجد البعض وصف شكله واصله وسبب منشئه والغرض منه ولم يوافقه من اتى بعده فبعضهم قال انه مدفن لاحد الفراعنة وبعضهم قال انه كان محلا يرصدون فيه النجوم ومنهم من قال انه من الاثار الجليلة التي جعلها المصريون محلا لمعارفهم واثرا يستدل به من اتى بعدهم من الامم على ما كان لهم من الابهة والفخار والعظمة والاعتبار فهو اثر يدل بصورته وشكله على قدر ما وصلوا اليه من العلوم

الهندسية وعلم جر الاثقال وفنون انواع العمارة ويدل بوضعه الذي هو عليه وتوجيه زواياه على انه اثر فلكي وبه معبد الديانة واذا حسب ما في اجزائه من النسب الصحيحة بالنسبة لبعضها وبالنسبة للدرجة الارضية دل على انه اثر لبقاء وحدة الابنية الطويلة والسطحية وقد شرح ذلك بعض علماء الفرنساويين في مجلد ضخم

فقال الشيخ رأيت في كتب العربية انه تربة وان به دهاليز في اسفله واماكن لا يعلم ما بها

وذكر بعض الناس ان به اموالا وذخائر وقد ظن المأمون الخليفة العباسي ان به اموالا عظيمة ففتح الهرم الكبير وصرف في ذلك مالا عظيماً فلما لم يقدر على هدمه نأى عنه وقيل انه وجد بقدر ما صرف في الهدم

ثم بعد محادثات من هذا القبيل استأذن الضيف للقيام ودعا الشيخ والانكليزي الى منزله في الليلة المستقبلة فاجاباه ووعداه بالحضور ثم بعد ذهابه ببرهة قال الانكليزي للشيخ ياحضرة الاستاذ ان جميع المؤرخين قاطعون بان قدماء المصريين بلغوا من العلم والحكمة درجة لم يبلغها غيرهم وشهد لهم جميع الملل قديماً وحديثاً بكمال العقل فبهذا لا يسلم العقل ان هولاء الحكماء العلماء العقلاء بنوا هذه الاهرام تربا ليس غير بل لا بد لهم من مقاصد جليلة في وضعها على هذه الكيفية

فقال الشيخ نعم ولا مانع ايضاً من ان يكون بناؤها على يد

ملوك متعددة. ولا بد من احتياجها الى عمال لا تحصر وتجهيزات جسيمة اقتضاها صنع هذا الاثر قبل الشروع فيه بزمن طويل

قال الانكليزي فحينئذٍ لا مانع من ان يكون لهم غرض اصلي كان هو الباعث لهم على بنائها ولكن بسبب قدم هذا الاثر وسكوت من مضى من المؤرخين عن ذكر ما له من صحيح الخبر لم يقف احد على حقيقته بل ذهب كل فيه الى ما ذهب وتنوعت الاوصاف وكثرت الاقاويل

فقال الشيخ وما الذي ترتضيه من تلك الاقوال

فقال الذي اراه هو ما قاله احد العلماء الفرنساويين من ان الغرض منه الاشارة الى ما عندهم من العلوم والمعارف بوجه موجز وطريق معجز

فقال الشيخ وكيف ذلك فقال وجد ان طول ضلع القاعدة المربعة للهرم ٢٣٠،٩٠٣ م وان الارتفاع لكل من اسطحته ١٨٤،٧٢٢ م وان الفرق بين هذين الخطين ٤٦١٨٠ م وهذا القدر ربع مقدار ارتفاع كل من اسطحة الهرم وهو مساوٍ لضلع الفدان المصري القديم المعروف بالاورور الذي ذكر هيرودوط وغيره ان مربع قاعدته مائة ذراع ولربما كان هو الجريب المعروف عندكم فعلى هذا يكون بين قاعدة الهرم وبين ارتفاع الوجه نسبة صحيحة كالنسبة بين عددي خمسة واربعة وكذلك لو قارنّا مقادير جميع اجزاء الهرم بالارتفاع المذكور لوجدنا انها منسوبة اليه نسبة صحيحة من غير

كسر فنرى ان ارتفاع باب الدخول للهرم ١٤٫١٥ م وهو عبارة عن جزء من اثنى عشر جزءا من الارتفاع الكلي للهرم وان مدرج المدخل من ابتداء الارض الافقية الى اول المدرج الصاعد طوله ٣٢ مترًا وهو عبارة عن عشر طول القاعدة وثمن مقدار الارتفاع وبهذه المقارنة تجد ان جميع الاجزاء منسوبة الى القاعدة او الارتفاع نسبة صحيحة ولو قسمت خمسمائة قسم لوجدت كل قسم منها ٤٦٢٫٠ م وهو طول الذراع المصري القديم ومنه نتج القدم المصري ولو قسم هذا الطول الى ستين قسما لكان القسم الواحد ٣٫٨٥ م وهذا الطول القصبة التي كانت مستعملة في قياس الارض عند دخول الفرنساوية ارض مصر وقبلهم كان ضلع الفدان بها عشرين قصبة والذي يستفاد من قول الخزاعي ان الذراع كان طوله في الزمن السابق اربعة وعشرين قيراطا في جهات الصعيد وفي وقته صار ثمانية وعشرين قيراطا وحيث كان مقياس الروضة موجودًا في وقته فبالضرورة يمكن استخراج مقدار الذراع القديم منه وحيث كان القياس الاخير ٥٢٩٫٠ م فيكون مقدار القديم ٢٤/٢٨ يعني انه ٤٦٢٫ م مثل ما وجدناه في الهرم وكان يستعمل اولا في قياس زيادة ماء النيل ثم زيد فيه اربعة قراريط

وان قسمت القاعدة الى اربعمائة قسم كان طول القسم ٥٧٧٥٫٠ م وهو طول الذراع البلدي ومن هنا يعلم بالبداهة ان الذراع البلدي المنسوب للبلد والقصبة المستعملة في قياس الارض

منسوبان لضلع الهرم نسبة صحيحة وكما ان الفرق بين طول القاعدة والارتفاع بقدر ربع الارتفاع كذلك الفرق بين الذراع المصري القديم والذراع البلدي بقدر ربع الذراع المصري القديم لانه باضافة ربع عدد ٠٤٦٢ م عليه يحصل ٠٥٧٧٥ م وكانت القصبة موجودة قديما ويستدل على وجودها بما ورد عن قدماء المؤرخين ان قدر طولها ٣٠٨ م فلو اضيف اليها ربعها كان الذي ينتج ٣٨٥ م وهو قدر القصبة التي كانت مستعملة الى دخول الفرنساوية مصر وعلى هذا فالفرق الذي بين الذراعين وبين القصبتين هو عين الحاصل بين القاعدة والارتفاع للهرم وضلع الهرم ستون قصبة بالقصبة الجديدة لزيادتها على القديمة بقدر ربعها وضلع القاعدة يزيد عن الارتفاع بقدر الربع وعلى ما نقل عن المؤرخين ان الاستادة ستون قصبة تكون الاستادة هي ارتفاع الهرم فيعلم مما سبق ان الهرم اثر للاقيسة يستدل منه على وحدة المقاييس المستعملة في المساحة الذراعية وغيرها واتجاه زواياه مع الضبط المحكم للنقط الاربع الاصلية يدل على انه اثر فلكي

وايضا مقدار الدرجة الارضية للعرض المتوسط لمصر ١١٠٨٢٧٫١٦٨ م وان جزءا من ستمائة جزء منها يساوي ارتفاع الهرم وهو ١٨٤٫٧١٢ ومن هنا يكون ارتفاع الهرم منسوبا للدرجة الارضية لمصر ويكفي لوجود مقدار الدرجة الارضية ضرب مقدار الارتفاع في ستمائة ولا يكون الفرق الا خمسة امتار او ستة وهو

فرق غير محسوس وبما نقل عن المؤرخين ان الدرجة الارضية ستمائة استادة يتضح ان هذه الاستادة مصرية وان المصريين قدروا الدرجة الارضية في الازمان السابقة ونسبوا لها مقاييسهم كما فعل المتاخرون في المتر المستعمل عندنا الان وجعلوا ارتفاع وجه الهرم علما عليها

وان ضلع القاعدة للهرم جزء من اربعمائة وثمانين جزءا منها بمعنى ان الدرجة الارضية المتوسطة لارض مصر قدر ضلع قاعدة الهرم اربعمائة وثمانين مرة

ويؤخذ من قول هيرودوط وغيره من المؤلفين ان الذراع المصري القديم جزء من اربعمائة جزء من الاسادة وهو صحيح لاننا لو قسمنا مقدار الارتفاع على اربعمائة لوجدنا ما نتج ٠٫٤٦٢ م وهو ما وجدناه للذراع فيما سبق

والاستادة التي استعملها هيرودوط وبلين وسترابون وغيرهم واطلقوا عليها اسم الاستادة الاولنبية لم تكن غير الاستادة المصرية وان الاروام وغيرهم نقلوها من مصر لارضهم

وبناء على ما سبق يكون قدر محيط قاعدة الهرم مائة وعشرين مرة هو مقدار الدرجة الارضية وقدر الارتفاع وحده وهو الاستادة عبارة عن ست ثوان ارضية ومحيط القاعدة ثلاثون ثانية او نصف درجة ارضية

والتفاضل بين ضلع القاعدة وارتفاع الوجه يكون ربع استادة

ويساوي مائة ذراع مصري قديم ويكون هو ضلع الفدان المصري القديم المعبر عنه عند الاقدمين بالاورور وعندكم بالجريب وهو الوحدة الذراعية التي كانت مستعمله في قسمة الارض بين الاهالي وعلى موجبها تجبى الاموال وتنصب الحدود بعد انحسار ماء النيل عن الارض

ويؤخذ من كلام المؤرخين ان القدم جزء من ستمائة جزء من الاستادة فاذا قسمنا الارتفاع الى ستمائة جزء كان الذي ينتج ٠٫٣٠٨ م وهو مقدار القدم وحيث كان هذا هو مقدار القدم الرومي فيعلم ان اصله مصري وجميع المؤلفين اتفقوا على انه ثلثا ذراع فاذا اضيف حينئذ نصف ٠٫٣٠٨ م اليه كان المجموع ٠٫٤٦٢ م وهو مقدار الذراع كما سبق

فقال الشيخ المتعارف في الشرع وبين الناس ان الذراع هو ذراع الآدمي وبه ضبط الميل والفرسخ وغيرهما من الاقيسة وان الذراع اربعة وعشرون قيراطا او اصبعا والاصبع ست شعيرات والشعيرة ست شعرات من شعر البرذون اي البغل

فقال الانكليزي نعم كان ذلك في مبدأ الامر قبل اتساع الجمعية الاولى واما بعدها فصاروا يستعملون ذراع الآدمي في قياس الاشياء التي تلزمهم كالاقمشة وغيرها ويستعملون القدم في قياس الاطوال الارضية ثم لما اتسعت دائرة المعاملات بينهم صاروا ينظرون الى شي ثابت لا يقبل التغير يقيسون عليه فلم يروا اوفق

من الدرجة الارضية فقدروا بها الذراع ونسبوا اليه مقاييس المعاملات المستعملة الى الان وما حصل فيها من التغير غير محسوس لا تدركه العامة ويوكد ذلك قول بعض المؤرخين مثل هيرودوط فانه ذكران النسبة بين القدم والذراع كالنسبة بين اثنين وثلاثة يعني ان القدم ثلثا ذراع وليست هذه النسبة موجودة بين قدم وذراع الانسان اذ النسبة بينهما كالنسبة بين اربعة وسبعة ولو فرض قسمة الذراع الى اربعة وعشرين قيراطا كما هي العادة لكان القدم الفلكي ستة عشر قيراطا منها مع ان القدم الفلكي اربعة اسباع ذلك فلا يكون الاّ عددا كسريا ويكون استعماله عسرا جداً بخلاف الاول لا عسر في استعماله اصلا وهذا مما يؤيد ان الذراع والقدم الجاري بينهما القياس ليسا فطريين لان طول القدم الانساني اقل بكثير من القدم المستخرج بنسبته للذراع سواء كان طبيعيا او فلكيًا فان قدم الانسان يندر ان يتعدى طوله ٠٫٢٦٥ م حيث يكون طول الرجل ١٫٧٣ م ويكون اقل من ذلك ان كان طول الرجل اقل

وقدم الانسان تبلغ القامة به ستا ونصفًا فان لم يكن المقصود هنا القدم الفلكي المتفق عليه كيف يذكر المؤرخون ان القامة ست اقدام فقط وطول قامة الانسان ثلاثة اذرع ونصف بذراعه كما هو مدون في الكتب الصحيحة فعلى هذا لا يرتاب احد في ان القدم والذراع المقدر بهما الاطوال بل جميع المقاييس هما المنسوبان

للدرجة الارضية وانهما اتفاقيان لا فطريان ونسبة القدم الى الذراع ونسبة الذراع الى القامة كنسبة اربعة الى ستة وستة الى اربعة وعشرين في حال كونهما الاجزاء الفلكية

وتدل هذه الاعداد على قبضات كل قبضة اربعة اصابع فلكية ايضاً بمعنى ان القدم اربع قبضات والذراع ست والقامة اربع وعشرون قبضة واما نسبتها الطبيعية لبعضها فهي كنسبة اربعة وسبعة وستة وعشرين لبعضها

وجميع ما قلناه من ان جميع الاقيسة منسوبة للدرجة الارضية مذكور في كتب المؤرخين فانهم ذكروا ان الخطوة الكبيرة المصرية مساوية للقامة يعنون انها ست اقدام وليس في الآدميين من تكون هذه خطوته فعلى هذا لا يشك في انها خطوة اتفاقية منسوبة للقدم المنسوبة للدرجة الارضية كما ان الخطوة الضعيفة للمصريين خمس اقدام بالقدم الفلكي والخطوة الهندسية الرومية طولها خمس اقدام ايضاً فلكية فتكون حينئذٍ عين الخطوة الضعيفة للمصريين وتكون منقولة منها الى بلاد الروم فالخطوة الهندسية هي القامة ايضاً والباع الذي كان يستعمل في القياس وكان طوله ست اقدام فلكية او اربع خطوات بسيطة كل خطوة منها قدم فلكية ونصف او سبع اقدام بقدم الانسان والميل المصري الذي صار اساسا لجميع الاميال عند جميع الملل في الازمان القديمة مقداره الف مرة بها والى القامة او الخطوة ينسب التوآذ الذي كان مستعملا عند الاوروباويين

وهي بالمتر ١٫٨٤٧٢ م وتدخل في محيط قاعدة الهرم خمسمائة مرة وارتفاع الجلسة التي تحت الهرم قامة كاملة او خطوة هندسية مصرية

والذي يوكد كون تلك الاقيسة جميعها فلكية احتواء كل من الدرجة الارضية ومحيط الكرة نفسه عليها عدد صحيح فانه لو قيس طول محيط الكرة بالقدم لوجد عبارة عن حاصل ضرب ستة مرفوعا الى الدرجة الخامسة وطول الدرجة الارضية المصرية ثلاثمائة وستون الف قدم وان قيس بالذراع كان طوله عبارة عن حاصل ضرب ستة في عشرة اربع مرات مرفوعا الى الدرجة الخامسة وفضلا عن ذلك ان الميل الرومي الذي طوله خمسة الاف قدم اذا قيس به محيط الارض اشتملت عليه سبعة وعشرين الف مرة فكيف تكون هذه النسبة صحيحة ان لم تكن القدم منسوبة للدرجة الارضية

ولو اخذ ثمن هذا الميل وجعل مقياسا وقيس به الدرجة الارضية لاشتملت عليه ستمائة مرة

وحينئذٍ يكون هو الاستادة الاولمبية التي قلنا انها ارتفاع وجه الهرم وماخوذة من مصر ولكن دخلها زيادة ونقص بتداول الايام وتغيير الدول مثلا :

الفتر قدر ثلث الذراع البلدي وهو خمسة اجزاء من اثنى عشر جزءا من الذراع القديم والشبر جزآن من خمسة اجزاء من الذراع

البلدي وهو نصف الذراع القديم وهو ثلث الذراع الاسلامبولي وهو جزء من الف جزء من ضلع قاعدة الهرم وكل اربعة اشبار ثلاث اقدام مصرية

واما الذراع الاسلامبولي فلم يعرف بمصر الاّ سنة ١٥١٧ ميلادية حيث دخلت الدولة العثمانية بها والاصل غير معلوم ويزيد عن الذراع البلدي بقدر ثلثه وزيادة ثلاثة مليمتر وبالنسبة لذراع المقياس الموجود بالروضة فهو قدره مرة وربع مرة

وقد عرفنا مما سبق مقدار الذراع البلدي ونسبته للذراع القديم واما ذراع مقياس الروضة فاصله الذراع القديم باضافة سدسه اليه والفرق ليس بمحسوس لان الذي ينتج من القياس على عمود المقياس لطول الذراع ٠٫٥٤٠ م والذي ينتج من الحساب يكون ٠٫٥٣٩ م

وهذا الذراع لا يستعمله المعلنون بارتفاع درجة النيل بل يستعملون ذراعا صغيراً اتفاقيا لتطمئن قلوب الاهالي وبهذه الواسطة تحصل الحكومة على تحصيل المال من الاهالي وهذا الذراع ثلثا ذراع المقياس وينقسم الى اربعة وعشرين قيراطا كانقسام ذراع المقاييس اليها انما قراريط كل على حسبه فيكون صغره مقابلا للواحد وربع من تقاسيم الذراع الحقيقي وقسم العشرين يقابل قسم الخامس عشر وقسم اربعة وعشرين يقابل قسم سبعة عشر وثلاثة

ارباع وذراع المنادي يساوي ثمانية عشر قيراطا وثلثي قيراط من قراريط الذراع القديم

واما الذراع الذي تستعمله البناؤن والنحاتون فهو خمس القصبة الكبيرة القديمة وان شئت قلت هو جزء من مائة جزء من ضلع الفدان الكبير المساوي ضلعه عشرين قصبة كبيرة كما ذكرنا وضلع الهرم يشمله ثلاثمائة مرة عددا صحيحا واذا جمعت مقدار الذراع القديم على القدم القديمة كان الذي ينتج هو طوله فهو قدمان ونصف بناء على ذلك

والنحاتون يسمونه قيراطا ويقسمونه ثلاثة اقسام ويسمون كل قسم منها ثلثا وكل ثلث يقسمونه نصفين ويسمون كل نصف نصف ثلث وكل نصف ثلث يقسمونه اربعة اقسام ويسمونه قراريط فيكون كانه منقسم الى اربعة وعشرين قسما ولكن لم ندرِ من اين جاء له هذا الاسم مع انه لا بد لهذه التسمية من اصل كان معروفا فيما سبق ثم جهل ولو فرض انك ضربت مقدار هذا الذراع وهو قدمان ونصف في اربعة وعشرين تجد ستين قدما مصرية وهو قياس كان مستعملا عند المصريين في قياس الارض المحروثة وقدره اربعون ذراعا بالقديم والذراع المذكور هو الخطوة البسيطة وهي تساوي ذراعا بلديا وثلثا اي ان الذراع البلدي ثمانية عشر قيراطا من قراريطه والاستادة المصرية تشمله مائتين واربعين مرة ويوخذ من قول الادريسي وابي الفدا وابن الفرج والمسعودي ان الفرسخ

ثلاثة اميال هاشمية او خمس وعشرون غلوة يعني استادة وبالذراع الهاشمي تسعة الاف ذراع كل ذراع منها اثنان وثلاثون قيراطا واثنا عشر الف ذراع بالذراع القديم الذي هو اربعة وعشرون قيراطا فعلى هذا يكون الفرسخ خمسة الاف متر وخمسمائة وواحدا واربعين وثلثي متر وهذا الفرسخ هو الفرسخ القديم المصري والعرب تسميه الفرسخ الصحيح واما الميل فهو ثمان غلوات وثلث او ثلاثة الاف ذراع هاشمي او اربعة الاف ذراع مصري قديم

ومن هنا يعلم ان الغلوة ثلاثمائة ذراع هاشمي او اربعمائة ذراع قديم والنسبة بين هذين الذراعين كالنسبة بين عددي ثلاثة واربعة ومقدار الميل المصري حينئذٍ الف وثمانمائة وسبعة واربعون مترا ومصر والعرب استعملته والدرجة الارضية تشمله ستين مرة ويكون مقدار الغلوة عند العرب مائتين وواحدا وعشرين مترًا وسبعين سنتيمتر وهذه الغلوة هي التي استعملها بطليموس وعنه اخذتها العرب وتدخل في الدرجة الارضية خمسمائة مرة

ويوجد خلاف الاذرع الماضية ذراع قدره سبعة وعشرون قيراطا وهو الذراع الذي استعمله الخليفة المأمون وكان اخذه عن الفرس وهو المعروف بالذراع الاسود وقدره بالمتر ٠٫٥١٩٦ م وهو عبارة عن ذراع قديم وثمن واما الذراع الهاشمي فذراع قديم وثلث وقدره بالمتر ٠٫٦١٦ م وهو ذراع وجزء من خمسة عشر جزءا من الذراع البلدي وذراع وسبع من ذراع المقياس وذراع وتسع من

الذراع العبراني وقدمان من القدم المصري القديم الذي استعملته العرب كما استعمله غيرهم وذراع الرومانيين منسوب للذراع المصري ينقص ٢٠٪ من مقدار الذراع المصري فيكون مقدار الرومي ٠٫٤٤٣٤ م والذراع المقدس عند العبرانيين كانت نسبته الى الذراع الرومي كنسبة عدد خمسة الى اربعة وحينئذٍ فمقداره يعلم باضافة ربع على مقدار الرومي ويكون ٠٫٥٥٤٢ م وهو يدخل اربعمائة مرة في الغلوة التي تشتمل عليها الدرجة الارضية خمسمائة مرة وهي الغلوة التي استعملها بظليموس في قياساته والذراع السلطاني للبابليين كان منقسمًا الى ثلاثين اصبعًا وكل اصبع منقسم الى قسمين اي انه كان منقسما الى ٦٠ وكان طوله يزيد عن الذراع المعروف ثلاثة اصابع اي انه لو اضيف تسع عدد ٠٫٤٦١٨ م اليه كان ٠٫٥١٣١ م هو طولها وهذا المقدار هو مقدار ثالثه من الدرجة الارضية والقامة تشتمل عليه ستين مرة كما ان الميل يشمل العسلة ستين مرة وكان يوجد قياس للاطوال في الزمن السابق طوله اربعة وعشرون ذراعا به واربعون ذراعا بالذراع المصري القديم او ست قصبات بالكبيرة او عشر قامات صحيحة او اثنان وثلاثون ذراعا بالذراع البلدي

ونسبة القصبة الكبيرة الى الذراع البلدي كنسبة عشرين الى ثلاثة ومدة دخول الافرنج ارض مصر كانت هي المستعملة في جميع الجهات القبلية والبحرية وطولها بالذراع البلدي ستة اذرع

وثلثا ذراع او عشر اقدام مصرية صحيحة

والذي حصل فيه تغير كثير من بين المقاييس جميعها هو القصبة وذلك لانها اساس المساحة التي يجبى الخراج على حسبها وكثيرًا ما كانت تقتصر المساحون على جعلها ستة ارذع وثلثي ذراع فقط اي ٣٫٦٥٧٥ م ونسبة هذا القدر الى طول القصبة كنسبة تسعة عشر الى عشرين فيطلب بها مال اربعين فدانا في مقابلة ستة وثلاثين فدانا بالقصبة القديمة وهكذا والقصبة الصغيرة التي مع المساحين كان طولها ٣٫٦٦ م عبارة عن عشرة اذرع بذراع المادي وستة اذرع وثلثي ذراع بذراع مقياس الروضة

فمن هنا يوخذ انهم عوضوا الذراع البلدي بذراع المقياس حتى لا تخرج القصبة عن كونها ستة اذرع وثلثي ذراع كما كانت عليه زمنًا طويلا والقصبة الهاشمية طولها ستة اذرع هاشميه او سبعة اذرع وتسع ذراع بالاسود او ثمانية اذرع بالذراع القديم ومقدارها بالمتر ٣٫٦٩٤ م عبارة عن عشر اقدام عبرانية والقصبة المصرية القديمة طولها خمسة اذرع بالهاشمي الذي يسمى ايضًا في بعض الكتب بالعتيق والعسلة من ضمن الاقيسة عند العرب والفرس ومقدارها ستون ذراعا بالهاشمي اي ٣٦٫٩٤٤ م والميل الذي استعملته العرب الذي قدره الف قامة او ستة الاف قدم لم يكن شيئًا آخر غير القياس الذي كان عند المصريين ومقداره يساوي دقيقة واحدة من الدرجة الارضية لمصر وكان قدره عشر غلوات وكان يدخل في

الفرسخ المصري الصغير ثلاث مرات وفي الكبير ست مرات والميل الرومي ثمان غلوات اولنبية او مصرية والميل العبري ست غلوات مصرية وهو ٣٦٠٠ قدم مصرية والفان بالذراع العبري وبالمتر ١١٠٨ ⅓ م وهو ست وثلاثون ثانية والوحدة الزراعية السطحية هي الفدان وهو عبارة عن مربع ضلعه بالقصب عشرون وبالذراع البلدي مائة وثلاثة وثلاثون وثلث وبالمتر سبعة وسبعون ومساحته خمسة الاف وتسعمائة وتسعة وعشرون مترًا مربعا وقاعدة الهرم تشمله تسع مرات صحيحة وضلع الفدان مائتان وخمسون قدمًا مصريًا فيزيد حينئذٍ عن ضلع الاورور اي الفدان المصري القديم مائة قدم وحينئذٍ فنسبة الفدان الكبير الى الاورور كنسبة تسعة الى خمسة وعشرين

والقصبة المستعمله الان عندكم ٣٫٥٥ م والفدان بها ثلاثمائة وثلاث وثلاثون قصبة مربعة وثلث اي اربعة الاف ومائتا متر مربع وكسر صغير فاذا نسبناه الى الفدان الذي كان مستعملا في جمع الخراج الى دخول الافرنج وبعد خروجهم بمدة سنين لا يكون غير سبعة عشر قيراطا باعتبار ان الفدان الكبير القديم اربعة وعشرون قيراطا والاورور القديم نصفه تقريبًا ففدانكم الان متوسط بين الفدان الصغير اي الاورور والفدان الكبير ونسبة الفدان الجديد الى الفدان القديم كنسبة عددي سبعة عشر الى اربعة وعشرين وبناء عليه فكل مائة وعشرين فدانًا جديدة لا تبلغ الا

خمسة وثمانين بالمساحة القديمة وحيث انه في مدة الملك الاشرف
سنة ٧٧٧ ومن قبله الى مدة الملك الناصر وجد ان مساحة
الارض المزروعة الموضوع عليها الخراج ٣١٧٢١٣٦ وفي مدة
الافرنج مسح المزروع في القطر فوجد ٣١٣٦١٨٠ وهما قريبان من
بعضهما فيمكن الان ان نعرف هل حصل زيادة في المنزرع او نقص
وذلك بعد رد حسابه الى القصبة القديمة

والمرحلة بناء على قول الادريسي وابي الفدا اربعة وعشرون
ميلا هاشميًا او ثمانية فراسخ مصرية او ثلاثون ميلا روميا او عشرة
فراسخ فارسية وتبلغ بالمتر ٤٤٣٣٣

ويوم الملاحة بناء على قول الادريسي وابي الفدا وهو ما يعرف
عندهم بالمجرى مائة ميل بالهاشمي او درجة ارضية وثلثا درجة
وبالغلوة الصغيرة المصرية الف غلوة كاملة او خمسمائة واربعون
غلوة كبيرة مصرية ايضًا وبالمتر ٩٩٧٥٠

وفي الازمان القديمة كانت المصريون تستعمل في قياس
الاطوال الكبيرة ثلاثة انواع من الفراسخ اصغرها كان عبارة عن
ثلاثين غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها ستمائة غلوة
وكان استعماله في الجهات البحرية من ارض مصر وقدره بالمتر
٥٥٤١٦٥ م والثاني يزيد عن الاول وقد استعمله هيرودوط وكان
ستين غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها الف ومائة
واحدى عشر غلوة وتسع وكان يستعمل في الاقاليم الوسطى من

مصر من منف ابتداء ولذلك سمي الفرسخ المصري المتوسط ومقداره بالمتر ٥٥٨٥٫٠٠٠ م

والفرسخ الكبير طوله ستون غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها ستمائة غلوة وكان مستعملا في الاطوال الجغرافية فكان يوجد بالجهات البحرية والقبلية وطوله بالمتر ١١٠٨٣٫٣٠ م

والفرسخ الفارسي عشرة اميال رومية وثلاثون غلوة من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية سبعمائة وخمسين مرة وهو دقيقتان واربعة اعشار دقيقة من الدرجة الارضية ويدخل في الدرجة الارضية خمسا وعشرين مرة ولهذا كان هو المستعمل عند اغلب سكان المشرق والعبرانيين فاخذه عنهم الاوروباويون ومقداره بالمتر ٤٤٤٣٣ وهذا المقدار يطابق اربعة وعشرين ميلا او ٢٤٠ غلوة مصرية من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية ستمائة مرة فيعلم ضرورة انه ماخوذ من مصر لانه لا يقال ان العجم قاسوا الدرجة الارضية اذ لم ينسب اليهم ذلك احد من المؤرخين وفي كتب العرب ان مقداره خمس وعشرون غلوة عربية من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية خمسمائة مرة التي قدرنا انها ٢٢١٫٦٧م وقد قلنا فيما سبق ان الوحدة التي كانت مساحات الارض تقدر بها هي الاورور وهي عبارة عما يحرث بحراث واحد في يوم واحد وبناء على قول هيريدوط كانت مربعا ضلعه مائة ذراع يعني انها كانت عشرة الاف مربع والذراع المستعمل هو الذراع القديم

الذي هو ٤٦٢. م فعلى هذا تكون المساحة بالمتر المربع الفين ومائة واربعة وثلاثين

وكانوا يقيسون بخشبة طولها عشرة اذرع وطول ضلع الاورور بها عشر مرات وكانت منقسمة ثلاثة اقسام كل قسم خمس اقدام فكان طول القسم الواحد مساويًا للخطوة الهندسية ولنصف القصبة المصرية القديمة التي كان طولها عشر اقدام وضلع الاورور بها خمسة عشر مرة وكانوا في الغالب يستعملون نصفها فيبلغ ضلع الاورور به ثلاثين مرة فبناء على ذلك تكون مساحة الاورور تسعمائة خطوة مربعة وذلك عبارة عن ٢٢٥٠٠ قدم مربعة وبمقارنة المائة الذراع التي هي طول ضلع الاورور للثلاثين التي هي قياسه بنصف القصبة نجد ان القصبة ستة اذرع وثلثا ذراع وهذا المقدار هو نسبة ما بين الذراع البلدي الذي قدره ٠٥٧٧٥ م والقصبة الديوانية التي وجدها الفرنساويون بالجيزة وقدرها ٣٨٥م وسمى ايضًا بقصبة الرزق ومن هنا يعلم ان الاقيسة وان صارت كبيرة عما كانت لكن النسبة منها لم تتغير عما كانت عليه قديما ولم يكن الاورور وحده هو المستعمل في المساحة بل كان لهم اقيسة كثيرة صغيرة وكبيرة على حسب ما يقتضيه الحال منها العسلة وهي مربع قدره عشرة الاف قدم مربعة اي ان ضلعه كان مائة قدم كما ان ضلع الاورور مائة ذراع ومنها الغلوة وهي عشرة الاف قامة مربعة اي مربع ضلعه مائة قامة ومنها العسلة المضعفة وكانت مربعًا

طوله عسلتان وعرضه واحدة ونسبتها الى الاورور كنسبة اربعة الى تسعة

ومنها الاستادة اي الغلوة المربعة كانت ٣٦٠٠٠٠ قدم مربع فان فرض ان ضلعها منقسم الى عشرة اقسام متساوية انقسم السطح الى مائة مربع صغير كل منها ٣٦٠٠ قدم مربعة او مائة قامة مربعة اي الى مربعات ضلع كل منها ستون قدما او عشر قامات او اثنتا عشرة خطوة هندسية ويتكون عنها الجزء المئيني بالنسبة الى الغلوة وكانت تستعمل في تقدير المساحات

واما الفدان الديواني وقت دخول الفرنسيس وادي مصر فكان ضلعه عشرين قصبة ديوانية وذلك عبارة عن مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع وهذا المقدار هو ثلث الاستادة وهو قدر ارتفاع وجه الهرم فعلى هذا يظن ان الاستادة كانت منقسمة الى تسعة اقسام اي مربعات كل منها اربع عسلات مربعة ضلع كل منها عشرون خشبة كما ان الفدان الديواني ضلعه عشرون قصبة ديوانية ولذلك تسمى هذه المساحة اي المركبة من اربع عسلات بربع الفدان المصري القديم وكان ضلعه بالذراع القديم مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا كما ان ضلع الفدان الديواني بالذراع البلدي مائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلث وعلى هذا فمساحة الفدان القديم كانت ٢٧٩٤٫٥٦ م مربعًا ومساحة الفدان الديواني ٥٩٢٩ م مربعا ونسبة الاول الى الثاني كنسبة ستة عشر الى خمسة وعشرين

وربما كان منقسما الى اربعة وعشرين قيراطا كما ان الفدان الديواني كذلك منقسم وهذه القسمة تزيد في سهولة الحساب بسبب ان العسلة تكون مشتملة على ست منها فلو فرضنا ان الاشادة او الغلوة منقسمة قسمين متساويين وجدنا انه يحصل من ذلك تساهل عظيم في التقدير لان الشكل الذي ضلعه الغلوة يكون منقسما الى اربعة مربعات ضلع كل واحد نصف غلوة ومساحته تسع عسلات مربعة او يكون مساويا لاربعة من الاورور وتسمى هذه المساحة ربع الغلوة وتشتمل على اربعمائة خشبة مربعة او تسعمائة نصف قصبة قديمة او اربعين الف ذراع مربع او على ثلاثة الاف وستمائة خطوة او على خمسة وعشرين جزءا من الغلوة او على الفين وخمسمائة قامة مربعة

ولم يكن في قياس الفدان المصري القديم صعوبة لان مساحته اربعون خطوة بالخطوة الهندسية كما ان مساحة الفدان الديواني الان اربعون نصف قصبة وضلع الفدان الديواني سبعة وسبعون مترا وهو يزيد عن ضلع الفدان القديم بقدر ربعه وهذه النسبة لاشك هي الواقعة بين الذراع القديم والذراع البلدي والفدان الديواني يزيد عن القديم اورورا واحدا ولا شك في ان للفدان القديم نسبة صحيحة مع الاقيسة القديمة لان ضلعه ثلث ضلع قاعدة الهرم وعلى هذا فمساحة القاعدة تشمله تسع مرات وزيادة على ذلك ضلعه عبارة عن عسلتين ونصف والميل المصري القديم يشمله

اربعًا وعشرين مرة والقصبة المستعملة في قياسه تدخل في ضلع قاعدة الهرم ستين مرة

وضلع الاورور يساوي ثلاثة اخماس ضلع الفدان الديواني وربع الاستادة المربعة = ¼ الغلوة المربعة = ٤ اورور = ٩ عسلات مربعة وضلعها ثلاث عسلات فلو قسمنا كل عسلة من التسع قسمين متساويين وجدنا ان ثلاثا منها تكوّن ضلع الاورور واربعًا منها تكوّن ضلع الفدان القديم وخمسًا منها تكوّن ضلع الفدان الديواني والست الباقيات تكوّن ضلع ربع الاستادة وعلى هذا فالنسبة بين هذه المساحات الاربع كالنسبة بين هذه الاعداد ٩ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٣٦ ومما يوكد ان ربع الاورور كان موجودًا قديمًا كون ضلعه ستين خطوة هندسية كما ان ضلع الاستادة ستون خشبة وبالجملة فوجود ربع الاورور بين الاقيسة القديمة يوكد وجود ربع الاستادة ونسبة الفدان المصري القديم الى الفدان الديواني الجديد على ما ذكرنا كنسبة ١٦ الى ٢٥ ونسبة اضلاعهما الى بعضها كنسبة ٤ الى ٥ اي ان الفرق الذي حصل في طول الذراع من اربعة وعشرين قيراطا الى ثلاثين قيراطا حصل ايضًا في القصب المستعمل لقياسها وبسبب ان عدد عشرين بقي ثابتا لعدة القصب الداخل في الطول حصل لسطحيها زيادة كنسبة ٢٥ الى ١٦ والنسبة بين الفدان القديم والاورور كنسبة ١٦ الى ٩ وكما ان الغلوة كانت منقسمة الى اربعة اقسام وكل قسم منها الى اربعة

اخرى تسمى الاورور كذلك الاورور كان منقسما الى اربعة اقسام وقاعدة الهرم قدر كل ربع منها مائة مرة وقدر الاستادة اربعا وستين مرة وكان طول ضلعه خمسين ذراعا او خمسًا وسبعين قدمًا وسطحه ٢٢٥ خطوة او الفين وخمسمائة ذراع وبالقصب الديواني ٣٦ قصبة مربعة وكانوا يعرفون قدر ما تأخذ الارض من البذر بمكيال لهم يسمى المد المساحي وهو اربعون ليورا فكان نصفه وهو عشرون ليورا يكفي لبذر مائة قامة مربعة فيقسمونها الى اربعة اقسام ضلع كل قسم خمس قامات ومساحته خمس وعشرون فكانوا يقدرون ما يلزم للارض بهذه الطريقة ويجعلون لكل خمس قامات مربعة ليورا من البر وهكذا فكان المد الواحد الذي وزنه اربعون ليورا يكفي لبزر مائتي قامة ونصفه لنصفها ومن الاقيسة التي كانت تستعمل في مساحة الارض الخطوة المربعة وهي جزؤ من تسعمائة جزء من الاورور وجزؤ من اربعمائة جزء من العسلة وجزؤ من الف وستمائة جزء من الفدان القديم وجزو من الفين وخمسمائة جزء من الفدان الديواني وجزؤ من اربعة عشر الفًا من الغلوة المربعة وكان ضلع العسلة عشرين خطوة وضلع الاورور ثلاثين وضلع الفدان القديم اربعين وضلع الفدان الديواني خمسين وضلع الغلوة مائة وعشرين ومنها الخشبة المربعة وقدرها مائة ذراع وهي جزؤ من مائة جزء من الاورور والقصبة وقدرها مائة قدم مربعة وهي جزؤ من مائة جزء من العسلة وكذلك

كان من القياسات قياس صغير قدره خمس قامات مربعة وضلعه ست خطوات ومساحته ست وثلاثون خطوة مربعة او اربعمائة ذراع مربع اعني ٩٠٠ قدم وكان يدخل في المد المساحي اربع مرات وفي الاورور خمسًا وعشرين وفي الغلوة اربعمائة مرة

ويمكن ان يقال ايضًا ان العسلة كانت منقسمة الى اربعة اقسام كل منها الربع وان الغلوة المربعة تشمله مائة واربعًا واربعين وربعها يشمله ستًا وثلاثين والفدان القديم يشمله ستة عشر مرة والديواني خمسا وعشرين والاورور تسع مرات وربع العسلة عبارة عن = ٢٥ خشبة اي ١٠٠ خطوة = ٢٥٠٠ قدم فجميع هذه المقاييس كانت مستعملة في مساحات الارض بحيث كان يتيسر للمساح مع غاية الضبط والسرعة معرفة مساحة الارض وما تشتمل عليه من الكسور لغاية القدم المربعة ولهذا شهد جميع المؤرخين للمصريين بفوقانهم جميع الامم في الفنون الهندسية ونسبوا لهم اختراع اصولها وقواعدها التي هي سبب تقدمهم في جميع العلوم والصنائع ولو اني اطنبت في مادة الاقيسة واطلت على حضرتكم الكلام في بيانها فليس هو الغرض الاصلي بل الغرض ان اثبت لحضرتكم اتساع دائرة معلومات علماء هذه الامة حيث وصلوا في الاحقاب الخالية الى تلك الدرجات العالية مع ان جميع الامم في ذلك الوقت كانوا خاملين وفي زوايا الذل والمسكنة قاطنين غرقى في بحار الجهل لا يعرف لهم فكر فيما جل ولا قل وكانوا راتعين في الاجم

والغابات مثلهم كمثل الحيوانات فلم يخرجهم عن هذه الحالة الا
اقتفاوهم اثر المصريين وسيرهم في طريقتهم مقتدين بقول من وصل
منهم الى هذه الارض وتلقى عن علمائها واساتذتها يقيمون بالمدارس
والمعابد ويتلقون الاسرار عن المصريين ومن ذلك الوقت اخذت
الخشونة في الزوال وانجلى عن بصائرهم غشاء الجهل والضلال
واتضح الطريق فسلكوا سبيل الهدى ونالهم من الثروة والترفه ما
نالهم فاسسوا المدن والقرى وبنوا المباني الفاخرة العالية الذرى
وكانوا قبل لا يسمعون بها ولا يعلمون والمصريون كانوا بالغين
النهاية في كل ذلك وكان بشاطئ نيلها المباني المشيدة والبساتين
الفائقة العديدة وفي داخل مدنها وصحاريها من المعابد والهياكل
ما يعجز عن وصفه الانسان في كل زمن من الازمان والى الان
كل من دخل تلك الارض من الاغراب وتامل ما بقي فيها من
الآثار التي هي من عجب العجائب يقف متحيرا ويطرق متفكرًا وذلك
لا يستغرب من امة من اثارها البنائية الاهرامات الشامخة والبرابي
العجيبة ولا يستبعد عليها انها قاست الدرجة الارضية ونسبت جميع
اقيستها اليها ولاجل بقاء ذلك على ممر الازمان وتعاقب الملوان
جعلوا نفس الهرم حافظا لتلك الاقيسة فضلا عن حفظه لامور
شتى لم يقف احد عليها الى الان

المسامرة الرابعة والثمانون

نبذة تاريخية

فقال الشيخ المستفاد من اقوال المؤرخين بناء على ما اجروه من البحث وما اخذوه عن الاوائل ان بين هبوط آدم والطوفان ٢٢٤٢ سنة وبينه وبين المسيح عيسى بن مريم ٥٥٦٣ سنة فيكون بين الطوفان والمسيح ٣٣٤٢ سنة وحينئذٍ يكون بناء الهرم قبل الميلاد باربعة الاف وخمسمائة سنة وبعد الطوفان بالف وثمانمائة وخمسين سنة وحيث انهم قدروا ما بين جلوس منيس وبناء الهرم بثمانمائة وثلاث سنين فيكون جلوس منيس بعد الطوفان بثلاثمائة وخمس وخمسين سنة اي بعد موت نوح بخمس سنين وقد قالوا ان فرعون مصر صوفى الاول الذي اطلق عليه هيردوط اسم كيوس ابتدأ البناء في هذا الاثر بعد انفصال الحكومة السياسية

من الحكومة الدينية بواسطة منيس الذي اسسها قبل الميلاد بخمسة الاف وخمسمائة وثلاث سنين وفي مدة هذا الانقلاب بل من ابتدائه يرى ان المصريين على معلومات تامة ولهم دراية بمعارف شتى وعلوم كثيرة فانهم كانوا على غاية التمدن والتقدم لكن لا يدرى هل اخذ المصريون هذه العلوم عمن سبقهم من الامم واذا كان كذلك فعن من اخذوا ام هم الموجدون له من غير واسطة غيرهم والظاهر انهم اخذوها عن غيرهم لان الارض قبل الطوفان كانت عامرة باولاد آدم عليه السلام وكانوا متصرفين في جهاتها وكانوا قد وصلوا الى درجة في العلوم والمعارف ولما اغرق الله قوم نوح عليه السلام ولم ينجُ الاّ هو واولاده ومن آمن تفرقوا في الارض وتناسلوا وكثروا فعمرت بهم الارض ثانيًا وبالضرورة كان عند من نجا معرفة بعلوم من غرق فعلموه اولادهم وانتشر فيهم ولم تكن اهل مصر الاّ من ذرية سام لانه ابو العرب والفرس والروم ولكن لا ادري هل هم اول من عبد الاصنام ام سبقهم الى عبادتها غيرهم

فقال الانكليزي ان عبادة الاصنام كانت لعاد وثمود كما لا يخفى ذلك على حضرتكم وكان عندهم السحر والكهانة كغيرهم فلم يكن المصريون في ذلك الاّ تابعين اثرهم

فقال الشيخ وما سبب اتساع دائرة العلوم عندهم دون غيرهم قال سببه انهم لما وصلهم علوم من اغرقهم الطوفان تأملوا فيها فاستنتجوا منها واستكشفوا من اثارها ما وصلوا به الى شأو بعيد في العلوم

واما كونهم مخترعين لتلك العلوم فلا يقبله العقل لانه لم يكن بين الطوفان وبين نشأة الحكومة المصرية الفرعونية الاّ زمن قليل لا يكفي في وصول المعارف والعلوم الى هذا الحد الذي كانت عليه وقت ظهور منيس على التخت لاننا نرى من اقوال المؤرخين انه من حين جلوس فرعون مصر على التخت شرع في اعمال جسيمة فيها من الدلالة على التقدم في العلوم الهندسية ما لا يخفى منها انه سد احد فرعي النيل الذي كان جاريًا بحذاء جبل ليبيا وحوّله الى جهة الشرق في نصف المسافة التي بين الجبلين وادخل ماء النيل في وادي الفيوم فازدادت بذلك سعة ارض وادي النيل ولا جرم ان هذه الاعمال يلزم بها امور هندسية مثل ميزانيات وغير ذلك لاجل معرفة حال هذه الارض المحصورة من جميع الجهات بالجبال والصحاري ومنها انه ازال البرك التي تكوّنت من مجرى النيل وبنى محلها مدينة منف وحفظها من الغرق والعدو بما انشأه حولها من الحصون والجسور وزينها بهياكل ومعابد بقيت اعجوبة يفتخر بها بعده ثلاثة الاف سنة زيادة على ما نظمه من القوانين وما اودعه في المدينة من المستبدعات التي فاقت بها على طيبة القديمة التي كانت مقرًا للسلطنة ومحلا لقوة الديانة الى وقته فلو لم تكن العلوم عندهم في درجة الكمال ما امكنهم اجراء هذه الاعمال ومن ورث الملك بعده الف كتابًا في التشريح ومن اتى بعده بنى هذه الاهرام التي هي اعجوبة مدى الايام يتعجب منها كل انسان ما

بقي الزمان وما نظر اليها احد الاّ واقرّ لمؤسسيها بعلو الدرجة في العلوم وغزارة عقولهم بدلالة هذه الاثار والرسوم فان من اجرى هذه الامور لا بد له من تمام الوقوف على قواعد من علوم شتى مثل علم جر الاثقال والعمارة وحركات المياه والطب والهيئة وسير الكواكب واحوال السماء وكل هذه العلوم قبل وصولها هذا الحد تفيد بالضرورة التوغل في العلوم الاساسية لها فعلم من ذلك ان مصر كانت من قديم الزمن بالغة اقصى درجات التمدن واوضح دليل على ذلك بقاء هذه الابنية بها الى الان وايضا هذا التمدن لا يمكن ان يوجد دفعة واحدة بل لا بد انه مضى عليه قرون كثيرة حتى بلغ هذه الدرجة والسبعمائة عام التي قدرها علماء الافرنج بين الطوفان وجلوس منيس على التخت لا تكفي ايضًا في تحصيل تلك المعارف بل لا بد من وجود اصلها قبل الطوفان فان الارض قبله كان بها امم شتى منهم المتمدن وغيره وكانت العلوم بالغة الى درجة اوجبت اتساع معائشهم فكانوا ارباب قوة وثروة ومما يدل على ذلك قول افلاطون عند تكلمه على سكان الاطلنطيك الذين اغرقهم الله بالطوفان ان ارضهم كانت قريبة من بوغاز الطارق وان قوانينهم كانت قريبة من قوانين المصريين وهذا القول نقله سولون المشرع عن علماء مصر فانه تلقى عنهم ويوخذ من هذا ان منيس لما جلس على التخت وظهر امره اخذ له قانونا من القوانين القديمة التي وصلت اليه بواسطة النوبيين الذين

كانوا بالجهة القبلية من مصر فانهم الناقلون لجميع المعارف والعلوم التي ورثها المصريون عن اجدادهم سكان اسيا الناجين من الغرق فكانت هذه المعارف محفوظة عند طائفة القسس يرثها الابناء من الاباء جيلا بعد جيل من غير تغيير ولا تبديل وانت خبير بان تقدم العلوم واتساع دائرتها وزيادة الجهد في كشف حقائق مستجدة انما يكون بالاشتراك العام فضلا عن المساعدات من قبل الحكومة الاّ ان بمصر اموراً توجب تعطيل ذلك منها وجودها منعزلة وسط الصحاري وهذا يمنع سهولة اختلاطهم مع باقي سكان الارض من الامم وحيث لم يكن بها ممن ورث تلك العلوم الاّ طائفة الديانة فغاية ما يمكن القوة البشرية انما هو معرفة ما وصل الى هولاء من غير زيادة عليه وهيهات ان وصلوا اليه ولا شك ان هذا على طول الايام مما يوجب تقهقر المعارف عاما بعد عام كما حصل ذلك بالفعل في مصر حين سكنها غير اهلها فلولا ما شاهدناه بها من الاثار لاستبعدنا ما عزاه الى اهلها نقلة الاخبار ولعددناه من نوع الخرافات التي ضيع المؤرخون في تنميقها نفائس الاوقات

فقال الشيخ عزو المعارف والكشف عن الحقائق الى من كان قبل الطوفان مما لا مرية فيه ومما يدل على ذلك صرح النمرود الذي بناه وكان مركبًا من اثنين وسبعين برجا على كل برج كبير منهم يستحث على العمل فان ذلك كان بعد الطوفان بزمن لا يسع ان يهتدوا فيه الى معرفة بناء مثل هذا كما سنبينه فانهم بعد

الطوفان بزمن قليل تبلبلت السنتهم فتفرق بنو نوح فصار لسام واولاده العراق وفارس وما يلي ذلك الى الهند ولحام واولاده مشرقا مما يلي مصر على النيل وكذلك مغربًا الى الغرب الاقصى وليافث وولده ما يلي بحر الخزر مشرقًا الى جهة الصين وفي ذلك الوقت كانت شعوب اولاد نوح اثنين وسبعين شعبا فلو لم يكن عندهم معرفة تامة باحوال العمارة والهندسة ووضع الاحجار فمن اين لهم ان يبنوا مثل ذلك البناء اذ يلزم لجعله في العلو الذي قدروه به اصول وقواعد لا بد منها وايضًا فان النمرود كان عاملا من قبل الضحاك على سواد العراق وما اتصل به وفي تلك الاوقات كان للامم قوانين منظمة وشرائع معظمة وكان لهم رسل تهديهم الى طاعة الله فلا بد انهم كانوا ذوي ثروة عظيمة حتى اغتروا بذلك غرورًا وجعلوا قول الانبياء كذبًا وزورًا وناهيك طغيان النمرود وظلمه وبغيه وتجبره وحروبه أفلا يدل هذا كله على ان الامم قبل الطوفان كانوا ارباب معارف وكذلك معرفتهم للاشهر واسمائها والسنة ومقدارها فقد ورد عن المؤرخين ان نوحا عليه السلام ركب السفينة لعشر مضت من رجب ورست بارض الموصل على الجودى لعشر بقين من المحرم فكانت المدة ستة اشهر وعشر ليال فكل هذه ادلة قاطعة وبراهين ساطعة على ان العلوم والمعارف كانت موجودة قبل الطوفان

فقال الانكليزي رأيت في الآية الرابعة والعشرين من الباب

السابع في التورية ان الماء بقي على الارض مائة وخمسين يومًا وذلك من ركوب نوح السفينة الى استقرارها على الجبل وان دخوله فيها كان في اليوم السابع عشر من الشهر الثاني واستقرارها على الجبل في اليوم السابع عشر من الشهر السابع فتكون المدة حينئذٍ خمسة اشهر باعتبار ان الشهر ثلاثون يومًا والشهور شمسية وعلى هذا تكون السنة شمسية وعدد اياها ثلاثمائة وستين يومًا وهذا يدل على ان الاقدمين كان عندهم معرفة بحركة الشمس واختلاف سيرها بطاء وسرعة بالنسبة لحركتها فيعلم من ذلك انهم كان لهم معرفة بعلم الفلك

فقال الشيخ رأيت في كتب التواريخ ان كثيرًا من اهل الهند والصين وغيرهم كانوا يعتقدون ان الله عز وجل جسم وان الملائكة اجسام لها اقدار مختلفة وان الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك الى اتخاذ تماثيل واصنام مختلفة على صورة الباري والملائكة فكانوا يقربون لها القرابين والنذور لشبهها عندهم بالله وملائكته واقاموا على ذلك مدة من الزمان حتى نبهم حكماؤهم على ان الافلاك والكواكب اقرب الاجسام المرئية الى الله وانها حية ناطقة وان الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله وان كل ما يحدث في هذا العالم انما هو على قدر ما تجري به الكواكب على مقتضى امر الله فعظموها وقربوا لها القرابين ومكثوا على ذلك دهرًا فلما راوا الكواكب تخفى في النهار وفي بعض اوقات الليل لما

يعرض في الجو من السوائر امرهم بعض من كان فيهم من الحكماء
ان يجعلوا لها اصنامًا وتماثيل على صورها واشكالها فاتخذوا اصناما
وتماثيل بعدد الكواكب السبعة المشهورة واخذ كل فريق منهم
يعظم كوكبًا ويقرب له قربانا خلاف ما يقربه الاخر ظنا منهم انهم
اذا عظموا ما صوروا من الاصنام تحركت لهم الاجسام العلوية
وساعدتهم في كل ما يريدون وبنوا لكل صنم بيتا وهيكلا وسموا
تلك الهياكل باسماء الكواكب حتى ذهب قوم الى ان البيت الحرام
انما عظم على مرور الدهر لانه بيت زحل ومن شأنه البقاء والثبات
ثم لما طال عليهم العهد عبدوا الاصنام نفسها على انها تقربهم الى الله
والغوا عبادة الكواكب ولم يزالوا كذلك حتى ظهر بوذا وكان اول
ظهوره بارض الهند فخرج منه الى السند ثم الى بلاد سجستان وبلاد
زابلستان ثم دخل كرمان فتنبأ وزعم انه رسول واتى ارض فارس
في اوائل ملك طيمورث ملك فارس، وهو اول من اظهر مذاهب
الصابئة فامر الناس بالزهد في هذا العالم والاشتغال بما علا من
العوالم واراهم ان من هناك بدء النفوس وقال بعضهم انه اول من
عظم النار وقال انها تشبه ضوء الشمس والكواكب ثم افترق بعده
من تبعه فعظم كل فريق منهم ما رأى تعظيمه وقد قالوا ان
البيت الحرام اول البيوت السبعة المعظمة المتخذة على اسماء الكواكب
السبعة والبيت الثاني مارس وهو على راس جبل باصبهان والبيت
الثالث سندوساب وهو ببلاد الهند وله قرابين وفيه احجار المغناطيس

الجاذبة والرافعة والمنفردة والبيت الرابع البوبهار الذي بناه متوشهر
وهو بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر وكان من يلي سدانته
تعظمه الملوك وتنقاد لامره وكان له اوقاف كل من ولي بسدانته
يسمى البرموك ومن ذلك سميت البرامكة لان خالد بن برمك كان
من ولد من كان على هذا البيت والبيت الخامس عمدان وهو
بمدينة صنعاء من بلاد اليمن وكان الضحاك بناه على اسم الزهرة
والبيت السادس بيت كارشان شاه بناه كارش الملك على اسم
المدير الاعظم من الاجسام السماوية وهو الشمس بمدينة فرغانة من
مدائن خراسان والبيت السابع باعالي وهو ببلاد الصين بناه ولد
يعبور بن يعويل بن يافث بن نوح وقيل انما بناه بعض ملوك
الترك في قديم الزمان فجعله سبعة بيوت في كل بيت منها سبع كوى
بازاء كل كوة صورة من صور الكواكب السبعة مصنوعة من
الجواهر على اختلاف انواعها ولهم في هذا الهيكل سر يسرونه في بلاد
الصين يعلمون به اتصال الاجسام السماوية وافعالها بما يحدث في
عالم الكون من الحركات والافعال وهو سدى خيوطه من الابريسم
ممدودة على خشب يتحرك على حسب حركات الطبائع فيحدث
ضروبًا من الحركات فاذا اتصلت افعاله وتوالت حركاته في النسج
ظهرت صورة فبضرب من الحركات يظهر جناح طائر وباخر راسه
وباخر رجلاه فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد
الصانع فجعلوا اتصال الابريسم بآلة النسج وما يحدثه الصانع في

ذلك من الافعال مثالا لتأثير الكواكب العلوية في الاجسام الكونية فبضرب من الحركات ظهر في العالم الطائر وبضرب آخر فرخ وكذلك سائر ما يحدث في العالم ويسكن ويتحرك ويوجد ويعدم ويتصل وينفصل ويجتمع ويفترق ويزيد وينقص من جماد ونبات وحيوان ناطق وغير ناطق فانما هو من حركات الكواكب

واما العرب في جاهليتها فكانوا فرقًا منهم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور الموقن بان الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي

ومنهم المقر بوجود الخالق القائل بحدوث العالم واعادته الاّ انه انكر ارسال الرسل وعكف على عبادة الاصنام وهم الذين حكى الله عنهم قوله ما نعبدهم الاّ ليقربونا الى الله زلفى ومنهم من اقر بالخالق وانكر الرسالة والبعث وهؤلاء هم الذين حكى الله عنهم قوله وقالوا ان هي الاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيي وما يهلكنا الاّ الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الاّ يظنون ومنهم من مال الى اليهودية او النصرانية ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجيته ومنهم من كان يعبد الملائكة ويزعم انها بنات الله وانها تشفع لهم عنده وهم الذين اخبرنا الله عنهم بقوله ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ومنهم من كان مقرًا بالتوحيد مثبتًا للوعد والوعيد كعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف

وسبب اتخاذ العرب للاصنام انه لما نشأ عمرو بن لحي وتولى

ملك الحجاز وانتشر صيته في الجاهلية واليه تنسب خزاعة وكانت العرب تطيعه احسن الطاعة وسار بقومه الى مكة واستولى على امر البيت ثم الى مدينة البلقاء من عمل دمشق من ارض الشام فرأى قوماً يعبدون الاصنام فسألهم عنها فقالوا هذه ارباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي بها فنسقى ونستشفي بها فنشفى فاعجبه ذلك وطلب منهم صنما فاعطوه هبلا فنقله الى مكة وجعله على الكعبة واستصحب صنمين اخرين وهما اساف ونائلة ثم دعا الناس الى عبادتها فاجابوه ثم قلده العرب في ذلك فكان لكل قبيلة صنم فكان ود لقبيلة كلب وكان بجومة الجندول وسواع لقبيلة هذيل ويغوث لقبيلة مذحج وقبائل من اليمن ونسر لقبيلة ذي الكلاع بارض حمير ويعوق لقبيلة مهران واللاة لثقيف وكان بالطائف والعزى وهبل لقريش ومنات للاوس والخزرج واساف ونائلة على الصفا والمروة واستمرت العرب على عبادتها الى ان جاء الاسلام وبعث محمد عليه الصلاة والسلام فكسر الاصنام وانقذ العباد من تلك الاوهام وكانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيئ وقد ذم الله تعالى فعلهم بقوله انما النسيئ زيادة في الكفر

وكانت المصريون صابئة فانهم كانوا يعبدون الاصنام والصابئة اقدم الامم على الارض ولغتهم السريانية التي هي لغة آدم عليه

السلام ويزعمون انهم اخذوا دينهم عن شيت وادريس ولهم كتاب يسمونه صحف شيت فيه محاسن الاخلاق كالصدق والشجاعة واجتناب الرذائل وقد ذكر ابن الوردي احد المؤرخين عندنا صحيفتين من صحفهم الاولى وتسمى صحيفة الصلاة ومنها انت الازلي الذي تربط به الرئاسات رب جميع المكونات المعقولات والمحسوسات رئيس البرايا وراعي العوالم رب الملائكة ومنك تنزلت العقول الى مدبري الارض لانك السبب الاول احاطت قدرتك بالكل ولك الوحدانية التي لا تحد ولا تدرك مدبر سلاطين السماء وينابيع النور الدائم الانارة انت ملك الملوك آلامر بالخيرات كلها الفاعل لكل شي بالوحي والاشارة تنبت المخلوقات وبرمزك ينتظر العالم باسره ومنك النور وانت العدة القديمة السابقة لكل شي نسئلك ان تزكي نفوسنا وتوفقها لاستحقاق نعمتك الآن وفي كل اوان الى الابد ياظاهرًا متعاليًا عن كل دنس احلل عقالنا وعافنا من كل مرض وبدل احزننا افراحا بك نعتصم ومنك نخاف نسئلك ان توفقنا لتمجيد عظمتك التي يشار اليها ولا ينطق بها منك الكل وبك يستنير الكل وانت رجاء العالمين ومعين الناس اجمعين

وفي الثانية لا يجرين احد منكم في معاملة اخيه الى ما يكره ان يعامل بمثله واياكم والتفاخر والتكاثر لا تحلفوا بالله كاذبين ولا تهجموا على الله باليمين واعتمدوا الصدق حتى يكون نعم من قولكم فيما يستحقها ولا كذلك وتورعوا في تحليف الكاذبين بالله جل ذكره

فانكم تشاركونهم في الاثم اذا علمتم منهم الحنث وليكن الامر في نفوسكم ن تكلوهم الى الله عالم السرائر فحسبكم حاكم يعدل وناطق يفصل لا تلهجوا بهجو الكلام وسوء المقال لا تفاوضوا الاضاليل والاباطيل ولا تكثروا الهزل والضحك والهمز واللمز لا تبدر منكم عند الغضب كلمة الفحش فيجر عليكم المآثم والعقوبة من كظم غيظه وقيد لفظه ونطق منطقه واظهر نفسه فقد غلب عليه الشر كله استشعروا الحكمة وابتغوا الديانة وعودوا انفسكم الوقار والسكينة وتحلوا بالاداب الحسنة الجميلة تروا في اموركم ولا تعجلوا لا سيما في مجازاة المسيء ان يكن من احدكم فرطة وارتكب منكرة فليقطع ولا تحمله السلامة منها على المعاودة لها فانها ان سترت عليه في الدنيا يفتضح بها على رؤس الاشهاد يوم الدين (وهما طويلتان) . اه . وهذا الكلام منسوب لازمان كانت قبل الطوفان وفيه دلالة ظاهرة على ان المعارف كانت متقدمة في تلك الاعصر وكان للصابئة اعياد وهياكل يعظمونها فاعيادهم كانت عند نزول الكواكب الخمسة المتحيرة في بيوت شرفها والمتحيرة هي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد والهياكل التي يعظمونها بيت مكة وبيت بظاهر حران يحجونه ومن هياكلهم هيكل السنبلة وهيكل الصورة وهيكل النفس وهذه مدورات الشكل واما هيكل زحل فمسدس واما هيكل المشتري فمثلث واما هيكل المريخ فمستطيل واما هيكل الشمس فمربع واما هيكل عطارد فمثلث في جوف مربع واما هيكل القمر

فمنهم ومن هياكلهم بيت بمدينة حران في باب الرقة يعرف بمصلينا يقول انه هيكل ازر ابو ابرهيم الخليل عليه السلام وذكر بعض اهل الاطلاع ان باقصى بلاد الصين هيكلا مدوراً له سبعة ابواب في داخله قبة مسبعة الاركان عالية البنيان وقيل ان باعلى القبة شيئاً يشبه الجوهر يزيد على راس العجل تضيء منه جميع اقطار ذلك الهيكل وان جماعة من الملوك حاولوا اخذ تلك الجوهرة فاذا صار بينه وبينها مقدار عشرة اذرع لم ير شيئاً وان حاول اخذها بشيء من الآلات الطوال كالرماح وغيرها وانتهت الى هذا المقدار ثنت وانعكست وتعطلت وان رميت بشيء فكذلك فلم يجدوا لهم حيلة في اخذها ومن تعرض لهدم شي من هذا الهيكل مات لوقته وكانها دبرت من انواع الاحجار المغناطيسية وفي هذا الهيكل بئر مسبعة الفم متى اكب الانسان على فمها يسقط فيها وصار اعلاه اسفله وحول فم البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم يقال انه بقلم السند هند هذه بئر تؤدي الى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا وعلوم السماء وما كان فيما مضى من الدهر وما يكون فيما يأتي منه وتؤدي ايضاً الى خزائن رغائب هذا العالم لا يصل ولا يقتبس منها الاّ من ساوت قدرته قدرتنا وعلمه علمنا وحكمته حكمتنا فمن قدر على الوصول الى هذا المخزن فليعلم انه قد وازانا ومن عجز عن الوصول الى ما وصفنا فليعلم انّا اشد منه بأساً واقوى حكمة واكثر علما واوسع دراية والارض التي فيها هذا الهيكل والقبة والبئر ارض

حجرية صلبة مرتفعة كالجبل الشامخ فاذا رأى الانسان ذلك الهيكل والقبة والبئر حصل له عند ذلك جزع وحزن وتاسف على افساد شي منه او هدمه

ويقولون ان اهرام مصر قبور احدها قبر شيث بن آدم والآخر قبر ادريس وهو اخنوخ والثالث قبر صابي بن ادريس الذي ينتسبون اليه ويعظمونه يوم دخول الشمس برج الحمل فيتزينون ويتهادون فيه ومن هنا ك يعلم ايضًا ان علم الفلك ومعرفة الكواكب وما يلزم لذلك من العلوم كان قديمًا واصله من ارض اسيا ومنها انتقل الى مصر والى غيرها من البلاد حين تفرق اولاد نوح بالارض بعد الطوفان وعمروها وبنوا بها المباني على مثال ما كان في اسيا قبل الطوفان

فقال الانكليزي ما ذكرته من الادلة على اثبات العلوم لمن كان قبل الطوفان في غاية الوضوح ففي التوراة وهي من الكتب القديمة ما يدل على ذلك فانه حين تكلم فيها على الخليقة من مبدئها وما يتبع ذلك من الحوادث بينه غاية البيان حتى صار كل من قراه كانه شاهد بالعيان كل حادثة من حوادث الاولين التي احدثها رب العالمين وهذا وان كان فيه مخالفة لما نقله دويودور عن المصريين في شان الخلقة وتدبيرها الّا انه اصح لان ما نقله دويودور ليس الّا عبارة عن خرافات واوهام وبيان صور واوثان لا يحصل بها معرفة السر المقصود منها واما ما في التوراة فهو حق

لا ريب فيه فانه عن موسى الكليم ومثله لا ينطق الاّ عن من هو بكل شي عليم وايضاً مذهب دويودور مأخوذ من امور ظنية نتجت من رصد الحوادث الطبيعية ولم يقف لا هو ولا غيره على ما اودعه الله فيها من الاسرار الخفية واما المكتوب في التوراة فهو بالنظر الى باطنها وحقيقة امرها لان موسى عليه السلام اوحي اليه بما قرره وكان عليه السلام بمصر وقت وجود العلوم القديمة بها على اصلها وكانت اخبار الازمان الماضية وحوادثها عند علمائها على صورتها الحقيقيـة بخلاف دويودور فانه لم يوجد بمصر الاّ بعد انحطاطها عن درجة علوها وفخرها بما لحقها من توالي الفتن والمظالم وعليها فان علمائها بعد استيلاء الاروام والعراقيين والاعجام عليها كانوا عن درجة قدرهم نازلين وفي قيود الذل والهوان مكبلين هاجرين العلم والمعابد لما فشـا اذ ذاك من المفاسد فاستبدلوا الاشتغال بالمعارف الخفية بالاشتغال بغيرها وتفننوا فيه بظنونهم الفاسدة واوهامهم الكاسدة فعموا بعباراتهم والغزوا في تفهماتهم التي كانوا يستعملونها في وصف الهياكل وغيرها فدخل الجهل شيئاً فشيئاً وصار العلم بالحقيقة نسيا منسيا وصارت عباراتهم فيما بعد غير مفهومة للقسس فشرحوها بغير المقصود منها فاحلوا الكذب محل الصدق واقاموا الباطل مقام الحق فخيمت على عقولهم عناكب الجهالة وعششت في اذهانهم حمائم الضلالة

ومن قال ان اول من عمر ارض مصر النوبيون يعني سودان

افريقة فقد اخطاء خطاء كبيرًا لانه لا مشابهة بين السودانيين والمصريين في شيء اصلا لا في اعضائهم ولا في لغتهم بل السودان من قديم الزمان على ما هم عليه الان والذي يقبله العقل هو ما ذكرتموه حضرتكم بما هو مدون في كتب العرب من ان من تحول من الغرق كانوا من سكان الجهة المرتفعة من الارض فلا بد انهم كانوا في حدود الخراب منها وبعضهم كان سكن باسيا وهم الذين كانوا في سفح جبال توروس وجبال قاف فصارت ارض اسيا كانها منبع النوع البشري ومنها خرجت فرق متعددة وتفرقت في جهات الارض وعمرتها ومنهم من ذهب الى ارض النوبة فعمرها وانتشر فيها الى الشلالات في نهاية ارض مصر

واما قول المؤرخ ايفور ان اسم النوبة كان يطلق على اصل القبائل الساكنة قرب ارض البالستين من ارض اسيا وقول هيرودوط ان ازدشير كان من النوبيين سكان اسيا فيحتمل ان يقال ان هذا الاسم كان يطلق على جميع اهل هذه الجهة بسبب سمرة لونهم من حرارة الشمس ثم فيما بعد اطلق على سكان شاطئ النيل الاعلى وربما تشهد لذلك المشابهة الحاصلة بين المصريين السالفين والنوبيين والحبش فعلى قولها لا مانع من ان يقال ان اصل الجميع من سكان اسيا قبل الطوفان والذي يغلب على الظن انها متقدمة على من عداها في المعارف والفنون وان التمدن كان عندهم في اعلا التقدم وحينئذٍ لا غرابة في مشابهة قدماء المصريين

للصينيين في حروف الكتابة وبعض القوانين فان اصل الجميع واحد وكل منهم من ذلك الاصل مستمد وفي التوراة مدن غير بابل كانت العداوة بين اهلها لا تنقطع وكانوا كالبابليين متمتعين برياض المعارف مقتطفين منها ثمرات حسنة وكانوا يطلقون اسماء اولاد نوح عليه السلام على مواضع معينة ولا شك ان اهل هذه المدن لم تبلغ تلك الدرجة في زمن قليل بل لا بد انه بقي عند بعض عائلاتهم بعض ما كان عند ابائهم الاولين من المعارف والعلوم حتى ظهر منهم ما ظهر من الاثار فيما بعد الطوفان ولكن في كلام بعض مؤرخي الصينيين ما يدل على ان حادثة الطوفان ازالت جميع ما للامم من الاثار فان قيل اذا كان كذلك فما السبب في بقاء العلوم والفنون حتى الاخلاق والعوائد والاطوار عند المصريين هذه القرون الطويلة وفي كتبهم المقدسة مع انها من علوم الامم السابقة على الطوفان قلنا ان ارض مصر لما كانت منعزلة عن باقي الامم محصورة بين صحراوين ولم يكن بينها وبين غيرها اتصال والمسالك الموصلة لها صعبة كان ذلك هو السبب في ابقاء المعارف بها لانه لو سهل الوصول اليها لدخلت الاغراب واضاعوا معلوماتهم وما ورثوه عن ابائهم الاولين فان فتوحات سزستريس الاكبر ترتب عليها اختلاط المصريين بكثير من الامم البعيدة عنهم والاسرى التي اسروها منها نقلوا اخبارها وخصب ارضها فدعا ذلك الى رغبة كثير من الناس فيها فسكنوها واختلطوا باهلها

فحصل بذلك تغير في جميع احوال الملة في الامور السياسية والدينية
وفي هذه المدة تيقظت الملل الاخر الى مصر ففتح ذلك عليها ابواب
المصائب وكان اهلها قبل ذلك من حذقهم وخصوبة ارضهم
متحصلين على ما يزيد عن حاجتهم وكانت العلماء وارباب الوظائف
في غنية عظيمة وسعة تامة فبذلك كانت دائرة المعلومات اذ ذاك
متسعة وادارة الحكومة منتظمة بقوانين عدلية فكان قانون العدل
بها له السلطان ولواوه منتشرًا فوق راس كل انسان من ابتداء
منيس الى اخر العائلة الثامنة عشرة بخلاف سكان البقاع الاخر
والكلام في هذا المبحث يطول وليس الى ساحله وصول وقد ازف
الوقت ويلزمنا ان نغير الهواء ونريح الفكر بالتنزه في بعض جهات
البلد ثم بعد ذلك نتوجه لصاحبنا

المسامرة الخامسة والثمانون
وصف
بعض انحاء باريس

فقام الشيخ الى غرفته وادى من العبادات ما يلزمه في ديانته ثم غير ما عليه من الملابس فلم يلبث برهة من الزمن واذا ببرهان الدين قد حضر فقال له والده يابني تهيأ للخروج فانا مدعوون فتهيأ كما امره والده في زمن يسير ثم توجها الى غرفة الانكليزي فاخذهما وسار بهما الى ان وصلوا ميدانا محاطا بابنية عالية مجملة بصور متماثلة وغير متماثلة ووسط هذا الميدان صورة قلة مرتفعة فوق قاعدة مربعة وسط سعة مبلطة وحول تلك الصورة درابزين من كل الجهات فوقف الشيخ وولده والانكليزي ينظرون اليه والى الصورة الموضوعة في اعلاه فقال له الانكليزي الصورة التي

تراها هي تمثال نابليون الاول الذي اخذ مصر حين القيام الاول
واغار بجيوشه على جهات كثيرة من اوروبا وانتصر مرارًا عديدة
الى ان آل الامر الى اخذه اسيرًا وحبس في جزيرة سنت هيلين الى
ان مات ثم احضر الفرنسيس جثته ودفنوها لاجل بقاء ذكره
ورفعوا له هذا التمثال وهو من حجر الا انه مكسوّ بتونج المدافع
الماخوذة من النمساويين وغيرهم وارتفاعه ثلاثة واربعون مترًا ومن
داخله سلم ضيق يصعد منه المتفرجون الى اعلا القلة وكان في
محل هذا التمثال قبل ذلك تمثال الملك لويز الرابع عشر المشهور
وكان على قاعدة من الرخام الابيض وكان فوق حصان من التونج
فلما حصل قيام الامة الفرنساوية كسروه ووضعوا مكانه هذه
الصورة وفي مدة الملك لويز الثامن عشر صدر الامر بنزول
التمثال في سنة ١٨١٤ فانزلوه ولكن في مدة الملك لوي فيليب
عمل التمثال الذي تراه ووضع محله وكان يوم وضعه يوما مشهودا
حضرت فيه عساكر الرديف والالايات وكثير من اهالي المدينة
وحضر الملك بنفسه مع جميع خواصه ورجال دولته وكانت
الموسيقات تضرب والمغنون يترنمون بالالحان والناس في اعلا
درجة الفرح

فقال الشيخ الذي يظهر من ان ملة الفرنسيس عندها طيش
وخفة لان ما تستحسنه في يوم تستقبحه في غد وليس لها ثبات على
حال واحد وهذا ما يوجب دوام اسباب الخلل اذ من الواجب

عليهم بقاء احترام من اسس لهم هذه الشهرة العظيمة التي كانت سببا
في رفعة قدرهم واتساع دائرتهم وقوة سطوتهم وهيبتهم واحترامهم
عند جميع الامم حتى نشأ لهم من ذلك ما فيه من السعادة
والتقدم ما لا يخفى وما حصل في مدته من الخلل لا يدعوهم الى
تنزيله عن درجته المستحقة له فان ما وقع من الشر ايامه لم يكن
مقصودًا له بل ذلك تقدير العزيز العليم ولو قدر على منعه باي
حيلة ما قصر وما لبسه لهم دليل على غزارة عقله فانه احدث لهم
ما يفتخرون به فكان ينبغي لهم ان يديموا تعظيم هذا التمثال
واحترامه وبينا هم في هذا الحديث واذا بهم وصلوا حديقة السراية
الملوكية وكان وقت الاصيل فوجدوها جنة لا يكاد يوجد لها مثيل
كثيرة الازهار جارية الانهار مخضرة الاشجار مخضلة الربى معتلة
الصبا بها خلق كثير ما بين عظيم وحقير ونساء ورجال وشبان
واطفال ما بين فطيم ورضيع ورفيع ووضيع فالرضيع على عاتق
مرضعته وابن السنتين الى الخمسة مع دادته يتنوعون في الالعاب
فمنهم من بيده عصا يضرب بها كرة ويتبعها حيثما ذهبت ومنهم
من بيده طارة قدر الغربال يحركها بالسرعة والنباهة ويدخل
في وسطها ويخرج مع عدم قطع حركتها وآخرون يسوقون
طارات مختلفة القطر بعصا فيضربها بعضهم والبعض يمسك حبلا
بيده فيجره من تحت قدميه ومن فوق راسه والعاب اخر كثيرة
التنوع مع نظافة الاطفال وسلامة ابدانهم وحسن صورهم وامتثالهم

للمربيات واتباعهم اوامرهن فعند ذلك تذكر الشيخ القاهرة واحوال اطفالها الوخيمة وطباعهم الذميمة ودناسة ملابسهم وكثرة بكائهم وعنادهم وقارن بين الحالتين وعوائد اطفال الامتين وتمنى ان تكون تربية اطفال المصريين كالجاري بباريز لتخلص الاطفال من ربقة الامراض الناشئة من عدم ترييضهم وحبسهم داخل بيوت اهلهم فمن ازدياد فكره في ذلك واشتغاله بما رآه هنالك كان لا ينظر الى من يمر به من الناس المتجملين بالملابس الفاخرة وارباب الوجوه الناضرة وكان كلما قرب من جهة بها اطفال يمعن النظر فيهم ولا ينقل طرفه عنهم ولكن لما كان عالما ان الانكليزي لا يخرج عن رايه توهم في نفسه ان موافقته له ربما كانت على خلاف رغبته فقال يا صاحبي ارجو منك السماح وعدم المواخذة فاني حظيت هذا اليوم بنظري لهولاء الاطفال حظوة لا تعادل وسررت بروءيتهم سرورًا لا يماثل وازالت روءيتهم عني هموما كثيرة فنعم ما يفعل بهذه الاولاد وان هذه الاصول التي هم عليها لفي غاية السداد فان فيها حفظا للاطفال من العاهات ولولا هذا الارتياض للحقهم ما يلحق ابناء المصريين من الامراض

فقال الانكليزي ومن عوائدهم ايضا كلما وجدوا الجو صافيا ان يذهبوا باولادهم او يرسلوهم الى محلات التنزه في اليوم مرة او مرتين الى ان تقوى بنيتهم فيرسلونهم الى المكاتب ليتحصلوا على ما فيه مصلحة لهم ولاهلهم

وبالتجارب وجد من يموت منهم قبل هذه الرياضات اكثر ممن يموت بعدها ففي هذه فائدة عظيمة من حيث زيادة تعداد الاهالي وبزيادتهم يزيد الخير لان ثروة الامة تابعة لزيادة عدد اهلها وفي داخل البلدة وخارجها حدائق وميادين مثل هذه وفيها من الاشجار والحيضان ما ينشرح به صدر كل انسان ونافورات وهياكل للزينة كل ذلك مجعول لتروح الناس وترويض أفكارهم وقت التنزه

ثم سار الشيخ والانكليزي فما من جهة مرا بها الا قابلها خلق كثير في زي واحد لا يفرق الانسان بين الامير منهم والحقير والغني والفقير وكانوا لا يسمعون غير خرخشة الفساتين ودوي العربات ومناغاة الاطفال والفاظ رخيمة من ربات الدلال وهكذا كان يسمع من كل جهة ثم سارا حتى وصلا الى ميدان بنيانه من احسن البنيان فمد الشيخ بصره يمينا وشمالا وخلفا واماما فوجده محاطا بمنازل عالية البناء حسنة التقاسيم وعليها درابزينات متنوعة الاشكال ملونة بالوان مختلفة لا يخرج واحد منها عن مجاوره ولا يعلو عليه ولا يتفاوت بعضها عن بعض الا بزيادة الرونق والزينة ووجد جميع الطرق مزدحمة بالخلق ازدحاما عظيما وكانه يوم عيد لما على وجوه الناس من الفرح وعلى ابدانهم من الملابس الحسنة فصار الشيخ يتفكر في ذلك ويتامل كل التامل فلما رآه الانكليزي مستغرقا في الفكر ينظر للناس تارة ولغيرهم اخرى قال

له ايها الاستاذ هل لك ان تقف ههنا هنيهة أمام هذا الملك المفارق لاهله المعزول عن ملكه بعد بقائه فيه ثلاثة الاف سنة فلما سمع الشيخ ذلك الكلام التفت فرأى عمودًا مرتفعًا الى السماء لا يدرك اخره البصر ولم يرَ الشيخ مثله ولا سمع به فيما مضى وغبر فقال للانكليزي ما هذا الذي ارى فقال هذا عمود يقال له المسلة واصله من مصر وكان بصحراء الاقصر وابي الحجاج فاهداه محمد علي باشا لشارل العاشر فنقله الى هنا ووضعه في هذا الميدان ليكون اعجوبة الى اخر الزمان

وبينا هما كذلك واذا بشيخ كبير انسل من بينهما وهو يقول هذا اثر من اثار المصريين الذين اخنى عليهم الزمان دال بذاته على عظم قدرتهم وقوة باسهم وسطوتهم وغزارة علومهم ورزانة عقولهم وتالله انا ما علمنا الا بعض ما علموا ولا وصلنا الا لقليل مما وصلوا فيا ايها الاثر الجليل انبئنا عن احاديث الماضين وما كانوا عليه في تلك السنين فقد مر عليك سنوات واعوام وليال وايام وشاهدت ما فعله الظالمون وجناه المعتدون فافصح لنا عن تاريخ ما رأيت من الامم واعرب عما جرى بينهم في الزمن المتقدم وها انت في موضع غير الاول فهل تعيش قدر ما عشت وتنظر من الحوادث قدر ما نظرت فالتفت الانكليزي فرأى الناس في ازدحام من خلف وامام فاوسع للشيخ الطريق واخذ بيده وترك الناس في فريق الى ان وصلوا العربة فركبوها وصار الشيخ يسئله عن تلك الاعاجيب وهو

يجيبه كانه امها وابوها فقال له ان اهل الاطلاع يقولون ان الواضع لهذه المسلة رامسيس الاكبر صاحب الفتوحات الكثيرة والمصادمات الشهيرة ببلاد الشام والعراق والحبش وكان يوم وضعها بباريس يوما مشهودًا فلم يتخلف احد عن الخروج والنظر اليها حتى الملك وعائلته ولهج الباريزيون بذكرها واطالوا البحث عن حجرها وعن الملوك الذين في زمنهم رسمت والنوع الذي منه قطعت وهي عندهم الى الان من اعاجيب الزمان

ثم ساروا حتى وصلوا احدى الجهات فنظر الشيخ فرأى سراية قد تحلت بالصور العجيبة الشكل والهياكل النادرة المثل بين اعمدة من الحجر شاهقة الارتفاع قاسمة جميع وجهات السراية اقساما متساوية الاضلاع وعلى الباب حرس بالسلاح يمشون فقال الشيخ ما هذا المكان الذي اراه عجيب المنظر حسن المخبر وما هذه الاعمدة الرفيعة والهياكل البديعة فقال الانكليزي هذا مسكن ملوك الفرنسيس الان ويقال له سراي التويلري ومعنى هذا اللفظ في الاصل محل ضرب الطوب وقد كان كذلك قبل بناه فبقي الاسم وذهب معناه وبجواره سراي اللوفر كانت قبل بناء التويلري مسكنًا للملوك ايضا ثم جعلت الان محلا للرسوم والهياكل

فقال الشيخ وهل يمكن الان ان نراها فقال انها لا تفتح الاّ في ايام معينة واوقات مخصوصة وفيها مكان كله صور ورسوم يدخله النقاشون والمصورون لاجل تمرنهم على صناعتهم فاذا جاء اليوم

الذي تفتح فيه ذهبنا ان شئت لننظر ما هناك من الرسم الغريب الصنع والصور البديعة الوضع

فقال الشيخ سبحان الله ان هذه الدنيا لا يبقى فيها شي على عهد بل لا بد ان ينا له نصيبه من الشقاء والسعد

وإذا مررت على الديار وجدتها
تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ

فقال الانكليزي صدقت ايها الاستاذ فان هذه الحدائق والمباني العالية والطرق القويمة كانت قبل ذلك بركا يخزن فيها الماء والاوساخ وكان منظرها اقبح من منظر الخراب ثم انه في القرن الثالث عشر صارت محلاً لمعامل الفخار الذي يغطون به سقف المنازل وقاية لها من الامطار وكانت الملوك اذ ذاك تسكن سراية اللوفر ولكن لم تكن وقتئذٍ مزخرفة الظاهر كما هي الان بل كانت عبارة عن برج مستدير عالي السور وحواليه خنادق متسعة عميقة لا يمكن عبورها الاّ بواسطة قناطر يرفعونها بالسلاسل في اوقات معلومة وفي ذلك الوقت بسبب كثرة تحزب الامة الفرنساوية وعداوتهم لبعضهم ولملكهم كانت بينهم فتن لا تنقطع فكانت همة الملوك مصروفة لامر الحرب وقمع الاعدا والمحافظة على انفسهم فكانوا لا يشتغلون بامر الزينة والزخرفة ثم ارتفع الخوف وهدأت الفتن واطمئنت القلوب وقويت علائق الاتحاد فازدادت ثروتهم واتحدت كلمتهم ووجهتهم فصاروا كانهم رجل واحد وصار يضبط حكومتهم

قانون واحد وساروا تحت راي ملك استقر رايهم عليه فذهب منهم جفاء الطباع واخذت الاحوال القديمة تذهب شيئًا فشيئًا وبعد ان كان جلّ همتهم صلابة البناء وقوته وارتفاعه ومتانته صار مطمح نظرهم الى حسن صورته وتناسب اجزائه ولطافته فاخذوا يزينون اماكنهم ويتغالون في زخرفها حتى وصل بناؤهم الى ما تراه وبعد ان كان لا يتمكن احد من القرب الى سراي الملك صارت الناس تمر كما ترى في طرقاتها وتحوم في حوماتها ويدخلون من جميع الابواب من غير منع ولا حجاب فكل زمن له حكم

وفي زمن الملك فرنسوا الاول اشترى محل سراي التويلري وكان فضاء يبلغ قريبًا من مائة فدان مصري واشترت والدته ما جاوره وبنت فيه محلا لها ولم يبدأ في سراي التويلري الاّ في وقت ماري دومدس ومن ذاك الوقت سكنها الملوك وصار كل ملك يضيف اليها شيئًا ولم تكن من اول الامر متصلة بسراي اللوفر بل كان بينهما فضاء وبيوت للاهالي فصارت الملوك تشتري هذه البيوت شيئًا فشيئًا ويدخلونها ضمن السراي ولم يصل هذا المكان الى الهيئة التي تراها الان الاّ مدة نابليون الثالث امبراطور الفرنسيس وان كان نابليون الاول ولويز فيليب وغيرهما من قبلهما اشتروا كثيرًا من البيوت وادخلوها ضمن السراي وصرفوا في ذلك مبالغ جسيمة من المال

وفي تقسيم المدينة اعتبرت سراي اللوفر وسطا وجميع طرق

البلد منصلة بها وتنتهي بالمحيط ولما قسموا المدينة جعلوها عشرين خطا وسموا كل خط باسم اشهر مكان فيه فالاول يسمى باللوفر لوجود سراية اللوفر به والثاني بالبرتينة والثالث بالتامبل اي المعبد والرابع بالمحافظة وهكذا

وبعد برهة وقفت العربة فنزلوا لدى مكان فطرق الانكليزي بابه ففتحه البواب ودخلوا واذا بصاحب المنزل قابلهم بالترحب وسار امامهم نحو ديوان عظيم متسع مفروش باحسن الفرش منقوش سقفه باحسن النقش وحائطه من كل جهة بالورق المنقوش بالذهب وفيه من عجائب الرسم وغرائب الصنعة ما يسر الناظر وارضه من خشب الجوز مفرغة في قوالب اشكال هندسية منتظمة وكان هناك ثلاثة من ارباب الجمعية المشرقية كلهم يتكلمون بالعربية وغيرها من اللغات المشرقية وكذلك صاحبة المنزل مع اثنتين من النساء الحسان فلما قرب صاحب المنزل من المجلس عرّف الحاضرين بدرجة الشيخ في المعارف وغزارة مادته في العلوم وفصاحته في العربية فقاموا له واجلوه واجلسوه وسطهم وآنسوه وجلست صاحبة المنزل عن يمينه فصارت تحييه باحسن ما عندها من التحيات ويترجم احد الحاضرين للشيخ تحياتها وكان مطمح نظر الحاضرين الى برهان الدين لكونه كان اشد حياء من والده حسن السمت كثير الصمت فاعجب صاحبة المنزل ادبه وكماله فكان اغلب حديثها معه وكان الانكليزي قريبًا منها فكان هو المترجم

لكليهما ولما حضر الطعام اجلسته عن يمينها والشيخ بينها وبين زوجها
ثم اخذوا يتناولون الطعام ويتجاذبون اطراف الكلام ويتساألون
اسئلة اثناس حتى رفع الطعام فرجعوا الى الديوان ودار بينهم
الحديث في كل قديم وحديث بخصوص مصر وما احتوت عليه
من المحاسن قديما وفي هذا العصر وخصوبة ارضها واعتدال قطرها
وصفاء هوائها ومن سكنها من القدماء والمحدثين ومن تصرف في
امرها من الاولين والاخرين وتداول الدول في الاواخر والاول
وما اعتورها كل زمن من المنح والمحن وكان من جملة الحاضرين
رجل قد ناهز السبعين عليه الوقار والجلالة معظم لدى الحاضرين
مسموع الكلام عندهم اجمعين طلق اللسان في اللغة العربية فظهر
للشيخ من كلامه انه مارس كثيرًا من المعارف المشرقية لانه رأى
غالب كلامه اللغة العربية والفقه واشعار العرب ونوادر الادباء
ورآه حافظا لكثير من غرر القصائد ومنتخب كلام البلغاء يمزجها
بنوادر مستظرفات ويقارن بعض لطائف كلام العرب بما يقابلها
من كلام الافرنج فعجب الشيخ من ذلك كل العجب وطرب من
منادمته كل الطرب فطال بينهم الكلام وانفسح المقام ودخل معهم
الانكليزي والحاضرون اجمع منهم من تكلم ومنهم من سمع وخاضوا
بين جد وهزل ومفضول وذي فضل وحوادث البوادي والحواضر
في الغوابر والحواضر الى ان قرب الليل من الانتصاف وجاء
اوان النوم فاستاذن الانكليزي وقام الشيخ والحاضرون وتواعدوا

بالاجتماع فقال ذلك الرجل للخواجا اني اريد ان اتشرف بك وبحضرة الشيخ الليلة القابلة فاعتذر له الشيخ ووعده بان يحضر الى منزله في الليلة التي تليها وانصرف كل مسرورا بما حصل له من الائتناس بمن رآه من اماثل الناس وذهب عن قلب الشيخ ما داخله من الم الاغتراب وفراق وطنه والاحباب وشكر الانكليزي على حسن صنيعه به وعلى ما اسداه اليه من البر وتعرفه باحاسن الناس فقال ياحضرة الشيخ هذا بعض ما يجب عليّ وغاية مناي اطمئنان خاطركم وادخال السرور عليكم وقد علمت الليلة سرور من اجتمعنا به بحضرتكم لاسيما الرجل الهرم فانه انجذب الى حبكم بكليته فمن الواجب دوام الود بينكما وقد رجاني في ذلك وهذا لا باس بمعرفته فانه من مشاهير هذا الوقت علما وادبا ومن خيار هذه الامة حسبا ونسبا وله تآليف عديدة في علوم شتى ومعرفة بلغات متعددة فضلا عن كونه رئيس الجمعية المشرقية معدودا من علماء اروبا وامريكا ومن اعضاء جمعية الملة واني لارى ان معرفة مثل هذا اصل ينبني عليه معرفة امراء البلد واكابرها

فقال الشيخ ومن لي بمثل هذا فاني استظرفت كلامه وعجبت لجودة قريحته وذكاء فطنته وتوقد ذهنه مع كبر سنه

فقال الانكليزي وكيف رايته في علومكم قال هو مع غلبة العجمية عليه في النطق لبعض الالفاظ العربية ذو قدم راسخة في العلوم وله اطلاع على كثير من كتب العرب وتضلع من علم

الادب ولا بد انه ساح في كثير من بلادنا ومارس فضلاء العباد حتى تمكن مما تمكن

فقال الانكليزي نعم فانه حكى لي انه اقام بمصر مدة سنين وتوجه الى الحجاز واقام بجدة مدة ثم سافر الى عراق العرب ونزل بغداد وساح تلك البلاد ثم ذهب نحو عراق العجم وسكن تخت ملك فارس وكل ذلك كان لطلب العلم فجنى منه ثمرات واقتطف زهرات واما بلاد اوروبا فلم يترك منها بقعة الاّ وله فيهـا شهرة وسمعة حتى جنى من ثمار معارف كل جهة احاسنها واقتطف من ازهار كل فن اطايبها وفي مدة تغربه حاز الفضائل من الافاضل واكتسى الوقار من معاشرة الاماثل وستسبر غوره متى كثر الاجتماع وتاكدت علائق الالفة

المسامرة السادسة والثمانون

تعدد الزوجات

ثم وصلا محل سكنهما فحيي كل صاحبه ودخل الشيخ غرفته فتوضأ وصلى صلاته وقرأ بعض ادعية ثم دخل فراشه ونام حتى الصباح فلما استيقظ من نومه دخل ولده عليه وجلس بجانبه بعد تقبيل يديه ثم قال له والده قد آنسنا اهل مجلس الليلة فانهم اذكيا ظرفاء واظن انك كنت في غاية الانس بصاحبة المنزل فاني ما رأيتها فارقتك ولا رأيتك مللت حديثها وكنت احيانا تحدق النظر نحو صواحباتها وهن كذلك فغض برهان طرفه وتبسم واطرق راسه ولم يتكلم فقال له والده ما الذي دار عليه حديثكم لا بد ان

تخبرني بما جرى بينكم فقال سالتني صاحبة المنزل عن حال النساء عندنا وعن والدتي واخوتي فاجبتها بما يليق ثم سألتني أمتزوج ام لا وهل والدك معه غير امك ام لا فقلت لها اما انا فلم اتزوج واما والدي فليس معه غير والدتي ولم يتزوج بغيرها فقالت وكيف ذلك مع ان المشرقيين يحبون تعدد النساء فقلت لها كثير من المسلمين لا يتزوجون بغير واحدة وليس التعدد محتما عليهم وانما قد تعرض للانسان اسباب تلجئه الى ان يعدد نسائه والشرع عندنا لا يمنع الاَّ ما زاد عن اربع واما ملك اليمين فلا حظر فيه ولو كان ما كان فضحكت احدى النساء متعجبة وقالت حينئذٍ يمكن الغني ان يقتني الوفًا للتمتع بهن فقلت لها نعم فقالت حين ذاك لا يعرف لاحداهن فضل عن غيرها فاي بلدة تصنع بنسائها هكذا وكيف تكون معيشة النساء بها لا جرم انها عيشة غير مرضية ولا شك في ان نسائهم لا ينقطع لهن زفير من الم الغيظ الكامن في انفسهن وان كل واحدة انتهزت فرصة من الاخرى تفعلها بها لتحظى بزوجها او سيدها دونها واظن انه اذا كان صاحب عائلة على هذا النسق لا يسر خاطره ولا يروق ناظره ويقضي يومه وليلته في دعاويهن مع بعضهن ومعه فتارة يكون خصما وتارة حكما وربما لا يأمن على نفسه وماله من عائلته فالعجب كل العجب من هذا الاصطلاح الذي هو منشا الفساد في حياة الانسان وبعد موته فان ما يحصل بينه وبين

عائلته في حال حياته لا بد ان يحصل اشد منه بينهن وبين اولادهن
بعد مماته خصوصاً عند قسم التركة أنظن ان هناك قانوناً للزواج
احسن من القانون الذي عندنا فقلت لها ان احسن قانون واحقه
قانون شريعتنا الغراء فانه قانون الخالق المدبر لامورنا المتكفل
برزقنا وقد جاء به الانبياء المرسلون المطهرون المقربون عليهم
الصلاة والسلام وكل ما جاء به الرسل يجب علينا السير بمقتضاه
من غير زيادة فيه ولا نقص ومن خالف الشرع وتعدى عن حدوده
استوجب الحد كما لو خالف افرنجي انجيل عيسى عليه السلام او
يهودي تورية موسى فانه يعاقب على مقتضى شريعته ولا يسوغ
لاحد ان يسير بمقتضى عقله ويترك ما وردت به الشريعة فان
عقل الانسان محل للخطاء وايضاً ليس في النوع الانساني من هو
اوفر عقلا من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولله فيما نراه من الخلاف
بين الشرائع عند التشريع حكمة خفية لا تدركها عقولنا ولو اطلعنا
عليها لرجعنا الى الحق وتركنا ما سوّله الشيطان حتى وقع عند
بعض العقول موقع قبول واستحسان واما اشتغال البال بالذي
يحصل من منازعات الضرات فلا يحسن وجها للتحسين والتقبيح
فقد يكون هناك من له امرأة واحدة وهو منغص العيش من قبلها
مشوش الفكر بسببها فكل نفس جعل الله لها من هموم الدنيا
وحظوظها نصيبا على قدرها وقد يحصل التوافق بين زوجات
وينتظم الحال ويحسن المآل

فقالت الجميلة منهن البديعة بينهن ليس للانسان الاّ قلب واحد فلا يهوى غير شي واحد وكيف يقسم بين اثنتين فقلت لها دوام الحال من المحال فانه لو تعلق قلب الانسان بذات من الذوات والفها اشد ما يكون من الالفة وتولع بها وهام فلا تثبت له هذه الصفة على الدوام بل متى انقضت مدة التعلق قصيرة كانت او طويلة وتخلى القلب عما علق به سكن غيره فيه واظن انا لو تاملنا لوجدنا هذه الحالة لدى كل الناس لاتخص جهة دون اخرى ولا خلقا دون اخرين ففي قانون شرعنا لو وجد الرجل بقلبه كراهة لزوجته يسوغ له فراقها وكذلك هي لها ان تشتري منه عصمتها او تطلب منه ان يفارقها ويتخلص كل من الم الكراهة واما عندكم فلا حيلة ولا خلاص لاحد الزوجين من صاحبه تحابا او تباغضا فتبسمت صاحبة المنزل من قولي وقالت لمن تحادثني قد الزمك المصري الحجة فخجلت ولم تتكلم بعد ذلك وكان صاحبنا الانكليزي معنا وهو المترجم لي ولها عما دار بيننا من الحديث فكان يقوي حجتي فقد فهمت من كلامه ان قال لهن ان بقاع الارض مخالفة لبعضها في احوالها وكل امة سكنت بقعة منها كانت امور نظامها واحوالها على حسب ما تقتضيه حال بقعتها تتميما للنظام وتوافقا بين البقاع وما فيها من الحيوان والنبات والمياه والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وغير ذلك وايضًا فان المقصود من

الزواج انما هو زيادة النوع الانساني فلو فرضنا انه جاز سيف بلاد المشرق كجريانه في بلاد المغرب لحصل الخراب في ارض المشرق او العكس لما وسعت بلاد المغرب اهلها فان المولودين في اوروبا اكثرهم ذكور والمولودين في الشرق اكثرهم اناث فنسبة الاناث المولودين بارض المانيا مثلا الى الذكور المولودين بها كنسبة مائة واربعة الى مائة هذا وان كان من يموت هناك من الاناث صغيرًا اكثر ممن يموت من الذكور فان العبرة في التعادل بمن بلغ سن البلوغ من النوعين واما زيادة الذكور عن الاناث في ارض فرنسا على العموم فهي جزوء من خمسة عشر جزءًا بخلاف باريز فان زيادة المولودين الذكور عن الاناث بها جزوء من سبعة وعشرين جزءًا وفي لوندرة نسبة المولودين الذكور الى الاناث كالنسبة بين عددي تسعة عشر وثمانية عشر وفي مدينة نابولي من بلاد ايطاليا كنسبة اثنين وعشرين الى واحد وعشرين وفي بلاد الفلمنك وما جاورها كنسبة ثلاثة وعشرين الى اثنين وعشرين وليس ذلك مجرد قول بل كله ثابت بجميع نتائج تعداد هذه الجهات في نحو من مائة سنة فظهر من هذا ان الذكور ببلاد اوروبا اكثر من الاناث بخلاف ارض مصر وبلاد النوبة وبلاد الشرق فقانون الطبيعة عندهم جار على عكس ما عندنا لان المولود من الاناث عندهم اكثر من الذكور بقدر ثمن عدد الذكور وهذه حكمة ابدية وارادة ازلية وفي

بلاد الصين ويابونيا زيادة الاناث عن الذكور بقدر السدس وقانون الفناء جار تقريبا على هذا المنوال ففي اوروبا النسبة بين الاموات الذكور والاناث كالنسبة بين عددي سبعة وعشرين وخمسة وعشرين وفي مصر على مقتضى الجداول التي حررتها الافرنج تكون النسبة بين من يموت من النساء ومن الرجال كالنسبة بين عددي سبعة وعشرين الى عشرين فمعناه ان من يموت من النساء اكثر ولكنه غير مساوٍ لكمية المولودين هذا مآل ما فهمته من كلامه معهن ثم ضرب لي مثلا بمديرية المنيا وبني مزار فقال ان الملك الاشرف شعبان بن الملك الناصر محمد كان مسح قطر مصر كله وعد اهل المنيا وجميع قرى المديرية وكان ذلك سنة ثمانمائة وخمسة عشر فوجد اهالي تلك المديرية قريبًا من العدد الذي وجدته الافرنج حين عدوا تلك المديرية فان رجال اهلها كانوا مدة الناصر تسعة عشر الفًا وثمانمائة في ثلاث وثلاثين قرية وخمسة عشر الفًا وسبعمائة في ستة وستين كفرا والفين وثمانمائة وواحدًا وعشرين في ثلاث وعشرين نزلة والفا وستمائة وثلاثة وثلاثين في ثمانية وثلاثين نجعا فمجموع ذلك تسعة وثلاثون الفا واربعمائة واربعة وخمسون رجلا وبجعل عدد النساء اكثر من عدد الرجال بقدر الثلث كما دلت على ذلك التجاريب يكون مجموع النساء اثنين وخمسين الفًا وسبعمائة وخمسين فيكون جميع اهالي المديرية من

الذكور والاناث مائة الف وثلاثة الاف نفس وثمانمائة وفي وقت الافرنج وجدوا اهالي المديرية المذكورة مائة الف واربعة الاف وستمائة وخمسين نفسا فيكون الفرق ما بين مدة الملك الناصر وبين عدد الافرنج لهذه المديرية اي من سنة الف وثلاثمائة وخمسة عشر الى الالف وسبعمائة وثمان وتسعين نحو ثمانمائة نفس في ظرف اربعمائة وثلاث وثمانين سنة وهو شي يسير جدا لكن يلزم ان يلاحظ انه في تلك الاوقات كان ياتي الطاعون في كل اربع سنين مرة وفرار اناس كثيرين بسبب ما كان يحصل اذ ذاك من الجور والظلم هذا ما لاح بفكري وبناء على ما سبق يعلم سبب تعدد النسا في بلاد المشرق دون بلاد المغرب وارجو ان اسمع من جنابكم ما عندكم في هذه المسئلة

فقال الشيخ لا شبهة في ان القوانين العامة التي يراد بقاؤها على مرور الازمان يجب ان تكون ملحوظة الاصول والفروع بلواحظ الاستحسان وان تكون مربوطة بعلل صحيحة واغراض حميدة يفهمها كل احد ويرى ان لا سداد لاعماله وحسن حاله ومآله الاّ بالركون اليها والتعويل عليها سواء كان القانون من الفيض الالهي الذي لا يكون مسبوقا باجالة فكر وتدقيق نظر وهو المسمى وحيًا والهامًا وحملته الانبياء والرسل وتسمى تلك القوانين باسم الشريعة والدين او كان القانون باجالة الفكر وتدقيق النظر ومقارنة الاحوال وموازنة العواقب فما كان منها اسهل مسلكا واعلى

غاية وابعد من شوائب الفساد واقرب الى الضبط واجمع للخير انحط عليه الاختيار وتطابقت فيه الاراء واصحاب اولئك القوانين يسمون باسم الحكماء وقوانينهم تسمى الحكمة العملية وهي قسيمة الحكمة العلمية والحكمة العلمية منقسمة الى اربعة اقسام القسم الاول سياسة الشخص نفسه وهذا القسم هو المسمى بين اهل الاسلام بعلم الاخلاق والتصوف الظاهر وقد وضع علماء المسلمين فيه كتبا جمة كقوت القلوب لابي طالب المكي ونصف احياء العلوم لحجة الاسلام الغزالي (ويشرح في هذا العلم ما جبل عليه الانسان من القوى واثارها وتقسيمها الى اصول وفروع فيبين مثلا ان الانسان ذو قوة غضبية هو من جهتها سبع وقوة شهوية هو من جهتها بهيمة وقوة عاقلة هو من جهتها ملك من الملائكة وروح من الارواح المقدسة وان لكل من القوى توابع هي لها بمنزلة الخدم والعمال والقوة العاقلة هي السلطان الاكبر وانه يلزم الانسان ان يكون تصرف قواه تحت اوامر القوة العاقلة ونواهيها) القسم الثاني سياسة المنزل بان يعرف ما للمنزل وعليه من الحقوق وما لاهلـــه من الوظائف اللائقة باشخاصه فيسلم لكل شخص وظيفته بعد ايقافه على حدودها واعمالها وغاياتها القسم الثالث سياسة المدينة وهو كالقسم الذي قبله وغاية الامر ان المدينة منزل اكبر القسم الرابع سياسة القطر وبالتامل يعلم ان جميع السياسات مرتبطة ببعضها ارتباطا متينا كما هو من مقتضى النظام الفطري الذي عليه مجموع العالم ازمنة وامكنة اذ لا ريبة

في ان العالم شخص واحد ذو اعضاء واذا تمهد هذا علمت انه يجب في كل قانون شرعا كان او غيره ان ينظر الى علله التي اسس عليها وغاياته التي يرشد اليها فانها المحافظة له الموجبة لبقائه المكنة له من القلوب فان مدار امر الحي على ما يحفظ به حياته اصلا وتوابع فكل امر له دخل في ذلك فهو محبوب مطلوب وكل امر اوجب فيه نوعا من الفساد فهو مبغوض غير انه اذا نظر في احكام المصالح العامة وتابيدها وتمتين قواها كانت المصالح الخاصة تابعة لها جارية على منهاجها ومتى كان النظر مقصورًا على المصالح الخاصة نجم الفساد واستحكم ولم يتم امر مصلحة لما يكون في الاستئثار من المباغضة والمشاحنة ومن الامور العظيمة التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها بقانون منتظم امر اجتماع الذكور بالاناث فانه مع كونه مانعا من لحوق ما ينشاء عن الامتلاء فهو السبب في بقاء النوع وتكثيره وللانسان بين طبيعته التي يشارك بها سائر الحيوان واسطة يتميز بها عنه وهي العقل فهو لا يسعى في تحصيل مقتضيات طبعه الاّ تبعا للاحكام العقلية ولما لم تكن الانظار العقلية والطباع الفطرية كافية في ذلك منّ الله علينا بان ارسل لنا انبياء تلقينا منهم ما لا تفي به الانظار العقلية فكان من شريعة موسى عليه السلام ان يجمع الرجل في عصمته ما شاء من النساء فلما جاءت شريعة عيسى عليه السلام نسخت ذلك واوجبت الاقتصار على واحدة وتوسطت الشريعة المحمدية كما هو شانها في كثير من الاحكام فاجازت

العدد الى الاربع ومنعت ما وراء ذلك كما اجازت فراق واحدة
واحتياز اخرى وحيث كانت الشريعة المحمدية مبنية على العدل
والاحسان واجتناب انواع الظلم والعدوان وكسر عادية القوى
السبعية والبهيمية وقد امرنا باتباعها والاهتداء بانوارها لم يكن امر
تعدد النساء محذورًا لا في الحال ولا في المآل فانه اذا نظر لبقاء
النوع وتكثيره كما هو المأمور به في قوله صلى الله عليه وسلم تناكحوا
تناسلوا تكثروا كان التعدد اعون على ذلك الغرض وانجح وان
نظر الى المساعدة والمعاونة فالكثرة مع الائتلاف واتحاد الغرض
خير من عدمها ولا نظر في الدين لمجرد الشهوات اذ لو نظر لها
لوجدنا ان المرأة الواحدة تعجز كثيرًا من الرجال واذا كانت النساء
في بقعة اكثر من رجالها والضرورة داعية الى توزيعهن فتعدد
الزوجات لازم غير ان استحكام الجهالة والغاء مدارسة الديانة وترك
بناء الاعمال على احكامها وانقطاع المواعظ الحسنة النافعة المفيدة
بين الرجال والنساء تولد منه العود الى مقتضيات الطبائع من
الغيرة والمحاسدة وحب الاستئثار والاسترسال مع الشهوات
والدخول في الامور من غير تقدير للحاجة ونظر للعاقبة فاختل
قانون الازدواج ولحقه الفساد وقامت المشاقة فخلاصة القول ان
جميع الاشيا حسنها وقبحها ومدحها وذمها تابعة لكيفياتها ونتائجها
فما طابت كيفيته وعظمت نتيجته لم يختلف احد في حسنه . اهـ .

المسامرة السابعة والثمانون

التعداد او الاحصاء

ثم دخل الانكليزي والشيخ يلقي لابنه هذا الكلام فانتقل الحديث بهم الى مسئلة تعداد اهل الارض وذكرما في ذلك من الفوائد السياسية وبيان ما وضع له من التقريبات فكان من الانكليزي ان قال لو قلنا مثلا ان النسبة بين الموجودين بارض فرنسا وبين المولودين بها في السنة الواحدة كالنسبة بين عددي واحد و واحد وثلاثين فهم منه معرفة جميع اهل فرانسا تقريبًا بضرب عدد المولودين في عدد واحد وثلاثين ومثل ذلك ما لو قدرنا ان النسبة بين اهالي جهة من المانيا والجهات الشمالية وبين المولودين بها كالنسبة بين عددي واحد وتسعة وعشرين وثلث والقصد من ذلك معرفة عدد الامة على سبيل التقريب وهذا لا

باس به بل قد يجب على الحكام ليبنوا عليه مقاصدهم في اصلاح
حال رعاياهم وهذا علم نفيس معتنى به عند الامم الاوروباوية وله
فوائد عندهم منها معرفة من بقي ممن ولد في يوم واحد مثلا بعد
مضي عدد من السنين ولهم في ذلك جداول يذكرون فيها ان
بعد سنتين الاّ ربع سنة يموت ربع من ولد في اولها ويبقى الثلاثة
الارباع وبعد اربع سنين الا شهر يبقى ثلاثة اخماس فقط وبعد تسع
يبقى ثلاثة اتساع وبعد عشرين سنة الى الثلاثين النصف وبعد
خمس وثلاثين الى اربعين يكون الباقي خُمسيّن وبعد الاربعين
يبقى الثلث وبعد مضي خمس وخمسين سنة لا يبقى الا الربع ثم بعد
سبع وستين يكون الباقي ثلاثة اجزاء من عشرين جزءا من الاصل
ومتى بلغ العمر سبعا وسبعين سنة يكون الباقي جزءا من ثمانية عشر
جزءا من الاصل وبعد مضي خمس وثمانين سنة يكون الباقي اثنى
عشر جزءا من الف جزء من الاصل وبعد اربع وتسعين سنة
يكون الباقي ثلاثة اجزاء من الفي جزء وبعد مائة وخمس سنين
وثلاثة ارباع السنة يكون الباقي جزءا من مائة الف جزء ومتى
بلغ العمر مائة سنة وتسع سنين يكون الباقي جزءا واحدًا من الف
الف جزء من الاصل اي انه لو فرض ان الاصل كان المولود
في يوم واحد الف الف لا يبقى منهم بعد هذه المدة الاّ واحد عمره
مائة سنة وتسع سنين

فبهذه الوسائل تكون افكار الحكام تابعة لسير الامة في جميع

تنقلاتها وحركاتها نحو السعادة والفقر والقوة والضعف والكثرة والقلة فعلى مقتضى ما يرونه ينحون نحو ما فيه الاصلاح

فقال الشيخ من المعلوم ان الافرنج لم يقيموا بمصر غير ثلاث سنين وهم في قتال دائم فكيف تفحصوا هذا التفحص واستكشفوا هذا الاستكشاف مع انها بقيت في يد غيرهم اعوامًا وقرونا ولم يحدثوا من ذلك شيئًا

فقال الانكليزي لا غرابة في ذلك فان الاعمال تابعة للنيات فمن سبق على الافرنج كان لا يشغله عن شان نفسه شأن وما كان يحصل عليه كان كافيًا لما يلزمه واما الافرنج فكانت نيتهم غير نية من سبقهم وباختلاف الاغراض تختلف الاعمال انظر الى المرحوم محمد علي باشا حين وليها بعد الافرنج فاحدث فيها امورًا عجيبة وجلب اليها من البلاد الاجنبية كل صنعة غريبة ثم تبعه في ذلك من بعده ممن ورثها من ولده فتراها بعد ان كانت في زوايا النسيان مهجورة العمران لا ذكر لها بين الامصار قد كساها التمدن حلل الفخار فقصدها الغافون من كل واد وغلت مزارعها واضحت نزهة للناظرين وبساتينها عقود جمان رصعت بالدر الثمين وما من سنة تاتي الاّ ويستجد بها من المنافع ما يفوت الحصر من فوائد جديدة ومحاسن عديدة والمغارس تزداد والثمرات تنمو وبعد ان كان كثير من ارض الزراعة بها قد استحوذ عليه العدم وصار لا ينبت من طفو ماء البحر الملح عليه او تغطية الرمال له حصل الالتفات

في مدته ومدة اولاده فصلح اكثرها وزرع وظهرت الثمرة لاهلها وقد كان بالجهات البحرية من مصر مناقع مياه متسعة وبها كثير من الحشائش فكانت بطول مكث الحشائش وركود الماء يحصل منها تعفن وامراض يترتب عليها تلف للاهالي فصارت الان لا يرى لها اثر وتبدلت حشائشها بالزراعات النافعة كالارز والقطن والحنطة وغير ذلك

فقال الشيخ ان ذلك متوقف على العلم بما كان عامرًا وغامرا بمصر قديما فلو عرفنا ذلك امكن الحكم بتفضيل احد الحالين وتفاوت ما بين الزمانين فان من المؤرخين كابن اياس من يقول ان المنزرع من ارض مصر زمن المسعودي اعني في حدود القرن الرابع كان مائة وثمانين الف الف فدان ويبلغنا الان عن بعض صيارفة البلاد ان جميع المنزرع من ارض مصر ما بين الاربعة الاف الف والخمسة الاف الف فتكون نسبة ما بين الزمانين كنسبة واحد الى ستة وثلاثين او خمسة واربعين ولا اظن ان هذا الفرق كان يزرع ثم هجر فلعل في عبارة ابن اياس تحريفا والاّ فهو خطاء والذي يؤيد ذلك قوله ان في ذاك الوقت كان لا يجبى الخراج على بكرة ابيه الاّ اذا بلغ عدد من يشتغل بالزراعة اربعمائة وثمانين الف نفس في جهات القطر مع ان الموجود حين التعداد الذي صار في زمنه ليس الاّ مائة وعشرون الف نفس وكان المنزرع اذ ذاك ربع الزمام فان اراد الفدان المصطلح عليه

خص كل شخص من المائة والعشرين ثلاثمائة وخمسة وسبعون فدانا ولا يعقل زراعة هذا القدر بشخص واحد وان اراد بالفدان اقل من الذي نستعمله كالقيراط مثلا فيخص كل شخص من المائة والعشرين الف نفس حينئذٍ خمسة عشر فدانا فيكون القدر الذى اراد وضعه الف الف فدان وستمائة الف فدان وليس مائة وثمانين الف الف فدان واذا كان للشخص الواحد خمسة عشر فدانا لا يبعد عليه زراعتها وما يدل على ان في عبارة ابن اياس تحريفا او خطاء ما ذكره في موضع اخر عن المسعودي ايضًا من ان مساحة ارض الزراعة جميعها بالقطر المصري مسير ستين يومًا فان كان قصده سعة طولها وعرضها ستين بسير الانسان فالمساحة الذاتية الان لا توافق المساحة الاولى اصلا والذي يغلب على ظني غلبة تقرب من اليقين ان الاصل الف الف وثمانمائة الف فدان وان الناسخ لكتاب ابن اياس اضاف صفرًا فحصل منه هذا الخطاء الفاحش

فقال صاحبه الانكليزي قد قلت صوابا فان المساحة التي صارت مدة الافرنج ومن قبلهم توافق ما ذكرت فقد صار حصر جميع الارض المضروب عليها الخراج في جميع الجهات وتحرر بها قوائم من طرف صيارف الجهات فوجدت ثلاثة الاف الف فدان ومائة وثلاثة وستين الف فدان وستمائة وثمانية عشر فدانا وقوبل ذلك على ما استنبطه مهرة المهندسين وحرروه من رسم الارض وهو

ثلاثة الاف الف ومئتان وسبعة عشر الف فدان وستمائة وسبعة عشر فدانا فوجد بينهما فرق قليل نشأ من اختلاف طرق الحساب بين مساحي الاهالي والمهندسين وحينئذٍ فهذا المقدار اعتباره صحيح لا شك فيه فانه موافق لما وجد في دفاتر المساحة زمن الملك الناصر سنة ٧١٥ هجرية الموافقة لسنة ١٣١٥ ميلادية وهو ثلاثة الاف الف ومائة واثنان وسبعون الف فدان ومائة وستة وثلاثون فدانا ولا عبرة بما بينهما من الفرق لانه ناشئ من اختلاف طرق الحساب والقياس

ثم قال ولا يخفى على حضرتكم ما حصل في القطر المصري بعد زوال ملك الفراعنة واستيلاء الاغراب عليها من الاسباب التي اوجبت تاخيرها وعدم انتظام حالها ونشأ من ذلك تلف كثير للارض بتركها واهمالها وفرار اهلها حتى خرب كثير من البلاد فمن ذلك يعلم ان ما وجده الافرنج مزروعا بوادي مصر ليس جميع ما كان يزرع في الازمان السابقة بل لا بد من اضافة ما كان قابلاً للزراعة ولم يزرع في ايامهم وكذلك الترع والجسور التي انشئت وارض البلاد التي استجدت وما اتلفه البحر المالح بعد تلف الجسور وترك المحافظة وضمه الى ما كان يزرع زمن الفراعنة وهذا الامر لا صعوبة فيه من بعد ما حرروه من الرسوم وقد امكن بسببه معرفة مساحة القطر وما اشتمل عليه بغاية الدقة كالمبين ادناه

فدان	
٧٣٠٥٨	ارض مشغولة بالسكن
٣٣١٦٧١	مساحة المنزرع والقابل للزراعة
٧٤٩١٤٠	غير الصالح للزراعة
٣٦٦١٣	جزائر النيل
١٢٠٥٦٣	ترع وخلجان وجسور
١٦٣١٦	اماكن السكن والخراب
١٥٨٩٤١	مساحة مجرى النيل المشغول بالماء
٩٤٢٨١	البحائر والبرك
٣٢٧١٣٤	الارض الرملية
٥٥٢٤٢٥٠	جملة ذلك

اي خمسة الاف الف فدان وخمسمائة واربعة وعشرون الفا ومائتان وخمسون فدانا من الفدان الذي مساحته خمسة الاف وتسعمائة وتسعة وعشرون مترًا مربعا وهذا القدر يعادل من الفراسخ المربعة التي كل فرسخ منها يدخل في الدرجة الارضية خمسا وعشرين مرة الفا وستمائة وثلاثة وستين فرسخًا مربعا وثلثي فرسخ تقريبًا والمزروع من ذلك يعادل تسعمائة وخمسة وستين فرسخًا مربعا ونصفا فان اضيف الى ذلك

٣٢٤٨٧ مساحة الخرس وهى

١٠٬٩٩	ومساحة الجزائر المتروكة وهى
٨٣٬٩٠	ومساحة ما عدم من الجسور والترع وهى
٣٦٬٨٣	ومساحة التلال والخراب وهى
٦٨٬١٨	ومساحة الرمال من ارض الزراعة وهى
٣٣٠٬٠٠	ومساحة ما تلف بسبب البرك وهى
٤٬٩٠	ومساحة ما غطته الرمال وهى
٢٢٠٠٦١	كان المجموع

اي ان الذي كان يظن زرعه في عهد الفراعنة الفان ومائتان فرسخ مربع تقريبًا منها في الوجه القبلي الف وخمسمائة فرسخ وفي الوجه البحري سبعمائة فرسخ والمنتفع به من ذلك الان قريب من الفين وخمسمائة فرسخ مربع والمتروك مع امكان زرعه وانتفاع الاهالي به عند قدرتهم وثروتهم سبعمائة فرسخ مربع وهذا موافق لقول ابن اياس بعد التصليح الذي ذكرنا وذلك انا اذا ضربنا المنزرع في وقته وكان قدر ربع ما كان يزرع قديمًا في اربعة يحصل سبعة الاف الف فدان ومائتا الف فدان وهو عبارة عن الفين ومائة وخمسة وخمسين فرسخًا مربعا والفرق بينه وبين ما قدرته الافرنج قليل جدًا

فبناء على ما ذكرنا يكون ما يزرع في الايام السابقة قريبا من سبعة الاف الف فدان وما كان يزرع مدة الافرنج اقل من النصف وكذا ما كان يزرع مدة الملك الناصر

فقال الشيخ اذا كان ما يزرع الان نحو خمسة الاف الف فدان فيكون قد زاد عما كان يزرع ايام الفرنج نحو الثلث وهذا مما يفيد التقدم بلا شك

فقال صاحبه الانكليزي حصول التقدم بمصر امر غير منكر وارض مصر قابلة لان يزرع بها ضعف ذلك واكثر واذا التفت الى قطر مصر امكن ان يزرع به كل ما كان يزرع سابقا وان يرجع ما كان له من الثروة القديمة والذي يغلب على ظني ان في هذا التقدير خطاء فان قدر الفدان المستعمل في جباية الاموال الان سبعة عشر قيراطا من الفدان الذي كانت الافرنج قدرته بمعنى انه ثلث وربع الفدان القديم واذا لاحظنا ذلك وجدنا ان الخمسة الاف الف هي الثلاثة الاف الف وخمسمائة وثلاثة وستون الف فدان ومائة وثلاثون فدانا فيكون الفرق عن مدة الافرنج ثلاثمائة واربعة وخمسين الف فدان فقط وهذه نتيجة اعظم من النتيجة الحاصلة من ابتداء الملك الناصر الى دخول الافرنج وهذه مدة تقرب من اربعمائة وثلاث وثمانين سنة حصل فيها نقص ثمانية الاف فدان وخمسمائة وثمانية عشر فدانا باعتبار المقرر في قوائم الصيارف ودفاتر الخراج

وعمار قطر مصر ليس الاّ بتقدم الزراعة فكلما حصل زيادة الالتفات الى الزراعة واتسعت ارضها زاد تعداد اهالي القطر وكلما حصل اهمال في الزراعة وضاقت ارضها نقص التعداد ففي الازمان

السابقة كان تعداد الاهالي كثيرًا جدًا لان الفراعنة كان لهم اعتناء بامر الزراعة وقد بلغ عدد الاهالي في زمنهم الى مقدار عظيم وان لم تتفق المؤرخون على قدر معين فان هيردوط وهو اقدمهم قال انه كان بمصر في وقت امزيس نحو عشرين الف مدينة وقرية وفي زمن بطليموس وديودور الصقلي اقتصر على ثمانية عشر الفًا وجعل عدد الاهالي سبعة الاف الف نفس في زمن الفراعنة وفي زمنه تنقص الى ثلاثة الاف الف وكانت جيوش الفراعنة الف الف نفس وعدد العساكر التي ساقها سيزوستريس من مصر في محارباتها ستمائة الف من المشاة واربعة وعشرون الفا من الخيالة خلاف سبعة وعشرين الف عربة حربية ويتوكريت فاق الجميع وجعل العدد ثلاثة وثلاثين الفا في زمن بطليموس فيلدولغوس وغيرهم قدر ان تعداد المدن ثلاثة عشر الفا فقط ومن قول يوسف الاسرائيلي يؤخذ انه لم يتعدّ تعداد الاهالي في قطر مصر عن سبعة الاف الف خلاف الاسكندرية التي جعل عدد اهاليها ثلاثمائة الف وقال انه كان في مدينة بيلوز عساكر للمحافظة على القطر من جهات الشرق يبلغ عددهم مائتين وخمسين الفًا

ومؤرخو هذا الوقت لم يكتفوا في عدد المصريين بمبالغة من سبقهم من المؤرخين الذين ذكرناهم بل زادوا عليهم بما لا يتصوره العقل فمنهم من قال ان عدد الاهالي سبعة عشر الف الف ومنهم من قال سبعة وعشرون الف الف ومنهم من قال اربعون الف

الف ومبالغة الجميع ظاهرة لانه لا يتصور في بلدة نسبتها الى
فرنسا كنسبة جزء الى اثنى عشر جزءًا ان يعيش بها هذا القدر

ونحن وان كنا لا ننكر كثرة اهالي مصر مدة الفراعنة لكن
لا يمكننا ان نقول انهم يزيدون عن سبعة الاف الف فان سعة
ارض القطر حسب ما قدره الاقدمون الفان ومائتا فرسخ وهذا
موافق ايضًا لما هو الان ولتقدير الافرنج بعد رسمهم سطح الارض
جميعه ومن القدر هذا مدينة طيبة ومنفيس وباقي المدن وهو مع
وروده عن اقدم المؤرخين الذين ساحوا ارض مصر في زمن
يقرب من الزمن الذي زال فيه ملك اهلها وانحط فيه مقدارها
مناسب لسعة ارضها الزراعية التي بها حياتهم وما قاله بعض
المؤرخين يمكن ان نبرهن عليه ولا مانع من انه كان الموجود بها
ثمانية الاف مدينة وقرية وكفر كما قال بعضهم لا كما قال ديودور
من انه كان بها ثمانية عشر الف مدينة لان في الجزء الاخير من
البطالسة كان عدد القرى والكفور والمدن ثلاثة الاف وكانت
ارض الزراعة اقل من نصف ما كان يزرع سابقا ولا مانع من
ان عدد البلاد كان قدر ذلك مرتين ايام كانت القوانين العدلية
القديمة هي المتسلطة وذلك قبل دخول الاغراب من العجم واليونان
وغيرهم هذا القطر وخراب ارضه وهدم بنائه

فقال الشيخ اني سمعت ان مدينة طيبة كانت اكبر مدن
الدنيا عمارًا وانها كان لها مائة باب كل باب يسع مائتي فارس

فاذا كان كذلك فلا شك انها تشغل سعة من الارض عظيمة وانها كانت مسكونة بخلق يزيدون عن ساكني القاهرة الآن بمرار كثيرة

فقال الانكليزي ولو ان ايدي الزمان وصروف الحدثان غيرت معالمها ودرست رسومها واعفت مبانيها واخنت على مفاخرها الا ان ما بقي الان من اثارها دال على ان شكل المدينة في الزمن القديم كان عبارة عن اربعة اضلاع عظيمة الامتداد وان احدى الزوايا تنتهي الى المحل المعروف الان بكفر جرجس والثانية الى الشاطئ الايمن للنيل والثالثة الى شاطئه الايسر وتسمى الان تل الايسر عند تل قبور الملوك والزاوية الرابعة الى المعبد او البربي الصغيرة الموجودة على الميدان الكبير فكان بناء على ذلك يمر الضلع البحري بالقرية المعروفة بالتحتاني وبجزيرة الورزية وينتهي قريب القرية والضلع القبلي كان يمر في قربه مائة عمود قاطعا للجزيرة الجديدة وخراب الكربك كان يوجد على بعد سبعمائة متر من الضلع الجنوبي ومساحة الارض المحدودة بهذه الحدود تقرب من سبعة الاف فدان مصرية

وطول اعظم قطر في هذه الاربعة الاضلاع احد عشر الف متر ومحيطه ستة وعشرون الف متر فاذا استنزل من ذلك مساحة مجرى النهر وهي خمسمائة فدان تقريبا مع مساحة الميدان الكبير وخراب السرايي الملوكية الموجودة في جنوب الاقصر على بعد ثلاثة

الاف متر كان الباقي ما كان مسكونا من هذه المدينة في الازمان السابقة وقدره خمسة عشر الف اورور او خمسة الاف فدان مصرية كبيرة

واذا قارنا تخت مصر القديم بتختها الان وهو القاهرة فلا يكون اهل طيبة في الزمن السالف اقل من سبعمائة الف نفس لان محيط القاهرة ثلاثة عشر الف متر وخمسمائة متر بدون اعتبار الاعوجاج الداخل والخارج وباعتباره يبلغ محيطها اربعة وعشرين الف متر ومساحتها الفا وخمسمائة وثمانين فدانا تقريبا وهو ربع مساحة ارض باريز وعدد اهلها بالتفحصات التي صارت مدة الافرنج يقرب من مائتين وستين الفا وذلك سنة الف وسبعمائة وثمان وتسعين ميلادية فعلى ذلك يكون قد خص الفدان الواحد مائة واربعة وستون شخصا بادخال ارض المساجد والخانات والميادين وغيرها وقياسا على ذلك تكون اهل طيبة ثمانمائة وعشرين الف نفس او سبعمائة الف بالاقل ومما تقدم يعلم ان اهل القطر المصري كانوا كثيرين ولذلك كانت اشجار الثروة والرفاهية باسقة الاصول مورقة الافنان وكانت ارضها لما اشتملت عليه من البر والاحسان هي المشار اليها باطراف البنان وكانت ارباب الحاجات ما بين قاصد لها وآت وكانت وفود التجار ياتونها ليلا ونهارا وثمرات العلوم تجنى من مدارسها بواسطة ما بها من العلماء واستمر ذلك اياما مديدة واعواما عديدة حتى دخلها الفرس ويددوا شملها

فحلت باهلها المصائب واحاط بهم الظلم من كل جانب فاختل نظام
احوالهم القديمة وذلت علماؤهم واحتقروا فرجع سعدهم القهقرى
وفارقت زراعهم ارضها ومن كثرة الفتن الثائرة بين المصريين
والفرس تلف اكثر الاثار الشهيرة وهدمت المباني الفاخرة ثم استولى
على الاقليم البطالسة فاخذوا في رد كل شي لاصله لكن لم يتم
ذلك فانه ان كان يحصل من بعضهم ما يوجب التقدم يجيء
الوارث فيفعل ما يوجب التاخر فبقيت حالة التاخير الى ان
استولت الروم وضمت مصر الى ملك القياصرة وجعلت طعمة لرومة
فنهبوا اموالها وغيروا احوالها ثم وقع الفشل بين الرومانيين وبعضهم
فزاد انحطاط قدر مصر وذهب ما بقي من فضلها وما زال اهلها
كذلك يتناقصون الى ان تولى عليها عمرو ابن العاص من قبل
الخليفة عمر بن الخطاب فكان تعداد اهلها حينئذٍ لا يزيد عن اربعة
الاف الف وستمائة وثلاثين الف نفس بناء على ما ذكره المورخون
فقد نقل ابو الحسن عن ابن خطير انه ضرب على اهل مصر
خمسين الف الف يدفعونها على ثلاثة اقساط متساوية اذا كان
النيل وافيا وبلغ حده المعلوم واذا نقص عن حده ينقص من
المضروب عليهم على حسبه ومن يرضى من الروم وغيرهم بالشروط
المعقودة مع اهل مصر يعامل بما يعاملون به ومن يأبى من الاهالي
دفعها اسقطوه من العدد فلو امكن معرفة ما دفعته المصريون
وما ربط على كل نفر لم يصعب معرفة عدد الاهالي ويتوصل

لذلك ما ذكره مؤرخو العرب في هذا الخصوص

فمن قول ابن عبد الحكم يعلم ان في مدة الروم كانت الارض منقسمة الى اربعة وعشرين قيراطا وكان المجعول على الفدان من الخراج اردب قمح وويبنان من الشعير

وهذا غير فردة الرؤس فانها كانت تدفع نقدا وان عمرو بن العاص ابقى الخراج على ما كان عليه في مدة الروم

وذكر القدوري انه جعل علي كل غني في كل سنة ثمانية واربعين درهما وعلى كل اجير اثنى عشر درهما وانها كانت مضروبة على اليهود والنصارى ما عدا عبدة الاوثان من العرب دون المرتدين والنساء والاطفال وذوي العاهات والفقراء والمساكين ومن يدخل في دين الاسلام وعلى هذا كانت الجزية اخذة في النقص بزيادة من يتدين بدين الاسلام الى ان اعطيت التزاما في زمن القاضي الفاضل اي سنة ٥٨٧ وكان مقدارها اذ ذاك واحداً وثلاثين الف دينار ثم نقصت بعد ذلك كثيرًا الى ان صارت سنة ٨١٠ احد عشر الف دينار واربعمائة

مع انها كانت في زمن عمرو بن العاص اثنى عشر الف الف دينار وفي زمن المقوقس عشرين الف الف

وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حصل عبد الله بن سعيد عامله من مصر اربعة عشر الف الف

وفي زمن المقريزي نقصت نقصاً كليًا فكانت تدفع منفردة تارة

وتضم الى الخراج اخرى وكانت في زمن عمرو بن العاص لا تؤخذ الاّ ممن بلغ الحلم وكانت النساء والاطفال معافة منها وكان قدرها اربعين درهما من الفضة او عشرة دنانير خلاف اردب من البر

ويوخذ من قول يزيد وابي الحسن ان الذي كان مضروبًا على كل رجل من القبط ديناران ولا بد ان هذا كان الحد الوسط يعني ان البعض كان مضروبًا عليه اربعة والبعض ثلاثة والبعض اثنان والبعض اقل كما صار ذلك في توزيع ما ضربته الافرنج على اهالي القاهرة سنة ١٧٩٨ ميلادية فقد ضربوا عليهم تسعين الف حصة جعلوا منها تسعة الاف على الاغنياء قيمة الحصة اربعمائة واربعون ميديًا وثماني عشر الف حصة على من يليهم في الثروة قيمة الواحدة مائتان وعشرون ميديا وثلاثة وستون الف حصة على من يليهم كل حصة قيمتها مائة ميدي وعشرة والنسبة بين هذه الحصص كالنسبة التي كانت في زمن القدوري

والذي يدل على ان الدينارين الحد الوسط ما نقله المقريزي عن حسين بن شالي في الكلام على القرن الاول من الهجرة من ان اهل اسكندرية كانوا ستمائة الف خلاف النساء والاطفال حين استيلاء عمرو بن العاص عليها وانه ضرب على كل رجل من اهل القطر دينارين الاّ اهل الاسكندرية فانهم دفعوا الفردة زيادة عن الخراج لانها اخذت عنوة فمن جميع ما تقدم يفهم ان الخمسين الف الف التي ضربت على اهالي القطر هي دراهم

ولا بد لنا الان من معرفة قيمة الدينار لانه تغير بتغير الازمان فانه كان مدة الحاكم بامر الله يساوي اربعة وثلاثين درهما وبعده بزمن صار يساوي واحدًا وثلاثين ثم ستة وثلاثين ثم ثمانية عشر درهما وكان الدينار المصري يساوي خمسة عشر درهما ونصفا ثم صار يساوي ثلاثة عشر درهما ونصفا وفي الصدر الاول كان الغالب في المعاملة الدينار ثم صارت الغلبة للدرهم ثم الميدي فلو فرض ان قيمة الدينار كانت خمسة عشر درهما لكان مبلغ الخمسين الف الف درهم عبارة عن ثلاثة الاف الف دينار وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين الف دينار فاذا اخذنا نصف ذلك كان عدد الرجال الذين كانوا يدفعون الجزية اي الف الف نفس وستمائة وستة وستون الف نفس وقد يمكن معرفة عدد الاطفال وغيرهم من جدول وضعوه لامة مركبة من عشرة الاف الف نفس مثلا ومن هذا الجدول يعلم ان بعد احدى عشرة سنة ونصف لا يبقى الا ثلاثة ارباع الاصل ونصف سدس قيراط

وبعد ست عشرة سنة يكون الباقي سة عشر قيراطا وثلث سدس قيراط

وبعد عشرين سنة يكون الباقي اربعة عشر قيراطا ونصفا

وبعد خمس وعشرين سنة يكون الباقي اثنى عشر قيراطا وثلثا

وبعد ثلاثين سنة يكون الباقي عشرة قراريط ونصفا

وبعد سبع وثلاثين سنة يكون الباقي ثمانية قراريط ونصف سدس القيراط

وبعد ثلاث واربعين سنة ونصف يكون الباقي ستة قراريط

وبعد خمس واربعين يكون الباقي خمسة قراريط وثلثي قيراط

وبعد ثمان واربعين سنة يكون الباقي اربعة قراريط الاّ سدس سدس القيراط

وبعد ٥١ سنة يكون الباقي اربعة قراريط الا سدس سدس القيراط

وبعد خمس وخمسين سنة ونصف يكون الباقي ثلاثة قراريط

وبعد ثمان وخمسين سنة ونصف يكون الباقي قيراطين وثلثًا

وبعد ستين سنة ونصف يكون الباقي قيراطين وربع سدس قيراط

فاذا تقرر ذلك علمنا عدد من وصل من الاطفال الى سن احدى عشرة سنة من امة عددها عشرة الاف الف بطرح الباقي بعد الاحدى عشرة وهو ثلاثة ارباع تقريبا من الاصل الذي هو عشرة الاف الف فيكون الباقي هو عدد من بلغوا في العمر احدى عشرة سنة وكذلك لو اردنا معرفة من بلغ عمره عشرين سنة الى خمس وعشرين نسقط المقدار المقابل للخمس والعشرين وهو الاثنى عشر قيراطا وثلث قيراط من المقابل الى العشرين وهو اربعة عشر

قيراطا ونصف قيراط فيكون التفاضل ويكون الباقي قيراطين
وسدس قيراط وهو تعداد من بلغ العمر المذكور ولا بد من
الملاحظة في قسمة العشرة الاف الف الى اربعة وعشرين قيراطا
ولاجل استعمال هذا الجدول في معرفة عدد اهل مصر زمن عمرو
بن العاص تقول حيث كانت الاطفال معافة من الجزية فيخرج
العدد المقابل لسن الاحدى عشرة سنة وهو خمسة قراريط وثلثا
قيراط ونصف سدس قيراط فيكون ذلك بالنسبة للعشرة الاف
الف الفي الف وثلاثمائة واثنين وسبعين الفا وثمانمائة واثنين
واربعين والباقي وهو سبعة الاف الف وستمائة وسبعة وعشرون
الفا ومائة وواحد وخمسون هو عدد الرجال والنساء معا فعلى
تقدير ان عدد النساء مثل عدد الرجال يكون نصف الباقي وهو
ثلاثة الاف الف وثمانمائة وثلاثة عشر الفا وخمسمائة وتسعة وتسعون
هو عدد الذكور ثم تنسب نسبة بان تقول نسبة عدد الرجال الى
العشرة الاف الف كنسبة العدد الذي وجدناه من حساب الجزية
وهو الف الف وستمائة وستون الفا الى العدد المطلوب ايجاده
وبالحساب تجد انه اربعة الاف الف وثلاثمائة وتسعة وستون الفا
فباضافة ثمن هذا القدر لزيادة النساء عن الرجال وباضافة جزء
قليل في مقابلة الفقراء والمساكين يعلم ان عدد الاهالي اربعة
الاف الف وستمائة وثلاثون الفا تقريبا

فقال الشيخ يظهر من ذلك ان تعداد الاهالي منذ دخل

الاسلام مصر نقص نقصا كثيرًا عن المدة القديمة خصوصا في المدة الاخيرة من ايام المنتصر بالله فان في وقته تصرفت ايدي العدوان وزادت اسباب الطغيان وانتهب الحكام ايراد الحكومة واهملت السياسة بتولي غير المستحق عليها لاحتفال والدة الخليفة وقتئذٍ بطائفة العبيد فاشتعلت نيران الفتن اشتعالا اضر باهالي القطر وطمت الجداول والخلجان وعجزت الاهالي عن زراعة ارضها لانه كان اذا علا النيل غرقت واذا لم يعلُ شرقت لعدم اجراء الطريق اللازم للريّ وتصريف المياه فأدى ذلك الى صيرورة كثير من الارض مناقع ماء وخرب كثير من الجهات البحرية واستمرت هذه الاحوال بل زادت زيادة فاحشة في زمن الباشاوات الذين كانوا مندوبين لسياسة الديار المصرية فان من اتى منهم كان لا يشتغل في السنة التي يقيمها الا بجمع المال لنفسه صارفا اوقاته في التمتع واللذات جاعلا زمام الحكومة بيد من يوافقه على اغراضه من البيكوات وبهذا السبب كان الفشل مستديما وعصا الخلاف بينهم مشقوقة وكثيرًا ما يكون السبب في ذلك الباشا نفسه الذي هو منوط بادارة الامور فنشاء من هذا مضار اضعاف ما صار من قبل وامتدت ايدي الجند والعرب للنهب والسلب في الجهات البحرية والقبلية فلم ينج من شرهم الاّ من دخل في حمى قبيلة من العرب فحصل من هذا نقص كثير وبدا بالقطر خلل كبير ومما يؤيد ذلك قول العلامة المقريزي انه في زمن المنتصر بالله كان ايراد مصر من

جوالي وخراج الف الف دينار في مبدأ امره وبعد مدة من حكمه وصل الى ثمانمائة الف دينار ثم نقص فوصل الى خمسمائة الف دينار الى ان عجز عن تأدية مرتبات الجند فاين هذا مما ضربه عمرو بن العاص وعبد الله بن سعيد وما كان في زمن الخليفة المامون والخليفة المعتصم فانه بلغ في ايامهما اربعة الاف الف ومائتين وسبعة وخمسين الف دينار اذا بلغ النيل حد الوفاء وهو سبعة عشر ذراعا وعشرة قراريط وكان خراجها ايام الحاكم الفي الف دينار وثمانمائة الف دينار ولما تولى بدر الجمالي وكانت ولايته سنة ٤٨٢ بلغ ثلاثة الاف الف ومائة الف دينار وفي زمن ابنه الافضل بلغت خمسة الاف الف دينار ولم ينقص عن هذا القدر زمن صلاح الدين وكانت مرتبات جنده ثلاثة الاف الف وستمائة وسبعين الفا وخمسمائة دينار ومرتب المتقاعدين الف الف دينار وفي زمن الملك الناصر بلغ الخراج تسعة الاف الف دينار وخمسمائة واربعة وثمانين الف دينار ومائتين واربعة وستين دينارًا بالدينار الحبشي الذي قيمته ثلاثة عشر درهما منها ستة الاف الف ومائتان وثمانية وعشرون الفا واربعمائة وخمسة واربعون دينارًا تجبى من الجهات البحرية وثلاثة الاف الف وثلاثمائة وخمسة وخمسون الفا وثمانمائة من الجهات القبلية

فقال الانكليزي ياحضرة الشيخ ان تعداد اهالي مصر وقت دخول الافرنج ارضها كان الفي الف وستمائة وثمانية عشر الف

نفس وتسعمائة وخمسين نفسًا وكان عدد اهالي كل مدينة هكذا

عدد	
١٥٠٠٠	اهل رشيد
٢٠٠٠٠	اهل دمياط
١٧٠٠٠	اهل محلة الكبرى
١٥٠٠٠	اهل سكندرية
١٢٠٠٠	اهل اسيوط
٠٥٠٠٠	اهل قنا
٠٧٠٠٠	اهل جرجا
٠٥٠٠٠	اهل بني سويف
٠٤٠٠٠	اهل قليوب
٠٣٠٠٠	اهل بلبيس
٠٧٠٠٠	اهل المنصورة
١٥٥٠٠	اهل طنتدا ومنوف
١١٠٠٠	اهل المنيا وملوي

فعلى هذا تكون اهالي المدن مائة وسبعة واربعين الفا وسبعمائة وخمسين نفسًا واما اهل القاهرة نفسها فكانوا مائتين وثلاثة وستين الفا وسبعمائة نفس وكان اهل القرى والكفور والعزب والنزلات الفي الف وسبعة وسبعين الف نفس وخمسمائة فيكون اهل القطر

جميعهم الفي الف نفس وستمائة وثمانية عشر الف نفس وتسعمائة وخمسين وذلك اقل مما كان زمن دخول عمرو بن العاص بالف الف واحد عشر الفا وخمسين نفساً

وكان عدد قرى الوجه القبلي وكفوزه وعزبه خمسمائة وخمسة عشر وعدد قرى الوجه البحري الف وسبعمائة وتسعة وسبعين فيكون جميع البلاد بالوجه البحري والقبلي الفين ومائتين واربعة وسبعين على مقتضى ما وجد في دفاتر الخراج واما على مقتضى ما وجد على الخرطة فهو ثلاثة الاف وستمائة والفرق بينهما انما حصل من كونهم في بعض الجهات يعدون عدة كفور بلدة واحدة فيقيد في الدفاتر كذلك ويقرب من هذا العدد ما كان في زمن الملك الناصر لانه كان الفين ومائتين وتسعة وخمسين بلداً منها خمسمائة واثنتا عشرة بلدة في الوجه القبلي في ثمان مديريات وهي بلاد

٠٥٠ بلاد مديرية شرق اطفيح
٠٩٧ بلاد مديرية الفيوم
١٥٦ بلاد مديرية البهنسا
١٠٣ بلاد مديرية الاشمونين
بلاد مديرية منفلوط
٣٢ بلاد مديرية اسيوط

١٠٠٦

٠٣٦ بلاد مديرية اخميم

٠٤٨ بلاد مديرية قوص

والف وسبعمائة وسبع واربعون في الوجه البحري في ثلاث

عشر مديرية

بلاد

٠٢٠ ضواحي القاهرة

٠٥٩ بلاد مديرية قليوب

٣٨٠ بلاد مديرية الشرقية

٢١٧ بلاد مديرية الدقاهلية

٠١٢ بلاد مديرية دمياط

٤٧١ بلاد مديرية الغربية

١٣٣ بلاد مديرية منوف

٠٤٦ بلاد مديرية ابيار وبني نصر

٢٢٣ بلاد مديرية البحيرة

٠٣٦ بلاد مديرية فوه

٠٠٦ بلاد مديرية نسترووية

٠٠٨ بلاد مديرية سكندرية

٣٥٨ بلاد مديرية الجيزة

فمن ذلك يعلم ان اهالي القطر في القرن العاشر من الهجرة

كانوا قريبًا من الفي الف وخمساية الف وهو قريب من عدادهم مدة الافرنج وبناء على ذلك يمكن مقارنة الازمان القديمة بالازمان التي تلتها ومعرفة تقدم الامة المصرية كل زمن وتاخرها

والكلام على مصر كثير فلنقتصر منه الان على ما ذكرنا وكان قد دعا الانكليزي بعض احبته ينزه نفسه في جنينته

المسامرة الثامنة والثمانون

الفلاحة والزراعة

فقال للشيخ قد دعانا احد المحبين لان نتروح في روضة له خارج المدينة بمسافة يسيرة واني مستصوب قضاء بقية هذا اليوم عنده في تلك الروضة ولنغتنم بهذه الطريقة رؤية جنينة فرانسا وسرايتها وننعم نظرنا برؤية بعض ضواحي المدينة وطيب هواء هذا اليوم وصحو السماء ولطافة شمسه وتلحق هذا اليوم بامسه وصاحب المنزل من الذين اجتمعت عليهم بالامس وهو من اعضاء الجمعية المشرقية ورئيس مجلس الزراعة ووُلّي من عهد قريب نظارة الجفللك المعد لتجربة اختبار النباتات الغريبة وطرق نجحها في ارض فرنسا وله ممارسة تامة في امر الفلاحة وتنوع طرقها في جهات مختلفة وله في فن الزراعة كتب مفيدة واختراعات جديدة واقوى باعث لي

على اجابته كون بيته في نفس الجفللك فنطلع هناك على تجرباته وطرقه التي يستعملها مع استنشاقنا الهواء النقي والنظر لضواحي هذه المدينة وقد ارسلت يعقوب ليجهز لنا ما يلزم من الاكل وامرته بان يحضر العربة بعد ذلك

فقال الشيخ هذا ما قام بفكري فكانك عالم بسري فما تم كلامهم الاّ ويعقوب قد حضر فقال للخواجا ان هناك مسافراً يسئل عنك فقام الانكليزي متوجها اليه وغاب قريبًا من ساعة ثم رجع واخذ بيد الشيخ وتبعهما ولده فقال له الشيخ من هذا فقال هذا صاحبنا الذي اجتمعنا به في مرسيليا وقد حضر منذ يومين بالمدينة والان جاء الى منزلنا ليسلم علينا فاخبرته بما عزمنا عليه فطلب ان يكون معنا فقال الشيخ قد اصاب فانه من خير الاحباب وتم به انسنا ثم ساروا حتى دخلوا منزلهم وكان المسافر قد سبقهم اليه فقام لهم وسلموا عليه ثم حضر الاكل فاكلوا وشربوا وكانت العربات حاضرة فركب الشيخ وصاحبه والمسافر واحدة ويعقوب وولد الشيخ اخرى وساروا الى ان وصلوا سكة الحديد فنزلوا جميعًا في عربة واحدة واخذ الحديث بينهم يدور فيما للدنيا من الاحوال والامور الى ان وقف الوابور بعد ربع ساعة فنزلوا بالقرب من محطة وجدوا صاحبهم الذي دعاهم عندها ينتظرهم فسلم على الشيخ وولده وعلى صاحبيه ثم امر بتقديم العربات فركبوها وبعد بعض دقائق نزلوا قريبًا من قصر مشيد عالي البناء يحيط بثلاث جهات

منه بساتين فيها من جميع انواع الاشجار المتوجة باحاسن الازهار ووجدوا بباب القصر صاحبة المنزل وولدها ومعها بعض النساء اترابها فلما اقبل زوجها بالشيخ ومن معه قابلتهم بالتحية واجرت ما يلزم كعادتهم وبعد ذلك اخذ بيدها حضرة الخواجا الانكليزي ودخلوا الى ديوان بهج المنظر فيه احسن انواع الفرش فمكثوا به برهة ثم قال الانكليزي لصاحب البيت انما جئنا هنا لنرى سراي فرساي وما بارض حضرتكم ليطلع حضرة الشيخ على محاسن مبتدعاتكم في فن الزراعة

فقال ذلك قصدي ولكني ارى الباقي من النهار قليلا والذي اراه ان تقيموا عندنا الليلة ليتم لنا الانس بكم وفي غد نذهب جميعًا واطلعكم على ما اعلمه من امر هذه السراية منذ انشئت الى الآن وما مر عليها من الاحوال

فقال الانكليزي الراي ما رأيت ولكن فيمَ نمضي بقية هذا اليوم فقال بالانس بحضرة الاستاذ والاطلاع على ارض التجربة وانواع آلات الفلاحة القديمة والجديدة

فقال الخواجا نرجوكم السماح في المبيت هذه المرة فان عندي بعض اعذار ولا بد لي من العود

فقالت صاحبة المنزل انّا ممنونون لك حيث احللت الانس بساحتنا وشرفتنا بحضرة الشيخ وحياتكم ان تفضلتم بالمبيت عندنا هذه الليلة تم انسنا وانبسطت بكم نفوسنا فشكر الشيخ فضلها ثم دعا لها

وقال الايام بيننا والعود احمد ثم اتفقوا على الحضور في يوم غير
هذا وقاموا لينظروا محل التجارب فلما وصلوا اليه وجدوه مكاناً
متسعا يبلغ نحو ثمانين فدانا مقسوما الى اقسام معتدلة بطرقات
كذلك حسب الانتظام طولا وعرضا كل قسم مربع محاط باشجار
في بعضها انواع الخضراوات وفي الاخر انواع من نبات الاقوات
كل نوع في حوض ويعرف نبات كل جهة من اوراق ملصوقة
في قطع من الخشب قائمة في زوايا الحيضان مكتوب فيها قدر
البذر وعمره وسعة الارض التي هو بها والبلد التي ورد منه ووقت
بذره ومدة مكثه وهكذا فكان هناك قمح مصر الاحمر والابيض
وقمح بلاد العرب وقمح المسكوب وبلاد اخرى كل صنف في حوضه
في غاية الانتظام والاحكام بحيث تراها متساوية خضرة نضرة اعوادها
متساوٍ ما بينها من البعد قوية غليظة الساق طويلة الاوراق فيها
شدة خضرة تدل على قوة ارضها وكان صاحب الارض يقف
عند كل حوض ويبين لهم حسن نباته وصفاته وفوائده والبلاد
المجلب منها وقدر غلته وقدر الزيادة عن البذر ويبين نسبة ذلك
المحصول لغيره من جنسه في البلاد التي يزرع فيها والاسباب التي
نجح بها وهكذا كل صنف الى ان وصلوا الى قصر صغير في باب
البستان فجلسوا هناك قليلا ليستريحوا ثم دخلوا البستان فرأوا فيه
اصناف الازهار وانواع الفواكه والاشجار وغير ذلك مما يبهر العقول
وجميعها مجلوبة من بلاد متنوعة وكانوا كلما وصلوا شجرة غريبة يبين

لهم ما يتعلق بها الى ان تمت نزهتهم ثم سار بهم الى المكان الذي به
آلات الزراعة مثل المحاريث ذوات العجل وآلات البذر والحصد
والدرس فكانت انواعا منها القديم المتروك باختراع احسن منه
ومنها المستعمل من مدة وعلمت نتيجته ومنها ما هو جار تجربته
وجميعها مخالف لما يعلمه الشيخ في مصر ثم عادوا الى القصر وجلسوا
فيه ينظرون من شبابيكه الى البستان وما حوله فرأوا الغابات
على احسن شكل وصورة الارض في غاية البهجة وانواع المزارع تسر
الخاطر وتروق الناظر فعجب الشيخ كل العجب واستحسن نظام ما
رأى واثنى على الخواجا كل الثناء ومدحه كل المدح على اهتمامه
بهذا الشان وصرف افكاره في تطبيق قواعد علم الفلاحة النظرية
على العمل واجرائها بالفعل وقال له ان ثواب اعمال الانسان
على قدر ما ينتج للخلق من الفائدة خصوصاً فن الفلاحة فانه اكثر
الفنون فائدة واعمها للناس نفعا فمن يحسن طرقه ويعم نفعه ويكثر
فائدته يكون ثوابه اكثر فاي امة تبعت ضوء مصباحه وسلكت
سبيل نجاحه عظم ثوابها واشتهر بين الناس فضلها واما الامم التي
لا ارض لها تزرعها كعرب البادية وكذا التي لم تشتغل به لجهلها
بامره فمثلها كمثل الحيوانات العجم سواء بسواء وهذا الفن اقدم
الفنون جميعًا وبه اشتغلت الامم قبل الطوفان وعنهم اخذ من
بعدهم يؤيد ذلك ما في الكتب المقدسة ان نبي الله نوحا عليه
السلام زرع بعد خروجه من السفينة ومنه تعلمت ذريته حتى

انتشر في كثير من بقاع الارض بعد تبلبل الالسن وتفرق اولاده وكذلك كان معروفا عند قدماء المصريين وغيرهم كاهل الهند والصين وبابل ومما يدل على فضله معرفة الانبياء له كنبي الله اسحاق عليه السلام في ارض فلسطين ونبي الله ابرهيم وكيعقوب واولاده عليهم السلام لانه ارسلهم الى مصر لشراء غلال في زمن اجدبت فيه ارضهم فحسبك فضلا بفن اشتغلت به الانبياء ولعمري ان فضله لا يعادل ونفعه لا يماثل وهو اصل التقدم وكل الصنائع فرع له

فقال له صاحب البستان هذا من حسن اخلاقكم ولطف طباعكم ثم قال له الشيخ وهل يحتاج في معرفة فن الفلاحة الى كثير من الاعمال ويلزمه كثير من الممارسة

فقال ليس فن من الفنون يحتاج الى ما يحتاج اليه والمتفكر فيه الممارس له لا يعرف كيف وصل الاقدمون الى معرفته وطرقه المتشعبة المتنوعة سيما نبات الاقوات واستنباته والذي يزيد المرء حيرة اهتداؤهم الى حبة القمح من بين سائر انواع الحبوب التي تزرع وكان بعض الناس يزعم ان جميع الحبوب المغذية كانت تشتمل على خواص وصفات وتكرار زرعها هو الذي صيرها اقواتا وهذا القول لا عبرة به فان تقليب الصنف بالزرع وان غير بعض صفاته لا يغير حقيقته بالكلية فالصحيح ان جميع الحبوب على اختلاف اجناسها من ابتداء الامر بالهيئة التي نراها عليها الان وقد شوهد في

جهات كثيرة جميع انواع الحبوب يخرج من الارض بطبعه من غير استنبات وعدم مشاهدتها في بعض الجهات ربما كان من عدم الدقة في البحث او غير ذلك وعلى كل حال ففن الزراعة انما وصل الى اليونان من المصريين ثم منهم الى الرومانيين ومن ذلك يعلم ان فن الفلاحة لم يدخل اوروبا الاّ بعد وجوده بافريقا واسيا بزمن طويل ولذلك كانت سكان اوروبا في تلك الحقب تسكن الآجام والفلوات وتسيح كالحيوانات في الغابات للحصول على الاقوات فبالضرورة كانت متوحشة خشنة مع ان كثيراً من جهات افريقا واسيا في تلك الحقب كان محفوفاً بالنعم مشهوراً بالتقدم

واما ما يوجد في عصرنا هذا من المعرفة بالزراعة فجزء من فنها والذي يدل على ذلك انه لما تفرق الناس وتبلبلت الالسن بعد الطوفان وانتشروا في بقاع الارض فمنهم من وجد نفسه بارض سهلة الزرع كثيرة الخصوبة فاستعملوا فيها ما تعلموه من اصولهم ومنهم من وجد نفسه بارض ليست كذلك فلم يجدوا سبيلا الى استعمال ما يعلمونه من فن الفلاحة فمن صادف الارض السهلة زرع وتعيش ومن لم يصادفها هرع الى الاجام وتوحش وربما صادف بعضهم جهات فيها جميع انواع الحيوانات فاخترع طرقا لتكثيرها ليقتات بها وعلى مقتضى كثرة ما يلزم لفن الفلاحة يوخذ ان من استعملها بقي مدة يستعملها بحالة بسيطة فلم يكن عندهم محاريث ولا كانوا

يستعملون الحيوان في الحرث بل غاية الامر انهم كانوا يستعملون قوى انفسهم كما شوهد ذلك في كثير من بقاع الارض فانه لما استكشفت امريكا كان اهلها يستغلون قواهم فكانوا يمسكون بايديهم الة ينكثون بها الارض ويقطون بها البذر تسمى في بلاد مصر بالمعزقة وللان جهات كثيرة لا تعرف غير الطرق القديمة فسكان جزيرة فرانسا الجديدة يحرثون ارضهم بآلة جميعها من الخشب وجهات اخرى ليس عندهم غير المعزقة وجهات لا يستعملون في شق الارض غير نوع الفوس وفي جهات من افريقا على شواطي نهر جابنى قوم اذا ارادوا حرث الارض اجتمعوا اربعة اربعة او خمسة خمسة وشقوها بسيوفهم وكان سكان الكانادا في الزمن السابق يشقون الارض بقرون الحيوانات وفي المدة التي كانت اكثر الامم غارقة في بحار الجهل كانت مصر منعمة البال ممتعة بالخيرات فان الفلاحة كانت عندهم على ما نراه الان لم تتغير فكان عندهم المحراث واللواطة وباقي الالات ومما يؤيد ذلك احترامهم للثور المسمى ابيس وما ذاك الا لما راوا فيه من المزية

فقال الشيخ وهل يعرف اول من اخترع آلات الفلاحة

فقال نعم ورد عن المؤرخين ان اول مخترع للمحراث احد فراعنة مصر المسمى اوزريس وهو الذي علم سكان ما وراء النهر استعمال الثور في الفلاحة ولا ينكر استعمال الحراثة بمصر زمن

يوسف عليه السلام ولا استعمال الثور بارض العرب زمن ايوب عليه السلام

وكان المحراث في الاصل مركبا من قطعتي خشب احداهما قصيرة منبطحة على الارض تسمى البسخة وفي طرفها حديدة عريضة تسمى السلاح وهي التي تشق الارض والثانية طويلة ممتدة الى امام تسمى القوس وعند زاويتهما الحادة حديدة عريضة لتثبيتهما ببعضهما تسمى البلنجة وعند موخر الخشبتين ثالثة طولها نحو ستة اشبار تسمى الرمح وهي التي تكون بيد الحراث يزن بها المحراث حيث شاء وبقي له اجزاء اخرى غير ما ذكر كنت اسمع بها من اربابها وهذا هو الذي كان يحرث به اليونان والرومانيون واما بعض جهات امريكا فكانت آلات حرثهم عبارة عن قطعة خشب معوجة ثم عملوها فيما بعد من قطعتين ويؤخذ من قول ديودور ان اليونان كانت تحرث على الحمير وان موسى عليه السلام نهى عن ذلك

فقال الشيخ في بعض جهات الوجه البحري كالشرقية يستعملون الى الان آلة تسمى المعزقة فيجتمع اربعة رجال او اكثر وبيد كل واحد منهم معزقة وينكشون الارض بعد بذرها فيتغطى البذر والتلويط الى الان مستعمل في الوجه القبلي وهو عبارة عن امرار قطعة خشب من نخل او غيره على وجه الارض اذا كانت كثيرة الوحل بعد بذرها ولست اعرف طريقا ابسط من ذلك واظن ان

جميع الاراضي التي تزرع بهذه الكيفية هي اول الارض عمارًا واستنباتا لان هذه الكيفية اول ما يخطر بالبال وليس فيها كلفة

فقال الخواجا جميع الطرق المستعملة بمصر الى الان قديمة جدًا ومرسومة في البرابي وهي عشر طرق ذكر منها قدماء المؤرخين طرقة وهي أن بعض الجهات بعد القاء الحب في الارض يأتون بالخنازير ويدورون بها حتى يتوارى الحب ولم تكن عقولهم قبل الطوفان قاصرة على معرفة الحرث والقاء البذر بل كانوا يعرفون ايضًا كل ما يزيد لها في صلاح الارض كتشميدها بالرماد وارواث الحيوانات وكتعميمها بالمياه الكدرة كما هو جارٍ بمصر الى الان وذكر المؤرخون ما لقدماء المصريين من الاعمال الجسيمة مثل بحيرة مورس التي بارض الفيوم والجسور العظيمة التي انشاها فراعنة مصر لحفظ الارض من الغرق وقت فيضان النيل وكالجداول التي بواسطتها تتفرق المياه على جميع الارض وهذا اقوى دليل على ان الفلاحة وتميد الارض كان امرًا معلوما عندهم ويلزم من ذلك معرفتهم كيفية الحصاد وان كان لا يدرى الزمن الذي اخترع فيه الآلتان المعوجتان المعروفتان عند المصريين بالمنجل والشرشرة ولعلهم كانوا قبل اختراعهما يقلعون النبات بايديهم لوجود ذلك الى الان في جهات كثيرة واما الدرس الذي يستعمل الان لفصل الحب من عوده فلا بد انه تاخر زمنا طويلا لان معرفته تحتاج الى زيادة تقدم لما فيه من الصعوبة والذي كان مستعملا عند المصريين

وغيرهم في هذا الامر هو جعل الزرع بعد حصاده حزما ينقلونها الى ارض متسعة منتظمة اعدت لذلك ويديرون البهائم فوقها حتى ينفصل الحب عن غيره وبعض الناس كان ياخذ قطعًا من الخشب ويسمر فيها احجارًا ويدوّرونها فوق تلك الحزم فينفصل الحب من غيره واهل فلسطين كانوا يستعملون عجلات ثقيلة فيدورونها بالبهائم وهذه الكيفيات باقية الى الان في جهات كثيرة من ارض فرانسا وغيرها واما الصينيون فكانوا يستعملون مهرسة من رخام وكيفية التذرية لتمييز الحب عن التبن بواسطة الهواء باقية عند اغلب جهات الشرق وارض مصر واغلب البلاد الحارة وآلة التذرية المسماة بالمذرى قديمة جدًا لا يعلم وقت اختراعها ولا شك ان اختراعها من يوم اختراع الفلاحة فهو واصل الينا ممن تقدم على الطوفان وبالجملة فجميع انواع الفلاحة وكذلك آلاتها واتقانها انما حصل تدريجًا على حسب دقة الصنعة وكثرة لوازمها ومن ذلك جعل الحب خبزًا والاقتيات به فانه يتوقف على اعمال كثيرة كالغربلة والطحن والنخل والعجن ثم تقطيع العجين وتسويته الى ان يصلح للاكل فان لكل عمل من هذه الاعمال آلات وكل الة متوقفة على غيرها وغيرها متوقف على غيره وهكذا فلا بد انه مضى على النوع البشري زمن وهو جاهل بجميعها ثم اضطرته الضرورة الى اختراعها شيئًا فشيئًا الى ان عرفها جميعها الّا اننا لا ندري كيف اهتدى الاقدمون لمعرفة ما في القمح من المادة الغذائية

وان كان ذلك لا يمنع من عزو هذه الفنون الى من كان قبل الطوفان فانهم حين رست بهم السفينة وانتشروا على وجه الارض منهم من وقع في ارض قحلة لا تنبت شيئًا فاكتفى بما يجده في وهادها من الكلاء وما يقدر على صيده من نجودها وما يقذفه البحر من السمك ونحوه ومنهم من صادف ارضا صالحة فزرعها وتقوت بما يخرج من نباتها من غير طحن ولا خبز فان ذلك مما اهتدوا اليه على ما حكاه بعض الفلاسفة مما راوه من فعل الاسنان بالحب حتى يصير كالدقيق ثم تلويك اللسان له حتى يمتزج بالريق ثم ازدراده وبلعه فلما رأوا ذلك اتوا بحجرين كالرحى ووضعوا الحب بينهما وادار وا احدهما عليه ثم اخذوه ومزجوه بالماء ثم وضعوه في النار ليجف ويصلح للغذاء الى ان اهتدوا الى ما يلزم له من الآلات كالمنخل والغربال والتنور كما ذكرنا

فقال الشيخ ومما يؤيد ذلك ما يفعله عرب البادية خصوصًا في اسفارهم فانهم لا يتزودون بغير الدقيق فاذا ارادوا الاكل عمدوا الى جانب منه فلتوه بالماء ثم اضرموا نارًا وصبروا عليها حتى يهدأ لهبها فاذا هدأ وضعوا عليها العجين حتى يجف بعض جفاف فياخذونه وييسونه ثانيا بما تيسر لهم من اللبن او العسل هذا دابهم في اسفارهم ومنهم من يقلي الحب ويستفه ومن المصريين من يلدده بالنار قبل صلاحه ويدخره للطبخ ويسمى عندهم بالفريك

فقال الانكليزي وكذلك قبائل كثيرة من السودان لا يعرفون غير ذلك وكانت هذه الطريقة كثيرة الاستعمال في بلاد الهند بناء على قول هيرودوط ولكن هذه الطرق اخذت في الاندثار لتقدم الناس كل زمن فعلموا ان الغرض من الزراعة السنوية والانتفاع بها مدة السنة وان هذه الطريقة لا ينتفع بالبر بواسطتها الاّ مدة قليلة كشهر مثلا فلا بد انهم بحثوا عن الطرق التي تعم النفع ولكن يلزم انهم لم يصلوا اليها الاّ على التدريج وحيث كان في اكل الحب بغلافه عسر والنفس تأنف منه فلا بد ان اول شي اشتغلوا به انفصال القشر عن لبه وان اول شي استعملوه لذلك التحميص لان جميع القبائل المتوحشين من افريقا وامريكا تستعمله الان واجمع المؤرخون على ان اول صنف اقتات به الاقدمون الشعير وحيث كان قشره لا ينفصل عنه الاّ بالطحن وكانوا وقتئذٍ لم يعرفوه استعملوا التحميص لذلك والسياحون الى الان في بلاد الحبش لا يتزودون بغير الشعير المحمص وكانت الناس قبل اهتدائهم الى اختراع الرحى والطواحين تهرسه في اهوان فكان التحميص يسهل عليهم ذلك واما كيفية نقعه في الماء وتصفيته فقديمة وقد كان اليونانيون والرومانيون يستعملون ذلك ويتغذون به كما يفعل اهل الشرق بالارز وللان كثير من الناس تستعمل ذلك مثل قبائل الكلموكيين فانهم لا يتقوتون بغير الشعير فيضعونه في الماء اولا الى ان يلين ثم يعصرونه ليتميز

عنه قشره ثم يضعونه في قدور ويوقدون النار تحته الى ان يغلى
ثم يتناولونه بايديهم وليس لهم قوت بغير هذه الكيفية

ومن اليونان والرومانيين من كان يهرس الحب في اهوان من
خشب او من حجر لاخراج الدقيق وفصل اللب من قشره وقد
بقيت هذه الطريقة الى الان عند خلق كثيرين وقال هيرودوط
ان سكان جزائر الانكليز كانوا لا يستعملون غير هذه الطريقة
فكانوا يفركون السنابل بايديهم لينفصل الحب ثم يهرسونه في اهوان
ثم يعجنونه وياكلونه نيئًا واما اهل بيرو من امريكا فكانوا يجففونه
اولا على النار ثم يدقونه ويتناولونه بقطعة خشب كالملعقة لا يفصلونه
من قشره وعلى ذلك كثير من المتوحشين الى الان واما عند تمدن
الخلق فكانوا قبل اختراع صنعة المنخل المعروف يعمدون الى بعض
اغصان دقيقة فينسجونها وينخلون بها ومنهم من كان ينخل بخرق
من القماش المخلل النسج وما يشبهه قال بولين ان منخل اليونان
والرومانيين كان من السمار ومنخل اهل الاندلس من الغزل ومنخل
الجول من شعر الخيل وكانوا جميعا يعجنونه ثم يلعقونه نيئًا كما
يفعل بعض سكان جزائر الانكليز ولم يهتدوا الى كيفية انضاجه
بالنار الاّ بعد زمن طويل ومنهم من كان في ذلك الوقت يمزج
الدقيق بالماء كالعصيدة ويضعه على النار حتى يغلي ثم ياكله
ومنهم من كان يضع فيه لحما ثم يسويه وذلك كان قوت قدماء
الفرس والرومانيين واليونان واهل العراق كما قاله بولين ومنهم

من كان يقطع اللحم قطعًا ثم يلقيه في الدقيق ويسويه على النار فيعلم من ذلك قلة انتفاعهم وتشنيع بالبرلان تمام فائدته لا تكون الا بعد عجنه وخبزه وذلك يحتاج الى فكرة كبيرة واعمال كثيرة لم يهتدوا اليها الا بعد زمن طويل وان كانت تلك الصنعة بالنسبة الى زمننا قديمة لما ورد في التوراة من ان ابرهيم عليه السلام قدم لضيفه خبزًا مرققًا

فقال الشيخ هكذا خبز اهل البادية الى الان ولهم في تسويته آلة من فخار يسمونها النيغة يخبزون فيها اذا حلوا ويحملونها اذا ارتحلوا فاذا ارادوا الاكل عجنوا الدقيق ثم قطعوه قطعا صغيرة ورققوه بايديهم على الواح من خشب ثم اوقدوا النار تحت النيغة حتى تحمر من داخلها فاذا انقطع الدخان اخذوا ما رققوه شيئًا فشيئًا ووضعوه على النيغة حتى ينضج

فقال الانكليزي هذه الكيفية لا باس بها وربما دلت على تقدم او تمدن اربابها واما القدماء فمنهم من كان يضع العجين على احجار محماة ثم يغطيه بالرماد الحار ولعل ما قدمه ابرهيم الخليل لاضيافه من هذا القبيل وعلى ذلك بعض اهالي اسيا الى الان الا انهم يلفون العجين ببعض حشيش وقاية من الرماد وربما وضعوا فوقه جمرات كبيرة ومنهم من يضعه بين حجرين ثم يدفنها في الرماد الحار ومن التتار من يعجنه كالعصيدة ويضعه في اناء ويوقد تحته نارًا حتى يفور ثم يتناوله الى غير ذلك مما لا حصر له وذلك

كله لا ينافي قدم التنور المسمى بالفرن وتقدمه على زمن ابرهيم عليه السلام وذكر بعض المؤرخين ان اول من اخترعه رجل مصري يقال له عنوس واما ما حكاه حضرة الشيخ عن العرب فليس خاصا بهم بل ذلك طريقة قبائل كثيرة من التركمان وغيرهم الاّ اننا لا ندري متى كان اختراع الخميرة واستعمالها والظاهر انها من الامور الاتفاقية كأن يكون عند بعض الناس قطعة عجين حامضة فاضافها الى عجين جديد ثم سواه فوجده ألذ من الاول طعمًا واسرع هضما فاعتاده واخذه عنه من بعده وان كان كثير من اهل اسيا وافريقا وامريكا لا يستعملونها الى الان وقيل انها كانت موجودة على عهد موسى عليه السلام وروي انه نهى قومه عن اكلها حين خروجهم من مصر واول آلة استعملها الانسان في طحن الحب الحجارة ثم الرحى ثم الطاحون وبين اختراع كل آلة والتي تليها زمن طويل ونحن وان كنا لا نجزم بوجود الرحى زمن ابرهيم الخليل عليه السلام لكن نجزم بوجودها من ايوب عليه السلام وباستعمالها هي والطواحين عند المصريين كما يظهر ذلك من التوراة فانه ذكر فيها منع بني اسرائيل من ان تاخذ حجر الرحى الاّ برهن وكان الذي يديرها الخدم والعبيد وكانت مستعملة عند اليونانيين والرومانيين وجميع الامم الماضية

قال ناقل الحديث وكانت العربات قد اعدت للجماعة على الباب فركبوها وسارت بهم نحو فرساي وهم يتحدثون بامر الزراعة

والفلاحة وما ينشأ عنها من تقدم البلاد واهلها الى ان جزم الشيخ
بان مدار العمارة على الزراعة فوافقه الجميع على ذلك وقال
الانكليزي ان هذا لهو القول الحق فانه لا تحل الثروة بجهة الاّ اذا
تقدمت فيها الزراعة ففي ارض فرنسا مثلا تقدمت الزراعة تقدمًا
جيدا حين بحثت الحكومة عن هذا الخصوص وذلك التقدم من
ابتداء سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٨٤٦ فكان محصول زراعة القطر
سنة ١٧٩٠ مليارين ونصفا وفي سنة ١٨٤٦ وصلت قيمته ضعف
ذلك وفي العشرين سنة التالية لسنة الف وسبعمائة وتسعين كان
الربح غير محسوس لكن من ابتداء سنة ١٨١٥ شعر ان الربح ثلاثون
مليونا في السنة الواحدة ومن خمسة عشر الى ست واربعين صار
يزداد حتى بلغت الدرجة المتوسطة ستين مليونا كل عام

وبسبب هذا الفرق زادت اهالي القطر فان عددهم من سنة
١٧٦١ الى سنة ١٨١٥ كان يزيد في كل سنة عن التي قبلها مائة
وعشرين الف نفس ومن سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٤٦ مائتي الف
نفس واما من سنة ست واربعين الى خمس وخمسين حصل
تاخير فلم تبلغ زيادة كل سنة غير ستين الف نفس

واما بالنسبة للمحصولات فقد وجد ان صنف الغلال ضوعف
من سنة ١٨١٥ الى خمس واربعين فكان في سنة ١٨١٥ اربعين
ملون اكتوليتر وفي سنة ٤٥ ثمانين مليونا ومحصول البطاطس
ضوعف ايضًا حتى وصل الى خمس عشرة مرة زيادة عما كان فى

سنة خمس عشرة وكذلك نوع الحيوان فقد بلغ عدد الحيوان الكبير تسعة ملايين الى عشرة وعدد الخيل من مليونين الى ثلاثة وعدد الضان ما بين اربعة وعشرين مليونا وست وثلاثين مرة من الملايين

وفي سنة ١٨١٢ كانت قيمة الاراضي المملوكة ومنها العقارات الفا وخمسمائة مليون وفي سنة خمس عشرة بلغت الفين وثمانمائة وثلاثة واربعين مليونا ومع هذا فقد زادت قيمة الارض في قريب من ثلاثين عامًا قدر خمسين في المائة هذا وان كان حسن الارض وارتفاع قيمتها لا بد له من نفقات الاّ اننا يمكننا تقديرها ولو على وجه التقريب فنقول على فرض ان فائض المائة عشرة في كل سنة تكون الستون مليونا التي هي فائض ستمائة مليون مصروفة على الارض فلو وزعت على الارض المنزرعة بالقطر لوجد أنه صرف على كل أكتار من المساحة اثنى عشر فرنكا عشرة منها في اصلاح الارض واثنان في اصلاح حال الزراعة

وبعد ان كانت قيمة الاكتار سنة ١٧٩٠ لا تزيد عن خمسمائة فرنك صارت الان تساوي الف فرنك فمقدار قيمة ارض الزراعة بالقطر خمسون مليارًا وكانت قيمة موجود الزراعة لا تزيد عن الف مليون فصارت الان خمسة امثال ذلك نصفها قيمة حيوانات وآلات زراعة والنصف الاخر قيمة بذر وما يتبعه من سباخ وغيره ومن هنا يعلم ان ربح الزراعة من ابتداء سنة ١٧٩٠ وصل الى اربعة

امثال ما يصرف عليها واجرة العمال وان زادت الاّ انها لم تبلغ ما يخصها وحينئذٍ يلزم من يسوس الامم ان يجعلوا عدد الاهالي قاعدة لجميع ما يدبرونه وان يجتهدوا في ما به زيادة عددهم ليتحصلوا على زيادة البركة والطريق في ذلك سهل لانا نعلم ان الله سبحانه لما خلق الخلق اودع فيهم اسرارًا ينمون بها ويملئون الارض وجعل تلك الاسرار متعلقة بالاقوات كما هو مشاهد فانك لو قطعت عن اي شي مادته التي يتغذى بها لاخذ في الجفاف ثم مات فيلزم الاعتناء بالامر الذي منه القوت وهو الفلاحة لاجل نمو الاهالي ولذلك ترى بعض الناس اذا راوا امة قد اضمحل حالها ونقص عددها قالوا ان ذلك ناشئ من كثرة الرهبانية فيهم ومحاربة الجيوش البرية والبحرية لهم فتراهم في تلك الاوقات يكثرون من البحث على الزواج وربما ساعدوا من عجز عن مؤنه وعاقبوا من اصر على العزوبية ومع ذلك لا يحصلون من مقصدهم على كبير فائدة لان ما ظنوه سببًا ليس بسبب فيكون مثلهم كمثل من يعالج بدواء من غير وقوف على اصل الداء فانهم لو امعنوا النظر وقارنوا امور الامة الحاضرة بالماضية لظهر لهم ان اسباب الفساد ليس الاّ اهمال فن الفلاحة وميل الكثير الى الزهو والتعلق به وكثرة ما يستهلك ويصرف على القليل من الناس واثبات ذلك بان نقول لو سلمنا ان ازدياد اي نوع بخصوبته ليس الاّ لوجدنا فوق الارض ذئابا اكثر من الغنم لان الانثى من الذئاب تلد عددًا كثيرًا في

بطن واحد ويتكرر ذلك منها في السنة الواحدة والغنم ليست كذلك سيما والعادة جارية بخصاء كثير من ذكورها وذبحها وليس ذلك جاريًا في الذئاب فلو كانت خصوبة النوع في ذاتها سببًا في كثرته لكان عدد الذئاب لا حد له وربما ملأ الارض مع ان الامر ليس كذلك فانا نرى الغنم تزداد مع استمرار الاخذ منها وما ذلك الاّ لكثرة مرعاها وقلته للذئاب

ومن ذلك بعض متوحشي امريكة وافريقة فان حالتهم كحالة الذئاب لان تعيشهم ليس الا من الصيد والقنص فترى العدد القليل منهم شاغلا لسعة عظيمة من الارض بحيث لو زرعت وخدمت حق الخدمة لكفت اضعافهم ومع هذا لا تنقطع الخصومات بينهم وليس عندهم رهبانية ولا عفة وما ذلك الاّ لقلة القوت عندهم وقد ثبت في كتب التاريخ ان الفدان الواحد عند الرومانيين يكفي العائلة الكبيرة مع ان المتوحشين لا يكفي لقوته اقل من خمسين فدانا حيث كان جل همه الصيد والقنص فمن هذا تكون الالف فدان مزروعة كافية لالف شخص وغير مزروعة لا تكفي خمسين من المتوحشين فظهر بذلك ان كثرة الاهالي تابع لاتساع دائرة الزراعة فكلما حصل الاجتهاد في خدمة الارض واصلاحها ازداد المحصول وكثر الجنس وكلما اهملت وتركت قلت الاقوات ونقص العدد وان كل ما يستهلك في امر الزهو مضاد لمنفعة الامة

فيلزم مدبر امر الامة ان يصرف جميع همته في توجيه افكارها نحو البساطة والقناعة

وفي سنة ١٨٤٠ بلغت قيمة محصول الزراعة في ارض دولتنا خمسة الاف مليون فرنك منها الف وستمائة مليون قيمة محصول اللحم والصوف واللبن والفراخ والباقي وهو ثلاثة الاف واربعمائة مليون قيمة محصول الحبوب والحشائش وغيرها وكانت موزعة بالنسبة لعمارة الارض المضروب عليها الخراج فخص كل اكتار في الجملة مائة فرنك وايضًا بالنسبة لتفاوت الاهالي قلة وكثرة في الجهات فكان ربع الارض يتحصل منه مائة وخمسون فرنكا ونصفها مائة فرنك وربعها خمسون فرنكا فقط وسبب هذا الفرق ان الربع الاول كان في كل مائة اكتار منه مائة نفس واما النصف فكان لا يوجد في المائة اكتار الا خمسة وستون نفسًا وكذلك الربع الاخير كان لا يوجد في الاكتار منه الا اربعون نفسًا وجهات العمار في الغالب تكون بالقرب من التخت والمدن وشواطئ البحر والجهات القليلة العمار الجنوب والوسط ونهاية العمار جهات الشمال ويوجد في المائة اكتار منه مائتا نفس ونهاية القلة في العمار جهة جبال الالب فلا يوجد في المائة اكتار هناك اكثر من عشرين نفسًا ولو جعلنا الدول مرتبة على حسب تعداد الاهالي نجد ان بلاد الفلمنك يخص كل مائة اكتار منها مائة وخمسة وعشرين شخصًا وبلاد الانكليز تسعين والمانيا وايطاليا ثمانين وفرانسا ثمانية وستين

واسبانيا وبرتغال اربعين والدولة العلية خمسة عشر وكذا المسكوف

ثم قال الانكليزي ان بلادنا وان كانت بعد الفلمنك في الدرجة المذكورة الا انها مشهود لها بزيادة الاعتناء بامر الزراعة والفلاحة ولذلك كان محصول ارضنا اكثر من محصول ارض فرانسا وليس ذلك من جودة ارضنا وانما هو من جودة الطرق التي نستعملها والتفات الحكومة لما يحصل منه زيادة المنفعة والربح للاهالي وان حصل في هذه الايام تقدم كبير للزراعة في فرانسا عن السابق لكن بين المحصول عندنا وعندهم بونا بعيدا وها انا اوضح لحضرتكم طريقة كل من الدولتين واقارن بين الطريقتين ليظهر الفرق وقبل كل شي اقول من المعلوم ان اهم الامور القوت فان به قوام البنية الادمية وهو انواع فمنها ما هو جيد للغذاء مفيد لقوة الانسان ومصلح لبنيته ومنها ما هو غير ذلك وحيث كانت الانواع المتخذة من دقيق الحبوب ليست كافية لقوام البنية وصحتها فيلزم ضم اللحوم اليها لانها احسن شي في هذا المعنى وحينئذٍ يلزم ان كل بلدة يكون بها زيادة عن الحبوب قدر ما يلزم للغذاء من اللحم وهو عبارة عن مائة درهم لكل شخص كما استدل على ذلك الباحثون من ارباب الدراية فاذا تقرر ذلك نقول قد نتج من الاحصاآت الرسمية التي اجريت في بلادنا ان كل انسان من الانكليز يخصه كل يوم خمسة وسبعون درهما مما يذبح واما الشخص الواحد من فرانسا فلا يخصه

غير تسعة عشر درهما فتكون النسبة بين تقدم الفلاحة عند الانكليز والفرنسيس كالنسبة بين خمسة وسبعين وتسعة عشر

وهذا يدل على ان اعتناء الانكليز باقتناء الحيوانات ازيد من اعتناء الفرنسيس وان علمهم بالقاعدة الاساسية لتقدم الزراعه اكثر لانه اذا ازداد الحيوان امكن الحصول على احسن الغذاء واخصبت الارض بواسطة السماد الموجب لازدياد المحصول والمرعى ومن زيادتها تزداد الثروة فاذا نظرنا لصنف الاغنام مثلا عند الامتين وجدنا عند كل واحدة منهما خمسة وثلاثين مليونا مع ان ارض بلاد الانكليز ليست مساحتها الا ٣١ مليونا من الاكتار بخلاف ارض فرنسا فانها ثلاثة وخمسون مليونا فيخص كل اكتار من ارض الانكليز رأسان ومن ارض فرانسا راس واحد والمتحصل من الصوف عند الانكليز ستون مليون كيلو جرام وعند الفرنسيس كذلك ومن صنف اللحم كل عام عند الانكليز ثلاثمائة وستون مليون كيلو جرام وعند الفرنسيس مائة واربعة واربعون مليونا وبهذا يعلم ان نسبة اللحم المتحصل عند الانكليز الى اللحم المتحصل عند الفرنسيس كالنسبة بين عددي ثلاثمائة وستين ومائة واربعة واربعين وهذه المقادير هي مقادير التوسط لجميع جزائر الانكليز اي ايرلندة وإيكوسا وبريطانيا فلو نظرنا الى بريطانيا وحدها لوجدنا في كل اكتار راسين من الغنم مع انه لا يوجد في الاكتار

من فرانسا غير ثلثي رأس هذا ومحصول الرأس الواحد في بلاد الانكليز ضعف محصوله في فرانسا فيعلم من هذا ان ربح الفلاح الانكليزي ضعف ربح الفلاح الفرنساوي في هذا النوع

وعلى ذلك تقاس ارباح البقر في كل من الجهتين وقد احصي ثمن الجبن المبيع بمديرية شيستين خاصة في السنة الواحدة فبلغ خمسة وعشرين مليونا من الافرنكات ولبن بقر جميع فرنسا لم يبلغ الاّ الف مليون ليترو ثمن الليتر عشرة فرنكات واما المتحصل من بقر الانكليز فضعف ذلك قدرًا وثمنا فعلى هذا يكون ربح الفلاح الواحد من الانكليز اربعة امثال ربح الزراع من الفرنسيس واغرب من هذا تفاوتهم في عدد البقر بالنسبة لارضهم فان بقر الانكليز ثمانية ملايين في واحد وثلاثين مليونا من الاكتارات وبقر الفرنسيس عشرة ملايين في ثلاثة وخمسين مليونا منها فلو نسبنا بقر كل قوم الى ارضهم لكان بقر الانكليز بالنسبة لارضهم اكثر من بقر الفرنسيس بالنسبة لارضهم وان كانت ذبائح الفرنسيس اكثر عددًا لانهم يذبحون من البقر في كل سنة اربعة ملايين فيها من اللحم اربعمائة مليون كيلوجرام واما الانكليز فلا يذبحون من البقر الاّ مليونين الا ان فيها من اللحم خمسمائة مليون كيلوجرام فاذا تاملنا ذلك علمنا ان ما يذبحه الفرنسيس وان كان في العدد ضعف ما يذبحه الانكليز الاّ انه ينقص في اللحم نحو الربع وسبب ذلك ان الانكليز لا تذبح الصغير ولا المهزول وذلك لامرين الاول كونه غير مستوف لشروط

الغذا والثاني ان ذبحه حينئذ يكون كضياع راس المال من قبل تربيحه سواء بسواء بخلاف الفرنسيس فانهم يذبحون من العجول الصغيرة اكثر مما يذبحونه من الكبيرة ولقلة هذا النوع عندهم لا يمكنهم الصبر الى ان يكبر الصغير فتضيع عليهم بذبحه فائدتان الاولى جودة اللحم والثانية الانتفاع به وايضاً فان الانكليز من عادتهم اراحة البقر من الاشغال وتسمينها واما الفرنسيس فانهم يستعملونها في جميع الاعمال الشاقة ولا يذبحون الكبير منها الا اذا هزل لحمه وضعفت قوته مع انا لو تاملنا فيما يكتسبونه من استعماله وفيما يضيع عليهم به لوجدنا ان استسمانه واستثماره اربح لهم من استعماله لانه بالبحث عن ذلك وجد ان قيمة البانها بفرنسا نحو مائة مليون من الافرنكات وقيمة اللحوم اربعمائة مليون وما يقابل شغلها مائتا مليون فيكون جميع ايراد البقر بفرنسا سبعمائة مليون

واما الانكليز فان ثمن البان بقرهم اربعمائة مليون من الافرنكات وقيمة اللحوم خمسمائة مليون فجميعه تسعمائة مليون فترى ايراد هذا النوع عندهم قد زاد على ايراده بفرانسا مائتي مليون وان اعتبرنا ريع كل من الجهتين على حدته وجدنا مجموع ايراد الفلاحة بفرنسا خمسة الاف مليون من الافرنكات منها قيمة اللحم ثمانمائة مليون وقيمة الحنطة ستمائة مليون فباعتبار هذه المقادير تكون قيمة اللحم في فرانسا نحو السدس من ايرادها مع ان قيمته عند الانكليز

تبلغ ثلث ايرادها تقريبًا وما ذاك الاّ لكون احوال الزراعة عندهم متقدمة تقدمًا زائدًا

فقال صاحب المنتزه ان ما ذكرتموه صحيح ولكن قد تفطنت الخلق الان لامر الزراعة ونمائها لوجود الخلطة العامة وحصول الالفة التامة فانا نجد كل انسان قد تحصل على ما فيه منفعة له ولو كان على بعد منه لسهولة السفر وقرب المسافة بما حدث من الآلات البخارية برًّا وبحرًا فجميع الآلات التي كانت لا توجد الاّ عندكم قد صارت موجودة عندنا وربما تحسنت زيادة عما عندكم فتقدمت الزراعة واتسعت اصناف البضاعة وان كان لتاخير الزراعة اسباب كثيرة واقواها تاثير الاحتقار باهل الفلاحة وعدم الالتفات اليهم وترك التبصر في احوالهم وارتكاب ما تضيع به ثمرات الفلاحة من تسخير اهلها بالعسف والقهر والتعدي عليهم بما يقهقر حالهم ويفسد عليهم اعمالهم وكالتغالي في الزينة والزهو والاكباب على اللعب واللهو خلافًا لما يزعمه اخساء العقول من أن ذلك من لوازم الثروة فان بطلانه لا يخفى على كل ذي بصيرة لانا لو اختبرنا ما كانت تستهلكه اي امة في الزمن الغابر وما تستهلكه في الزمن الحاضر وقارنا بين الزمنين لوجدنا بينهما فرقا عظيما مثلا النور كان لا يوجد بمدينة باريز الا في بعض اماكن منها كالذي يخص رب المنزل واما الان فترى جميع اماكن البيوت مضيئة وعلى ذلك لا شك انه يلزم لها الان استصباح اكثر مما كان يلزم لها في سالف

الزمان ولا يتيسر الحصول على ذلك الا بزرع ارض له زائدة عما
كان يزرع في الاول وذلك لا يكون الا بنقص جزء مما كانت
تزرعه لقوتها وفي ذلك من الضرر ما لا يخفى فضلا عما يلزم
لجلبه الى المدينة من رجال الزراعة وحيوانات الفلاحة وما يلزم
لهذه الحيوانات من زرع ارض لمرعاها ينقص بقدرها من ارض
الحبوب فاذا نقصت ارض الحبوب نقص القوت فينقص عدد
الاهالي فان قيل لا يلزم ما ذكر لانه كان فيما مضى غابات مهملة
وبرك ومناقع كثيرة معطلة وقد عمرت الان وزرعت .فهلاّ تكون
عوضا عما نقص من ارض الحبوب قلنا ذلك مسلم لو كان عاما
في جميع الجهات فانا نجد بعض جهات كانت عامرة بالخلق فلما
زرعت فيها هذه الاصناف ونقصت مزارع حبوبهم نقص عددهم
فحينئذٍ لا شك ان الاكثار من الزينة وانواع التفاخر موجب لنقص
ارض الاقوات فاما ان تتم من الخارج والا هاجرت الاهالي وتعطلت
فضرر حب الزهو والفخر كضرر المحاربة بل اضر لان المحاربة وان
كانت تضر بارض الزراعة لا تضر بالامة وان اضرت فضررها
وقتي ومما يؤيد ذلك انك ترى بعض جهات وقع فيها محاربات
كثيرة وهي الان احسن مما كانت قبل الحرب لان الغالب ان
الحرب اذا كانت في جهة واتلفت منها شيئًا زاد .عمار الاخرى
بقدر ما تلف من الاولى وقد يتنبه الجميع بعد انقضائها فيتركون
الرفاهية فيعودون الى احسن .مما كانوا فعلمنا من ذلك ان

الحروب وكذا الامراض الوبائية ليست السبب في تدمير الامم اصلا
بل السبب فيه حب الزهو والزينة ليس الا لانا لو فرضنا ان فرسا
واحدا دخل مدينة للخيلاء به لا لعمله لم نشك انه ياخذ من ريع
تلك المدينة لمؤنته ما يعدل مونة اربعه من نوع الانسان وهذا
فرس واحد فما بالك بافراس او ما بالك بغيره من الحيوانات
التي لا فائدة فيها الاّ النظر لذاتها او التامل في الوانها وهيئاتها ولا
يقال ان اقتناء الحيوانات وان كثرت مؤنتها لا ضرر فيه لما يترتب
عليه من تسميد الارض بروثها فتزيد في محصولها بقدر مؤنة الدواب
والحيوانات التي بها لان ذلك انما يقال في الدواب والحيوانات
التي بالقرى وارض الزراعة واما الحيوانات التي بالمدن فلا لان
روثها بها لا قيمة له بل قد يصرف عليه دراهم لاخراجه من محله
مع ما يلزم لذلك من تعطيل اشخاص من اهل الفلاحة لخدمتها
وجلب مؤنتها وقد توهم بعضهم ان كثرة الامة وقلتها تابع لما
يستهلك قلة وكثرة اعني انه كلما كثر المستهلك كثرت الامة وكلما
قل قلت وهذا التوهم لا يسلم به الاّ لو اقتصر على ما لا بد منه
والواقع غير ذلك فانا نرى القليل من الامة يصرف اضعاف ما
يصرفه الكثير منها فاذا تاملنا ذلك وجدنا ان معيار الثروة وعدمها
تابع لكثرة المشتغلين بالزراعة وقلتهم فكلما كثروا اخصبوا وكلما
قلوا اجدبوا فاي قوم لم يشتغلوا بامر الزراعة وتوابعها كانوا وبالا
على الامة عموما وعلى المشتغلين بها خصوصا فحينئذٍ يجب على ولاة

الامر التنبه لذلك وحمل اهل البطالة على العمل ولا سيما الشحاذين الذين اتخذوا التكفف صنعة فانهم يتفننون في الحيل ويتعللون بما تسوله لهم انفسهم من العلل فلا يمضي على الواحد منهم زمن قليل الاّ وقد تحصل على جزء من المال فمثل هولاء يجب منعهم وامرهم بالتكسب لئلا يقتدي بهم من يميل الى البطالة والكسل ليستغني بهذه الصنعة الخبيثة عن التكسب بالعمل فاذا تمهد هذا علمنا ان فن الفلاحة والزراعة هو الاصل بل هو اساس ثروة البلاد وعمارها واصل رفاهية اهلها فيجب على كل حاكم احترام المشتغلين بها والالتفات اليهم كل الالتفات ومساعدتهم بانواع المساعدات وتطييب قلوبهم والرأفة بهم والاّ كان كمن هدم اساس بيته بفاسه لان مثل كل ملك مع رعيته كمثل شكل هرمي الملك كراسه والرعية كقاعدته وأسه ورجال الدولة ما بين ذلك على قدر درجاتهم فكما ان كل جزء من اجزاء هذا الشكل حامل لثقل ما فوقه وهكذا الى الطبقة السفلى فتكون هي التي عليها ثقل الجميع كذلك ارباب الحكومة السياسية على اختلاف درجاتهم كلما فسدت درجة سرى ضررها الى من دونها وهكذا حتى تجتمع جميع المضار على الضعفاء واهل الفلاحة فلو قصر الملك نظره على من يليه من رجال دولته وصرف عمن دونهم نظره فسد نظامه واختلت مملكته واحكامه فكما انه لا بقاء للشكل الا بقواعده كذلك لا بقاء للملك الا برعته فان تنبه الحاكم وانصف من نفسه عرف كيف يصون ولايته

من الخلل بان يشمل بنظره جميع رعيته لا يفرق بين الاجانب منهم وذوي قرابته ولا بين ضعيف منهم وقوي وخص من بينهم اهل الفلاحة بمزيد العناية والالتفات لانهم الحاملون لاثقاله القائمون بمصالحه واعماله اذ لولاهم ما كان للملك قوام ولا تم له نظام وحيث كانت الارض لا تفيد الاّ بقدر ما تستفيد لا فرق عندها بين عظيم فتكرمه ولا فقير فتجرمه بل ان قام صاحبها بما يجب لها وخدمها انتفع بها والا عدمها وهي علي اختلاف انواعها لا يخلو شي من اجزائها عن فائدة حتى الرمل الذى لا يصلح للزراعة لو وضع منه شي في الارض السبخة او البرك المالحة لاصلحها وكذلك اخراس الارض لو نقيت مما فيها وحرثت لكانت اصلح من غيرها وكذلك الارض الحجرية يوخذ منها احجار للمباني العظيمة ذات الاسوار فما من انسان اقام في اي مكان وتيسرت له اسباب الراحة وانتفت عنه الموانع الا تيسر له منه اضعاف قوته وتحصل على ما لا يتحصل عليه غائص البحر لياقوته فلو فرض ان فدانًا غرس اشجارًا لا تثمر وترك الى نحو عشرين سنة لكان فيه من الخشب والفحم ما يقوم بمال عظيم مع انه لم يلزم له الا قليل من العمل والعمال فما بالك لو غرس اشجارًا ذات ثمر فلو فرضنا ان ذلك الفدان بعينه كان في المدة المذكورة يزرع حبوبًا لكانت فوائده اكثر منها فى الحالتين السابقتين فعلم من ذلك ان الناس تابعة للزراعة كثرة وقلة ولو كان ذلك الفدان بعينه في ضاحية من ضواحي المدن قد هياه له صاحبه

محابس لريه وغرس فيه اشجارًا واجرى اليه انهارًا وجعل فيه عروشا أما كان بذلك يساوي اضعاف مثله من ارض القرى والارياف وما ذاك الا لكثرة عماله واحتفاف الناس به فهذا دليل ايضا على انه كلما كثرت الناس بارض زاد محصولها وان الانسان لو خلي ونفسه لجعل من الارض الحجرية بساتين وكروما الا ترى ارض مرسيليا فانها كانت اولا جبالا ورمالا فاجتهد اهلها حتى حفروا فيها خنادق وطموا ارضها بالتراب واجروا اليها الماء ثم غرسوا فيها من انواع الفواكه والاشجار ما يستغل منه اموال عظيمة فلو احصينا عدد قرية وفرضنا انهم قائمون بخدمة ارضهم حق القيام لكان عددهم دائمًا في زيادة لان المجمع عليه عند ارباب الفلاحة ان الارض كلما خدمت زاد محصولها فليس محصول المحروث مرة كمحصول المحروث مرتين ولا محصول الارض التي تسقى بماء المطر كالتي تسقى بماء العيون ولا محصول الارض التي سقيت كمحصول الارض التي لم تسقَ وهكذا من محسنات الزراعة فالفلاحة لا شك انفع الصنائع اذا توفرت اسبابها وانتفت الموانع عن اربابها خلافا لقوم ذموها واستقبحوها وعدلوا الى دماء الناس واموالهم فاستباحوها مع علمهم بان فوائد الفلاحة لا تعدلها فوائد وادرار ارزاقها دائمًا متزايد وهم الاثينيون وسكان اسيا فكانوا يزعمون ان الفلاحة والتجارة مما يوهن القوى البدنية ويورث الذل للذرية فتركوا جميع الصنائع ولم يلتفتوا لما فيها من المنافع وعدلوا الى نهب الاموال

واسر ما قدروا عليه من نساء ورجال وعم ذلك جميع اوروبا فانتج خرابها وافسد العمار الذي كان بها وكان المنقطع للفلاحه وقتئذٍ الارقاء ومن يأوي اليهم من الغرباء فارتحلت عنهم حينئذٍ الفضائل الدثرية وقد كانت بقعتهم عين منبعها ومرج مرتعها وانظر الى الرومانيين وما كانوا فيه من الخمول والتوحش فلما افاقوا من خمولهم وتفننوا في الفلاحة علت شهرتهم وقويت شوكتهم ثم تقادم بهم الزمن واهملوا امر هذا الفن واشتغلوا بالمحاربات فآل امرهم الى الخراب وضعفت دولتهم وانحطت صوتهم وانتهى بهم الحال الى ان تقاسم ارضهم المتبربرون وبالجملة فلم ترَ جهة اهملت فيها الزراعة الا حل باهلها القحط والمجاعة

فقال الشيخ احسنت الاّ انه بغير العدل لا يتم صلاح اذ لولاه ما قدر مصل على صلاته ولا عالم على نشر علمه ولا تاجر على سفرهِ وهو صفة في الذات تقتضي المساواة وهذه الصفة اكمل الفضائل لشمول اثرها وعموم نفعها واليها الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم بالعدل قامت السماوات والارض وتوضيح الكلام يحتاج الى مقدمة في هذا المقام ذلك ان الله تعالى لما خلق الارض ودحاها واخرج منها ماءها ومرعاها وبث فيها من كل دابة فكان فيما خلق نوع الانسان ولعلمه انه ليس كغيره من سائر الحيوان احوج بعضه الى بعض في ترتيب معاشه ومؤنه وتحصيل ملبسه ومسكنه لانه ليس كسائر الحيوانات التي تحصل بنفسها ما تحتاج اليه من غير

صنعة بل خلقه ضعيفًا لا يستقل وحده بامور معاشه

ثم مست الحاجة بينهم الى سايس عادل وملك عالم عامل يضع فيهم ميزانًا للعدالة وقانونا للسياسة توزن به حركاتهم وترجع اليه معاملاتهم وكان مباشرة هذا الامر من الله تعالى بنفسه من غير واسطة على خلاف ترتيب المملكة وقانون الحكمة فاستخلف عليهم من الادميين خلائف وضع في قلوبهم العلم والعدل ليحكموا بها بين الناس حتى يصدر ترتيبهم على قانون مشروع وتجتمع كلمتهم على امر متبوع ولا تحقق العدالة الا بعد العلم باوساط الامور المعبر عنها بالصراط المستقيم ولا تؤثر عدالة الشخص في غيره الّا ان اثرت اولا في نفسه اذ التأثير في البعيد قبل القريب بعيد قال تعالى أتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم فمن عدل في حكمه وكف عن ظلمه نصره الحق واطاعه الخلق وصفت له النعماء واقبلت عليه الدنيا فهنئ بالعيش واستغنى عن الجيش وملك القلوب وأمن الحروب ولم يخلق الله تعالى احلى مذاقا من العدل ولا امر من الجور لان اس المملكة واركانها وثبات احوال الامة وبنيانها العدل والانصاف سواء كانت الدولة اسلامية او غير اسلامية فهما قاعدة كل مملكة واصل كل سعادة ومكرمة

فالواجب على الملوك وولاة الامور ان لا يقطعوا في حكم الا من القانون المصنوع لهم سواء في ذلك العادات والزواجر والاوامر والمعاملات لانهم متصرفون في ملك الله وعباد الله بشريعة الله

ولذلك قالوا صنفان اذا صلحا صلحت الامة واذا فسدا فسدت الملوك والعلماء وقالوا اذا همّ الوالي بالجور او عمل به ادخل الله النقص في اهل مملكته وفي كل شي حتى في التجارات والزراعات واذا همّ بالخير او عمل به ادخل الله البركة في اهل مملكته وفي كل شي حتى في التجارات والزراعات فلا يصلح لهذا المنصب الاّ من قطع من الطمع امله ووافق قوله عمله وكذلك عماله ونوابه والا كان كما قيل

ومن يربط الكلب العقور ببابه

فعقر جميع الناس من رابط الكلب

المسامرة التاسعة والثمانون

فرساي

وما وصلوا الى هذا المقام من المقال حتى وقفت بهم العربة على باب الجنينة التي قصدوها فنزلوا وقصدوا القصر اولاً ليروا ما فيه من العجائب فدخلوه ولم يتركوا محلاً منه حتى نظروه فرأوا فيه صوراً وتماثيل واشياء كثيرة من هذا القبيل منها ما هو على صورة عساكر مصطفة ومنها ما هو على صورة طير كأنه يناغي الفه ومنها ما هو على صورة نساء في غاية الجمال ومنها ما هو على صورة خيل مسوّمة وكأنها متهيئة لنزال او هجوم

ومنها ما هو على صورة بعض الملوك الاول ورجال الدول فكانوا كلما مروا بصورة شرحها الخواجا للشيخ ولو لم يسأله عنها فلما خرجوا قال الانكليزي للشيخ ايها الاستاذ كيف ترى فيما فعلت

حوادث الزمان وخطوب الحدثان وتحوّل الاشياء عما كانت عليه وخروجها عن موضوعها

فقال الشيخ كيف ذلك وما الذي خطر ببالك فقال ان هذا القصر كان محلا للملوك لا يصل اليه شريف ولا صعلوك فلما تقلبت به الايام وامتدت اليه يد الزمن عاما بعد عام اضمحل حاله وآل الى ما ترى مآله والذي وضع فيه الصور والرسوم التي رأيتها هو لوي فيليب فلو رأيته قبل قيام الفرنسيس حين كان مركز دائرة الحكومة ومحل فصل كل مشكلة وخصومة فكان غاصا في النهار باصحاب الحاجات والليل بانواع الملاهي والمستلذات ولولم يضع فيه هذا الملك هذه الرسوم ما جنح اليه احد

فقال الشيخ ليس ذلك من الدهر بعجيب ولا عند ارباب المعارف بغريب فكم لعبت الايام بمثله حتى ازالته من اصله كما قال

هي المقادير تجري في اعنتها
فاصبر فليس لها صبر على حالِ
يوماً تريك خسيس العقل ترفعه
الى السماء ويوماً تخفض العالي

اذ من المعلوم ان الدهر لا يبقى على حاله بل لا بد له من اعطاء ومنع وخفض ورفع وحركة وسكون وظهور وكمون وصحة

وعلة ويسار وقلة فلا يدوم على حال الاّ الكبير المتعال

وامّا الكون اجمع وما حوته جهاته الاربع فلا يخلو عن صحة وفساد وضلال ورشاد على حسب ما اقتضته ارادته العلية ودبرته حكمته الخفية فترى الشيء قد كسي حلل البها وعلاه رونق الحسن والأزدها وعن قريب تراه قد حل بهِ القضا كل ذلك لحكم واسباب منها ما علم ومنها ما ضرب دون العلم بهِ الحجاب ومن تصفح تواريخ الامم وتتبع اخبار الناس من عرب وعجم وجد ان كل زمن لا بد فيه من تغير ومحن ومن يطلع الآن على هذا المكان ويتامل في بنيانه واتساعه واتقانه وما اخذه من الارض يحكم على واضعه بالغرور ولكن هكذا دأب الأنسان على ممرّ الدهور فانه كلما تمنى حالة ويبلغها تمنى اعلى منها وهكذا الى ان يأتيه هادم اللذات ومشتت الجماعات فيجده غريقًا في بحر غفلته فيجذبه من بين اهله واحبته فهناك تنقطع علايق اوهامه وتنبت حبال اغتراره بأيامه ولنترك الآن الكلام في هذا الشان وادخل بنا البستان نريح الخاطر باستنشاق ارجه العاطر ونمتع الناظر بزهره الزاهر فساروا حتى دخلوه فكانوا كلما مرّوا بنوع من ازهاره او ناحية من نواحيه او شجرة من اشجاره ساله الشيخ عنها فيطنب له في وصفها وخواصها ولطفها الى ان وصلوا كهفا حوله اشجار يسمع منه تغريد اطيار فوجدوا عنده مصطبة من حجر لجلوس كل من

من مجلسوا واتفق ان ذلك اليوم كان يوم فتح مجاري المياه يجتمع فيه خلق كثير من اهل باريز وغيرهم فحصل عند الشيخ من العجب ما ذهب بهِ كل مذهب فسال صاحبه الانكليزي عن اصل هذا المكان وعن زخرفه واتقنه هذا الاتقان

فقال لهُ الأَولى ان تسال في ذلك صاحبنا الفرنساوي لانه ادرى باحوال بلاده فقال لهُ الفرنساوي هذا من حسن اخلاقكم والاّ فتاريخ هذه البقعة مشهور بين الخاص والعام من اهل اوروبا لان لهُ حوادث جسيمة في ازمنة مختلفة ترتب عليها تقلبات كثيرة فيغلب على ظني انها بعض معلوماتكم ولكن هكذا يكون الظرف عند اربابه فاقول ان هذا المكان لم يكن في الاصل كما تراه الآن بل كان بقعة لا تؤلف ولا تسكن ما بين منخفض وعال ومجاري مياه وتلال لا شيء بها سوى غابات ولا يأوي اليها الاّ الحيوانات وكذلك المدينة التي تراها على ما تراها عليه لم تكن الا عبارة عن كفر صغير مشتمل على قليل من البيوت كالعشش لا يسكنه الاّ اوغاد الناس وطغامهم هكذا كان اصل هذه البقعة ثم في القرن السادس عشر من الميلاد انشئ بهِ كنيسة ثم مارستان لمعالجة من يمرض من خدمتها لانهم كانوا رهباناً لا مأوى لهم سواها فبقيت كذلك مدة واعظم محل كان بها في ذلك لوقت بيت لاحد البروتستانيين الذين نجوا من القتل في واقعة

برتلي ثم قبض عليه وقتل واستولت الحكومة على جميع متروكاته وانعم ببيته على بعض من يلوذ بالملك الى ان تولى لويز السادس عشر فاخذ ارض ذلك البيت واضاف اليه ما بجواره من الارض وانشأ في الجميع قصرًا وحديقة

فقال الشيخ اذا كان هذا المكان في الاصل على ما ذكرت من الصفة فما الذى اعجبه منه حتى الفه

فقال الفرنساوي لا شيء الاّ انه كان يهوى الصيد وكان ذلك المكان بطريق غابة مشهورة بالحيوانات الغريبة ولم تكن سكك الحديد وقتئذٍ موجودة فاتفق انه ذهب مرّة ليصطاد فامسى عليه الوقت فبات فيه في طاحونة مهجورة وامسى عليه الوقت مرّة اخرى فبات في خمارة فاشترى تلك الارض وما بجانبها ووضع فيه ما يلزم له ليأوي اليه اذا حصل له مثل ذلك ثم لما اتم القصر والحديقة شرع في عمل سكة الحديد بين قصره وباريز واجتهد في تصفية هوائه فجمع العمال من الرجال وازال ما كان حوله من التلال وطم المنخفض وردم المناقع فألفه الناس واتخذوا لهم بهِ مساكن فاتسعت عمارته وتغيرت صفته ثم مرض الملك مرضًا شديدًا فوكل امر الملك الى امه ماري ميديسي فاسأت التدبير ولم تعول في امر المملكة على وزير ولا مشير بل سلكت طريق العسف ففسد ما بينها وبين رجال الحكومة خصوصًا ريشليو وكان من اعيان رجال الدولة واقربهم الى الملك فانها

فعلت معه ما لا ينبغي فعله مع مثله فلما برئ الملك من مرضه
وجلس محله راودته امه في طرده وطرد من ينتمي اليه فلم يوافقها على
ذلك بل ارسل اليه ليرده الى ما كان عليه فوجده متأهبًا للخروج
من البلد خوفًا على نفسه من سعاية ام الملك به فامنه فعدل عما
كان عازمًا عليه وحضر الى الملك وترجاه في ان لا يعود الى
الخدمة لئلا يقع بين الملك ووالدته شيء بسببه فلم يقبل عذره
بل الزمه المقام معه لعلمه بصداقته وكفايته فلما لم يجد له مخلصًا
من المقام معه قال له ان كان لا بد من ذلك فاول ما اشير
به عليك ان تعمل طريقة تأمن بها شر هولاء المفسدين اشارة لقوم
سماهم وفيهم والدة الملك فقال له الملك هذا رأي سديد وكلما
اشرت به في حقهم قريب غير بعيد فقال ينبغي نفي فلان وفلان
حتى الوالدة ففعل كما قال وامر بنفيهم في الحال حتى والدته
فلم تعد للمملكة بعد ذلك وجعل الحل والعقد بيد ريشليو
فنفذت كلمته وقويت شوكته وقام بتدبير المملكة وحده وبلغ
من نفوذ الامر وحسن الراي حدًا لم يبلغه احد قبله ولا بعده
فاكتسبت هذه البقعة في تلك المدة من الرونق والبها ما يجلّ
عن الاحصاء ثم لما مات الملك وجلس محله ابنه لويز الرابع
عشر احتفل بها وصرف فيها اموالًا كثيرة حتى نقلها الى حال
احسن من حالها الاول فكان هو الذي اتقنها هذا الاتقان
وجعلها على هذه الصورة التي نراها الان فان الملوك الذين

اتوا بعده وان كان لهم بها اثار الا انها ليست شيئًا بالنسبة
لما ابتدعه هو كما هو ظاهر لجميع ما تراه فيها مما يسر الناظر
ويشرح الخاطر ليس الا من اتقان الملك المذكور وكان الذي
اغراه على هذا المكان حتى ابرزه في غاية من الحسن والاتقان
عشقه لاحدى توابع الملكة وكان لا يتمكن من منادمتها الا في هذا
المكان فما اغراه واغواه الاّ داء الحب الذي اعتراه ففصل هذه البقعة
تفصيلا غير تفصيلها الاول وجمع فيها الرسوم الهندسية وصور
الحيوانات وغرس حول بعض الاقسام ازهارًا وحول بعض اخر
اشجارًا ورتب في كل جهة فساقي وحيضانا ونوافير وخلجانا ومغارات
وصخورًا ونحو ذلك من كل ما له نظير في البراري والبحور
وجعل فيها اماكن لمن اراد ان يستريح من التعب واماكن لمن
اراد اللعب واماكن للحيوانات البرية ومثلها لانواع الطير وكان
يعمل بها في بعض الاوقات ولائم يصرف فيها ما لا يصرفه ايام المواسم
ولما رأى ان ماء البرك المجاورة لها لا يفي بما انشأه فيها من الفساقي
والخلجان وسقي الاشجار جمع المهندسين وامرهم بعمل طريقة لتكثير
الماء بها فصنعوا لها آلات جسيمة تنقل الماء من نهر السين اليها
وصرف على ذلك اموالا عظيمة حتى وصلت اليها فلم يكتف بذلك
بل جمع العساكر والعمال وامرهم بحفر النهر المعروف بنهر الاور
فاقاموا في حفره مدة كابدوا فيها انواع المشاق ومات كثير منهم
ومع ذلك كان لا يرثى لحالهم ولا يرأف بهم بل كان يتهدد

المأمورين ويتوعدهم ويعاقب كل من تأخر عن العمل

قال بعضهم انهُ اجتمع في حفر هذا النهر ما ينيف على ثلاثين الفاً واما قدر ما صرف على القصر فلم اتحققه الاَّ اني رأيت بعض اوراق تدل على ان ما صرف فيهِ مائة وتسعون مليونا وقتئذٍ هذا ومع قيام الحرب واشتعال نارها كانت العملية في القصر مستمرة ما بين نقاشين وبنايين ومصورين الى ان اشرف الملك على الارتحال وقربت اليه اوقات الزوال فبنى كنيسة رتب فيها قسسا وخدما فكان يحضر اليها كل يوم احد وخميس فقلده في ذلك اتباعه وخواصه فكان اذا حضر اليها تبعوه وازدحموا عليها واذا تخلف لم يحضر منهم احد وكان غالب ايام ذلك الملك مصروفة في تنظيم هذا المكان فكان يقسم اوقاته فيجعل وقتا لنومه ووقتاً للمطالعة في اخبار دولته وقومه ووقتا لخلوته واجتماعه باحبته ووضع بجانب سريره لوحا عليه رسم صورته وصورة امه وزوجته فاذا انتبه من نومه كانت تلك الصور اول ما يقع بصره عليه وكان اذا جاء وقت قيامه من نومه دخل عليه الموكل بخدمته فينبهه ثم يخرج ويدعو بالحكيم ومن يلوذ به فيغمزون رجليه ويلقون عليه بعض عبارات غزلية وكلمات هزلية حتى يعود اليه نشاطه وتتراجع اليه حواسه ويتم انبساطه ثم ترفع الستارة فيدخل عليه احد خواصه ومعه كتاب الدعوات فياخذه منه ويدخل به خلوة فيمكث فيها ما شاء ثم يعود الى مكانه ويلبس ثيابه ويخرج فيجد القسس والعمال

في انتظاره فاذا وقع بصره عليهم وقعوا له ساجدين ثم يامر كلا من
عماله بالانصراف الى اعماله فينصرفون ويبقى هو مع بعض خواصه
يتحدثون في حيل الصيد وانواع المصيد هكذا كان دابه فانظر الى
هذه المدينة بعد ان كانت في اول امرها كفرًا لا يذكر كيف صارت
احسن مدينة في الدنيا وما ذاك الاّ لاقامة الملوك بها واحتفالهم
بشأنها وتنظيم شوارعها وجمع انواع الملاهي فى مرابعها .فعمرت
ضواحيها وملأت الخلق نواحيها وانشي بها خمامير كثيرة ومحلات
مزخرفة لمبيت الاغراب وورد اليها الخلق من كل جهة خصوصًا
ايام اطلاق المياه وغلت اجرة البيوت بها غلوا لا يخطر ببال وقل
ان يوجد بها محل للاجرة خال فكانت فرساي مدة جلوس لويز
الرابع عشر على التخت محل انس وانشراح وولائم وافراح ثم الى
ولده من بعده فلم يجرِ على سنن والده في تقسيم اوقاته على ما قدمنا
بل صرفها جميعها في حظوظه النفسية ما بين مخادنة نساء وفجور
ولعب ولهو وشرب خمور حتى كان من شدة اكبابه على المنكر مع
احبابه يجعل له آلة توصل اليه ما لزم من غير احتياج الى خدم
فاقبل عليه المفسدون من كل جدب وحسنوا له القبيح من الشهوات
واغروه بسائر المنكرات فعم الفساد وانتشر بين العباد ولا تسل عما
كان يهديه الى النساء فانه مما يجل عن الاحصاء وقد بلغني من
فعله القبيح واسرافه انه اهدى مرة الى بعض صواحبه قلادة ثمنها
مليون وستمائة الف فرنك فانظر كيف كانت هذه البقعة مدة

لويز الثالث عشر ومدة من جاء بعده وكيف صارت مدة لويز السادس عشر من حسن حالها واستقامة احوال نسائها ورجالها حيث كان حسن السيرة ممدوح الفعل والسريرة يحب العلم واهله ولم يرتكب شيئا ما ارتكبه من كان قبله الاّ ان الزمن الذي كان تصرّم في الفساد قد الزم الرعية. وكذا الحكومة بديون لا يرجى لها سداد فشكوا اليه ذلك فرق لحالهم واخذ يجمع ما تشتت من شملهم ويهون عليهم الامور ويعدهم ويمنيهم بما يجلب لقلوبهم السرور وكان الذي قبله قد شرع في اعمال جسيمة نافعة كبناء مينا شربور وحفر خليج سربوني مع خلو خزينة المملكة من الدرهم والدينار واضطرار الرعية الى من ينظر في احوالهم اشد اضطرار فجمع النواب وكل من اشتهر من روساء الطوائف فكانوا الفا ومائتين واربعة عشر وجعلهم ثلاث درجات

الاولى القسيسون ومن يليهم فكانوا ثلاثمائة وثمانية

الثانية اعيان المدينة ووجوهها فكانوا مائتين وثمانية وتسعين

الثالثة اعيان الزراع وعرفاء القرى وارباب الضياع فكانوا ستمائة وسبعة. وامر بتهيئة محل لهم يجتمعون فيه فهيئوا لهم المكان الذي هو مدرسة ابتدائية الان وعينوا يوما لافتتاحه فحضر الملك وكان عن يمينه اهل الديانة وعن يساره وجوه اهل المدينة وجلس الوزراء على قدر مراتبهم وكانوا جميعا في ذلك اليوم قد حضروا وعليهم ملابس الزينة الموشاة بالذهب وغيره ما عدا الاهالي فكانوا

بهيأتهم المعتادة وبعد ان كان هذا المجلس يسمى بمجلس النواب ابطلوا هذا الاسم وسموه بمجلس الملة ولما كان من عادة امثالهم في مثل ذلك ان ينزعوا برانطهم ويظلوا واقفين ولم تراع تلك العادة في ذلك الوقت قال بعض الحاضرين هذا خروج عن العوائد الرسمية وخلل في القوانين السياسية واكثروا من الكلام في ذلك فلم يلتفت الملك اليهم وشرع في مقالة تلاها عليهم فذكر فيها مسئلة الدين وعدم انتظام عوائد الفردة ونحو ذلك من الامور التي تضرر منها الاهالي ثم ختمها بامر النواب بالاتفاق على طريقة لاصلاح خلل هذه الابواب ثم قام ناظر الخاصة وتلا مقالة بين فيها ما اجمله الملك في مقالته فذكر ان قدر الدّين ثلاث مليارات وتسعون مليونا وان الايراد لا يقوم بالمنصرف بل ينقص عنه في كل سنة نحو ستة وخمسين مليونا وخمسمائة الف فرنك وان قدر الايراد خمسمائة وواحد وثلاثون مليونا واربعمائة واربعون الف فرنك وان من العدل والانصاف ان تكون وجوه الناس كغيرهم في الفردة وان جميع ما يلزم للحكومة يوزع على جميع النفوس من غير تمييز بين رئيس ومرؤس ثم قال فاما ان تتفقوا جميعا على كلمة واحدة واما ان تبدي كل طائفة ما يظهر لها وعلى كل لا بد من اعمال الفكر في تخليص الحكومة من ورطة هذا الامر ثم اذن لهم بالانصراف فانصرفوا فلما كان اليوم الثاني حضروا فقالوا الصواب صرف النظر عن اراء رؤس الطوائف وان يؤخذ راي كل شخص على

حدثه فمن كان اكثر عمل برأيه فنفر بعضهم من هذا الراي فلما بلغ الملك ذلك امر بعدم تغيير المعتاد ونهى عن الدخول في كل امر يوقع بين الناس الفساد واذن لهم بالانصراف فانصرفوا واغلقت الابواب فنشأ من ذلك امور لا يحصرها لسان ولا يحيط بها جنان. كما هو مذكور في تواريخ الامة الفرنساوية فترتب على ذلك تدوين الاحكام السياسية والقوانين الفرنساوية وظهر نابليون بونابرث وتعصبت الدول على الامة الفرنساوية فانتصر عليهم وسنتكلم على ما وقع بين هولاء القوم في يوم بعد هذا اليوم

المسامرة التسعون

الجيولوجيا

او علم طبقات الارض

ثم ركبوا سكة الحديد وتوجهوا الى باريز فصادف دخولهم غروب الشمس فاستأذن صاحبهم الفرنساوي وتوجه الى منزله وبقي الشيخ مع صاحبه الانكليزي ولما لحق كلا منهما من التعب من كثرة المشي طول يومه استأذن كل منهما صاحبه ودخل محل نومه وعند الصباح اتى الفرنساوي الى الانكليزي فاخذه وذهب به الى الشيخ فتلقاهما بالقبول واحسن لهما في القول ثم قال الفرنساوي للشيخ كنت كتبت الى صاحبنا الانكليزي كتاباً رجوته فيه تبليغ السلام الى حضرتكم وان يترجاكم في قرآة دروس لنا في علم العربية بالمدرسة المشرقية وقد سألته البارحة عما تم عليه الامر فاخبرني انكم

قبلتم رجاه فارسلت الى اعضاء الجمعية ابشرهم بذلك فسروا جميعا غاية السرور وكانوا يظنون ان اجابتكم الى ذلك من ابعد الامور

فقال الشيخ قد نجحت مقاصدكم لا خاب قاصدكم وكيف امتنع من ذلك والعلم ينهى اهله ان يمنعوه اهله وها انا مستعد لما ترومون ومتهيئ لما ترغبون ولم يكن الباعث لي على اجابتكم ما ذكرتموه في المكتوب الذي حررتموه بل اقول كما قال انا موصول بنعمة من حبله بالود موصول ثم اتفقوا على اليوم والساعة وقام الفرنساوي مع الانكليزي واذا بابن الشيخ دخل عليه وقبل على عادته يديه فاخبره والده بما صار وبما انحط عليه القرار وانه عازم على انجاز الوعد ومتوجه اليهم في بعد غد

فقال له ولده ان يعقوب اخبرني حين استشعر بهذا الخبر ان له رغبة في حضور هذا المجلس ولكنه يخشى ان لا يأذنوا له

فقال له الشيخ قل له عني لا عليك من ذلك ولا مانع من حضورك معنا هنالك ثم أذن لابنه بالانصراف وحذره من تضييع الوقت اذا اراد الطواف وكانها كانت كرامة للشيخ فان يعقوب كان قال له قبل دخوله على والده ان هنا مكانا على نحو ساعة من باريز يعمل فيه في مثل هذا اليوم كما يعمل في الموالد في بلادكم وفيه ما يشرح الخواطر ويسر النواظر فلما خرج من عند والده واخبره بما قيل في شأنه تم انبساطه وتنبه نشاطه وقال له هل لك

في الذهاب الى هذا المكان لنرى ما فيه ونتنشق نسمات هاتيك الجنان فلم يجد له بدا من الموافقة عملا بقولهم شرط المرافقة الموافقة فركبا عربة وسارا فقال له ابن الشيخ اتذكر ايام كنا راكبين البحر حين كنا نرى دخانا صاعدا الى السماء فكنا نراه في الليل كانه مختلط بشهب ولهب وكان الخواجا يقول لوالدي انه خارج من جوف الارض فاظن ان هذا من ذلك وذلك يقضي بوجود حرارة شديدة في جوف الارض حتى تذوب منها هذه المعادن والاحجار وتندفع على وجه الارض ولئن سلمنا ذلك فكيف وصل الانسان الى جوف الارض حتى علم ما هناك

فقال له يعقوب قد سألت عن مسائل مشكلة والاجابة عنها على مثلي معضلة ولكن على حسب الامكان اذكر لك ما يحضرني فيها الان مما سمعته من بعض العلماء واطلعت عليه في كتب الفلاسفة الحكماء انما يجب ان تعلم اولا انه لا ينبغي للانسان ان يحكم على الاشياء بظواهرها وانها كانت كذلك من اول امرها فان الارض التي نراها مكسوة باصناف النبات مملوءة بانواع الحيوانات لم تكن قبل ذلك كذلك حتى المدن التي نراها الان عالية البنيان معمورة بالسكان لم تكن كذلك بل لا بد وان يكون قد تداول عليها تقلبات منها ما اوقع اهلها في مضرات ومنها ما البسهم ثياب ثروة وسعادات فاذا كان هذا فيما على ظاهر الارض فلا مانع من ان يكون ما في باطنها كذلك فانا لو نزلنا الى ما في جوفها من مغارات

عميقة كمغارات الفحم الحجري مثلاً لوجدنا حرارة باطنها اشد من حرارة ظاهرها وهكذا كلما نزلنا ثلاثة وثلاثين مترًا نجد حرارة اشد مما فوقها وايضًا فان الارض مركبة من طبقات ومعادن بعضها فوق بعض منها المستقيم وغيره وقد يكون بعض الطبقات مفصولا عن بعضه بمادة ليست من جنسه وغير ذلك مع اننا لو نزلنا الى باطن الارض وامعنا النظر لوجدنا في خلال مادتها بعض عظام واثر بعض نبات فمن اين كان هذا النبات والحيوان واي حيوان كان ومتى كان في هذا المكان أفلا يدل ذلك على وجود تقلبات مضت في الاعصر والازمان التي انقضت وقد اعتنى علماء كل زمان بالبحث عن هذه العظام فظهر لهم انها عظام حيوانات كانت في ازمان مضت ثم انقرضت عن اخرها

وحيث كانت تلك العظام غائرة في جوف الارض وعلى بعد عظيم من سطحها ينبغي القطع بمرور تقلبات عظيمة وادوار مختلفة اوجبت بلاءها وامتزاج ما بقي منها بالمواد المعدنية والحجرية

فقال له ابن الشيخ واي علم يشرح هذا الحديث وهل هو قديم او حديث

فقال يعقوب العلم الذي يذكر فيه ذلك يسمى باللغة الفرنجية علم الجيولوجيا ومعناه علم طبقات الارض او علم تكوين الارض وهو علم حادث لم تؤسس قواعده ولم تنتشر فوائده الاّ في القرن السابع عشر من الميلاد ومستنده المشاهدات والاطلاع على ما خفي من

طبقات الارض فكانوا كلما كشف لهم شيء اثبتوه واستنتجوا منه غيره ولذا ترى هذا العلم دائمًا يتسع شيئًا فشيئًا وهو علم نفيس اذ به يمكن نسبة كل طبقة من طبقات الارض الى الزمن الذي تكونت فيه واخشى ان تكلمت معك فيه ان تسأم من طول المقام او كثرة الكلام

فقال قل ما شئت ولا تقصر في الايضاح ولا تبخل بالافصاح فاني لكلامك سامع

فقال يعقوب اذ قد الزمتني بالاجابة وان ابين لك خطاء الراي وصوابه فاقول

اعلم ان علماء هذا الفن يقولون بتغير ظاهر الارض وباطنها اما تغير ظاهرها فما هو مشاهد لكل احد واما تغير باطنها فقد استدلوا عليه بشيئين احدها ما وجدوه في خلال طبقاتها من الاثار الحيوانية والنباتية والثاني الاتقاد والاشتعال الذي وجدوه في بلطنها كالذي رأيناه حين كنا بالبحر فلما رأوا ذلك قالوا لا بد ان يترتب على هذا الاتقاد فوران وغليان يوجب تعدد الطبقات وارتفاع كل طبقة على التي فوقها وان تخلل بعض اجزاء الطبقات السفلى بين اجزاء الطبقات العليا ومن ذلك العظام ونحوها وكان البحث عن هذا الامر في اول الزمن مجهولاً فكان بعض القدماء اذا رأوا اثر حيوان او نبات اكتفوا برؤيته ولم يبحثوا عن سببه وبعضهم يعده جزاء من اجزاء الارض

وبعضهم ينسبه الى ما يشبهه من الحيوانات الاّ انه كان يخترع له بعض حكايات خرافية واقوال وهمية فينقلها عنهم من ياتي بعدهم ثم من بعدهم وهكذا فمن ذلك ما نقل عنهم وكانوا قد رأوا عظما يشبه بعض اعضاء الانسان فنسبوه اليه وقدروا له طولا وعرضا غير طوله وعرضه المعروفين

واول من تكلم في هذا الفن العالم الشهير الفرنساوي المسمى بيرنارباليس وكان في القرن السادس عشر من الميلاد فالف في ذلك كتابا بين فيه ان جميع الاثار النباتية والحيوانية التي توجد خلال الاحجار لم تكن الاّ بقايا حيوانات واشجار كانت مخلوقة في قيعان البحر ومحلها الان هو الذي كانت خلقت فيه من قديم الزمان ثم اتى من بعد هذا العالم في القرن السابع عشر علماء ايتاليون فاقتفوا اثره وقالوا برأيه وصاروا يكتبون كلما رأوه من الاثار وينسبونها الى اصولها ومن ذلك العهد اتسعت دائرة هذا العلم وكثر اهله ثم انهم انقسموا قسمين قسم ينسب تكوين الارض الى النار وقسم ينسبه للماء وكل اقام على مذهبه دليلا اسس قواعده واثبت بالبراهين فوائده مع اجماعهم على ان جميع ما يوجد من اثار الحيوانات والنبات كان له اصل في الخلقة وطريق الاستنباط من هذه الاثار طويل لا حاجة لنا به الان فعلى اي حال لولا وجود هذه الاثار واشتغال اهل هذا الفن بها اثناء الليل واطراف النهار لكان هذا العلم الى الان في حيز الاهمال كعلم قدماء المصريين فانه بقي زمنا

طويلا لا يلتفت اليه وكان كثير من الناس يظنه مجرد نقش وصور ولا يخطر بباله انه من عظيم الاثر الى ان ظهر شامبليون الفرنساوي فتأمل في اصوله وقواعده واظهر المخبأ من فرائده حتى وقف على تاريخ المصريين وعلم كثيرًا من حوادث الاقدمين فكذلك هذا العلم فان العالم الشهير المسمى كوفي الفرنساوي ما تكلم على تكوين الارض والتقلبات التي اعترتها من بدء الخلق الى زمنه والتي تعتريها الى الان الا من تتبعه تلك الاثار وامتحانها ونسبتها الى ما يشبهها واما اشتعال المواد واتقادها في تخوم الارض فكان الاقدمون يقولون به فوافقهم على ذلك المتاخرون وبنوا ذلك على امور منها ازدياد الحرارة كلما تعمق الانسان وتغلغل في جوف الارض فانه كلما نزل ثلاثة وثلاثين مترًا زادت الحرارة درجة كما تقدم ومنها البركان والمياه النابعة من جوف الارض ومنها البخار الذي يصعد من جوف الارض في بعض البقاع فهذا كله دليل على وجود الحرارة

وبناء على ما قلنا من زيادة الحرارة درجة في كل ثلاثة وثلاثين مترًا تكون الحرارة في المركز ١٩٥٠٠٠ درجة وعند ذلك تكون جميع المواد التي في هذه الدرجة تامة السيلان ويؤخذ مما اسلفنا ان الطبقة الظاهرة التي تجمدت بتأثير البرودة كانت قبل ذلك سائلة بتأثير المواد السائلة والابخرة المحبوسة تحت الارض فلما اثرت البرودة في القشرة الظاهرة جمدت المواد المقذوفة المماسة

لها ونقص حجمها نحو العشرة كما هو شأن كل مائع تجمد

وحينئذٍ تكون الطبقة الارضية التي هي ظرف اوسع من مظروفها فربما كان بينه فضاء وقد يمتلأ واذا حصل في الظرف انخفاض وارتفاع تكوّن من على ظاهره ما يسمونه سلاسل الجبال وقد ينفتح الظرف فتحات فتخرج منها مواد سائلة فترتفع الى الجو ثم تسقط على سطح الارض فيكون منها هذه الجبال الشامخة الموجودة في جميع جهات الارض هذا اذا كانت الفتحات واسعة فان كانت ضيقة عادت المواد المقذوفة منها اليها فكان ما يسمونه العروق المعدنية او الحجرية وقد يكون الخارج من تلك الفتحات مواد معدنية او حجرية فيتحلل منها مواد ملحية او جيرية او غير ذلك فاذا اختلطت بالبحار كان من املاحها ما يسمونه ارض الرسوب فاذا تقرر ما ذكرناه من احوال القشرة الارضية وما يعرض لها علمنا انه مغير لصورتها ومبدل لهيئاتها وانه ناقل للبحار عن مواضعها ولكن لا يكون ذلك الاّ بعد مضي ادوار من الزمن طويلة تسكن الارض وتستقر في كل دور منها فتنتقل المواد السائلة منها الى مواضع قريبة او بعيدة عنها على اختلاف تأثير الماء قوة وضعفا فاذا استقرت كان ما يسمونه الارض المنقولة وما ذكرته لك في بيان اصل الجبال والصخور والبركان والعروق المعدنية وتموج الطبقات الارضية وقذف المواد السائلة في باطنها الى ظاهرها وتخلل بعضها بين طبقاتها وبيان ارض الرسوب والارض المنقولة انما هو على سبيل

الاختصار والا فالكلام على ذلك بعيد القرار

وقد جعل علماء هذا الفن جميع المواد المقذوفة التي تكوّنت منها كرة الارض ثلاث طبقات

الاولى الطبقة التي كانت سائلة ثم جمدت بالبرودة وسموها الارض المتبلورة

الثانية المواد التي في قرار البحار كالرمال ونحوها وسموها اراضي الرسوب

الثالثة الاراضي البركانية وتسمى المتبلورة ايضًا الاَّ ان تلك لها صفات تميزها عن غيرها كالاثار النباتية والحيوانية وهذه تحدث من تأثير المواد الكامنة تحت الارض وهذه الطبقات الثلاث وان كان بعضها فوق بعض الاَّ انها ليست على نسبة واحدة والا كانت معرفة علم تكوين الارض سهلة لا صعوبة فيها اذ بتوالي فعل البراكين وقذفها بانواع مختلفة في مواضع وازمان متعددة تكون الطبقات التي تحدث مما يقذف تارة متقطعة وتارة تستحيل الى نوع اراضي الرسوب ويتبدل النوع بغيره فحينئذٍ لا بد لكل من اراد ان يقف على حقيقة اي ارض ان يعرف اولا ما قيل فيها ومن اي نوع هي ثم بعد ذلك يحكم عليها

فقال ابن الشيخ بقي عليك امور ذكرتها ولم تات لها ببرهان قلت ان هناك حرارة مركزية ولم تذكر سببها وهل هي سابقة على التكوين ام حصلت بعده وذكرت ان البرودة تؤثر في الارض

ونسبت اليها تجمد الطبقة الارضية السطحية حتى حبست بتجمدها
المواد الداخلة وانه يحصل في الطرف بواسطة البرودة ارتفاع في
بعض المواضع وانخفاض في بعض اخر فتحدث الوهاد وسلاسل
الجبال ولم تبين اسباب هذه البرودة وكذلك ذكرت المياه ولم
تذكر سبب جريانها هل هو تلك المواد المقذوفة ام غيرها وعلى كل
فاين كانت مواد التكوين قبل وجود الكون

فقال يعقوب لا تعجل عليّ فاني اعلم انك ستسألني عن ذلك
كله وانما اخرت بيانه لضرورة تتميم الكلام على المقدمات التي سمعتها
فاذا ثبتت في ذهنك اتبعتها بذكر المقصود من هذا العلم وهو معرفة
مادة الارض وكيف كانت قبل ان تكون بهذه الكيفية واي شي
اثر فيها حتى صارت في هيئاتها الحالية وجرت فيها المياه وعمرت
بالانسان والنبات وسائر انواع الحيوانات فاقول لا يخفى عليك مما
تقدم ان درجة حرارة مركز الارض كبيرة جدا لا يقاومها شي ولو
كان في غاية الصلابة فعلى هذا يلزم ان تكون جميع مواد الكون
في ذلك الحين بخارية وان يكون حجمها وقتئذ قدر حجمها جامدة
الفًا وثمانمائة مرة ولذلك قالوا ان حجمها كان قريبًا من حجم
الشمس الذي هو قدر كرة الارض الغامرة ولكن بدوران المادة
الارضية في الفضاء البارد المحيط بها من جميع جهاتها كانت تبرد
بالتدريج الى ان انتقلت من الحالة البخارية الى حالة الميوعة ثم الى

الصورة الكروية التي يقبلها كل مائع وتوضيح ذلك يعلم من علم يقال له علم تحريك الاجسام

وحيث كان للارض بدورانها حول محورها حركة خاصة بها يترتب عليها تعاقب الليل والنهار كما هو مذكور عند اهل هذا العلم حصل لها وقت ان كانت سائلة من الانتفاخ والاستدارة ما يحصل لاي مائع دار حول محوره بان علت وانتفخت من وسطها وهو المنطقة المسماة بخط الاستواء وانبسطت وهبطت من طرفيها وهما المحلان المعروفان بالقطبين فتغير شكلها وبعد ان كانت بخارية صارت مائعة ولم توثر البرودة في جميع المواد بل منها ما بقي على حالته الاصلية فكان منه جو عظيم السعة له اشعة منتشرة في الفضاء يتحلل منها ابخرة الماء والمواد الارضية وانما لم تجمد لان حرارة الجو في ذلك الزمن كانت شديدة حافظة لبقائها على حالتها البخارية ولان ضغط الجو على الكرة في ذلك الزمن كان اقوى من ضغطه عليها الان لثقله بما فيه من الابخرة المائية والترابية والمعدنية فلم تجمد وتنزل لشدة الحرارة والضغط وقتئذٍ ولا شك في ان جميع ابخرة الجو كانت فوق بعضها على حسب ثقلها وخفتها فكان اثقلها اسفلها وهي الطبقة التي تلي الارض كالابخرة الحديدية والنحاسية والبلاتينية فكانت هذه الطبقة في غاية الثقل والكثافة وفوقها ابخرة المواد الاقل منها ثقلا وكثافة كابخرة الاملاح المعدنية والكبريتية والفسفور وفوق هذه الطبقة ابخرة المواد الهوائية الخفيفة الصافية

كبخار الماء والاوكسجين والازوت والاسيد كربونيك وهذه الابخرة كلها وان كانت متفاوتة ثقلا وخفة الا انها كانت دائما في تقلب واستحالة من حالة الى حالة فكان ينفصل منها تيارات وعواصف فتمزق ما جاورها من الطبقات وتنفذ منها فيكون لها عند ذلك رعد وبرق اعظم مما تسمعه الان وكذلك كرة الارض تتأثر من المواد التي في جوفها فيحدث فيها كذلك تيارات شديدة تدفع تلك المواد الى جهات مختلفة فيتولد منها ما يقال له الكهربائية فيكون لها عند ذلك من الرعد والبرق والاصوات المختلفة فوق ما تسمعه الان هذا ما كانت عليه الارض والجو في مبدأ امرهما وكانت الارض وما يحيط بها سائرة في مدارها في فضاء متسع محيط بها من سائر جهاتها وبسبب شدة برودة الفضاء التي كانت بحيث لا تنقص عن مائة درجة تحت الصفر كان كلما تقادم الزمن وقوي تأثيرها على الارض نقصت ميوعتها واخذ ظاهرها في الانجماد شيئًا فشيئًا ولم يجمد دفعة واحدة بل في نقط متفرقة وازمنة مختلفة ثم تجمعت واتصلت ببعضها حتى سترت الكرة الملتهبة ويظهر ان تلك الطبقة في ذلك الزمن كانت رقيقة جدا وان كان سمكها الان ثمانية واربعين الف متر لان نسبتها لنصف القطر كواحد من مائة وثلاثين فلرقتها كانت لا تقاوم المواد السائلة داخلها بل تتشقق من بعض المواضع فيخرج من باطنها بعض مواد ترتفع الى الجو ثم تسقط وتجمد فتكون منها الجبال والعروق

التي توجد خلال الارض في كثير من المواضع كالنحاس والتوتيا والانتموان والرصاص وهذه العروق تارة تكون عمودية وتارة تكون مائلة وكثيرًا ما تكون على غير انتظام وقد يتفرع من تلك العروق فروع ومن الفروع فروع اخرى الى ما لا نهاية له فمن ذلك يظهر ان السطح الظاهري للارض كان مختلفًا في الاتجاه والارتفاع والانخفاض والسعة والشكل والتضريس وبسبب استمرار التأثير الداخلي عليها كانت دائمًا تتغير الى ان وصلت درجة برودة السطح حدا يمكن معه سقوط المواد البخارية من الجو على سطح الارض بصفة الميوعة انما لشدة حرارة الجو كان الماء الساقط منه وقتئذٍ شديد الحرارة ايضًا لان حرارته كانت مائة درجة فاذا نزل ووجد ظاهر الارض شديد الحرارة لم يستقر عليها بل يتصاعد ثانيًا ويقطع طبقات الجو الى ان يصل الى الطبقة العليا ويحل في البرودة فيستحيل من الحالة البخارية الى الميوعة وينزل الى سطح الارض ثانيا في هيئة المطر فتحيله حرارة الارض الى بخار ويصعد في الجو ثانيا وهكذا كلما نزل ينقلب بخارًا وكلما صعد ينقلب مائعا الى ان يبرد سطح الارض فيستقر عليها لان الماء كلما نزل ياخذ جزءًا من حرارتها فاذا برد سطحها استقر عليها ولم يستحل بخارًا ثم لم يزل يزداد حتى عم جميع الارض وتسلطن عليها وتمكن من حبس الحرارة في جوفها وان كانت في بعض الاوقات تتنفس ببعض تنفسات فيتغير شكل ظاهرها ومن ذلك الوقت ابتدأت الارض في دور

جديد ومع تسلطن الماء على ظاهرها لم يزل الماء الذي في باطنها شديد الحرارة ولما كانت الطبقة العليا التي هي ظرف لظاهر الارض مركبة من السليس والالتيموان والبوتاسي والصودا وكانت هذه المواد تتأثر بتأثير الماء والهواء والحرارة حصل لها في تلك المدة استحالات اوجبت استقرارها في قرار البحار وصار ينفصل منها جواهر دقيقة كالرمل ومواد طينية. ومن شدة جريان التيارات المائية كانت تأخذها معها الى مواضع فتتركها فيها فترسب فتتكوّن منها الارض التي تسمى بارض الرسوب ومن تأثر المواد الطينية بالحرارة ذابت وتجمعت فلما تعطلت الحرارة بردت فتكوّنت عنها الارض التي تسمى بالارض الشيستية اي ذات الصفائح التي منها الاردواز فمن ذلك يعلم ان الارض الطينية الاردوازية فوق الارض الطينية وان الارض في ذلك الزمن كانت عبارة عن جزيرة صغيرة يحيط بها ماء حار من كل جهة وان البحار كان بها طين كثير فرسب بازدياد البرودة وعظم به سمك الطبقة السطحية وان المواد الداخلة كانت تخرج منها فتكوّن جبالا وصخورًا صوانية وشستية وان البرودة كلما اثرت في الارض نقص حجمها وتمزق سطحها وخرج منها مواد سائلة فتجمد وتستحيل الى صخور ومياه ممزوجة بمواد وان هذه الحوادث تكررت مرارًا كثيرة لا يعلم عددها الا خالقها ولهذا نجد في طبقات الارض الاولى وهي التي تكونت في الدور الاول عروقا صخرية متقاربة من بعضها وفي خلالها معادن مختلفة واما

الاثار الحيوانية والنباتية فلم يشاهد منها شي خلال الصخور التي امتحنت في الدور الاول ولذلك قالوا ان الارض كانت في تلك المدة مجردة عن النبات والحيوان وهذا هو الظاهر لان الحرارة كانت وقت ذاك شديدة والظلمة مطبقة لكثرة الابخرة المانعة من وصول حرارة الشمس الى الارض فلما تتابع نزول المطر وفتق طبقات الظلمة صفا الجو ودبت البرودة في الارض ووصلت اشعة الشمس اليها ومن ذلك الوقت اخذت في الظهور ولكون الحرارة لم تنعدم بالكلية لم يظهر في ابتداء الامر الّا بعض نبات وحيوانات بحرية محارية فكان كلما ضعفت الحرارة كثر النبات والحيوان فكان يظهر منهما في كل دور جنس فيمكث ما شاء الله ثم غيره فيمكث كذلك وهكذا الى ان وصلت الحرارة حدًّا يمكن معه بقاء نوع الانسان فعند ذلك خلق الله النوع البشري واسكنه الارض ومتعه بجميع ما خلق قبله فيها

وقد وجد في الطبقة الطينية آثار حيوان ونبات فاستدلوا بهما على وجود هذين النوعين حين تكوين هذه الطبقة واجمعوا على ان اول ظهور الاجسام الحساسة اي الحيوان والنبات كان في الماء لانه هو الذي اودع فيه سر الحياة ثم اختلفوا في السابق منهما والظاهر انه النبات لان ما وجد من اثاره اكثر مما وجد من اثار الحيوان واني وان كنت اطلت عليك الكلام في هذا المقام فما تركته اكثر مما ذكرته ولعلك فهمت معتقد اهل هذا العلم في اصل تكوين

الكرة الارضية الى ان ظهر فيها اصناف المخلوقات واكتست بانواع الحيوان والنبات

ومن جملة معتقدهم قولهم ان سمك الطبقة التي تجمدت وحبست المواد السائلة ثمانية واربعون الف مترًا وان تكوينها لم يكن دفعة واحدة بل كان في اربعة ادوار

الدور الاول وجد فيه الصخر والصوان والسماق والثاني والثالث وجد فيهما باقي الاحجار والرابع وجدت فيه الارض التي كانت زمن الطوفان وهي التي نحن بها الان وطريقهم في ذلك كله الاستكشاف وما عثروا به في خلال الارض من المعادن والاحجار وآثار النبات والحيوان

فقال ابن الشيخ لعل هذا كله مبني على ما فهموا وان كان الواقع خلاف ما زعموا فان تدبير الكون وابرازه من عالم الخفاء الى عالم الشهود امر لا يحيط به الا القادر المتفرد بوحدة الوجود والذي يسعنا في مثل ذلك ان نجعله من جملة الممكن ونتباعد عن القطع فيه بشي مهما امكن ولكن لا بأس بعلم ما قيل في هذا الفن سواء المظنون منه والمتيقن لان معرفة مثل هذه الامور ربما تفيد العلم بحقيقة الكون في سابق الدهور فالمرجو من فضلكم استيفاء الكلام على ما قيل في هذه الادوار وكيف كان تقلبها الى ان وصلت الى الدور الذي وجد فيه الليل والنهار وعلى الارض كيف كانت ومتى كانت ومن اي شي تكوّنت وما الذي يتميز به كل دور

عن غيره ولا تؤاخذني فيما عودتني عليه من كثرة السوآل وطلبي منك الاطناب اذا شرعت في اي مجال لان بضاعتي في هذا المعنى قليلة ومدركتي لفهم مدركاتكم كليلة

فقال يعقوب لا مواخذة ولا لوم وهل توسمت مني شيئًا من ذلك في غير هذا اليوم وكيف يكون ذلك مني او يؤثر ما يشعر به عني ألست بمحسوبكم ولا شغل لي غير خدمة جنابكم وغاية ما اقول

هبوني امرءًا ان تحسنوا فهو شاكر

لذاك وان لم تحسنوا فهو صافحُ

ولكن ارى الوقت لا يسع الكلام في هذا المعنى فقم بنا الى المجتمع لننظر ما فيه ولا بد ان نعود الى الكلام في هذا الشان حتى نستوفيه

المسامرة الحادية والتسعون

نادرة

وكان المكان الذي جلسا فيه قريبًا من الطريق ولكن لاستتاره بالشجر كانوا يرون الناس ولا يرونهم فلم يحصل لابن الشيخ ما كان يحصل له اذا مشى في طرق المدينة حيث كان لا يمر بطريق من طرقها الاّ راى الناس قد احتاطوا به من كل جهة كما هي عادتهم اذا رأوا غير ابناء جنسهم او احدًا تزيى بغير زيهم ثم قاما ومشيا حتى بلغا المحل الذي عيناه للعربة وكانت واقفة بجوار فندق دخلاه واكلا فيه وشربا ثم خرجا وسارا الى الجهة التي قصداها فوجدا خلقا كثيرين مجتمعين في فسحة خارج البلد بها حوانيت من خشب تنقلها اصحابها وتذهب بها اني مذهب ووجدا بالفضاء المذكور زحاما كثيرًا فنزلا عن العربة ومشيا يطوفان من

جهة الى جهة فلم يجدا شيئًا يستغرب وتمنى ابن الشيخ ان لا يكون الى ذاك المحل ذهب خصوصا لما رآه وسمعه مما يكدر خاطره وينفر طبعه وخشي ان طال المقام ان يحصل له ما يؤذيه او يتغير قلب والده عليه فقال ليعقوب ارحل بنا من هذا المكان فاني ما رأيت احدا الاّ وظننت انه شيطان فخرجا مسرعين فرأيا في الطريق محلا على بابه مكتوب ما معناه من اراد ان يرى اغلظ امرأة على وجه الارض واطول واقصر رجل كذلك فليدخل هذا المكان

فقال ابن الشيخ ليعقوب ادخل بنا هذا المكان لعلنا نجد فيه شيئًا نتروح به وينسينا ما كان فوافقه ودخلاه فوجداه في غاية ما يكون من الاتقان وفيه الكراسي كثيرة مصطفة فجلسا في ناحية منه فنظرا الى صدر المجلس فوجداه خاليًا وبجانبه فرجة وعليها ستارة واذا برجل امرد مهول الخلقة مفرط الطول يظهر عليه سن الشباب قد خرج من خلف ستارة ومشى حتى توسط المحل ومعه رجل يقول للحاضرين هذا الرجل من الهند وطوله يزيد عن مترين فقام اليه اطول رجل من الحاضرين ووقف بجانبه فلم يبلغ ثدييه فوقف برهة كاد ان يغشى بها عليه فاخذ بيده الرجل الذي كان معه واجلسه لانه مع صغر سنه وطول قامته لم يكن فيه قوة للحركة اصلا حتى لو دفعه اي انسان بيده لوقع على الارض ثم خرج رجل اخر متناسب الاعضا رخيم الصوت طلق اللسان حسن العبارة خفيف الروح لا يبلغ طوله هنداسة وله لحية فصار يتقصف

ويرقص ويصنع حركات غريبة ويفعل افعالا تدل على قوة عجيبة ثم عمد الى فردة من جزمة الرجل الكبير الحجم فدخلها حتى غاب عن اعين الناس ثم خرج منها وكان ذلك الرجل كلما خاطبه احد فهم بادنى اشارة واجاب بافصح عبارة ثم جلس بجانب الرجل الاول وخرجت امرأة لم يرَ اغلظ منها فاخذت تتحرك كانها ترقص وتترنم وتعاني خفة الحركة وغلظ الجسم يمنعها وتتكلف السرعة وثقل البنية يدفعها فلما انفض الثلاثة من لعبهم خرج ابن الشيخ ويعقوب فوجدا بالباب ازدحاما لم يرياه حين دخولها وقد احاط بهما خلق كثيرون ممن كانوا داخل المحل وخارجه فلم ينفذا من بينهم الاّ بغاية المشقة ثم سارا الى ان وصلا العربة فركباها فقال ابن الشيخ يا عجبا لهذه الامة ويا ليت شعري ما اوجب انكبابهم هذا الانكباب وازدحامهم علينا حين خروجنا من الباب

فقال يعقوب هكذا دأب الافرنج خصوصا الفرنساوية فان لهم عناية بكل ما يرونه مخالفا لعوائدهم ولو رأوه الف مرة

فقال ابن الشيخ ويا ليتهم اقتصروا على النظر من بعد ولم تمتد الى ثيابي منهم يد بل كان بعضهم يقبض عليها ويتأمل فيها وبعضهم يقلبها ظهرا لبطن كانه يشتريها فكنت اتغافل واغض بصري واتجاهل خوفا من النزاع والخصومة

فقال يعقوب ان غالب ما رأيت من اهل الريف وسكان البادية فتجد عقولهم قاصرة وحماقتهم من غير سبب ظاهرة وقد

احسنت فيما فعلت فانك لو خاطبتهم لم تأمن شرهم وربما كان يترتب على ذلك اكثر مما رأيت

فقال ابن الشيخ حاشَ ان يكون اهل ريف مصر كذلك فانك لا تراهم الا مشغولين بامر انفسهم ولو رأوا غريبًا ببلادهم ولو كان زيه مخالفا لزيهم لا يعنون النظر اليه وان نظروا اليه نظروا نظر اختلاس بحيث لا يدركه الاّ قليل من الناس

فقال يعقوب هكذا اقتضت حكمة الملك الديان وانت تعلم انه ليس في الامكان ابدع مما كان أنسيت نصيحة والدك وهو آخذ بيدك ويقول لك يا بني ما نازعني احد فى امر الاّ اخذت فى امره بثلاث ان كان فوقي عرفت له فضله وان كان دوني رفعت قدري عن منازعته وان كان مثلي تفضلت عليه فالاحسن ان تصفح صفح الكرام وان لا نضيع وقتنا في تتبع عثرات اولئك الاقوام فاخبرني عن اي الثلاثة الذين رأيتهم كان عندك اغرب

فقال ابن الشيخ اما بالنسبة لمن خلق الذر وفصل له اعضاء وجعل لبعض الدود اسنانا كالمقاريض بل امضى وخلق الانسان من نطفة ثم من علقة واخرج من جوف الصخرة الصماء اضعف حيوان ورزقه فلا غرابة ولا عجب

واما بالنسبة لعوائد الخلقة فالقصير احق بالاستغراب واولى لان الرجل الطويل وان كان غريبا في خلقته وطول قامته وعدم قوته لا يساوي الرجل القصير في ذلك فانه مع فصاحته وطلاقة

لسانه تراه قد بلغ من القصر الغاية ونحافة الجسم النهاية ولكن لا ادري هل هو من الفرنسيس ام من غيرهم وهل سنه على قدر جسمه ام لا

فقال يعقوب انك لو القيت بالك الى كلامه حين خروجه لعرفت منبته واصل لسانه وقدر عمره وما كان من امره فانه ذكر عند خروجه انه رجل من جزيرة بالبحر المحيط الجنوبي وان عمره تسع وثلاثون سنة وانه اقام ببلاد الانكليز وفرانسا مدة وساح باكثر بلاد اوربا ولذلك كان يتكلم مع كل انسان بلغته فقال ابن الشيخ ما اظن خلقًا بهذه الصفة الا ان يكون من ذرية ياجوج وماجوج فان منهم على ما قيل من طوله شبر ومن طوله شبران وغايته ثلاثة اشبار فقال يعقوب وما ياجوج وماجوج واين موضعهم من الارض فقال ابن الشيخ هم جيل من اولاد ادم وموضعهم خلف السد الذي بناه الاسكندر ذو القرنين وذلك انه لما وصل في سيره الى مغرب الشمس عند جبل ارمينية واذربيجان وجد هناك قومًا فشكوا له منهم وجعلوا له جعلا على ان يجعل بينهم وبين ياجوج وماجوج سدًا فضربه على احدى وعشرين قبيلة وبقيت منهم داخل السد قبيلة واحدة فقال يعقوب لا مانع من ذلك ولكن الذي اعلمه واطلعت عليه في كتب التاريخ ان اللابونيين والسمويد كلهم قصار ولعلها

خاصة في هواء قطرهم وطبيعة ارضهم وان الملوك في الزمن السابق كانت تتخذهم اضحوكة لهم ويغدقون على من اتى اليهم بواحد منهم حتى قيل ان اهل المشرق لما علموا ان سبب الرغبة فيهم حقارة جسمهم استعملوا طرقا تمنع الطول فكثروا فكان الرومانيون يجمعون منهم في اوقات سرورهم ويغرون بينهم حتى يقتل بعضهم بعضاً ثم عز وجودهم في القرون الوسطى وقد كانت الامراء تستعملهم في البريد لتوصيل الاخبار وذكر المؤرخون انه وجد في القرن السابع من الميلاد رجل لم يبلغ طوله ثلثي ذراع معماري فعندي ان كل مَن كان من هذا القبيل فهو من ذاك الجيل

المسامرة الثانية والتسعون

الجمعية المشرقية

وبينا هما في الحديث لم يشعرا الا وهما داخل المدينة فسارا حتى وصلا محل الشيخ فنزلا عن العربة ودخلا عليه فوجدا عنده صاحبه الانكليزي فبدأ ابن الشيخ بتقبيل يد والده ثم تحوّل للانكليزي فصافحه وقعد بجانبه وكان قد حان وقت ذهابهم الى منزل رئيس الجمعية فقال الانكليزي لابن الشيخ هيي نفسك فانّا متوجهون هذه الساعة فقال ابن الشيخ ان أذن الوالد فسمعا وطاعة ثم انهم قاموا جميعا وركبوا العربة وسارت بهم حتى وصلوا منزل رئيس الجمعية فقابلهم بغاية الاحترام وحياهم تحية الكرام وكان بالمجلس جماعة من مشاهير العلماء ورجال الجمعية المشرقية ووجوه الامراء فاخذ رئيس الجمعية بيد الشيخ حتى اجلسه وقعد بجانبه

وآنسه وكان بالمجلس مع صاحبة المنزل نساء كثيرة فقعد الجميع
يتجاذبون اطراف الحديث الى ان حان وقت الطعام فقاموا جميعا
واخذ كل واحد منهم بيد امرأة وجاءت صاحبة المنزل الى الشيخ
واخذت بيده فتبعها ومشى معها حتى دخلت به محل الطعام
فجلست والشيخ عن يمينها وصاحبه الانكليزي عن يسارها وجلس
صاحب المنزل في الصف الثاني وابن الشيخ عن يمينه وجلس
الباقون في مواضعهم التي رسمت لهم فاكلوا ثم رجعوا الى محل
الجلوس كل ذلك وهم محتفون بالشيخ احتفاف الهالة بالقمر ومحتفلون
به احتفالهم بملك مطاع فيما امر وكان كل من خطر بباله شي يتعلق
بفن العربية تلطف في ابدائه فيجيبه الشيخ بجواب لا يحوم حوله من
عداه فيعجبون من بلاغة عبارته وعذوبة لفظه وجودة حفظه

المسامرة الثالثة والتسعون

الفرنسيس في مصر

وكان بالمجلس رجل فرنساوي ممن توجه مع نابليون الى مصر وشهد وقعته باهلها وانتشار رجاله في اعمالها واطلع على ما كان من امرائها قبل توجه الفرنسيس اليها فظهر للشيخ من اطراف كلام ذلك الرجل حبه للمصريين وميله للعائلة المحمدية فقال له أكنت بمصر ايام حوادثها مع الفرنسيس فقال وقبل ذلك ايضاً

فقال الشيخ اني لا اتحقق ذلك لصغر سني اذ ذاك وغاية ما اتخيله اني كنت ارى والدي في تلك الايام كل ما دخل وخرج يقول لوالدتي ماذا ترين في هذا الحرج العرب في البادية تنهب والمماليك تفسد وتخرب والفرنج في الطرق تقتل وتسلب فمن فر من قوم وقع في يد اخرين ونحو ذلك من الكلام الذي يخيف

الابطال ويزعج النساء والاطفال مع اني اعلم طبع المرحوم في تجلده وتجمده بين اهل بلده فما اضطره الى بث هذه الشكوى الا فظاعة ما رآه من عموم البلوى

فقال له ذلك الرجل لو بحثت عن اصل ذلك كله لوجدته من المماليك الذين جعلوا مصر غنيمة لهم وقسموا ارضها وقراها بينهم فانهم كانوا يحزبون الاهالي والعرب علينا ويحذرونهم منا بقولهم انه لا غرض للفرنج من بلادكم الا سلب اموالكم وهتك اعراضكم وصرفكم عن دينكم ونحو ذلك من المنفرات مع ان الفرنج كانوا بريئين من ذلك كله لا غرض لهم الا اصلاح الحال وانقاذ الناس من ورطة هولاء الجهال فلو قدّر وبقينا بارض مصر الى الان لكان خيرًا لهم ولكن من سوء حظ المصريين انه حدث بقطرنا بعض حوادث ترتب عليها عود رئيسنا بونابرت الى البلاد فخرجنا منها بعد ان غذيناها بفلذ اكبادنا ورشحناها بدم اولادنا ومع ذلك فقد رسمنا لهم بها قوانين جليلة واثارًا عامة النفع جميلة يرجى منها الخير ويتقى بها الضير كالترعة المالحة والحلوة والقناطر الخيرية والمطابع وتقسيم مصر الى اخطاط لكل خط حاكم وعسس يطوف فيه ليلا ونهارًا يمنعون الشرور واهل الفساد ويحثون على كنس الطرق والشوارع وتنظيفها ومن محاسن مبتدعاتنا الامر بتعليق قناديل على ابواب البيوت والوكايل والخانات فكان حكام الاخطاط يطوفون بالليل فاذا وجدوا بيتا او خانا ليس على بابه قنديل سمروه للمحافظة على

ما فيه فاذا طلع النهار اتوا بصاحبه فيجازونه على حسب ما يرون

ومنها انشاء اسبتاليه لعلاج المرضى جمع لها من الاطبا والادوية ما يلزم لكل داء وهي فيما بين القاهرة ومصر تسمونها بالقصر العيني ومنها الكورنتينات وتعيين محلاتها في كل مدينة وغير ذلك من الاعمال التي لو لم تشتغل بها افكارنا ما كانت خطرت لهم على بال لان شان المصريين بل سائر المشرقيين الاقتصار على حفظ القرآن ومعرفة بعض امور دينية يقفون عندها ولا يتعدون حدودها ولا يغوصون في معاني الكتب واسرارها وكذلك حكامهم وكان من يلي امرهم من المماليك ونحوهم لا همة لهم الاّ تحلية سروج الخيل والاكباب على الملاهي طول الليل ولبس السراويل الواسعة الذيل والاكثار من الخدم والغلمان واستتباع ذوي الوجوه الحسان وهذا كله ربما كان مانعاً من تصرف العقل وزيادة الفكر خصوصا وهم مقتصرون في التفكر في القرآن على ما يظهر من مبانيه ما بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والحث على الزهد في الدنيا ولذتها والتحذير من التوسيع فيها والاغترار بزهرتها ونحو ذلك مما تخاف منه القلوب ويزهد من تامله في كل شي محبوب في الدنيا ومطلوب حتى يبيع الحاضر بالغائب ويعوّد نفسه على الرضى بكل ما حل بها من المصائب ويذهل عما فيه صلاح معاشه ويهجر اسباب ثروته وانتعاشه

فقال له الشيخ اما ما ذكرت من نسبة ما وقع بين المصريين

والفرنسيس للماليك فمن المعلوم ان المدافعة عن الوطن في ذلك الوقت كانت واجبة على العموم لا فرق فيها بين مالك ومملوك وشريف وصعلوك وعلى فرض ان الاهالي انما قاموا تبعا لراي حكامهم الذين هم امراؤهم فهل فعلوا غير ما يلزمهم

فقال الانكليزي ان ما يقول الشيخ حق فان ميل الانسان الى اهل ملته وديانته امر فطري ألا ترى ان اهل باريز لم يفتحوا ابواب المدينة للملك هنري الرابع الا بعد ان رجع عن المذهب البروتستاني الى مذهبهم مع انه من بيت الملك والجميع فرنساوي واصل الدين واحد

فقال الشيخ من هنا يعلم ان لا لوم على المصريين في امتناعهم من الخضوع للفرنساوية والدخول تحت طاعتهم بحسب الميل الطبيعي من عدم الرضى بحكم من خالفهم في الدين والجنس وترك من هم معهم على ملة واحدة وعوائدهم وقوانينهم في الاحكام متحدة

فقال له ذلك الرجل الشيخ كل ذلك معقول ومقبول الا ان الفرنسيس لما دخلوا مصر لم يحدثوا بين المسلمين بدعة على غير رأي امرائهم وعلمائهم بل ما فعلوا فعلا الا بمشورتهم واخذ رايهم كما يعلم ذلك من المنشورات التي عليها امارات رضاهم واستحسانهم فكانوا معينين لذلك جملة من اكابرهم اهل الحل والعقد منهم الشيخ خليل البكري نقيب الاشراف والشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ محمد المهدي والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد الامير

وغيرهم فبونابرت رئيس الجيوش مع علو همته وسعة باعه واطلاعه وحسن اداريه وسياسته لم يستقل في مصر بارائه ولم يكل حكم البلد الى امرائه بل انتخب جملة من كبار علماء المصريين واعيان تجارها المعتبرين وفتح لهم دواوين وضم اليهم مترجمين ورتب لهم مرتبات واغدق عليهم بالعلوفات وفوض الحكم اليهم وعوّل في حل كل مشكلة عليهم وبالجملة لم يفعل ما يخل بشرفكم ولا ما يضر بقطركم وانظر الى ما حصل منه لما تغلب على جزيرة مالطة ووجد بها اسرى كثيرين من اهل الاسلام فانه اطلقهم وجهزهم وارسلهم محفوظين الى بلادهم واعلن ان لا يؤخذ احد من اهل الاسلام من بعدهم اسيراً وقبل وصول جيشه الى مصر ارسل يحذرهم عن الفساد والتعرض لشي مما بايدي اهل تلك البلاد ويقول لهم ما معناه انكم ستدخلون مصر آمنين مظفرين منصورين وتهزمون حكامها المتحدين مع الانكليز فقد قطعوا على تجارنا السبيل وبالغوا في ظلم اهل وادي النيل واعلموا ان الامة التي تقصدونها امة محمدية وكلمتهم التي ينبني عليها امر دينهم لا اله الا الله محمد رسول الله فاياكم ان تغيروها عليهم او تصرفوهم عن قوانينهم وعليكم ان تكرموا ائمتهم وقضاتهم ولا تحدثوا شيئاً في مساجدهم وجوامعهم واعلموا ان عوائد بلادهم ليست كعوائد بلادكم فينبغي ان تستأنسوا باهلها وتتطبعوا بطباعهم واياكم ان يدخل احد منكم دار احد او يتعرض لامرأة فان ذلك عندهم منكر فمن فعل ذلك منكم حل به

البأس وعد من اراذل الناس واول بلدة تنزلون بها الاسكندرية وستجدون بها من اثار من اسسها ما يروق بالكم به ويقطع عن التعلق ببلادكم امالكم وما كفاه هذا التشديد وما انذرهم به من الوعيد بل صدر منه منشور بقتل من قطع السبيل من العسكر او فعل شيئًا من المنكر او غصب من احد شيئًا ولو درهما ثم جمع ضباط العساكر والالايات وضمنهم ذلك كله وهكذا كانت افعاله واقواله كلها فلم يكن مراده مجرد التغلب واشهار نفسه بالحرب بل كان جل غرضه وغاية امله ان يكون الناس كلهم في امان ورفاهية حال وان لا يتعرض احد لاحد في عرض ولا مال

وكان وصول بونابرت بجيوشه الى ثغر اسكندرية لخمسة عشر يومًا من المحرم سنة الف ومائتين وثلاثة عشر هجرية الموافق لشهر حزيران سنة الف وسبعمائة وثمانية وتسعين ميلادية فلما دخل اسكندرية جمع علمائها واعيانها وانتخب منهم سبعة قلدهم زمام الاحكام وما تحتاج اليه البلدة من النظام منهم الشيخ محمد المسيري والسيد محمد كريم وقال لهم على مقتضى الحرية لا يلي الحكم الا عقلاء الرعية لان جميع الخلق سواء في العدل والحكم بالحق وقبل خروجه من اسكندرية الى مصر عمل دستورًا يتضمن جميع ما مر وزيادة كما هو مبين في تاريخهم وكان قد احضر معه من الروسية مطابع تطبع باللغة الفرنساوية والعربية فطبع عدة فرمانات وفرقها بالديار المصرية ثم شرع في ترتيب دوان فجمع له ستين

شخصًا منهم اربعة عشر يقال لهم المجلس الخصوصي والباقون يقال لهم الديوان العمومي كل ذلك اظهارًا للعدل ورفقًا بالرعية

فقال الشيخ جميع هذا صحيح مسلم غير انه لا يخفى ان زمن الحروب عادة يكون زمن شدة على الناس وما يقع فيه من المصائب يكون غالبًا على غير رضى الروساء وقد تقع امور فظيعة توجب تنفير الطباع مثلا تخريب المساجد وانتهاك حرماتها وقهر العلماء وتجريم التجار كل ذلك قد وقع بمصر مدة هذه الحرب مع نهي بونابرت عنه فكان داعيا لنفرة الاهالي

واما كتابة المشائخ الى الاقاليم بالمسالمة فذلك امر واجب عليهم لحقن دماء الناس لما راوا من قيام العربان واهل الفساد وكثرة القتل والسلب والنهب وضرورة ان الاحكام كانت قد تغيرت والناس كانوا مضطربين لم يتعودوا على الحكم الجديد والتبس المفسد بالمصلح فقصد العلماء تسكين الفتن وحفظ الانفس والاموال وبالجملة فلم يكن للمصريين داع الى النفرة عن احكام الفرنسيس غير الحمية الدينية مع ما حصل من الشدائد التي جرت العادة بحصولها في زمن الحروب وتجديد الاحكام

ثم ان الرجل الفرنساوي انصرف من بينهم وقام كل في محل استراحته فقال ابن الشيخ لابيه قد استفدت من ذلك المجلس ان الفرنسيس سبق لهم انهم استولوا على مصر وما كنت اظن ذلك ولا خطر ببالي فقال يا بني قد استولوا عليها وحكموا فيها وامروا ونهوا

وفعلوا فيها الافاعيل لولا ان الله خلصها منهم فقال وما كانت احكامهم فيها وقوانينهم وكيف كانت وقائعهم في فتح البلاد وقهر العباد

فقال الشيخ يا بني اني كنت وقت حلول الجيش الفرنساوي بمصر صغيرًا لا اعي ما يقال ولا ما يفعل ولكني منذ هاجرت من بلدي الى مصر لطلب العلم كنت اسمع بما كان من الفرنسيس فكنت كلما سمعت عنهم شيئًا قيدته حتى جمعت من ذلك كتابا وجلدته

فمن احكامهم انهم ضربوا على الاملاك والعقار ضرائب فجعلوا على الاعلى ثمانية ريالات فرانسا والاوسط ستة والادنى ثلاثة

وضربوا على المعاصر والسيارج والوكائل والخانات فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين ومنها ما جعلوا عليه اربعين كل على حسبه وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم ولصقوها في مفارق الطرق وارسلوا منها نسخًا للاعيان وعينوا المهندسين لتمييز الاعلى من الادنى وبالغوا في الضبط والاحصاء وتقييد الاسماء فضاق بالخلق الفضاء ومنهم من استسلم للقضاء ولم تتدبر العوام في العواقب فانتبذ منهم جماعة وتناجوا فيما بينهم ووافقهم من المتعممين من لم ينظر في عواقب الامور ولم يتفكر انه في القبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم فقاموا متحزبين وعلى الجهاد عازمين وابرزوا السلاح والات الحرب والكفاح وهدموا مصاطب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحوانيت وجعلوا احجارها متاريس في عدة جهات وتترسوا بها
فلما رأى الفرنسيس منهم ذلك تحيزوا الى القلاع وكان كبيرهم
ارسل الى المشائخ فلم يجيبوه فامر بضرب المدافع والبونبات على
البيوت والحارات وتعمدوا على الخصوص الجامع الازهر وحرروا
عليه المدافع والقنبر فلما سقط عليهم .ذلك نادوا ياخفي الالطاف
نجّنا مما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق وتتابع
الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الاركان وهدمت الدور
وسقطت بعض القصور وخرب كثير من البيوت والوكائل وعظم
الخطب واشتد الكرب فركب المشائخ الى كبير الفرنسيس ليرفع
عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسل فعاتبهم في التاخير
واتهمهم بالتقصير فاعتذروا له فقبل منهم ثم بعد هجعة من الليل
دخل الفرنسيس المدينة ومروا في الازقة والشوارع من غير معارض
ولا ممانع وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخلوا الجامع الازهر
بالنعال والسلاح وربطوا خيولهم بصحنه ومقصورته وكسروا
قناديله وسهارته وهشموا خزائن الخدمة والمجاورين واخذوا ما
وجدوه به من الكتب والمتاع بل طرحوا نفائس الكتب في
ميضأته واتلفوا الوفًا من مجلدات مؤلفاته ثم قرروا على الناس
فردة اخرى قدرها مائة وستة وثمانون الف ريال فرانسا مع ان
الناس ما أدوا الفردة الاولى حتى قاسوا فيها من الشدة ما لا يوصف
ومات اكثرهم في الحبوس وتحت العقوبة ومنهم من هرب وخرج

على وجهه فجعلوا على العقار والدور مائة الف ريال فرانسا وعلى ارباب الحرف المستورين ستين الفا وقسموا البلد ثمانية اخطاط وجعلوا على كل خط خمسة وعشرين الفا ووكلوا ذلك الى مشائخ الحارات ومن كان ساكنا بتلك الاخطاط من الامراء مثل المحتسب بجهة الحنفي وعمر شاه وسويقة السباعين وضرب الحجر ومثل زين الفقار جهة المشهد الحسيني وخان الخليلي والغورية والصنادقية والاشرفية ومثل حسن كاشف جهة الصليبة والخليفة وما في ضمن تلك الجهات من العطف فجعلوها على ثلاث نمر فعلى النمرة الاولى ستون ريالا وعلى الثانية اربعون وعلى الثالثة عشرون والزموا المستأجر بدفع مقدار ما يدفع المالك والدار التي لا يجدون لها صاحبًا يأخذون ما عليها من جيرانها ثم نادوا ان كل من لا يدفع ما عليه بعد اثنين وثلاثين يومًا من المناداة تنهب داره ويحاط بموجوده وتتبعوا نهب الدور بادنى شبهة ولم يوجد لهم شفيع تقبل شفاعته ولا متكلم تسمع كلمته واحتجب كبير الفرنسيس عن الناس وامتنع من مقابلة المسلمين وكذلك قلده عظماؤهم وزاد ان عينوا لجمع تلك الاموال رجلا قبطيا يسمى شكر الله فنزل بالناس منه بلاء شديد فكان يمشي وصحبته عسكر من الفرنسيس وجماعة من الفعلة بايديهم آلة الهدم فاذا دخل دارًا ولم يدفع له صاحبها ما عليه امرهم بهدمها واقبح شي ما فعله باهل بولاق فانه كان يحبس الرجال مع النساء ويدخن عليهم بالقطن والكتان ثم فعل باهل مصر كذلك كل

ذلك في شهر واحد وفي اخره قاموا دفعة واحدة على جميع الخانات والوكائل فختموا عليها ثم صاروا يفتحونها واحدًا واحدًا ويأخذون ما فيها فيقوّمونه بابخس الاثمان فان بقي لهم شي من الغرامة اخذوه من جاره وان زاد شي احالوا صاحبه على جاره وهكذا حتى اخلوا جميع الخانات والوكائل من البضائع واخذوها واربابها ينظرون وكانوا اذا فتحوا خانًا او دكانا ووجدوا به اشياء ثمينة او صرة فيها دراهم او دنانير اخذها امناؤهم ووكلاؤهم بحضرة صاحبها وفي ذلك الشهر بعينه حرروا دفاتر العشور فاحصوا جميع الاشياء جليلها وحقيرها ورتبوها بدفاتر وجعلوها اقلاما يتقلد من يتعهد بدفع ما وضع عليها وجعلوا جامع الازبك الذي بالازبكية سوقا للمزايدة في تلك الاقلام فكان يجتمع الاثنان فاكثر في قلم واحد وربما تعهد الشخص الواحد باقلام متعددة ثم شرعوا في هدم الحسينية وما خرج عن باب الفتوح وباب النصر من الدروب والحارات والمساجد والحمامات والحوانيت والاضرحة فكانوا اذا دهموا دارا لهدمها لا يمكنون اهلها من نقل ما بها ولا اخذ شي من انقاضها فينهبونها ويهدمونها وينقلون الانقاض النافعة من البلاط والخشب الى عماراتهم وابنيتهم وما بقي من كسارات الخشب تجعله الفعلة حزما ويبيعونه على الناس باغلى ثمن لعزة حطب الوقود وقت ذاك فتلف للناس من الاملاك والعقار ما لا يقدر قدره كل ذلك مع مطالبتهم بما تقرر على املاكهم ودورهم من الفرضة فكان يجتمع على

الشخص الواحد في الوقت الواحد النهب والهدم والمطالبة بالفرضة
وكان لهم في المطالبة بالفرضة امور قبيحة ولما قسموا الاخطاط على
الامراء ومشائخ الحارات ضموا اليها اعوانا والزموا كل امير ومشائخ
حارات خطه بما خصه من الغرامة فكانوا اول ما يجتمعون
بديوانهم تبتدئ الكتبة بكتابة التنبيهات وهي اوراق صغيرة باسم
الشخص والقدر الذي عليه وعلى عقاره وعلى هامش الورقة حق
طريق الحامل لها ثم يدفعون الى كل واحد من اولئك الاعوان
جملة من تلك الاوراق فلا يفتح الانسان عينه الاّ والمعين واقف
على بابه وبيده ذلك التنبيه فيعده بالوفاء فاذا قبل عذره لا يفارقه
حتى ياخذ منه حق الطريق وما يفارقه الا وقد اتاه معين اخر
بتنبيه اخر فيفعل معه كما فعل الاول فاذا سعى الانسان جهده
حتى ادى ما عليه وظن انه تخلص من ذلك فحالا يجد خلفه معينا
اخر ومعه تنبيه جديد فيقول له ما هذا فيقول ان الفرضة لم تكمل
وقد جعلنا على كل عشرة خمسة او ثلاثة او ما سوّلت لهم انفسهم
وهكذا من الغرامات التي هي اشد من الدواهي

ومنها انهم قرروا على مشائخ البلاد مقررات يقومون بدفعها
في كل سنة زيادة على الخراج وجعلوا البلاد اعلى وهي ما كان طينها
الف فدان فاكثر واوسط وهي ما كان طينها من ٥٠٠ فدان
الى ما دون الالف وادنى وهي ما كان طينها دون الخمسمائة
فجعلوا على الاعلى خمسمائة ريال وعلى الاوسط ثلثمائة وعلى

الدون مائة وخمسين واستملوا اسماء البلاد والكفور من القبط فاملوها عليهم حتى الكفور التي خربت من مدة سنين فربما املوا اسماء من غير مسميات ثم امروا بتوزيع مليون على ارباب الصنائع والحرف وهو مائة وستة وثمانون الف ريال فرانسا وان يدفعوها على ثلاثة اقساط كل اربعة اشهر ثلثها

هذا أنموذج ما كان منهم بمصر

فقال ابنه وما منعك البارحة في مجلس المحاورة ان تذكر لهم هذه الافاعيل التي صدرت منهم

فقال الشيخ يا بني اي فائدة في ذكر ذلك الاّ المنافسة والمناقشة خصوصا ونحن بين اظهرهم وقد قالوا

ودارهم ما دمت في دارهم * وحيهم ما دمت في حيهم

وقيل ايضاً

ودارهم في دارهم وحيهم * في حيهم وأرضهم في ارضهم

لا سيما وهم عارفون بجميع ذلك فلا فائدة في حكايته الاّ تغير النفوس ومن يتأمل فيما كان يصدر منهم مما ظاهره العدل والاصلاح يجد انه لا يخلو من دسيسة ومكيدة لتحصيل اغراضهم مثلا اطلاقهم الاسارى المسلمين الذين وجدوهم بمالطة فانما هي مكيدة من مكائد الحرب وذلك انهم حين وصولهم الى ثغر الاسكندرية كتبوا كتبًا وارسلوها الى البلاد التي هم قادمون عليها تطمينا لهم لئلا يتنبهوا ويحاربوهم فاوهموهم انهم قادمون من قبل السلطان

وارسلوا هذه الكتب مع هولاء الاسارى وارسلوا بصحبتهم جواسيس من مالطة يعرفون اللغة العربية ويتكلمون بلغة المغاربة فلم يمتازوا عن اسارى المسلمين فلما وصلوا الى مصر صار الجواسيس الذين ارسلوهم يوسوسون للناس ويثبطونهم ويحلون عزائمهم عن القتال فكانت هذه ايضاً مكيدة من مكائد الحرب فلما قامت الحرب بين المسلمين والفرنسيس خفي اكثر الاسرى ولم يدر اين ذهبوا وما ذهبوا في الحقيقة الاّ الى جيش الفرنسيس ليخبروهم بما سمعوه وما شاهدوه من المسلمين

ومن افاعيلهم انهم حبسوا بعض العلماء فما اطلقوهم حتى بلغهم مجي الوزير الاعظم بجيوشه فخرجوا من غير منازعة ولا معارضة وعمل بينهم وبين الجيش العثماني والانكليزي شروط مفصلة هي وجميع وقائعهم بمصر في بطون التواريخ وقد انقضت تلك السنون واهلها وتلك الايام نداولها بين الناس هكذا عادة الله في خلقه لا معقب لحكمه ولم يطلعنا على حكمه فكم سلط اقواماً على اخرين كما دلت عليه كتب الاول وقد يسلط الفجار على الابرار وله في ذلك حكم واسرار وكان خروج الفرنسيس من ديار مصر في شهر الله المحرم سنة ١٢١٦

المسامرة الرابعة والتسعون

العقائد

وفي اليوم الثاني بعد طلوع الشمس دخل الانكليزي عند الشيخ وجلس بعد ان ادى واجبات التحية ثم قال ايها الشيخ قد عنّ لي من مجلس البارحة ان اسألك عن مسئلة خطرت ببالي فقال الشيخ ما هي فقال يؤخذ من الكلام السابق ان بين المسلمين والنصارى عداوة مع انا نسمعَ في كتابكم آية تدل على خلاف ذلك قال الشيخ اي آية قال لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى (الاية)

فقال الشيخ صدق الله العظيم في كلامه القديم فقد قال المفسرون كالفخر الرازي وغيره في تفسير هذه الاية ان مذهب

اليهود انه يجب عليهم ايصال الشر الى من يخالفهم في الدين باي طريق كان فان قدروا على القتل فذاك والاّ فبغصب المال او السرقة او بنوع من المكر والكيد والحيلة وقد روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال ما خلا يهوديان بمسلم الا همّا بقتله

واما النصارى فليس مذهبهم ذلك بل الايذاء في دينهم حرام كما في دين الاسلام وايضاً فان اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا كما هو مشاهد فيهم والحرص معدن الاخلاق الذميمة فان كل من كان حريصا على الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا واقدم على ارتكاب كل محظور لطلب الدنيا فلا جرم ان تشتد عداوته لكل من نال مالا او جاها بخلاف النصارى فانهم في اكثر احوالهم معرضون عن الدنيا زاهدون فيها مقبلون على العبادة تاركون لحب الرئاسة والتكبر وكل من كان كذلك فلا يحسد الناس ولا يؤذيهم ولا يخاصمهم بل يكون لين العريكة سهل الانقياد للحق قريباً الى قبوله كما قال تعالى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون الى اخر الآيات فهذا هو معنى مودتهم للمسلمين واما الديانة فالقدر مشترك بينهم وبين اليهود في مخالفة المسلمين بل اليهود يخالفون في الالهيات فقط والنصارى يخالفون في الالهيات والنبوات

فقال الانكليزي ان ما تقول ايها الشيخ حق فان النصارى كانت صفاتهم حميدة كما ذكرت لكن الان دخلت فيهم اضداد

تلك الصفات وتشعبت مذاهبهم واعتقاداتهم وجرت بينهم العداوة والبغضاء ولهم فلسفة قبيحة ومقالات شنيعة في الديانات والرسل والكتب السماوية

فقال الشيخ نعم يظهر بعض ذلك على وجه الرجل الفرنساوي الذي كان معنا البارحة

فقال الانكليزي هذا الرجل من ضمن الفلاسفة المتعمقين وله كتاب عمله في الاعتقادات وقد قرأت منه جملة وافرة فوجدته يذكر فيما يتعلق بالاديان ان جميع الملل مستمدة من منبع واحد وان بينها اشتراكا في القضايا الاساسية كالتوحيد فدين الاسلام مستمد من دين اليهود من حيث الاصول فقط بخلاف دين النصارى فمستمد من دين اليهود من حيث الاصول والفروع معًا فدين النصارى مبني على دين اليهودية كما تبنى الدور والقصور على قواعدها فينهدم دين النصرانية بعدم تمسكهم بكتب اليهود ومع ذلك فهو لا يعترف بوجود موسى بن عمران ويستدل على نفيه بعدم ذكره في كتب بني اسرائيل ويقول ان نبي الله داود وابنه سليمان وارميا واشعيا جميعا سكتوا عن ذكره واحكام بعضهم مناقض لاحكامه مثلا قول موسى ان الله يعاقب الابناء بظلم الاباء الى الجيل الرابع يخالفه قول حزقيل ان الابناء لا يعاقبون بظلم ابائهم ويقول ان ما يعزى الى موسى من الاحكام هو ما يعزوه الهنود الى نبي يسمى بخوس وجميع ما اثبت لموسى ثابت لبخوس فانه ولد بمصر

والقي في النيل وتربى في جبل ببلاد العرب واوحي اليه بالرسالة الى امة متبربرة وعبر البحر الاحمر بانفلاق البحر له ولم يبتل قدمه واضاءت من جبينه اشعة الانوار الا ان بخوس لما ضرب بعصاه الارض لم تنبع عين ماء كما حصل لموسى في ضربه الحجر بل نبعت عين نبيذ وكانت عصاه ذات حربة مزينة باغصان العنب

وقد زعم علماء اوروبا ان بخوس سابق على تاريخ موسى فيمكن ان كلمة موسى جعلت علامة على امر كان في تلك الازمان كما استعملوا كلمة اوميروس الشاعر اليوناني في الجاهلية للدلالة على بعض الحوادث العظيمة

ويقول ان التوراة كتاب مؤلف وليس من الكتب السماوية متكئا في ذلك على قول ماري اغسطس انه لا يصح بقاء الاصحاحات الثلاثة الاولى على ما هي عليه وعلى قول اوريجين بان ما في التوراة مما يتعلق بخلق العالم امور خرافية بدليل ان كلمة براه العبرانية وهي بفتح الباء وشد الراء وسكون الهاء معناه رتب ونظم ولا يرتب احد شيئا وينظمه الاّ اذا كان موجودا من قبل فاستعمال هذه الكلمة في خلق العالم تقتضي ان مادة العالم كانت موجودة من قبل فتكون ازلية ويكون ملازمها وهو الزمان والمكان ازليين وحيث انهم قالوا ان المادة ذات حياة فتكون الروح ايضا ازلية لانها هي التي بها الحياة وبما ان المادة هي النور والحرارة والقوة والحركة والجذب والقوانين والتوازن فتكون الحياة والمادة كالشيء

الواحد لا يمكن انفصالها وجميع ذلك يخالف ما في التوراة

ويقول ايضاً ان الستة الايام التي ذكرها موسى لخلق العالم هي الازمان الستة التي ذكرتها الهنود والجنبهارات الستة التي ذكرها زروطشت للمجوس وان الفردوس الذي كان فيه ادم اثماً هو بستان الهيسبريو الذي كان يخفره التنين وان ادم هو اديمو المذكور في ايزورويدام وان نوحا واهله هو الملك دوقاليون وزوجه بيرا وهكذا

ويبالغ في القدح في التوراة ويقول انها مبتدأة بقتل الاخ اخاه واغتصاب الفروج وتزوج ذوي الارحام بل البهائم وذكر النهب والسلب والقتل والزناء ونحو ذلك من الامور التي لا يليق ان تنسب لمن اصطفاه الله تعالى وجعله امينا على اسراره الالهية فانظر الى اجتراء هذا الرجل على نبي الله موسى عليه السلام وعلى كتاب الله التوراة مع ان التوراة هي اساس الانجيل فما يقال فيها يقال في الانجيل ولذلك يقولون أن رسالة عيسى قد نبهت عليها اليهود من قبل بقولهم انه سيجيء اليهم مسيح وكلمة مسيح ككلمة مسايس ومسايس لقب شريف باللغة العبرانية وقد لقب به اشعيا النبي كيروس ملك الفرس كما في الاصحاح الخامس والخمسين ولقب به ايضاً حزقيال النبي ملك مدينة صور ومع ذلك فلم يلتفت هذا الرجل الى شي من ذلك فقال ما قال ومن اعتقادات النصارى ايضاً ان الله تجسد في صورة عيسى وانه هو الاله وليسوا اول قائل

بهذا التجسد بل قيل قبلهم في جزاكا وبرهمة بقدس الهند وقيل في ويشنو انه تجسد خمسمائة مرة وقال سكان البيرو من امريكا ان الاله الحق تجسد في الههم منكر قباق بن الشمس وكذا سكان الاسكنديناوة قالوا ان الله تجسد في الههم اوْدين وان ولادة عيسى منْ بكر بتول بنفخ روح القدس يشبه قول اهل الصين ان الههم فوهْيه ولدته بنت بكر حملت به من اشعة الشمس وكان المصريون يعتقدون ان اوزريس ولد من غير مباشرة احد لامه

وقول النصارى ان عيسى مات ودفن ثم بعث ورفع الى السماء حيًّا قال بمثله قبلهم المصريون في اوزريس المصري وفي اورونيس من اهالي فنيكية وفي اوتيس من اهالي فريجية الاَّ انهم لم يقولوا برفعه الى السماء وكما قيل ان اودين كان قد بذل نفسه وقتلها باختياره بان رمى نفسه في نار عظيمة حتى احترق وفعل ذلك لاجل نجاة عباده واحزابه فكذلك النصارى يعتقدون ان حلول الاله في عيسى وارساله وموته انما كان لاجل فداء الجنس البشري وتخليصه من ذنب الخطيئة الاولى خطيئة ادم وحواء واما ادريس النبي فقد رفع الى السماء بدون ان تكفر عنه الخطيئة ولا شك ان هذا خرافة ولهم كلام كثير من هذا القبيل يطول شرحه ولا فائدة في ذكره

فقال الشيخ نعوذ بالله من هذا الضلال الذي لا ينشا مثله

عن عاقل ولكن من يضلل الله فلا هادي له ومن يهدي الله فما له من مضل

قال الانكليزي بل منهم من ينكر جميع الكتب السماوية ويقول انها من تأليف البشر جمع فيها مؤلفوها حوادث القرون الخالية

فقال الشيخ مثل هولاء القوم لا تجوز مجالستهم ولا معاملتهم ولا مخالطتهم فانهم ينكرون الرسل والكتب وينقصون الاله الحق سبحانه فالحمد لله الذي فصلنا عن ذلك الرجل بسلامة

ثم ان العربة وصلت بهم الى المحل فنزل الشيخ ودخل عند الخواجا وقال اريد ان اقف على ما يقول النصارى في نبي الله عيسى بن مريم وفي الاداب النصرانية فقال الخواجا ان اغلب النصارى يقولون ان العلماء الاولين مجمعون على ان شريعة عيسى ليست الاّ متممة لشريعة موسى وموضحة لما اشكل من احكامها حتى قال بعضهم ان عيسى والحواريين كانوا يهودا واستدلوا على ذلك بما نقل عن الحواري بولص انه ختن تلميذه تيموته في مدينة ليسترة وحث الرومانيين على الختان وانه قال لهم ان اليهودي الحق من كان يهوديا باطنا وظاهرًا ويقول الحواري جاك (يعقوب) للحواري بولص كما في الباب التاسع عشر من كتاب اعمال الحواريين فلتعرف جميع الناس انك على شريعة موسى ويقول بولص لغوسطس في الباب الخامس والعشرين من ذلك الكتاب اني لم

يحصل مني ما يخالف شريعة موسى ولا قوانين النصرانية فهذا
اصل دينهم واعتقاد حواريهم ومتقدمي علمائهم فلم يقل احد منهم
بألوهية عيسى ويدل على ذلك ما نقله بعضهم عن ماري بولص
انه قال في الباب الخامس من رسالته الى الرومانيين ان نعمة الله
قد نشرت علينا من الاحسان الموهوب لانسان واحد وهو عيسى
المسيح وقال في الباب الثامن من هذه الرسالة نحن شركاء المسيح
في وراثة احكام الله

وقال في رسالته للقليبيين تخلقوا باخلاق عيسى فانه كان
على صورة الرحمن ولم يطمع قط في مساواته وقال ايضاً لاهل
افسوس في الباب الاول من هذه الرسالة اللهمّ ربنا ورب المسيح
عيسى جد علينا بعقل الحكمة وللعبريين في الباب الثاني انكم قد
صيرتم عيسى اقل من الملك بيسير وكذلك بما قاله اوريبوس
اسقف مدينة قيصرية في الباب الاول من تاريخ امناء دين
النصرانية انه لا يعقل ان الوجود يعني وجود الله يحل في صورة
بشرية ونحو ذلك من العبارات المنسوبة الى الحواريين واتباعهم
المؤمنين فلم يقل احد منهم بألوهية عيسى ولا خطرت له على بال

فقال الشيخ هذا هو كلام العقلا ولعل هولاء هم الذين مدحهم
الله في كتابه وشبه بهم نبينا بعض اصحابه

واما تهوّدهم في الدين فلعلهم ارادوا الرجوع الى الحق واليقين
وهذا شي لا محذور فيه اذا عرفوا معناها وعملوا بمقتضاها

فقال الانكليزي الاَّ انهم بعد موته بثلثمائة وخمس وعشرين سنة شمسية دبّ فيهم القول بألوهيته وذلك ان قسطنطين الاول جمع روساء الديانة في مدينة نيقه وحملهم على القول بها فاتبعوه الا ثمانية عشر اسقفا فلم يتحولوا عن اعتقادهم ثم بعد ذلك باربع وثلثين سنة اجتمع روساء الديانة ثانيًا بمدينة ريميني وتكلموا في هذا المعني فاتفق منهم اربعمائة اسقف على عدم الوهيته واتبعهم الباقون ومكثوا على ذلك نحو اثنتين وعشرين سنة ثم اجتمعوا مرة ثالثة بمدينة القسطنطينية سنة ٣٣١ ميلادية فاستقر راي الجمعية على الوهيته وبقي الحال على ذلك الى اليوم

فقال الشيخ هذه امور لا نستطيع الموافقة عليها ولا شك انه كان وقتئذٍ لروٴساء النصارى آراب ومقاصد في تقريرها ولو تاملوا اوفى تامل لرأوا الادلة ناطقة بان الله تعالى واحد احد يستحيل عليه الحلول والاتحاد والتعدد ومشابهة خلقه في امر من الامور وهو حي لا يموت وقادر لا يعجز لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وانما عيسى عبد من عبيده خلقه بقدرته التامة من غير اب كما خلق آدم من تراب من غير اب ولا ام وافاض عليه النبوة والرسالة وقد انطقه الله بالحق وهو في المهد فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا وجعلني مباركا اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا ويوم القيامة يتبرأ منهم ومن مقالتهم هذه فيقول سبحانك ما يكون لي ان

اقول ما ليس لي بحق ثم يقول ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم

وبالجملة فبطلان هذا المذهب واضح للعيان ومستغنٍ عن البيان وما احسن ما قاله البوصيري في همزيته تبكيتا لهم وتنكيتا عليهم فمن ذلك قوله

أاله مركب ما سمعنا * باله لذاته اجزاء

الى ان قال

أهو الراكب الحمار فياو يح الهٍ يمسه الاعياء

فقال الانكليزي وما الذي ترونه يا معشر المسلمين في امر عيسى

فقال الشيخ ان الذي يلزم اعتقاده في امر عيسى على ما اخبر به نبينا الصادق المصدوق في القرآن والسنة انه ابن مريم بنت عمران واسم امها حنة فكانت حنة لا تلد فنذرت ان رزقها الله ولدًا جعلته من سدنَةِ بيت المقدس اي خدمته فحملت حنة ومات زوجها عمران وهي حامل فولدت بنتًا وسمتها مريم ومعناها بلغتهم العابدة ثم حملتها واتت بها الى بيت المقدس ووضعتها عند الاحبار وقالت لهم دونكم هذه المنذورة فتنافسوا في تربيتها لان اباها وهو عمران كان من ائمتهم فقال زكريا انا احق بها لان خالتها زوجتي فاخذها وضمها الى ايساع خالتها فلما كبرت مريم افرد لها زكريا غرفة فلما بلغت من العمر ثلاثة عشر سنة ارسل الله تعالى جبريل

فنفخ في جيبها فحبلت بعيسى وولدته ببيت لحم وهي قرية قريبة من القدس سنة ٣٠٤ من تاريخ الاسكندر فلما جاءت مريم الى قومها بعيسى تحمله قالوا لها لقد جئت شيئًا فريا واخذوا ليرجموها فتكلم عيسى وهو في المهد فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا وجعلني مباركا اينما كنت فلما سمعوا كلامه تركوها ثم ان مريم اخذت عيسى وسارت به الى مصر فاقامت به أثنتي عشرة سنة ثم عادت به الى الشام ونزلا الناصرة وبها سميت النصارى فاقام بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة فاوحى الله تعالى اليه فسار الى الاردن وهو النهر المسمى بنهر الشريعة فاغتسل فيه وابتدأ بالدعوة وهو ابن ثلاثين سنة لستة ايام خلت من كانون الثاني لمضي ثلاث وثلاثين وثلثمائة للاسكندر

واظهر عيسى عليه السلام المعجزات فاحيى ميتا يقال له عازر بعد ثلاثة ايام من موته وجعل من الطين طائرًا قيل هو الخفاش وابرأ الاكمه والابرص وكان يمشي على الماء ويلبس الصوف والشعر وياكل من نبات الارض وانزل الله عليه المائدة وسبب نزولها ان الحواريين الذين اتبعوه وكانوا اثنى عشر رجلا قالوا له هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء فسأل عيسى ربه عز وجل فانزل عليه سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتها فنزلت وهم ينظرون اليها حتى سقطت بين ايديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة ثم قال لهم

بقي احسنكم عملا يكشف عنها فقال شمعون رأس الحواريين انت اولى بذلك فقام عيسى وتوضأ وصلى وكان عليها منديل فرفعه وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية تسيل دما وعند راسها ملح وعند ذنبها خل وحولها الوان البقول ما خلا الكراث ومعها خمسة ارغفة على واحد زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون ياروح الله أمن طعام الدنيا ام من طعام الاخرة فقال ليس منها ولكنه شي خلقه الله بقدرته فقال الحواريون ياروح الله لو اريتنا من هذه الآية آية اخرى فقال يا سمكة احيي باذن الله فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنت فعادت مشوية ثم رفعت المائدة وقيل مكثت تنزل يوما وتغيب يوما الى اربعين ليلة

فقال الانكليزي ان اليهود يزعمون انهم قتلوه وبعد قتله صلبوه

فقال الشيخ كذبوا والله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه ليزيده شرفا لديه وذلك انه لما اعلمه الله انه سيرفعه اليه دعا الحواريين وصنع لهم طعاما وقال لهم احضروني الليلة فان لي اليكم حاجة فلما اجتمعوا عشاهم وقام بخدمتهم فلما فرغوا من الطعام اخذ يغسل ايديهم ويمسحها بثيابه فتعاظموا ذلك فقال من رد علي شيئا مما اصنعه فليس مني فتركوه

حتى فرغ ثم قال لهم انما فعلت هذا بكم ليكون لكم اسوة بي في خدمة بعضكم بعضا واما حاجتي اليكم فتدعون الله لي ان يؤخر اجلي فلما نصبوا انفسهم للدعاء اخذهم النوم فجعل عيسى يوقظهم ويقول ما تصبرون لي ليلة فقالوا ما ندري ما لنا لقد كنا نسمر فنطيل السمر وما نقدر عليه الليلة فقال يذهب بالراعي وتفترق الغنم وليكفرن بي احدكم قبل ان يصيح الديك وليبيعني احدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني

وكانت اليهود قد جدت في طلبه فذهب رجل من الحواريين اسمه تطليانوس الى فيلاطوس الملقب هيرودوس وكان رئيسا على اليهود اذ ذاك وقال ما تجعلون لي اذا ادللتكم على المسيح فجعلوا له ثلثين درهما فاخذها وذهب بهم ليدلهم عليه فرفع الله عيسى اليه والقى شبهه على الذي دلهم عليه فاخذوه وربطوه وجعلوا يقودونه بحبل ويقولون له انت تزعم انك تحيي الموتى أفلا تخلص نفسك ثم قتلوه وصلبوه

وبين رفع عيسى ومولد النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة وخمس واربعون سنة وعاشت مريم امه نحو ثلاث وخمسين سنة لانها حملت به وهي بنت ثلاث عشرة سنة وعاشت معه ثلثا وثلثين سنة وبقيت بعد رفعه ست سنين أفمن كانت العبودية من صفاته والاكل والشرب من ضروراته يعقل انه اله او يتصور انه ابن الله مع اجماع جميع العقلا على عدم الوهيته واتفاق جمهور الفلاسفة

والحكماء على عبوديته واظن ان ضرر الخلق على العموم انما يأتي لهم من قبل من تصدى من غير استعداد لنشر العلوم ممن قال منهم بحلول الوجود المطلق فيما عداه وبنى على هذا القول الخطاء ما بناه فقال ان الانسان اشرف انواع الحيوان فهو اولى بالحلول واستنتج من ذلك ان الاله اتحد بالصورة البشرية وهو اعتقاد فاسد ورأي عن الصواب حائد لا يقبله عقل ولا يساعده نقل وايضاً لا يلزم على القول بالحلول الذي زعموه بالنسبة لعيسى ان يقال الانسان اله او الاله انسان هذه نتيجة هذا الزعم الغريب الظاهر الفساد لعقلاء العباد

ومن الغريب تقدم الاوروباويين في كثير من الفنون والصنائع مع بقائهم على هذا الاعتقاد الفاسد فلعل المانع لهم من رفضه ما يسمونه بالبوليتيقة فلولاها لم يبقَ له عندهم اثر بالكلية واغرب من هذا كله قدحهم في الاسلام واهله مع عدم معرفتهم بشي منه من اصله اذ لو تاملوا الاشارات القرآنية وما ورد من الآثار النبوية لعثروا بالتمدن الذي يطلبونه وقد حرموه واهتدوا الى ميزان العدل الذي يحاولونه وما اقاموه ولعل الحامل لعلمائهم على استمرار هذا الراي بينهم رغبتهم في بقاء البابا وية التي معناها السلطنة على جميع اهل الارض لانهم يزعمون ان البابا نائب عن الاله الذي يدعونه فاين هذا من دين الاسلام المبني على ان الله واحد في ذاته وفي صفاته وفي افعاله واحد لا من قلة وموجود لا من علة لا يحيط به

مكان ولا يشتمل عليه زمان ليس منفصلا عن شي ولا ينفصل عنه شي ولا يحل في شي وليس مثله شي وهو الخالق لكل شي الغني عن كل شي ارسل محمدًا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون فعم بدعوته المشارق والمغارب ولم يفرق في امره ونهيه بين الاجانب والاقارب لتقوم الحجة وتضح المحجة وليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة فمنهم من اهتدى واجاب ومنهم من ضرب بينه وبين الهداية حجاب ليميز الخبيث من الطيب واهل الجنة من اهل جهنم وكل ذلك لحكم واسرار هو بها اعلم وهكذا كان في كل امة خلت رسول يدعوهم الى الله واعتقاد ان لا اله سواه كما ارشدنا الى ذلك القرآن العظيم المنزل على عبده ورسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم

فقال الانكليزي هل عندكم علم بعدد الانبياء والرسل

فقال الشيخ نعم الآن ما يجب علينا معرفته على التفصيل خمسة وعشرون رسولا وهم المذكورون في التنزيل وجمعهم بعضهم في قوله

حتم على كل ذي التكليف معرفة

بانبياء على التفصيل قد علموا

في تلك حجتنا منهم ثمانية

من بعد عشر ويبقى سبعة وهمُ

ادريس هود شعيب صالح وكذا

ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ومنهم اولو العزم خمسة جمعهم بعضهم في قوله

محمد ابرهيم موسى كليمه

وآدم عيسى هم اولو العزم فاعلم

فعيسى عليه السلام من اولي العزم لصبره على اذى قومه ورئيسهم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه مبين ومصدق لما قبله من كتب الله تعالى

وقد اخترع النصارى اشياء لم يخبرنا عنها كتابنا وذلك كالتعميد الذي تنسبه النصارى الى عيسى بن مريم فما هو وما سببه وما وجه نسبته اليه

فقال الانكليزي التعميد هو الغسل وذلك انهم يغمسون اولادهم في ماء المعمودية يعتقدون تطهيرهم به كالختان لغيرهم ويامرون كل من اراد ان يدخل في دينهم بالاغتسال فيه

واما نسبته الى عيسى فلم يثبت انه عمد احدا في حياته ولا امر احدا به وهذا التعميد وان اشتهرت نسبته اليهم لم يكن خاصا بهم بل كانت الهنود من قبلهم يغتسلون في نهر الكنك وكذلك قدماء المصريين كان كل من اراد منهم ان يتلقى اسرار (ماري متراس) يعمد الى نهر او بئر فيغتسل فيه وليس ذلك اول شي اختلقوه أذ منه قولهم فيمن اذنب انه لا تقبل توبته حتى يعترف

للقسيس بخطيئته اذ لم يثبت ان عيسى الزم احدًا بالاقرار له بذنبه بل هذه عادة جارية من عهد ايزيس احد الهة المصريين وغيره من الهة اليونانيين وكذلك اليهود كانت معتادة على الاعتراف بذنوبهم لاحبارهم

واما الاعتراف بالقضاء والقدر والجنة والنار فاول من تكلم في ذلك سقراط وتبعه افلاطون فقسم الارواح الى طاهرة وغير طاهرة وقسم غير الطاهرة الى ما يمكن تطهيرها بالنار وما لا يمكن تطهيرها اصلا

واما التثليث الذي يقولون به فانه ما اتاهم الاّ من كلام افلاطون التابع فيه لتيمة احد علماء لوتريس ثم سرى منه الى من بعده حتى وصل الى اليهود وهم الذين لقنوه للنصارى وكذلك زي اهل التدين والجثي على الركب ووضع القسيسين ايديهم على رؤس الناس وقرأتهم بعض كلمات للتبرك بها كل ذلك كان موجودا عند قدماء المصريين

ومن جملة دعوى النصارى قولهم ان الحكمة لم يتكلم بها احد قبلهم مع انه قد سبقهم الى الكلام عليها سقراط وكنفوشيوس وانطونين وارسطو ويوسيد وغيرهم وكذلك الفلاسفة الاسطوانيون اي الذين كانوا بالاسطوانة وهي مدرسة زينون الفيلسوف فكل هولا كانوا قبلهم وقد تكلموا بها وحملوا الخلق عليها حتى صناعة تركيب الالفاظ وتاليف الكلام وكان الرومانيون قبلهم يعاقبون على

الزناء وكذلك كان للسياسيين قوانين في عقاب كل من ارتكب ذنبًا او خطيئة او تكلم بما لا ينبغي فكل هولاء كانوا جميعًا في زمن لا يدرون فيه ما النصرانية ولا اهلها وكذلك قولهم بالعفو عن المسيء فانه قد سبقهم اليه ايضًا فيتاغورس وكان قبل المسيح بنحو ستمائة سنة حيث قال ما معناه لا تجتهدوا في الانتقام من اعدائكم بل اجتهدوا في ان تصيروهم من احبابكم وكذلك قولهم لا تفعلوا مع غيركم ما لا تحبون ان يفعل بكم فان زرروطشت قال مثل ذلك وقد كان قبل حرب تروادة بدهر طويل حيث قال افعل مع غيرك ما تحب ان يفعل معك واذا شككت في قبح شي او حسنه فامسك عنه وكذلك قال كنفوشيوس مثل ذلك وكان قبل المسيح بخمسمائة وخمسين سنة وكله ماخوذ من كلام هونغ حيث قال ما معناه انسَ المسيء واسأته ولا تتفكر الا في الطيبات وفعل الخيرات

وقال سينبق اذا اردت ان يكون الله راضيا عنك فكن عادلا وكفى بالمر تعظيما لله ان يتبع اوامره

وقال سليمان عليه السلام اول الحكمة مخافة الله فاذا علمنا ذلك ظهر لنا ان النصرانية لم تأتِ بشي كان معدوما عند من قبلها الا ان عندهم امرين لا افهم سرهما ولم اجد احدا من قدماء المورخين قالهما

فقال الشيخ وما هما فقال انهم ياكلون فطيرًا يسمونه قربانا

ويعتقدون انه لحم المسيح ويشربون شرابا يسمونه اذكاراً يعتقدون انه دمه

فقال الشيخ ان دين النصرانية ليس مذموماً في الاصل بل هو شريعة من شرائع الله تعالى وكذلك دين اليهودية ولما جاء الاسلام نسخ جميع الشرائع ثم ان اكابر النصارى في القديم غيّروا في دينهم وبدلوا وحرفوا فقد عرض له البطلان من جهتين من جهة نسخه بالشريعة المحمدية ومن جهة التغيير والتبديل الذي وقع فيه من علماء الديانة

فقال الانكليزي نعم جرت العادة بان صلاح الامم وفسادها انما يكونان بصلاح الروساء وفسادهم وعندنا روساء الديانة كثيرون ولكل منهم اغراض يريد تحصيلها وترى لهم حثًا شديدا على التبرك بالصليب وتقريب القرابين ونحو ذلك لكن لا يخلو ذلك عن الاغراض

فقال الشيخ اني اراك تتعقبهم في امور كثيرة وذلك من انصافك وشدة نظرك وكان ابن الشيخ مصغيا فقال ما معنى الصليب وما معنى القربان وما الفرق بين الكنيسة والدير ونحو ذلك

فقال الشيخ لقد رأيت في بعض الكتب كثيرًا من عوائدهم وعقائدهم وعرفت معابدهم ومراتب روسائهم فمن ذلك ان اصل تبرك النصارى بالصليب وهو شي ذو خطوط اربعة يجمع اصلها المحور انهم اعتقدوا ان الذي اخذته اليهود وصلبته هو المسيح وان

صلبه كان على شي بهذه الصفة وانهم سقوه الخمر في جنك الخنزير فلما قام حرض على حمل الصليب وان القربان رغيف مستدير عليه صلبان كثيرة يخبز في كل بيت كل يوم احد من الصوم الكبير ويحمل الى الكنيسة فاذا فرغت الصلاة اخذ القسيس بعضه وفرق بعضه فتنصرف به النصارى فيفطرون عليه كل يوم الى الجمعة وهكذا وان من اسماء روسائهم الجاثليق وهو الرئيس بالنسبة الى السلطنة الظاهرة ومنها المطران وهو الفقيه الورع المستصحب للبس الصوف الاسود واصل هذا الترتيب عندهم ان القاريء للانجيل من اول وهلة يقال له شماس فان اتقن حفظه وفهمه صار قسيساً ويدوم على ذلك ما دام عنده زوجة فان ماتت زوجته ولم يتزوج غيرها صار مطرانا وان تزوج غيرها سمي سالخ القسوسية وخرج عن مراتب العلم فان تنزه المطران عن الذفر وما يخرج من الارواح صار بتركا على مذهب الارمن واما الروم واليعاقبة والنسطورية فلا يكون عندهم بتركا الا من تنزه عن النساء وعن اكل الارواح وما يخرج منها من اول عمره الا العسل والسمك لانه خليفة المسيح وطاعة هولاء فرض واما الاسقف والراهب وغيرها فاسماء للمتعبدين خاصة

واما المعابد فالبيعة هي المعبد الصغير غير المرتفع والدير المعبد الكبير الكثير المرافق والمحاريب والكنيسة ما اشتملت على عواميد الاناجيل ولم يرفع بناؤها والصومعة مكان رفيع دقيق الاعلى واسع

الاسفل والقلة مثلها الا انها لا تسع اكثر من واحد والزنار منطقة تشد في الخصر وقت الصلاة مشتملة على صليب اذا شدت كان على السرة ولولا ان كلامنا في ذلك يشبه الفضول مع وجود اهل ملتهم لزدتك كثيرًا من امور دياناتهم

فقال الانكليزي وهل كتب المسلمين اكثر من كتب الفرنج اني لا اظن ذلك فان للفرنج تأليف عديدة في فنون شتى وقد اطلعوا على كثير من كتب المسلمين ومارسوها حتى تفسير القران وصحيح البخاري ومتن خليل وغير ذلك

فقال الشيخ اسرار الكتب لا توخذ الاّ عن اهلها الذين تلقوها مسلسلة واحدًا بعد واحد الى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك ليس حاصلا الاّ في علماء الاسلام الذين استنارت بصائرهم فادركوا معاني الكتب واسرارها نعم قد فرط علماء المسلمين في هذه الازمان في فنون شتى حتى جهلوها واتقنها غيرهم كفن التاريخ والرياضيات ونحو ذلك فلو انهم التفتوا لذلك واتقنوه لانقادت لهم جميع الامم ومعلوم ان العلم على اقسام علم للاخرة وعلم للدنيا وعلم لهما معا فلو اتقنوا جميع العلوم لكان خيرًا لهم ومع ذلك فعلماء الدين هم الممدوحون المثني عليهم في كتب الله تعالى وعلى لسان رسله وكفى العلم واهله شرفا قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقوله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقوله تعالى فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقول النبي صلى الله عليه وسلم مثل

العلماء في الارض كمثل النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر وقوله فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم وقوله ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع وقوله ما آكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه الى هدىً ويرده عن ردىً ولكن للعلم حقوق وآداب لو ذكرت لك بعضها لوقعت في العجب العجاب منها قوله صلى الله عليه وسلم العلماء امناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان او يداخلوا الدنيا وبالجملة فمن اطلع على اخبار المتقدمين وما كتب فيها من حين ظهور هذا الدين وجد ان لا نور لعلم الاّ والقرآن مصباحه ولا مطلب لمعرفة الاّ وهو مفتاحه فهو الذي نشر راية العز على جميع العلوم والمعارف واستظلت بظل لوائه غرائب الفنون واللطائف اذ بظهوره زالت من القلوب الاحن وانقطعت من بين الناس اسباب الفتن لجريانه على قانون مقبول قد تلقته القلوب السليمة بالقبول ومن تتبع احكام الملل وتامل في قوانين الاول وجد ان لا موجب للنزاع على الاطلاق الاّ ما فرق بين اليهود والنصارى من الاختلاف والشقاق فان فرق النصارى متشعبة جداً مع شدة بغض بعضهم لبعض فضلاً عن بغض اليهود لجميع فرق النصارى وبالعكس حتى قالت اليهود ليست النصارى على شي وقالت النصارى ليست اليهود على شي وقد جاء القرآن فيه تبيان كل شي وهدى ورحمة وليس في احكامه اختلاف ولا تناقض

فقال الانكليزي أليس عندكم مذاهب مختلفة كمذهب مالك والشافعي والحنفي والحنبلي والليث والثوري وغير ذلك فضلا عن اختلاف اهل كل مدهب في مسائل مذهبهم

فقال الشيخ كلهم من رسول الله ملتمس ليس بينهم تباين كلي بل احكامهم كفروع الشجرة التي اصلها واحد

فقال الانكليزي فما بال مساجدكم لا تحلونها ولا تزينونها كما تحلى كنائس النصارى وبيع اليهود

فقال الشيخ قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن زخرفة المساجد لئلا تلهي المصلي عن الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى ومع ذلك فهي في غاية الاحترام فلا يدخل فيها احد بالنجاسة ولا القاذورات ولا يتكلم فيها بلغو الحديث ولا يدخلها جنب ولا حائض ولا نفسآ ولا يشهر فيها السلاح ولا ترفع فيها الاصوات ولو بالعلم فهي مع احترامها وتعظيمها لا تليق زخرفتها ولا تشييدها لان المقصود فيها التذلل والخشوع ولذلك ورد ابنوا مساجدكم جمًا يعني بلا شراريف وابنوا مدائنكم مشرفة وكان موضع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قبورًا للمشركين وخربًا ونخلا فامر بالقبور فنبشت وبالخرب فسويت وبالنخل فقطع فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضائده الحجارة وقال اجعلوه كعريش موسى وكانت تصل الايدي الى سقفه ولما ولي عمر ابن الخطاب الخلافة وامر بتجديده قال للقيم على العمارة اكنّ الناس من الشمس والمطر

وإياك ان تحمّر او تصفر فتفتتن الناس فاذا فرغت من العمارة فاجعل فيه القناديل الاّ انه صلى الله عليه وسلم كان يامر بتطييب المساجد وتنظيفها وتجميرها وصيانتها من الروائح الكريهة ويقول ان المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة في النار ويقول جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وصناعكم وبيعكم وشرائكم وخصوماتكم ورفع اصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم ولا تتخذوها سوقا ولا طريقًا ولا تمروا فيها بلحم نيءٍ

فقال الانكليزي اني ارى لجميع كلامك حلاوة وطلاوة ولا يمل من سماعه ولا يسأم من استرجاعه وقد ذكرت جملة من احكام الاسلام كالصلاة والزكاة فهل لك ان تفيدني عنها شيئًا

فقال اما الصلاة فهي قربة ذات احرام وسلام او سلام فقط وهي افضل الاعمال بعد الشهادتين وهي عروس العبادات اي تشبه العرس في اشتمالها على القرآن والدعا والذكر والتسبيح والتحميد والركوع والسجود والخشوع والوقوف بين يدي الله تعالى وغير ذلك من العبادات الكثيرة في عبادة واحدة كما ان العرس يشتمل على اصناف المآكل والالعاب والفرح والزينة والنزاهة ولها شروط صحة وشروط وجوب واركان وسنن وفضائل

واما الزكاة فهي مال مخصوص يؤخذ من مال مخصوص اذا بلغ قدرًا مخصوصا في زمن مخصوص ويصرف في جهات مخصوصة

فقال الانكليزي وما ذلك قال اما المال المخصوص المأخوذ

هو ربع العشر في العين الذهب والفضة والعشر كاملا في الحبوب اذا سقيت بالسيح ونصف العشر ان سقيت بالآلات وشاة واحدة في اربعين شاة الى اخر ما هو مفصل في محله واما المال المخصوص الماخوذ منه فهو العين والحرث والماشية واما القدر المخصوص فهو النصاب وهو عشرون دينارًا في الذهب ومائتا درهم في الفضة وخمسة اوسق في الحبوب الى اخر ما هو مفصل واما الزمن المخصوص فهو الحول او مجئ الساعي في الماشية او طيب الحبوب واما الجهات المخصوصة فهي الاصناف الثمانية المذكورة في الاية انما الصدقات للفقراء الخ وشرعة الزكاة لتطهير الاموال والانفس ولها شروط واركان وآداب يطول شرحها منها انها تخرج من جنس المال المزكى فلا يجزيء جنس عن غيره ولا رديئ عن جيد ولا سقيم عن سليم قال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وقال تعالى يا ايها الذين امنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون

واما الصوم فهو الامساك عما يصل الى الجوف او الرأس من قبيل الفجر الى غروب الشمس وله شروط واركان وآداب ومن فضائله انه يضعف الشهوة ويهذب الخلق ويصفي الباطن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء اي قاطع ولم يجب منه في كل سنة الا شهر واحد وهو شهر رمضان ولا يقوم

صوم غيره مقامه ويحرم عندنا صوم خمسة ايام من كل سنة وهي يوم
عيد الفطر ويوم عيد الاضحى والثلاثة التي بعده وتسمى ايام التشريق
ومن حكمه مشروعية التشبه بالملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام
فينبغي فيه العزلة عن الناس والاشتغال بالقرآن والصلاة والاذكار
ومن ادابه تعجيل الفطر وتأخير السحور ومنها الافطار على وتر من
الرطب او التمر وما احسن ما قيل في ذلك

فطور التمر سنه
رسول الله سنه
ينال الاجر عبد
يحلي منه سنه

ولا ينبغي ان يجعل شهر فكاهة ولعب

واما الحج فهو قصد بيت الله الحرام لاداء فريضة الاسلام ولا
يجب الاَّ مرة واحدة في العمر ومحل وجوبه ما لم يمنع من ذلك
مانع كفقر او انقطاع طريق او مرض او عدم رفيق قال تعالى ولله
على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا

فقال الانكليزي لا يخفى على حضرة الشيخ ان الله لا مكان
له فلم خصت هذه العبادة بهذا المكان دون غيره

فقال الشيخ هكذا اقتضت الحكمة الازلية والارادة الربانية

قال بعضهم

اني اطلعت على البقاع وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وقد روي ان الله تعالى لما اهبط ادم من الجنة قال له اني مهبط معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ويصلى عنده كما يصلى حول عرشي فلما كان زمن الطوفان رفع فكان الانبياء يحجون ولا يعلمون مكانه فلما بوأه الله لابراهيم بناه من خمسة اجبل حراء وثبير ولبنان وجبل الطير وجبل الخير وكما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية وهيهات ان يساوي الخلق بين دار بناؤها لبن التراب والتبين ودار بناؤها لبن العسجد واللجين ففرق بين مدينة اكثر عمارتها الشهوات ومدينة عمارتها الآيات البينات فقد يجد الانسان قلبه في مكان اكثر مما يجده في غيره وذلك ليس للاجرّ والتراب بل للاجر والثواب او مجالسة الاتراب كما قال

اقبّل ارضًا سار فيها جِمالها * فكيف بدارٍ دار فيها جمالها

وقد طاف بهذا البيت مائة واربعة وعشرون الفًا من الانبياء سوى ما لا يعلمه الا الله من الملائكة والاولياء فهو البيت الذي اصطفاه الله على سائر البيوت وله سر الاولية وقد اثنى عليه ذو العزة والجبروت قال تعالى ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدىً للعالمين فيه آيات بينات مقام ابرهيم ومن دخله كان امنًا وقال صلى الله عليه وسلم خير بلدة على وجه الارض

واحبها الى الله مكة الى غير ذلك من الاثار الدالة على فضلها فوالله لولا العوائق الشاغلة لبسطت لك متون اياتها ونشرت عليك فنون دلالاتها وكان قد حان وقت القيام فاستأذن الشيخ وقام وهو يكرر هذا الكلام

يا رحمة الله للعبادِ * اودعك الله في الجهادِ

يا بيت ربي يا نور قلبي * يا قرة العين يا مرادي

يا كعبة الله يا حياتي * يا منهج السعد يا رشادي

المسامرة الخامسة والتسعون

نوادر

ثم دخل مخدعه ونام حتى الصباح فافاق فدخل عليه ابنه فقال له اين كانت غيبتك وفيما انقضت ليلتك قال له كنت مع يعقوب والخواجا الطلياني في غرفة بجواركم فوجدنا بها كثيرًا من رجال ونساء وفيهن صاحبة المنزل وهي التي اخذتني واجلستني بجوارها والذي اخرني الى هذا الوقت اني رأيت بعضهم يحاجي بعضا بمسائل معماة منها ما كنت افهمه ومنها ما لم اتعقل معناه فقال له والده هل بقي منها في ذهنك شي قال نعم من ذلك ان احدهم قال لثلاثة ممن كان هناك لياخذ كل واحد منكم ورقة اي من الاوراق المعدة للهو واللعب بشرط ان لا تزيد نقطها المرسومة عليها عن تسع فاخذ كل واحد ورقة ثم قال لمن اخذ اولا ضعّف عدد

نقط ورقتك ثم اسقط من المجموع واحدا واضرب الباقي في خمسة ثم زد على المجموع خمسة ثم اضف الى الجميع رقم ورقة الشخص الثاني ثم ضعف الحاصل واسقط منه واحدا او اضرب الباقي في خمسة ثم اضف الى الجميع رقم ورقة الشخص الثالث ففعل كما قال ثم قال له فما قدر المجموع فقال كذا فقال حينئذٍ يكون لكل واحد من الثلاثة بقدر عدد النقط الذي كان على ورقته فعجبنا من ذلك فلما رأى الطلياني تعجبي قال لا عجب لان ورقة الاول كان عليها ثلاث نقط وورقة الثاني اربع والثالث سبع فباسقاط واحد من ستة التي هي ضعف الثلاثة صار الباقي خمسة وبضربه في خمسة صار الحاصل خمسة وعشرين وبزيادة خمسة يكون الحاصل ثلاثين وباضافة رقم الثاني عليه وهو اربعة يكون الحاصل اربعة وثلاثين فاذا ضعفته صار ثمانية وستين فاذا اسقطت واحدا بقي سبعة وستون فاذا ضربته في خمسة كان المجموع ثلاثمائة وخمسة وثلاثين وبزيادة خمسة يكون المجموع ثلثمائة واربعين فاذا ضم عليه رقم ورقة الثالث وهو سبعة بلغ ثلثمائة وسبعة واربعين فلو تاملت ذلك لوجدته مركبا من الارقام التي على الاوراق الثلاثة

ومنها ان احدهم مد يده الى الطاولة واخذ ثلاثة اوراق وقال لي اختر في سرك واحدة منها ففعلت ثم وضع الثلاث على الطاولة بعضها فوق بعض واخذ ثلاثا اخرى وعرضها على النساء اللاتي

كن معنا فاختارت احداهن واحدة منها ثم وضع الاوراق الثلاث
بعضها فوق بعض أيضًا بجذاء الثلاث الاول ثم اخذ ثلاثا اخرى
وفعل فيها كما فعل فيما قبلها ثم سألني عن ورقتي في اي صف
هي فاشرت اليه فأخبرني بها ثم سأل كل ست عن ورقتها في
اي صف فاشارت اليه فاخبرها بها من غير ان يخطئ ثم فرق
الثلاث الاولى بعضها بجذاء بعض ثم فرق الثلاث الثانية بجعل
كل ورقة منها على كل ورقة من الثلاث الاولى وكذلك فعل
بالثلاث الثالثة فعجبت لذلك فقال يعقوب لا تعجب فان الورقة
الاولى تكون في الصف الاسفل والورقة الثانية تكون في الصف
الاوسط والورقة الثالثة تكون في الصف الاعلى ثم قال لي يعقوب
واغرب من ذلك اننا لو فرضنا جميع الورق ستًا وثلاثين وقسمناها
ثلاثة اقسام كل واحد منها اثنتا عشرة ورقة وجعلنا ورق كل
قسم متحاذيا ثم قلنا لانسان اختر في نفسك ورقة من اي قسم
اردت واردنا معرفة هذه الورقة من غير ان نسأل عنها لامكن
ذلك من غير صعوبة ثم قام واخذ الورق الذي كان موجودا
وقسمه كما قال ثم قال لي اختر في سرك ورقة فاخترت من الصف
الوسط فجمع ورقه ووضعه بين اوراق الصفين الاخرين بعد جمع
كل منها كذلك ثم اخذ الورقة العلياء وجعلها مبدأ صفٍ ثم
الثانية وجعلها مبدأ صف اخر ثم الثالثة كذلك ثم اخذ الرابعة
فوضعها فوق الاولى والخامسة فوق الثانية ثم السادسة فوق الثالثة

وهكذا حتى جعل الورق ثلاثة اقسام ثم سألني عن الصف الذي فيه الورقة التي اخترتها فاشرت له اليه فجمع ورقه ووضعه بين الصفين ثم وزعه كما فعل في الاول ثم سألني عن الصف الذي هي فيه فاخبرته به فقال حينئذٍ هي في النصف من هذا الصف فكان كما قال

فلما فهم من كان هناك ان ليعقوب دراية بمثل هذه الاحاجي سألوه ان يبدي لهم شيئًا مما عنده منها فابدى لغزًا على دستة الورق التي عددها اثنان وخمسون ورقة وقال لاحدى النساء خذي اي ورقة شئتِ فاخذت ورقة على غير مرأى منه ثم ضم اليه الباقي وبعد برهة بيّن لها العدد الموجود في ورقتها ثم عرض الورق ثانيًا عليهن فاخذت احداهن ورقتين حيث اتفق كما امر ثم قال لها خذي لكل ورقة اوراقا حتى تكمل ارقامها خمسًا وعشرين نقطة يعني أن كانت نقط احدى الورقتين ستا تاخذ تسع عشر ورقة وإن كانت تسعًا تاخذ ست عشر فاخذت كما قال ثم جمع ما بقي من الورق فكان سبعة عشر فقال لها نقط الورقتين سبعة عشر فكان كما قال فدهشوا من حذقه وشدة فطنته خصوصا الشاب الذي كان يلعب اولا حتى انه طلب منه ان يعلمه ما اشكل عليه من احاجيه فاجابه الى ما طلب ثم لما علمنا قيامكم فمنا فدخلت محلنا ومعي يعقوب فاراني من ذلك امورًا كثيرة ووعدني بغيرها فسألته عن الشكل الاول وكيف عرف الرقم

الذي على الورقة التي كانت اخذتها المرأة من غير ان يسألها عنه فقال لي طريقة معرفة ذلك ان تجمع جميع ارقام الورق وتجعل الخادم مثلا منها مقدرًا باحد عشر والبنت باثنى عشر والباباز بثلاثة عشر ثم تجمع رقم الورقة الاولى على الثانية والحاصل على الثالثة فاذا زاد الحاصل على ثلاثة عشر فاسقطها منه واضف الباقي الى رقم الورقة الرابعة فاذا زاد الحاصل على ثلاثة عشر فاسقطها منه كما تقدم ولا يلزم ان تعد رقم الباباز لانه ثلاثة عشر وهكذا الى ان تنتهي الى عدد منه تعلم الورق الناقصة ورقمها مثلا اذا كان الباقي الاخير احد عشر دل على الخادم وان كان اثنى عشر دل على البنت وان كان صفرا دل على الباباز فلو فرض ان عدد الورق كان اثنين وثلثين فطريق معرفتها هي طريق الاثنين وخمسين بعينها لكن الاسقاط يكون عشرة عشرة لا ثلاثة عشر فاذا وصلت الى الورقة الاخيرة تضم على الحاصل اربعة فان كان اقل من عشرة فاطرحه منها فان الباقي يكون عدد رقم الورقة الماخوذة وان كان الباقي اكثر من عشرة فاطرحه من عشرين فيكون الباقي عدد تلك الورقة فان كان الباقي اثنين دل على الخادم وان كان ثلاثة دل على البنت وان كان اربعة دل على الباباز ثم قال لي واذا فرضنا ان احد الحاضرين اخذ ثلاث اوراق واردنا معرفة حاصل اعدادها فطريقة ذلك ان ناخذ دستة ورق من اوراق اللعب يكون عدد ورقها يقبل القسمة اثلاثا

بان تكون ستا وثلثين مثلا ثم تقول للذي اخذ الاوراق الثلاث خذ لكل ورقة قدرًا من الورق يبلغ بالرقم الذي على الورقة احد عشر فاذا فرض ان رقم احدى الورقات التي اخذها تسعة ياخذ لها ورقتين وان الثانية سبعة ياخذ لها اربعا وان الثالثة ستة ياخذ لها خمسا فيكون مجموع الورق المأخوذ في هذا المثال اربعة عشر والباقي اثنين وعشرين وهو جملة ارقام الورقات الثلاث الماخوذة اولا

ولنا في حلها طريقة اخرى وهي ان تقول للذي اخذ الاوراق الثلاث اسقط في سرك رقم كل ورقة من اثنى عشر واجمع البواقي الثلاث ثم نستعلم منه عن الحاصل ونسقطه من عدد ورق اللعب وهو ستة وثلاثون فيكون الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب مثلا اذا كان رقم ورقة تسعة وورقة سبعة وورقة ستة كان باقي الاولى ثلاثة وباقي الثانية خمسة وباقي الثالثة ستة ومجموع هذه البواقي اربعة عشر فاذا اسقطناه من عدد الورق وهو ستة وثلاثون كان الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب ولو كان عدد الورق اكثر من ستة وثلاثين بان كان اثنين وخمسين مثلا واردنا معرفة ارقام الاوراق الثلاث استعملنا عددا اكثر من عشرة واقل من سبعة عشر الذي هو ثلث الاثنين وخمسين بعد الكسر كخمسة عشر ثم نقول للذي اخذ الاوراق الثلاث خذ لكل ورقة ورقا من اوراق اللعب حتى يتم رقم الورقة بالورق الماخوذ خمسة عشر كان بأخذ

في المثال ستة للورقة التي رقمها تسعة وثمانية للتي رقمها سبعة وتسعة للتي رقمها ستة فمجموع الاوراق الماخوذة وهو ستة وثمانية وتسعة ثلاثة وعشرون تضم الى الثلاث المأخوذة اولا فيكون الحاصل ستة وعشرون والباقي ستة وعشرين نطرح منه اربعة فرق ما بين اصل عدد الورق وهو اثنان وخمسون وبين ثلاثة امثال العدد المستعمل وهو خمسة عشر مضافا عليه ثلاثة اي ثمانية واربعون يكون الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب وهناك طريقة عامة اي سواء كان ورق اللعب اثنين وخمسين او ستة وثلاثين وسواء كان في كل من الحالتين كاملا او ناقصاً وسواء كان العدد المستعمل خمسة عشر او ثلاثة عشر او اربعة عشر او ستة عشر وسواء كان عدد الورق المأخوذ ثلاثة او اربعة او غير ذلك

وهي ان تضرب العدد الذي استعملته في عدد الورق الماخوذ وتضيف الى الحاصل عدد الورقات المأخوذة ثم تسقط الحاصل من عدد ورق اللعب المستعمل اي من اثنين وخمسين ان كان عدده مركبًا من اثنين وخمسين ومن ستة وثلثين ان كان مركبًا من ستة وثلثين فيكون الباقي هو العدد اللازم اسقاطه من الورق الذي يكون باقيًا من ورق اللعب وباقي الطرح هو المطلوب مثلاً اذا فرض ان المأخوذ اربع ورقات وان رقم احداها ثلاثة والثانية خمسة والثالثة سبعة والرابعة عشرة وفرض ان العدد المختار احد عشر يضرب احد عشر في اربعة يكون الحاصل اربعة واربعين

يضم عليه اربعة فيصير ثمانية واربعين تطرحه من اثنين وخمسين يكون الباقي اربعة تطرحها من تسعة وعشرين فيكون الباقي خمسة وعشرين وهو مجموع ارقام الاوراق الاربع المأخوذة ورقم تسعة وعشرين السابق هو الورق الذي بقي من ورق اللعب بعد تكميل كل ورقة من الورق الماخوذ احد عشر كما مر لانا ناخذ للاولى ثمانية وللثانية ستة وللثالثة اربعة وللرابعة واحدا ومجموع ذلك تسعة عشر فاذا اضفنا له الاربعة التي اخذت كان الحاصل ثلاثة وعشرين اذا طرحناها من اثنين وخمسين كان الباقي تسعة وعشرين كما ذكرنا

وهناك دقيقتان ينبغي التنبه لها الاولى ما اذا فرض ان ارقام الاوراق الاربع مثلا كانت واحدا وثلاثة واربعة وسبعة وفرض ان العدد المختار اثنى عشر فيلزم على قياس ما مر ان نضرب اثنى عشر في اربعة يكون الحاصل ثمانية واربعين. ونضم عليه اربعة عدد الاوراق يحصل اثنين وخمسين .وهو قدر عدد ورق اللعب فحينئذ يكون الفرق بينهما صفرا ففي هذه الحالة وما ماثلها يكون الورق الباقي بعد المأخوذ هو مجموع ارقام الاوراق الاربع المأخوذة وبيانه انه اذا اخذ للورقة الاولى احدى عشر ورقة لتكميل العدد اثنى عشر واخذ للثانية تسعة وللثالثة ثمانية وللرابعة خمسة ومجموع ذلك ثلاثة وثلاثون فاذا اضيف له اربعة وهو عدد الورق الماخوذ يكون سبعة وثلاثين فاذا طرحنه من عدد الورق الذي هو اثنان

وخمسون فان الباقي يكون خمسة عشر وهو ارقام الورقات الاربع المأخوذة

والثانية ما لو فرضنا ان المأخوذ ثلاث ورقات من ورق عدده ستة وثلاثون وكانت ارقام الثلاث المأخوذة اربعة وسبعة وتسعة والعدد المختار خمسة عشر فعلى قياس ما مر نضرب خمسة عشر في ثلاثة يكون الحاصل خمسة واربعين نضم له ثلاثة يكون ثمانية واربعين وهو اكثر من عدد ورق اللعب ففي هذه الحالة نسقط الاصغر وهو ستة وثلاثون من الاكبر وهو ثمانية واربعون فيكون الباقي اثنى عشر نضيفه الى الورق الباقي بعد المأخوذ فيكون حاصل الجمع هو ارقام الورقات الثلاث المأخوذة ففي هذا المثال لاجل تكميل ارقام كل ورقة خمسة عشر ناخذ للاولى احد عشر وللثانية ثمانية وللثالثة ستة وحاصل الثلاث خمسة وعشرون وباضافة الورقات الثلاث يكون الحاصل ثمانية وعشرين نسقطه من عدد ستة وثلاثين الذي هو ورق اللعب يكون الباقي ثمانية نضيف له الاثنى عشر وهو الفضل بين الستة والثلاثين والثمانية والاربعين فيكون الحاصل عشرين وهو ارقام الاوراق الثلاث

وقد تطرأ دقيقة ثالثة وهي ما لو فرض ان ارقام الورقات الثلاث اثنان وثلاثة واربعة وكان العدد المختار خمسة عشر وعدد الورق ستة وثلاثين ففي هذه الحالة يلزم لاجل تكميل رقم الورقة الاولى ان ناخذ لها ثلاثة عشر وللثانية اثنى عشر وللثالثة احد

عشر ومجموع ذلك ستة وثلاثون يضم له عدد الورقات الثلاث فيكون تسعة وثلاثين وهو اكثر من عدد ورق اللعب بقدر ثلاثة ففي مثل هذه الحالة تسقط ثلاثة من اثنى عشر التي هي الفرق ما بين ثمانية واربعين وستة وثلاثين فيكون الباقي تسعة وهو ارقام الورقات الثلاث وهكذا

فقال الشيخ لا باس بهذه المعاياه لما فيها من توسيع العقل والاعانة على معرفة الحساب ويقرب من ذلك ما سمعته في صغري وهو ما لو فرضنا ان انسانا معه ثلاثة أوعية احدها يسع ثمانية ارطال والثاني خمسة والثالث ثلاثة وكان الكبير مملوا والاثنان الباقيان فارغين واردنا ان نضع نصف ما فيه في الاناء الوسط فيلزم

اولا ان نملاه من الكبير فتكون فيه خمسة وفي الكبير ثلاثة

ثانيًا نملأ الصغير من الوسط فيكون حينئذٍ في الصغير ثلاثة وفي الوسط اثنان وفي الكبير ثلاثة

ثالثًا نضع ما في الاصغر على ما في الاكبر فيكون في الوسط اثنان وفي الكبير ستة والصغير فارغا

رابعًا نضع ما في الوسط في الاصغر فيكون فيه اثنان وفي الكبير ستة والوسط فارغا

خامسًا نملأ الوسط من الكبير فيبقى فيه واحد والاصغر اثنان والوسط خمسة

سادسا حيث وصلنا لهذا الحد نكمل الاناء الصغير مما في الوسط فيكون فيه ثلاثة وفي الوسط اربعة وفي الكبير واحد فحينئذٍ قد انقسم الزيت كما هو المطلوب

فقال ابن الشيخ لو اردنا بقاء نصف الزيت في الاناء الكبير كيف نفعل

فقال الشيخ نملأ الصغير اولا فيكون فيه ثلاثة وفي الكبير خمسة

ثانيًا تنقل ما في الصغير في الوسط فيكون فيه ثلاثة وفي الكبير خمسة

ثالثًا نملأ الصغير من الكبير فيكون فيه ثلاثة وفي الوسط ثلاثة وفي الكبير اثنان

رابعًا نكمل الوسط من الصغير فيكون فيه واحد وفي الوسط خمسة وفي الكبير اثنان

خامسًا نضع ما في الوسط في الكبير فيكون في الصغير واحد وفي الكبير سبعة

سادسا نضع ما في الصغير في الوسط فيكون فيه واحد وفي الكبير سبعة والصغير فارغا

سابعًا نملأ الصغير من الكبير فيكون في الصغير ثلاثة وفي الوسط واحد وفي الكبير اربعة وهو المراد

ثم قال لو فرضنا ان الاناء الكبير يسع اثنى عشر رطلا واردنا

انفصال النصف لنعطيه لبعض الناس ولم يكن معنا الا اناآن اخران احدهما يسع سبعة ارطال والاخر خمسة فطريق العمل هكذا

نملأ الصغير اولا فيكون فيه خمسة ويبقى في الكبير سبعة

ثانيًا ننقل ما في الصغير الى الوسط فيكون فيه خمسة وفي الكبير سبعة

ثالثًا نملأ الوسط من الكبير فيكون في الصغير خمسة وفي الوسط خمسة وفي الكبير اثنان

رابعًا نكمل الوسط من الصغير فيكون في الصغير ثلاثة وفي الوسط سبعة وفي الكبير اثنان

خامسًا نضع ما في الوسط في الكبير وما في الصغير في الوسط فيكون في الوسط ثلاثة وفي الكبير تسعة

سادسًا نملأ الصغير من الكبير والوسط من الصغير فحينئذٍ يكون في الصغير واحد وفي الوسط سبعة وفي الكبير اربعة

سابعًا ننقل ما في الوسط للكبير وما في الصغير للوسط فيكون في الوسط واحذ وفي الكبير احد عشر

ثامنًا نكمل الوسط من الكبير فيكون في الوسط ستة وفي الكبير ستة وهو المطلوب

وبيناهما على هذا الحال واذا يعقوب قد دخل فقال له الشيخ اني اتبعت طريقتك ونهجت محجك وان لم ابلغ في ذلك درجتك وقد القيت على ولدي بعض امثال تقرب مما كنتما فيه

هذه الليلة وحكى له مسألة تقسيم الزيت في الاواني الثلاثة

فقال يعقوب هذه المسألة مثل ما اذا كان المراد تقسيم واحد وعشرين برميلا ثلثها مملو من المائع وثلثها فارغ والثلث الثالث على النصف على ثلاثة كل واحد ثلثها وثلث المائع

فقال ابن الشيخ ياخذ كل واحد سبعة فقال يعقوب هذا ظاهر اذا كانت البراميل كلها فارغة او مملوة او متساوية المقادير وفرض المسألة ليس شيئًا من ذلك ولو تاملت لعرفت حلها لان عدد سبعة يمكن تحليله الى ثلاثة اعداد وهي اثنان واثنان وثلاثة وكل من هذه الاعداد تحل به المسئلة فنعطي مثلا للاول اثنين مملوئين واثنين فارغين وثلاثة على النصف

وللثاني اثنين مملوين واثنين فارغين وثلاثة على النصف

وللثالث ثلاثة مملوة وثلاثة فارغة وواحدًا منصفا وبهذه الكيفية يكون مع كل واحد من الثلاثة قدر ما مع الاخر من البراميل والمائع

ويمكن حلها بطريق اخر وهو ان يعطى للاول ثلاثة ملانة وثلاثة فارغة وواحد على النصف وللثانى ثلاثة ملانة وثلاثة فارغة وواحد على النصف

وللثالث واحد مملو وواحد فارغ وخمسة على النصف ففي هذه الطريقة ايضًا اخذ كل منهم الثلث في كل من المظروف والظروف

ثم لاجل حل كل ما يشبه هذه المسألة يلزم ان يكون خارج قسمة عدد البراميل على عدد الاشخاص عدداً صحيحاً فلو لم يكن كذلك لم تتاتَ القسمة كما لو طلب تقسيم واحد وعشرين برميلا على اربعة فهذا لا يمكن بخلاف تقسيم اربعة وعشرين برميلا على اربعة فلا شك في امكانه فان خارج القسمة ستة فالذي يلزم هو تحليل خارج القسمة الى اجزاء صحيحة بقدر عدد الاشخاص ففي هذا المثال الاجزاء التي يتحلل اليها ستة هي ٢ ٢ وواحد وواحد ولا يكون غير ذلك فعلى هذا يعطى للاول اثنان مملوأن واثنان فارغان وواحد على النصف وواحد على النصف

وللثالث واحد مملوء وواحد فارغ واثنان على النصف واثنان على النصف

وللرابع واحد مملو وواحد فارغ واثنان على النصف واثنان على النصف فلو فرضناها سبعة وعشرين برميلا ثلثها مملوء وثلثها على النصف وثلثها فارغ واريد تقسيمها علي ثلاثة فالقسمة ممكنة لان خارج القسمة تسعة ولها ثلاث كيفيات

الاولى يعطى لكل منهم تسعة براميل كل ثلاثة من نوع

الثانية يعطى للاول واحد مملوء وواحد فارغ وسبعة على النصف

وللثاني اربعة مملوة واربعة فارغة وواحد على النصف

وللثالث اربعة مملوة واربعة فارغة وواحد على النصف
فياخذ بهذه الطريقة كل واحد تسعة

والكيفية الثالثة ان يعطى للاول اثنان مملوأن واثنان فارغان
وخمسة على النصف

وللثاني ثلاثة مملوة وثلاثة فارغة وثلاثة على النصف

وللثالث ٤ مملوة واربعة فارغة وواحد على النصف

وفي هذه المسائل وما يشبهها كتب طويلة وجدت منها كتاباً
مع احد اصحابي المراكبية الذين كنت اجتمع بهم عند الفراغ من
الشغل فكان يغنيني عن مفاكهة الانيس ومحادثة الجليس وقد
حفظت منها اشياء كثيرة وان شاء الله في وقت غير هذا نتكلم فيما
يحضرني منها فاني جئت الان مرسولاً من قبل الخواجا لا علمكم انه
ينتظر حضرتكم حيث تكون الساعة ١٠ افرنجية وها انا متوجه نحو
المدينة لقضاء بعض اشغال امرني بها

المسامرة السادسة والتسعون

التدبن

ثم استأذن الشيخ وتوجه فجلس الشيخ مع ولده برهة ثم نظر في الساعة فوجد الوقت قد أزف فقام متوجها اليه ومعه ولده فلما دخلا عليه قام لهما واجلسهما وآنسهما ثم قال للشيخ ان رئيس الجمعية ارسل لي تذكرة يسلم فيها على حضرتكم ويخبرني انه في انتظارنا جميعا في الساعة المعينة بيننا وبينه ويقول ان من شأن الكرام اذا وعدوا وفوا بوعدهم وقد بقي من الوقت ثلاث ساعات فلما علم ابن الشيخ امتداد الوقت استأذن والده في الذهاب مع يعقوب فاذن له فقال ابن الشيخ ليعقوب الى اين تريد فقال ان حضرة الخواجا اشترى بالامس نظارة معظمة من احد المخازن وكان بها بعض نقص فامر صاحبها باتمامه وقد اعطاني ثمنها لاحضرها له

فقال ابن الشيخ اتذكر حين كنا بالمركب وحضرة الخواجا يذكر لنا بعض كلمات تتعلق بالنظارات وكان قد وعد ان يشرحها لنا اذا وصلنا الى باريس فعسى ان يكون مشتراها لانجاز ما وعد فقال يعقوب ربما كان كذلك ولكنه لم يخبرني عن شي

وبينا هما سائران اذا باناس كثيرين يدخلون كنيسة وعلى بابها عربات كثيرة وخدم وكلهم في زي غير معتاد وعلى ابواب الكنيسة عساكر بملابس رسمية وجميع آلات الموسيقى تضرب فسأل ابن الشيخ يعقوب فقال له هذا معبد النصارى الذي يتعبدون فيه فقال وما المناسبة بين محل العبادة الدينية والملاهي الدنيوية

فقال يعقوب الباريزيون دأبهم الحظوظ النفسية فلا يفارقونها سواء كانوا في المعابد او التياترات او غيرها فتجد في كل منهما ما في الثاني من الحظوظ ولا فرق بينهما الاَّ بكثرة ما يوقد في الكنيسة من الشموع وما يحرق فيها من البخور ولكثرة النساء والشبان وميلهم الى الاصوات الحسان لا يكون للقسيس شهرة بينهم الا بحسن الملابس ونضارة الزي وكثرة الوشي وما اشبه ذلك

فقال ابن الشيخ لو دخلنا لعلمنا حقيقة الحال

فقال يعقوب لا باس في دخولنا فدخلا فوجدا ازدحامًا عظيمًا من رجال ونساء ولكل هيئاة مخصوصة به وقت عبادته فترى الرجال وقوفًا روسهم مكشوفة والنساء جاثيات على ركبهن وبايديهن كتب صغيرة منقوشة وعلى جلودها رسوم بماء الذهب

والحين وعلى النساء والرجال افخر الملابس واما القسيسون فلا يراهم الداخل الا على بعد وكانت ملابسهم اذ ذاك مكللة بالذهب ومزركشة بالقصب ومزينة برسوم يقضى لها بالعجب وكان كبيرهم يتكلم بصوت عال رخيم كانه خطيب على مرتفع عظيم الاّ ان ابن الشيخ لم يعرف كيفية هذه العبادة لانه لم يسبق له في هذا الامر عادة فعجب كل العجب وطرب مما رآه غاية الطرب سيما واصوات الآلات والالحان كانت تختلط باصوات القسيسين فسأل يعقوب عما يقوله القسيس وعن اللسان الذي يتكلم به فقال يعقوب اما قوله ففي الامور الدينية مثل الصلوات والادعية واما لسانه فاللاتيني

فقال ابن الشيخ اذًا لا علم للحاضرين بما يقول فقال نعم ولكنها رسوم يؤدونها واوصيك ان تكتفي الان بالنظر والمشاهدة

وكان ابن الشيخ وقت دخوله لم ينزع عمامته فرآه احد الخدم فامره بان يكشف راسه ففعل ولم يتوقف ولكنه عجب من اعتنائهم بكشف الروْس مع عدم خلعهم النعال ورأى كلابًا كثيرة مع اربابها داخل المعبد ولا انكار على احد من احد فزاد عجبه من ذلك ورأى جميع حائط الكنيسة من الداخل مكسوا بالجوخ الاسود والشموع موقودة في جميع اماكنها ثم التفت ابن الشيخ فرأى ميتًا قد حضروا به وقدامه عدد كثير من القسيسين والرهبان لابسين الملابس الرسمية فوضعوه وجعلوا يطوفون حوله

ثم اخذ ابن الشيخ بيد يعقوب وخرجا من الكنيسة وقد رأى يعقوب ان ابن الشيخ تأثر من تلك المناظر فسأله عن السبب فقال يسوءني ان ارى المعابد على غير ما وضعت له فانظر الى مساجدنا وقارن بيننا فيها وبين الافرنج في كنائسهم تجد فرقا عظيمًا فان اجتماع المسلمين في المساجد عندنا ان كان للصلاة على الجنازة لم يفعلوا الاَّ ما يعود نفعه على الميت من الصلاة عليه والاستغفار له سواء كان الميت غنيًا او فقيرًا صغيرًا او كبيرًا وان كان لاداء فريضة كانوا على غاية من الخضوع والخشوع ولذلك يطلب من الانسان قبل شروعه في الصلاة طهارة بدنه وثوبه والتوجه الى ربه بقالبه وقلبه والتخلي عن الاخلاق الردية والتحلي بالاخلاق المرضية

فقال يعقوب قد كان امر الدين قبل الان بعدة قرون عند جميع الامم من اهم الامور وكانت اماكن العبادة اكثر احترامًا واعتبارا من جميع الاماكن وبعض من يجهل سر ذلك يزعم ان الاديان انما كانت معظمة في الزمن السابق لجهل الامم اذ ذاك بحال امر الديانة ويقول ان رقاب الخلق كانت بايدي القسيسين يتصرفون فيها تصرف السادات في عبيدهم واما الان فقد استغنى الناس عن ذلك لعلمهم بثمرات التمدن وصار كل انسان في غنية عنهم ويمكنه الاهتداء بنفسه الى ما فيه صلاح له وليس احد ملزما باتباع دين دون اخر فله اختيار اي دين شاء وله ان لا يتدين بدين

اصلا فمن هذا وامثاله تغيرت عقيدة الناس فصار حال اغلب بقاع اوروبا كما ترى من قلة التدين

وحال الكنيسة في الموتى يختلف باختلاف الناس فالغني تعقد له محافل مثل ما رأيت وذلك على حسب ما يصرف من النقود

واما الفقير فربما لا يفعل له شي من ذلك اصلا ومع ذلك فلو تاملت جميع هولاء الناس بعد خروجهم من الكنيسة وتفقدت احوالهم لوجدتها مخالفة لامور الديانة بالكلية فان البنت تقول لامها مثلا فلانة كانت في زي كذا وفلانة في زي كذا او فلانة اجادت الغناء اكثر من فلانة وكسوة سيدي القسيس كانت كذا وكذا ورأيت سيدي القسيس فلانا يتكلم مع فلانة سرًّا او علانية وهلم جرًّا ولا تكاد تسمع في ذلك اليوم الا الكلام في قدر ما احرق من الشموع والبخور وكسوة الكنيسة وما اعطي للقسس وما زخرفت به خشبة الميت ومن مشى خلفه او امامه من الاعيان والامراء ونحو ذلك وقل ان تسمع احدًا يذكر اسم من قبضت روحه او من قبضها واذا سمع ذلك لا يكون الا من امرأة عجوز منهم

ولما وصلوا الى الحانوت الذي قصده يعقوب تلقاها صاحب الحانوت وامرهما بكرسيين واجلسهما ثم قال ان الصندوق قد تم من مدة وكنت عازما على ارساله لحضرة الخواجا لظني انك لا تتاخر عن الميعاد الا لعذر

فقال يعقوب انه بعثني في الوقت الذي عينته له وانما تأخرت لان ابن الشيخ رأى في طريقنا جنازة فاحب ان يدخل الكنيسة ليعرف العوائد الجارية هنا في الجنازات فمكثنا بها حتى علم عوائدهم في موتاهم فهذا هو الذي اخرني عن الحضور في الوقت المعين

فقال صاحب الحانوت اظن ان القسيسين احتفلوا بهذه الجنازة فاني سمعت انه صرف للكنيسة نحو ثلاثين الف فرنك وانه اجتمع في الجنازة جم غفير وكنت تهيأت للذهاب لانظر ما هناك فمنعني مانع وهو اني كنت في جهة سراي الملك ثم قال وماذا قال صاحبك المصري فيما رأى وهل تشييع الجنازات في بلده كما رآه في بلادنا ففهم ابن الشيخ كلامه ولكنه هاب ان يكلمه باللغة الفرنساوية خوفا من العثرة فيها

فقال ليعقوب بالعربية قل له ان عوائد المسلمين في ذلك ليست كعوائدكم فان المسلمين اذا مات منهم احد وكان مشهورًا بشيء من مناقب الصالحين لا يلتفت لما له بل يجتمع لجنازته كل من سمع بموته وان لم يكن من اهله ولا من ذوي قرابته فاعتبار الميت عندنا وعدم اعتباره بعد مماته تابع لما كان يعمله من خير او شر في حياته فان كان كثير الاحسان سليم القلب طاهر اللسان متعودا على فعل الخير دائم السعي في نفع الغير محبا للمساكين والفقراء مؤديا ما اوجبه الله عليه في السراء والضراء حزن لموته

الاجانب ورثوه اكثر من اقاربه الذين ورثوه وان كان بخلاف
ذلك في حياته لاقى ما يسوءه ويسوء اقاربه بعد وفاته فقد يكون
الشخص عندنا فقير الحال لا وارث له ولا مال ويجتمع في جنازته
من الرجال والنساء ما يضيق عنه الفضا ويصلون عليه ويمشون
خلفه وبين يديه يستغفرون له ويعددون محاسنه الى ان يدفنوه
فاذا فرغوا من دفنه عزوا اقاربه ان كان له اقارب والا عزى
بعضهم بعضًا ثم يرجعون الى منزل الميت ان كان له منزل يليق
بالعزاء والا فالى محل يليق به ويبذل اهل الثروة والمروءة ما في
وسعهم من الخدمة ورفع الكلف عن اقارب الميت ويعملون له
الختمات والسبح ونحو ذلك من العوائد التي يعود نفعها على الميت
كاطعام الطعام وغير ذلك الى ثلاثة ايام او اكثر على حسب
فضائل الميت قلة وكثرة كل ذلك واقارب الميت لا شغل لهم الا
مقابلة الواردين وتشييع الصادرين واما اذا كان الميت بخلاف
ذلك فلا يعبأ احد بجنازته ولا يعلم كيف ولا متى صار الى حفرته
ولو كان غنيا متمولا ذا ثروة وعلى كل حال لا يجب في تركة الميت
ولا على ورثته سوى غسله وتكفينه والصلاة عليه ومواراته في تربته
الا ان كان اوصى في حياته ببعض خيرات تعمل له بعد مماته

ومن الاحكام الدينية انه اذا مات الميت منا وخلف ولدًا
قاصرًا او حملا في بطن امه حرم علينا استعمال شيء من مخلفاته ولو
فرشا او آنية حتى شرب الماء الى ان تقسم التركة وتبين الانصباء

وهنا وقف ابن الشيخ عن الكلام فترجم يعقوب مقاله ثم قال لصاحب الخان ان الخواجا في انتظارنا فهات الصندوق فناوله اياه فانصرفا به يجدان في السير الى ان وصلا فوجدا الشيخ وصاحبه في انتظارهما فقال الخواجا ليعقوب ما اخرك الى هذا الوقت واخذ يلومه ويعنفه واراه خلقا لم يكن من قبل فيه يعرفه وكان من عادة يعقوب ان لا يكتم عنهم شيئاً من خبره فذكر لهم ما كان من امر الكنيسة ورغبة ابن الشيخ في دخولها فكف عن لومه ثم التفت الى ابن الشيخ فرأى على وجهه علامات الخجل فقال لا بأس عليكما حيث كان في تاخركما فائدة

(انتهى الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع)

فهرس

الجزء الثالث
من كتاب
علَم الدين

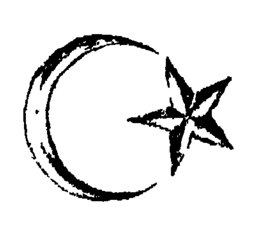






الجزء الرابع





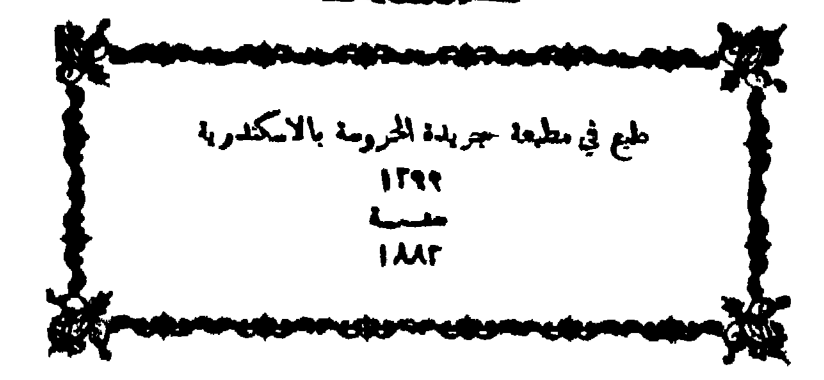
علم الدين

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية

الجزء الرابع



طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢





بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة السابعة والتسعون

الجمعية المشرقية

ثم ان الخواجا فتح الصندوق واطلع على ما فيه ثم اقفله وقال لابن الشيخ وعدتك بنظارة ونحن بالمركب فهـا هي فخذها واحفظها وهيئ نفسك فانك متوجه معنا فاخذها ووضعها في غرفته وغير ثيابه ورجع وكانت العربة حاضرة فركبوا جميعًا الى المدرسة المشرقية ليلقي الشيخ فيها درسا فساروا قليلا فوجدوا رئيس الجمعية على بابها فتلقاهم وحياهم واخذ بيد الشيخ بغاية ما يليق من التعظيم والوقار وما ينبغي من الاحترام والاعتبار وكان على الشيخ يومئذٍ حلّة مصرية مما يلبسه العلماء فشخصت العيون اليه وكان لا يمر

باحد الا قام له ونظر اليه وتامله وما زال ذلك الرئيس آخذًا
بيد الشيخ الى ان ادخله محل الدرس فوجد به جمعا لا يشق له
غبار وجميع الطلبة في الانتظار فلما قدم عليهم قاموا جميعا تعظيما
له واجلالا ونلقوه بما يليق بمثله فشق الشيخ صف الحلقة ودخل معه
الرئيس والخواجا وابنه حتى اجلسوه على كرسي قد هيئ له في وسط
الحلقة فكن الشيخ وحده مرتفعا على جميع الحاضرين فاطرق راسه
مليا خاشعا لله تعالى ولما جلس الجميع واستقر كل في مكانه افتتح
الشيخ الدرس فقال بعد التعوذ والبسملة نحمدك اللهم على ما اوليتنا
من النعم التي لا تعد والمنن التي لا تحد خلقت الارض والسماوات
واسكنت فيها انواع المخلوقات الفرد الصمد لا شريك لك في الملك
يا مدبر الفلك ومجري الفلك انت الاول الاخر الباطن الظاهر
فاليك المرجع والمستند وعليك التوكل والمعتمد اللهم وفقنا لما
يرضيك يا رحيم واهدنا الصراط المستقيم اما بعد فقد سالني حضرة
الرئيس المعظم والاستاذ المفخم ان اشرح بعض مسائل علمية وفنون
ازهرية عقلية ونقلية فلم تسعني مخالفته بل وجبت عليّ طاعته
ومحالفته مع اني اعلم من نفسي العجز عن الخوض في هذا المشرع
وعدم القدرة على ان احوم حول هذا المرتع فارجوكم ايها السادة
الاساتذة والاحبار الجهابذة ان تغضوا الطرف عن الهفوات وتصفحوا
عما يقع من الزلات فان من الواضح الغني عن البيان ان الانسان
محل النسيان كما قيل

وما سمي الانسان الا لنسيه

ولا القلب الا انه يتقلبُ

واسئل الجميع ان ينظروا الى الفقير بعين الرضى والقبول في كل ما يفعل او يقول فقد قيل

وعين الرضى عن كل عيب كليلةٌ

كما ان عين السخط تبدي المساويا

والله تعالى يوفقني واياكم الى اقوم طريق ويهدينا معالم التحقيق بجاه سيدنا محمد خير الانام عليه وعلى سائر الانبياء افضل الصلاة والسلام ثم قال اعلموا ان الله تعالى لما خلق الانسان علمه البيان فخلق آدم وعلمه الاسماء كلها وكان يتكلم بالسريانية فالسريانية هي اول اللغات ثم نوّع اللغات الى انواع فجعل افصحها وافضلها اللغة العربية فنريد التكلم في طرف مما يتعلق بها فنقول ان اول من تكلم باللغة العربية نبي الله اسماعيل بن نبي الله ابرهيم الخليل عليهما السلام ثم ما زالت تتسع جيلا بعد جيل الى ان صارت لا يحيط بها من ائمة اللغة الا القليل وقد طلبتم مني لحسن ظنكم بي ان املي عليكم منها بعض دروس تكون لغياهب غوامضها كالشموس فما وجدت اقرب من الدواوين التي تشتمل على ما كانت تستعمله العرب في تغزلاتهم وما كانوا يقولونه في حلولهم وتنقلاتهم ورأيت من احسن ما صنف في هذا المعنى ديوان حامل لواء الشعراء وامام كل شاعر فوق الغبراء وهو امرء القيس المشهور الذي ورد فيه الاثر

المأثور واسمه جندح بن حجر بن عمرو وجندح بضم اوله وثالثه وسكون ثانيه على وزن قنفذ ومعناه في الاصل رملة طيبة تنبت الوانًا وامه فاطمة بنت ربيعة اخت كليب ومهلهل وامرء القيس لقبه وكنيته ابو وهب وابو الحارث ويلقب ايضا بذي القروح لقوله في بعض قصائده

ويدلت قرحا داميًا بعد صحة

لعل منايانا تحولنَ ابؤسا

ويلقب ايضا بالذائد لقوله في بعض قصائده

(اذود القوافيَ عني ذيادا)

ومعنى امرئ القيس في الاصل رجل الشدة لان القيس في اللغة الشدة وقيل ان القيس كان اسما لصنم فنسب اليه ولهذا كان الاصمعي يكره ان يروي قوله الاتي

عقرت بعيري يا امرء القيس فانزلِ

فكان يقول يا امرء الله وكان ابوه حجر طرده في صغره من اجل عنيزة التي كان يتشبب بها فلما طرده صار يتقلب في احياء العرب ويتبع صعاليكهم وهم اللصوص وكان ابوه ملكا على بني اسد فعسفهم عسفا شديدا فتمالأوا على قتله فقتلوه فلما بلغه قتل ابيه وكان يشرب الخمر قال اليوم خمر وغدا امر ضيعني صغيرًا وحملني ثقل الثار كبيرا وقام في اخذ ثار ابيه في خبر طويل سنتكلم عليه اذا دعا الحال اليه وما زال في طلب ثار ابيه الى ان وصل

انقرة فطعن في ابطه فنزل هناك بجانب جبل يقال له عسيب وتفرق عنه اصحابه وكان بجانب الجبل قبر لبعض بنات الملوك وفيها يقول

اجارتنا ان الخطوب تنوبُ * واني مقيم ما اقام عسيبُ
اجارتنا انا غريبان ههنا * وكل غريب للغريب نسيبُ
فان تصليني تسعدي بمودتي * وان تقطعيني فالغريب غريبُ

فلما مات دفن بجانبها وكان اخر ما تكلم به (رب طعنة مثعنجرة وخطبة مستحضرة وجفنة مدعثرة وقصيدة محبرة تبقى غداً بانقرة (المثعنجرة) في الاصل الجفنة التي يسيل ودكها فشبه الطعنة بالجفنة التي يسيل منها الودك وهو الدهن والجفنة القصعة الصغيرة والمدعثرة المكسورة والمحبرة المحسنة وانقرة بفتح الهمزة وسكون النون وكسر القاف معرب انكوريه وهي عمودية التي مات بها امرء القيس ثم شرع يلقي عليهم من حفظه ويتأنق في تعبيره ولفظه ويجمل ويوضح ويكني ويصرح ويطنب فلا يمل ويوجز فلا يخل وكان من جملة ما القاه عليهم عند الكلام على قول امريء القيس

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقط اللوا بين الدخول فحوملِ

ان قال ان الالف في قفا يحتمل ان تكون للتثنية لان العادة ان اعوان الرجل في الغالب اثنان راعي ابله وراعي غنمه

وكذلك الرفقة ادنى ما تكون ثلاثة ويحتمل ان يكون الخطاب لواحد وانما جرى خطاب الاثنين على الواحد لمرور السنتهم عليه كقوله

فان تزجراني يا ابن عفان ازدجر

وان ترعياني احمِ عرضا ممنعا

وان تكون مبدلة من نون التوكيد والاصل قفن فابدلها ألفا في الوصل قياسا على ابدالها في الوقف ويحتمل ان المراد تكرير الامر مرتين والاصل قف قف فالحق الالف امارة دالة على ان المراد ذلك كما قالوه في قوله تعالى حكاية عن اهل النار قال رب ارجعون ان المراد منه ارجعني ارجعني ارجعني ثلاثا فجعلت الواو علامة مشعرة بان المعنى تكرير الفعل مرارًا والدخول بفتح الدال اسم مكان وهو مفرد ولفظ بين يقتضي الاشتراك فلا يدخل الا على مثنى او مجموع كقولك المال بينهما والدار بين الاخوة وكقوله

شوقي اليك نفى لديك هجوعي

فارقتني فاقام بين ضلوعي

فان وقع بعدها مفرد فلابد من العطف عليه بحرف مشرك وهو الواو نحو المال بين زيد وعمرو وقد وقع بعدها هنا مفرد وهو الدخول وعطف عليه بالفاء ثم اجاب بان الدخول اسم واقع على عدة امكنة فهي وان دخلت على مفرد لفظا فهي داخلة على متعدد معنى فلذلك عطف عليه بالفاء الموضوعة للتعقيب لا

للاشتراك فقال له بعض من بالمجلس اذا اشترطنا في لفظة بين
ان لا تدخل الا على متعدد فما تصنع في قول القرآن في صفة
المنافقين مذبذبين بين ذلك فان لفظ ذا لا يشار به الا الى مفرد

فقال له الشيخ لو دققت النظر لوجدت الجواب واضحًا وذلك
ان اسم الاشارة وان كان مفردا لفظا لكنه متعدد معنى لانه ادى
تأدية شيئين وناب مناب لفظين وقد كشف سبحانه هذا التأويل
بقوله بعد لا الى هولاء ولا الى هولاء وكان تقدير الكلام في الآية
بين ذينك الفريقين ونظيره لفظة احد في قوله تعالى لا نفرق بين
احد من رسله فان هذه اللفظة وان كانت مفردة الاّ انها
تستغرق الجنس الواقع على المفرد والمثنى والجمع ومما يدل على ان
اسم الاشارة هنا نائب عن شيئين نيابته في باب ظن عن المفعولين
نحو ظننت ذلك فتلخص من هذا ان بين لا يقع بعدها الا متعدد
اوما يوءدي تأدية المتعدد فقال له اخر اذا كان كذلك فحينئذٍ
لا يصح ان يقال المال بين زيد وبين عمرو

فقال الشيخ وهو كذلك بل الصواب في مثله حذف بين
الثانية كقوله تعالى يخرج من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا
للشاربين

فقال ذلك السائل فما تقول في قوله تعالى حكاية عن قول
فرعون لموسى فاجعل بيننا وبينك موعدًا لا نخلفه فان بين الثانية
مضافة لضمير المخاطب وهو مفرد وقول موسى لشعيب ذلك بيني

وبينك ايما الاجلين قضيت فلا عدوان عليّ وقوله هذا فراق بيني وبينك فان بين في الموضعين مضافة لمفرد الاول ضمير المتكلم والثاني ضمير المخاطب فلمَ جاز ذلك ولم يجز ان يقال المال بين زيد وبين اخيه فقال الفرق بين الموضعين ان المعطوف في الايات قد عطف على المضمر المجرور وقد شرط جمهور النحويين في العطف عليه تكرير الجار فيقولون مررت بك وبزيد ولا يجيزون مررت بك وزيد ولهذا لحنوا من جر الارحام في قوله تعالى واتقوا الله الذي تسألون به والارحام عطفا على الضمير المجرور حتى قال بعضهم لو اني صليت خلف امام فقرأ بها لقطعت صلاتي وبعضهم وجه الجرّ بان الواو للقسم فيكون الباري سبحانه قد اقسم بالارحام تنويها بفضلها وتنبيها على تاكد حقها ووجوب رعايتها ثم سمع الشيخ رجلا من وسط الحلقة يقول

وبينما المرء في الاحياء مغتبط

اذ صار في الرمس تعفوه الاعاصيرُ

كانه يعرض بالاعتراض على الشيخ في اشتراطه في لفظ بين ان تضاف الى متعدد

فقال الشيخ ليس ببدع ان يتغير حكم كلمة بتغيير ما تضم اليه لان التركيب يزيل الاشياء عن اصولها ويحيلها عن اوضاعها ألا ترى ان ربّ الجارّة لا يليها الا الاسم كقولك رُبَّ اخ لم تلده امك فاذا اتصلت بها ما غيرت حكمها ووليها الفعل كقوله تعالى ربما

يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وكذلك لم الجازمة فانها حرف
فاذا زيد عليها ما وهي حرف ايضاً صارت اسماً في بعض المواطن
بمعنى حين ونظير ذلك في الافعال قلّ وطال فانهما فعلان. لا
يستغنيان عن الفاعل كما هو حكم جميع الافعال فان كل فعل
لا بد له من فاعل فلا يلي الافعال الا الاسماء لفظاً او تقديراً
وهذان الفعلان لما دخلت عليهما ما الزائدة وتركبت معهما استغنيا
عن الفاعل وجاز ان يليهما الفعل نحو قولك طال ما زرتك وقلّ
ما هجرتك وكذلك لهم اشياء تختلف اسماؤها باختلاف اوصافها فانهم
لا يقولون للقدح كأس الاّ اذا كان فيه شراب ولا للبئر ركية الاّ
اذا كان فيها ماء ولا للدلو سجل الا اذا كان فيه ماء ولو قل ولا
يقال لهُ ذنوب الا اذا كان ملآنا ولا يقال للبستان حديقة الا اذا
كان عليه حائط ولا للاناء كوز الا اذا كانت عليه عروة والا
فهو كوب ولا للمجلس نادٍ الا وفيه اهله ولا للمرأة ظعينة الا وهي
في الهودج ولا للستر خدرٌ الا اذا اشتمل على امرأة ولا للقدح سهم
الا اذا كان فيه نصل وريش ولا للسرب نفق الا اذا كان نافذاً
ولا للخيط سمط الا اذا كان فيه نظم ولا لماء الفم رضاب الا ما
دام في الفم ولا لما يتخذ لتقديم الطعام عليه مائدة الا اذا كان عليه
الطعام والا فهو خوان ومثل ذلك كثير في كلامهم وهذا من اسرار
اللغة العربية التي لم يطلع عليها الا من تتبع مواقع استعمالهم وتضلع
من موارد كلامهم

ثم قال له اخر لماذا لقبوا امرء القيس بذي القروح وبالذائد مع ان له كلاماً كثيراً غيرها

فقال الشيخ لا بدع في ذلك فان الانسان قد ينسب الى ما اخترعه وقد ينسب الشاعر نفسه الى بعض كلامه ومن ذلك قول دعبل الخزاعي انا ابن قولي

لا تعجبي يا سلم من رجل * لعب المشيب برأسه فبكى

وقول ابي تميم انا ابن قولي

نقل فوادك حيث شئت من الهوى

ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى

وحنينه ابداً لاول منزل

وقول محمد بن وهيب انا ابن قولي

ما لمن تمت محاسنه * ان يعادي طرف من رمقا

لك ان تبدي لنا حسنا * ولنا ان نعمل الحدقا

فقال له اخر وكان له اطلاع على دواوين الشعراء اظن ان دعبلا سرق معنى بيته السابق يعني قوله لا تعجبي الخ من قول مسلم بن الوليد

مستعبر يبكي على دمنة * ورأسه يضحك منه المشيب

فقال له الشيخ نعم الا ان دعبلا جاء به اجود فصار احق به منه وقد تفنن الشعراء من بعده في نظم هذا المعنى فمنه قول بعضهم

تبسم الشيب بذقن الفتى * يوجب سح الدمع من جفنه

حسب الفتى بعد الصبا ذلة * ان يضحك الشيب على ذقنه

ولما علم الشيخ ان لهم بفن البديع بعض المام قال وفي هذه الابيات عند علماء البديع من الجناس ايهام التضاد وهو الجمع بين معنيين غير متقابلين بلفظين يوهمان ذلك وذلك لان المراد من ضحك المشيب وتبسمه ظهوره وهو بهذا المعنى لا يقابل البكاء ولا سح الدمع وانما يقابله بلفظه فلذلك سمي بايهام التضاد وكلما كثر عدد المتقابلات كان الكلام ابلغ فقد تكون المقابلة بين شيئين كالابيات المتقدمة وقد تكون بين ثلاثة كقوله

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا

واقبح الكفر والافلاس بالرجل

وكقوله

فلا الجود يفني المال والجدّ مقبل

ولا البخل يبقي المال والجد مدبرٌ

وقد تكون بين اربعة كقوله

قابلتهم بالرضى والبشر منشرحا

ولوا غضابا فيا حزني لغيظهم

وقد تكون بين خمسة وخمسة كقوله

ازورهم وسواد الليل يشفع لي

وانثني وبياض الصبح يغري بي

وكقوله

راحت تحب دجى شباب مظلم

وغدت تعاف ضحى مشيبٍ نيرِ

وقد تكون بين ستة وستة كقوله

على رأس عبد تاج عزٍ يزينه

وفي رجل حرٍ قيد ذل يشينه

فقال له بعض القوم نسمع ان هذه القصيدة وهي قفا نبكِ الخ يقال لها احدى المعلقات السبع فما المعلقات وما سبب تسميتها بذلك

فقال الشيخ كانت العرب في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في اقصى الارض فلا يعبأ به ولا ينشده احد حتى يأتي به مكة فيعرضه على اندية قريش فان استحسنوه روي عنه وكان فخرًا لقائله وان لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به .فكانت العرب في الجاهلية تجتمع في كل عام بمكة وتعرض اشعارها على هذا الحي من قريش واول شعر علق على الكعبة شعر امرىء القيس هذا فعلقه على ركن من اركانها ايام الموسم حتى نظر اليه اهل الموسم فتبعه الشعراء وعلقوا قصائدهم من بعده ولما كانت ايام بني امية اختار بعض امرائهم منها سبعًا فسميت المعلقات السبع فهذه احداها وهي من البحر الطويل وعدتها ثمانون بيتًا الا بيتا والثانية لطرفة ابن العبد وهي من الطويل ايضًا ومطلعها

ربه اطلال ببرقة ثهمدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ
وقوفًا بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك اسىً وتجلدِ

وهي مائة بيت وبيتان

والثالثة لزهير بن ابي سلمى المزني وهي من الطويل ومطلعها

أمن ام اوفى دمنة لم تكلمِ بحومانة الدرّاج فالمتثلمِ
ودار لها بالرقمتين كانها مراجيع وشم في نواشر معصمِ

وهي اثنان وستون بيتا

والرابعة للبيد ابن ربيعة العامري من الكامل ومطلعها

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى سهمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها

وهي سبعة وثمانون بيتًا

والخامسة لعمرو بن كلثوم من الوافر ومطلعها

الا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

وهي مائة بيت وواحد

والسادسة لعنترة بن شداد من الكامل ومطلعها

هل غادر الشعراء من متردمِ ام هل عرفت الدار بعد توهمِ
يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي

وهي خمسة وسبعون بيتًا

والسابعة للحارث بن حلذة اليشكري من الخفيف ومطلعها

اذنتنا ببينها اسماء   رب ثاو يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شمآ   ء فادنى ديارها الخلصاء

وهي ثمانون بيتاً

وكان سبب انشاء امرئ القيس لقصيدته هذه انه كان يعشق عنيزة ابنة شرحبيل وكان لا يحظى بلقائها ووصالها فانتظر ظعن الحي وتخلف عن الرجال حتى اذا ظعنت النسآ فسبقهنَ الى الغدير المسمى دارة جلجل واستخفى هناك اذ علم انهن اذا وردنَ هذا الماء اغتسلن فيه فلما وردت عنيزة والعذارى اللواتي كنّ معها ونضونَ ثيابهن وشرعن في الماء ظهر امرؤ القيس وجمع ثيابهنّ وجلس عليها فلما رأينه اكبرنَ هذا الامر وشق ذلك عليهن وناشدنَه ان يخلي سبيلهن فحلف ان لا يدفع اليهنّ ثيابهن الا بعد ان يخرجن اليه عواري فخاصمنه زمناً طويلاً من النهار فأبى الابرار قسمه فخرجت اليه اوقحهنّ فرمى بثيابها اليها ثم تتابعن حتى بقيت عنيزة واقسمت عليه فقال لها يا ابنة الكرام لا بد لك من ان تفعلي مثل ما فعلن فخرجت اليه فرآها مقبلة ومدبرة فلما لبسنَ ثيابهنّ اخذن في عذلِهِ وقلنَ له قد جوعتنا واخرتنا عن الحيّ فقال لهنّ لو عقرت راحلتي لكنّ أتأكلنَ فقلن نعم فعقر راحلته ونحرها وجمعت الاماء الحطب وجعلنَ يشتوينَ اللحم ويأكلنَ الى ان شبعنَ وكان معه ركوة خمر فسقاهن منها فلما ارتحلن اقتسمن امتعته فبقي هو فقال لعنيزة يا ابنة الكرام لا بد لك

من ان تحمليني والحت عليها صواحبها ان تحمله على مقدم هودجها فحملته فجعل يدخل رأسه في الهودج ويقبلها وهو يشير الى ذلك كله في قصيدته ومع علو منزلة امرئ القيس في البلاغة وشهادة الاولين والاخرين له بذلك فهو قائد الشعرآ الى النار يوم القيامة لان ابا مرة اغراه على قبائح صارت سنة عنه وصار قدوة فيها وان كان من اهل الفترة وقد قال الله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً فتعذيبه من بين اهل الفترة لحكم يعلمها الباري سبحانـــه

واستمر الشيخ يتحفهم ببحثه الى ان جاء الوقت المقدر للقيام وكاد من كثرة ما القى عليهم ان يخرج عن المقام وقد بهرت عقولهم جلالته وملأت قلوبهم مهابته لرقة تعبيره ودقة تقريره واتساع فهمه وغزارة علمه فلما ختم الدرس وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم قام اليه صاحبه الانكليزي ورئيس الجمعية ونائبه ووضعوا ايديهم في يديه ومشوا ومعظم اهل المجلس حافون بهِ الى ان وصلوا محلاً قد اعد للاستراحة فخصوا الشيخ بصدر المجلس وكان قد بقي في نفس بعض الطلبة بعض مسائل هاب ان يسأل عنها في اثناء الدرس فلما شربوا القهوة قال قد ذكرت لنا ليها الاستاذ ان العرب كانوا في ابتداء امرهم لا يلتفت الى نظمهم ونثرهم الا بعد شهادة قريش لهم فمن قريش وما قدر ما حازوه من فنون الادب حتى اذعن لهم جميع العرب .

فقال الشيخ قد سألت عمن علا صيتهم وشاع وانتشر فخرهم في البقاع خلاصة ولد قحطان وصفوة سلالة عدنان ومن بلسانهم نزل القران قوم كانت البلاغة شعارهم والفصاحة دثارهم حازوا الفضائل تفصيلاً وجملا واحتسبوها نهلا وعللا قوم قد تباعدوا عن عنعنة تميم وتلتلة بهرآء وكشكشة ربيعة وكسكسة بكر وطمطانية حمير وغمغمة قضاعة فقال ما ذاك ايها الحبر لقد زدتني تشوقًا لبيانك وتطلعا لتبيانك

فقال اما عنعنة تميم فانهم يبدلون من الهمزة عينًا ومنه قوله

اعن توسمت من خرقاء منزلة

مـاء الصبابة من عينيك مسجومُ

يريد أئن توسمت

واما كشكشة ربيعة فانهم يبدلون كاف المخاطبة شينًا فيقولون ما بش وما لش بريدون ما بك وما لك ومن ذلك قوله

فعيناش عيناها وجيدش جيدها

ولكن عظم الساق منش دقيقُ

ومنهم من يقلب الباء ميما والميم باء اذا كانا في اول الاسم فيقولون في نحو بكر وبحر وبدر مكر ومحر ومدر وفي نحو مسجد ومعبد بسجد وبعبد ومن ذلك ما يحكى عن ابي عثمان المازني وكان يتكلم بتلك اللغة قال دخلت على الواثق فقال لي ممن الرجل فقلت من مازن فقال من اي الموازن مازن تميم ام قيس ام ربيعة

فقلت له من مازن ربيعة فكلمني بلغة قومي وقال لي بسمك وكان اسم الشيخ بكر قال فكرهت ان اجيبه بلغة قومي كراهة ان اواجهه بالمكر فقلت له بكر يا امير المؤمنين ففطن لما قصدته وكان من الفطنة بمكان ومن فطنته ما حكي انه كان بحضرته جارية تغنّيه قول القائل

أظلوم ان مصابكم رجلا اهدى السلام تحية ظلمُ

فاختلف من بالحضرة في رجل فمنهم من نصبه على انه اسم انَّ ومنهم من رفعه على انه خبرها والجارية مصرة على ان شيخها ابا عثمان المازني لقنها اياه بالنصب فسأله عنه فقال الوجه النصب فقال ولمَ ذلك فقال لان مصابكم مصدر بمعنى اصابتكم فعارضه بعض من بالمجلس فقال له المازني هو بمنزلة قولك ان ضربك زيداً ظلم فرجلا مفعول مصابكم والدليل عليه ان الكلام معلق الى ان تقول ظلم فيتم الكلام فاستحسن الواثق الجواب وامر للمازني بالف دينار واما كسكسة بكر فانهم يزيدون على كاف المؤنثة سينًا عند الوقف ليبينوا حركة الكاف فيقولون للمرأة مررت بكس واكرمتكس

واما غمغمة قضاعة فصوت لا يفهم تقطيع حروفه

واما طمطمانية حمير فهي ما في لغتهم من الكلمات المستنكرة فمنهم من يجعل اداة التعريف ام بابدال اللام ميما فيقولون طاب ام شراب يريدون طاب الشراب ومنه ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم لما ساله سائل وكان حميريًا امن امبرّامصيام في ام

سفر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم وكان يكلم كل قوم بلغتهم ليس من امبرّامصيام في امسفر واما تلتلة بهرآء فانهم يكسرون حرف المضارعة فيقولون انت تِعلم بكسر التاء ونحن نِعلم بكسر النون وهو يِعلم بكسر الياء

ثم قام في المجلس سائل فقال للشيخ ولمَ سميت قريش قريشاً فقال لهُ لان القرش في اللغة يطلق على دابة من دواب البحر تغلب ولا تُغلب فسمي احد اجدادهم قريشاً تشبيهاً بتلك الدابة وكل من كان ينتهي نسبه اليه يسمى قرشياً

وقد اختلف المؤرخون في ذلك الجد الذي لقب بقريش فقيل هو فهربن مالك بن النضر وقيل هو النضر بن كنانة كما قال صاحب السيرة

اما قريش فالاصح فهرُ جماعها والاكثرون النضرُ

فقال السائل وحيث كان هذا الجد عظيما فلمَ صغر اسمه فقال الشيخ تصغيره ليس للتحقير بل للتعظيم على حد قول القائل

ما قلت حبيبيّ من التحقيرِ

بل يعظم اسم الشيء بالتصغيرِ

فقال السائل وهل ورد عن العرب التصغير لغير التحقير قال نعم من سنن العرب تصغير الشيء اما لتحقيره كقولهم في رجل رجيل وفي دار دويرة واما لتكبيره وتهويله كقول لبيد

وكل اناس سوف تدخل بينهم

دويهية تصفر منهـــا الانامل

واما لتنقيصه كما يقال لم يبقَ من بيت المال الا دُنَيْنيرات واما لتقريبه كـقول امرئ القيس يصف فرسه بطول الذيل

وانت اذا استدبرته سدّ فرجه

بضافٍ فويق الارض ليس باعزل

اي بذيل طويل فضاف صفة لموصوف محذوف وكقولك أزورك بُعيد العيد وجاءني فلان قبيل الظهر لان التصغير في الظروف بمعنى التقريب

واما لاكرامه والشفقة عليه كقولك يابنيّ ويااخيّ وكقول لقمان لابنه وهو يعظه يابنيّ لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم

واما لتشريفه وتعظيمه كما هنا وكفى اولئك القوم شرفًا على سائر الانام قول نبينا عليه الصلاة والسلام ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشًا من كنانة واصطفاني من قريش فانا خيار من خيار من خيار فقال لهُ كيف يحفظ نسبهم الى اسماعيل وقد مضى لهُ من الزمن اجيال فقال لهُ ان العرب عمومًا من عادتهم المحافظة على انسابهم فكيف نسب من كان منهم سيد العالمين وصفوة الله من الخلق اجمعين فهو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة

بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن نذار بن معد بن عدنان بن اد بن ادد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حم بن قيذار ابن اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام لكن النسب الصحيح تفصيلاً ينتهي الى عدنان وهو الجد المتم عشرين وما زاد على ذلك الى اسماعيل فلم يرد فيه حديث صحيح وقد جمع بعضهم اباءه صلى الله عليه وسلم في بيتين من الشعر على طريق الرمز الى كل اب باول حرف من حروف كلماتها وهما

علقت شفيعاً هال عقلي قرائنه
كتاب مبين كسب لبي غرائبه

فدى معشر نفسي كرام خبيرة   مدا الفهم مذ نيل مجد عواقبه

فالعين في علقت اشارة الى ابيه عبدالله والشين في شفيعاً اشارة الى جده شيبة الحمد وهو عبد المطلب والهاء في هال اشارة لهاشم وهكذا

وكان من عادة الشيخ اذا فتح له باب في الكلام يطنب فيه ولا يخرج منه حتى يستوفيه فلذلك قال وكان اسماعيل حين اسكنه ابرهيم بمكة كما هو مذكور في القرآن وجد بها قبائل من جرهم بن قحطان وهم العرب العاربة فلما كبر اسماعيل تزوج منهم امرأة فولد له منها اثنى عشر ولداً ذكرا فقيل لهم ولذريتهم العرب المستعربة وانما قيل لهم ذلك لان لغة اسماعيل كانت عبرانية فلما تزوج من جرهم تكلم بالعربية فمعنى المستعربة اي المكتسبة للعربية

بخلاف العاربة فمعناه المتأصلة في العربية وكان قبل جرهم بن قحطان عرب يقال لهم طسم وجديس وكانت مساكنهم باليمامة من جزيرة العرب ولكنهم انقرضوا عن اخرهم ولم يبق لهم اثر ولم ينقل عنهم بعد ذلك خبر وذلك ان الملك كان في طسم فاستمروا على ذلك مدة من الزمن حتى انتقل الملك الى رجل منهم غشوم ظلوم جعل سنته ان لا تزف عروس بكر من جديس الى بعلها حتى يدخل هو عليها فأنفت جديس من ذلك ودبروا في قتله ودفنوا سيوفهم في الرمل وعملوا له ولخواصه طعامًا دعوه اليه فلما حضر في خواصه من طسم عمدت جديس الى سيوفهم فقتلوا الملك ومن لحقوه من خواصه فهرب رجل من طسم الى تبع ملك اليمن وشكا اليه ما فعلته جديس بملكهم واستنصر به فسار ملك اليمن الى جديس واوقع بهم حتى افناهم عن اخرهم فلم يبقَ لطسم ولا لجديس بعد ذلك ذكر فلذلك سميت العرب البائدة ولذلك جعل المؤرخون العرب ثلاثة اقسام بائدة وعاربة ومستعربة فالبائدة هم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم وهم عادٌ وثمود وجرهم الاولى وكانت على عهد عاد

فلما اطنب الشيخ في وصف العرب ونسبتهم وتفضيل عنصرهم ولغتهم قال له بعضهم ايها الاستاذ قد اجمع اهل الملل واصحاب النحل من المتاخرين والمتقدمين على ان القران عربي مع اننا نجد

فيه الفاظا منها ما هو فارسي وما هو سرياني وما هو عبراني وما هو باللغة الحبشية وما هو بالعجمية كالارائك في قوله تعالى على الارائك ينظرون فانها حبشية ومعناها السرُر وكالجبت فانه اسم للشيطان او الساحر وهي حبشية ايضًا ومعناها بها كذلك وكالدري فان معناه المضيء وهي حبشية ايضا ومعناها بها كذلك وكالاباريق فانها فارسية ومعناها طريق الماء او صبه على هينة ونحو سرادق فانها سريانية ايضا واصلها سرادر ومعناها الدهليز او سرا برده ومعناها ستر الدار ونحو حصب في قوله تعالى للكفار انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم فانها زنجية ومعناها حطب ونحو سري في قوله تعالى لمريم قد جعل ربك تحتك سريا فانها زنجية ومعناها النهر ونحو غساق فانها تركية بل طمارية ومعناها البارد المنتن ونحو الفوم فانها عبرية ومعناها الحنطة ونحو القسطاس فانها روميه ومعناها الميزان او العدل ونحو اليم في قوله تعالى لام موسى فاذا خفت عليه فالقيه في اليم فانه سرياني ومعناه البحر وهكذا فما من لغة الا ونجد منها في القرآن الفاظًا

فقال الشيخ لا يخفى ان لغة العرب متسعة جدا حتى قال بعض ائمتنا انه لا يحيط بها الا نبي ومع ذلك فلا مانع من وجود بعض كلمات في القرآن بغير لغة العرب وقد ورد في الخبر الصحيح ان في القران من كل لسان على انها الفاظ محصورة يمكن عدها وهذا لا يخرج القران عن كونهِ عربيًا فان وجود كلمات

يسيرة غير عربية في خلال كلام عربي لا يخرجه عن كونه عربياً
ألا ترى ان القصيدة او الرسالة الفارسية مثلاً لا تخرج عن كونها
فارسية بوجود لفظ او بعض الفاظ فيها غير فارسية ولعل حكمة
وقوع مثل هذه الكلمات في القران وان كان كل كتاب انما
نزل بلغة القوم الذين انزل عليهم انه حوى علوم الاولين
والاخرين ونبأ كل شيء ومن لازم ذلك ان يكون فيه الاشارة
الى انواع اللغات والالسنة لتتم احاطته بكل شيء وايضا فان
النبي صلى الله عليه وسلم مرسل الى سائر الامم فلا بد ان يكون
في كتابه طرف من لغة كل قوم وان كان اصله بلغة قومه
فاختير له من كل لغة اعذبها واخفها واكثرها استعمالاً للعرب
وبعد ذلك كله فلا مانع من كون هذه الكلمات كانت في الاصل
غير عربية ثم وقعت للعرب قبل نزول القرآن فعربتها بالسنتها
وحولتها عن الفاظها الاصلية الى لغتها فصارت عربية ثم نزل
القرآن وقد اختلطت هذه الكلمات بكلامهم فما نزل القران الا
بلغتهم فقال السائل قد وقع في كلامك ذكر الشعار والدثار
والعلل والنهل فما معنى ذلك فقال الشيخ الشعار هو الثوب الذي
يلي جسد الانسان لانه ملاصق لشعره والدثار الثوب الذي لا
يلي الجسد بل يلبس فوق الشعار والنهل الشرب الاول للابل
والعلل الشرب الثاني لان الابل تشرب مرتين في العرضة
الواحدة الاولى نهل والثانية علل وهذه الالفاظ من جملة الفاظ

مزدوجة من كلام العرب منها الهياط والمياط والعطيط والاطيط والحي واللي والمانح والمائح والسانح والبارح ومنها شذر ومذر والشاطح والباطح والصادح والصائح وشاع وذاع وعزوبز والعجر والبجر والطارف والتليد والصادر والوارد والهمزة واللمزة والقصم والفصم والخضم والقضم والثامور والجامور وكظ وبظ والعامر والغامر والهدير والهرير والفرح والمرح وحيص وبيص والعج والثج الى غير ذلك فعجب السائل من كمال استحضار الشيخ وقال لولا خوفي من ملالك لسألت عن كل ما يخطر ببالي مما سبقت الاشارة اليه فقال الشيخ اني لا امل من ذلك بل هو عين البغية فقال قد عبرت عن ابليس اللعين فيما مضى بأبي مرة فهل له ابن يسمى مرة فقال الشيخ هذه كنيته ولا يلزم ان يكون له ولد يسمى بذلك بل يحتمل ويحتمل لان العرب عندهم في الاعلام اسم ولقب وكنية فالاسم ما وضع على الشيء اولاً واللقب ما اشعر بمدح كزين العابدين او ذم كانف الناقة والكنية ما صدرت بأب او ام كابي الفضل وام الخير ولو لم يكن للمسمى ولد يسمى الفضل او الخير وهذا القسم وهو الكنية كثير في كلام العرب حتى لغير الادميين وكما يكنى الشيطان بابي مرة يكنى ايضاً بابي كردوس وان شئت سردت لك جملة من كنى الحيوانات فقال السائل اني اريد ذلك

فقال الشيخ ان كنية الاسد ابو الحارث وابو فراس وابو

حفص وابو الابطال وابو الزعفران وابو العباس وابو شبل وكنية
الافعوان ابو حيان وابو يحيى وكنية ابن آوي ابو دئب وابو كعب وابو
وائل وكنية البرذون ابو الاخطل وكنية البرغوث ابو طامر وابو
الوثاب وابو عدي وكنية البغل ابو الاشج وابو الحرون وابو الصقر
وابو كعب وابو قموص وابو مختار وابو ملعون وكنية البومة ام
خراب وام الصبيان وكنية التنين ابو مرداس وكنية الثعلب ابو
الحصين وابو النجم وابو نوفل وكنية الثور ابو عجل وكنية
الجرادة ام عوف وكنية الحداة ابو الخطاف وكنية الحرباء ابو
قادم وابو الزنديق وكنية الحرام ابو صابر وابو زياد وكنية الخنزير
ابو زرعة وابو عتبة وكنية الخنفسآ ام الأسود وام مخرج وام الفسو
وكنية الدب ابو جهينة وكنية الدجاجة ام الوليد وام احدى
وعشرين وكنية الديك ابو حسان وابو اليقظان وكنية
الذباب ابو جعفر وكنية الذئب ابو جعدة وابو حدقة وابو كاسب
وكنية الرخمة ام قيس وام جعران وكنية الزرافة ام عيسى وكنية
السرطان ابو بجر وكنية السنور ابو خداش وكنية الصقر ابو
منهال وابو شجاع وكنية الظبي ابو الخشف وكنية الضبع ابو
عامر وكنية الضفدع ابو المسيح وكنية الطاووس ابو الحسن وكنية
النعام ابو البيض وكنية العصفور ابو محرز وابو يعقوب وكنية
العقاب ابو الحجاج وكنية العقرب ام عريط وام ساهر وكنية
العنكبوت ابو خيثمة وابو قشعم وكنية ابن عرس ابو الوثاب وكنية

الغراب ابو حاتم وابو الجراح وكنية الفار ابو خراب وكنية الفرس ابو مضاء وابو مدرك وكنية الفيل ابو الحجاج وابو كلثوم وكنية القرد ابو خالد وابو حبيب وكنية القطا ام ثلاث وكنية القمري ابو ذكري وكنية القنفد ابو سفيان وابو الشوك وكنية الكركي ابو عريان وابو نعيم وكنية النسر ابو الاصبع وكنية الناقة ام مسعود وام حوار وكنية النعجة ام الاموال وام فروة وكنية النمر ابو الاسود وابو جهل وكنية النمل ابو مشغول وكنية الهدهد ابو الاخيار الى غير ذلك وقد يكون للواحد كنى كثيرة

فقال الحاضرون ايدك الله ايها الشيخ قد انعشت ارواحنا وازلت اتراحنا وجلبت افراحنا ثم قام الشيخ وقاموا ليودعوه فكان من جملتهم الطلياني الذي كان اجتمع به في مرسيليا فقال للشيخ اريد ان تشرفني غداً انت وصاحبك الانكليزي ومن تحب فقال له الشيخ يكون ذلك ان شاء الله ثم مضى مع الانكليزي الى المنزل وكان الشيخ لم يصلِّ الفرض الذي عليه فلما انصرف الانكليزي الى النوم قام الشيخ فتوضأ وصلى ثم التفت الى ولده وقال كيف كان الدرس فقال ما رأيتك في جلالة مثل ما رايتك في هذا اليوم ولقد كان قلبي في هذا الامر يخفق ولساني من هيبة المجلس يكاد ان لا ينطق الى ان افتتح الدرس فانجلى ما بي وذهب اضطرابي فكانت كل كلمة نطقت بها تسري في بدني كسريان الماء او الدواء اذا وافق الداء ولقد رأيتك تارة تتأنق في الكلام

وتطنب في توضيح المرام وتميط عن مخدرات المسائل الحجاب وتكشف عن وجوه مشكلاتها النقاب ولعمري لقد سررت في هذا اليوم اكثر من فرح الاطفال بعيد الصوم سيما وقد رأيت اهل الجمع كلهم يثنون وبفضلك يعترفون فما اجدلك مثلا الا كما قال القائل

غموض الشيء حين تذب عنه تقلل ناصر الخصم المحقق
تضيق عقول مستمعيه عنه فيقضي للمجل على المدقق

فضمه والده اليه وقبله بين عينيه وانشد

ما ابيض وجه المرء في طلب العلا
حتى تسوّد وجهه في المبداء

ثم قال وانا اخبرك بما حصل لي وهو اني كنت قبل قدومي عليهم احسب مجلسهم لا يعتريني منه ادنى خجل ولا يمر بفكري منه وجل فلما قدمت اليهم واجلسوني على الكرسي مرتفعًا اعتراني بعض فتور وخشيت ان يفرط مني بعض هفوات فيتوهموا فيّ القصور فلما استعذت بالله واستعنت به وفقني للصواب واتسع لي ميدان الخطاب وقد استغربت مهابتي لهذا المحضر مع اني كثيرًا ما قرأت دروسًا في جمع اعظم من هذا بالازهر وقد تم المجلس بفضل ذي الجلال والحمد لله على كل حال واريد الان ان اريح بدني لان الخواجا في انتظاري لنخرج الليلة للنزهة فان كان لك غرض في الخروج معنا فقم ادِّ فرضك وارح بدنك

۱۱۸۰

المسامرة الثامنة والتسعون

البركة في الحركة

فخرج ابن الشيخ من عند ابيه وأدى ما وجب عليه ثم ذهب الى يعقوب في غرفته فالح عليه يعقوب ان يدخل فأبى وقال انما جئت لاخبرك بان والدي عازم على الخروج هذه الليلة مع الخواجا للنزهة وقد اذن لي في الخروج معه وان حضرة الخواجا في انتظاره فهل انت ذاهب معه فقال يعقوب ذلك غاية رغبتي لولا العذر

وكان ابن الشيخ حريصاً على صحبة يعقوب لما كان ليعقوب من العلم بالامور لكثرة تغربه واسفاره فكان دائماً يستفيد منه معلومات تحسن بها آدابه وكان كل منهما يأنس بالاخر فلذا قال ابن الشيخ ان لم تكن معنا فلست بمتوجه معهم

فقال يعقوب لا يليق بك ذلك واظن انهم عازمون على

التوجه الى التياتر فتوجه انت معهم لتنظر ما هناك وفي غد نستأذن ونتوجه نحو العين التي كنا بها سابقًا واتمم لك هناك ما كنا شرعنا فيه ثم سمع نداء والده عليه فذهب اليه فوجده متهيئًا للخروج فمشى خلفه فوجد الخواجا في انتظارها والعربة حاضرة مهيأة للركوب فقال الشيخ اظن ان المشي انفع لنا واكثر فائدة لما فيه من التمكن من الاطلاع على كل ما نمر به فنستفيد منه علمًا فقال الانكليزي هذا صواب ولكني اخشى عليك التعب وما اريد ان اشق عليك

فقال الشيخ جزاك الله عني خيرًا فان لكبر السن حكمًا وللعادة احكامًا وقد صدق القائل لكل امرء من دهره ما تعود فاني كنت وانا صغير في بلدي كثير الحركة والتنقل فكنت صحيح الجسم سليم البنية قوي الحواس لا يقاومني في النشاط وخفة الحركة احد من اترابي فلما جاورت بالازهر رأيت حركاتهم قليلة بسبب طول الجلوس في المطالعة وليس عندهم وقت للفسحة فلاجل تحصيل العلم سلكت مسلكهم ولازمت السكون مع علمي بان هذه عادة سيئة بالنسبة للصحة خصوصا مع برودة البلاط وعدم الحائل الكثيف الذي يمنع برده عنهم ولقد صدق المثل من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم فكنت اخرج من منزلي اول النهار الى الازهر فلا اعود اليه ولا اخرج من الجامع الاّ ليلاً بل لا اتحوّل من مكاني الاّ لأزالة ضرورة او اداء عبادة وكذلك في الليل

اجلس مجلسًا واحدًا للمطالعة حتى ينتصف الليل فانام مكاني
وصار هذا ديدني مدة اقامتي بالازهر فتولدت لي بذلك الامراض
وتسلطت على جسمي الاسقام حتى آل بي الامر الى ان كنت اصلّي
بعض الصلوات من جلوس لانه قد اعتراني تقاعد يشبه العجز
فان الجلوس يحبس الدم عن الجريان في العروق والاعصاب
ولقد صدق المثل ان في الحركة بركة ولما قدر الله لي السياحة
واجتمعت بحضرتكم داخلني النشاط ودبّت الصحة في جسمي بسبب
كثرة الحركة والانتقال وازدادت قوتي مع كبر سني فانا اليوم
اكره عدم الحركة حتى اذا كنت منفردًا في غرفتي اراني احب القيام
والمشي فاقوم لانظر من الشبابيك واطلع على الاحوال فانا احمد
الله واشكره كثيرًا على الاجتماع بحضرتكم وقد ادركت للسياحة
فوائد كثيرة جمة غير الحركة الداعية الى الصحة فمنها كثرة الاطلاع
وتحصيل الفوائد الدنيوية والاخروية ولقد صدق من قال

لو كان في شرف المأوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يومًا دارة الحمل

ومنها زيادة البركة في العمر فان كثرة الاطلاع بمنزلة زيادة
العمر وقلة الاطلاع بمنزلة قصر العمر كما قيل

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله
فاجسامهم قبل القبور قبور

وقد قالوا ان الماء الراكد عرضة للتغير فكرهوا الاغتسال فيه

بخلاف الماء الجاري فهو بعيد عن التغير ولا يكره استعماله بحال فهو اكثر نفعا ثم مشيا وابن الشيخ خلفهما واستمرا في الكلام على الحركة

فقال الخواجا لا شك ان الانتقال يبلغ الامال والقعود يفيت المقصود والتعوّد على الحركة مما يقوي البدن ويبرئ كثيرًا من الامراض ولذلك مدحها الحكماء وحث عليها الاطباء واما كثرة السكون فيتولد عنها الكسل وخيبة الامل وبرودة الدم وكثرة العلل ومما يدل على وجوب الحركة ان الخالق سبحانه وتعالى حكم بها على جميع الموجودات حتى على الشمس والقمر وسائر الكواكب التي في السماوات فان القمر يدور حول الارض والارض تدور حول الشمس وبالجملة فلا شيء من العالم بثابت مطلقًا فالكون وما حواه من حيوان ونبات وجماد وشموس واقمار وغيرها مما لا يعلم كنهه الاّ مكونه يتحرك بجملته فضلا عن حركة اجزائه صغيرًا وكبيرًا وما ذلك الا لحكمة بالغة اقتضتها ارادة مدبر الكون ومديره فالزلازل التي يظهر اثرها على الكرة الارضية تنبئ عن حركة عظمى في باطنها وسر بليغ اودع في جوفها وكذلك الحوادث الجوية كالعواصف والصواعق فانها تدل على ان السماوات دائمًا في حركة فليس الحكم بالحركة خاصا بالاجسام الحيوانية والنباتية بل هو شامل لها ولغيرها حتى الجبال والبحار وقد قيل ان جبال الجهة القطبية الشمالية تشققت في قديم الزمان

وتهددت وانتقلت صخورها الى الجهات القطبية الجنوبية وبعد ان مزقت حرارة الجهات التي مرت بها طبقاتها الثلجية فمنها ما رسب في قاع البحر ومنها ما استقر في صحاري اسيا وافريقا فكل من مر بها وتأمل هيأتها ونظر الى تركيبها علم انها ليست من جنس الارض التي هي بها بل انتقلت اليها من جهات بعيدة لحوادث عنيفة واسباب قوية ولم تزل مثل هذه الامور تحصل الى الان فاحيانا ياخذ البحر صخوراً من جهة ويسير بها الى جهة اخرى وتارة ينضم بعضها الى بعض فتقف بالشواطئ فتكون سواحل وتارة تتراكم في جهة من قاع البحر فتكون جزائر فيكسوها مرور الدهر اتساعاً ويكسوها تداول الايام عمراناً وارتفاعاً فسبحان القادر على كل شيء وهو الفعال لكل شيء وكما فعل سبحانه وتعالى فيما نراه فكذلك يفعل فيما لا نراه فمن ذلك ظهور الجبال في ارض لم يكن بها منها شيء وكذلك ما يظهر وسط البحار من الشعاب والجزائر والجبال التي لم تكن من قبل وما ذاك الاّ للحكم بالحركة التي دبر الله بها الاكوان ورزق بها الحيوان واغرب من ذلك دقيق الرمل والحصى فان اصلها صخور ضخمة تكون على قمم الجبال الشاهقة عرضة لتأثير حوادث الجوّ من الحرارة والبرودة والامطار والثلوج والرياح فتتفتت وينقلها السيل وتنسفها الرياح فتارة تلقى في اغوار الارض فيرتفع بها ما كان منخفضا ويخصب ما كان مجدبا وتارة تلقى في البحر فتتراكم فيه وتعظم حتى تحوله عن

موضعه فانظر صنع الصانع كيف سلط على الجبال ما اثر فيها
ففتتها رمالاً وحصىً ثم ارسل عليها ما قذف بها الى البحار حتى
حولتها عن مواضعها فسبحان الحكيم العليم فمن تأمل في مجاري
الانهر والخلجان ومصابها رأى ان كل ما يحدث فيها من الجزائر
انما هو من الاجزاء الدقيقة التي جرت بجريانها ومن امعن النظر
وتتبع كتب التاريخ والاثر وجد هذه الانهار قد تحولت عن
مجاريها الاصلية حتى صارت مواضعها الاولى ارضاً ذات مزارع
وبساتين ومساكن ونحو ذلك ومن ذلك اقاليم مصر البحرية فقد
قالوا انها انما تكونت مما تخلف عن نهر النيل من الطمي كما ان
ما يجلبه نهر الطونة والرين من تلك المواد الدقيقة كل عام يسد
مصبها وكذلك نهر المسيسبي بامريقا فانه لضعف جريانه لا يقوى
على دفع ما فيه من الزبد والرمل فيحدث من ذلك في كل سنة
ارض جديدة بخلاف نهر الكنج الذي هو احد انهار الهند فانه لقوة
دفعه وسرعة جريانه لا يبقي في قراره شيئاً مما يأتي به بل يأخذه
معه حتى يلقيه على شاطىء البحر الملح فمن مصادمة الصخور والشعوب
ونحوها لما يقذفه على مدا الازمان تكوّنت عنه ارض تبلغ مائتي ميل
وهناك اسباب اخرى لا ندركها تحدث احياناً بظاهر الكرة الارضية
فانا نجد في بعض الجهات ارضاً قد ارتفعت شيئاً فشيئاً واخرى
قد انخفضت كذلك ولا نشعر بها ولا ندركها لطول الزمن الذي
مرّ عليها فلو اطلعنا على حال الارض في الازمان السابقة وحالها

في الازمان اللاحقة لجزمنا بان الكرة الارضية وما فيها من اول خلقها الى الان دائمًا في حركة وتموّج كتموّج المياه فينخفض ما كان مرتفعًا ويرتفع ما كان منخفضا وقد استدلوا على ذلك بانحطاط ما بين مدينة صور وثغر اسكندرية عما كان عليه ايام الرومان وبارتفاع ارض الروسية الشمالية عما كانت عليه فانها كانت غامرة بالماء ثم انجلى عنها فظهرت وبني بها مدائن وقد وجد في ارضها بعد انحسار الماء عنها كثير من العاج متخلفا عن الحيوانات التي غشيتها تلك الحادثة حتى ابتلعتها الارض

وقد استفيد من التواريخ ان كثيرًا من المدن القديمة صارت الان ارضا قارة وان كثيراً من المدن صارت في قاع البحار فهذا ايضا مما يدل على ان كرة الارض دائما في حركة ومن ذلك تأثير الشمس في البحر فيرتفع منه بخار فينعقد سحابا ثم يسير الى الجهة التي يسوقه الله اليها فيسقط على الارض اما مائعـــا او متجمداً ثم يماع لتاخذ منه ما يكفيها ويكفي ساكنيها جميع السنة ومن ذلك الرياح فانها هي التي تسير السحاب من جهة الى جهة على مقتضى ارادته سبحانه وتعالى وان كنا لا نعلم من اين تأتي ولا الى اين تذهب وبالجملة فلم يخلق الله شيئًا الاّ وفيه سرّ وله حركة اما على انفراده واما بامتزاجه مع غيره ولو اراد العارف استقصاء الكلام على ادنى شيء من المخلوقات لاستغرق فيهِ العمر ولافضى بهِ الحال الى تفويض العلم بالحقيقة الى من له الخلق والامر

فقال الشيخ وقع لي كتاب قد مسخته يد الزمان والحقته في النسخ بخبر كان فتصفحته فوجدت فيه ما يقرب من ذلك وهو ان الله تعالى لما خلق الكون بقدرته ودبره بحكمته جعل الافلاك العلوية والكواكب السماوية بمنزلة الآباء وجعل الاركان الاربعة وهي التراب والماء والنار والهواء بمنزلة الامهات فاقتضت حكمته تعالى انهُ اذا تصلت اشعة الكواكب التي هي بمنزلة الآباء بالاركان الاربعة التي هي بمنزلة الامهات حدثت المواليد الثلاثة التي هي المعدن والحيوان والنبات فما وجدت المواليد الثلاثة الاَّ بحركة اتصال الاباء بالامهات وهذه الاركان الاربعة وان كانت كالامهات بالنسبة للمواليد الثلاثة الاّ انها متولدة عن غيرها ايضا لانهم يقولون ان الحرارة اتصلت باليبوسة فانتجنا ركن النار ثم اتصلت بالرطوبة فانتجنا ركن الهواء ثم اتصلت البرودة بالرطوبة فانتجنا ركن الماء ثم اتصلت باليبوسة فانتجنا ركن التراب فحصل في الابناء حقائق الآباء والامهات فكانت النار حارة يابسة فحرارتها من جهة الاب ويبوستها من جهة الام وهكذا فانظر كيف جعل المولى كل صفة من صفات الاشياء مكتسبة وراجعة الى اصلها

وفي اثناء ذلك الكلام وصلوا الى باب بستان يسمى لوكسانبور وهو من الاماكن المشهورة المعدة للنزهة فدخلوه فوجدوا به خلقا كثيرًا على عادتهم في اوقات نزهتهم فطافوا فيه برهه وتخيروا للجلوس ناحية منه قد راق منظرهـا وخضرتها وحلت في اعينهم نضرتها

اغصانها دانية وعينهـــا هامية فمالوا الى ذلك الموضع فكانوا بحيث يرون كل من يمر عليه فعجب الشيخ من كثرة المارين واختلاف هياتهم

فقال الانكليزي لو تاملنا في هؤلاء الخلق واختلاف السنتهم واجناسهم والوانهم وسالنا كل واحد منهم على حدته عن قطره وبلدتهِ واصل منشئه ومنبته لوجدنا فيهم من جميع الجهات من هندي وصيني وتركي وشامي وغير ذلك وها هو حضرتكم مصري والفقير انكليزي قد فارقنا الاوطان وجمعنا هذا المكان فلولا الحركة في طلب المعاش ما خرج احد عن بلده ولو عاش الى ان يرى ولد ولد ولده وليست هذه الحركة خاصة بنوع الانسان بل كذلك انواع النبات والحيوان فانها تنتقل من جهة الى جهة ومن قطر الى قطر انما النبات لا ينتقل حالة كونه نباتًا بل بذره هو الذي ينتقل فقد يأخذ الريح بذرا من ارض فيلقيه في ارض غير ارضه وقد يكون البذر في اجواف الحيوانات وحواصل الطير فاءذا انتقلت من ارض الى اخرى القته فيها فينبت ولعل هذا معنى ما قيل ان ربع ما على الكرة الارضية من النبات لبذره اجنحة او شبه الاجنحة فيطير بمعونة الهوا حتى اذا سكن وقع فينبت حيثما استقر ومن اسباب انتقال الحبوب والنباتات ايضًا السيل والخلجان والبحار فكثيرا ما يأخذ البحر المحيط من جزائره انواعا من الفاكهة والنوا واغصان الشجر ويسير بها حتى يلقيها في مواضع غير

مواضعها فتنبت فلذلك نجد في بعض الاحيان نبات ارض قد ظهر فجاة بارض اخرى لم يعهد بها من قبل

وتواريخ الامم والاثار القديمة منبئة بان النبات يتبع في حركته حركة الشمس في مدارها من المشرق الى المغرب فجميع ما نراه في ارضنا هذه كان اصله في جهة الشرق ثم انتقل منها الينا وكذلك جميع ما بالاخرى فمن ذلك شجر البن والشاي وقصب السكر والموز والقطن والكتان والنيل والفول والقثاء جميعها اصل منبتها ببلاد المشرق ثم انتقلت غير ان الاثنين الاخيرين لم يدخلا بلاد اليونان الا بعد ايام اسكندر المقدوني وقد خلق الله سبحانه وتعالى شجر الخبز وجوز الهند وشجر التمر وجعل فيها خاصة الاقتيات وقيام منبت الانسان وتعيشه لكن لما اقتضت ارادته انها لاتثمر الا في جهات خاصة جعل لحكمته الباهرة وقدرته البالغة نباتات اخرى تثمر في كل ارض ولا تختص بجهة دون جهة وذلك كالحنطة والشعير والقطاني ونحوها فان انواع النبات عموما تبلغ نحو اربعة الاف نوع منها عشرون نوعا صالحة للغذا وصالحة لان تزرع في كل ارض فتكون في الارض المحترقة بحرارة الشمس كما تكون في الارض المغطاة بطبقات الثلج

فقال الشيخ اظن ان اول ظهور جميع الاقوات بل ما على وجه الارض من الحيوان والنبات كان بالهند ثم انتشرت منه الى سائر الجهات لما روي من ان ادم لما اكل من الشجرة التي نهي عن

قربانهـا واهبط الى الارض كان نزوله بتلك الجهة فعلم صنعة الحديد وامر بالحرث فحرث وسقى وحصد ودرس وذرى وطحن وعجن وخبز واكـل فلما حضرته الوفاة احاطت بهِ الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها ادم خلي ملائكة ربي فانه ما اصابني ما اصابني الا من قبلك فلما توفي غسلته الملائكة وحنطته وكفنته في وتر من الثياب وحفروا له ولحدوا ودفنوه بسرنديب بارض الهند وقالوا لبنيه هذه سنتكم من بعده فهذا الاثر يدل على ان اصل الاقوات بل والمعادن والحيوان كان موجوداً قبل نزول ادم في هذا المكان ثم ما زال ينتشر من مكان الى مكان الى ان اتى الطوفان وقسم نوح الارض بين اولاده فاخذ كل واحد منهم من ذلك ماتيسر وذهب به الى بلاده

فقال الانكليزي هذا كلام معقول ولذلك يقول اهل الهند ان مقدسهم ابراهمة نزل من السماء وعلمهم صنعة الزراعة واستعمال الحيوان فيها والمصريون ينسبون ذلك الى ايزيس واليونان ينسبونه الى سيرابيس ووافقهم على ذلك سكان البيرو من امريقا في الذرة خاصة ولذلك يزرعونها عندهم حول معبد الشمس في الارض المقدسة وهي ارض مرتفعة عن سطح البحر اثنى عشر الف قدم

والمستفاد من كتب التاريخ ان استنبات نباتات الغذاء ما وصل الى المغرب الاّ من جهة المشرق وان اول ظهورها كان باسيا وانا وان كنا نجزم بان بعض النبات نزل من الجنة لكنا لا

ندري متى نزل ولا في اي بقعة نزل

ويقال ان الامة الشركسية من بين جميع الامم هي التي وسعت دائرة انتشار انواع الزراعة وان ما باوروبا من النباتات منقول اليها فنحو الخوخ والبرقوق والبندق اصله من بلاد العجم ونحو البرتقان من بلاد الصين ونحو البطاطس والذرة من الامريقا وينسب ايضا اليهم زرع الارز والقطن في ساحل البحر المتوسط

ثم صاروا كل ما نجح بارضهم شيءٌ زرعوه فيما استولوا عليه من الاقطار ولذلك لا تجد في اوروبا شيئاً من الحبوب والفواكه الا وفي امريقا نظيره وهم الذين غرسوا شجر الكرم بجزيرتي مدير وكناريا وسائر البلاد القبلية من افريقا وامريكا وكذلك القطن والارز بجهات بريزيليا والايتازوني (الولايات المتحدة) وجوز الطيب والقرنفل بجزيرة موريس وجزيرة بوربون وجزائر الهند وكذا الشاي ببريزيليا والهند وجاوى وساعدتهم العرب في نقل شجر البن وقصب السكر والنخل والقطن من بلاد الهند الى بلادهم ولم ينقل ذلك الى الديار المصرية الا فيما بعد واما الصينيون فاخذوا زرع القطن من بلاد الهند ستان كما تعلم اهل يابونيا زرع الشاي من الصينيين واما البرّ والشعير فوجودهما باوروبا قديم

وفي كلام بعض قدماء المؤرخين والشعرا ما يدل على ذلك

وقال بعضهم ان اصلها من الهند وان الذي نقلها الى افريقا اهل الاندلس

واما البر الاسود باوروبا فحادث فيها ويقال انه منقول اليها من افريقا وان نقله الى جرمانية كان في القرن السابع من الميلاد على يد الملك شارلماين وقد كثر بها الان حتى صار كافيا لاقتيات ثلث الاهالي

واما الارز فهو وان كان حادثًا في اوروبا فالعرب هم الذين زرعوه في الجهات الجنوبية منها وكان قديمًا في بلاد المشرق وكان اغلب القوت منه ولم يزرعه الامريقانيون الا في القرن السابع عشر من الميلاد وقد كثر الان زرعه عندهم حتى صار يرسل منه الى الجهات والامريقيون يقولون ان اصل ظهور الذرة كان بارضهم ولكن لم يظهر لصحة ذلك دليل بل الظاهر ان اصلها من المشرق بدليل تسمية الاوروباويين لها بقمح الترك وتسمية اليونان لها بقمح العرب وقد شوهد من النبات مثل الشوك ونحوه كثير نابتًا في خلال النبات النافع في الارض التي نقل اليها نبات الحنطة ونحوها وذلك يدل على ان جميع ما هو في بلادنا من هذا النوع قد ورد اليها مع الحنطة وغيرها وقد يعلق حب بعض تلك النباتات بالانسان في ثوبه او متاعه فيسافر ولا يشعر به فينبت حول مسكنه او مبيته

ومن الغريب ما قالوه ان كل نوع من النبات له ارتباط

وائتلاف بنوع من الانسان بحيث لو وجد نوع منه في بقعة لاستدل العارف بذلك على من كان ساكنًا بها مشرقيًا كان او مغربيًا وانه باختبار النبات وتفقد احواله وتنقلاته يمكن معرفة تنقلات الامم فان من النبات ما يتبع العبيد ومنها ما يتبع عرب البادية والهنود ونحو ذلك ومن النبات ما ينتشر بنفسه حتى يملأ الارض التي انتقل اليها ويعطل ما كان قبله من النبات الطبيعي وغيره وذلك كالخرفوش والخوخ فانهما لما انتقلا الى الجهات الجنوبية من امريقا كثرا بها ومنعا ما عداها حتى ضاقت المراعي على ماشيتهم وكذلك لما نقل بعض النبات الى جزيرة سنت هيلين انتشر فيها حتى اذهب نباتها الاصلي وحشائشها الطبيعية وكذا في بلاد الصين ارض يقولون ان جميع مابها من النبات منقول اليها ولم يبقَ بها شيء من نباتها الاصلي وقد ورد الى بلادنا من المشرق انواع كثيرة من الفاكهة منها العنب والرمان والخوخ والسريز (الكرز) والذي نقل البرتقان والليمون الى اوروبا هم العرب ثم ان الثمار بعد نقلها لا تبقى على حالتها الاصلية بل تتغير وتكسب خواص غير خواصها التي كانت لها في قطرها الاول فتجدها باوروبا كبيرة الحجم شديدة الحلاوة لذيذة الطعم بعد ان كانت دون ذلك ولو نقلت الى قطر اخر لتغيرت ايضا وهكذا لان الغالب ان كل شيء انتقل الى مكان غلب طبعه عليه فاذا رجع الى مكانه

يعود طبعه الاصلي اليه ومن الامثال الصادقة ان للبقاع تاثيرًا في الطباع

وقال بعض المورخين ان لكل ارض نباتا ينسب اليها فينسبون الدخان والبطاطس الى امريقا ولكن هذه النسبة ناشئة عن عدم الاطلاع فان كتب التواريخ ناطقة بان الاندلسيين ايام تملكهم وجدوه مستعملا في التحضيرات الكيماوية عند اهل مكسيك وكان قبل ذلك معلوما بين اهالي الصين وجاوى ولم يدخل اوروبا الا سنة الف وخمسمائة وخمسة وتسعين وادخله البرتغاليون في بلادهم فكان مستعملاً باجزاخاناتهم فقط فلا بد انه كان معروفًا ببلاد اسيا قبل استكشاف امريقا بزمن طويل

وقد تبين لك مما مر ان انتقال النبات من ارض الى ارض لابد ان يغير حالة الارض كما تتغير بذلك طبيعة النبات وتبين ان تنقلات الحيوان والنبات تابعة في الغالب لمن سكن الارض لما بينهما وبين الانسان من الارتباط التام اذ بهما بقاء بنيته وقضاء اوطاره وستر عورته وقد وقف كثير من الناس عند ظواهر الاشيا فزعموا ان الحيوان لا ينتقل من الارض التي خلق بها وليس هذا الزعم بصواب ولو سلم ذلك بالنسبة للحيوان الاهلي لا يسلم بالنسبة للحيوان الوحشي وان كنا لا نعلم كيف كان انتقاله في الازمان الماضية لسكوت المؤرخين عن الكلام في ذلك كما سكتوا عن تنقلات الآدميين في تلك الازمان

وعلى ما مر من ان اول عمارة بني آدم الارض كانت بالمشرق يمكن ان يقال ان وجود جميع الحيوانات كان بالمشرق ثم انتقلت الى المغرب

وقد قال المؤرخون ان الخلق كانوا اول امرهم عشائر رعاة ثم تفرقوا فلا مانع من ان تكون الحيوانات قد تبعتهم في ذلك وبالجملة فالحيوان والنبات كل منهما ينتقل باسباب ووسائط دبرها الخالق جلت قدرته ومن تلك الوسائط المياه العظيمة فكل نهر او خليج ينقل في سيره الى البحر كمية عظيمة من ذوات الروح وكثيراً ما شوهد في وسط البحر جمل من بعض الحيوانات متراكمة بعضها فوق بعض تعوم فوق الماء وعلى سطحها المحار والقوقع الذي لا يعوم وحده فتكون له كالرّومس الذي يركب عليه في البحر كما يركب على السفينة وقد وجد كثير من هوام الارض والحشرات والافاعي والدود والسمك والطيور والقوقع ونحو ذلك راكبة فوق الاعشاب وغصون الاشجار العائمة في البحار فتنتقل بواسطتها من جهة الى جهة وكذا الهواء قد ينقل منها الوفا موءلفة ويسير بها الى حيث شاء الله وقد امتحن ذلك بعضهم بوضع لوحين من زجاج خلف مصراعي شباك فوجد في التراب الذي اجتمع بينهما في مدة ستة اشهر بذر ثمانية انواع من النبات واحد عشر نوعا من تقاوي عش الغراب واربع بيضات من بيض حيوانات صغيرة

مع جملة من تلك الحيوانات بل قد ياخذ الهوآ ما هو اكبر من ذلك كالفارة والعرسة والسمك ونحو ذلك

وقد وقع في بعض السنين مطر ببلاد فرنسا فكان كله سمكا وكثيرًا ما امطرت السماء ضفادع ومن الهوام الصغيرة ما يمد لنفسه فوق البحر خيطًا دقيقًا ثم يسير عليه مسافة ثم يمد غيره وينتقل وهكذا الى حيث اراد وقد اتفق انه سقط على بعض الملاحين في سفنهم وكان بينهم وبين البر نحو ثلثمائة ميل ولكون تلك الحشرات لا تظهر الاّ في اوقات سقوط الندى ظن بعضهم ان تلك الخيوط تتصل بذرات الماء وبعضهم يزعم ان لهذا الحيوان معرفة بالكهرباء فان كانت كهربة الخيط سالبة طردتها كهربة الطبقات السفلى من الجو وجذبتها كهربة الطبقات العليا منه وكل هذا ظنون غير ثابتة والله اعلم بالحقيقة

واكبر داع لمفارقة الحيوان لوطنه ان يفقد قوته او الفه فترى الحمر الوحشية تترك بلاد التتار وتجاوز صحاري اسيا في فصل الشتاء الى الجهات الشمالية لاجل المراعي التي بشاطئ بحر عنال وقد تجتمع الوفا كثيرة وتسير الى شمال الهند وارض العجم لاجل المرعى وبعض الحيوانات لجوعها تخرج من جهة القطب الشمالي وتسافر الى الجنوب كارنب بلاد السيبري وفأر بلاد النرويج ونحوها والدويبات الصغيرة جدًا تسيح عادة مجتمعة طوائف طوائف حتى يرى البحر متغير اللون من كثرتها فيه وفي بعض الجهات

تظهر انواع من الحشرات لا يعلم من اين اتت ولم يسبق لاهل تلك الجهات رويتها وعادة تأتي سائحة فوق الماء او دابة على الارض وكثيرًا ما شوهدت الديدان تقطع البحار العظيمة والفيافي الواسعة الشاسعة لطلب القوت لا يعوقها عن طريقها شيئ وقد اقتضت الحكم الازلية ان ما يؤلف يعز وجوده وما يكره يكثر موجوده وبعض ذلك كان مفقودا من اوروبا الى القرن الحادي عشر ثم امتلأت منه مثل دود القز فانه يميل الى الاماكن التي اعتادها فلا يفارق مغارس التوت وهي موجودة في الهند والصين قبل ان توجد باوروبا وغيرها بزمن مديد واول ظهوره بالقسطنطينية كان في القرن السادس جلبه اليها احد القسيسين ثم نقل منها الى اليونان والذي ادخله ارض صقلية الملك روجير ثم منها الى باقي الارض والنحل تهوى الجهات الغربية ولكن الان صارت لاتوجد في جهات جبل اورال وقد بذلوا كل جهدهم فلم يمكنهم ان يعودوها على ارض السيبيري مع انها كانت غير معلومة في الامريكا الى القرن السابع عشر من الميلاد والان بعد استقرارها فيها اخذت في الازدياد حتى ملات جميع البلاد والهنود تسميها بالذبابة الانكليزية ولهم فيها كراهة عظيمة لانهم يستدلون بها على دخول الناس بيض الوجوه في بلادهم وهم لا يحبون ذلك فهم يستدلون بها على مسير المهاجرين الى الجهات الغربية

وللنمل تنقلات عجيبة وهي وان كانت تظهر لغير المتأمل انها

في سيرها متفرقة غير مؤتلفة ولا منتظمة الاَّ انها جيوش متتابعة ولا تضل عن طريقها اصلاً بل تهتدي الى مقصدها مع الانتظام وهي انواع

منها الاسود وهو كثير جدًا واذا ظهر في مكان يكاد يستر وجه الارض وياكل في سيره ما مر عليه من النبات ويدخل المنازل ويملاها حتى لا يترك منها موضعا الاَّ ويتلف ما به فلا يسع اهل المنزل حينئذٍ الاَّ فراقه

فقال الشيخ الجراد في تنقلاته اكثر ضررًا واشد اذىً لانه لا يبقي من الزرع ولا يذر ويقال انها تحفر لبيضها في الرمل ومن حرارة الشمس يفرخ ويكبر في اقرب وقت ويكون اولا بغير جناح فاذا هب النسيم سار به الى حيث يريد وكثيرًا ما يملأ الفضا فيغطي الارض ويحول بيننا وبين السماء

فقال الخواجا انها كذلك وسيرها من الشرق الى الغرب وتقطع البحار والفيافي وتقع في بقاع مختلفة فتكون في افريقية وبلاد الانكليز وارض جرمانيا وكثيرًا ما حل القحط في الجهات التي تحل بها لانها تهلك جميع النبات والشجر وكثيرًا ما يجيء عقب ذلك الطاعون بسبب العفونة التي تنشأ عن رممها وكذلك السمك وسائر الحيوانات المائية لها انتقالات كثيرة ولا تحتاج الى اماكن تستريح فيها حين عبورها كما يستريح الطير على صواري السفن وكثيرًا ما شوهد كلب البحر ملازما للسفن السائحة في البحار

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان معاش بعض الامم يتوقف على سياحة انواع من السمك فينتظرونه في زمن معين ويصيدونه وينتفعون به وذلك كالبوري والشوبار وغيره وهو الذي يصنع منه الفسيخ في بلادكم وهناك نوع من السمك يسمونه اسكمري وتسميه الفرنج مكرو

ومن غريب امره انه في فصل الشتاء يدفن نصفه المقدم في الطين ويظهر نصفه المؤخر فاذا خرج الشتا خرج من الطين فينتقل الى الماء القليل الحركة ويبيض فيه واغرب منه ثعبان السمك فانه يقضي اكثر حياته في البر وتحده زمن الصيف ايام جفاف البرك يخرج ليلاً ويمشي في خلال النبات الى ان يصل بركة او ارضاً فيها ماء فينزل فيه واكبر سبب في وقوعه في ايدي الناس حبه لنوع من النبات يعرفونه فتكون شهوته سبباً في هلاكه وكثير من الاسماك لا يسير الا ليلاً على وجه الارض ويخرج منه مادة لزجة يلتصق بها في نوع من الشجر ليصيد نوعا من المحار يهواه وكثيرا ما شوهدت السمكة والمحارة معاً فوق الشجر

واما الورل والثعبان والتمساح فلا تفارق مكان اقامتها بخلاف النوع المعروف بالبني الذي يوجد في بحار الهند الغربي وامريكا الجنوبية وهو المسمى عند الفرنج بكراب فانه يكون في بعض اوقات السنة بالمغارات بعيداً عن البحر مغشياً عليه وفي فصل الصيف يخرج منها في هيئة جيش منتظم فتخرج الذكور ثم الاناث

ويأخذ سعة عظيمة من الارض نحو مأية متر ومتى اشتدت حرارة الشمس عليه استظل بالاشجار فاذا جاء الليل سار طوائف ويكون لها دبيب تحس به الناس وسط النبات فاذا قربت من البحر الملح دخلت فيه جميعاً فتسبح فيه وتقطع في سياحتها بلاداً بعيدة فاذا تعرض لها احد دافعت عن انفسها ويسمع منها قرض اسنانها في مدافعتها فان لم تتخلص بذلك تفرقت الى جهات مختلفة ثم تنضم وقد يموت اكثرها في سياحته والطير كالسمك في التنقل بل اقوى منه حركة فتراه عند اشتداد البرد يترك الجهات الباردة الشمالية ويذهب الى الجهات الحارة الجنوبية ويقطع في سيره الآف اميال ومنه ما يعيش في الاقطار الباردة والحارة كالغراب فانه يكون باوروبا على شاطىء البحر الاسود وبحر الخزر وينعق ببلاد الهند والعجم كما ينعق بامركا وجزائر البحر الباردة والحارة ومع هذا فلكل نوع من الطير وطن يألفه لكن يفارقه احيانا التماساً لمواد الغذاء او فراراً من العوارض الجوية ومن عجيب امرها انها لا تخطىء اوان مفارقة وطنها ولا وقت عودها وتشاهد هذه الغريزة في المحبوس منها سواء كان مقتنصاً او متولداً في البيوت فانه اذا احس بصوت ابناء جنسه حنّ اليه ولو خلّي سبيله لسار معها وغالب الطير اللطيف لا يكترث بالبرد والحر ولا بالقرب والبعد بل متى جاء الوقت المعلوم لمهاجرته الى الامكنة المعهودة له خرج الى تلك الجهات واقام بها فيفرح به اهلها وتميل اليه طباعهم

فيتلذذون بسماع تغريده ويأنسون برؤيته ولكل نوع منها كيفية يكون عليها ومنهاج ينهجه في هجرته وتعديته البحر وقطعه للمفازات فالبعض يكون منفردًا والبعض يكون مجتمعا ومنها ما يسير بالنهار ويسكن بالليل ومنها ما يسير بالليل ويستريح بالنهار فالاوز يسافر مجتمعا معترضا والعصفور يسير متسلسلاً والبجع يسير على هيئة شكل مثلث واذا صادفها في سياحتها بحر قطعته طيرانا فاذا هزلت وسقطت فيه قطعته سباحة ومن المستغرب جدا طريقة سباحة الطير المعروف بالسماني فانه اذا اراد مفارقة اوروبا الى افريقية صبر حتى تهب ريح شديدة من الشمال الغربي فان هبّت رفع احد جناحيه كالقلع وحرّك الاخر كالمجذاف وترك نفسه مع الريح الى ان يقطع البحر المتوسط الاسكندري ويصل الى افريقية واماكن استراحته في الجزائر معلومة فلذلك تجد اهل تلك الارض يعرفون وقت وجوده بارضهم فيتهيئون لصيده ومثله اللقلق المسمى عند الفرنج سيجوني فمصيفه الجهات الشمالية الباردة من اوروبا ومشتاه وطنه الاصلي من افريقا فيسمع صوته بجهة الاهرام وغيرها وحمام امريكا الشمالية ينتقل في اوقات معلومة في عدة بقاع لا يعلم سكانها من اين اتى وينتشر احيانًا في نواحي امريكا الشمالية والجنوبية معا واذا آن اوان بيضه اجتمع وبحث عن المواضع التي تناسب ذلك فيبيض فيها فاذا افرخ رجع الى وطنه ولا يضل في طريقه ولو نقل بواسطة كالسكة الحديدية فانه يهتدي

الى وطنه ونوع البلبل يتنقل في فصل الخريف من الشمال الى الجنوب كل عائلة على حدتها لكن اناثه تسبق ذكوره باسابيع فتذهب وحدها من مصر والشام وتقصد البلاد الشمالية ومنه نوع تهاجر اناثه فقط في فصل الشتاء وتبقى ذكوره واما الحيوانات ذوات الثدي فلا تنتقل من بقاعها المعدة لها الاّ اذا جاعت او تعدى عليها احد في ارضها ومنها ما ينقله الانسان معه كالخيل والحمر الوحشية الى حيث يستوطن من البقاع وهي التي تناسلت في التأنس وعمرت منها البلاد بامريقا فانها ترحل في فصل الشتاء الى الجهات الحارة وكذلك الظباء والفيلة مع غلظ جثتها تترك مواضعها لطلب مراعيها والجاموس الامريكاني المتوحش يتنقل من السهل الى الجبل وبالعكس على حسب الفصول فيتتبع مجاري الانهار والسيول لالتماس المرعى بغريزة وضعها الله فيه فيتبع المرعى حيث كان ولا يعلم احد طريق اهتدائه اليه

وللقردة طرق عجيبة في قطع كبار الانهر والخلجان المتسعة

واما الحيوانات الاهلية فتنتقل تبعًا لانتقال الانسان فخيل اسيا وبلاد العرب الان كثيرة بامريكا ولم تكن موجودة بها قبل اختلاطهم بالاندلسيين وكذا الغنم منها هناك كثير ضأنًا ومعزًا وذلك بسبب تنقل الناس كما أن الانسان هو الواسطة في وجود بعض الحشرات والهوام في جهات لم يكن لها بها وجود كما تقدم

وذلك كالفأر بامريكا فانه قبل دخول الاوروباويين هذه البلاد لم يكن له بها وجود اصلاً

وقد تقدم ان اول بقعة وجد بها الآدمي هي ارض الهند وهناك علامات تدل على ذلك فانها كانت في اول الزمن كثيرة النبات والخير ثم اخذت ارضها ترتفع شيئًا فشيئًا حتى قل خيرها فهاجر منها اكثر ساكنيها باسباب وحوادث لا نعلمها واستمرت آخذة في العلوّ والامحال حتى صارت جبالا لا تنبت فلم يبق بها ساكن ولم يزل ينتقل الانسان من جهة الى اخرى بحوادث داعية الى ذلك حتى امتلأت منه الارض وعمرّت جوانبها

فقال الشيخ هذا كله يدل على عظمة الله وقدرته حيث اودع في كل نوع من المخلوقات قوى غريزية وطبائع مختلفة يقدر بها على تحصيل قوته ويأمن بها على نفسه مدة حياته وفيما ذكرتموه دلالة على ان الحركة اساس بديع لعمار الاكوان وقيامها وقانون جليل عليه مدار انتظامها فكل مخلوق لا يستغني عن الحركة في كل حاجاته ولكنها تكون على انواع بحسب انواع الحيوان وطبائع البقاع فتكون كثيرة عند بعض وقليلة عند بعض اخر لانه سبحانه كما نوّع احوال البقاع نوع ما لساكنيها من الطباع فليست طبيعة من يسكن الهواء كطبيعة من يسكن الماء ولا من يسكن الارض الحارة كمن يسكن الباردة

وحيث كان السعي في طلب القوت والمحافظة على حياة

النفس من اهم الامور كان ذلك ايضاً يختلف باختلاف البقاع فيكون في الارض السهلة سهلا وفي الصعبة صعبا وكلما سهلت طرق الاكتساب في جهة تساهلت سكانها في الكد والاجتهاد فيه وكلما صعبت ازداد الكد والنصب فبين سكان الجبال ونحوها من الجهات الصعبة الحرث والغرس و (بين) سكان الارض الخصبة ذات الانهار والخلجان بون بعيد وتباين في الطباع والاوضاع وكذلك طرق التحفظ مختلفة باختلاف البقاع ففي البلاد الباردة تجمع البرودة اطراف الالياف الظاهرة من بدن الانسان فتزيد بذلك قوتها ويسرع رجوع الدم الى القلب وينشأ عن ذلك للانسان من النشاط ما يساعده على الكد والعمل بخلاف البلاد الحارة فان حرارتها تمدد الالياف المذكورة فتتلاشى قوتها وتضعف بذلك قوة الانسان ويداخله الفتور ولا يقوى على العمل ولذلك تجد سكان البلاد الباردة اقوى من غيرهم فانه متى انتظمت حركة القلب والالياف فقد انتظمت السوائل في انحاء الجسم وتكون حركة الدم نحو القلب اتم فيقوى فعله وتزيد قوته ولقوته فوائد كثيرة منها شدة البأس وقوة الجاش وملك النفس عن سرعة الانتقام وعدم الخوف على النفس ومتى قل خوف الشخص على نفسه كثر حبه للحق والتماسه له واتباعه اياه اينما كان ويكون بعيدًا عن الظنون والاوهام عاليًا عن الكذب والنفاق والخداع والمكر ونحوها فلا ريب في ان هؤلاء الناس يكون عندهم من

الاخلاق والطباع ما يغاير طباع غيرهم من سكان البلاد الحارة
مثلاً لو حبسنا رجلا في مكان شديد الحرارة لتالم وهمدت قواه
بحيث لو طلب منه فعل امر يحتاج في الاقدام عليه الى الجرأة لم
يفعل اذ ضعف قوته يورثه ضعفاً في قلبه وثقلاً في حركته ولذلك
تجد سكان البلاد الحارة في القوة اشبه بالشيوخ وسكان البلاد
الباردة بضدهم ولو انتقلت سكان البقاع الباردة الى البقاع الحارة
او بالعكس لتغيرت طباع كل الى ما يناسب الجهة التي انتقل
اليها لكن بعد زمن وفي البقاع الشمالية التي ينزل بها الثلج دائما
يكون الانسان ضخم الجثة قليل الهمة والنشاط وسببه ان قوة الالياف
ينشأ عنها استجلاب العصارة الرديئة من الغذاء فيحدث امران
الاول ان جواهر الكيموس تصير صالحة لان تكسو الالياف وتغذيها
فتكبر الجثة والثاني انه ينشأ من قلة جودة العصارة المستجلبة قلة
اللطافة في العصارة العصبية فيقل النشاط وتكون الاحساسات
في البلاد الباردة ضعيفة بخلاف الحارة فانها فيها قوية جدا وفي
المعتدلة تكون معتدله وكذا تختلف درجة الاحساس عند الناس
باختلاف الاقطار والعوارض وذلك ان اختلاف الاحساس ناشئ
من كون جميع الاعصاب الواردة الى المنسوج الجلدي يتكون من
كل منها مجموع عصبي ففي الجهات الحارة يكون المنسوج الجلدي
رقيقاً جدا واطراف الاعصاب مفتحة فتحس باقل شيء ورد عليها
من الخارج وفي الباردة بخلاف ذلك لانضمام المنسوج الجلدي وتجمع

اطراف الاعصاب فلا يصل الى المخ الا الاحساسات العظيمة الحاصلة من مجموع العصب ولا يخفى ان القوى العقلية جميعها حاصلة من احساسات صغيرة فمن هنا يكون الاحساس كثيرًا في البلاد الحارة قليلا في غيرها والالم كذلك فانه يحصل من تمزيق بعض اعصاب الجلد او تفريقه فكلما كثر كثر الالم وبالعكس ففي الباردة التي جثة اهلها ضخمة واعصابهم غليظة يصعب ذلك التمزيق لغلظ جلودهم بخلاف اهل البلاد الحارة لرقة اعصابهم وجلودهم ولهذا كان الم سكان الاقطار الباردة اقل من الم سكان الاقطار الحارة ومن هذا التباين في الطباع الناشئ عن اختلاف البقاع تكون اهل البلاد الحارة كثيرة الميل الى النساء ومنهم من يرى الميل اليهن من اعظم النعم بخلاف سكان البلاد الباردة فان ميلهم اليهن قليل اما اهل المناطق المعتدلة فمعتدلوا الأحوال مطلقا

فقال الخواجا ما ذكرتموه مسلم ولذلك نجد البلاد الجنوبية مثل ايطاليا وما جاورها من البلاد الفة رجالها لنسائها ليست كالفة رجال البلاد الشمالية الباردة بنسائها فانهم لا حظ لهم الا في الحركة كالصيد والسفر والحرب والشرب وسبب ذلك ضخامة اجسامهم وثقلها وتمام الصحة ولهذا كان اكثر اهل تلك البقاع يميل الى المشروبات الروحية وكلما بعدوا عن القطبين وقربوا الى خط الاستوآ نقص هذا الميل واظنه تابعا لما يقذفه البدن من العرق ففي الجهات

الحارة يعوض ما خرج من الجسم بشرب الماء وفي الباردة يعوض بالمشروبات الروحية كالنبيذ ونحوه للانتعاش وبث الحرارة لتنبعث الحركة خيفة جمود الدم ألا ترى ان الماء هو الشراب المألوف عند اهل المشرق من يوم خلق الله الدنيا بخلاف النبيذ ونحوه فهو المألوف عند اهل البلاد الباردة واهل البلاد المعتدلة لا تنقطع رغبتهم في النسا لكن لا تبلغ بهم الى حد التهور فهم فيها على حال الاعتدال وتزداد تلك الرغبة بالتدريج بحسب البلاد الحارة ولو اختبرت اهل البلاد الباردة لوجدتهم اقرب الى الصدق والحق والامانة من اهل البلاد الحارة فان اولئك تغلب عليهم شهواتهم وتكثر فيهم الكبائر والمساوي فتراهم لا هم لهم الا شهوات انفسهم وطاعتها فيما تقترحه عليهم من الاماني والشهوات البهيمية

واما اهل البقاع المعتدلة فلا ثبات لهم على حال فطورا في الفضائل وطورًا في الرذائل يغشون كل ناد ويهيمون في كل واد وكلما زادت درجة الحرارة ضعفت القوى البدنية ويتعدى ذلك الى القوى العقلية فتتساوى لديهم الامور فلا تنبعث خواطرهم الى شيء ولا يهتمون بشيء ويغلب عليهم الكسل ويتحملون العذاب في الدنيا بلا ملل ولا يجتهدون بعقولهم في سياسة انفسهم فيكون في ذلك استرقاقهم ويرون الرق اهون عليهم من العمل ولهذا نرى الفقراء والدراويش والشحاذين وامثالهم في تلك البلاد كثيرين وانا لنعلم بما تواتر عن السياحين ان الهنود مجردون عن الشجاعة والبأس كما

هي طبيعة بعثتهم وقد شوهد ان من تناسل من الاوروباويين هناك يشبه طبعه طبع الهنود دون طبع ابيه واصوله ومن ذلك فللهنود عوائد فظيعة مستغربة كل الاستغراب منها ان نساهم يحرقن انفسهن بالنار بعد موت ازواجهن ومنها انهم مع ضعف قواهم ونحافة اجسامهم يتوهمون اوهاما جسيمة جدًّا فيتوهمون امورًا افظع من الموت فـــلا يبالون من الموت ولهم صبر وتجلد على انواع العذاب

وهؤلا القوم لخلو اذهانهم وسلامتها عن العوارض وقابليتهم واستعدادهم لكل ما يلقى اليهم يلزم لهم على سبيل التاكيد زيادة عن غيرهم ان تقنن لهم قوانين وتشرع لهم احكام حسنة يتعلمونها ويتداولونها بينهم ويلزم ان تكون تلك القوانين امورًا معقولة خالية عن الاوهام والوساوس ليجبلوا على احسن الاحوال حيث انهم على الفطرة الاصلية ليس في اذهانهم شيء من التخليطات كالاطفال الذين يلزم لهم السياسة والتعليم والتدريب على ما به صلاحهم اكــثر من الكبار الـــذين دخلت اذهانهم تشويشات تعطلها او تمنعها عن رسوخ التعليمات فيها وقد كانت الامم الشمالية زمن الرومانيين مستقلة بنفسها ومدافعة عن وطنها وحريمها ومع جهلهم وعدم وجود قوانين لهم حاربوا الرومانيين زمنا طويلا حتى كسروا شوكتهم وخفضوا دولتهم ولو اضفت ضعف بنية الامم المشرقية عن العمل الى ما هم عليه من حب البطالة والكسل لعرفت سبب ثباتهم على

قوانينهم وعوائدهم واخلاقهم فانك لو قارنت بين ما كان في سالف الازمان وما هو الان لم تجد الا فرقًا يسيرًا ومن تامل احوال الامم وجد ان المؤسسين الذين وضعوا القوانين لسياسة الناس هم الذين اكسبوا اهل بقاعهم ما هم عليه من العويد والاحوال ضرورة ان كل طائفة عملت بقوانينها وسيست باحكامها حتى صارت كالجبلة لهم فبعض المؤسسين ساير اهل بقعته على ما هم عليه من رديء الخصال وسيء الاحوال فلم يزدادوا بذلك الا ضررًا من الفقر ونحوه والبعض رفع اهل بقعته عن الرذائل وحملهم على التحلي بالفضائل فتحسنت احوالهم وحمدت خصالهم وافعالهم ففي اعتقاد الهنود مثلاً ان السكون والعدم هما الاصل واليهما توءول الاشياء فيرون البطالة احسن الاحوال ويستندون في ذلك الى اسمه تعالى الثابت لانهم فهموا ان معناه الذي لا يتحرك مع ان الامر ليس كذلك بل معناه الدائم الذي لا يزول ازلاً وابداً وسكان جزيرة سيام يقولون ان النعيم الابدي هو كون الانسان لا يجبر على الحركة واتعاب الجسم فلذلك كان السكون وعدم الاشتغال عندهم امرًا مرغوبًا فيه في تلك البلاد الحارة المضعفة لجميع القوى ولان الراحة عندهم امر طبيعي هو المقصود بالذات

فلما اسست القوانين على حسب قطرهم وما يناسب اوضاعهم من الترغيب في الدعة وترك الحركة اعقبت مضار كثيرة بخلاف

اهل الصين فان قوانينهم مؤسسة على الاجتهاد والسعي والحث
على ذلك فتجد احوالهم مستحسنة وقواهم متوفرة وارزاقهم متيسرة فبين
الفريقين بون بعيد مع انهما متجاوران

المسامرة التاسعة والتسعون

الانكليزي والتياترو والكتاب

ثم اننا وان لم نستوفِ الكلام في هذا المقام الّا اننا محتاجون
الى الرجوع الى البيت لناكل ثم نعود للتياتر فانكم ما رأيتموه ولا
وقفتم على حقيقة ما فيه فقاما وركبا العربة واخذا باطراف
الاحاديث الى ان وصلا مكانهما فنحا كل نحو غرفته فلما خلا الشيخ
بابنه قال له ما تقول فيما حدثنا به الخواجا في هذا اليوم فقال انتم
بذلك ادرى وبالحكم فيه احرى فقال ما قال الّا حقًا ولا نطق

الاّ صدقًا واني جلت في بحر الفكر في شان هذا الامر مدة سيرنا في الطريق فوجدته في مقاله صادقًا وبالحق ناطقًا ما كأنه الاّ ساح كل بقعة واثبت له فيها سجدة وركعة وعاشر من استوطنها من السكان في كل الازمان فانه لا يقف على تلك الاحوال الاّ من كان هكذا من الرجال فلله دره عالمًا نحريرًا وفاضلاً بالامور خبيرًا حاز من كل فن طرفا فاخذ منه ملحا وظرفا

فقال له ابنه ومن الغرائب والعجائب معرفته بجميع اللغات فاني اراه يكلم كل انسان بلسانه مع الزلاقة وحسن التعبير والطلاقة كانه في كل لغة اصيل وليس فيها بدخيل ومن مزاياه انه محبوب عند كل من يعرفه

فقال الشيخ ان ذلك من علمه وادبه فان من تحلى بحلية الادب اغناه ذلك عن الحسب والنسب

ثم قال يا بني قم بنا نذهب اليه فذهبا فوجدا الاكل قد كملت هيأته فجلسوا جميعا ياكلون وفي خواص الاطعمة يتحدثون ثم بعد شرب القهوة ذهبوا للتفرج على التياتر فاخذ الخواجا له ولهم تذاكر ودخلوا فلما اخذ كل موضعه دارت الملاعب من كل جانب فسرّ الشيخ بما رأى

وكان الخواجا يترجم له العبارات اللعبية ويبين له ما فيها من النكات الهزلية والجدية وفي الاوقات الخالية بين الالعاب اجتمع بكثير ممن يعرف الخواجا فكانوا يحيونه ويمازحونه ويؤانسونه

ويراعون خاطره وهكذا الى انقضاء اللعب فانصرف الخواجا مع الشيخ وولده وكان بالملعب خلق كثير ما بين نساء ورجال وشيوخ واطفال

فقال الشيخ اظن ان اهل هذه البلدة لا يدخلون تحت عدد وازداد تعجبه من خلوّ بالهم وانتظام حالهم لانه رأى جميع اوقاتهم ما بين اعمال جدية سديدة وهزليات والعاب غريبة مفيدة تكسوهم ثياب ثروة ونزاهة وتفيدهم علوما باحاديث الفكاهة فما يمر عليهم يوم من الايام الاّ وتتزايد اعمال الثروة والنزاهة عندهم فتمضي عليهم الايام والليالي في لذة بال

ثم وصلا الى المحل ونزلا عن العربة فقال الخواجا ايها الاستاذ ان البوسطة تتوجه غدًا فان اردت ان ترسل كتابًا فحرره الليلة فقال له الشيخ جزيت خيرًا ووقيت ضيرًا ثم ذهب كل نحو غرفته وكان اكثر الليل قد مضى

فقال الشيخ لولده يا بني حيث لا ينبغي الان غير النوم فان شاء الله نحرر خطاباتنا غدًا ونرسلها الى البلاد لوالدتك والاولاد فقبل يده وقام لينام فقابله يعقوب بعد قضائه ما كان مشغولا به فسلم كل منهما على الاخر سلام اشتياق ودخلا يتحدثان بما رق وراق فحكى له ما رأوه في هذه الفسحة وعن التياترو وما فيه من النزهة وقال كنت اتمنى تمام سروري بوجودك

فقال له يعقوب الايام بيننا فقال وما الذي عاقك عنا

وفرقك منا فقال بعثني حضرة الخواجا الى بعض اصحابه لامر مهم فقال لعله تم على مرامه فقـال نعم وقد فرح به فرحا شديداً واستفدت انا منه كذلك شيئاً جديداً وهو هذه الساعة فهنأه بها ابن الشيخ ثم تواعدا على الذهاب الى العين صباحا ودخل ابن الشيخ لينام فلما انتبه من نومه اخذ محبرة وكاغدا ويراعا وصار يحرر لوالدته هذا الكتاب

اهدي عاطر تحياتي الى كريمة النسب الطاهرة الاذيال قرّب الله لنا ايام التداني

وبعد بث الاشواق ابدي لجنابك اني منذ فارقت مطلع سعودك ومربع شهودك وانا مشغول البال مرتبك الحال وما من وقت يمر علي الا وانا منتظر ورود خبر منك اليّ اطمئن بـــه عليك وعلى الاخوة والاخوات والاعمام والاخوال والعمات والخالات ولكن كيف السبيل الى تحقق تلك الامال مع بعد ما بيننا على ان بعد الشقة يزيد لوعتي وينغص خاطري وكم هاج عليّ الوجد وقت الانفراد وكم صوّرك الوهم في الفواد فيثير ما انا فيه من النيران ولا سيما اذا اشتد التذكار لهاتيك الديار وما كنت تفعلينه لي من الحنو وعطفك علي ورافتك بي فعند ذلك يهيج وجدي ويكاد ان يشيب من تذكاره فودي ولولا ان منّ الحنان المنان بصحبة اعز الخلان وعرفت يعقوب الدي اخبرت سيادتك عنه فيما سبق لذبت من الم النوى واعتراني من الم الجوى ما لم اجد له دوا

ولعددت ثواني الغربة سنوات وخلت جميع اوقاتي عن اللذات لكن ملازمته لي وشفقته علي وتسليته لي برائق العبارات خفف عني الكروب وربما تحصلت بصحبته على كمال المرغوب مع صحة البدن والنزهة في غالب الزمن ومشاهدة امور ظريفة مع ما اكتسبه منه بالممارسة عند المحادثة والموءانسة واما صاحبنا الخواجا فلا يدع في نفسي شيئًا احبه الا ويجلبه لي لان حبه لي زائد وقد بلغت حد التكلم باللغة الانكليزية وذلك ليس الا بهمته فجزاه المولى عني خيرًا فصرت الان وان لم احصل على درجة عظيمة في اللغة الانكليزية لكن يمكنني قضاء ما يلزمني بحيث اعبر بها عن مقصودي وافهم ما يقال لي وقد اخذت ايضًا في تعلم اللغة الفرنساوية ولست مقتصرًا على ما اخبرتك بهِ بل كل ما وقع نظري عليه او سمعته او فهمته اسطره لكي اطلعك عليه حين العود الى مصر ان شاالله تعالى والذي يغلب على ظني انا نقيم شهرًا بباريز ثم نتوجه الى بلاد الانكليز ووالدي في هذه المدة فضلاً عن اشتغاله مع الخواجا بقرآة بعض دروس عربية بالمدرسة المشرقية ففضله كل وقت ينشر وفخره بين العلماء يزيد ويكثر وليس ثم ما يكدره غير الفراق وعدم ورود المخاطبات الينا منكم فالمرجو عدم انقطاع الرسائل لانها للاطمئنان عليكم من اقوى الوسائل حيث كان ارسال الخطابات ممكن لك مع ما ياتي للخواجا من المكاتبات ثم ارجو تبليغ السلام الى الاخوان والمحبين الكرام

ثم طوى الكتاب وذهب به الى والده وسلمه له فقراه بتمامه وسر من حسن نظامه وسلاسة مبانيه وجزالة معانيه ثم قال له ان كتابك فيه الكفاية فانه استوفى ما يلزمني كتابته ثم وضع اسمه بجانب اسم ولده وكتب على هامش الكتاب بيده وصية بالاولاد وبارسال رسائل مع الوراد تبين فيها ما عندها من الاخبار ثم برشم الكتاب وقام هو وولده ودخلا عند الخواجا فحياها واكرم منواها ثم قال للشيخ اني كتبت خطاباتي التي اريد ارسالها الى القاهرة فقال الشيخ ونحن كذلك وسلمه الخطاب فوضعه الخواجا داخل الظرف وبرشمه ثم سلم ليعقوب الظرف بما فيه فتوجه به الى البوسطة

ثم قال الخواجا للشيخ اني كنت اريد ان اخرج مع حضرتكم للتنزه حسب الاتفاق ولكن ارجوكم السماح فقد عاقني عن ذلك امر مهم وهو ان لاحد اصحابنا قضية مهمة في بلد قريب ولا بد لي من التوجه معه لبتها وقد واعدته على ذلك وان شئت الذهاب معنا فلا بأس لا سيما والبلدة قريبة والسبل الموصلة لها لطيفة ولا تخلو من فائدة وان شئت ان تبقى هنا ومعك يعقوب فلا مانع وان شاء المولى في يوم غير هذا نذهب معًا ومع كل هذا فالرأي لكم فقال الشيخ ان استحسنتم بقاءي هنا فلا مانع

فقال الخواجا الرأي ما ترونه واظن اني اعود قبيل الغروب وفي ذهابي وإيابي استكشف لكم الطريق فان وجدت بها ما

يسر خاطركم ذهبنا جميعًا فاتفقا على ذلك ثم حضر الطعام فتناول كل مـــا تيسر وقام الانكليزي وتوجه وبقي الشيخ وولده ويعقوب

المسامرة المائة

الجغرافية

فقال الشيخ ليعقوب قد سبق انك اخبرتنا ببعض حوادثك حين اسرك ولم تذكر لنا ما جرى بعد عودك ولا ما حصل لاختك فهذا اوان ذلك فاذكر لنا ما بقي منه في بالك وكان الخواجا ترك العربة للشيخ فقال يعقوب سمعا وطاعة وها هي العربة حاضرة فلنركبها ونذهب لنغنم اللذتين ونكون التسلية بشيئين فنظر الشيخ الى ولده فراى السرور على وجهه فقال ذلك امر حسن

لانأباه ولكن انتظراني نحو ساعتين فان لي اربًا اريد قضاه فاجابه يعقوب لذلك وقام هو وابن الشيخ الى غرفة يعقوب فمد يعقوب يده الى كرة وقال لابن الشيخ تذكر ما كنت وعدتك به حين كنا في البحر اول تعرفي بلك فقال ابن الشيخ وقد كتبته في رقعة وارسلته لوالدتي فقال يعقوب اني اشتريت هذه الكرة التي هي مثال للارض بما فيها لابين لك عليها الاقطار المعمورة من غير المعمورة وكيف تتوزع البحار عليها وحيث امهلنا حضرة الوالد ساعتين فالرأي عندي ان تصرف ذلك في معرفة بعض شيء من الجغرافية فقال ابن الشيخ ان في شوقًا شديدًا لمعرفة هذا العلم فقال يعقوب ستعرف ذلك قريبًا ان القيت بالك فانه علم لا صعوبة فيه

ولنبدأ بمعرفة البحار المحيطة بالدنيا ويكفي الان ان تنظر لهذه الكرة ليثبت ما تراه في ذهنك

فاعلم ان جميع ما تراه على سطحها محدودًا بخطوط هو اشارة الى الارض القارة والجزائر وما سواه من سطح الكرة هو المستور بالمياه ويتكون عنها البحار المسماة باسماء مختلفة على حسب اوضاعها وهذا الشريط المستطيل المنفرد وحده الممتد من اعلى الى اسفل الضيق الوسط العريض الطرفين هو المسمى بالدنيا الجديدة وهي الامريكتان الشمالية والجنوبية فالشمالية هي الجزء الاعلى من الشريط والجنوبية هي الجزء الاسفل منه

واما الدنيا القديمة فهي هذه القطع الثلاث المتصل بعضها

بعض الممتدة . بالاتساع من اعلى الى اسفل بدون انتظام ونقسم الى قسمين صغير وكبير فالصغير في الجنوب الغربي ويعرف بافريقة وهي قطعة من الارض منها اقليم مصر والسودان والحبشة والمغرب وبلاد اخر والكبير في الشمال الشرقي والشمال الغربي فلذا قسموه الى قسمين ايضا غربي وشرقي فالغربي يعرف باوروبا التي منها فرانسا وجرمانيا والانكليز والروس وغيرها والشرقي يعرف باسيا التي منها بلاد العرب وارض الشام والعجم والهند والصين والترك وغيرها وجميع هذه القطع الصغيرة المرسومة في الجنوب الشرقي جزائر كبار وصغار واشهرها جزيرة هولاندة الجديدة وباقي هذه الجزائر تسمى جزائر اوقيانوس وهي من الدنيا القديمة

واعلم ان ما يسمونه بالبحر المحيط الجنوبي هو كناية عما انحصر من الماء بين شرقي الدنيا الجديدة وغربي الدنيا القديمة وما يقال له البحر الاطلنطيقي هو المحصور بين غربي الدنيا الجديدة وشرقي القديمة وهذان البحران ممتدان جهة القطبين وهناك يجتمعان ويتكون عنهما البحران المتجمدان وهما المتجمد الشمالي عند القطب الشمالي والمتجمد الجنوبي عند القطب الجنوبي

فاذا تاملت ذلك رأيت ان معظم الارض القارة في النصف الشمالي من الكرة وان معظم الماء موجود في الجنوبي منها ولذا اطلقوا اسم الاوقيانوس على ما انحصر من الماء بين الدائرة القطبية والارض القارة من جهة الجنوب الذي منه رأس عشم الخير وبحر

الهند المحيط بجزائر الاوقيانوس ويتصل بحدود افريقة وآسية من جهة الجنوب انما هو قطعة من هذا البحر العظيم فكل مـــاء يجري وسط الارض القارة من اي جهة من جهات الدنيا قديمة وجديدة مصبه تلك الابحر الاربعة

ثم ان كل بحر منها يتفرّع منهُ بحار صغيرة تخترق الاراضي القارة مثل البحر المحيط قد اخترق الدنيا الجديدة فتكوّنت بها منهُ فروع منها بحر بهران وبحر الكاليفورني وبحر تبا وكذلك دخل منهُ في الدنيا القديمة فروع مثل بحر يابونيا وبحر الصين وغيرها من البحور وكذلك البحر المتجمد الشمالي تفرّع منـــهُ فروع فمن فروعه بالدنيا القديمة البحر الابيض ومن فروعه بالدنيا الجديدة البحر القطبي ومن فروع البحر الاطلنطيقي بالدنيا القديمة بحر بلتيقة والبحر المتوسط الذي على ساحله مدينة الاسكندرية وخليج غينا وفي الدنيا الجديدة بحر باقان وبحر هودسون وخليج مكسيك وغير ذلك وتشعب من بحر الهند البحر الاحمر وهو بحر القلزم وبحر عومان وخليج بنجال وبحر العجم

والبحر المحيط متصل بالمتجمد الشمالي في بغاز بهران وببحر الهند ببغازات عديدة في جزائر السند وهولاندة الجديدة ويتصل بالبحر المتجمد الجنوبي بالاوقيانوس وبالبحر الاطلنطيقي بالاوقيانوس وببغاز ماجيلان

واما البحر الاطلنطيقي فيتصل بواسطة البحر المتجمد الشمالي

ببحر اسلاندة وبواسطة البحر المتجمد الجنوبي بالاوقيانوس ويتصل بالبحر المحيط بالاوقيانوس وببغاز مجيلان وببحر الهند بالجزء من الاوقيانوس الذي في جنوب رأس عشم الخير

وجميع المياه الجارية فوق ارض الدنيا القديمة تصب في الابحر الاربعة التي ذكرناها كما تقدم وخط انقسام تلك المياه يتجه على غير انتظام من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي فيخرج من ابتداء الشرقي الى راس عشم الخير ويمرّ ببرزخ السويس

واما الماء الجاري في ارض الدنيا الجديدة جميعه فينصب في الثلاثة الابحر الاصلية وهي البحر المحيط والاطلنطيقي والمتجمد الشمالي وخط انقسامه فيها يتجه من الشمال الى الجنوب

ومساحة ارض الدنيا الجديدة عمارًا وخرابًا وسهلاً وحزنًا ٣٩٦ ٠٧٠ ٨ ميرياميترمربع

ومساحة الدنيا القديمة ٠٠٠ ٠٠٠ ٦٨ ميرياميترمربع اي ان سعة الدنيا القديمة قدر سعة الدنيا الجديدة ثماني مرات ونصفًا تقريبًا

وبما ذكرته لك تعلم اقسام المعمور من الارض على وجه العموم وما فيها من البحار ايضًا ثم لا بدّ بعد ذلك من معرفة الامم الساكنة في كل قسم على حدته وهذا امر يطول لو اردنا الدخول فيه على وجه التفصيل فنقتصر على ذكره مجملاً لكن قبل الدخول في شرح ذلك اذكر لك بعض كلمات تقف بها على تاريخ علم الجغرافية لتعرف كيف تقدم هذا العلم تدريجًا

ثم نتكلم على قطعة اوروبا حيث نحن الان فيها فنقول الكرة الارضية كانت غير معلومة من جميع جهاتها كما هي الان فكانت كل امة في تلك الازمان الخالية تعد نفسها في وسط الارض وكانوا اذ ذاك يعتبرونها كقرص مستدير يحيط بهِ نهر عظيم كانوا يسمونه الاوقيانوس وكانوا اذ ذاك لا يعرفون من البحار غير البحر المتوسط وكانت ارض الروم تعتبر انها مركز لذلك القرص ويظنونه ممتداً من جهة الشمال الى ما بعد نهر الطونة ومن جهة الغرب الى بغاز قادس ومن جهة الشرق الى حدود آسيا الصغرى ومن الجنوب الى آخر افريقا والبلاد المعلومة كانت بلاد الروم واسيا الصغرى ومصر وايتاليا

وفي زمن هيرودوط بطل اعتقاد الناس في البحر المحيط واتسعت قطعة اوروبا وآسيا وافريقا ما استكشف من الارض والبلاد وبقي ذلك الى زمن القرطاجيين فساحوا في البحر المحيط واستكشفوا الجزائر الخالدات في الجهات الجنوبية وجزائر الانكليز في الشمالية وبعد الاسكندر الاكبر عرفت اغلب بقاع اسيا الكبرى

ثم ان استرابون الجغرافي الشهير حصر جميع المعلومات الجغرافية الى وقته فكانت عبارة عن اغلب بقاع اسيا وافريقا واوروبا وهي محاطة ببحر عظيم والرومانيون بسبب حروبهم في جميع جهات الدنيا احاطوا بعلم كثير من جهات اوروبا خصوصاً الجهات الشمالية منها وكانت غير معلومة لذاك الوقت وعلمت حينئذٍ الامم

الساكنة على نهر الطونة وبحر البلتيكا وجزائر الانكليز

وفي القرن الثاني من الميلاد جمع بطليموس جميع المعلومات الجغرافية وضبط حدود الارض المعلومة ووسع الكلام في قطعة افريقا وآسيا وبين ارض الصين الا انه لم يعين الحد الغربي لافريقا

والمتبربرون النازلون من الشمال الذين هجموا على من باوروبا هم الذين وسعوا دائرة جغرافية هذه البقعة وذلك في القرون الوسطى ثم جاء من بعدهم العرب فبيّنوا جميع جهات اسيا وافريقا كل البيان وساحوا ارض الصين وجزائر السند وفي وقتهم مدّت الديانة المحمدية اغصانها وهزّت بلابل العز افنانها حتى وصلوا النهر المار من وسط ارض الهند ولم تعلم جهة شمال اوروبا الا من عهد حرب النورماندي ومن ذلك الوقت علمت البروسيا والسكنديناو والروس ومن عهد حروب الاتراك والمغول وقف على معرفة سكان البقاع المركزية لآسيا وارض التتار وبلاد السيبيريا وغيرها من الجهات

ومن حين حرب القدس اشتاقت الناس الى السياحة فاتسعت دائرة الجغرافية اتساعًا عظيمًا بما استفيد من رسائل السياحين وترحلهم فعلمت اوضاع امم كثيرة كانت مجهولة الى ذلك الوقت خصوصا اوضاع اسيا وافريقا

ثم لما اشترك جميع الناس في حب التجارة والسياحة حصل لهذا الفن تقدم عظيم وكثرت المعلومات وفي القرون الثلاثة التي

اشتغل فيها اهل الونديده وجنوه بالتجارة من بلاد الهند الى اوروبا بطريق البر لا بطريق البحر علمت اغلب البقاع والطرق المجهولة للناس ولما اخذ البرتغاليون البحر طريقًا لتجارتهم الهندية استكشفوا استكشافات عظيمة ووصلت سفنهم الى ما لم تصل اليه سفن الاقدمين حيث كانوا لا يتعدون رأس نون في المحيط الاتلانتيكي اما البرتغاليون فقد وصلت سفنهم الى جزائر كناريا سنة ١٤١٧ من الميـــلاد

ثم في سنة ١٤٣٢ وصلت الى جزائر الاسوز ثم حصل استكشاف السنجال سنة ١٤٤٥ وفي سنة ١٤٧٣ جاوزوا خط الاستواء وفي سنة ٨٤ استكشف برطولي دياد راس عشم الخير وفي اثناء سعادة البرتغاليين بالتجارة ظهر كرستوف كلومب الاسبانيولي واستكشف الدنيا الجديدة في الثاني عشر من شهر اكتوبر الافرنكي سنة ١٤٩٢ وفي تلك المدة وصل البرتغاليون راس عشم الخير وجميع سواحل تلك الجهة ومن ذلك الوقت صار ما بين اوروبا والهند طريقًا مسلوكًا وعلم الناس بحر العجم والبحر الاحمر وخليج عومان وخليج بنجال وغير ذلك من بقاع شتى وذلك انه من نحو مائة سنة كانت اغلب التجارة فيهـا للبرتغاليين فاستكشفوا جزيرة ملقة سنة ١٥٠٠ وجزائر السند سنة ١٥١٠ وفي التي تليها جزيرة سيام ثم في التي تليها جزيرة ملوك وفي سنة ١٥١٦ استكشفت سواحل الصين وفي سنة ١٥٤٢

سواحل يابونيا ثم فعل الاسبانيون كما فعل البرتغاليون في جهات امريكا وفي سنة ١٥١٢ صار اغلب جهاتها معلوما مسلوكا وفي سنة ١٥٢٠ علمت الطريق من امريكا الى الهند وفي سنة ١٦١٠ كثر استكشاف جهات الدنيا الجديدة حتى علمت بتمامها

ومن حينئذ اتسعت دائرة التجارة والملاحة وجابت جميع الامم البحار بسفنها واستكشفوا كثيرًا من الجزائر ووقفوا على جميع الجهات المعمورة من الارض ولم يبق لهم مجهول يبحثون عليه غير الطريق الموصل للقطب الشمالي ووسط افريقا وهولندة الجديدة

وما ذكرته لك وان كان على وجه الاختصار الا انه يمكنك به ان تعلم كيف تقدم هذا العلم الى ان صارت الملاحة الآن اهون شئ حيث بني على قواعد بمقتضاها تجوز الفلك البحار العظام وتسير على خطوط معلومة مضبوطة بالحساب ويصل الناس الى اقصى اغراضهم من اي جهة من الكرة امنين مما كان يحصل في الازمان الخالية فان الملاحين كانوا اغراضًا لكل مخيف لقلة معرفتهم بهذا العلم فكانوا يضلون عن الطريق واذا تعددت الطرق لا يدرون النجاة في اي طريق فكان من يسيح منهم تطول عليه المدة

وبينا هما يتحدثان والى تلك الكرة ينظران اذ دخل عليهما الشيخ فاراد يعقوب ان يقطع الكلام فقال له الشيخ امض فيما انت

فيه فقال اني خشيت تضييع الوقت فاحببت ان اتكلم معه على الكرة في بعض مواد جغرافية ولكن حيث حضرتم فينبغي ان نقف عندما وصلنا ونخرج فقال وانا اريد ايضاً ان تبين لي مزية هذه الكرة وما عليها من الرسوم فاعاد له يعقوب حاصل ما تقدم بالاختصار ثم قال وسيكون ذلك ان شاء الله تعالى في مرة اخرى

فقال الشيخ بل انجز ذلك الان ونجعل خروجنا بعد ساعة فانه ليس المراد من الخروج غير الفسحة وطال ما كنت اتشوق الى الاطلاع على جغرافية قطعة اوروبا وكم سنح بخاطري ان اسال حضرة الخواجا عن ذلك فتحدث امور تمنع وحيث كنت الان بهذا الصدد فاروم منك شرح مـا تعلمه فيها فقال يعقوب هذا بعض ما يجب علي

قطعة اوروبا محاطة ببحار من جميع الجهات الا جهة واحدة فمن جهة الشمال بالبحر المتجمد الشمالي ومن جهة الغرب بالبحر الاطلنطيقي ومن الجنوب بالبحر المتوسط ومن الشرق بجزء من البحر المتوسط وبالبحر الاسود وبخط وهمي يمر باعالي جبل القوقاز ويمتد الى بحر الخزر ثم بنهر اورال وجبالها وينتهي الى رأس ويجاز واكبر طولها خمسمائة وثلثون ميريامتر واكبر عرض منها ثلثمائة واربعة وثمانون ميريامتر وطول سواحلها البحرية ٢٢٧٣ ميريا متر وحدها في الارض طوله ٣٩١ ميريامتر ومساحتها ٩٧٧٨٠٤

ميريامتر مربع وعدد اهلها ٢٢٠٠٠٠٠٠ نفس وعلى حسب ارضها وما تشتمل عليه من الجبال يمكن تقسيمها الى جنوبية وشمالية فالاولى عبارة عن ارض مرتفعة جداً وبها جبال عالية مختلفة هيئة وانحداراً وبسواحلها البحرية خلجان كثيرة

وبارض ذلك الجزء انهر كثيرة تمتد في جميع جهاته وبهذه الصفات تكون محفوظة من الرياح الشمالية وعرضة للرياح الشرقية الافريقية الرطبة بسبب البحر المتوسط والثانية عبارة عن ارض واسعة وبرك متعددة ولهذه الصفات كانت عرضة للرياح الباردة الثلجية التي تهب من اسيا ومن البحر المتجمد الشمالي فارتفاع اوروبا الجنوبية وكثرة موانعها سبب في اتساع دائرة الفلاحة والتجارة بها وموجب لاستقلال اهلها وتمدنهم بخلاف اوروبا الشمالية فان ارضها مع اتساعها ليست مسكونة الا بامم فقراً متوحشين في قبضة حكومة تتصرف فيهم كيف شاءت وكل من الاثنين وان وجد في سواحله خلجان و بحر الا ان وضع البحر المتوسط الملاصق لاوروبا الجنوبية بين ثلاثة اقسام الدنيا اسيا وافريقا واوروبا هو الموجب لسعادة اهل هذا القسم منذ اربعة الاف سنه وهو منبع التمدن ومركز تجارة جميع الامم ولو قارنا قطعة اوروبا بغيرها من الارض لوجدناها اقل منها خيراً بالطبع فانه ليس بها ما بالاخرى من النبات والحيوان والمعادن واكثر ما يوجد بارضها الحديد وكان غالبها مغطى بالغابات لكن مع طول الزمن ومساعدة طيب الهواء وهمة

هلها صارت اكثر بقاع الارض عمرانًا وخيرًا فالانسان هو الذي بتدبيره كساها حلل البهاء فهي دليل على عظم قدر نوع الانسان وعلو شانه فقد جلب لها جميع انواع النبات النافعة من البقاع الشاسعة وكذلك جمع فيها انواع الحيوانات من جميع الجهات والف بين هذه الاجناس فتفرع من ذلك افنان التمدن وبعد ان كانت انهرها تمر في خلالها بغير فائدة عمل لها اهلها جسورًا قوية وطرقًا هندسية وسووا سطوح جبالها ونشفوا مستنقعاتها المضرة فاتسعت بذلك ارض الزراعة وعمرت بالمدن والبلاد وبحسن التدبير تسلطنوا على البحار واخترعوا في ذلك اختراعات كثيرة حتى وصلت رسائلهم الى جميع الجهات وجلبت منها جميع المحصولات فزادت ثروة اهلها وصحت ابدانهم وصارت ارضها انقى الارض هواء واكثرها عمارًا وتنقسم اوروبا بالنظر للبحار المحيطة بها والانهر الموجودة داخلها الى سبعة اقسام طبيعية

الاول الاندلس

الثاني فرانسا والجول

الثالث جرمانيا

الرابع ايتاليا

الخامس الروم

السادس الروس

السابع اسكاندناوة

ويضاف الى ذلك قسم سكان الجزائر وهم الانكليز فتكون اقسامها به ثمانية وهذه الاقسام كانت مسكونة في الزمن السابق بست امم متباينة فكان في جزيرة اليونان والروم وجنوب ايتاليا امة يقال لها البيلاسك وفي شمال ايتاليا وبحيث جزيرة الاندلس امة يقال لها الايبير وفي الجول وجزائر الانكليز امة الجال او الكلت وفي جرمانيا والسكانديناوه الجرمانيون وكانت تنقسم الى كبمريس وتوتون وجوت وبارض الروس كان السلاف والفنواي واول امة منهم دخل فيها التمدن هي الامة الرومية فالروم هم السابقون في ذلك وعنهم اخذ من جاورهم من الامم ولكن لم يغيروا شيئًا من عوائد الامم الذين استولوا عليهم وغلبة ما هناك انه خرج اناس منهم الى ايتاليا وجزائر البحر المتوسط وبعض من جهات الجول وكانت جل همتهم بلاد المشرق فاسسوا بها دولة عظيمة وتبعهم الرومانيون وهم امة صغيرة من الايتاليين استولوا باستمرار الحروب على الثلاث الاول من الامم الست المذكورة واختلطوا بالخامسة وجهلوا البقية

فلما تمكنت دولتهم وقويت شوكتهم واتسعت مملكتهم تغيرت جغرافية اوروبا الجنوبية وذلك لان ملكهم وصل من جهة الغرب الى البحر الاطلنطيقي ومن الشمال الى نهر الرين ونهر الطونة ومن الشرق والجنوب الى حدود اوروبا من ابتداء مصب الطونة في البحر الاسود الى بغاز الطارق وكان حكمهم ممتدًا كثيرًا فيحكمون

على جميع الجهة الشرقية من اسيا والشمالية من افريقا وكانت مملكتهم مقسمة الى ولايات منها ولاية الروم وولاية ايتاليا وولاية اسبانيا وولاية الجول وولاية بروتانيا وغيرها مما على شاطئ نهر الطونة الايمن ثم في سنة ٣٦٤ من الميلاد انقسمت تلك الدولة الى دولتين مشرقية ومغربية فكان يتبع الدولة المشرقية الروم وبعض جهات من اوروبا وولايات اسيا جميعها والجهة الشمالية الشرقية من افريقا ويتبع الدولة الغربية جميع ما بقي من افريقة من الشمال الغربي وما بقي من اوروبا

وبعد تلك الايام قامت الامم المتبربرة التي كانت متوطنة بالجهات الشمالية من اوروبا واغارت على الجهات الجنوبية منها واستولوا عليها وابطلوا دولة الرومانيين المغربية وغيروا ترتيب سياسة اوروبا وسموا الارض بغير اسمائها فلذلك تغيرت جغرافية هذا القسم

والذي استولى على جزيرة الاندلس من تلك الامم امة يقال لها الويزجوث وعلى ارض الجول امة منهم يقال لها الفرنج والذي استولى على ايتاليا الاستروجوت ثم اللومبـــاردي وعلى جزائر الانكليز الانجل والسكس وعلى ارض جرمانيا السلاف اي الصقالبة ولم يبقَ من دولة الروم المشرقية الا ارض الروم فقط

فازمانهم كانت فتنًا وحروبًا وسفك دماء واستمر ذلك الى سنة ثمانمائة ميلادية ثم قويت الفرنج واسست دولة المغرب وكانت

تشتمل على الجول وايتاليا وجرمانيا الى نهر الطونة وخمدت سطوة الاقوام المتبربرة وابتدأت جرمانيا في التمدن وسمع باسم البلغاريين والبوهيم وغيرهم وظهرت دول صغيرة منها دينمرك ونورويج وسويد وفينلند وظهر اسم الروس

ثم دخلت العرب اوروبا واستحوذت على الاندلس وانتزعتها من الاوروباويين وادخلت جزائر الروم في ضمن اسيا

واستمر النزاع بينهم الى سنة ٨٤٣ ثم زالت دولة الفرنج بالكلية وظهر بدلها ثلاث دول من الامم الثلاث التي كانت متركبة منها وهي فرانسا وايتاليا والمانيا وفي القرن الحادي عشر انقسمت اوروبا الى دول صغيرة فكان في الاندلس ثلاث دول وهي نوار وليون وكاستيل

وفي الجول فرانسا واللورين والبرونس وغيرها وفي جرمانيا المانيا وبوهيم والهنجري الذين هم المجر والبولونيا اي اللاه وديفرك وسويد ونورويج وسكنديناوة والروسية وغير ذلك وفي ايتاليا ايتاليا وصقلية وغير ذلك وفي جزائر الانكليز ثلاث دول بروتانيا وايكوسا وارلاندة وبقيت مملكة الاسلام والروم خارجة عن أوروبا وبتوالي الازمان وتقلب الحدثان تداخلت الدول بعضها في بعض

ففي القرن السادس عشر تغلب بيت ملك النمسا على

اوروبا وغيّر ترتيبها فدخلت جزائر اليونان في مملكة الترك وانعزلت عن اوروبا

وانقسمت ايطاليا الى سبع دول وانفصلت جزيرة الاندلس من مملكة الاسلام وصارت اربع دول من ضمنها مملكة البرتغال

وانقسمت فرانسا الى اكثر من اثنتي عشرة دولة وجرمانيا الى اربع دول المانيا والمجر واللاه ودينمارك

وانقسم الروس الى امارتين امارة ليتاني وامارة مسكو وهذه الاخيرة مركبة من خلق مجهولة احوالهم

وانقسم السكدیناوة الى مملكتين السويد ونوروج

وانقسم الانكليز الى ثلاث ممالك بروتانيا وايكوس ولرلانده وكانت نيران الحرب في تلك المدة مشتعلة ليتخلص من قهر ملك النمسا من كان تحته من الامم فاستمر ذلك مائة وخمسين عاماً ثم انغلب ملك النمسا وخرج كثير من ملكه الذي كان مشتملا على بجيجزيرة الاندلس وايتاليا والبلاد الواطية (هولاندة) وعملت بين الدول شروط تعرف في التاريخ بشروط ويستفالي وعلى مقتضاها ترتبت اوروبا ترتيباً جديدا استمروا عليــه الى سنة ١٧٨٩ فكانت حيئئذٍ بلاد الروم في قبضة الترك وايتاليا كانت منقسمة كما كانت في القرن السادس عشر وجزيرة الاندلس كانت منقسمة الى دولتين اسبانيا والبرتغال والجول الى عدة دول صغيرة وجرمانيا الى المانيا وبروسيا ودينمارك واللاه والمجر

والى دولة مركبة من عدة جهات وصار الروس دولة واحدة وبقيت السكنديناوة على ما كانت عليه وصارت جزائر الانكليز دولة واحدة

وكذا الحروب التي حدثت عن قيام فرانسا غيرت هيئة اوروبا تغييراً كبيراً ففي سنة ١٧٩٧ كان لفرنسا حدودها الطبيعية ما عدا سويسرة ثم زالت دولة ونديك اي البندقانيين وقسمت دولة اللاه بين البروسيا والروسية والنمسا وفي سنة ١٨٠٢ انضمت ولاية البيومنتي الى فرنسا وزالت دولة المانيا وفي سنة ١٨٠٦ عوضت بدولة النمسا وتكونت من ولايات باويرا وويرتانبرج وسكس وولايات اخرى ودولة المانيا المتعاهدة وانفصل من ايتاليا جهاتها الشمالية واستقلت وملكت فرانسا عدة ولايات اضافتها لملكها وفي سنة ١٨٠٧ خرج كثير من الولايات الداخلة في البروسيا من قبضتها وصارت ممالك مستقلة منها ولاية الويستفالي وخرجت ايضاً عنها ولاية اللاه واستقلت باسم وارسووي

وفي سنة ١٨٢١ اتسعت دولة فرانسا وخرجت عن حدها الاصلي بادخال هولاندة وسواحل البحر الشمالي وضمت لها التوسكاني وولايات الكنيسة الرومانية وكانت تحكم على ولايات نهر الرين وجزائر الروم وايتاليا ونابلي واسبانيا والبرتغال وغير ذلك

وكان من جملة الشروط التي ترتبت عليها اوروبا المنعقدة

سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ ان يكون جزء من جزائر الروم تحت حكم الترك وان يكون الباقي منها على الاستقلال هو مملكة الروم وصارت ايتاليا عبارة عن امارة صقلية وامارة الكنيسة وامارة توسكانا وامارات اخرى صغيرة وصارت حكومة الجول عبارة عن مملكة وجزء منها صار هو مملكة هولاندة وجزء اخر أعطي للبروسيا وغير ذلك وانقسمت جرمانيا الى تسع وثلاثين ولاية متعاهدة اكبرها النمسا وبروسيا وان يكون جميع شمال اوروبا واسكنديناوة في تصرف الروسيا وكانت منقسمة الى ولايتين تحت تصرف ملك واحد وصارت جزائر الانكليز دولة واحدة ويوجد في هولاء القوم الى الان اثار عوائدهم ولغاتهم الاصلية فالروم اغلب اهلها من البيلاسك ولغتهم من لغة الروم القديمة واغلب ايتاليا من الامة القديمة ودخل معهم الجرمانيون في الجهة الشمالية ودخل في الجنوبية العرب ولغتهم صارت من الرومية وبقي في جزيرة الاندلس ما قل من الامة الاصلية واغلبها من الرومانيين والويزيجون والعرب ولسانهم من اللغة الرومانية وفي الجول قليل من سكانها الاول واكثرها اخلاط من الرومانيين والجرمانيين ولسانهم مأخوذ من الرومانيين واغلب سكان جرمانيا من النسل القديم والسلاو ولسانهم هو لسان ابائهم الاول من غير تغير والروس عبارة عن سلاو وفينو ولسانهم اللسان القديم واهل السكنديناوة والتوتونيون لسانهم هو القديم ايضاً ونصف اهل جزائر الانكليز من الامة

الاصلية والنصف الثاني من الجرمانيين والرومانيين ولسانهم مشتق من لسان التوتون مع اللسان الروماني او الفرنساوي وفي جهة الجبال يوجد بعض يتكلم بلسان السلت التتار وهم الامة الاصلية وبعض اخر اتراك وجراكسة وباوروبا في هذه الحالة ثلاثة انواع من سكانها الاصليين ففي جهة الجنوب الطائفة اليونانية الرومانية وهم ينقسمون الى اروام وتليانيين واندلسيين وفرنساوية وعددهم نحو سبعين مليونًا

وفي الوسط والغرب نوع التوتون وينقسم الى المانيين وسكنديناوة وانكليز وعددهم نحو ستين مليونا وفي الشمال والشرق عائلة السلاو أي الصقالبة وتنقسم الى الروس والسلاه وعددهم سبعون مليونا والى الفينوى والترك واليهود وغيرهم ويقربون من عشرين مليونًا وغالب اهل اوروبا يتدينون بدين النصرانية وهناك قليل من المسلمين واليهود وفي بعض بقاع صغيرة في جهتها الشمالية عباد اوثان واهل الجهة الجنوبية يبلغ عددهم نحو مائة مليون والروم بالجهة الشرقية وعددهم ستون مليونًا والبروتستان بالجهة الشمالية وعددهم خمسون مليونًا والمسلمون واليهود وغيرهم نحو عشرة ملايين

واما جيوش الدول الاوروباوية فعددهم يقرب من مليونين من المقاتلين في وقت السلم ويصرف عليهم في العام ما يقرب من خمسي ايراد ممالكها

ثم انه خشي طول المجلس فقال وهذا الذي ذكرته في هـذه الساعة انما هو على وجه الاجمال والاختصار وان شاء الله تعالى في مرة اخرى ابين لكما كل دولة على حدتها

فقال ابن الشيخ كنت اود ان توقفني على البحر المتجمد وكيفيته وهل يستطيع احد ان يقرب منه فقال الشيخ نجعل الكلام في ذلك بالعربة ثم قاموا وركبوها

المسامرة (١٠١)

نزهة في باريس

فقال الشيخ اني ما خرجت مرة بهذه البلدة الا وعجبت من كبرها وكثرة اهلها وتتابع حركتهم ليلا ونهارًا وكان الشيخ يتضرر من سكناه داخل البلد لما يرى ويسمع دائما من الحركات القوية والاصوات الانسانية والحيوانية فان العربات ليلاً ونهارًا تمرّ وتكر فيكون لعجلاتها اصوات في تصادمها بالاحجار المفروشة في الطرقات

ولشبابيك الدور والقصور والحوانيت ارتجاج من الارياح والفتح والغلق وللسكارى واصحاب الالعاب والحظوظ اصوات والحان وذهاب وإياب وكل ذلك يورث القلق وتشويش البال وتعطيل الاشغال فقال ليعقوب لو سكنا خارج البلد لكان بنا اوفق ولصحة جسمنا ابقى وارفق فقال يعقوب رأي الشيخ في محله فان الخواجا ايضاً متضرر من الاقامة بهذا المحل ولكن الذي الجأه الى الاقامة به قربه من محل شغله واصحابه وقد وصف لي محلاً اوسع من هذا يطل على حديقة وبينه وبين الشارع مسافة ولو كان عند الخواجا خبر بتضرركم من هذا المحل لبادر الى النقلة وما تاخر فاثنى الشيخ عليها ثم قال ان مدينة باريز لمن اعجب مدن الدنيا بما حوته من المحاسن والزخارف والتحف واللطائف وثروة اهلها وحسن بنائها واظن ان عيشة الفقراء بها ضنكة لكثرة اهلها

فقال يعقوب ربما كان حال الفقير بها احسن منه بغيرها فان اصحاب المال كما يعملون الاعمال العظيمة ليربحوا كثيراً كذلك الفقراء لهم طرق متنوعة يصلون بها الى اقواتهم وتلذذاتهم على حسب حالهم وفقراء كل مدينة على حسبها وكل ما كبرت المدينة وزاد بها زهو الاغنيا كثرت بها طرق معاش الفقراء فانهم مع انتشارهم في الخدم والوظائف يتتبعون اموراً كثيرة لا يعلمها الا من دقق النظر اليهم مثلا البواب لا يقتصر على وظيفته بل يرى هو وعياله مشغولين بما يجلب لهم سعة المعاش فالرجل

يخصف النعال والمداسات والمرأة تخيط الثياب والبنت تغني وتتعلم الغنا والولد يسحق اجزاء الملونات واذا تاملت تجد بالدروب اناسًا فقراء يجمعون من التراب والطين قطع حديد ومسامير ورجالا واطفالا يمسحون مراكيب الناس واخرين يقصون شعر الكلاب واخرين يبيعون الكبريت والحلاوة او المشروبات للاطفال ومنهم من ينادي على الملابس العتيقة ومن يبيع الرياحين واوراق الحوادث والاعلانات وقطع اللعب داخل التياترات وهذه الامور وان كانت في الظاهر قليلة الفائدة لكن كثيرًا مـا وصل بها الفقراء الى ملك عقار ومال حتى عدوا من وجوه الناس واظن انك رايت اناسًا بالليل يجمعون الورق الملقى بالطرق والعظام فقال نعم قال هذه امور يتعيش منها خلق كثيرون ويكسبون منها قوت عيالهم وهناك طوائف كثيرة عيشتهم من التملق والكذب والتجسس والخيانة ونحو ذلك مما يوجد في المدن الكبيرة

فقال ابن الشيخ بالقاهرة كثير من الناس يجمعون فضلات السجارات التي ترمى وياخذون منها الدخان ويبيعونه بالاسواق ويقتاتون بثمنها واخرون يجمعون قطع الزجاج ويبيعونها لمن يصنعها اساور لفقراء النساء ونحو ذلك

فقال الشيخ ان الله سبحانه وتعالى يسر لعباده طرق الارزاق وهو في الحقيقة الرزاق فجعل لكل مخلوق وجهًا يصل اليه منه

رزقه الذي تقوم به حياته فسبحان مسبب الاسباب وهو المعطي الوهاب فقال يعقوب. مدينة باريز فضلاً عن كونها مركزًا للهو واللعب والحظ والطرب هي ايضًا مركز لتجارة واسعة ترد اليها من جميع اطراف دولتها ومن جميع اقطار الدنيا وتصدر منها الى البقاع كافة فلا بقعة في الارض الا وترد اليها منها بضاعة تجدها مرغوبة لجميع الناس لاحكام صنعتها وحسن رونقها وبهجتها فكل اهل اوروبا يرغبون فيها ولا يستغنون عنها وكذا اسيا وافريقا وامريكا وجزائر الاوقيانوس فلذلك تعلق الباريزيون بالاشتغال بالصنائع واكثروا من الورش والمعامل فانسعت دائرة تجارتهم فتراها بذلك منبع الصنائع اللطيفة والتحف المنيفة فليست تخت دولتها فقط بل تخت دول الكرة بتمامها

ثم قال ايها الشيخ قد صرنا خارج البلد فينبغي ان نصرف هذه الساعة في التروح والتنزه وان شاء الله تعالى ابين لكما ما اشتملت عليه باريز من الصنائع وما فيها من الورش والمعامل وبيوت الاعمال فنظر الشيخ يمينا وشمالا وقال ما الطف هذا النسيم شتان ما بينه وبين ما في داخل البلد فما هنا من مورث الصحة بسبب صفاء الهواء بقدر ما هناك من موجب المرض بسبب كدورة الهواء والعفونات فلنعم انت من انسان حيث جئت بنا الى هذا المكان ثم صار يكرر الالتفات يمينًا وشمالا نحو القصور فيجد بعضها بحافة الطريق والبعض بعيدًا عنها وكل منها داخل

حديقة حسنة الشكل منظمة الوضع فيها من كل انواع الاشجار والازهار وكان يرى اودية بين القصور فيها البقول والخضراوات وتارة يجد ارضًا متسعة كلها اشجار ملتفة وازهار موءتلفة الا ان بعضها مرتفع وبعضها منخفض وفي بعض اماكن جبالا وهضبات مرتفعة متراكمة بعضها فوق بعض كطبقات الثوب وما نظر الى جهة الا راى الشمس قد رسمت على سطحها صورا مختلفة من ظل الصخور والاشجار التي بها فكانت الرياح بها تخفق والاغصان ببعضها تصفق وتخيل للشيخ في ذلك الوقت ان هناك موسقى تضرب لما يسمعه من حفيف الاشجار وتغريد الاطيار وصياح البلابل وترنم العنادل وتارة كان يمتزج حفيف الشجر بخرير الجداول والانهار وتغريد القماري والاطيار فتفكر الشيخ في محكم هذا الصنع وقال من تامل لحركات هذه الاشجار قال انها متمتعة بالحياة في هــذه الدار ولها شهوات كما للحيوانات فترى البعض يخضع ويتضع والبعض يعلو ويرتفع والبعض يتمايل وينعطف على غيره والبعض مضطرب اضطراب المتعادين واخر ينضم انضمام المتحابين فكان الالفة والتحاب والتنافر والاجتناب كما يكون بين نوع الانسان يكون بين الطيور والاغصان فترى البعض كمن ذهب وقاره او اذاه جاره والبعض كمن افتقر بعد الغنا او فارقه خلانه حتى آل الى الفنا ففيها المجرد عن اوراقه والمجروح باحتكاك الاخر فيه وخالي الجوف من طول معيشته

وخصوصا اذا كان مجاوراً للقائم على ساقه المزدهي بغصونه
واوراقه ومنها كالمظهر للدلال يميل مع الريح حيث مال
وفيها ما يحيط به شيء من جنسه وغير جنسه فهذا كمن نال
درج العز في هذه الدنيا فما من كبير او صغير الا ويدل على
عظمة الخالق اللطيف الخبير

وبينا هم كذلك اذ وصلوا الى عين ماء فنزلوا جميعا
ثم قال يعقوب للفرنجي خذ هذه الدراهم وتوجه الى تلك اللوكاندة
وهيئ لنا طعاما فتوجه وفي الحال احضر لهم الطعام فمالوا به نحو
العين فاكلوا

ثم قال الشيخ ان النفس بهذا المكان قد انبسطت والابدان
من وخامة البلد قد نشطت وصار الذهن صافيا والوقت موافيًا
فان تفضلت علينا وتلوت باقي قصتك كان حسنًا

المسامرة (١٢)

تتمة حكاية يعقوب واخته

فقال يعقوب نعم اني كنت ذكرت لحضرتكم اني بعد حضوري الى لوندرة وتمام ما كان من امر الدراهم التي كنت اودعتها عند زوجة القبطان قصدت البلد لانظر ماذا حصل لاختي في تلك المدة التي قضيتها في الاسر فدخلت قبل غروب الشمس فتوجهت الى منزل الست التي كنت انا واختي عندها فوجدت احوالها متغيرة ولم اجد احداً بالمنزل ممن كنت اعرفهم بل كلهم مستحدثون فسألتهم عن اختي فلم يفدني احد منهم شيئًا انما اخبرت بان صاحبة المنزل ماتت منذ ثلاث سنوات وقد باع زوجها منزلها وتوجه مع اخته واولاده الى بلاد الهند فخرجت الى حانوت الجزّمي معلمي فلما وقع نظره عليّ قام وعانقني واجلسني بجانبه ثم دار بيننا الحديث

فسألني عما جرى فقصصت عليه قصتي بالاختصار ثم سالته عن
اختي فقال هي وحدها في المكان الفلاني اخذته منذ سنة وصار
يتاسف على ما نابني ويلومني على مخالفتي له ثم استأذنته في التوجه
الى اختي فقام معي واخذ بيدي وسرنا حتى وصلنا البيت فسالت
زوجة البواب عن نمرة مسكنها فدلتني فصعدنا حتى وصلنا المكان
وطرقت الباب ففتحت فلما وقع بصرها عليّ تعانقنا والمعلم ينظر
الينا ثم جلسنا وجلس المعلم معنا قليلاً ثم ودعنا وانصرف فقضينا
غالب الليل نتحدّث فيما وقع لنا من الحوادث فكان مما حدثتني
به ان قالت انها لما انقطع خبري عنها حزنت حزنًا شديدا وكانت
الست لمحبتها لها تصبرها وتسليها حتى البستها ثوب الصبر ولكن
كانت تعتزل الناس احيانًا وتبكي عليّ واستمرّت كذلك الى ان
ماتت الست فخرجت من البيت ولم ترضَ بخدمة غيرها واخذت
هذا المسكن وكانت تقتات من صنعة الخياطة ولها مهارة فيها
وكانت حلوة اللسان فألفها كثير من الناس وقدموها على غيرها
من الخياطين فاتخذت لها حانوتًا جمعت فيه عدة من البنات
وكانت تصرف عليهنّ فاكتسبت من ذلك نحو نلثمائة جنيه فقلت
لها يا اختي لو جمعنا ما تحصلنا عليه لعشنا سوية في ارغد عيش
ففرحت بذلك وبحثت على محل واسع واستاجرتهُ لنا وصرنا معًا
فكنت اخرج معها بعد تمام اشغالنا نحو الغابات حول البلد وتارةً
نحو البلاد المجاورة واخرى في ارض الزراعة او في حارات البلد

فكنت اسمع منها عبارات حسنة عند ذكرها ما رأته من الحوادث
وما عاينته من المشاق مدة الافتراق وفي الخلوات كانت تملأ قلبي
سرورًا بانغام لطيفة تسمعني اياها ولكنها كانت اذا ذكرت ما رات
من الحوادث وما قاست من الشدائد والم الفراق تدمع عيناها
فاطيب خاطرها واسليها وكثيرًا ما أرى على وجهها التغير فاسالها
فلا تفيدني شيئًا وكانت في بعض الاوقات تذكر الترهب وتمدحه
وتمدح العزلة عن الخلق وكثيرًا ما قالت لي انت السبب في
حبي للبقاء في الدنيا فاسمع كلامها ولا افكر في معناه لكن لما تكررت
منها هذه العبارات في كثير من الاحيان خطر ببالي انها تخفي
عني بعض احوالها فكنت اكثر الاستفهام منها فلا تفيدني ومضى
علينا احد عشر شهرًا ونحن على هذه الحال ثم بعد ان كانت تظهر
السرور احيانا اكثرت من البكاء فكنت ادخل عليها بغتة فاجدها
تبكي بكاء شديدًا فاذا رانني سكتت فداخلني الوسواس وضاق
صدري وزاد همي وفقدت راحتي حتى تمنيت الموت وعلى قدر
ما كنت ارغب في معرفة السبب كانت تجتهد في اخفائه عليّ
فصرت بهذه الاسباب اقضي غالب الايام سياحة في البلاد وفي
الغابات فكنت اغيب اسبوعين او اكثر واعود فلا احدها تحولت
عن حالها حتى اعتراها النحول وزاد مرضها فاستاذنتها في التوجه
الى لوندرة لافرج عن نفسي فتوجهت واقمت هناك
نحو اسبوعين ثم عدت فلم اجدها بالمنزل وسالت

عنها فقيل لي انها خرجت وما عادت فضقت ذرعا من ذلك
حتى كدت اقتل نفسي وتراكمت عليَّ مصائب الدهر ورأيتني
وحيداً كما كنت في بلاد الغربة فخطر ببالي الاختلاط بالناس
عسى ان تزول عني افكاري وتهون علي احزاني فلما اختلطت
بهم تحققت خطاء ظني لما كنت اعاينه عند مخالطتهم من فساد
افكارهم لاني كنت اذا تكلمت لا يسمعون مني وان اصغيت لقولهم
فلا استفيد منهم شيئًا وجاهدت نفسي على ان اعودها الائتلاف
بهم فلم يمكن فاحترت حيرة شديدة وضاقت عليَّ الارض بما رحبت
واحببت ان اسكن جهة من البلد غير مطروقة واعيش فيها
وحيدًا عن الناس بعيدًا وكانت تظهر لي ابتداء لذة العزلة عن
الناس واذا اجتمعت بهم كانني في فلاة خالية منهم فلا التفت لما
يفعلون ولا اصغي لما يقولون وكانت اكثر اوقات النهار تمضي وانا
بالكنيسة متفكرًا في حوادث الدهر وكنت ارى فيها بعض نساء
خاضعة خاشعة من خشية الله تعالى واخر يطلبن غفر ذنوبهن
وبعد خروجهن يرى على وجوههن السرور فكانت الشهوات
البشرية تتلاطم امواجها خارج المعبد وتفقد في داخله ففي تلك
اللحظات كنت اطلب الخلاص من اهوال الدنيا بالموت ليطمئن
قلبي وفي الغروب اتوجه نحو مسكني فاكثر النظر للشمس حين
الغروب وللابخرة المتصاعدة باشعتها من المدينة فكانت تظهر لي
كانها تتماوج في مائع من ذهب وفي الليل كنت امر من وسط

الحارات وانظر فيما حواليَّ واتفكر في وجودي ببلدة مثل هذه كبيرة
ولا صاحب لي بها ولا حبيب ومن مبدأ عمري وانا في الهوان
الى هذا الان وبعد ما ظننت ان الهموم انقضت باجتماعي باختي
ساءني الدهر بفرقتها من غير ان تعلمني بمستقرها وما دريت ماذا
حسن لها ذلك مع علمها ان لا محب لها غيري فكان ذلك يهيج
اشجاني ويزيد احزاني فحل بجسمي السقم وزاد الالم فكنت بسبب ذلك
امضي الايام متفكرًا ومن هذه الامور متحيرًا ثم طرأ عليَّ في يوم ان
اذهب نحو الغابات واعتزل عن المخلوقات مدة الدهر الى انقضآء
العمر فذهبت الى ما اردت فضوعف عليَّ العذاب امثالاً وزاد
البدن اضمحلالاً وزاد بي الفكر واشتد عليَّ الامر وقضيت مدة
طويلة على هذه الحال فكنت اقيم في الغابة تارة واسيح فوق روءس
الجبال اخرى لا ارى غير السحاب ولا اسمع غير الرعد وكنت ارى
القرى على بعد كانها نقط سود حولها دخان واتفكر في الرعاة
والزراع حين روءيتي لهم على بعد فاقول ما من احد منهم الا وله
إلف يترقب عوده وقلب يحن له حين يجتمع به فكل منهم له امر يهمه
وانت يا يعقوب حكم عليك القاهر بالعزلة وكيف تطلب الراحة
بها مع انك لم تجدها فيها وماذا عليك اذا اقتديت بغيرك ورجعت
الى العمران واخترت من النسآ امرأة تقضي زمنك معها وتشتغل
بامر تتعيش منه وربما رزقت باولاد تفرح بهم وتزول بهم عنك هذه
الهموم فكنت ارتاح بتلك الافكار ثم بعد قليل اقول اي انسان

يرضى باعطائك ابنته ولا حسب لك ولا نسب لا سيما وهم يعرفون اصلك ومحل تربيتك وعلى فرض وجود من يرضى بك فمن يكفل لك دوام المعاشرة واستمرار المودة وكيف اطمئن الى معاشرة الناس مع ان ما حصل من اختي شقيقتي شاهد بعدم بقاء المودة بيني وبينهم وهل احد اقرب اليّ من اختي ثم تكر عليّ الافكار المحزنة بجيوشها حتى اقول ان كانت الحياة هكذا فالموت احسن من الحياة وجمع الاموال بمقاساة الاهوال فكنت مترددًا غريقًا في بحار الافكار لا اقف عند رأي ارتضيه واذا وقفت تغير لوقته فصرت كسفينة في لجة تسير مع كل هواء هب وموج دب وكلما تأملت احوال الخلق سئمت عشرتهم وانغضت الفتهم وفي بعض الاحيان كنت الوم نفسي واقول ما من احد الا وله امر يهمه ولا بد من مرور هموم الدنيا على كل احد فلا صغير ولا كبير ولا حقير ولا امير الا ويلحقه امور تكدره فيلزمه ان يستعدلها ويصبر عند نزولها وعلى العاقل ان يسير مع الناس في طباعهم واخلاقهم وليس له ان يحكم على الناس بطبعه فينبغي لك ان تلتزم بالخطاء في امورك وتنزع ثياب العزلة والحزن عنك فكنت ارجع الى البلد واخالط الناس مجتهدًا في موافقتهم والسير حسب طباعهم فعزم عليّ معلمي بالاقامة عنده لما بلغه خبر اختي فقلت له ان ضعف قوّتي وشغل فكرتي يمنعان من ذلك ووعدته اني ان اقمت في البلد لا اجعل إقامتي الا معك فكنت اتردد عليه احيانًا وهو يوادني ومضى نحو اربعة اشهر

على ذلك وانا غير مشتغل بامر و في تلك المدة ما تركت بلدة الا ذهبت اليها لاستخبر عن اختي و بسبب انها كانت تخبرني بحب الرهبانية ظننت انها تكون في احد الديورة فطفت على جميعها فلم اقف لها على خبر ولم اعثر لها باثر والعجب اني ما سمعت بخبرها من احد من اهل البلد وكانها قد ابتلعتها الغبرآء او اختطفتها النسور الى السمآء ثم دخلت المسكن ذات يوم بعد عودي من لوندرة وكنت فارقته من مدة خمسة عشر يومًا فوجدت على الطاولة مظروفا ففضضته فوجدته من اختي فطار لبي وخفقت بلابل قلبي فقراته فاذا فيه

أخي وعزيزي وقرة عيني الله يشهد على ما بقلبي من حبي لك ولو ملكت بذل روحي لتكون زيادة في عمرك لفعلت وارغب ان اصرف جميع طيباتي في جلب السرور لك ولكني حقيرة ذليلة وقد قاسيت من دهري ما لا يقاسيه غيري وهذا سبب فراقي لك واختياري الرهبانية والعزلة ما دمت حية فارجوك الصفح عما حصل مني في خروجي عنك وانفصالي منك بدون علمك وما بعثني على ذلك الا خوف منعك لي عما سنح بفكري مع تصميمي عليه وطيران قلبي اليه وانت تعلم بميلي للرهبانية وتعلم اني ليس لي راحة في سواها فعذري قائم لديك وحالي لا يخفى عليك وقد علمت بميلي للرهبانية ومن وقت خروجي من عندك الى الان وانا في الدير الفلاني وقد اخترته على غيره لما فيه من الراحة لي لحسن موقعه وكثرة مزاياه ولي خلوة

اتعبد فيها متى دخلتها كان البحر تحت نظري وامواجه توانس وحشتي وتذهب الم وحدتي وموقع هذا الدير فوق الجبل بعيد عن كل طريق والغابات محيطة به يذكرني الايام التي مضت علينا في الاجتماع مع الهناء والسرور فافرج بذلك كربتي ويكفيك مني معرفتك قدر حبي لك واني ما اخترت العزلة الالراحتك ولو عرفت فائدة في معرفتك الاسباب الموجبة لذلك لعرفتك اياها ولكن معرفتها لا تزيدك الا كربا على كربك وهما على همك وقد حررت لك كتابي هذا بدموع عيني فارجوك قرآءته بعين الرضى عني فهي عن كل عيب كليلة ومع كل هذا فلا حيلة في حكم القادر فارجوك ان تصفح عني الصفح الجميل وتقبل عذري ولا تخيب ظني فيما رجوت فقلب اختك بالبين اكتوى وازداد به الم الجوى وارجوك ان لا تنعزل عن الناس وان تتزوج لك امرأة تقوم بشأنك لتزول عنك الاكدار واذا تزوجت بامرأة فيرجى ان ترزق منها بالذرية التي بها يكون سرورك ثم اني ما اتممت قراءة هذا الكتاب الا وقلبي في خفقان واضطراب فقلت في نفسي ما هذا السر الذي تخفيه عني واوجب مفارقتها لذة الدنيا مع حداثة سنها ولاي شيء دفنت نفسها بالحياة فلا بد لذلك من شان عظيم وخطب جسيم ثم فتحت الكتاب وقرأته ثانيًا وقلت ربما يكون فاتني شيء منه اول مرة لم افهم معناه فلم افهم منه اكثر مما فهمت اولاً انما يلوح من الفاظه صورة محزنة فهمت منها انها ربما احبت انسانًا وتخلى عنها

او تحققت عدم الوصول اليه بوجه حل اما نظراً لحالها او حاله
وقوي هذا عندي بامور تذكرتها كنت اراها منها من ذلك انها
كانت تكتب مكاتيب وترسلها مجتهدة في اخفائها عني. وقد قوي
عندي هذا الظن حتى حاولت صرفه فلم ينصرف فاخذت ورقة
وسطرت فيها ما يتضمن استعطافها ورجاءي منها ان تسمح لي بشرح
حقيقة امرها ولحت لها بما خطر بفكري لكن بلطف وارسلته
بالبوسطة فلم يمض غير قليل الا وورد منها افادة لم تفدني بها
شيأ غير نهيها لي عن العزلة وتحريضي على الانس بالناس والحث
عليّ بالزواج فعند ذلك عزمت على التوجه اليها وافعل ما يمكنني
في نهيها وردعها عما هي فيه لعلها تسمع مني فسرت اليها بعد جمع
ما بقي من الدراهم فلما وصلت الى الدير سألت عنها فقيل لي انها
لا تكلم احداً فكتبت لها مكتوباً فافادتني في رده انها اعدت نفسها
لخدمة المسيح وليس معها وقت تشتغل فيه بامور الدنيا

ومن ضمن كتابها انها قالت ان كنت تعزني حقيقة وتحبّ
لي الخير فلا تشغلني عن التوجه الى الرب والتجرد عن الاشغال
بالخلق فان روءيتك لي تشغلني عن العبادة نعم ان رضيت ان
تكون لي والداً يوم الاعتراف كما هو الاوفق بمروءتك اذنت لك
لك بالدخول عليّ فعجبت من صدور تلك العبارات عنها مع
علمها بما عندي من الحزن عليها وغرقت في بحر فكري فكنت تارة
اقول ينبغي الرجوع حالا وتارة اقيم هنا حتى انظرها وتارة اقول

اقتل نفسي وقت دخولها الكنيسة مع الرهبان فاريح نفسي من تلك الاهوال واحرق قلبها وانغص عيشها كما احرقت كبدي وكدرت صفوي ونغصت عليّ عيشي حيث دفنت نفسها بالحياة

وبينا انا كذلك جاءني خبر من رئيسة الدير بانها قد اعدت لنا دكة نجلس عليها يوم المحضر وهو اليوم القابل فاقمت بقية اليوم والليلة بتمامها كأني اتقلب على جمر الغضا حتى اسفر الفجر فقمت الى باب المعبد الذي هي فيه فوجدت هناك خلقاً كثيرين فوقفت معهم فجاء رجل واخذ بيدي واجلسني على الدكة قريب المحراب فصرت اقلب نظري يمنا وشمالا ثم بعد برهة فتح باب صغير فخرجت منه اختي وعليها من الجمال وثياب الزينة ما لا يوصف فنسيت عند ذلك همومي واعتراني من الخشوع وتعظيم الدين ما لم يكن من قبل وكنت انظر اليها بعين المحبة والتعظيم وهي تخطر والقسيسون حولها حتى اجلسوها تحت مظلة ثم تجرد احد القسيسين عن زينته وابقى عليه ثوب كتان وصعد المنبر وخطب خطبة قصيرة ذكر فيها سعادة البكر التي حضرت ووهبت نفسها لخدمة المسيح وفي الحال تضوعت الروائح الزكية من جميع جهات المعبد وكانت الناس تقلب النظر من القسيس اليها ومنها اليه ثم نزل من فوق المنبر ولبس ثيابه الرسمية وامر بنتين فأتتا باختي الى اخر درجة من المحراب فهناك جثت على ركبتيها ثم دعوني لأودي واجبات الابوّة فتمثلت بين يدي القسيس

لاناوله المقص فرجع حينئذٍ ما كنت ظننت زواله وعظم عندي الكرب وظهر لي انها لم تتمالك نفسها بل كادت ان يغشى عليها الاَّ انها نظرت اليَّ نظرة معتذر متجلد فهمدت وداخلني خشوع ثم اجرى المقص على راسها فازال شعرها الذي كان يسترها اذا نشرته ويلحق الارض اذا ارسلته ثم اتى لها بثوب من صوف فلبسته وبخمار فغطت به راسها ووجهها وبرداء من كتان فتردّت به

وحيث كان خروجها من الدنيا وزهدها فيها لا يتم ولا يكمل الا بصورة موتها ودفنها كالميت الحقيقي القت نفسها على الرخام كالميت فكفنوها ووضعوا حولها اربع شمعات وقد اخذ القسيس الكتاب وهو بملابسه الرسمية والرهبان محتفون بهِ وكنت حينئذٍ قريبًا منها حريصًا على معرفة جميع ما يحصل من الحركات فسمعت صوتًا خفيًا من داخل الكفن وصل الى اذني ولم يسمعهُ غيري والفاظه يا اله العالمين رب السماوات والارضين ان تجعل هذه اللحظة آخر عمري حتى لا اقوم من موضعي وان تصب على اخي الذي لم يقاسمني فيما جنيت من الخطيئه الصبر فيطمئن قلبه ويعيش عيشة مرضية فلما سمعت منها ذلك استرانى اضطراب فوقعت على اختي فقلت ياعروس المسيح يصفح الرب عنكِ حيث تركتني وحيدًا اكابد تنغيص الايام فاضطرب من بالكنيسة مما فعلت وصاحوا بي فاخذت مغشيًا عليَّ ولما افقت وجدت الامر قد

قضي وقد لحق اختي من الحمى ما لحقها وجعلوا يطلبون مني ان لا ابحث عن لقائها فعظم ذلك عليَّ وخرجت لا ادري اين اتوجه فدخلت غابة وصرت افكر فيما حصل لي ولها من الحوادث ثم قلت في نفسي ليس لك الاَّ مفارقة هذه الارض فانهُ لم يبقَ لك فيها ما يوجب اقامتك بها وانما انتظرت شفاء اختي لاودعها فبقيت نحو خمسة عشر يومًا استنشق اخبارها فتارة كانت تبلغني وتارة لا ثم بلغني خبر موتها

قال راوي الحديث فعند ذلك هطلت عينا يعقوب بالدموع واخذته حالة الهلوع لما ذكر موت اخته وشقيقة روحه

فقال لهُ الشيخ

كل ابن انثى وان طالت سلامته
يومًا على آلةٍ حدباء محمولُ

ومعلوم إن ما جرى لكما يجري لغيركما فتزوَّد الصبر تفز بالاجر وكيف تجزع وقد طفت البلاد واعطيت عقلاً وافرًا فهل رأيت حيًا لا يموت واعلم ان الحوادث للرجال كالمحك للذهب وسترزق راحة ينعم بها بالك وتحسن بها حالك

فقال يعقوب ان في صحبتي لكم عوضًا من كل فائت فاني منذ اجتمعت بحضرتكم هدأ روعي فارجو ان لا يفرق الله بيننا وان يجعل اخر حياتي بين يدي حضرتكم وقد عزمت على ان اقيم بارض مصر

المسامرة (١٠٣)

البورصة

فقال الشيخ هذا مما يسرني وهي نية خير وتحقيقها سهل فعن قريب نعود وتكون معنا خصوصاً وحضرة الخواجا يعزك كثيراً وكان الوقت قد قرب فقال الشيخ نحن مدعوون الليلة عند صاحبنا التلياني ويلزمنا الذهاب اليه وفي وقت اخر نتم لنا اخبار حوادثك فقاموا وركبوا حتى دخلوا المدينة فلما وصلوا منزلهم وجدوا تذكرة كتبها الخواجا التلياني وتركها على الطاولة مضمونها اني حضرت لزيارتكم فلم اجدكم وعن قريب اعود وان حضرة الخواجا الانكليزي ارسل لنا تذكرة يعتذر فيها عن الحضور لامر منعه وساعود قبيل المغرب لاتشرف بكم وتسيرون معي الى بيتي فاخبر الشيخ يعقوب وولده بذلك فاخذا يتهيآن للتوجه واذا بالرجل التلياني قد

حضر فقال إن جملة من الاحبآ دعوتهم مع حضرتكم وها انا قد حضرت حسب ما اخبرت جنابكم في الذكرة فقاموا جميعًا وركبوا عربة ثم ساروا فمروا بسراية مشيدة البناء مزخرفة الارجاء حولها اناس كثيرون في حركة عظيمة

فقال الشيخ ما هذا المكان فقال الخواجا هذا المكان يسمى البورسة اي بيت المصارفة واعمال التجارة بين باريز وجميع جهات المملكة وبينها وبين جميع ممالك اوروبا والمشرق وامريكا فهو مكان تجتمع فيه الصيارفة الكبار والسماسرة وعظماء التجار وهو من ضمن العمارات العظيمة التي تتباهى بها باريز وينبغي روءيتها والنظر للجاري بين الناس فيها فقال الشيخ لعلنا ننظره في يوم غير هذا ان كان هناك اذن بالدخول فقال الخواجا ان دخوله مباح لجميع الناس وامر هذا المكان عجيب واصطلاح اهله في تخاطبهم غريب فمن لم يعرف اصطلاحات الصيارفة المتفق عليها فيما بينهم يظن انهم ليسوا من اهل باريز لان لهم لسانًا خاصا بهم يتكلمون به فيما بينهم وبين عملائهم ولا يعرفه غيرهم وهناك ازدحام شديد وللالفاظ تصادم قوي ينشأ عنه دوي هائل بحيث يمنع الطارىء عن فهم معاني الالفاظ لاختلاطها وعدم تميزها

ومما يزيد الانسان تعجبا انه لا يوجد هناك غير الكلام واما المبادلة وقبض الدراهم فشيء نادر ومن يتأمل في احوال اهله ويمعن النظر فيهم يرى البعض منهم مسرورًا والبعض بالحزن

مغمورًا والبعض يقلّب من الحيرة كفيه وينتف شعر لحيته ومنهم المتفكر ومنهم من يضرب ويجمع ومنهم من لا يستقر في موضع بل يطوف والى ما بدا منه يرجع واساس ذلك كله حب الدرهم والدينار فانهما يفعلان بالعقول ما لا تفعله الخمور فمن ذهب ماله غاب عقله وساءت حاله ومن ربح تمت مآربه وصفت مشاربه فيلزم من يريد الدخول في زمرتهم ان يكون خبيرًا بمعاني الفاظهم وكيفية معاملاتهم وعلى يقين من معارفهم وحيلهم وطرق حسابهم واصطلاحات سماسرتهم وعوائد خاصتهم وعامتهم والا فلا بد ان يقع في شباك مكائدهم وحبال مصائدهم

فقال الشيخ ان بالقاهرة مكانًا لهُ شبه قليل بهذا يقال لهُ حارة اليهود فيه كثير من الصيارفة والمرابين ففي بعض ايام السنة تزدحم عليهم الخلق الواردون من الارياف وغيرها اما للاقتراض او للتسديد او لتغيير المواعيد فهم يتجرون في غفلة العالم ويغتنمون فرص الاحتياج فيحملون الخلق اثقال الربا ومن حرصهم لا يقرضون الا برهن او ضمانة وبكثرة ما يطلبونه على كل مائة يرى كثير من الناس قد آل امره الى بيع ما رهنه ولحقته الفاقه ولبس ثياب الذل بعد العز وفي بعض الاحيان يطالب الكفيل والمكفول معًا فكم من متأوهٍ من هذه الطائفة والعجب ان الرباء محرّم في الشريعة الاسلامية ومع هذا لم يبقَ من الناس في هذا العصر فقير ولا غني الا وهو واقع فيه ومن كثرة التعوّد عليهِ صار كأنه من الامور

الجائزة بل ربما يرى ذلك بعض الناس انهُ من فعل الخيرات وإزالة الضرورات ويرون الامتناع منهُ من الحرج والتضييق على العباد وتعطيل الارزاق

فقال الخواجا التلياني ايها الاستاذ ان الجاري بهذا المكان ليس كالجاري بحارة اليهود بمصر لان المعاملة في هذا المكان خاصة بالشركة التجارية ليس غير

واما المعاملة بالفائدة والمصارفة فمخصوصة بالبنوك ومن ذلك حارة اليهود واما هنا فانهُ اذا فرض ان بعض الناس رغبوا في الشركة في عمل شيء تبلغ تكالبفه زيادة عن قدرتهم استأذنوا عنه الحكومة ومتى تحصلوا على الاذن عين المجلس قيمة السهم في هذه الشركة ثم تعطى الاسهم لاحد مأموري الاعمال لان هناك اشخاصًا معينين بامر الحكومة يقال لهم مأمورو الاستبدال فحينئذٍ ينادون عليه فكل من رغب في قدر اخذه وربما حضر اقوام بعد توزيع الاسهم يطلبون الاخذ بزيادة عن المقدار ظنا منهم رواج الامر فيشترون بازيد وهذه الاسهم كما لبضائع التجارية تباع وتشرى وتغلو وترخص حسب ما يعتور الامر المشترك فيه

واما الجاري بحارة اليهود عندكم وعند الصيارفة على العموم فهو مبادلة النقود بغيرها فكل منهم تراه ينتهز الفرصة فيجعل القيمة على حسب ما يراه من الاحتياج فاذا رأى مضطرًا اطمعه وزاد

في اكرامه وسهل له امر الربح ليرغب في معاملته فان لم يتفطن المضطر لمكره وقع في حبالته وكلما ازداد عليه الدين طمع فيه وازداد في الربح واجتهد في الاستحواذ على حجج املاكه فاذا علم ان ما في ذمته صار قريبًا من ربع قيمة املاكه او ثلثها امتنع عن اعطائه وسلك به طرق العسف فيشكوه ويترافع معه في مجال الحكومة الى ان يؤل الحال الى الحكم عليه ببيع ملكه لسداد المطلوب منه رأس مال وربحًا وقل ان يبقى للمدين شيء من ثمن ملكه فهذه حالة فظيعة يجب البحث على الطرق المخلصة منها لاستدعائها خسارة كبيرة فان اقل الفرط عندكم اثنى عشر في المائة كل عام مع انه ضعف الفائدة ببلادنا اذا غلا سعر النقود فان المعتاد عندنا اربعة او خمسة او ستة في المائة وفي بلاد الانكليز من اثنين الى ثلاثة واذا غلا السعر يبلغ اربعة على انهم يضجون اذا صارت الاسعار هكذا او يعدون هذا الامر من اعظم الحوادث التي يكثر فيها القيل والقال وقد سمعت ممن أثق به ان فرط المائة في الشهر الواحد قد يبلغ بالقاهرة ثلاثة او اربعة اعني زيادة عما يحصل بلوندرة أثنتي عشر مرة بل اكثر ولا شك ان ذلك من اعظم الضرر وتسديده في غاية العسر لان الفرط اذا كان في كل شهر اربعة بالمائة يكون ثمانية واربعين في السنة فاذا اخذ المحتاج مائة فانه يكتب عليه سندًا بضعفها تقريبًا لانهم يعطونه من المائة اثنين وخمسين ويقطعون منه الباقي وهو ثمانية واربعون

في نظير الفائدة ويكتبون عليه السند بالمائة بتمامها فاذا طلب
مائتين فانه يقطع مائة واربعة فقط ويكتب عليه السند بمائتين
وهكذا اذا طلب الفًا واكثر فمن اين يسهل السداد على المقترض
سواء كان تاجرًا او زراعًا فالصيارفة اذاً ببلاد المشرق من اكبر
المصائب ودوامهم على ذلك يوجب سلب نعمة الاهالي بل بعض
التجار والصيارفة يستعملون طريقًا اقبح من علو امر الفرط وهو
انهم يترقبون الوقت الذي هو قبل خروج المحصول فيسعرون
الارزاق بثمن بخس فيأتي المضطر فياخذ منهم نقودًا بقدر معين
من المحصول على حسب تسعيرهم وقد يسعرون قنطار
القطن مثلا بجنيهين فياخذ الطالب مثلا مائة جنيه فيكتبون
عليه خمسين قنطارا يؤديها بهذا السعر بعد شهر مثلاً فاذا جاء
الوقت طلبوه بها فياخذون ما راج لهم منها ثم يكتبون ما يبقى
عليه في سند جديد بقيمة وقت التسديد مع اضافة الفرط في نظير
صبرهم الى العام القابل وهكذا يفعلون معه في كل عام بهذه الطريقة
فيبقى الشخص دائما مكبلا في اغلال قيود الدين مطالبًا بنفس المبلغ
الاصلي بل باكثر منه وما دفعه من المحصول كأنه ربح المال
وفي كل عام يفعل الصراف حسب ما يرغب فتارة يقلبه من صنف
الى اخر وتارة يجعله نقدية في ذمته والفلاح لا يعارض في ذلك
لاحتياجه وتراكم المطلوبات عليه للميري والاهالي والعيال وليس
في امكانه التخلص لعدم اقتداره على التسديد فيبقى كالاجير عنده

بالأكل ليس غير وقد شاهدت ذلك بنفسي مذ كنت ببلاد الشام والترك ولا فرق بين الجاري هناك وعندكم ورأيت من العالم جميعاً الضجر من ذلك ويتمنون زواله وانتظامه فعلى الحكام وولاة الامور النظر في ذلك ومنعه والبحث عن اعمال الطرق التي يستقيم بها امر المعاملة بين الناس وتنجح بها مساعيهم في زراعاتهم وتجاراتهم

وفي الازمان الماضية كان المرابون يفعلون ببلادنا كفعلهم الان ببلادكم لكن الحكومة التفتت لهذا الامر وربطت قيمة معينة للنقدية لا يتعداها احد وكل من تعدى عد مرابيا وعوقب على مقتضى القانون فخمدت نيران اهل الربا الّا انهم لم ينقطعوا بالكلية وبقي السفهاء والمسرفون يترددون عليهم لكن لا يقع ذلك ببلادنا الا سرًّا اما التجارة والسلف العامة فجميعه في البُرصة فيقف الانسان على سعر كل يوم بل كل وقت بسبب الاخبار والحوادث التي ترد بالتلغراف يوميا فلا يحصل ضرر ولا غدر كما يحصل اذا كان الامر منه للصراف في حانوته او بيته بدون معرفة بالحوادث اليومية ولم تظهر البُرصة بباريز الّا سنة ١٥٦٣ ميلادية بامر الملك شارل التاسع فكان اول مجلس عقد للنظر في حال التجارة في سراية الحقانية ولكن في سنة ١٧٢٠ تعين مكان مخصوص صنع من خشب موقتاً باحدى زوايا جنينة سراية سواسون التي محيت وكانت معدة لسكن افراد من العائلة الملوكية وصار الناس يتعاملون باوراق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكومة وكان في تلك الايام لا يفتح هذا المكان للمعاملة الاّ ثلاث ساعات قبل الزوال وساعتين بعده ما عدا ايام الاعياد والمواسم وترتبت بوسطة عسكرية للمحافظة عليه وضبطه ولما كثرت حركة العالم اليه وتوجيه همهم نحوه واخذت تظهر به مشاجرات استوجب ذلك مداخلة العساكر فيه لفصل ما يحدث به من المشكلات ثم صار يزداد فامرت الحكومة بابطاله ومنع تجمع الناس بالطرق لهذا الشان ورتبت قصاصاً على من يخالف الامر ويقتحم ذلك الطريق المنهي عنه فجعلت جزاه التغريم الجسيم فضلا عن السجن الطويل وعينت ستين صرافًا يتوزعون في نواحي البلد بلا حرج عليهم وانما الحرج والجزاء على غيرهم في الاوامر بان من تجرأ غُرم تغريمًا عظيمًا ومع هذا فكانت الناس تجرأ على هذا خفية فعوقب منهم كثيرون

ولما اكثر الناس الشكوى للحكومة وطلبوا فتح البُرصة فتحت سنة ١٧٢٤ وعينت لوكندة تسمى لوكندة مزران وشيدوها وزينوا واجهتها سنة ١٧٨٤ فكانت الصيارفة والسماسرة يقيمون بدورها الارضي ومدة بونابرت الاول نقلت الى احدى الكنائس ثم نقلت منها الى السراية الملوكية وعادت الكنيسة الى اصلها وفي سنة ١٨١٧ بنيت هذه السراية التي رأيتها وخصصت لذلك وبناؤها على متسع من الارض قدره ثلاثة الاف وخمسمائة متر وطولها اثنان وسبعون مترًا وعرضها خمسون مترًا والدور الارضي به الحواصل ومحال

المشروبات وبها ديوان متسع طوله اثنان وثلاثون مترًا وعرضه ثمانية عشر وفي اخره فسحة عظيمة تسع من التجار الفًا يتعاطون الامور التجارية وبالديوان شباك من حديد والصيارفة تجتمع في محل بالدور الاول للمداولة في امر التجارة وغيرها وفيه اماكن معدة لديوان التجار ثم زاد هذا المكان اعتبارًا وترى الان فيه زيادة عن امر الاقتراض المشاركة في عمل سكك الحديد واستخراج المعادن وفتح الورَش الجسيمة ونحو ذلك من الامور النافعة التي تتسع بها دائرة الثروة وفي سنة ١٨٥٢ جعل على كل من دخله فرنك واحد فنقص المترددون عليه واشتكى من ذلك البنكيرات والصيارفة والتزموا لمدينة باريز مبلغ سبعمائة وخمسين الف فرنك على ابطال ذلك فلم يُقبل منهم

وقد احصي عدد من يدخل البُرصة كل يوم فوجد من ثلاثة الاف الى اربعة الاف وتحصل منه سنة ١٨٥٧ مليون ومائة الف فرنك

وبالجملة ففوائد هذا المكان كثيرة جدًا وبيان الجاري فيه يحتاج لمعرفة امور شتى لكن لا وقت لذلك فانا وصلنا المنزل ولا بد ان اذهب مع حضرتكم بكرة غدٍ واطلعكم على احواله

المسامرة (١٠٤)

بيت الكتب

ثم وقفت العربة فنزلوا ومضى بهم الخواجا الى البيت فصعدوا على درج حتى وصلوا الدور الاعلى فوجدوا فسحة متسعة وبها صاحبة المنزل فقامت وقابلت الشيخ وكان رئيس الجمعية المشرقية هناك فقام له واستقبله ثم قال ان التلامذة يثنون بكل لسان على الشيخ بما حصل لهم من الفائدة وقد تمنيت على حضرتكم مجلساً يعقد كل يوم اثنين حيث تكون الساعة الثانية بعد الظهر فقال الشيخ لا مانع ثم جاء المدعوون واحداً اثر واحد وجماعة عقب جماعة حتى تكاملوا وتعرف الكثير منهم بالشيخ وصاروا يحيونه ويظهرون السرور به فسر الشيخ بذلك سروراً عظيما واستأنس بهم كأنه ببيت احد اصحابه بمصر فان جميعهم كانوا محدقين به يتذاكرون معه في فنون العربية على اختلافها فكان هذا يسأله عن معان لغوية وهذا يسأله عن قواعد نحوية وهذا عن حادثة

تاريخية وآخر يطلب منه معني بيت شعر وهو يجيبهم ويزيد لهم في الفوائد وبينا هم يتفكهون وفي فنون العلم يتنقلون اذ دعوا للطعام فقاموا جميعا الى الاكل فتعاطى كل بحسب طاقته وكان في الطعام بعض الفواكه فقال بعض الحاضرين أنبدا بالفاكهة ام نوءخرها فقال الشيخ ان للشيخ الاجهوري في ذلك نظماً جميلاً بين فيه ما يقدم على الطعام من الفاكهة وما يتاخر وما يكون وسطاً حيث قال

قدم على الطعام توتا خوخا
ومشمشاً والتين والبطيخا
وبعده الاجاص كمثرى عنب
كذاك تفاح ومثله الرّطبْ
ومعَه الخيار والجميزُ
قثا ورمان كذاك الجوزُ

فتلقوا منهُ تلك الابيات بالقبول وكانوا يسرعون لحفظ ما يقول وتم بينهم مجلس الاكل في تلك المحادثة ثم عادوا الى الديوان الذي كانوا به فجلس الشيخ وولده ورئيس الجمعية بجانبه ومن رغب في المشي تمشى مع صاحبته او صاحبه فجاءهم صاحب البيت وجلس معهم ثم بعد ان دار الحديث بينهم قال اني منذ كنت برسيليا وعدت حضرة الاستاذ ان اريه خزانة كتبي واطلعه علي ما احتوت عليه

فقال الشيخ ونحن لذلك منتظرون وللوفآء بالوعد متشوقون فقال تفضلوا بنا ان شئتم ثم قام ومعه الشيخ والرئيس فادخلهم من باب في وسط الديوان الى مكان متناسب الابعاد يقرب من التربيع وفي جميع جهاته غير الباب دواليب محكمة الصناعة من خشب جوز الهند الاسود وعلى ابوابها رسوم من النحاس لطيفة مختلفة الاوضاع والاشكال وفي تلك الدواليب كتب محبوكة مرصوصة صفوفا متناسقة كل صنف على حدته مع النظافة للمكان بما فيه والرونق الذي يسر الناظر وارضه مفروشة ببساط قحمي اللون وسقفه منقوش بابدع النقش وفيه من عجيب الصور ما يدهش الفكر ويسر النظر وفي وسط مكان الكتب طاولة من جنس خشب الدواليب وعليها كل ما يلزم من ادوات الكتابة مع بعض كتب فاعجب الشيخ ذلك النظام وما بتلك الكتبخانة من الحسن مع الاحكام فقال يندر وجود مثل هذه في بلاد المشرق وانها لشبه كتبخانات الملوك فقال الخواجا كيف لو رأيت خزانة الرئيس فان بها قدر ما في هذه مرّتين او اكثر واما هذه فان ما بها ليس الا ثلاثة الاف ومائتي كتاب فقال الرئيس خزانتي وان كانت اكبر لكن ليس لها من الرونق والاتقان ما لهذه واغلبها ورثته عن ابي وجدي فقال صاحب البيت بل هي اجمل واجل لان بها من الكتب ما لا يوجد في غيرها فقال الشيخ اذاً لا بد انها لا تخلو من كتب غريبة فقال نعم ثم

التفت نحو الجهة الشرقية من الكتبخانة وقال جميع مـــا في هذه الدواليب كتب مشرقية وهي كما ترى ثلاثة اقسام فهذا للكتب العربية وهو اكبرها وهذا للفارسية وهذا للتركية وقد رتبت خزانتي هذه حسب النقطة الاصلية فالجانب الغربي فيه من الكتب مـــا يتعلق باوروبا والجانب الجنوبي فيه ما يتعلق بامريقا وجزائر المحيط والشمالي فيه ما تيسر جمعه من الكتب التاريخية والفنون الادبية حسب اقتداري وجعلت كل فرع على حدته ورتبته كما ترى على حروف الهجاء فاذا اردت اي كتاب اطلعت على الدفتر فعرفت نمرته وحرفه فقال الشيخ ما الذي فيها من الكتب العربية فاخذ الدفتر وقرأ له اولاً كتب التفسير فاذا فيها تفسير ابن عباس وتفسير ابن عبد السلام وتفسير ابن جريج وتفسير ابن الجوزي وتفسير ابن برجان وتفسير ابن ابي شيبة وتفسير ابي الضيا وتفسير ابن جرير وتفسير ابن ابي حاتم وتفسير ابن فورك وتفسير ابن ماجه وتفسير ابن المنذر وتفسير ابي الحسن وتفسير ابي ذرّ وتفسير ابي طالب الكرماني وتفسير ابن مردويه وتفسير الاخوين وطوالع الانوار وتفسير الاردبيلي وتفسير الاسفراييني وتفسير اكمل الدين وتفسير البقاعي المسمى بنظم الدرَر في تناسب الآي والسور وتفسير ابن النقيب وتفسير ابن عبدوس وتفسير الجامي وتفسير حجة الافاضل وتفسير ابن جماعة

ومن الحديث كتاب فتح الباري شرح البخاري والعيني شرح

أبخاري والسندي شرح مسلم الحلية لابي نعيم والفردوس للديلمى والسنن لابن ماجه ومسانيد الائمة ومشكاة المصابيح لملاّ علي قاري ومشارق الانوار للصاغاني

ومن التوحيد كتاب ابكار الافكار واحلى المواهب وتبصرة الادلة والتسديد شرح التهيد وتأسيس التقديس ورموز الكنوز وزبدة الكلام وعمدة النظار والفوز بالسعادة ومفتاح الغرر ومدارك العلوم ومشارق النور ونهاية المنقول وهداية الهادي

ومن الفتاوي في مذهب ابي حنيفة فتاوي ركن الدين الكرماني وفتاوي احمد بن عبدالله البلخي وفتاوي امين الدين محمد بن المتعالي المصري وفتاوي بديع الدين وفتاوي حسام الدين وفتاوي الحنفية لسعد الدين التفتازاني

ومن الفتاوي في مذهب الشافعي فتاوي ابن ابي عصرون فقيه الشام وفتاوي الحداد وفتاوي ابن رزين وفتاوي ابن الصّلاح وفتاوي ابن عبد السلام وفتاوي ابن القاص وجملة من فتاوي المالكية وكذلك الحنابلة

ثم قرأ في اسماء كتب اللغة منها كتاب قاضي الحق لابي العلا المعري وقاعدة البيان وضابطة اللسان لابي جعفر احمد بن الحسن المالقي وكتاب الكامل للمبرد النحوي وكتاب الاساس وكتاب لسان العرب وتاج العروس وشرح القاموس وغير ذلك من كتب اللغة التي لا توجد مجتمعة في كتبية في احدى بلاد الاسلام ثم قراه

اسماء غريبة المثال عزيزة المنال في النحو والمعاني والبيان والبديع ككتاب سيبويه وغيره وككتاب دلائل الاعجاز في البلاغة واسرار البلاغة والمفتاح وغير ذلك

وفي المنطق غرائب المؤلفات وكذلك كتب علم الاصول وغير ذلك

ومن التاريخ كتاب اخبار الزمان وكتاب ابي الفدا وكتاب ابن خلدون وتاريخ ابن الاثير وغيره من كتبه الغريبة ثم بعد ذلك اخذ الدفتر ووضعه مكانه واتى بمصحف مجلد مظرف في داخل كيس من الديباج الاخضر ففتحه الشيخ فوجده مكتوبًا بالخط الكوفي في رق الغزال ثم جلس وصار يقرأ ثم قال التلياني يا حضرة الاستاذ الحمد لله الذي جمعني بك فاني منذ زمان متوقف في بعض اشياء في القرآن ولكوني لا اعرف علوم اللغة العربية على ما هي عليه لم تزل وقفاتي ولم اجتمع باحد في بلادنا من علماء العرب يفهمني حقيقة الحال فقال له الشيخ ما وقفاتك فقال ان في القرآن قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان وقوله ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون مع ان فيه فوربك لنسئلنهم اجمعين عما كانوا يعملون وفيه فلنسئلن الذين ارسل اليهم ولنسئلن المرسلين فبين الآيتين الاولين والاخيرتين على ما يظهر لي تناقض فقال له الشيخ هذه من وقفات العلماء ولكن شرط التناقض ان يتحد الزمان والمكان والغرض فقال ايها الشيخ

اليس ذلك كله يوم القيامة قال بلى ولكن يوم القيامة كما اخبر الله
مقداره خمسون الف سنة وعرف بالاخبار انه يكون مشتملاً على
مقامات مختلفة فلا مانع من ان يكون السؤال في وقت من
اوقات يوم القيامة ولا يكون في وقت اخر وفي مقام من مقاماته
ولا يكون في مقام اخر وحينئذ لا تعارض في الايات ولا تناقض
فاطرق رأسه برهة ثم اقبل على الشيخ وقال له والله انك عالم باسرار
لغتكم فقد ازلت عني كثيرًا من الوقفات فاني كنت ارى بين قوله
تعالى لا تختصموا لديّ وقد قدمت اليكم بالوعيد و(بين) قوله
تعالى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون تناقضًا وبين قوله
تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وبين قوله هذا يوم
لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون تناقضًا وبين قوله تعالى
فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وبين قوله واقبل بعضهم
على بعض يتساءلون كذلك وبدلك الجواب ازيلت تلك
الوقفات ولله المنة والشكر الجميل حيث جمعنا بحضرتكم نقتبس
من انواركم ولقد كنت اول امري متحاشيًا عن السؤال مهابة
فالان لما زال عني من غياهب الشك بسبب سوال واحد ارجو
من جنابكم الاذن لي في السوال فقال الشيخ نحن لا يطيب لنا
عيش الا بالمذاكرة في العلوم فانه حياة ارواحنا فسل ما
شئت فذلك غاية مرغوبي فقال الحمد لله اني صرت من الان
فصاعداً جريئًا على ان اسأل حضرتكم لانكم ابصر الناس بتلك

العلوم فقال هذا من كمالك وحسن ظنك بي اني بالنسبة لعلماء
تلك الصناعة لا أُعدّ فقال كيف ذلك وانت لها كالاصل منه
يستمدّ ثم قال ايها الشيخ ان القرآن معجز بنظمه وان نظمه غير
مقدور للبشر وان الجن والانس ان اجتمعوا على ان يأتوا بمثله لا
يمكن لقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجنّ على ان ياتوا
بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا وقد
ورد ان اهل زمان النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على الغاية
في الفصاحة والبلاغة فعجزوا عن الاتيان بمثله ثم تحداهم بعشر
سور فعجزوا ثم تحداهم بسورة واحدة على الاطلاق فلم يقدروا ايضًا
وفي السور (انا اعطيناك الكوثر) قصيرة جدًّا فلو انهم قدروا على
مقدارها وهو ثلاث ايات لكانوا قد اتوا بالمتحدى به فكيف ذلك
مع ان نظم القرآن يشهد ان نظم ثلاث آيات بل ثلاثين آية بل
الاكثر لا يعوز الفصيح فضلاً عن ان يعوز الافصح ولو كان وحده
فضلاً عن ان يظاهره الانس والجن

فقال الشيخ ومن اين تؤخذ هذه الشهادة من القرآن
قال ان فيه حكاية موسى (واخي هارون هو افصح مني لسانًا)
ثم فيه عن موسى قال رب اشرح لي صدري ويسر لي امري
الى قوله انك كنت بنا بصيرًا وهذه احدى عشر آية عندكم فانا
قدر فصيح واحد وهو موسى على احدى عشر آية في موضع واحد
أفلا يكون الافصح اقدر وان كان واحدًا على اكثر فكيف اذا

ظاهره في ذلك الانس والجن

فقال الشيخ اما وقفاتك فوقفات من رسخت في العلم قدمه ولكن هل انا عبرت على لسان صاحبك بكلام على نسق مخصوص واذا سمعته يقول كنت اريد ان اقول هكذا وما كان يتيسر لي ينزل ذلك منزلة القول قال لا فقال الشيخ اذاً لا يقال ان موسى قدر على نظم احدى عشر آية لانها حكاية عن معنى كان يريده ولا يتيسر له ان يعبر عنه كما في الايات فقال لله درّك قد ازلت عني ما كنت اظن انه لا يزول ولكن عندي وقفة اكبر من هذه لعل كشف القناع عنها يكون على يد حضرتكم فقال الشيخ بتيسير الله تعالى فقال ياحضرة الشيخ أفي كون القران من عند الله شك قال لا قال كيف وهو ينادي بانه من عند غير الله قال الشيخ كيف ذلك وتغير وجهه فقال لا تتغير ان السؤال اقتضى ان يكون الكلام هكذا فقال الشيخ بمَ ينادي ذلك فقال او ليس في القران ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً

قال الشيخ نعم وما ينتج من ذلك قال ان فيه من الاختلافات اكثر من اثنى عشر الفاً كما تسمع اصحاب القرآآت ينقلونها اليك وهل عدد مثل ذلك لا يكثر

قال الشيخ مهلاً قد هالني اوّل سوءالك فاسمع ما اقول تجد القرآن منادياً بانه ليس من عند غير الله وذلك انه ليس المراد بالاختلاف اختلاف الروايات كما فهمت بل المراد التناقض في

الاخبار والتفاوت في مراتب البلاغة فانك اذا استقريت ما ينسب
الى كل واحد من البلغاء اشعاراً كانت او خطباً او رسائل لم
تكد تجد قصيدة من المطلع الى المقطع او خطبة او رسالة على
درجة واحدة في علو الشان فضلاً عن وجود جميع المنسوب الى
صاحبها على تلك الدرجة بل لا بد ان تجد اختلافات كثيرة في
كلام المتكلم الواحد فترى البعض فوق سماك السما علواً والبعض
تحت سمك الارض نزولا وما ذلك بخاف على ذي بصيرة أليس
الامر كذلك قال بلى قال اتجد القرآن على اختلاف رواياته مختلفاً
في البلاغة قال لا قال الشيخ ايكفيك ذلك في الجواب عن
سؤالك فقال يكفي ثم يكفي ولك الشكر والمنة ثم اثنى عليه
وازداد قدره لديه وقال ايها الشيخ بقي في ذهني حاجة اريد ان لا
اخفيها عنك قال الشيخ وما هي وتبسم ضاحكاً فقال ان القرآن
لا شك كلام الله وقد علمه لمحمد عليه الصلاة والسلام بلا شك
وفيه وما علمناه الشعر وما ينبغي له فقال الشيخ نعم قال وهذا
يستدعي أن لا يكون فيه شعر مع أن فيه من جميع بحور الشعر فان
فيه من بحر الطويل من صحيحه فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر
وزنه فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ومن مخزومه منها خلقناكم
وفيها نعيدكم وزنه فعلن مفاعيلن فعولن مفاعلن ومن بحر المديد
واصنع الفلك باعيننا ووحينا ومن بحر الوافر ويخزهم وينصركم عليهم
(و) يشف صدور قوم مؤمنين ومن بحر الكامل والله يهدي من

يشاء الى صراط مستقيم ومن بحر الهزج من مخرومه تالله لقد اثرك الله علينا ونظيره القوه على وجه ابي يأتِ بصيرا ومن بحر الرجز ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ومن بحر الرمل وجفان كالجواب وقدور راسيات ونظيره ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ومن بحر السريع قال فما خطبك ياسامري ونظيره نقذف بالحق على الباطل ومنه او كالذي مر على قريــة ومن بحر المنسرح انا خلقنا الانسان من نطفة ومن بحر الخفيف ارأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ومنه لا يكادون يفقهون حديثًا وكذا قال يا قوم هؤلاء بناتي ومن بحر المضارع المخروم يوم التناد يوم تولون مدبرين ومن بحر المقتضب في قلوبهم مرض ومن بحر المجتث مطوعين من المؤمنين في الصدقات ومن بحر المتقارب واملي لهم ان كيدي متين

فقال الشيخ سبحان الله ألم تعلم ان الشعر اشترطوا فيه ان يكون مقصودًا فقالوا هو الكلام الموزون قصدًا فقال نعم قال الشيخ ما اوردت من هذه الايات ونحوها ليس مقصودًا موازنته لتفاعيل الشعر ولم تقصد فيه اسباب ولا اوتاد ولا فاصلة صغرى ولا كبرى فليس شعرًا اصلاً وعلى تسليم ان ذلك من الشعر أليس يصح بحكم التغليب ان لا تلتفت الى ما اوردت لكونه قليلاً نادرًا والنادر لا حكم له فيحكم على مجموع القرآن انه ليس بشعر فيقال بناء على مقتضى البلاغة وما علمناه الشعر

فقال ايها الشيخ لقد اجدت فيما اجبت وقد شفيت مني الغليل وازلت شبهًا ما كنت اجد لها من مزيل فانت الرجل علمًا وادبا وعقلاً وكمالاً ليتني لا افارقك ابدًا ثم خرجا من الكتبية وصارا يتحدثان في امور شتى حتى ازف الليل فاستاذن الشيخ للقيام فصحبه الرئيس وصاحب البيت وبعض الحاضرين تعظيما له حتى ركب عربته وسار ومعه ولده ويعقوب الى منزلهم

المسامرة (١٠٥)

قصة

وفي صبيحة تلك الليلة دخل يعقوب على الشيخ فسلم عليه وعلى ولده ثم قال رايت باوراق الحوادث امس ان احد الاشقياء الشائع ذكرهم بنواحي باريز قد ضبط منذ ايام وفي هـذا اليوم يكون بت الحكم عليه في مجلس الحكم وارغب الحضور هناك لانظر

بماذا يبت عليه فهل تاذن لحضرة بجلك في التوجه معي فقال الشيخ
لا باس انما لا بد ان تكونا هنا قبل الزوال فان حضر الخواجا
توجهنا معه حسب ما يحصل عليه الاتفاق وان لم يحضر ذهبنا
نحو العين التي كنا بها امس فقد انشرح صدري من روءيتها فقال
يعقوب سمعًا وطاعة واخذ بيد ابن الشيخ وسارا راجلين يتحدثان
الى ان وصلا الى المحكمة فوجدا اناسًا كثيرين هناك وببابها طائفة
من العسكر يمنعون البعض من الدخول فتقدم يعقوب للضابط
وعرّفه انهما غريبان ويريدان الدخول فابى ان يدخلهما فجعلا
يتحيلان عليه بانواع الحيلة فلم يجد ذلك شيئًا وبيناهما كذلك اذا
بالخواجا التلياني الذي كانا عنده بالامس قد اقبل فعرفهما وسلم
عليهما وتكلم مع ابن الشيخ بالعربية وكلم الضابط كلاما عرفه
الحقيقة ثم ادخلهما فوجدا خلقا كثيرين محيطين بحاجز من حديد
بداخله محل الحكم الذي هو صدر المكان وفيه جميع الاعضاء كل
على حسب درجته والرئيس هناك على كرسي مرتفع وامام الجميع
طاولة فلم يلبثا الا قليلاً وتم المجلس فامر الرئيس باحضار الجاني
فاتى واجلس على كرسي من خشب وصاروا يسئلونه نحو الساعة
ثم قام الرئيس وتلا خلاصة طويلة ثم هاجت الناس فرحا وصار
العسكر يخرجون الناس فمن الازدحام وكثرة اللغط وعدم معرفة
ابن الشيخ بلغتهم كما ينبغي لم يعرف الامر على ما هو عليه انما عرف
انه قد حكم على الجاني بالقتل في يوم معين

ولما خرجا رغب ابن الشيخ ان يفهم قصة هذا المحكوم عليه فلما بعدا عن الازدحام سال يعقوب عن تفصيل القصة فقال يعقوب عرج بنا على احدى القهاوي لنستفيدها من اوراق الحوادث لاني لم اتحققها باطرافها فذهبا الى قهوة قريبة هناك وجلسا بخزنة صغيرة وطلب كل منهما ما يشتهي وصار يعقوب يقراء اوراق الحوادث الى ان قضى ما اراد ثم رمى الورق وقال ان اصل هذا الشقي من قرية قريبة من مدينة اورليان تركه والده في المهد فربته امه ولما بلغ سنه عشرين عاما كان يساعد امه في المعيشة ولكن كان شقيا من ابتداء طلعتهِ حتى عرف بذلك بين اقرانهِ وهو في المكتب وكانت البنات تكرهه لتجرئه على ما لا يليق مع انه قبيح المنظر وسقيم الجسم احد شقيه عاطل فكان اذا مشى يضحك منه من يراه ولا يألفه احد من النساء لدمامته ولسخافة عقله كان يجتهد في نيل ما لم يتمكن منه من النساء ولو بالقهر ومع كون شهواته كشهوات الحيوانات العجم تعشّق بنتًا بارعة في الجمال وهي لا تحبه ولا تميل اليه بل كان حبها وميلها لغيرهِ وانما تظهر لهُ المحبة وتلاعبه لسلب امواله وهو منكب عليها بكليتهِ وقد وقع في قلبه ان كثرة الهدايا تعطف قلبها عليهِ لكونها فقيرة فصار ينفق عليها كل اكتساب والدته ومع ذلك فلم يبلغ اربه مع ازدياد فقره سيما وهو يحب الراحة وليس لهُ طريق الى الاكتساب ولا يرضى بان يشتغل باشغال الفلاحين فانهُ كان من غباوته وجمود طبعه

يتصور عظم شانه ورفعة قدره فيحمله ذلك على الترفع عن الخدمة مع ما هو عليهِ من الضعف والعجز فحصل لهُ حيرة شديدة ولم يجد سبيلاً به يتحصل على مرغوبه ثم استحسن طريق الصيد فسلك هذا المسلك مع ان القوانين كانت مانعة من الاصطياد من ارض الغير وكان بقرب بلده غابة فصار يذهب اليها ويصطاد منها وما يتحصل عليه ياتي بهِ الى محبوبته فاظهرت الميل اليه واثرته على سائر احبتها فاغتاظوا وضجروا وفيهم رجل من خفراء الغيطان فاخذ يبحث عن احوال هذين المتحابين حتى وقف على الحقيقة وحيث انهُ يعلم القوانين المانعة للصيد من ارض الغير وان من تجراء على ذلك جزاوهِ الحبس ترقبه حتى قبض عليه فاخذه واوقعه في يد الحكومة فصرف جميع ما عنده حتى تخلص وترك الصيد. فانقطعت العلائق بينه وبين البنت لعدم ما يواصلها به واستبدلته بخصمه وجاهرت بذلك فاضرمت نار العداوة بقلبه فاراد الانتقام من الخفير فلم يقدر لشدة فقره وضيق الحال عليه فترك البلدة واقام ببلدة اخرى قريبة منها وجعل يصطاد خفية وبينا هو في صيده مرة غافلاً عن عدوهِ اذ احيط به وقبض عليه باغراء غريمه الاول فاخذ وحكم عليه بالسجن عاماً كاملاً

فكان في تلك المدة تنمو فيه سورة الغضب وتقوى ارادة الانتقام حتى مضى الحول وعاد الى منبته فاول شيء اشتغل به البحث عن محبوبته ولكن لقبح منظرهِ ورثاثة حاله كانت اذا راته

تنفر منه ولا تميل اليه فضاق من ذلك ذرعًا واشتد به حال الفقر فانقاد وذل وطلب الخدمة لتحصيل المعيشة ومع ذلك لم يقبله احد من عظماء بلده ولا ارباب الفلاحة لضعفه عن الخدمة فاشتد كربه واستحال حاله وخابت اماله

ثم اختار رعي الاغنام فابت اربابها من تمكينه منها لعلمهم بسوابقه وسوء سيرته فلما لم يجد للمعاش سبيلاً عاد لما عوقب عليه مرتين واتخذه حرفة ثالث مرة لكنه صحا من سكرته واستيقظ من غفلته فتدجج بالسلاح في الغدو والرواح فكان لا يغفل عن عدوه طرفة عين ولا ينسى القبض عليه مرتين وصار بالمرصاد لعدوه في جميع حالاته ملاحظًا لجميع حركاته وسكناته ولكن لسوء تدبيره وحذق عدوه وقع في شرك الحكومة ثالث مرة بدلالة عدوه عليه فاخذ وسجن وحكم عليه هذه المرة بالسجن والاشغال الشاقة ثلاث سنين بعد وسمه بالنار على ظهره كالحيوان البهيمي فامضى تلك المدة في عذاب اليم كانه في نار الجحيم وبعد مضي المدة خرج من القلعة التي كان محبوسًا بها متغيرة جميع احواله هكذا اخبر القسيس الذي اعترف له بذنبه

فقال ابن الشيخ ثم ماذا حصل قال يعقوب اخبر القسيس عنه ايضًا انه قال اني قبل دخول سجن هذه القلعة كنت احسن حالاً من حالتي بعد ذلك فانه ما زادني السجن الا شقاء وحبًا للغدر والفساد وذلك اني قبل سجني كنت طائشًا صغير العقل

حتى جرني ذلك الى ما وقعت فيه واني وان كنت قبل السجن اميل الى الفساد لكن كان يمنعني عنه خشية العار او خوف العقاب فلما ادخلوني السجن بزعمهم انه يربيني ويحسن احوالي وجدت به من الاشقياء المحكوم عليهم نحو عشرين شقياً اثنان قاتلان والباقون ما بين لصوص وقطاع طريق فكنت اذا ذكرت اسم الله يهزأون بي ويقولون ما لا يسعني التفوّه به من سبّ المسيح والتفاخر بالقتل وسلب الاموال وهتك الاعراض ونحو ذلك من حكايات تمجها الاسماع وتنفر من سماعها الطباع فاذا اردت اجتنابهم لم اجد غيرهم فاضطررت الى العود الى مجالستهم ومجانستهم فلما طالت عشرتي بهم لم اجد بدّاً من موافقتهم حتى صرت واحداً منهم وضاع ما عندي من حسن العقيدة وتعودت الامور الذميمة وألفت الكبائر حتى فقت على اقراني في الشقاوة والفساد ولقد صدق وبالحق نطق من قال مشيراً الى هذه الحال

عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولطول عشرتي لهم واضطراري للامتزاج بهم لم اعمل بقوله في البيت الاخر

فان كان ذا شر فجانبه سرعة
وان كان ذا خيرٍ فقارنه تهتدي

بل تهت في اودية الضلال وغرقت في رديء الخصال وكنت

ارى في نفسي العداوة لجميع بني ادم لما قاسيت من الشدائد وسوء
الحال وهم في امن وثروة ورخاء فكنت اذا ابصرت الشمس
طالعة من وراء الجبل الذي عليه القلعة او سمعت صفير ريح
او صوت عصفور هاجت اشجاني ونمت احزاني واوقدت بفوءادي
نار ارادة الانتقام فكانت كراهتي لابناء جنسي دائمًا في ازدياد فلما
استوفيت المكتوب وخرجت من السجن لم يكن لي هم الا الرجوع
الى بلدي لا حبًا فيه ولا للتعيش به بل لقصد الانتقام من الذين
كانوا سببًا في شقاءي وطول عناءي فصرت اهرول واعدو
عدوا شديدًا وفي قلبي شيء يحملني على الجري كالسائق العنيف
واذا رأيت من بعد ناقوس الكنيسة هاج ضميري وثارت فكرة ما
مر عليَّ من الشدائد وكبرت في نفسي جرائم اعداي ففتحت عليَّ
جراحي وكبرت شهوة الانتقام عندي وصرت اعدد اعداي واصوّر
في نفسي ما يحصل لهم من الرعب والخوف عند روءيتهم اياي على
حين غفلة فتهون عليَّ الالام وهكذا حتى وصلت الى البلدة وما
كنت انظر اليها بالعين التي كنت انظرها بها من قبل وكان
دخولي في ضحوة النهار فوجدت اناسًا ذاهبين الى الكنيسة يعرفونني
واعرفهم فنظروا اليَّ وتجاهلوني فاعرضت عنهم وذهبت الى السوق
فرأيت به طفلاً جميل الصورة وكنت قديمًا احب الاطفال فاعطيته
صلديًا كان معي فاخذه مني وجعل ينظر اليَّ ثم رمى به وفرَّ
كالخائف فعجبت من ذلك ثم قلت في نفسي لعله انما فر مني لما

رأى من تشوه هيئتي فان لي مدة ما تعهدت لحيتي فشعثها ضرورة
يزيد في شناعة صورتي ثم خطر ببالي احتمال اخر لفراره مني وهو
انه ربما كان كغيره يعرف امري وما انا عليه من الطرد والابعاد
ففر مني وعند ذلك بكيت بكاء لم يسبق لي مثله واعتراني من الحزن
اضعاف ما عانيته في السجن وقلت قد فر هذا الطفل مني كما يفر
من الحيوان المفترس فهل عندي شبه بوحوش الجبال ام هل
رأى في وجهي علامة الفزع او انه ضاع جميع شبهي بالادميين
من شدة عداوتي لهم ثم انزويت في ركن تجاه باب الكنيسة من غير
قصد مني ولا شعور ثم قمت من هذا المكان كاسف البال لما
رأيت ان جميع معارفي واصحابي مروا بي ورأوني ولم يسلموا عليّ
كانهم لا يعرفونني ثم عمدت الى قهوة فرأيت في طريقي امراءة عليها
اثر الذل والمسكنة فتأملتها فاذا هي التي كانت سببًا في جميع ما
حل بي وقد صارت في حالة يرثى لها فعرفتني ودنت مني ونادتني
باسمي وقالت الحمد لله الذي اعادك وعلى وجهها كآبة تشهد على
اعمالها السابقة واللاحقة ورأيت ان لها اختلاطًا بجماعة من العسكر
فعرفت طريق تعيشها فصرفت وجهي عنها وحصل لي نوع من
الراحة لاني رأيت من هو ادنى درجة مني

ثم سالت عن والدتي فاخبرت انها قد ماتت وبيعت تركتها
في ديون كانت عليها فعرفت اني صرت مجردًا من المال والاهل
وقد كنت سابقًا اتوقى ملامة الناس واخشى على نفسي العار

فاصبحت كاني مزقت جلباب الحياء عن وجهي وصرت انلذذ
باقامتي بينهم مع نفورهم مني وتباعدهم عني لاني كنت ارى في ذلك
عذابًا اليمًا عليهم على اني ما كنت املك شيئًا اخشى عليه اواحرص
على حفظه وكان دابي العدول عن كسب الطيبات لانها كانت
مطبوعة في اذهانهم وكان المطبوع في ذهني حب مخالفتهم فيما
يحبونه وكنت اعرف من نفسي اني لو رحلت عن بلدهم الى بلد
اخر فلربما كنت اتحلى بفعل الجميل والخصال الحميدة ولكن تشفيًا
منهم ابيت الا الاقامة بينهم لان تذكاري لما قاسيت من الاهوال
والالام اذهلني عن الصواب وعن كل ما يقال له شرف اوفضل
وتماديت على ما انا فيه من الرذائل ومع هذا فكنت مضطربًا في
احوالي غير قاصد امرًا معينًا افعله انما كنت اتصوّر ان القوانين
وضعت للجري على سننها والعمل بمقتضاها فخالفتها عمدًا لما نابني
بسببها من النوازل والمصائب الفائقة الحدّ وان كانت مخالفتي
لها اولاً جهلاً وطيشاً ثم رجعت الى الصيد مع اصراري في الباطن
على اضمار السوء فصرت اصطاد كلما وقع بصري عليه وكانت هذه
الصنعة عندي شهوة لذيذة وكل حين كان يزداد تطبعي عليها
خصوصًا ولم ارَ غيرهـــا اتقوت منه وازداد عندي حب مخالفة
القوانين السياسية وذهب عني الخوف الذي كان يلحقني قبل ذلك
وصرت مزمنًا على تسكين الرصاص في قلب من يقرب مني وكنت
اصطاد لقصد الاتلاف ولا ابيع منه الا القليل على قدر شراء

القوت والرصاص والبارود واقمت بالغابات على اسوإ الاحوال عدة اشهر حتى تنوسي امري وصاروا لا ينسبون اليَّ شيئاً مما يحصل من الاتلافات ولا يدرون اني في البرية مصر على الغدر وفي ذات يوم رأيت حيواناً فعدوت خلفه اريد صيده فلم ادركه الاَّ بعد ساعتين فحرّرت البندقية عليه لارميه فلاحت مني التفاتة فرأيت رجلاً قد صوب بندقته الى هذا الحيوان فامعنت النظر فيه فاذا هو الخفير الذي كان السبب في جميع ما لحقني من الهوان فهاج جسمي واشتعلت نيران قلبي وقلت هذا اكبر اعداي الذي انا هائم في الغابات لاجله هذا الغرض الذي انا قاصده هذا وقت انتهاز الفرصة في حرمانه من الحياة ثكلتني امي ان تركته يعيش برهة من الزمن وارتعدت فرائصي وتضاربت اسناني واضطرب نفسي حتى اني لم اشعر بتحول البندقة فضربته فنفذت الرصاصة في احشائه فانكب على وجههِ يتشحط في دمه كأنه من هدايا مكة ففي الحال خمدت نيران قلبي وبرد غليلي وشفي عليلي وقلت اني قد اخذت بثاري وكان لسان حالي يقول

ولست ابالي اذ أرحت حشاشتي
بقتل عدوي ان اعذب بالنـارِ
ولست ارى شيئاً يلذ حديثـه
وافرح منـه مثل اخذي بالثارِ

وقلت ما اوقع هذا الغبي في شبكة صيدي الا نسيانه لذنوبه

وعدم فرضه وجودي وكانه لم يقف على قول القائل

احذر عداوة من ينام وجفنه
باكٍ يقلب طرفه نحو السما
يرمي سهامًا ما لها غرض سوى
الاحشاء منك فربما ولعلما

وبينا انا اتشفى فيه اذ تغيرت حالتي وداخلني الخوف وتنبهت لنفسي وصرت كنائم استيقظ من رقدته او نشوان صحا من سكرته وحق فيّ المثل راحت السكرة وجاءت الفكرة ولما سقط في يدي رايت اني قد هلكت فحينئذٍ رجعت على نفسي باللوم والتقريع ودهشت مما حصل مني ووقعت البندقة من يدي ورايت قواي قد بطلت ونفسي قد همدت وقلت الان صرت قاتل نفس وقد يئست من الحياة بذلك الفعل الشنيع الذي استحق عليه القتل وصرت وانا في الغابة كاني في مقبرة ممتلئة بالاموات لكثرة فكرتي في الموت وكان السكون حولي من كل جهة وكأني اسمع نفسي تقول لي يا قاتل ثم دنوت منه فوجدته في اخر نفس فبهتّ وجعلت انظر اليه مدة ثم رايتني اضحك بقهقة واتكلم مع الرمة واقول الان لا تتكلم ثم داخلني الشاغل ثانيًا وقلت لنفسي ان ما قاسيته من الهموم والمشاق من مدة سنتين هو عقاب ما جنيته فيما مضى حتى رايت من الباساء والضرّاء ما كنت اظن انه لا يوجد مثله لمخلوق غيري والان قد جنيت جناية كبيرة تستحق

الموت في الدنيا وعقاب الله في الاخرة وصغرت عندي حالتي الاولى بالنسبة لما صرت فيه لاني صرت من تخيل القتل والصلب والمشنقة وحبالها وتصورت لي صورة شنق امرأة كانت قتلت ولدها وكنت نظرت اليها مشنوقة وانا صغير في المكتب ورايت ان حياتي من يومئذ صارت من حق القصاص وصرت اتمنى حياة المقتول لاتخلص من هذه الورطة ثم انتقلت فكرتي الى تعداد سيئاته مع طول حياته لاهوّن على نفسي وجعلت اربط افعاله السيئة بعضها ببعض فلم يساعدني تصوري وغلبت عليّ المخاوف وغاب عني ما كان قبل ذلك بربع ساعة مشعلاً نار الغضب في احشاي حتى اوقعني في حد القتل وبينا انا في هذه الافكار اذ سمعت عن بعد صوت فرقلة وفرقعة عربة تسير خارج الغابة وكان محل القتل قريباً من الطريق بنحو ربع ساعة فانتبهت من دهشتي من شدة الخوف فاخذت في اسباب الاختفاء ودخلت وسط الغابة هائما على وجهي لا ادري اين اتوجه ثم خطر ببالي ان مع القتيل ساعة فعزمت على العود اليه لاخذها فاستعين بثمنها ولم يكن معي شيءٌ من النقود اصلا فلم اجد لي جسارة على القرب منه وتجاذبني خوف عقاب الله تعالى واغواء الشيطان فصرت اقدم رجلاً واؤخر اخرى واتردد بين الاقدام والاحجام ثم غلب جانب الاقدام فوصلت اليه وانا في وجل شديد وخوف عظيم فاخذت الساعة ووجدت معه ايضاً نقوداً تقرب من ريال فاخذتها ثم

اردت ان اصر ذلك في جيبي فلم استطع وكأن شيئاً ممسك
بيدي ثم ترجح عندي ان اترك الساعة ولا اخذ الا الدراهم فرميتها
ولم يكن سبب ذلك خوف تعظيم كبير القتل بكبيرة السرقة بل
الحامل لي على رميها الانفة والتعاظم عن اخذها لانه قد خطر
ببالي انهم لو قبضوا عليّ وهي معي لقالوا ما قتله الا لاخذ ما
معه فينسبونني الى قلة المروءة مع اني ما قتلته الا تشفياً فيه ومكافاة
له على فعله معي ثم مضيت في الغابة وكنت اعرف انها تمتد في
الشمال نحو اربعة فراسخ فتنتهي الى حدود البلاد المجاورة لها
فاخذت اهرول واعدو عدواً شديداً الى قريب الظهر ومن
كثرة الجري ضاع عني بعض افكاري ثم صرت كلما قلّت في
الجري قوتي كثرت فكرتي وزاد اضطرابي حتى كنت ارى
خيالات مهولة محيطة بي من كل جهة كل واحد منها اكبر
هولاً من الاخر وكأن تلك الخيالات تضربني باسلحة حداد
تؤلم صميم قلبي فكنت في عذاب اليم وخوف مستمر حتى كنت
اهم بقتل نفسي لاستريح من القبض عليّ والحكم بقتلي وكلما هممت
بضرب نفسي اجد عندي جبناً عن ذلك وتعز عليّ مفارقة الحياة
مع اني في رعب شديد من البقاء وبقيت حيران لا يهناء لي حياة
ولا موت وجل بي خوف عذاب الله في الاخرة واستمرّت بي هذه
الحالة الى الساعة السادسة من ابتداء هروبي ومرّ على فكرتي جميع
انواع العذاب الدنيوي والاخروي ثم اني اقللت العدو ومشيت

الهويناء وادخلت البرنيطة الى اخرها في راسي حتى نزلت على عيني وسترت وجهي لاني كنت اريد ان اخفي نفسي عن كل شيء حتى عن الاشياء غير الناطقة وسلكت طريقاً ضيقاً لا ادري اين يوصلني فاوصلني الى مضيق مظلم في داخل الغابه فارددت خوفاً على خوف وبينا انا اسير اذا بصوت مرتفع يقول قف مكانك يا هذا فرفعت البرنيطة قليلاً فرأيت رجلاً في هيئة هائلة قد دهمني ومعه نبوت كانه جزع نخلة وهو مصفر اللون مع سواد خفيف وفي عينيه بياض شديد مع حوَل وعلى وسطه حبل طويل قد اداره مرتين فوق سلطة خضراء وفي حزامه سكينة عريضة وطبنجة ذات طلقتين وعند قوله قف هنا نزلت على كتفي يد ثقيلة كالمطرقة فخفت اولاً منه ولما تحققت أنه من قطاع الطريق ذهب خوفي منه لاني حينئذٍ كنت لا اخاف الا ممن يخاف الله دون مرتكب المعاصي ثم قال لي من تكون انت فقلت مثلك ان كنت كما اظن فقال ليست الطريق من ههنا فما اتى بك هنا فقلت له وانت ما أتى بك ههنا ولأي شيء تسئلني وانت مثلي فلما رأى مني عدم الخوف منه تأمل فيَّ وفيما انا عليه وقال انت تتكلم كالشحاذين ثم بهت كانه تحير في امري فقلت ربما كنت كذلك بالامس فضحك من ذلك وقال ستُعلم لنا حقيقتك ويظهر لنا مقصدك فقلت اتركني اسير في طريقي فقال نسير سوية صاحبي فلا تعجل فسكت قليلاً ثم نطقت

بكلام لم اشعر به فقلت اتركني فالحياة قصيرة وعذاب الله طويل
فصعد نظره فيَّ وقال يظهر انك قريب من الشنق وان لم يكن
كذلك فلا علم لي بصنعتي فقلت ان لم يكن ذلك حاصلاً
فسيحصل اتركني اسير لحالي فوضع يده في يدي واخرج زجاجة من
شنطة معلقة في ابطه فيها شراب فعزم عليَّ ان اشرب معه وكنت
في ذلك اليوم المشؤوم لم اتناول شيئًا من الطعام ولا الشراب من
والتعب فشربت معه فحصل لي انتعاش وخفّت عني
متاعبي وهمومي وتعلقت بحبل الحياة وأنساني الشراب شقاوتي وتخيلت
السعادة حيث اجتمعت بمن هو مثلي فاني كنت مجردًا عن الانيس
والاليف وزال عني اضطراب القلب والتاعب ثم ان الرجل
اضطجع على الحشيش فاضطجعت بجنبه وقلت له ان شرابك اراحني
فيلزمنا المواخاة والصحبة وكان معه شبق فملاه دخانًا وقدح الزند
وولع منهُ الدخان وتكيف ثم قلت لهُ هل مضى عليك زمان طويل
في الكار فنظر اليَّ ثم قال اي كار تريد فوضعت يدي على سكينته
وقلت لهُ هل قتلت كثيرًا وسفكت الدما فعبس في وجهي وقال
من انت ياهذا ووضع السكينة على الارض وجعل ينظر اليَّ فقلت
اني مثلك قاتل لكني مبتدىء في الكار فسكت قليلاً وقال انت
لست من هذه البلاد فقلت اني من بلد قريب بينك وبينه ثلاثة
فراسخ وذكرت لهُ اسمي وقلت لعله قد وصلك بعض اخباري فعند
ذلك نهض قائمًا وعانقني وقال طال ما تمنيت لقائك وصحبتك

وقد ساقتك المقادير فلا فرقة بيننا الا بهادم اللذات الذي يستوي عنده الجليل والحقير

ثم قال هل من العدل ان يعذبوك هذا العذاب ويسجنوك ويحرموك من اصحابك واحبابك وبلدك بخنزيرين صدتهما من الغيطان لا قيمة لهما ولا كلفة في موونتهما وهل من الانصاف ان تهان تلك الاهانة ويفعل بك ما فعل حتى آل بك الامر الى تناسي الملة وابتنى على ذلك ضياع حقوقك المالية والملية جميعًا وصرت بحال يرثى لها بحيث لا يقر لك قرار ولا تستطيع الاقامة في موطن فهل ليس للانسان قيمة تساوي قيمة الارنب

ثم سكت مليًا وقال وماذا فعلت حين اقاموا عليك النكير بقتل الخنازير فقلت لم اجد لي حيلة الا قول القائل

اذا لم يكن الا الاسنة مركبًا

فلا يسع المضطر الا ركوبها

وكنت كثيرا ما اتمثل بقول القائل

كفى بك داءً ان ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكن امانيا

وكان الشراب قد اخذ مني اكثر مما اخذ منه فقصصت عليه القصّة بتمامها ثم سالته عن حاله فلم يرد عليّ جوابا واخذ بيدي وقال لي نجوت وبلغت ما رجوت فسر بنا الى اخواننا لتعرفهم ويعرفوك فسرت معه نحو نصف فرسخ فدخلنا ارضا كثيرة الشجر

فصفر الرجل بفمه فجاوبه اخر من بطن الارض واذا بطابق قد
انفتح وبه سلم ينزل عليه الى جوف الارض فنزل فيه وقال حتى
اربط عنك الكلب ونادى الكلب فجاءه فربطه بفم الطابق ثم غاب
عن بصري فداخاني خوف شديد وخطر ببالي ان اخذ السلم
وافرّ به ثم نظرت الى فم الطابق فرأيت دخانًا يتصاعد كأنه طاقة
من طاقات جهنم وان احد الزبانية جاءني في صفة هذا الرجل
ليريني ما انزجر به عن الافعال القبيحة فسمعت قائلاً يقول ان
كان قاتلاً اوبناه او كان مظلومًا نصرناه ثم جاء الرجل وقال لي
انزل فنزلت فوجدت غارًا مستطيلاً وبه مساكن صغيرة ونساء
ورجال محدقون بنار اضرموها فلما قربت منهم قاموا جميعًا وسلموا
عليّ وحيوني واجلسوني وجلسوا محيطين بي واخذوا يسامرونني
مسامرة ترفع عني الاوهام والمخاوف ويثنون على بسالتي ويمداحون
شجاعتي فانصرف عني الجزع والخوف حتى رأيت نفسي قد داخلها
العجب والكبر ثم امروا بالطعام فاكلت معهم ثم دارت علينا الكؤوس
الشراب فشربنا وطربنا وكنت وقت الاكل بين امرأتين حداهما
قد ناهزت العشرين وهي بكر وكانت فصيحة طلقة اللسان حاضرة
الجنان سريعة الجواب خفيفة الروح والاخرى اصغر منها الا انها
متزوجة ناشزة من زوجها لسوء عشرته معها وكانت اقوم من
الكبيرة قدًا واحسن شكلاً وارق مبنىً واخف معنىً نحيفة مألوفة
فهويتها وان كانت الكبيرة تسارقني النظر وتمازحني طويلاً لكن

لبي علق بالصغيرة اكثر لمعنى فيها جذبني اليها فجعلت انزه طرفي
ذات اليمين وذات الشمال فقال لي صاحبي كيف رأيت مجلسنا
قلت مجلس انس وفيه كل ما تشتهي النفس فقال نحن هكذا كل
يوم ناءكل الذ الماكل ونشرب اعذب المشارب ونتمتع بالنظر الى
الحسان فان رضيت الاقامة معنا ورغبت في عشرتنا آثرناك على
انفسنا ورفعناك فوق روءسنا وجعلناك رئيساً علينا وكان قد دب
فيّ الشراب فلما سمعت هذا الكلام فرحت به وتذكرت اني كنت
طريد النوع البشري والان تحصلت على ماربي من التمتع بجميع
الملاذ أكلاً وشرباً وظفرت بمن كنت اهواه من الحسان ربات
الجمال وصرت آمناً مما اخاف فلمَ لا ارضى بما عرض عليَّ اختياراً
منهم لا سيما وقد رايت من الجماعة الاجماع على ذلك فلم ارَ بداً من
القبول للحصول على المامول لكن رايت ان اشرط على الرئيس
اخذ الفتاة التي علقتها فاجابني الى ذلك وقال لي وان احببت
جعلتك رئيساً على هؤلاء الرجال ثم قبض على يدي وقال قد
نزلت لك عن الرئاسة فقبلتها واختصصت بصغرى البنتين ولم
ينازعني احد من القوم ولا عابني وصرت صاحب امراءة عاهر
ورئيس قوم لا يوءمنون بالله ولا باليوم الاخر واخذت من حينئذٍ
افسد في الارض وارتع في اساليب البغي والعدوان فهابني جميع
الناس وراعهم امري وقد كنت اشيع بين المغفلين من الفلاحين
اني مصاحب جنيّة فزاد ذلك في هيبتي لديهم وعاد عليَّ من غفلتهم

ما لم يعد عليّ من شجاعتي

ولما وصل خبري الى الحكومة اهتمت في ضبطي وجعلت لمن يدل عليّ او يضبطني جعلاً عظيما ومع ذلك لم يتحصلوا مني على شيء وبقيت حولاً كاملاً بين هولاء القوم ثم كرهت عشرتهم والاقامة بينهم لتغير قلوبهم عليّ فاجتمع عليّ امران نفور الجماعة مني وبحث الحكومة عني فكنت احترس على نفسي ليلاً ونهاراً من سطوة الحكام ومن خيانة هولاء البغاة الطغاة وبعد ان كنت افرح بعمل السوء والسعي في طريق الفساد تبدّل فرحي غمّا وسروري همّا وتمنيت مفارقة هذا الغرور والعدول عن تلك الشرور وندمت على ما فرط مني من الكبائر والتفريط في جنب الله وصرت ابكي وانتحب واقول لعلي اذا تركت هذه الطائفة واحوالها وتخلصت من اوحالها اتخلص من الرذائل واتحلى بالفضائل ثم صممت على مفارقة تلك الارض لاعيش بين قوم لا يعرفونني واتوب الى الله تعالى عسى ان يقبلني انه توّاب رحيم

وبينا انا افكر في ترفعي عن دركات الشقاوة الى اول درجات السعادة اذ اشيع خبر قيام الحرب في جهـة ايتاليا وان الملك مجتهد في تجهيز العساكر لذلك فحدثتني نفسي ان اكتب الى الملك خطابا يتضمن طلب العفو عني وادراجي في سلك المجاهدين فكتبت اليه ما صورته

اذا كان رضاكم في عدم احتقار النزول الى درجة مثلي وان

الاشقياء مثلي لم يطردوا عن باب مرحمتكم ارجو التعطف عليّ ومسامحتي. ومما اعرضه على مسامعكم العالية اني كنت جنيت كبيرة القتل والسرقة ومعلوم اني بذلك استحق القتل فانا مستعد لان اسلم نفسي للقصاص لكن اقدم لاعتابكم الكريمة رجاء غريبًا وهو اني ولو اني لا اخاف من الموت لكن احب ان اموت بعد ان اؤدي واجبات الحياة فقصدي ان اعيش مدة اعوض فيها ما مضى مني من السيآت لاستحق العفو من الجمعية البشرية التي خرقت بقبيح افعالي ناموسها فان عقابي اليوم لا يكون مثلاً لغيري ولا يكون لي براءة من ذنوبي يوم القيامة فارجو البقاء لاتمكن من خدمة الوطن بدلاً عما عرفت به من ضرر وطني فيما مضى من عمري واني اعلم ان هذا الذي اطلبه شيء غريب لان حياتي ليست الان من حقوقي حتى اشترط شروطًا على الشريعة الا اني الان متمتع بحياتي وحريتي ولم آكن مأخوذًا ولا مكتف الايدي ولا اخاف من القبض عليّ فانه ابعد شيء مني ومع ذلك فاني اطلب العفو الذي هو شيم مراحمكم العلية وليس لي حق في طلبه ولو فرض فلست طالبًا له مع انه يحق لي ان اقول لمن ينظر في امري ان اسباب شقاءي ودخولي في زمرة المفسدين انما هو الامر الذي صدر بحرماني من جميع ما يتمتع به اولاد وطني واخراجي من زمرة اهل الخير الذين كنت منهم مع ان اصل ذلك اسباب واهية لا استحق بها الطرد الذي تسبب عنه اني صرت قاتلاً فلو كان من حكم عليّ بذلك

قد نظر بعين الشفقة والمرحمة في قضيتي ما كنت دخلت الان في الزمرة المذمومة وما كنت الان احتاج الى طلب العفو ومع كل ذلك فاني وان لم يكن في القوانين رخصة في العفو عني فلي في واسع الحلم امل في ذلك ولئن شملتني مراحمكم لاجعلنَّ ما بقي من عمري خدمةً للركاب العالي فان كان رجائي مقبولاً فليصدر الامر بدرجه في الجرانيل لاعتمد على امركم الملوكي واحضر في الحال الى المدينة والا فلتجرِ الحكومة مجراها واما انا فاحرّم على عيني المدينة ان تراها . اه .

فلما ارسلته ابطاء عليَّ خبره فاتبعته باخر ثم اخر وطلبت فيه ان ادخل في الخيّالة المتوجهين الى الحرب فلما لم يظهر له اثر يبلغني عنه خبر صرفت النظر عنه وايست من العفو عني وعزمت على الهرب الى ايطاليا لادخل في عسكرهم فتحايلت حتى فررت من بين تلك العصبة وسلكت طريقًا غير معروف ومررت بمدينة فاردت المبيت بها وكانت الاوامر صادرة بالبحث عني في اوراق المسافرين فلما قربت من باب المدينة وجدت المأمور جالساً على كرسي فجعل يتامل فيَّ ثم طلب مني تذكرة المرور فناولته تذكرة كنت اخذتها من رجل كنت نهبت ماله فلم يكتفِ بها بل قام وامرني باتباعه فتبعته حتى وصلنا الى الضابط فوجدت عنده رجلاً نحيف الجسم طويل القامة فلما رآني ذلك الرجل قال ألست الرجل الذي خرج عليَّ يوم كذا في مكان كذا وكان معك اثنان ولولا

اني تركت لكم فرسي ما نجوت بنفسي فما اتم كلامه الا واحد الخفراء يقول ان الفرس التي معي هي فرس هذا الرجل بعينها فلما سمع الضابط ذلك امر بحبسي فسجنوني بحبس الدم قال يعقوب وقد حكم على ذلك الرجل بالقتل بعد ثمانية ايام

فقال ابن الشيخ من يتأمل في هذه الحادثة يحكم بخطاء من تسبب له في ارتكابه الجرائم ويحكم على هذا الشقي بانه قد بحث على حتفه بظلفه حتى اخذ رغم انفه واصل ذلك سقطاته الدنيئة وشهواته البهيمية ولقد احسن من قال

كل الحوادث مبدأها من النظرِ

ومعظم النار من مستصغر الشررِ

ومن ينظر الى ظاهر حاله يراه مسكيناً ضعيفاً ولا يتوهم فيه هذه الفعال وانه لا قدرة له على ما ارتكبه من هذه الاهوال ولعل قولهم الظاهر عنوان الباطن قاعدة اغلبية

المسامرة (١٠٦)

البانكات واوراق المعاملة

ثم قاما وتوجها الى الشيخ فسألها عما رأياه من الحوادث او سمعاه فاخبره ولده بقصة الرجل ثم جاء الخواجا التلياني ولم يحضر الانكليزي

فقال الشيخ ليعقوب اظن ان الخواجا لا يحضر الا اخر النهار فقم بنا الى المحل الذي كنا به بالامس لنطلع على البرُصة فركبوا جميعًا وساروا اليها فلما دخلوها صار اهلها ينظرون اليهم ويعرضون انفسهم لخدمتهم وسمعهم الشيخ يذكرون مدنا شهيرة واسماء كثيرة فبعد خروجهم سأل التلياني عن سبب ذكر هذه البلاد واسماء العباد فقال ان الدول في اعمالها العامة الكلية كاحاد الرعية في اعمالها الخاصة الجزئية فاذا ارادت دولة من الدول اقتراضًا او انشاء امور جسيمة كالترع والقناطر والسكك الحديدية وما اشبه ذلك

من الاعمال النافعة وكانت لا ترغب عمله على ذمتها فترتب لذلك متعهدين بعد ان تقدر قيمة العمل فيأخذونه على شروط يعقدونها ويجعلونه اسهماً بربح معلوم وتلك الاسهم تباع وتشترى في البرُصة على يد السماسرة فيتداولها الناس كل على حسب اقتداره فمنهم من يأخذ سهماً ومنهم من يأخذ سهمين وهكذا فكل من دفع شيئاً كان له في الشركة حصة بقدر ما دفعه فاذا اراد احد بيع حصته او مات واراد ورثته ذلك اتوا الى هذا المحل فتكون السهام فيه كالبضائع في الاسواق وحيث كانت الدول لا تثبت على حال بل تتغير على حسب ما يعرض للزمن من الاحوال كانت القيم ايضاً لا تثبت على حال فلا تكون في حالة السلم كما تكون في حالة الحرب لان درجة الامنية تتبع سياسة الحكومة فتعظم اذا استقامت الاحوال وتقل بعكس ذلك وفي كل حال من هذه الاحوال تتغير قيمة الاسهم فتارة تغلو وتارة ترخص كالبضائع

فقال الشيخ اريد ان استفهم منك عن امرين كثيرًا ما حاك في صدري ذكرها ولا افهم معناها الاول سمعت مرارًا كلمة بنك ولم افهم معناها والثاني رايت غالب المعاملة بالورق ولم افهم تفاصيل ذلك فقال الخواجا اما البنك فهو محل من اهمّ محلات التجارة له رجال يدبرونه بطريقة يحصل بها النفع العام ورئيس البنك يسمى البنكير

واعمال البنك الاصلية تكون بالنقود فتارة تسلم اليه نقود

ليحفظها ويشغلها وتارة يقرض او يقترض على حسب الاحوال وتارة يطلق لفظ بنك على اماكن تجارية تشتغل ببيع الاوراق التجارية وشرائها وتلك الاوراق مثل الاسهم في بعض شركات او اوراق الحوالات او الرجع المالية او السندات ويكون ذلك لانفسهم او لغيرهم فحينئذٍ هي نوعان عمومية وخصوصية وكثير من الاعمال تجري بالاوراق بدل النقود بل قد يرغب في كثير من الامور في المعاملة بالاوراق اكثر من المعاملة بالنقود وعلى كل حال فالبنك عبارة عن الصندوق الذي تحفظ فيه المبالغ النقدية او التي في الاوراق

والبنكير شخص يتولى النقود التي ترد اليه ليحفظها ويسدد منها مبالغ مطلوبة لاربابها وللبنك اعمال متعددة منها ان التجار يكون لهم وعليهم فاذا ارادوا الاستراحة من العد والنقد سلموا ما عندهم من النقود الى بعض البنوكة وكلما طلب منهم او لهم شيء احاله على البنكير ليستلم او يسلم ويكتب عنده فيستريح التاجر بذلك من العد والنقد والتسليم والتسلم ويستغني عن الخدمة والدفاتر التي تكثر وتقل بحسب كثرة الاموال وقلتها وقد يجتمع جملة من التجار في بنك واحد فتخف المؤنة عليهم مثلاً لو فرض ان لزيد على عمرو الف قرش وبنكيرها واحد فيكتفي زيد بان يسلم السند الذي له على عمرو للبنكير فيضيف البنكير على المطلوب لزيد الف قرش ويخصم من المطلوب لعمرو نظيرها او يكتبه عليه وهكذا بغير عد

او نقد بل بالكتابة فقط ولو بلغ المتعاملون ما بلغوا متى كان بنكيرهم واحداً ولو فرض ان المدين لا يعلم سند المبلغ اللازم تسديده في وقت معين تحت يد من هو فلا يلزمه حينئذٍ الا ان ياخذ من البنكير عميله قبل الميعاد بيوم مثلاً المبلغ المطلوب منه اللازم تسديده وبهذه الطريقة يكتفي مؤونة حفظه زمناً طويلاً ويكفى شر غوائل كثيرة ظاهرة

وحيث كانت حركة النقدية في الدخول والخروج لاتنقطع فلو اقتصر البنكير على حفظ ما يرد اليه وتسديد ما يلزم تسديده بدون اعمال اخرى ربما ترتب على ذلك بقاء مبالغ جسيمة في صندوقه بغير تربيح ولهذا تجد جميع البنوكة تتجر فيبادلون النقود صنفاً بصنف بربح قليل او كثير كما تفعل الصيارفة او يتجرون في سبائك الذهب والفضة فيتحصلون من ذلك على بعض فوائد تضاف على المجعول لهم من طرف عملائهم في نظير ما يجرون لهم من الاعمال التجارية وتجارتهم في الذهب والفضة لا تضر برأس مالهم ولا باعمالهم مع عملائهم لان هذين الصنفين مأمونان وكانهما نقود في صندوق البنكير ولا يعسر عليهِ ابدالها او ضربها بل متى اراد فانه يبدلهـا بنقود لقضاء الشغل ويضربها نقوداً على حسب ما يرى وزيادة على ذلك يفعلون ما يقال له الاسكنت لما يرون فيهِ من زيادة الربح

مثلاً لو فرض ان من ضمن عملائه جماعة لهم اعمال جسيمة ودائماً يطلب منهم مبالغ في اوقات متقاربة لايمكنهم اداؤها في اوقاتها

فيقدم لهم النقود بفائظٍ معين بايام قليلة ولا بأس عليه بذلك لان ما خرج من صندوقه سيعود له في ميعاده ولكن متى رأى ان مطلوب عملائه اخذ في الزيادة فلا يخرج بالاسكنت مبالغ مستجدة لحين امكان الحركة وانما يلزمه لاجل زيادة امنه في اجراء عملية الاسكنت ان يعلم ان المقترض قادر على الدفع في الوقت المعين ويكفي في تحفظه علمه بان المقترض باع صنف بضاعته لاخر مقتدر واعطى سند الاعتراف بالتسديد في ميعاد معين فباعطاء السند المذكور للبنكير وضمانه يكتفي البنكير بذلك في الاعتماد ويسلم النقود للمقترض بعد حجز الاسكنت اي الفائدة بالنسبة للزمن المعين في السند فاذا باع زيد لعمرو بضاعة بالف غرش وشرط عمرو على نفسه ان يؤدي المبلغ بعد شهر فلو فرض ان زيداً احتاج الى دراهم وليس له مبالغ عند البنكير فانه يسلمه السند وياخذ منه الف غرش بنقص قيمة فائظها مدة شهر او شهرين على قدر ميعاد السداد الذي في السند ويحفظ عنده السند فيكون زيد وعمر ضامنين للبنكير المبلغ المذكور فاذا بيعت البضاعة وحصل ربح فذاك والا ضمن كل منهما للبنكير قدر خسارته

وحيث كان الاسكنت يستلزم استعمال اموال جسيمة والبنكير يجد فيه ربحاً عظيما فانه يجتهد في ازدياد المبالغ في صندوقه وفي طرق تشغيلها

وحيث ان بعض التجار يلزم له مبالغ دائمًا لادارة حركته

التجارية والبعض ترد اليه نقود زيادة عما يلزم له ولا تسمح نفسه بتعطيلها فله فيها طريقتان اما ان يبقيها في البنك زمنًا غير معين لكن لا يكون له اخذها الا بعد نصف شهر فاكثر وفائدتها اقل من الاسكنت واما ان البنكير يسلم اوراقًا تجارية باسكنت اقل من الاسكنت الذي استولاه

وكما ان البنك يقوم مقام شخص او اكثر من اهل البلد الذي هو به او القريب منه كذلك يمكنه ان يجري تلك الاعمال بالنسبة للبلاد والمدن البعيدة عنه بواسطة اوراق حوالة من بنك على بنك اخر بمعنى انه باشتراك البنوكة بعضها مع بعض تسهل اعمال التجار الموجودين في بلاد متباعدة فاذا كان لزيد او على عمرو مبلغ وكل منهما قاطن ببلد غير بلد الاخر ويريد زيد تسديد ما عليه فانه يأمر بنكيره بتسديد المبلغ لعمرو فحينئذٍ ياذن ذلك البنكير للبنكير الذي ببلد عمرو بالتسديد فيسدده لانهما شريكان او انه يسدد المبلغ لاحد بناكيرة بلده ممن يكون لهم معاملة مع البنكير المقيم ببلد صاحب المبلغ هذه هي الاعمال الاساسية للبنوكة ولهم اعمال اخر اقل اهمية من ذلك مثل تقديمهم مبالغ على رهن من ذهب او فضة او حجج املاك او عقارات او اوراق شركات او اوراق اسهم او اوراق بضائع ففي كل ذلك يلتزم المقترض بتسديد المبلغ في الميعاد المحدد بحيث لو تجاوزه كان للبنكير ان يبيع الرهن فهذه العملية تشبه عملية الاسكنت انما تتغير قيمة الرهن ولذلك ربما حصل للبنكير

خسارة ثم ان البنكير في كثير من الاحوال يفوض للسمسار فيبيع بالنيابة عن اخرين اوراقا تجارية مثل اوراق الايرادات المقررة على الحكومة لبعض الاهالي واوراق اسهم الشركات والاقتراضات الميرية وفي بعض الاحوال لا تكفي المبالغ المسلمة اليه فيخرج اوراق نقود يتعهد باستبدالها بنقود لمن هي في يده حين تقديمها له وبهذه العملية تتضاعف نقوده الجارية بين التجار ولا تضر باحد لان لكل انسان حق تبديلها بنقود متى اراد بلا نقص وبذلك تكون مثل النقود سواء بسواء فاذا حصل مبادلة جانب منها كل يوم بنقود يبقى جانب اخر منها يتعامل به وذلك يزيد في رأس ماله ويفيده ارباحاً حقيقية

واعتبار ورق النقدية مؤسس على ائتمان البنكير لعملائه واعتماد الناس على صداقته واقتداره فاذا حصل ما يخل بشيء من ذلك اختل نظام جميع اعمال البنك

وحيث ان الائتمان لا يكون واحداً في جميع الاماكن ولا عند كل احد وله اسباب حقيقية يقوى بقوتها ويضعف بضعفها كان الربح ايضاً مختلفاً ومتفاوتاً بحسب ذلك فاذا كانت المعاملة بين طائفة اعمالها مؤسسة على الائتمان ولهم عليه محافظة بحيث لا يتطرق اليهم ما يهدم شيئاً من اركانه كانت الارباح كثيرة والنجاح حاصلا واذا تداعت اركان الائتمان تداعى لها النجاح واضمحل وهكذا فلذا كانت الجهات التي لا ائتمان بها اصلاً لا تتعامل تجارها الا

بالنقود فوراً وان كثرت بها البنوكة

ويعلم مما ذكرناه يلزم ان يكون للبنكير في مال البنك جزء يخصه وذلك لزيادة الائتمان فانه يكون شبه كفيل وايضا هو نافع للبنك في استعواض ما عسى ان يقع للبنكير من الخسران في بعض الاعمال بسبب خطأ يقع في بعض التصرفات وينتفع به عوضا عن المبالغ التي تتاخر عن اوقاتها لسبب من الاسباب وايضا هذا المبلغ يزيد في اعماله وارباحه

واما امر اوراق النقدية فمخصوص بالحكومة فهي التي تامر بنشره لبنك الحكومة ففي فرانسا يكون للبنك الفرنساوي وفي الانكليز للبنك الانكليزي وهكذا كل دولة من دول اوربا لها بنك مخصوص هو الذي يخرج ورق النقدية ولا تخرج الحكومة من ذلك الا قدراً معينا بالنسبة لحال التجارة ولوازم الاعمال واعتبار تلك الاوراق كاعتبار النقود في التعامل بين الناس سواء بسواء كما تقدم لكون البنك متعهدًا باستبدالها بنقدٍ متى اراد حاملها صرفها بدون توقف في اي مكان من امكنة الولاية فيأخذونها للمعاملة في البيع والشراء والاجارات ونحو ذلك ويسددون بها الديون والتقاسيط الميرية المالية وفي الالتزامات

وكلما وجد الناس عدم التوقف في استبدال الاوراق بالنقود ووثقوا بذلك بقيت فيها الرغبة وحفظت قيمتها والا فلا يكفي في الائتمان اعتراف الحكومة بتلك الاوراق فان من بيده الاوراق

اذا كان لا يمكنه استبدالها بنقود او باشياء اخر تفي بقيمتها فلا يلتفت الى هذا الاعتراف فان الورقة المسطور بها الف غرش مثلاً لا تساوي في ذاتها تلك القيمة وحينئذٍ فلا فائدة في هذا الاعتراف اذ لا يوءثر ذلك زيادة في قيمتها فان قيمتها انما هي باعتبار المزية القائمة بها النافعة في نحو شرآء ما يلزم شراوءه بالمبلغ المعين فيها كما يكون مشتراه بنقود من ذهب او فضة فما دامت بهذه المزية كانت كالذهب والفضة سوآ بسوآ وتزيد وتنقص قيمتها بحسب زيادة الرغبة فيها وقلتها كما يحصل ذلك في سكك النقود فان من المعلوم لكل متامل ان قيم الاشياء التي تجعل ثمنًا للسلع انما هي منسوبة لمقادير ما تجعل ثمنًا له فان جعلت ثمنًا لسلعة جيدة ذات قيمة كثيرة كانت قيمتها كثيرة والعكس بالعكس لا فرق بين النقود وغيرها

فلو فرضنا ان ما يلزم للفرنساوية من النقود لمشترى جميع ما يلزم لهم مليارات من الافرنك يمكننا ان نعتبر ان هذا المبلغ ثابت لا يتغير الا اذا تغير اللازم لهم من الاشيآء فلو فرض تكثير النقدية الى ان تصير اربعة مليارات اي ضعف المفروض مع بقاء ما يلزم من الاشياء ثابتًا على اصله ففي الحال تنقص قيمة النقدية وما كان يشترى بفرنك يشترى باثنين فانه لم تكن الزيادة مقدار المفروض اولاً بل كانت اقل فلا شك ان قيمة الفرنك تتناقص بنسبة تلك الزيادة وحينئذٍ يمكن فرض زيادة بها تكون قيمة

الفرنك اقل من قيمة سبيكة من الفضة وزنها وزنه ففي هذه الحالة لا يتعامل بالفرنك بل يتعامل بالسبائك وصاحب الفرنكات لا يتعامل بها في صورة النقود بل في صورة السبائك فتضيع قيمة النقود وتضطر الحكومة لاخذها من ايدي الناس فتسبكها وهذا هو السبب في انه لا يصح نقص قيمة وحدة المعاملة عن قيمة وزنها من السبائك بخلاف العكس

فلو فرض ان مبلغ النقود قد اخذ في النقص والقلة مع بقاء البضائع والسلع على حالها مستلزما زيادة قيمة وحدة النقود مع بقاء الاشيا اللازم مشتراها على حالها لزادت قيمة وحدة المعاملة فتكون قيمة الدرهم مثلا من نوع المعاملة اكثر من قيمة وزنه سبيكة خالصة فتربح الحكومة فيما تضربه من النقود وقد ترغب الناس في ضرب السبائك وتكثر المعاملة بها من جهة اخرى

وبعض الحكام لا يرغب في ضرب النقود زيادة عن طلب الدولة والبعض يحب ان يربح ربحًا قليلاً واخر يضر بها بالخسارة فكلما كثر المضروب منها نقصت قيمتها فتؤخذ وتسبك ومن كل ذلك علم ان وحدة المعاملة لا يلزم ان تكون اقل ولا اكثر من قيمة ما يعادلها من السبائك وقد صار معلومًا لحضرتكم ان النقص الذي يعتري النقود لا يمكن ان يصل الى ان يكون اقل من قيمة وزنه سبيكة لانه في هذه الحالة يسبك ما يلزم منها حتى تقل كمية الموجود منها وترفع القيمة الى ان تتعادل مع السبيكة

او تريد عنها وهذا لا يمكن اجراؤه على ورق النقدية اذا اكثرت الحكام منها حتى يتعدى مجموعها مقدار اللازم وحينئذ يعتري المبالغ المقررة فيها ما يعتري المعاملة من الرواج وعدمه ولنا اضرب لك مثلا يزيد المسئلة وضوحًا وكشفًا

وهو انه في مدة الحرب التي كانت بين الانكليز وفرانسا اقترضت الحكومة الانكليزية من البنك الانكليزي مبالغ جسيمة فاوّل اقتراض استوفى جميع المودع عند البنك من اموال العملاء وكان اثنى عشر مليونًا من الجنيه تقريبًا فلم ينشأ منه ضرر للبنك وانما نشا الضرر لما اضطرّت الحكومة الى الاقتراض مرة اخرى وطلبت مبلغا من البنك يقرب من احد عشر مليونًا من ورق النقدية ولم تدفع في نظير ذلك شيئًا الاّ الاعتراف به وفرضت على نفسها فايظًا تدفعه كل سنة وصارت تصرف من الورق ماهية المستخدمين واثمان المشتريات وغيرها مما يلزم حتى زاد مقدار مبلغ النقدية فنقصت القيمة وبسبب ان نوعي الذهب والفضة حافظان لقيمتهما دائمًا لم يقع النقص الا في معاملة الورق

ومن ذاك العهد صار بين الناس نوعان من المعاملة اسمهما واحد وقيمتهما مختلفة كما يقولون عندكم معاملة بالتعريفة ومعاملة بالصاغ فهرع كل من بيده اوراق في الحال الى البنك لتغيير اوراقه فاشكل الامر على البنك وطلب اربابه من الحكومة حل هذا المشكل لان البنك لا قدرة له على الوفاء بما وعد به الخلق

ولما كانت الحكومـة قد تصرَّفت في القيمة قدمت القضية للمجلس فصدر الاذن للبنك بان يتوقف عن استبدال الاوراق بالنقود ورخص في تسديد الديون بتلك الاوراق وحيث انه لا يصعب جعل نقود من الورق لعدم الكلفة في ذلك نشر من تلك الاوراق مبالغ جسيمة فكبرت اسما مبالغ العملـة الجارية في البلد وزادت عن الحد فنزل سعر الورق بسبب ذلك نزولاً فاحشاً وسببه انا لو فرضنا ان اللازم لدولة الانكليز ثلاثون مليونًا من صنف الجنيه يقضون بها ما يلزم لهم وفرض زيادة المبلغ الى اربعين مليونا فلا تكون قيمة ذلك الا ثلاثين مليونا بمعنى ان القيمة تنقص قدر الربع ولما اكثرت الانكليز في تلك المدة من نشر ورق النقدية ترتب على ذلك ان صارت الورقة التي تقابل جنيها لا تساوي غير ثلاثة ارباعه نقدية ففي ذلك الوقت اخذت قيمة الذهب والفضة في الزيادة لفظا فاوقية الفضة التي كان ثمنها قبل توقيف صرف قيمة الورق خمسة من الشلين واثنين من البنس صارت بعد التوقيف تساوي سبعة من الشلين واربعة من البنس وغلا سعر اقوات الاهالي وضرورات معائشهم بنسبة ذلك

وحيث كان مصرف الحكومة دائمًا في ازدياد اكثرت من الاقتراضات وازدياد اليكون المطلوب منها من دون ان يزيد المطالبون لها من قبل لان الفوائظ المقررة انما هي ارباح لمبالغ قديمة قيمة وحدتها عالية ولمـا تيقظت الحكومة لهذا الامر الفظيع

وارادت حسمه لم تجد لذلك الا احد طريقين الاول ان تجعل قيمة جنيه الذهب قدر القيمة التي صار اليها جنيه الورق

وحيث ان الجنيه الورق كان في سنة الف وثمانمائة واربعة عشر لا يشترى به الا مائة حبة وثماني حبات من الذهب الخالص والجنيه الذهب القديم كان يشرى به مائة وثمان واربعون حبة فحينئذ كان يكفي ان يجعل قيمة الجنيه الذهب مائة وثماني حبات وضرر هذا الطريق ان الذين لهم على الحكومة ديون من قبل يستولون بقيمة اقل من النقود التي دفعوها وهذا ضرر عظيم على الناس مع ان الامر المهم هو اجراء الطرق الموجبة لتخفيف اثقال الاهالي بحيث لا يدفعون لمن اقرضوا الحكومة مدة النقص دراهم قيمتها اعلى مما اخذ منهم

والطريق الثاني ان تنقص مبالغ الورق بقدر ما يلزم لرد قيمة الجنيه الذهب الحقيقية اليه بحيث ان الجنيه الورق يشترى به مائة وثمان واربعون حبة ذهباً خالصا وهذا الطريق هو الذي اتبع وجرى العمل به ثم بعد الصلح نقصت مصاريف الحكومة وصار توقيف ضرب معاملة الورق وصدرت الاوامر لبنك الانكليز بجمع كثير من الاوراق واستبداله بنقود فاخذ الجنيه الورق الزيادة حتى رجعت قيمته لاصلها ولكن بعد خسارات كبيرة على الحكومة لان دين الحكومة ازداد زيادة فاحشة بسبب قلة قيمة نقود الدين الذي عليها عن قيمـــة النقود التي دفعتها في التسديد وكذلك

المستاجرون خسروا ايضا في اجاراتهم لانهم استاجروا بالمعاملة النازلة وسددوا بالمعاملة العالية

ولما اخذت قيمة الاشياء في التنازل ثانيا بعد هذه الحركة كان المستأجرون يدفعون خراج الارض بزيادة ويبيعون باقل

وزاد الخراج ايضا بقدر الثلث لانه مقدر بالصنف ولا مدخل للقيمة فيه فخسر ارباب الزرع خسارات جسيمة

كل ذلك والشيخ مصغ لكلام الخواجا لما فيه من بيان علوم لم يكن يعلمها

وبينا هما كذلك اذا برجل اقبل فكلم الخواجا سرًّا فنهض قائما وقال للشيخ لا تواخذني فان هذا الرجل اخبرني بان الحكيم قد حضر بالمنزل فلزمني التوجه اليه فقال الشيخ لعله خير قال ان ولدي متغير المزاج منذ ايام ولكنه بخير ثم انصرف

فقام الشيخ وركب العربة ومعه ابنه ويعقوب فلما استقاموا في الطريق قال الشيخ لا شك ان امور اوروبا كلها عجيبة ولهم افكار واختراعات نافعة غريبة فانظر كيف اعملوا الفكر في تحسين امور الدنيا واخترعوا لها طرقا بها اتسعت دائرة التجارة بيدهم فان ما ذكره حضرة الخواجا من طرق التيسير والسهولة التي سلكوها واستعملتها ارباب البنوكة قد هوّن امر التجر على كل انسان وتيسر لكل شخص صادق حسن الادارة فيما يتجر به من النقدية ولكن لا ادري هل هذه البنوكة من اختراع الاوروباويين ام هي

امر قديم اخذه الاوروباويون عمن سبقهم

فقال يعقوب ان معلوماتي بالنسبة لذلك غير كثيرة ومع هذا اخبر حضرتكم بما اعلمه في هذا الشان

وهو ان الكنعانيين في المدة الماضية كانوا يستعملون البنوكة في امر التجارة ولكن لم يصلنا عن ذلك خبر شافٍ يوثق بهِ والذي التحققهُ ان الاثينيين كانوا يعرفونهُ ويتعاملون به وكان عتقاهم هم الذين يتولونه وبذلك كانوا يتحصلون على اموال جسيمة ويبلغون درجات عالية بسبب كثرة النقود وكان تعاملهم بالنقد فقط فكانوا ياخذونها بربح معلوم ويقرضونها بربح غيره على رهن وضمانات كما تفعل البنوكة الان فيتحصلون على ارباح كثيرة

واما البنوكة التجارية فلم تظهر الا في القرن الثاني عشر من الميلاد ببلاد البناديك وسبب ظهورها جماعة من التجار كان لهم مبالغ عظيمة على الحكومة فاتفقوا على ان يجمعوا سندات تلك المبالغ ويتعاملون بها في تجاراتهم كما لو كانت الحكومة صرفتها

وحيث كانت الحكومة تدفع فائظاً لمبلغ الدين كان ذلك الفائظ ينتقل مع الدين من تاجر الى اخر تبعًا لاحوال التجارة ومن لا اخذ له ولا عطاء ياخذ فائظ مبلغه من البنك بدون استئذان الحكومة

ثم ان تلك الطريقة اتبعت في اغلب البنوكة التي ظهرت فيما بعد وجرى بها العمل في بعض البلاد مثل بلجيك وهولانده

ونحوها والغالب ان المعاملة كانت اولاً بالنقود ليس الا واول ظهور ورق النقد كان ببلاد الانكليز في بنكها الذي ظهر سنة الف وستمائة واربعة وتسعين ولم يتحقق استعمالها قبل ذلك

وفي تلك المدة كان المعلوم ان جميع الاختراعات ايًا كانت انما هي حق الحكومة سيما ما يتعلق بامر التجارة وسبب انشاء البنك الانكليزي هو ان الحكومة رغبت في اقتراض مليون والفي جنيه انكليزي فانشأت البنك المذكور وخصت من يدخل في الاقتراض بمزايا للترغيب منها انها جعلت لهم فائظًا في كل مائة ثمانية كل سنة ومنها انها رخصت لهم في الاستيلاء على مبالغ ممن يرغب تنمية ماله عندهم ومنها ان لها ان تقرض من شاءت وتجري الاسكنت في اوراق التجارة كالسندات وورق الحوالات ومنها ان لها ان تخرج ورق نقدية تدفع مبلغه نقدا حين عرضه عليها ومنها انها تحول عليها امورًا ميرية في مقابلة ربح معلوم وقد جعل في الاصل ميعادها ١٢ سنة لكن لما ظهر للحكومة من ذلك فوائد صارت كلما انتهى الميعاد تجدده حتى كانت سنة الف وسبعمائة وثمانية فثبتت على ما هي عليه الى الان وكانت البنوكة كلما تجددت المواعيد تحصل على مزايا جديدة بورود المبالغ اليها بكثرة حتى صار البنك تقريبًا هو القائم باحوال التجارة والحكومة ووصل راس ماله قريبًا من خمسة عشر مليونًا من الجنيه الانكليزي وهذا القدر كان دائمًا دينًا على الحكومة وكان ذلك اشبه بالضمان للبنك

وزيادة قوة في اعتماد الناس وائتمانهم له وبهذا السبب كانت البنوكة كانها مشاركه للحكومة في امورها حتى كان كل اضطراب وتقلب يحصل حسناً كان او قبيحاً اذا تأثرت منه الحكومة يتأثر منه البنك ايضاً

وفي سنة الف وسبعمائة وسبعة وتسعين لما حصل توقف في دفع قيمة الورق للبنك نقوداً حصل له اضطراب عظيم وصارت البنوكة تشبه فوريقة ورق لانها كانت تنشر ورق النقدية بحسب احتياج الحكومة ولذلك حصل في قيمته نقص كما ذكر لكم حضرة الخواجا واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة واثنين وعشرين والمنافع التي عادت على الحكومة في تلك المدة لا يمكن حصرها ومتوسط ما اقترضته الحكومة من البنك يقرب من خمسة وثلاثين مليوناً من الجنيه الانكليزي ومع هذا لم تقف حركة التجارة وكان الاسكنت جارياً انما نزلت قيمة ورق النقد قريباً من خمسة وعشرين في المائة وقد حصل الاذن من الحكومة للبنك الانكليزي في اخراج اوراق نقدية قدر اربعة عشر مليوناً من الجنيه فقط واذا زاد مبلغ الورق عن ذلك يلزم ان يكون له مقابل من النقد العين او من السبائك في صندوق البنك

وفي سنة الف وثمانمائة واربعة واربعين انقسم البنك الانكليزي بمقتضى الاوامر الملوكية الى بنكين الاول استلم الصنف الموجود في البنك والسندات التجارية المتضمنة للاربعة عشر مليوناً من الجنيه

منها ما يقرب من اثنى عشر مليونًا على الحكومة وجعل لها ان يخرج ورق نقد بقدر الاربعة عشر مليونا سندات مضافا عليهـا قدر الصنف وللناس ان يشتروا منه ورق النقد ويبدلونه بصنف عين فالاوقية من الذهب الذي عياره اثنان وعشرون قيراطا بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وتسعة ديناريو والاوقية من الذهب السبيكة الذي عياره كالسابق بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وعشرة ديناريو ونصف والقسم الثاني يأخذ من الاول بمبادلة الذهب باوراق النقد اسوة الاهالي سواء بسواء

ومن ابتدا هذا التاريخ صار منع البنوكة من اخراج ورق نقدية مطلقًا واذا اجتمع بنكان صغيران فلا يتعدى ما ينشرانه من الورق قدر ما كان ينشره واحد منهما قبل صدور الامر

ويمكن البنك الانكليزي ان يزيد في تكثير البنوكة التابعة له على حسب رغبته في تكثيرها في جميع الجهات بدون تغيير قدر مبلغ الورق المخصص له واذا ابطل البنك الكبير احد البنوكة الصغيرة فله باذن من الحكومة ان يضيف الى نفسه ثلثي ما كان بطل منه

وعدد البنوكة التي في المديريات التابعة للبنك المذكور سنة الف وثمانمائة وثلاثه وخمسين احد عشر بنكا عمومية غير مائة وسبعة وستين بنكا خصوصية توجد ببلاد الانكليز وبلاد الغال من ضمنها خمسة وستون بنكا لها الاذن باستعمال ورق النقد ولها بنوك بجميع

الاقطار الانكليزية متفرعة عنها عددها ثلثمائة وواحد واربعون بنكاً

واول بنك حدث ببلاد فرانسا انشاه رجل انكليزي سنة الف وسبعمائة وستة عشر وفي اول الامر حصل له رواج ولكن من تسلط الحكومة عليه وعدم انقطاع طلباتها فسد حاله وبطل وبقي الامر على ذلك نحو ستين عاماً ثم صار تنظيم صندوق الاسكنت وكان راس ماله خمسة عشر مليونًا ليورًا تورنوًا منها عشرة ملايين اخذتها الحكومة قرضةً بشرط دفعها على تقاسيط سنوية ولكن بسبب قلة الائتمان وعدم الصدق في كلام الحكومة لم يحصل نجاح هذا الامر الا بعد صرف نظرها عن اقتراض هذا المبلغ من الصندوق المذكور

وعلى مقتضى الامر الصادر سنة الف وسبعمائة وتسعة وسبعين جعل رأس المال اثنى عشر مليونا وربح في المائة اربعة في السنة في حال السلم واربعة ونصفا في حال الحرب

وفي سنة الف وسبعمائة واثنين وثمانين كسد حال التجارة فتأثر من ذلك صندوق الاسكنت ولكن دفعت الحكومة له ما كان عليها نقدًا فانصلح حاله واستمر على هذا الامر مدة ثلاث سنين حتى حصل لكل سهم في السنة خمسة عشر ونصف

وفي سنة الف وسبعمائة وسبعة وثمانين صدرت اوامر بجعل راس ماله سبعين مليونا ورخص لهُ في شراء ورق النقد والتجارة

ومدوا لذلك ميعادًا ثلاثين عاماً واقترضت منهُ الحكومة سبعين مليونا فحصل من ذلك وقف الحال بسبب عدم امكان الصرف لارباب الورق لوقته

وفي سنة الف وتسعمائة وثمانية وثمانين صدر امر بعدم صرف نقدية في مقابلة اوراق واستبدالها باوراق تجارية ممن عنده ولكن من كثرة طلبات الحكومة وازدياد كمية ورق النقد حصل اضطراب عظيم نشأ منه توقيف العمل والدفع واستمر ذلك الى قيام حرب الفرنساوية وبعد الهدء ظهرت بنوكة تعاملت في بعض الامور التجارية واول ماظهر صندوق الحساب الجاري سنة الف وسبعمائة وستة وتسعين وبعده سنة الف وسبعمائة وثمانية وتسعين صندوق التجار وترتب على ذلك نزول سعر النقدية من تسعة في المائة الى ستة وراج امرهم رواجاً عظيماً وربحوا من دون ان يسمع بما يخل بامانتهم وما ذاك الا لكونهم غير مرتبطين بالحكومة ولكن لما ظهر للحكومة ان من الضروري وجود بنك تستمد منهُ شرع بونابرت الاول ايام قنصليته في تشكيل بنك سماه بنك فرانسا على نسق بنك الانكليز وجمع لهُ جملة من البنا كيرة المشهورين ولاجل ان يأتمنهم الناس دفعت له الحكومة خمسة ملايين فرنك قيمة خمسة الاف سهم فدارت حركة البنك وجرى فيه الاخذ والعطا وكان هناك بنك باسم صندوق الحساب الجاري وكان التجار والناس يعتمدونه فجمعت الحكومة الاثنين وجعلتها بنكا واحداً وكان ذلك في سنة

الف وثمانمائة تقريبا وفي اول سنة كان عدد ما اخذ من الاسهم سبعة الاف وخمسمائة ثم ازداد حتى بلغ خمسة عشر الفًا ومبلغ ما صار اسكنته مائة وواحد وعشرون مليونًا في ظرف سبعة اشهر ونصف وفي السنة الثانية بلغ مائتي مليون وخمسة وفي السنة التي بعدها بلغ اربعمائة مليون وثلاثة واربعين مليونا وكان كل بنك بنشر اوراق النقدية ولم يحصل من ذلك ما يخل بالاخذ والاعطاء انما في سنة الف وثمانمائة وثلاثة صدرت اوامر الحكومة بجعل ذلك مخصوصا بالبنك الفرنساوي فحصل الحاق بعض البنوكة به وكانت مدة الرخصة خمسة عشر عاما ومبلغ رأس المال خمسة واربعين مليونا والربح في المائة ستة في السنة وما زاد من الربح يحفظ في البنك

وحيث كانت الحكومة دائما تتداخل في امور البنك كان سير البنوكة غير مستقيم فكان في بعض الاوقات يحصل الكساد ويقل الامن واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة وستة

ثم عيّن بونابرْت رئيسا للبنوكة جعل معه وكيلين وحدد لها حدًا تسير عليه وجعل رأس مالها تسعين مليونا وحدد الميعاد الى خمس وعشرين سنة ورخص في احداث بنوكة في المدن تبعا لهذا البنك ولكن بسبب ما ظهر للحكومة من عدم الثبات مع الخوف الذي كان يعتري الناس لم يحصل رواج وتعطلت البنوكة وخسرت وبقيت اكثر مبالغها بصناديقها بدون عمل وكان هذا

الاضطراب يكثر ويقل الى سنة الف وثمانمائة وثلاثة ثم تحصلت
البنوكة على حريتها واستقلالها بالنظر في امورها كما تشاء وسوعد
البنك الفرنساوي من بين البنوكة بنشر اوراق النقدية فصارت اغلب
المعاملات واردة على هذا البنك في المدن وفي المديريات فحصل
الضرر لغيره من البنوكة واستمر ذلك الى ان حصل القيام الذي
كان سنة الف وثمانمائة وثمانية واربعين فصدر الاذن للبنوكة
الاخر بنشر ورق النقدية فكثر نشر الورق وحصل كساد عمومي
فيه ونقصت قيمته فصدرت الاوامر ثانياً باستقلال البنك الفرنساوي
به واستمر الحال على ذلك الى الان ومن ذاك الوقت انتظمت
امور التجارة

وفي سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين صدرت اوامر بامتداد
ميعاد الاوراق الى سنة الف وثمانمائة وسبعة وتسعين ورخص لهم
في مبلغ واحد وتسعين الفا ومائتين وخمسين سهما مستجدة وبهذا
زاد رأس المال عن اصله وبسبب هذه الزيادة رغبت الحكومة
في اقتراض مائة مليون وبقي ما كان لها من المزايا على اصله
وزيادة على ذلك صار يمكنها تشكيل بنوكة في المديريات لكل
بنك مجلس ومدير يتعين بمعرفة مجلس البنك ويكون مقبولاً عند
الحكومة وعدد اعضاء المجلس المذكور يختلف من ستة الى خمسة
عشر ومن ثلاثة مفتشين منتخبين بمعرفة مجلس البنك الفرنساوي
واما الاعضاء فتعينهم بمعرفة الحكومة ايضاً من خمسين منتخبين

من كبراء ارباب الاسهم الذين في الجهة التي بها البنك ويقدم المجلس اسماءهم للحكومة في عريضة فتنتخب منهم من يصلح

ويوجد ايضاً بنكان شهيران غير البنك الفرنساوي وفروعه احدهما لتسهيل امر القرض على مرهونات العقار والاراضي والاخر لتسهيل الاعمال المهمة مثل انشاء ورّش اومعامل او سكك حديدية وما اشبه ذلك

وبينا هم في هذا الحديث اذ وصلت بهم العربة قريباً من العين فنزلوا ومشوا الى ان وصلوا الى العين فقال ابن الشيخ اني من الامس الى هذا الوقت لم اسمع الا الالاف المولفة من الجينهات الانكليزية وكذلك لا نرى في بلادنا الا دراهم مضروبة بالبلاد الاوروباوية واغلب معاملة بلادنا بالجنيه الانكليزي والبنتو والريال ابي مدفع وابي طيره والشينكو وكلها مضروبة باوروبا

ولم يضرب ببلادنا غير الجنيه والريال المصريين والمجيديين مع عزة وجودها وقلة المعاملة بها فهل اخرجت الارض كنوزها للاوروباويين ام تحولت اليهم كنوز كسرى التي كان حازها ام عثروا على ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد

فقال يعقوب الكلام في هذه المسألة متوقف على مراجعة رسالة كنت جمعتها فاذا رجعنا اطلعتكم عليها وفيها بيان ما استخرج من المعادن في القرون الخالية وما استخرج منها في القرون التالية ما وجدته في كتب المؤرخين ودفاتر الاحصاء المحفوظة في دفترخانة الحكومة

المسامرة (١٠٧)

الهوام والدواب

فاستحسن الشيخ منهُ ذلك ثم انهم وصلوا الى الغابة فدخلوها
وطافوا في ارجائها وكان الجو صاحياً والوقت معتدلا وظل الاشجار
قد رسم على الارض رسوما يضيء ما بينهامن نور الشمس كبساط
مكلل بالجواهر وعلى حسب شكل الارض من انبساط او تكور
مع تقارب الاشجار وتباعدها يظهر للظل ضوء حسن وصور اشكال
مختلفة يتحير الواصف في وصفها وكان النسيم يحرك اغصان الاشجار
فياخذ من رطوبتها ويسير على وجه الارض فتنتعش به الارواح

وينشا عنه الانبساط والانشراح وبسبب ذلك كان مشيهم على
الارض هونًا هينًا وكانوا اذا تعبوا جلسوا على بساط الارض الاخضر
وتوسدوا احجارًا ملساء تشبه المرمر فكان الشيخ يعجب من اتساعها
وتنوع اشجارها وكان لا يعرف اكثرها ويقف عند كل شجرة
تعجبه ويسأل عنها يعقوب فيذكر له ما يعلمه وكثيرًا ما كان لا
يقدر على وصف اشجار لا يعرف اسماها وكان يخجل من ذلك
ويعتذر للشيخ ويقول ايها الاستاذ ارجوك ان تغفر لي ذنب جهلي
فان معرفة جميع النبات والاشجار واسمائها ومنافعها وخواصها علم
كالبحر بلا ساحل وله رجال مضت اعمارهم في تدوين كتبه وانا
لا اشك في ان للخواجا بهذا العلم معرفة تامة فان هذا الفنّ من
ضمن ما يقرأ بالمدارس واما انا فلم ادرسه والذي عرفته منه انما
استفدته من المطالعة فقط فكان قليلاً جدًا والفضل في ذلك
للسائح الذي عطف الله قلبه عليّ فاني بعد دخول اختي الدير
رجعت الى لوندرة فاقمت عنده مدة وسافرت معه اسفارًا في
جهات شتى وكان لي بمنزلة الوالد ولعله الرغبة مني في حب
الاستفادة كان يعلمني من معلوماته فحسن امري وانطلق لساني
وانزلته منزلة ابي بل اعظم فمضى عليّ خمس السنوات التي
اقمتها معه كأنها ساعة من نهار لحسن معاشرته وكنت اود ان
اكون بقية عمري في خدمته ولكن الدهر حال بيني وبينه وبعد
ان كنت مؤملاً ان لا افارقه قطع املي وهدم من معيشتنا لذاتها

ففاجأه هادم اللذات ومفرق الجماعات ففارقني انسي ويا ليت غض الدهر عنا طرفه ولم يتخذ التفريق بين الاحبة حرفه ومذ حكم الله عليه بالموت وهو بايتاليا تجددت احزاني وهاجت اشجاني ولعبت بي ايدي الحادثات وعرضت لي آفات البليّات فاتخذت صنعة الملاحة وجبت من البحار كل ساحة وطفت جميع البلدان لاخنبر من فيها من السكان فلم اجد بعده دلاً اركن اليه واعول في مهاتي عليه فاسال الله ان يغمره في رحماته ويتجاوز عن سيآته ثم هطلت عيناه بالدموع فاخذ الشيخ يهوّن عليه حتى هدأت عبراته ثم قال ليها الاستاذ اني لما تذكرت من كان محسنًا اليّ لم اتمالك من البكاء عليه حيث حرمت من النظر اليه

فقال له الشيخ هذا بعض ما يجب لصاحب المعروف على الحر البر العطوف

ثم ان يعقوب خشي ان يضل عن الطريق فعاد راجعًا الى مبدئه فوجدوا ربوة مظللة بالاشجار مُعشوْسبة فجلس الشيخ فيها ليستريح فجعل ابنه يتأمل في جميع اشجارها ويعجب من عظم كل شجرة ووقف عند شجرة من شجر البلوط قد اخذت غاية الارتفاع وبجانبها شجرة صغيرة لا ورق بغصونها وعليها دوابّ صغار لا تحصى فتاملها فوجدها تاكل من الاغصان جلدها والتفت فوجد من جنسها فوق اغصان اشجار اخرى ووجد بعض تلك الدواب يمشي على الارض الى اشجار فيصعد عليها فقال ان في

مصر بعض دواب تاكل الزرع الاخضر واخرى تاكل ورق الشجر وفي بعض السنوات تكثر على اشجار الفاكهة فتضرها ضررا عظيما ولكن لاشبه بينها وبين هذه الدواب

فقال يعقوب ان الهوام المضرة بالاشجار لا تحصى عددًا وتختلف انواعها باختلاف انواع الشجر والبقاع وفي بعض السنين تتجاوز الحد في الكثرة ببعض الجهات وتقل في جهة اخرى فمن يدخل احدى غابات المانيا يسمع لتلك الدواب صوتًا منتظما يحصل من قرضها غصون الاشجار واوراقها فيخرج غالب الناس اليها وينتشرون في ارجاء الغابة ويقسمونها بينهم ويضربونها من كل جهة ولكل فرقة من الناس رئيس ومعهم مزاريق وعصي طوال كانهم خارجون لمقاتلة الاعداء وفي بعض الجهات يشتغل كثير من الناس بحفر خنادق عميقة في محاذاة الطرق والحدود يمدونها الى مسافة بعيدة للفصل بين اجزاء الغابة او بينها وبين ما يجاورها لمنع الدواب عن الاشجار الخالية منها وبالليل يظهر نوع اخر منها يعرف بمصر باني الدقيق او الفراش اذا رأى النور اسرع اليه حتى يحرق نفسه في النار فلاجل قتله يشعل الناس النار في الاشجار فيرى من يطوف بالغابة في كل قسم شجرة او اكثر مشتعلة بالنار لها لهب ودخان صاعد نحو السماء بحيث تضيء من كل جهة والدخان متكوّن كالسحاب العظيم فوق الغابة ويقرب الاشجار اشخاص لتقوية النار وايقاد غيرها اذا اقتضت الحال ذلك

فيكون حال مريع ويأسف من يراه على اتلاف هذه الاشجار العظيمة وما فيها من الخيرات ولا يسعه الا التفويض لقدرة الحكيم جلّ وعلا فان الانسان لايدرك الحكمة في تسلط هذه الهوام على اعمال الانسان واتلاف ما به منافعه من هذه الاشجار وغيرها وعلى صغر هذه الهوام واحتقارها بالنسبة للانسان لا يمكنه التخلص من ضررها وفي بعض الاوقات تضطرب اهل البلاد ويخرجون جميعًا رجالاً ونساء صغارًا وكبارًا ويتفرقون في ارجاء الغابات ومعهم عصي وحراب وشاميط لقتلها وتارة يحفرون خنادق فتقع هذه الدواب حين عبورها بالخنادق فتكون طبقة عظيمة سميكة فيهيلون عليها التراب .

ثم قبض على دابة صغيرة مما على شجر البلوط وقال هذه تاكل خشب الشجر وتدخل فيه وتحفره خطوطاً حتى يتلف كله وتجعل هذه الخطوط التي حفرتها بيوتًا لها بين الخشب والقشر تبيض فيها وتفقس ويقال ان الانثى تبيض من خمسين بيضة الى مائة

واغلب هذه الدويبات يكثر ظهورها في فصل الخريف وفي بعض الاوقات يتكوّن في الجوّ منها طبقات تمتد امتدادًا عظيمًا في هذه البلاد بحيث تكون كالجراد في بعض الجهات والخنازير تأكل هذه الديدان وتنكبّ عليها ولذلك هم يستعينون بها على اتلافها فيأتون بالخنازير في شهر اغسطس الذي تنزل فيه الديدان

من فوق الاشجار لتسكن جوف الارض او تحت الحشايش فيوزعونها في داخل الغابات فكلما نزل دود من فوق الشجر التقطته وأكلته

ومن هذه الهوام صنف صغير الجسم له جناحان عريضان بالنسبة لجثته يطير بهما في بعض الاحيان ويسمى بين الاهالي بخراق الاذن ويزعمون انه يدخل في اذن الانسان ويخرقها ويسكن في المخ كذلك ولكن هذا غير صحيح وانما سبب هذه التسمية انه يوجد في محل الذيل لذلك الصنف شي كالآلة المستعملة في خرق اذن البنات وهذا الصنف يكره الضوء ويقتات من الفواكه والازهار كالورد وغيره والانثى منه تبيض وتجعل بيضها تحت ورق الشجر مجتمعاً وترقد عليه كما يفعل الدجاج واذا حصل له تفرق بعبث احد فيهِ مثلاً فانها تنقله الى محل اخر وتضم بعضهُ الى بعض وترقد عليه الى ان يفقس فيكون اولاً ديداناً صغيرة جداً لا تحجب ما وراءها فتحنو عليها الام بالشفقه والتربية الى ان تأخذ لوناً اسمر فتبقى على هذا اللون وتستغني عن امها ومنها صنف يكون عادة فوق غصون الاشجار ويقتات من صيد الدويبات الصغيرة ولا يضر بالشجر ويتميز عن الجراد بطول جسمه وعظم اجنحته وهو بطيء الحركة اخضر اللون مشرب بصفرة يشبه لون غصون الاشجار التي يعلوها بحيث لايفرق الناظر بينهما وهذه الدواب كثيرة التحيل فاذا ارادت اقتناص دويبة دنت منها مع السكينة والاحتراس حتى اذا كان بينهما قدر مد ذراعيها وثبت عليها وامسكتها

فتدخل في جسمها كثيرًا من الشوك الذي بيديها ورجليها فتهلكها وتأكلها وتعرف بمصر بفرس النبي وتسمى ايضًا المقدسة لانها ترى في غالب الاوقات رافعة نصفها الاعلى عن الارض كهيئة المبتهل وبعض الناس يقول انها تهدي المسافر للطريق

ومن الدويبات التي تأكل اوراق الشجر دويبة طويلة دقيقة ذات ارجل طوال جدًا لا فرق بينها وبين اعواد الورق ولذا لايميزها الناظر اذا كانت فوقها وهي بطيئة الحركة واذا ادركتها الشمس في سيرها وقفت ومدت ذراعيها وبسبب نحافتها تسميها الاطفال العصا الماشية او شعرة الشيطان

ومنها ما يكون له اجنحة يطير بها وتسميه الاهالي في بعض الجهات الورقة الطيّارة

واشنع جميع هذه الدويبات الدّويبات النطاطة ذات الوثوب التي منها جميع اجناس الجراد لها ايد وارجل طويلة يعظم بها وثوبها ولها صوت يسمع متى كانت الشمس فوق غصون الاشجار وتألف الشمس وجاف الاماكن وهي انواع كثيرة وفي البلاد الجبلية تجتمع بكثرة في الشقوق التي بها النبات والعشب ولها نغمات مخصوصة عند طلب الذكر للانثى او الانثى للذكر عند استغاثتها بذكرها من ذكر اجنبي يحاولها وتحدث هذه النغمات من حك ارجلها على ثوبها الذي فوق جسدها وبحسب اختلاف قوة الاحتكاك تختلف قوة النغم وكلما ارتفعت الشمس فوق الافق

قوي النغم وكلما مالت للغروب او قويت درجة البرد ضعف وكثيرًا ما تكون هذه الانغام غير مسموعة لنا وتكون مسموعة لجنسها فقط والذي يكون منهــا ذا نغم ظاهر بحيث نشعر به لا يهوى الاّ البلاد الباردة وعكسه يهوى البلاد الحارة وكل من نظر الى هذه الدّوييات العجيبة الشكل استحسنها واعجبه شكلها ولونها الاحمر والازرق وعادة تكون قليلــة ولكن لاسباب لا نعلمها تملأ جوفها من الهواء في بعض الاوقات وتسافر الى البلاد الشاسعة ويحصل منها ضرر كبير وقد ملئت بذكر مضارها الصحف في الازمان الماضية والحاضرة وعرف الاقدمون منها نوعين ينسب اليها تلف اصناف المزروعات احدها وهو الاكبر يعرف بالجراد السياح ويكون غالبًا في السواحل الغربية من افريقيــة وفي سواحل الصين وثانيها وهو الاصغر يظهر باوروبا لكنه قليل وفي امريكا والاوسترالي يظهر نوع من الجراد غير كثير الاذى ولا يكثر نوعه كالبقية والذي بافريقية يتقلب من حين فقسه الى كبره في خمسة اطوار فالاول بعد خروجه من بيضه بخمسة ايام والثاني بعد الاول بستة ايام والثالث بعد الثاني بثمانيــــة ايام وفي هذه الثلاثة يكون بدون اجنحة اصلاً ثم الرابعة بعد الثالثة بتسعة ايام فتبدو الاجنحة صغيرة والخامسة بعد الرابعة بسبعة عشر يومًا تكون تامة الاجنحة فتتكامل منها القوى بعد خروجها من البيضة بخمسة واربعين يومًا

المسامرة (١٠٨)

الجراد

فقال الشيخ ان الجراد آفة واذا حل بجهة اهلك الحرث والنسل وقد حل في بعض السنوات ببلادنا فاتلف اشياء كثيرة حتى ان الحكومة اخرجت الاهالي لجمعه وجعلت لهم جعلاً على ذلك فجعلت على كل اقة منه قرشاً

فقال يعقوب كتب التاريخ مشحونة بذكر الجراد وما حصل منه من المصائب وهو غالباً يظهر من صحرآ بلاد العرب والتتار فان الريح المشرقية تأتي به الى افريقية واوروبا وكثيراً ما تكون

سفن السياحين في البحر مغطاة به فيكون فوقها كالسحاب ويكون ممتدًا فوق البحر مسافة بعيدة واكبر مساعد له على السير هو الريح

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانية واربعين وصلت جيوش الجراد بلاد الانكليز حتى تعطل جيش شارل الثاني عشر عن السير بعد كسرته في بلتاوا من بلاد البسارابي فمن كثافته كالسحابة لم تتمكن الناس ولا الخيل من السير وقد تغير نور النهار بظلام شديد

وقد رأى الناس في بلاد الهند وبلاد مهرات سحابة من الجراد طولها ثمانون ملقة وسمكها عدة اقدام وذكر بعض السياحين انه يكثر ببعض جهات افريقية في بعض الاحيان حتى يكون سطح الارض والانهر مكسواً به بحيث لا يتمكن الانسان من وضع قدمه على الارض من كثرة الرم

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وثلاثين احتجب نور الشمس والقمر عن ارض الصين بسبب سحابة منه حتى اهلك المزروع ثم اهلك ما في المخازن وملبوسات الخلق داخل بيوتهم ولم يسع الناس الا الفرار الى روؤس الجبال

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانين نشاء منه قحط عظيم ببلاد مراكش حتى اكل الاهالي اعواد النبات وجذوره وحب الشعير الذي في ارواث البهائم وبعر الجمال

وفي اخر سنة الف وثمانمائة واربعة وستين نزل ببلاد السنيجال فاهلك جميع محصولها وشوهد منه في الجوّ بسحابة طولها خمس عشرة ملقة

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة واربعين حصل بسببه قحط ببلاد الجزائر وتبعه في عدة سنين قحط عظيم وفي سنة الف وثمانمائة واربعة وستين خرج من الصحرآء وهجم على البلاد والجزائر فاكل جميع المحصول حتى لم يبقِ شيئاً واستعملت جميع الطرق للتخلص منه فتفرقت العساكر مع الاهالي لجمعه ومع ذلك فلم يجدِ هذا شيئاً فاكل شجر العنب والتوت والزيتون وغير ذلك حتى اكل شجرة الدخان ولم تمنعه مرارتها من اكلها ولم يترك جهة من الارض الاّ وقد غطاها باحيآئه واموإته فكانت السحابة منه تمتد نحو ثمانين ملقة وذلك في عموم جهات الولاية

ولاجل التخلص من وباله كان الناس يجتمعون ويصيدونه بالشباك من الارض ورؤوس الاشجار ثم يحرقونه بالنار واهل السودان يطردونه بالتصويت واهل هولاندة استعملت المدافع في ازالته وفي الازمان القديمة كان اليونان يجعلون على كل شخص كيلاً مخصوصاً يأتي به منه

وفي سنة الف وثمانمائة وثلاثة عشر ببعض مديريات فرانسا جعلت الحكومة لكل من يأتي بكيلو جرام من بيضه نصف فرنك ولمن يأتي بهذا القدر من الحيوان ربع فرنك

وفي مديرية مرسيليا صرف في جمعه خمسة وعشرون الف فرنك وكذا مديرية ارل صرفت مثل ذلك وفي الجزائر جعل ربع فرنك على جمع كيلوجرام فكانت الناس تاتي باربعين او خمسين جملا محملة منه

وفي بعض البلاد يوكل الجراد بانواعه وقد جوّز موسى عليه السلام لقومه اكل اجناس اربعة منه واليونان كانت تبيعه بالاسواق وذكر استرابون الجغرافي ان الحبشة يا كلونه ويجعلونه من الاطعمة والمغاربة في الجزائر ياكلونه ويسمونه الجراد الغربي ويكتفون بقطع راسه وجناحيه وارجله الطويلة ثم يملحونه ويا كلونه والاولاد والنسا تجعله في خيوط وتبيعه في السوق وهناك بلاد تقليه بالزيت واهل هولاندة تاكله ايضًا وبعض الناس يزعم ان الذين يجعلون قوتهم منه لا تتعدى اعمارهم الاربعين وفي راس الاربعين يمتلىء جوفهم وجلدهم ديدانا صغيرة تهلكهم وكثير من الحكماء والسياحين يكذبون ذلك

فقال الشيخ في شرعنا يجوز اكله مطلقا فان الشارع نص على حرمة الميتة الا السمك والجراد وحرمة الدم الاّ الكبد والطحال فسبحان من دبر الاكوان واحسن صنعها فلله في تسليط بعض جنوده على بعض حكم واسرار لا يقف عندها علم البشر فعلى الانسان التسليم للحكيم العليم

فلله في خلقـــه حكمـة تكل البصائر عن دركها

١٣٣٠

فسلم لربِّ الورى حكمه كما تفعل الطير في أبكها

المسامرة (١٠٩)

نور الغاز

وبينا هم يتجاذبون اطراف الحديث اذا بالخواجا الانكليزي
اقبل فرآه ابن الشيخ على بعد فقام ليقابله فالتفت الشيخ فرآه
مقبلاً فقام له فلما جلس الخواجا قال ان بُعدي عنكم هذين اليومين
كغياب عامين وحقكم ما تخلصت من صاحبي الاَّ بعد ان اعتذرت
له بحضرتكم ووعدته بالعود اليه مع حضرتكم ولو رأيتم هذا الرجل
ومسكنه لا تهون عليكم مفارقته فانه على طريق نمرّ منه خلق

كثير وحوله بستان عظيم في وسطه عين مآء نابعة من الصخر وبقربه بلدة لطيفة فيها كثير من الامراء والاعيان يجتمعون كل ليلة عند احدهم وهم اناس ظرفاء لا يستوحش انيسهم ولا يملهم جليسهم وهذا الرجل على غاية من الرقــة واللطف والادب وزوجته خير منه

فقال الشيخ نحن ذهبنا عند حضرة الخواجا التلياني صاحبكم وتوجهنا الى البرصة معه وفهمنا ما يتعلق بهذه المصلحة من الامور العامة وغيرها وبيّن لنا الايام التي ترتبت علينا في المدرسة المشرقية وذكر لنا تشوقه لحضرتكم ورأينا منه خلقا حسنا قل ان نرى مثله فحصل لنا غاية الانس لولا غيابكم عنا فان يعقوب كان وافيًا بخدمتنا قائمًا بما فيه رغبتنا وراحتنا لكن غيابكم عنا لكونه غير معتاد لنا اقلقنا

فاثنى عليه الخواجا وقال ما عندكم بعض ما عندي ثم قال اظن ان الترحل قد ازف فان الليل قد اقبل ونريد الرجوع قبل الظلام

فقال الشيخ نحن حضرنا ههنا بعد الظهر وتنزهنا في الغابة لكن ما وصلنا الى اخرها لخوف يعقوب الضلال عن الطريق

فقال الخواجا احسن منتزه هنا هو هذا المكان فانه مرتفع يرى منه كثير من ضواحي باريز ولكن الناس لم يعتادوا التنزه فيه بل اعتادوا التنزه في غابة بولونيا

فقال الشيخ قد أتيت الى هذا المكان مرتين هذه ومرة قبلها

وفي كل مرة يحدث لي في هذا المكان سرور ونشاط لا اجده في غيره لاني متى كنت وسط هذه الاشجار يخيل لي انها تحدثني بحوادث الايام الماضية وحين ارى بها الاشجار المختلفة كالبلوط والصنوبر والحور وغيرها يزداد قلبي تعظيما للخالق جلّ وعلا واجد في نفسي انشراحاً جزيلاً

ثم رأيت في اثناء سيرنا اشجاراً كثيرة الانواع جدًا لا ترى ببلادنا فسالت عنها يعقوب فلم يفدني الا عن بعضها فقال الخواجا انواع الشجر والنبات لا تحصى ولكل نوع منها خواص وفوائد ومزايا ولكل نوع منها تربة من الارض تناسبه وتختلف طباعها ايضا في احتياجها الى الماء والهوآء والحرارة فبعض الاشجار لا يصلح الا في جهة مخصوصة بهواء مخصوص مثلاً وبعضها يصلح في كل ارض وفي كل هواء فلذا تجد من الانواع ما هو عام في جميع البقاع وهناك انواع لا تنبت الا في الماء ولو انكشف عنها ماتت وانواع لو مسها الماء هلكت ومنها ما يبقى زمناً طويلاً وما لا يبقى الا اياماً واني وان كنت درست التاريخ الطبيعي الا اني لصغرسني اذ ذاك وعدم اقتصاري عليه لم احصل منه الا على بعض جمل والا فله رجال تفرغوا له وافنوا اعمارهم فيه حتى اطلعوا على اسراره فاظهروها للناس فانتفع بها الجمّ وتمتعوا التمتع الاعمّ ولم تتسع دائرة هذا العلم الا في هذا الزمان فبهمة افاضل هذا الزمان استكشفت نباتات كثيرة واستعملت فوائدها في مصالح عمومية وسهل بذلك استنبات

كثير منها في بقاع لم تكن بها من قبل وبعد ان كان نفع نبات كل جهة مقصوراً عليها صار عاماً لها ولغيرها

وسنتوجه غداً الى جنة النباتات ان لم يطرأ مانع وهناك نطلعكم علي اجناسها المختلفة فقد اهتمت الحكومة الفرنساوية بانشاء هذا البستان العظيم وجمعت فيه كل ما يحتاج اليه في تسهيل طرق التعليم والتعلم لمن اراد ليطبقوا العلم على العمل فاستحسن الشيخ هذا الاهتمام من الحكومة فقال الخواجا ولم تقتصر على ذلك بل جمعت ايضاً من كل نوع وجد على وجه الارض من الحيوان والطير والوحش والحشرات وكذلك من جميع الاحجار والمعادن كل ذلك ليطبق مدرس التاريخ الطبيعي العلم على العمل فاطرب الشيخ هذا الصنع واشتدت رغبته في الخروج معه الى تلك الجهة وفرح ولده بذلك فرحاً شديداً وسأل عن هذا المحل هل هو داخل باريز ام خارجها فقال الخواجا هو في باريز بل قريب من دارنا وابوابه مفتحة لمن اراد الدخول ثم دخلوا من احد ابواب المدينة وكان دخولهم بعد الغروب فوجدوا جميع الطرق مضيئة بالمصابيح الموقدة بها فكان لها منظر حسن يسر الناظر ويشرح الخاطر بسبب انتظام الطرق واتساع الحارات واصطفاف المصابيح ووضعها على ابعاد متساوية وكلما انتقلوا الى موضع راوا صورة احسن من الاولى على حسب تقاطع الطرق والميادين وكثرة الانوار واختلاف الجهات كالاسواق ومحال التجارة فكان يظهر للشيخ وولده ان المدينة

مزينة لاسباب وقتية لانهم رأوا العربات واصناف الخلق تقبل وتدبر في جميع الطرقات التي مرّوا بها كما يحصل ذلك بالنهار سواء بسواء ومن كثرة الضوء واتصاله بضوء النهار تذكر الشيخ شطر بيت فتمثل به وهو

(وليل الكفر ليس له نهارُ)

فتبسم الخواجا وقال هذه الكلمة لرفاعه بك احد رجال المدارس المصرية قالها في رحلته وقد وقع لي منها نسخة فرأيته قد اكثر فيها من مدح باريز واهلها واطنب في وصف نسائها ورجالها وطاف حول الدّن الا انه لم يدندن ورتع حول ذاك الحمى وحام وما رفع عن وجه ليلى اللثام واظنه لم يأتها من ابوابها ولا كشف له عند وصفه لها عن نقابها ومع ذلك فجميع ما ذكره ورآه قد تغير الان ومضى من وقته الى الان نحو ثلاثين سنة وفي هذه المدة تقدمت العلوم والصنائع تقدمًا زائدًا وظهر في اعمال الخلق النتائج المفيدة فصلح بذلك شأنها واتسعت دائرة ثروتها ففي وقت رفاعه بك كان الغاز مثلاً مستعملاً الا ان الطرق التي كانت جارية في استعماله واستخراجه لم تكن كما هي الان وما حصل من التحسينات والاستكشافات ازال كثيرًا من المضرات التي كانت تحصل للناس من عدم صفائه اذ ذاك وهكذا كل شيء اخذ في التقدم والتحسن

فقال ابن الشيخ كان يخطر ببالي ان هذه المصابيح من الزيت

فاعجب من شدة ضوئها واتامل في خلال النور لعلي ارى فتيلة فلا ارى الا ضوأ يلمع ونورًا يسطع

فقال الخواجا ليس الامر كما تظن لان الغاز ليس زيتًا من الزيوت بل هو مادة اخف من الهوآ ولا لون له وهو عبارة عن ادروجين وكربون ويسميه الكيماويون بالادروجين المكربن وله معامل يدبرونه فيها ولهم طرق لتوزيعه داخل البيوت وفي الطرقات فيجعلون لهُ وابورًا له مجارٍ تحت الارض من مواسير الرصاص ونحوه فيوزع الى الجهات بثمن معين وتلك العُمد التي تراها قائمة على الطرق مجوّفة وتجويفها متصل بالماسورة التي تحت الارض في محور الطريق وتلك الماسورة متصلة بذلك المحل الذي يدبر فيه الغاز فاذا دخل الليل مرت الخدَمة على تلك العُمد وبايديهم شعل من نار فيفتحون الحنفيات التي باعلا العمد الحابسة للغاز فيضعون الشعلة فوق الثقب الموجود في النهاية العليا لتجويف العمود المغطى بالفانوس فحالًا يلتهب الغاز ويضيء فاذا جاء النهار قطعوا الوارد بقفل الحنفية فينقطع الضوء

فقال ابن الشيخ ان هذا الشيء عجاب ما كان يخطر ببال احد من اهل مصر وغاية ما يظن ان الغاز اسم لنوع من الزيوت يستعمل استعمال الزيوت وحيث انه هوآء او شبيه بالهواء فكيف عرفوا ذلك وانتفعوا به

فقال له الخواجا وكانوا قد قربوا من النزول سأبيّن لك

بعض ما يتعلق بذلك فلما وصلوا الى محل اقامتهم دخل كل مكانه وامر يعقوب الخادم باحضار الاكل فاحضره وكان بالمائدة مصابيح في الحائط مغطاة بالبلور الموشى وعليه رسوم لطيفة وفي تلك المصابيح صور كالشمع الابيض النظيف فكان ابن الشيخ يمعن النظر اليها

فقال الخواجا لعلك تتعجب من عدم احتراق الشمع الذي تراه فقال نعم لاني من حين جلست الى الان وهو على حاله لم ينقص منه شيء فقال كيف ينقص وهو حجر ابيض من انواع الرخام والمرمر ثم قال ان الناس لما استعملوا الغاز داخل بيوتهم اخترعوا هذه الهيئة تتميماً للرونق وتقليداً لما كانوا يألفونه من قبل استعمال الشمع فهذه الشموع التي تراها احجار مجوفة والغاز يمر في تجويفها وخدمة البيوت يوقدونها كما توقد خدمة الحارات الفوانيس التي تراها وقبل الان بنحو مائتي سنة كانت جميع مدن الديار الاوروباوية كغيرها من مدن الدنيا مظلمة ليلاً من قلة المصابيح وغاية ما هناك انه كان يوجد بعض قناديل على ابواب بعض الحارات متباعدة وكان ينقطع المرور من الطرق بعد نحو ساعتين من الليل فكانت المدن وقتئذ عرضة لامتداد ايدي اهل الخيانة اليها وكثيراً ما كان يقع بها القتل والسلب .

ثم في سنة الف وخمسمائة واربعة وعشرين ميلادية كثر الشر

واربابه وتعددت الحرائق بمدينة باريز فصدرت اوامر الحكومة بالزام الاهالي تعليق قناديل على ابواب بيوتهم وعلى الشبابيك والطاقات المطلة على الشوارع واستمر ذلك الى سنة الف وخمسمائة واربعة وتسعين فجعل بدل القناديل في الحارات والشوارع قوائم من خشب عليها فوانيس بشمع الدهن وصدر الامر بمنع المرور في الشوارع ليلاً بغير فانوس

ثم في سنة الف وسبعمائة وثمانية وثلاثين صار تنوير الطرق من الحكومة بعد ان كان على الاهالي وفي سنة الف وسبعمائة وتسعة وثمانين جعل مكان شمع الدهن زيت ولم تزل بعض جهات من اوروبا تستعمله الى الان وكان من المصابيح ما يوضع فيه فتيلة واحدة ومنها ما يوضع فيه اكثر

.وقد اختبر ما تحرقه الفتيلة الواحدة من الزيت في ظرف ساعة فوجد ثمانية جرامات ونصف جرام وكان ما بين كل مصباحين مائة متر فكان النور اذ ذاك قليلاً جدًا ولم تحصل الفكرة في الغاز والتكلم في شانه الا في سنة الف وستمائة وست وثمانين ميلادية وسببه ان رجلاً من اهل باريز ادعى ان الغاز المتحصل من المواد النامية اذا تجمع في ظرف محكم وعرض للهب اتقد واضاء واقام على دعواه براهين ولكن لم يلتفت احد الى قوله الى ان جاء ويولنا الانكليزي وشرح كيفية استعماله في الاستصباح عوضًا عن الزيت وكان في سنة الف وسبعمائة وسبعة وسبعين من ذلك العهد

اشتغل الكيماويون وغيرهم بهذه المادة

وفي سنة ١٨٠١ ظهر عالم فرنساوي فاستخرجه من الخشب فضلاً عما يخرج من الخشب من قطران وغيره من المواد وهو الذي بيّن طريق استخراجه من الفحم الحجري ومن الزيوت والمواد الدسمة وفي سنة الف وثمانمائة وعشرة بمقتضى قرار من البرلمنتو الانكليزي اذن لجماعة نمساوية في الاستصباح في لوندرة بالغاز فاوقدوه فيها وارادت اهل هذه الشركة في سنة الف وثمانمائة وستة عشر ان تلتزم ايقاده في مدينة باريز فلم يجابوا الى ذلك ولم يظهر وجوده فيها الا من ابتداء سنة ١٨٢٩

فقال الشيخ انا الى الان لم نسمع به ببلادنا بل المستعمل بها الى الان الزيوت والشمع في البيوت ويضع ارباب البيوت الشهيرة قناديل على ابوابهم ويندر وجود قنديلين او ثلاثة بالحارة الطويلة وكثيرًا ما يحصل من الضبطية التنبيه بوضع قناديل على جميع البيوت فلا يسمع امرها وبهذا يقل المارون جدًّا بالليل وتخرج اللصوص والاشقياء من اوكارها

فقال الخواجا يوشك ان يستعمل الاستصباح بالغاز بمصر وبغيرها من بلاد المشرق كما هو باوروبا وما ذلك بعزيز انما يتوقف على تيقظ الحكومة له خصوصًا اذا علمت انه اقل من غيره مصرفًا وثمنًا واكثر منه نورًا ولعل بسببه تكثر الحركة وتتسع الثروة ويحصل الامان وتقل اللصوص واهل الفساد

وحيث اخذت مصر في التقدم الان وسهل عليها جلب ما يلزم لذلك برًّا وبحرًا فعن قريب يحصل ذلك حتى لا يكون بينها وبين البلاد الاوروباوية فرق

فقال الشيخ هل يمكن كل انسان تحصيله اما باستخراج اوشراء كالزيوت والشمع قال الخواجا نعم كل انسان يمكنه ذلك اذا عرف طريق تحضيره وتحصل على ادواته وآلاته ولكن في ذلك كلفة زائدة ولذا جرت العادة بان يكون ذلك لشركاء مقتدرين يتعهدون به مدة معلومة بامر من الحكومة وتجعل الحكومة لهم قدرًا معلومًا على توزيعه في الطرق العامة والخاصة والبيوت وتشترط عليهم شروطًا منها ان يكون نقيًا صالحًا للاستعمال وان لا ينشاء عنه ضرر بالصحة وجميع اوروبا تستخرجه من فحم الحجر فقط وان كان يمكن استخراجه من غيره كالخشب والدهن والزيوت والمواد الراتنجية كالصمغ وغير ذلك مما يسيل على بعض الاشجار وطرق تحضيره من الفحم الحجري ان يوضع في اسطوانات من الحديد الزهر طول الواحدة نحو متر ونصف او مترين ولا تملاء الى اخرها بل يبقى منها جزء فارغ ليتجمع الغاز فيما بقي منها ثم تسد سدا محكمًا ثم توضع في افران مخصوصة لها ويوقد عليها حتى تبلغ من الحرارة الدرجة المطلوبة فينفصل من الفحم بخار فيه الغاز المذكور ومعه غازات اخرى فيصعد في انابيب من الحديد مستديمة البرودة فيصفو من المواد القطرانية الموجودة معه ثم يجعل في صناديق كبيرة

مقسمة الى طبقات بالواح من الصاج وفيها خروق صغيرة وفوقها جير قد طفئ لاجل ان يمر الغاز منها و يتخلص من بعض الغازات الممتزجة بهِ وبمروره في حوض الماء الذي فوقه مخزن الغاز المعد للصرف يتخلص من باقي الغازات على قدر الامكان ويكون صالحًا للاستعمال ويسمون الفحم الذي اخذ غازه بالكوك وهو الذي يستعمله الحدادون

والمخزن المذكور عبارة عن ناقوس او اصطوانة من الصاج ذات قعر سعته قدر سعة الحوض وتوضع فيه منكوسة بحيث يكون قعرها الى اعلى الحوض وفمها الى جهة قعره واذا كانت خالية من الغاز كانت مغموسة جميعها في الحوض ويكون قعرها مع سطحه مغطى بالماء وكلما دخل فيها الغاز ترتفع شيئًا فشيئًا ولكن بمقدار متوازن في الصعود والهبوط عند ازدياد الغاز ونقصه بواسطة اثقال بحيث تكون حركاته صعودًا وهبوطًا منتظمة في اتجاه رأسي لا تفارقه وعند مدخل انابيب الايراد آلة يقال لها العداد يعرف بها مقدار الحاصل من الغاز كل لحظة وآلة مثلها في مبدأ انابيب الصرف يعرف بها قدر المنصرف وبهذه الطريقة يمكن معرفة قدر الوارد والمنصرف والباقي في كل لحظة

وقد ذكرت لك فيما مر ان لهم في توزيعه في طرقات البلد وشوارعها كيفية حسنة وهي وضع مواسير من الحديد الزهر محكمة تحت الارض على بعد متر فا كثر من ظاهرها وتلك المواسير متصلة

ببعضها وكلها متصلة بماسورة يقال لها الام متصلة بمخزن الغاز ويجعلون في المواسير الموجودة بالحارات امام كل فانوس او فرع خروقا يخرج منها مواسير رقيقة من الرصاص لتوزيع الغاز في كل حارة وهناك حنفيات تفتح وتغلق بحيث يمكن منع الغاز عن جهة مخصوصة او ايصاله اليها متى ارادوا

ففى الحقيقة ان استخراجه يحتاج الى احتراسات وعمليات كثيرة ومصاريف واسعة ومع ذلك لا يصفو بالكلية بل يبقى فيه رائحة كريهة وكثيرًا ما يحصل في محل ارتباط المواسير المدفونة في الارض تنفس فيخرج الغاز وينتشر في الارض ويغوص فيها قدر ثلاثة امتار فيضر بحياة الاشجار والنبات ويفسد ماء العيون والابار القريبة واذا اريد احكام تلك المحلات يرى ان الارض اكتسبت من رائحته الكريهة وربما بقيت فيها مدة تقل وتكثر على حسب حال الارض رطوبة ويبوسة واحيانا يمر قريبا من مجاري المراحيض والسراديب الداخلة في البيوت فاذا تنفس ودخل فيها يستمر حتى يملأ البيوت من منافذ القصبات وغيرها ثم يصعد الى المساكن فيضر باهلها وكثيرًا ما تكون احكام حنفيات توزيعه في داخل البيوت غير محكمة السد فلا يمنع منها التنفس وينتشر في الغرف فيضر باهلها وقد دلت التجربة على ان الفتيلة الواحدة منه تحرق في الساعة الواحدة مائة وثمانية وخمسين ليترًا ويلزم لذلك احتراق مائتين واربعة وثلاثين ليترًا من الاكسوجين اللازم لتقويم حياة الانفس

ويحصل من ذلك مائة وثمانية وعشرون ليترا من حمض الكربون المضر بالصحة فان كانت الفتيلة في مكان لا يصل اليه الهوآء فلا يمضي الا قليل وقد وصل اليها هواء ردي يحصل منه ما يحصل من دخان الفحم من الاختناق والعلل والامراض الصدرية فلذلك كان الاحسن ان لا يستعمل في داخل البيوت الضيقة ولا باماكن الجلوس والنوم بل يستعمل في البساتين والاماكن الكثيرة الهواء

وقد استدلوا بالتجربة على انه متى اختلط الغاز بالهوآء بنسبة معلومة وكان في المكان جسم ملتهب كشمعة او غيرها فلا بد ان يحصل في الهوآء التهاب ويكون له دويّ وفرقعة شديدة يخشى منه الضرر على من كان قريبًا منه لكن محل حصول ذلك منه اذا زاد الهوآء عن الغاز اكثر من احدى عشر مرة ونصف فلو فرض ان حجمًا من الغاز اختلط بقدره خمس مرات من الهوآء او ستًا او سبعًا الى احدى عشر مرة ونصف فلا يخشى منه ولا ينشاء عنه هذا الالتهاب ومتى زاد عن ذلك ولو قليلاً التهب فالاقامة في مثل هذا المكان خطرة لان زيادة الهوآء غير مأمونة فيكون الضرر غير مأمون فيلزم الانسان اذا احس برائحته في غرفته وكان بها قنديل او شمعة ان يطفئها كذلك الاجسام المتقدة كالمنقد ونحوه وكذلك لا ينبغي الدخول في مكان احس برائحته فيه

ثم قال وكان عدد اللّنبات في مدينة باريز سنة الف وثمانمائة وثمانية واربعين ثلاثة عشر الف وسبعمائة واحدى وسبعين لنبة

صرف عليها نحو اربعة واربعين الف جنيه

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين بلغ عدد الشركات المتعهدة في المدينة ثمانية ومقدار المنصرف في المعامل والالات اعني رأس مال هذه الشركات قريباً من مائة وعشرين الف جنيه وكان ثمن المتر المكعب سبعة عشر سنتيما بالنسبة لما تأخذه الحكومة وبالنسبة للاهالي ثلاثين ومدة الالتزام خمسون سنة وبلغ مقدار المحرق من الغاز في سنة٧ ١٨ قريباً من ثلاثة وخمسين مليون متر مكعب واحترق فيها مليونان وستمائة الف وكسور هيكتوليتر من فحم الحجر وبلغت قيمة ذلك ستة ملايين ومائة الف فرنك

فقال ابن الشيخ قد خرجت مع يعقوب منذ يومين فصادف وقت دخولنا ان البواب كان يتشاجر مع زوجته بسبب ان هرّتها قلبت زجاجة ففاحت منها رائحة كريهة فشممناها فسألت يعقوب فقال هي رائحة زيت معدني فلم افهم معنى هذه العبارة لاني لم اسمع بزيت معدني الا منه والذي اعرفه هو الزيوت المستخرجة من النباتات والابزار والفواكه

فقال الخواجا استعمل بعض الناس من عهد قريب في المنازل والورَش والفوريقات ونحوها زيوتاً اتخذوها من خلط الغاز بزيوت النباتات بكيفية وتدبير مخصوص واستعملوا ايضاً زيوتاً متخذة من الغاز والنفط

وحيث كانت هذه المواد كلها خارجة من جوف الارض من

بقاع معلومة سميت زيوتًا معدنية والنبات والمسارج المستعملة لها
ليست مثل المستعمله للزيوت النباتية بل تختلف في التركيب والقصد
من ذلك كله تميم حرق الابخرة الحاصلة من تلك المواد

ويوجد ايضا زيوت مديّرة من خلط زيت الترابنتين او النفط
او الغاز بالكؤل او غيره مثل زيت الخشب او الغاز المائع ولها
قناديل مخصوصة بحيث لا يستصبح به الا فيها ولكن لكون جميع
هذه الزيوت سريعة التبخر والتطاير وبادنى شرارة تلتهب بسرعة
كان استعمالها لا يخلو من الضرر وكثيرًا ما حصل بسببها حرائق
كبيرة ولها روائح كريهة ولا تزول من الارض التي تصيبها الاّ
بعد زمن طويل فتلك الاسباب استدلوا على ان استعمال هذه
الزيوت كما هي من غير خلط اوفق واخترعوا للاستصباح بها
قناديل جربوها فيها فوجدوها محصّلة للغرض المطلوب ومع ذلك
فيلزم تمام التحفظ والاحتراز في نقل تلك المواد من مكان الى اخر
وفي حال استعمالها

وبسبب رخص سعرها وشدة ضوئها صارت هي المستعملة
الان سيما في جهة الارياف فاستعملها الغني والفقير حتى بلغ قدر
المستخرج منه سنة الف وثمانمائة وثمانية وخمسين الفين وخمسة
وعشرين مليونًا من الليترات وقد حفر ما عدا الآبار التي كان
يستخرج منها مائتان وخمسون بئرًا واذا نجحت التجاريب في وقود
الوابورات بها بدل الفحم الحجري عمّت فائدتها واتسعت دائرتها

وانتشرت في جميع البقاع

وقد اخترعوا اليوم اختراعا جديداً وهو انهم استعملوا قنديلا لطيفا مستوفيا لجميع اللوازم الا انه لا فتيلة فيه بل يكتفى عن الفتيلة بوضع جسم فيه ذي مسام كقطعة فحم او اسفنجه تغمس في الغاز المعدني وتوضع فيه فبدلا عن احتراق الزيت الذي يتصاعد منه الدخان والروائح الكريهة يكون الاحتراق للغاز الحاصل من هذه الزيوت فانه بمرور الهواء عليه يتشرب من الابخرة فتصل الى المسرجة فتلتهب الشعلة وتضيء مثل الغاز المستعمل الى ان ينتهي

والغاز الذي يكون في القنديل مركب من تسعين جزءاً من الهواء وعشرة من الغاز ومع ذلك لو اريد استعماله في طبقات المنزل جميعها لا ضير فيه ويكفي لتوصيله ماسورة واحدة وبذلك امتنعت اسباب الضرر وسهل على كل انسان الحصول على الغاز بثمن قليل

فانظر كيف كانت ثمرات ابحاث العلماء والكيماويين فقد حصل منها فوائد جمة انتفعت بها الناس عموما وذلك من المادة النفطية على اني لم اذكر لحضرتك جميع الامور والصنائع التي تدخلها هذه المادة لان شرح ذلك يطول فعلى جميع النوع البشري ان يرفع اكف الضراعة بطلب زيادة عدد هولاء العلماء حيث نتج من اعمالهم الخيرية تمتع الفقير بالنور الذي كان محروما منه قبل ذلك الاختراع الذي بواسطته اتسعت دائرة المعلومات

فقال الشيخ كم لله من فواضل وفضائل وكم ادرك المتاخرون ما لم تدركه الاوائل فمن جد وجد ومن لج ولج وقد استحق الفرنج الثناء الجميل وادركوا المجد الاثيل حيث نالوا من التقدم ما نالوا وان كان يؤثر عن المتقدمين ما يقرب من ذلك فقد كانت العرب في حربهم تدبر من النفط نارًا ترسلها الى العدو بكيفيات مختلفة منها ما كانْ يسبح فوق الماء حتى يصل مراكب العدو فيحرقها ومنها ما كان يصعد في الجوّ ويسقط في اوقات معلومة على اماكن معلومة وغير ذلك مما هو مذكور في كتب مطولة

ومن معرفتهم لهذه الكيفيات وجهل العدو بها كان الفرنج يهابونهم في حروبهم وكثيرا ما انهزموا منهم كما حصل في حرب الصليب وغيرها

١٣٤٧

المسامرة (١١٠)

السلف والخلف في الاسلام

ولكن لا يدرى الان كيف تناسى العرب هذه المعارف بالكلية وهجروا استعمالها في بلادهم بعد ان علموا فائدتها في حروبهم حتى علمها الفرنج وتفننوا فيها وقد قالوا اذا ظهر السبب بطل العجب فليت شعري ما سبب هجرها في بلاد العرب فان قلنا ان السبب بلادتهم وقصور عقولهم فهم ليسوا كذلك فانهم فرسان الفصاحة واخوان البراعة والسماحة وان قلنا تغير طبيعة ارضهم وهوائها فهما على حالها لم يتغيرا وان قلنا تغير قوانينهم وعاداتهم فهي على ما كانت عليه لم يتغير منها شيء وايضاً فان الارض لم تبخل بشيء كانت تجود به من قبل وكذلك الشمس في غروبها وطلوعها لم تتحول قط عن

مستقرها ولكنا اذا تاملنا في امر هذه الامة وما حصل لها خلفًا وسلفًا
وما احدثه الخلف بعد مضي السلف وجدنا السبب انما هو ما صار
عليه الائمة من خلف هذه الامة فانهم تركوا ما كان عليه السلف
من النظر في مصالح الامة والسعي فيما فيه نفعها فنبذوا ذلك كله
وراء ظهورهم واتبعوا الشهوات واضاعوا الواجبات وحملوا الناس
ما لا يطيقون وشغلوهم بتحصيل ما يشتهون فان الائمة للرعايا
كالرأس للجسد او كالقلب بالنسبة للجوارح اذا صلح صلحت واذا
فسد فسدت وقد كان السلف صارفين انظارهم نحو مصالح العباد
العمومية فكانوا يقتدون بهم في اقوالهم وافعالهم وكذلك الفرنج لما كان
رؤساؤهم بتلك الصفة ظهرت فيهم العلوم والصنائع وسرت منهم
الى غيرهم حتى عمّت سائر المواضع

فقال الخواجا ان من تتبع سير المتقدمين من علماء ملتكم واخبار
الماضين من ائمتكم رأى ان المسلمين كانوا في صدر الاسلام لا قصد
لهم الا نصرة الدين واعلاء كلمة الايمان وكان لا يتولى الحكم بين
الناس الا العالم بالاحكام الشرعية

فقال الشيخ قد ورد في الحديث خيركم قرني ثم الذين يلونهم
ثم الذين يلونهم فكل قرن شر مما قبله وخير مما بعده وفي صدر
الاسلام كان تعظيم العلم واهله امرًا لازمًا اذ كانت الاحكام الشرعية
بين الكافة هي المنظور اليها ولا معول فيما قل وجل الا عليها
فكان العلماء في الحقيقة هم اولوا الامر الذين اوجب الله طاعتهم

واعلى في الخافقين رايتهم

وبسبب ما كان لاهل العلم من الشرف والاحترام بين الخاص والعام رغب الناس في تحصيله وجدوا السير في سبيله حتى اتسعت دوائره وعلت في جميع البقاع منابره واستنارت به بصائر العباد وانصلح به امر المعاش والمعاد اذ بكثرته لم يكن قاصرًا على الاحكام الشرعية والفنون العربية بل تعدى ذلك الى جميع ما تلزم معرفته لعموم مصالح العباد وعمار الاقطار والبلاد فقد بذل العلماء الجهد في كل علم والفوا اسفار الكتب في فنون شتى ففضلا عن المؤلفات التي لا تدخل تحت الحصر في الاحكام الشرعية تجد مؤلفات كثيرة في فن الفلاحة والملاحة والتاريخ والتجارة والعمارة والصنائع المتنوعة والطب والحكمة والفلسفة والرياضة وغير ذلك مما يستعين به العالم ويهتدي به الجاهل فكان العلماء بين الناس كالاهلة في السماء تنبعث انوارها على سائر ارجائها وبسبب ذلك تألفت الطباع في جميع البقاع فزادت قوة الامة وقويت شوكتها وكان ذلك سببًا في سعادتها واتساع دائرة ثروتها وما سبب ذلك الا بناء الحكام احكامهم على سنن الشريعة وسلامة بواطنهم من الاغراض الفاسدة فلم يكن همهم الا السعي في المصالح العمومية واجتماع الكلمة الاسلامية ولما سار الحكام في غير هذا المنهاج وسلكوا شيئًا فشيئًا طريق الاعوجاج وصار اكبر همهم تحصيل اغراضهم الفاسدة وحادوا عن احكام الشرع الى شهواتهم تصرمت اسباب

الائتلاف بين الامة وتفرقت طبقاتهم بتفرق قلوب الائمة فسار كل فريق على حدته وترك كل منهم موجبات ثروته فاوجب ذلك فقر الجميع وضعفهم وبما داخل كبراءهم من الطمع حصل بينهم التباغض والعدوان وكثر التحاسد والحرمان وظهر اذ ذاك التمدن الاسلامي الجديد واظن ان ابتداء ظهوره كان في زمن العباسيين ويمكن تعيين ابتدائه بخلافة المأمون وذلك انه اكثر من شراء المماليك ثم قلدهم المناصب العلية وامّرهم على اشراف الامة الاسلامية فكان المماليك هم اصحاب الحل والعقد وفي ذلك توسيد الامر الى غير اهله وتولية السفهاء امور الكرماء فحدث النفور والتباعد بين الناس ثم قويت شوكة المماليك حتى تعدوا على الخلافة نفسها فاستوجب ذلك ازالتها وتفرّقت الكلمة الاسلامية واحتقرت الاحكام الشرعية فاخذ العلم في التقهقر وقل اهله لفقد ما كان له من المزايا واستمر تأخير رجال الفضل من الائمة وتقديم من لا خبرة له بالشرع ولا بتدبير احوال الامة وتصور التمدن الاسلامي بغير صورته الاصلية فان اصله كان موءسساً على العلم والعدل اللذين هما اكبر دعائم الدين

واما التمدن الذي قام مقامه فاساسه البغي والظلم وقهر العباد فبالتمدن الاول كان اجتماع طوائف الامة بالرضى والاختيار لما كانت تستمد منه من الفوائد التي تعم الجميع والافراد من جليل وحقير فكانت الناس منجذبة اليه بالطبع فكان ينمو بالتدريج حتى

كثر العلم والمال وبالتمدن الثاني حصل الفشل والتباغض بينهم وصارت الامة على قسمين حاكم ومحكوم فخصص الاول بالمزايا والرتب وتحصيل الاغراض والشهوات وانساق القسم الثاني في طريق الذل والقهر وتجرد بالتدريج عن مزايا الشرف حتى كاد يلحق بالحيوان البهيمي الذي يتصرف فيه مالكه من غير ان يكون له اختيار ولا يشك احد ان ذلك اكبر اسباب التقهقر فشتان ما بين زمان اقيمت فيه الشعائر واستنارت منه البصائر وكثرت فيه العلوم والمعارف وزمان تعطلت فيه الاحكام وتباغض اهل الاسلام واندرست فيه العلوم ولم يبقَ من الاحكام الا الرسوم والكلام في هذا المعنى طويل وفتح بابه الان لا يفيد

المسامرة (١١١)

القار

ثم استأذن الخواجا من الشيخ في القيام فاذن له وشيعه ثم رجع وتوضا
وقضى ما عليه نفلاً وفرضاً ولكنه لم ينم تلك الليلة فدخل عليه ولده
فقال يابني قد سئمت الاقامة هاهنا واودّ ان نكون خارج البلد
وقد تكلمت مع الخواجا في هذا الامر فاستحسنه فماذا تقول فقال له
ولده الرأي ما رأيت انما اخشى ان يكون المحل بعيداً فيشق عليكم
الحضور الى الدرس فقال له ان هو الاّ يوم في الاسبوع ومع ذلك
لم يصرف الخواجا نظره عن هذا المكان بالكلية فان شئنا اقمنا هناك
وان شئنا اتينا هنا فقال له ولده متى يكون ذلك فقال لم نتفق
فيه على وقت ويغلب على ظني انه يكون غداً لانا متفقون على ان
نذهب بعد ظهر هذا اليوم الى بستان النبات فرأى ابن الشيخ
الوقت واسعاً فقال لوالده اتأذن لي ان اخرج مع يعقوب الى ان
يجيء الوقت فقال له لا مانع ثم قاما ودخلا مكان المائدة فوجدا

الخواجا في انتظارها فاكلوا جميعاً وبعد الاكل اخذ ابن الشيخ بيد يعقوب وخرجا ثم انعطفا على غرفة يعقوب وكان في نفس ابن الشيخ كلام مما سمعه من الخواجا حين كان يتكلم على الغاز ومواد استخراجه وكيفيه الاستصباح به فقال ليعقوب خطر ببالي ان اسال الخواجا عن القار الذي تطلى به السفن فاني رايته حين كنت بمصر ولكني لا اعرف من اي شيء يستخرج ولا من اي جهة يجلب

فقال يعقوب ان القطران والترابنتين مواد راتنجية تستخرج من الشجر ما عدا القار فانه من الارض وهو ثلاثة انواع نوع صلب ونوع مائع ونوع بين ذلك فالاوّل يلين بالحرارة وينماع اذا وصلت الحرارة لدرجة الغليان واما الاخير فيكفي لميوعته ادنى حرارة وتلك المادة بانواعها يخرج منها زيت يقال له زيت معدني فاذا تكرر تصعيده صار نقيًا وصلح للاستصباح به وما بقي بعد التصعيد تارة يكون مادة فحمية وتارة يكون مادة لزجة لينة والثقل النوعي لتلك المادة يقرب من ثقل الماء ولذلك اذا جتمع معه طفا على ظاهره او قريبا منه وله رائحـــة تخصه لا تظهر الاّ عند العرض على النار ومن خواصه انه اذا احرق لا يتخلف له رماد بل تاكله النار جميعه والجامد منه لا يدخل الماء في مسامه ولا يفسد خواصه وهذه المواد تذوب في الكوءل وزيت التربنتينة ولا تذوب في الماء وزعم بعضهم ان هذا المعدن بركاني مكون بين طبقات الصخور التي تكوّنت قديما ويكون في الغالب قريبا من معادن الكبريت .

والجبس ومنابع المياه الحارة المعدنية وزعم اخرون ان
إصله حاصل من المواد الفحمية بفعل شديد أثر فيها
فعزله عنها كما ان اصل الغاز من الفحم الحجري وليس للقار
بانواعه جهة مخصوصة بل يوجد في جميع بقاع الارض انما
منه ما يكون على السطح ومنه ما يكون قريبًا منه وفي بعض
الجهات موجود منه طبقة عظيمة المقدار يؤخذ منها من زمن
مديد الى الان وهي لم تنفد ولعل له مددًا وإن كنا لا نعرفه وبالجملة
فانواعه ومواضعه كثيرة وإن كان المشهور منه في التجارة ثلاثة
انواع كما ذكرنا قار المومياو يقال له قار يهوذا او اسفلت وقار
مالت والزيت الحجري ويقال له باللسان الافرنجي بيترول فالنوع
الاول جامد بطبيعته واذا كسر كان شبيها بالزجاج ولا يذوب
الا بحرارة شديدة تفوق درجة الغليان ويوجد في شواطئ بحر
لوط اي البحيرة الميتة فاذا صعد من قاعها شيء على سطح الماء
وتراكم قذف به الريح الى الشاطئ ويكون في اول الامر لينًا ثم يجمد
بالهوآ ويجمعه الناس ويتجرون به ويخرج ايضًا من جزيرة
بجزائر اللانتي ولكن ما يستخرج من بحر لوط اجود منه وكان
قدماء المصريين يستعملونه في حفظ اجسام موتاهم من البلى
فيغمسون فيه قطعا من قماش ثم يلفون فيها موتاهم وهذا المعدن
يوجد ايضًا باوروبا الا انه قليل الاستعمال فيصنعون منه شمعًا
اسود تختم به ظروف المكاتيب وطلاءً اسود يسمى باسود المومياوالنوع

الثاني وهو مالت ويقال له القار الجبلي اسود اللون ولينه وصلابته على حسب حرارة الجو ولا يجمد الا في اوقات البرد واذا عرض لحرارة الشمس لان وامتد على سطح الارض ومتى بلغت الحرارة ثمانين درجة صار مائعاً وهو كثير الوجود بارض .فرانسا والانكليز وغيرها وقد يخرج في بعض الجهات نقيًا من ثقوب في الصخر كالعيون فتتلقاه الناس بمجاريف وقد يوجد في بعضها مختلطا برمل او تراب فاذا ارادوا تخليصه قطعوه بارضه ووضعوه في قدور مملوءة ماء واوقدوا تحتها حتى تغلي فيرسب ما خالطه ويطفو هو فوق الماء فيوخذ بملاعق ويعمل قوالب كل قالب نحو اربع اوقات ثم يضعونه في براميل وهذا النوع يدخل في امور كثيرة كالالوان والولانيش ويطلى به الخشب والحبال التي يراد استعمالها في الماء لاجل حفظها وقد كثر استعماله الان حتى استعملوه فى الطرق بجوانب الشوارع بمزجه بحصى و رمل فيتحصل عنه موءنة تستعمل في ذلك عوضا عن تحجيرها وكذا في بريقة سطوح المنازل وظهور القناطر وتبليط الحارات عوضا عن الحجر والبلاط فانهم وجدوه في كل ذلك اقل كلفة من التحجير واكبر فائدة وقد بلغ ما يستخرج منه الان بارض فرانسا في كل عام نحو ثلاثة ملايين اقة وقيمة الثمانين اقة منه تقرب من نصف فرنك واما النوع الثالث وهو الزيت البحري او البترول وهو المسمى بالنفط فهو مائع لزج طيب الرائحة احمر اللون ومعدنه

ببلاد فارس بقرب مدينة باكو وفي ضواحي بحر الخزر وفي بلاد ايتاليا في مواضع كثيرة منها وفي جزيرة سيسليا وهي صقلية وفي فرانسا في موضع واحد بالقرب من قرية جابيو ولذا يسمونه زيت جابيو ولا يوجد الا بجوار المياه المعدنية الحارة وقد يختلط بها فيطفو على وجهها كالزيت في الحيضان الطبيعية او الصناعية فيجمعونه ويضعونه في الاواني ويتجرون به ويخرج بالقرب من قرية باكو من بلاد الفرس بخار من الارض تستعمله الاهالي في تسوية الطبخ وذلك الزيت يستعملونه عوضا عن القطران

له خواص طبية فيعملون منه جباير للجروح وللامراض الروماتسمية وفي الباطن لقتل الديدان وغيرها ولكن بعد تصعيده مع الماء والناتج من هذه العملية هو المسمى عند التجار بزيت النفط ويدخل ايضا في اشيا كثيرة من الصنائع ولا يفسد بطول المكث وله حرارة شديدة وضوء عظيم ويعسر اطفاؤه ورائحته كريهة ودخانه كثيف واما كيفية الاستصباح به فقد ذكرها الخواجا فلا حاجة الى اعادتها

المسامرة (١١٣)

المستشفى

فقال له ابن الشيخ اللذة في التنقل فالى اين نذهب فقال يعقوب المنتزهات في هذه المدينة كثيرة ولم ترَ الا القليل منها وبيناهما يتشاوران فيما يذهبان اليه منها اذا بالخواجا موريس الذي كانوا بمنزله منذ ايام دخل عليهما والقى عليهما التحية فرحبا به ثم خص ابن الشيخ بالتحية وسأله عن والده ثم قال له ان حضرة الشيخ وعدني بالزيارة وقد ازداد شوقي اليه هل يمكن الان الاجتماع به لاسلم عليه فقال له اما شوقك اليه فبعض ما عنده واما مقابلته فهو في غرفته فقال لا بد لي من زيارته لاحظى بمفاكهته ومشاهدة طلعته فاين تذهبان فقال له الى منتزه من منتزهات المدينة

فقال اذا كان مقصود كما ذلك فها انا متوجه الى اسبتالية لريبوازير لزيارة حكيمها فان شئتما اغتنمتما فرصة روءيتها ويكون ذلك داعياً للاطلاع على المستشفيات الموجودة في في مدينة باريز والمارستانات بمساعدة حضرة الحكيم صاحبنا

فقال يعقوب هذا الرأي اوفق ووافقه ابن الشيخ فساروا جميعا الى ان وصلوا الى باب الاسبتالية فشد الخواجا زرّا من النحاس الاصفر مثبتا في الحائط بقرب الباب فحرّك جرسا عند مجلس البواب فجاء وفتح الباب وادخلهم واجلسهم في محل معد لمثل ذلك ثم قال الخواجا موريس للبواب اريد زيارة الحكيم واعطاه تذكرته كما هي العادة عندهم فذهب من فوره ثم رجع يقول ان حضرة الحكيم ينتظركم فقاموا جميعا الى محله فقابلهم من الباب ثم اخذ بيد الخواجا موريس وسأله عمن معه فعرفه بابن الشيخ ويعقوب فرحب بهما وحياهما ثم طلب لهم كراسي وقهوة فجلسوا وشربوا وبعد لحظة قال له موريس نريد ان نرى الاسبتالية فقال حبًا وكرامة وقام وادخلهم حوشًا متسعًا مستطيل الشكل فيه شجر قسم تقسيما حسنًا الى ثلاثة بساتين في البستان الوسط منها حوض ماء في وسطه فوّارة تقذف الماء الى ارتفاع عظيم فتسمع لها نغمات لطيفة تشبه نغمات الموسيقا ناشئة عن اختلاط صوت الماء في نزوله في الحوض مع صوت عبث الرياح بغصون الاشجار وتغريد الاطيار فقال يعقوب يخيّل لي انهم ما اختاروا هذا الموضع الجميل الحسن

الآ لترويح المرضى وتسلية افئدتهم عمّا بهم من الالام واثار الاسقام ورأينا ان من دبت فيهم النقاهة والصحة يتمشون بين الاشجار مقبلين ومدبرين وحول الحوض مصاطب وكراسٍ يجلسون عليها وفي دائر ذلك الحوش عنابر المرضى وعددها ستة في كل عنبر اثنان وثلاثون سريرًا وفي اخر كل عنبر ادبخانه ومحل للخدمة الذين يقومون بمصالح المرضى وبين كل عنبرين فضاً ظلل بالشجر لاجل تنزه المرضى وعدم سريان الامراض من عنبر الى اخر وفي الضلع الاصغر من الحوش حمام وكنيسة ومحل لغسل ثياب المرضى وتغسيل من يموت منهم وعند باب الدخول مجال الحكما والادارة والكتبخانة وغير ذلك فكانوا كلما مروا بعنبر عرّفهم الحكيم بمن فيه وبالداء وبالدواء الذي يناسبه

المسامرة (١١٣)

التبغ

وفي جولانهم بين العنابر شاهدوا مريضا قد اضناه المرض ونهك جسمه وكساه ثوب النحول والصفرة وهو باهت محمرّ العينين وله انين وتشنجات شديدة تكاد تفضي به الى العدم ورأوه يكثر من التثاؤب والقيء فامعن ابن الشيخ النظر اليه ورق لحاله وبعد ان طافوا بالمحل كله رجع بهم الحكيم الى محله فلما استقر بهم المجلس سال ابن الشيخ عن مرض هذا المريض الذي لم يغرب عن باله لما رای من سوء حاله فقال الحكيم ان اس مرض هذا الرجل هو استعمال الدخان فان له انكيابا زائدًا على مضغه فتولد له منه هذا الداء العضال

فقال ابن الشيخ الحمد لله الذي انعم عليّ بوالدي الذي رباني على عدم استعمال الدخان حتى نشاءت على كراهته فلا اطيق ان اشرب منه مصة واحدة فقال الحكيم عهدي بالشرقيين انهم يشربونه ولهم به ولع زائد فقال ابن الشيخ نعم الاّ ان شربه ليس محمودًا

فقال يعقوب رايت في بعض الكتب النهي عن شربه ويقال ان به مادة سمية تضر بالصحة وربما ادّت الى الموت فقال الحكيم ان الكيماويين بعد امتحانه قالوا ان فيه مادة سمية تسمى النيكوتين وهو مائع لا لون له متى كان في انابيب مقفولة ويتلون بما للون السنجابي اذا لامس الهواء ورائحته كريهة وطعمه لذّاع ويكون في الدخنة التي يبتلعها الانسان وهي من السميات الشديدة وان قال بعضهم ان هذه المادة انما طرأت له من الاعمال التي تعمل فيه بالمعامل فليس الامر كذلك بل هي من نفس النبات وتلك المادة في دخان النشوق اكثر منها في الدخان المشروب كدخان السجارة والذي اعلمه ان هذه الشجرة وان عم الارض زرعها وكثر في الممالك ريعها لم تظهر ببلادنا الاّ بعد القرن السادس عشر من الميلاد واظن انها كانت موجودة عند الامريقيين من قديم الزمان

ويؤيد ذلك ما قالوه من ان كرستوف كولنب ارسل بذرها من بلاد الامريقا وقت استكشافه لها الى بلاد البرتقال فزرعوه ومن ذلك الوقت صارت تكثر شيئا فشيئا الى الان

فقال الخواجا موريس للناس في استعمالها كيفيات منهم من يدقها ويستنشقها ومنهم من يقطع ورقها قطعا ثم يمضغها ومنهم من يفرمها ثم يشربها في شبكات ومنهم من يلفها سجارات ثم يشربها وبالجملة فلو تتبعنا اهل الارض لوجدنا من يتعاطاها اكثر ممن لا يتعاطاها ألا ترى اهل اوروبا واكبابهم عليها مع انهم لم يعرفوها الاّ منذ قرنين اي بعد القرن السادس عشر وقيل ان بذرها اهدي الى الملك شرلكان سنة الف وخمسمائة وثمانية عشر وانه لم يزرع بارض البرتقال الا سنة الف وخمسمائة وثمانية وخمسين ولا بارض فرانسا الا سنة الف وخمسمائة وستين والذي جلبها اليها سفيرها بالبرتقال وذلك ايام الملكة كاترين دوميديسي فلما زرع واهدي منه اليها اشتهر واتبعته الخلق واخترعوا له فوائد حتى قالوا انه شفاء من كل داء

فقال ابن الشيخ قرأت في بعض التواريخ ان اول دخوله في ارض الدولة العلية كان في سنة الف وستمائة وخمس للميلاد زمن السلطان احمد القانوني جلبه الفرنج الى القسطنطينية فتعلم الناس شربه وتولعوا به فافتى المفتي بعدم جواز شربه فهاج الناس وماجوا ولم يلتفتوا الى الفتوى واستمروا على شربه فلم يشدد عليهم بعد ذلك وفشى امره حتى صار الان يشربه النساء والرجال

وكما تسمى تلك الشجرة الدخان تسمى ايضاً التبغ بمثناة فوقية

وموحدة تحتية ثم غين معجمة واحفظ لبعضهم بالنسبة لاسم التبغ شعرًا

بدت في سمآ الطب نزهة وامق
فذان لها طوعا شعاع الشوارق
فتاء وباء ثم غين هجاؤها
فدونكها نفّاعة للخلائق

الى ان قال

لها قوة تنفي قوى كل بلغم
وتذهب بالصفرآ في لمح بارق
وتذهب اخلاط الدماغ بشمها
وتفتح للسودآء باب الخوانق
وفيها شفاء للسموم جميعها
وافعالها في الهضم فعل الخوارق
وفيها دوآء لست احصر عده
وكم حكمة فيها وكم من مرافق

فقال الحكيم بعد ان سمع ترجمة هذه الابيات قد كاد الناس يعتقدون في مبدأ امره انه علاج لامراض شتى وليس الامر الان كذلك فقال موريس ان هذه الشهرة كانت السبب في الاكثار من زرعه والان صار يزرع كثيرًا بمملكة فرانسا ومملكة البرتقال وبلاد المجر والالمانيا والنمسا وبلاد الموسكو وارض مصر والشام

والصين والامريقتين وجزائر كثيرة من جزائر المحيط وقد رأيتهم حين سياحتي بامريقا الشمالية يتخيرون لزراعته اطيب الارض واقواها واكثرها زبدًا واكثرها ربًا و يسبخونه بمقدار وافر من السباخ وفي بعض الجهات يزرع في الارض التي نزل عنها ماء النهر لانها تكون مغطاة بطبقة من الطمي تشتمل كثيرًا من البوتاس وفي اخرى يزرع بسفح الجبال في ارض مخصوصة واوان زرعه عندهم شهر مايه الفرنجي ويزرع سنويًا وزهره تارة يكون احمر ورديًا وتارة اخضر وتارة ازرق فاذا بدا صلاحه واصفر ورقه جمعوه شيئا فشيئا وجففوه بالقائه على الارض مدة ثم يجمع ويكمل تجفيفه تحت سقائف ثم يربط حزما ويباع بهذه الصورة ورأيت في اطرافه ابراجا وفيها بذره فاذا نضج وتم صلاحه اخذوه وحفظوه الى اوان زرعة فيبذرونه في الارض بالنقرة وكمية التقاوي لكل ثلاثة عشر مترًا ملعقة صغيرة ويصبرون عليه نحو شهرين ثم يقلعونه و ينقلونه للارض التي تخيروها له ويسمى المنقول قبل نقله زريعة وبعد نقله بلغة اهل الفلاحة شتلاً ومن العادة انه قبل جمعه بستة اسابيع يقشر ورقه القريب من الارض الى ارتفاع قدم وفي بعض الجهات يصل ارتفاع النباتة منه الى مترين او قريب من ذلك

ورأيت في بعض اوراق حوادث سنة الف وثمانمائة وتسعة وخمسين ان بفرانسا اربعة عشر فوريقة باسم الدخان خاصة موزعة في مدينة باريز وغيرها وان بها من العمّال نحو خمسة عشر الف

نفس وانه يستخرج من تلك الفوريقات في كل سنة من ذلك الصنف ما ينوف على ثمانية وعشرين مليونًا من الكيلوجرامات وان ايراد الحكومة من ذلك في تلك السنة نحو مائة وثمانية وسبعين مليونًا من الفرنكات فانظر ما بين وقتنا هذا وبين زمن لويز الثالث عشر الذي منع في ايامه شرب الدخان وبيعه الاّ للاجزاخانات وتوعد كل من باعه لغيرها او شربه بالعقاب الشديد وكان ذلك في سنة الف وستمائة وخمس وثلاثين

واما المتحصل منه ببلاد النمسا فيقرب من سبعة وثلاثين مليونًا من الكيلوجرامات وكله يرد الى الحكومة لانها هي المتصرفة فيه دون غيرها كما هو جار ببلاد فرانسا فتشتريه من الاهالي بنحو مليون ونصف من الفرنكات وتجمعه في الفوريقات وتصنع به ما يلزم له ثم تبيعه على ذمتها وقد اتسعت زراعته في ارض البروسيا حتى بلغت فوريقاته الان بها نحو سبعمائة وعشر فوريقات وفيها من الشغالة خمسة عشر الف نفس وبلغ قيمة ما يخرج منه كل سنة من بلاد الايتازوني من الامريقا ما تبلغ قيمته نحو مائة مليون وعشرة ملايين من الدولار والدولار عبارة عن خمسة فرنكات

وقد احصوا ما يخرج من جميع كرة الارض من هذا الصنف في كل سنة فوجدوه يقرب من اربعمائة وخمسة وتسعين مليونًا من الكيلوجرامات من اسيا مائة وخمسة وتسعون مليونًا ومن اوروبا مائة واربعون ومن امريقا مائة وثلاثون مليونًا ومن افريقا اثني

عشر مليونا

واما الدخان المصري فلا اعرف قدر متحصله فقال ابن الشيخ هذا النوع يزرع عندنا كثيرا الا ان عوده قصير وورقه صغير ولا يشربه الا الفقراء ونحوهم من اهل القرى وقد ظهر الان عندنا نوع يشرب في النرجيلة يسمونه التنباك يقولون ان في شربه فوائد

فقال الخواجا موريس انواع الدخان كثيرة واختلافها باختلاف البلاد التي تجلب منها فالذي يجلب من بلاد الفلمنك مقبول في النشوق لمزارته والذي يزرع ببلادنا لا حصر لانواعه فمنه ما يكون ورقه عريضا ورائحته كرائحة جوز الهند ومنه ما يكون ورقه طويلاً قليل العرض ورائحته كرائحة النوشادر وهو ما ينبت في الجهات الشمالية من المملكة ومن الوارد من الجهات الاجنبية ما يكون له رائحة طيبة مثل دخان هوانا والورجيني وغير ذلك

فقال الحكيم قد كثر كلام الحكماء قديمًا وحديثا في شرب الدخان فمنهم من يقول بضرره ومنهم من يقول بعدم ضرره والذي اقول به انه لا يخلو من فائدة وانما يجيء الضرر من الافراط في تعاطيه

وكيفيات استعماله ثلاث الاولى الاستنشاق به ويحصل منه تهيج للغشا المخاطي ويكثر افراز المواد المخاطية ويكثر العطاس وربما حصل من قوة العطاس تمزيق لبعض الاغشية ويحدث رعافا ويحول قبة العين والاكثار منه ربما يذهب حاسة الشم ومن

فوائده أن من تعوّد عليه خف نومه وأمن من الصداع ووجع العين والاسنان

الثانية شربه في السجاره يكثر اللعاب ويعقب ذلك التخدير وضعف الهضم وربما حصل منه استفراغ ودَوَخان فان تركه متعاطيه زال ذلك بعد زمن يسير وان رجع اليه رجع كل ذلك وهناك اشخاص لا يمكنهم تعاطيه اصلاً

ومن المشاهد ان من اكثر منه تشقق سقف حلقه وقال بعضهم ان شربه يورث لينا في الغشا اللعابي في الشفة واللسان وانتفاخا خفيفا في الحلق ترشح منه مواد مضرة تهيج طاقات الانف فتارة تسقط في الحنجرة وتارة تخرج من الانف مخاطا قذرًا وقال بعض الحكماء ان شربه يؤثر في العينين ويهيجها اكثر من تهيجها من دخنته في الخارج ولذلك يرى شارب الدخان عقب قيامه من النوم دامع العينين محمرها ويحس فيها بحرارة والمكثرون منه يحسون بالم في جباههم والمكثرون من البصاق تضعف عندهم قوة الهضم والتغذي وبعضهم يقول انه يحصل من مائه المختلط بالدخان المبتلع التهاب وتهييج للمعدة وقد شاهدت بعض المرضى لا يستقر الطعام في جوفه وكان ممن ابتلي بشربه فيتعاطى سجارات كثيرة بعد الاكل فنهيته عنه فبرىء

ومن آفاته عند المكثرين منه تأثيره على الحنجرة والرئتين فينشأ من ذلك غلظ الصوت والسعال ونقص ضربات القلب

وخلل انتظامها وضعف الفكر وارتعاش الايدي واصفرار اللون وسواد الاسنان وزرقة الشفتين وفتور الاعصاب

والثالثة مضغه وذلك بوضعه تحت الاسنان فيخرج من الضغط عليه مادة لذاعة تختلط باللعاب وتدمي اللثة وقال بعض الحكماء انه ينقص العقل وليس كذلك وانما تخلف من مضغه نكهة خفيفة تزول بالمضمضة الا انه يضر باللسان وبالاسنان لاتلافه ثوبها الظاهر الحافظ لها ويضر بحاسة الذوق وربما آل الامر الى فقده وبلع عصارته اشد ضررًا وقد رايت رجلاً من اللاحين في الم شديد وتشنجات بعد بلع مضغتهِ وكان يقيء ويتثاءب كثيرًا فخلصته من ذلك بعد زمن ولو تتبعنا ما قالوه في الدخان نفعا وضررًا لاتسع المجال فمن ذلك انهم يقولون انه يسرع الهضم وانه امان من داء الاسكوربوط ووجع الحلق وانه مفسد للعقل ولكن ليس ذلك في جميع احواله بل متى كان تعاطيه في الهواء الخالص من غير افراط فلا ضرر منه سواء كان شربا او مضغا او استنشاقا

ومن المعلوم ان استعماله في جميع الجهات وانكباب الناس عليه علامـــة على انه مخفف للهموم والوحشة وانيس في العزلة ومساعد على تحمل مشاق الفقر والفاقة فلذا ترى اهل الصحاري الواسعة وسكان الجبال الشامخة وارباب الاعمال الشاقة والافكار العالية مشتركين في تعاطيه فحينئذٍ لا يطلق القول بمدحه او ذمه ولا عبرة بما قاله الكيماويون ونرى المشرقيين لا يفارقون الشبوق

حتى ان الدولة العثمانية وجميع اهل الثروة والرفاهية قد جعلوا له غلمانا من خواص خدمهم وسموهم التتنجية نسبة الى التتن اسم للدخان غير عربي

فقال ابن الشيخ قد يقرب من تاييدك في الدخان بيتان احفظهما لبعض العلماء وقد عيب عليه شرب الدخان قوله

لقد عيرونا بالدخان وشربه
فقلت دعونا اذ له الامر احوجا
لانا رأينا الهم في قاع صدرنا
كمينًا فدخّنا عليه ليخرجا

فقال الحكيم قد اصاب القائل ورايت ان بعض من ابتلي به من الكيماويين استحسن استعماله في الشبكات الطويلة ليبقى النيكوتين في المواضع الباردة من العود بخلاف الشبكات القصيرة فان تلك المادة تكون قريبة من الفم وكذلك استحسن شربه جافًا ونهى عن استعماله مبتلاً قال لان النيكوتين في الحالة الاولى يتحلل بالحرارة بخلاف الحالة الثانية لان الرطوبة تمنع استحالته فيكون مع البخار ولذا نرى من يشربه يتأثر من المبتل اكثر من الجاف ثم قال ويجتنب تعاطيه على الريق وقبيل الاكل ويغسل الفم بعد شربه اما بالمـاء الخالص او الممزوج بقليل من ماء الملكة

وينبغي لمن يشرب السجارة ان لا يتجاوز نصفها لان جميع

النيكوتين ينزل الى النصف الثاني ومن اراد ان يشربها بتمامها
فليتخذ له فما من كارم او عظم اوعاج ويتجنب شرب سجارة شرب
بعضها وتركت زمناً وذلك لانه يقال ان مادة النيكوتين فيها
حينئذ كثيرة فكذا تكون في المرة الثانية مرة عن المرة الاولى

وقد ذكرنا ان طوال الشبكات والنرجيلات احسن من
قصارها واردأ الشبكات ما اتخذ من الطين لان تلك المادة اسرع
فيه وصولاً الى الفم منها في غيره

فقال موريس للحكيم انا اكثرنا عليك واشغلناك عن مهاتك
وقد افدت واجدت واني كنت قد وعدت اصحابنا بان اخذ
لهم من حضرتكم تذاكر يدخلون بها الاسبتاليات فقام مسرعا
وانجز وكتب لبعض حكماء الاسبتاليات خطابا اطنب فيه في
الوصاية بهم فاخذوه وقاموا فلما استاذنوا للقيام قال لابن الشيخ
اني وان لم اكن عربيا لكني محب للعرب لا سيما المصريين واود
ان ارى والدك فاثنى ابن الشيخ عليه خيرا وشكره على ما استفاده
منه ثم ودعوه وخرجوا فلما استقاموا في الطريق قال ابن الشيخ
ليعقوب ليتنا راينا معامل الدخان فقال له ذلك امر سهل الا
ان الوقت قد ازف فان ميعاد الرجوع قبل الزوال فقال له
وهل سبق لك دخولها قال نعم ولكن في غير هذه البلاد والطرق
كلها واحدة وقد رايت الذين يزرعونه يعتنون به اعتناء زائداً
وبعد حصاده يخلصون ورقه من حطبه ويضمون بعضه الى

بعض بعد جفافه ويضغطونه ضغطا قويا ويكبسونه كبساً
شديدًا ويجعلونه بالات لئلا يكون حجمه كبيرًا ثم يبيعونه كذلك
او يرسلونه الى الفوريقات ولهم فيه هناك ثلاثة اعمال الاول
فرزه وتنظيفه والثاني تنديته بالماء المالح لاجل تليين الورق وعدم
تعفنه والثالث تنقية جدوره واضلاعه الكبيرة منه والتندية تكون
في مخازن مبلطة بالحجر ومنقسمة الى اقسام فيوضع الدخان
فوقها طبقات قليلة السمك ولهم في تنديته حساب على حسب ما
يريدون ذلك انهم يسخنون له ماء مالحا ويجعلون تسخينه درجات
بحسب اجناسه فيضعون على كل مائة من دخان النشوق واحدًا
وعشرين من الماء المالح الذي تكون حرارته في الدرجة الثانية
عشرة وعلى كل مائة من دخان المضغ عشرين وعلى كل
مائة من دخان السجارة ثمانية وعلى كل مائة من دخان
الشرب ثمانية وعشرين من الماء الذي حرارته في سادس
درجة

وانواعه من حيث الاستعمال اربعة النشوق والمفروم والمضغ والسجارة
فامادخان السجارة فتستعمل فيه النسا فتلف المرأة بين اصابعها الاوراق
الصغيرة وتكسيها بورقة خالية من التقطيع والجدور واما دخان
الشرب فيفرم بآلة بخارية ثم يجفف بوضعه في صفائح مجوفة ثم يمر عليها
بخار حار ثم اقل منه حرارة ثم يجعل ربطًا صغيرة من عشرة كيلو
الى خمسة اعشاره واما دخان النشوق فعمليته اصعب لانه يحتاج

الى اختبار النوع الموافق ثم يفرم ناعما ثم يوضع في مخازن كيانًا
ارتفاع كل كوم نحو اربعة امتار وعرضه الف كيلو جرام ويترك
هكذا نحو ثلاثة اشهر الى ان يختمر وتبلغ درجة حرارتهِ من
ستين الى ثمانين درجة ويتصاعد منه ابخرة شديدة الرائحة غير
معلومة يظن انها نشادرية او نيكوتية وهي المادة السمية التي ذكرها
الحكيم واقواه تخمرًا ما كان في الزوايا وتحت السطح الاعلى
بنصف متر واقله تخمرا ما كان على بعد متر من القاعدة ويكون
معدوما في القاعدة وللجو دخل في تخميره واستوائه فيتقدم ويتاخر
على حسب درجة الجو حرارة وبرودة فاذا اشتدت الحرارة في
الكيان جعلت اكواما صغيرة لئلا تحترق وتثبت حرارته بعد خمسة
اشهر او ستة وبعد ذلك ينقلونه من مواضعه بعمال معتادين
على ذلك لانه يقوم له رائحة كريهة ودخان كثير في ذلك الوقت
وبعد تمام تخميره يسحق في طواحين مخصوصة ثم يخمر ويسحق
ثانيًا وثالثا فيصل الى الدرجة المرغوبة في النعومة ويكون قدر
الرطوبة فيه ثمانية عشر في المائة ثم يوضع في مخازن غير الاولى
ويكبس فيبقى هكذا نحو عشرة اشهر لا يصل اليه هواء فتعود له
الرائحة والدخنة والحرارة فان خيف عليه من تاثير الحرارة نقل الى
مخازن اخرى ولا يخفى ما في هذه الاعمال من الصعوبة على العمال فانه
بسبب نعومته يمتلىء منه فراغ المحل فيدخل في العين والانف
والحلق فيحصل منه لهم مضايقات شديدة وغالبا تكون ثقلاته

ثلاث مرات وتارة يكتفى بمرتين فيتكون عن ذلك تشوق على درجات مختلفة على حسب اختلاف الرغبة فيه ويقال ان تخميره وتكرار نقله مما يضعف مادته السمية فلا يحصل منه ضرر لمتعاطيه وبعد هذه الاعمال كلها ينخل وكان اولاً ينخل بالايدي واما الان فبآلة بخارية وبعد نخله يخزن في المخازن ثم يعرض للبيع

واما دخان المضغ فعمليته اسهل من ذلك وهو جنسان عاديٌّ وخصوصي فالاول عبارة عن حبال تفتل من اوراقه بآلة مخصوصة والدخان المستعمل في ذلك اقل جودة من الخصوصي الذي ينقى من جميع عوارضه ويجعل طبقات هذا اجمال ما يعمل في الدخان وان كان الخبر ليس كالعيان فهل له بمصر شان كما له هنا

فقال ابن الشيخ وما شانه هنا فان غالب الناس بهذه البلاد لا يشربون الا السجارة وقل من يشرب في شبك وان وجد فقصير لا يزيد عن شبر ويا ليته من خشب بل من طين

والدخان الذي يشرب عندنا يجلب من الشام لا من هنا وهو نوعان صوري وجبلي وهو اطيب نكهة واذكى رائحة من الصوري وان كان الصوري اقوى منه نفساً فمنهم من يشرب كلاً على حدته ومنهم من يفرمهما معاً وقد حدث الان نوع يقال له الكوراني يقال انه اقوى من الصوري وهناك دخان يقال له (حسن كيف) ولكن هذا لا يشربه الا حرافيش الناس واسافلهم وهناك نوع يشربونه في النرجيلة يسمونه التنباك وهو نوعان عجمي

وحجازي ويقولون ان العجمي احسن كيفًا من الحجازي والان شربه بمصر على حسب درجات الناس رفاهية ورغبة فمنهم من يشرب في نرجيلة محلاة بالذهب والفضة ومنهم من يتخذها مرصعة بالجواهر ومنهم من يجعل انبوبتها من القصب الفارسي ومنهم من يجعل لها ربيج (ليًا) قد امسك بسلك من نحاس وفي طرفه فم من خشب او عظم او كارم ومنهم من يكسوه بجوخ ومنهم من يكسوه بحرير زركش بذهب اوفضة وكذلك الشبكات منهم من يتخذها من ياسمين ومنهم من نشرب في عيدان من كريز ومنهم من يشرب في عيدان من الجرمشق مكسوة بالحرير او غيره ويتخذون مباسم تسمى تراكيب منها الكارم الصرّف ومنها الكارم المرصع بالجواهر كالماس ونحوه ومن المترفين من يكسوها بالحرير المنظوم في اللوءلوء والمرجان كل علي حسب رغبته ودرجة رفاهيته سواء في ذلك الرجال والنساء ومن اعتناء المشرقيين بشرب الدخان يجعل له بعض الاغنياء خدَمة خاصين به

فقال يعقوب اظن ان تولع المشرقيين بالدخان واعتناهم به هو السبب الاعظم عندهم في الاكثار من العبيد والخدم والجواري ولقد طفت البحار وجبت القفار فما اجتمعت بقوم الاّ وجدتهم يشربونه او يمضغونه او ينشقونه فما قدر لي ان اتعاطى شيئًا منه خصوصًا لما رأيته من حال رفقتي الذين يتعاطونه من الفاقة وسوء الحال وربما كان بعضهم يبيع ثيابه وبعض ما يحتاج

اليه ويصرف ثمن ذلك على هذه الشجرة فانصحك نصيحة اخ مشفق ان لا تشربها ولا تقربها

المسامرة (١١٤)

البنّ

فقال ابن الشيخ اما الان فانا على يقين من كراهتها واما في المستقبل فلا ادري ما يقدر عليّ واخشى ان طالت بنا الاقامة هاهنا ان تغلب الموافقة على الطبع وتقلب المعاشرة الوضع ولقد اخبرني والدي انه لم يتعاطَ النشوق الا للاستعانة على السهر في طلب العلم ثم لما تمادى به الحال لم يمكنه تركه وكذلك القهوة فانه

ايضًا اعتاد شربها وانكبّ عليها انكبابًا زائدًا فكان من شدة حبه لها ونحن بمصر يطلبها قبل النوم ثلاث مرات فضلاً عما كان يشربه طرفي النهار ووسطه وفي كل مرة لا اقل من ثلاثة فناجين او اربعة فقال يعقوب فما له هنا ترك هذه العادة واقلل من شربها فقال سببه رداءة البن هنا وضعف نكهته بخلاف بن مصر فانه جيّد مجلوب من اليمن ولا يرد اليها من بلاد الفرنج الا القليل ومن يشتري البن الفرنجي لا يقصد به الا الغش حتى ان من يعرف به من القهوجية عندنا يقف حال بضاعته

فقال يعقوب ان شجرة البن ايضًا عمّت بها البلوى في جميع الجهات وصارت من المكيفات التي لا يمكن الاستغناء عنها عند كثير من الناس وقد رأيت في كتب المؤرخين ان هذه الشجرة كانت معروفة عند اليونان والعبرانيين وذكروا انها تنسب الى البلاد الحارة كبلاد الحبشة والعرب وانه لم يظهر استعمالها ببلاد المشرق الا سنة ثمانمائة وخمس وسبعين من الميلاد اي سنة مائتين واثنين وستين من الهجرة وان اول ظهورها كان باليمن ثم ظهرت ببلاد الهند ثم باوروبا ثم بامريقا ولم تظهر بايتاليا الا سنة الف وستمائة وخمس واربعين ميلادية وبلوندرة الا سنة الف وستمائة واثنين وخمسين وبمرسيليا الا سنة الف وستمائة وواحد وسبعين وبباريز الا في سنة الف وسبعمائة وسبع وستين

وفي القرن الثامن عشر ايام الملك لويز الرابع عشر اهدي اليه

شجرة بن من مدينة امستردام فاستنبتها فلما طلعت وازهرت ارسل منها الى جزيرة مرتينيك ثلاث شتلات لتزرع هناك فمات اثنتان منها في الطريق وسلمت واحدة فغرسوها فلما أثمرت اخذوا منها وزرعوا فلما اثمرت اخذمنها اهل جزيرة جوادلوب وجزيرة سندومنك الى ان ملأت اشجار البن اكثر بلادهم وصارت من انفس تجاراتهم ولولا ذلك لعزت حبتها وغلت قيمتها

ولقد رأيت في بعض جرائد الحوادث ان المتحصل منه في سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين مائتان وخمسة وستون مليونًا كيلوجرامًا

وبيانه من بلاد البريزيلا مائة وثلاثون مليونا ومن بلاد جافا خمسة وخمسون مليونا

ومن جزيرة سيلان اي سرنديب سبعة عشر مليونًا

ومن جزيرة هايتي ستة عشر مليونًا ومن جوايرا خمسة عشر مليونًا ومن كوبا اربعة عشر مليونا ومن سومترا خمسة ملايين ومن كوستاريكا مليونان ونصف مليون ومن جنوب مخا مليونان ونصف مليون ومن جزائر اللانتي الانكليزية مليونان ونصف مليون ومن جزائر اللانتي الفرنساوية والهولاندية مليون ونصف ومن مانلي مليون واحد ونصف ومن بلاد افريقا وغيرها ثلاثة ملايين فترى البن اليمني وهو بن مخا قليلاً جدا وهو اطيب انواع البن والذها واكثرها مادة

وقد احصي البن المشروب سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين
فبلغ ٣٤٬٥١٨٬٥٠٠ كيلوجراما في بلاد الانكليز والمشروب في
تلك السنة بعينها ببلاد فرانسا ٢٧٬٩٨٥٦٠٠ فما بالك بغيرهما من
بلاد الدنيا فانك لا تكاد تجد مدينة ولا قرية ولا حلة ولا كفرا
ولا عزبة في الدنيا الا ولاهلها شغف بشرب القهوة الا انها لا يصلح
لزرعها ولا نمو شجرتها الا الارض البعيدة عن البحر المحفوظة من
هوائه المعرضة لجهة الشرق التي لا تزيد حرارة جوها على ثلاثين
درجة ميئنية ولا تنقص عن عشر درجات وكيفية زرعها ان
تزرع الشتلة في ارض جيدة اولاً فلا تنبت الا بعد خمسة اسابيع
ثم تنقل بعد سنة او اربعة عشر شهرًا فاذا نقلت جعل بين كل
شجرتين ثلاثة امتار ويخالف بين اشجار الصف الاول واشجار
الصف الاخر بحيث تكون شجرة الصف الاول مسامتة للمتصف
بين اشجار الصف الاخر ولا تثمر اشجاره الا بعد ثلاث سنين او اربع
ويلزم لها الاستمرار على الخدمة بالسقي والتنقية فانها تحتاج الى
شرب الماء كثيرًا وما دامت مخدومة فلا تزال تثمر الى ثلاثين عامًا
او اربعين وزهرها وان كان لا ينقطع في اكثر السنة الا ان المعوّل
عليه زهر فصلي الربيع والخريف ولا ينضج الحب الا بعد سقوط
الزهر باربعة اشهر فاذا نضج جمع بالايدي وفي بلاد العرب من
يفرش له تحت الشجرة ثيابا او حصرًا ثم يهزها فيسقط منها على الفرش
ما طاب فيجمعونه ويتمون تجفيفه في الشمس وله مدقّات من

خشب او حجر فاذا جف دقوه بها فيخرج من جوزه ثم ينشرونه في الشمس ثانيًا وهناك من يستعين على فصله من جوزه بالماء فيضعه فيه يومًا وليلة او يومين وليلتين ومنهم من يدشه بالرحى وبعد ذلك كله يجففونه ثم يضعونه في طرود وزنابيل يجعلونها متباعدة غير متجاورة لئلا يتعفن البن بتجاوره فتقل جودته وتخبث نكهته وكذلك يفعلون في نقله الى الجهات والاقطار البعيدة

واما تحميصه وسحقه ووضعه في الماء او صبّ الماء عليه وغليه بالنار عند ارادة شربه فمعلوم عند كل من يتعاطاه كل على حسب رغبته فمنهم من يبالغ في تحميصه ومنهم من لا يبالغ ومنهم من يسحنه في مسحن من فخار بآلة من خشب ومنهم من يدقه بمدقة من حديد ومنهم من يطحنه بيده في طاحونة ويتغير طعم القهوة ولذتها تبعًا لطرق التحميص والعلامات الدالة على جودة استواء تحميصه هي نقص الرائحة التي تظهر في مبدأ التحميص ونداوة الحب ولمعانه وميله الى لون بين السواد والحمرة وبالتجربة علم ان الحبة بعد السواء يزيد حجمها بقدر الثلث وينقص وزنها بقدر الخمس واذا بلغت استواءها وسحقت في الحال صارت القهوة جيدة وكلما تأخرت نقص ذلك منها واذا مكث البن زمنًا في المخازن ضاع كثير من مزاياه وبن مخا تضيع اكثر خواصه بعد سنتين واما غيره فينبغي ان يكون مكثه في المخازن سنة فان اقام اقل من ذلك كانت قهوته شديدة المرارة كريهة الرائحة وان بقي اكثر من ذلك كانت

اشهى واجود ومما يلزم التنبيه عليه انه ينبغي سرعة تبريد البن بعد التحميص بان يفرغ دفعة واحدة على رخامة وما اشبهها وذلك لاجل ان لا يتبخر مقدار كبير من الدهن الذي هو السبب في جودته ولذته وكذلك لا يصب الماء المغلي على المسحوق منه لئلا يتصعد كثير من بخار القهوة وتضيع اكثر مزاياها وللناس كلام في شرب القهوة فمنهم من ذمّها ومنهم من مدحها والانصاف التفصيل بحمل كلام من ذمها على الاكثار منها وكلام من مدحها على التقليل

قال ابن الشيخ واختلف فيها ايضا علماء الشريعة الاسلامية بالجواز وعدمه والحق انها يعتريها الاحكام بحسب ما يترتب عليها

المسامرة (١١٥)

الانهر

ثم انهما تذكرا الوقت المقدر لهما فكرّا راجعين فلما دخلا على الشيخ والانكليزي قال لهما الخواجا لقد تجاوزتما الوقت المقدر لكما

فما ابطاءكما فاخبراه بتقابلهما مع الخواجا موريس وما صنعه معهما من
توجهه معهما الى الحكيم واخذه منه خطابا لحكماء الاسبتاليات فقال
لهما الخواجا قد اصبتما وفعلتما فعل العقلاء ونحن الان متوجهون
الى بستان النبات ثم امر بالعربة فركبوا جميعا الى ان وصلوا الى
قصر الملك فقال الخواجا للشيخ هاهنا طريقان احدهما من وسط
البلد من الحارات والاخر على شاطئ النهر ولكل مزية فايهما احب
اليك فقال الشيخ اظن ان الذهاب على شاطئ النهر اشرح للصدر
واجلى للبصر فاشار الى السائق بتوجيه العربة اليه وكان بالطريق
قنطرة فلما جاورها عدل بالعربة الى الشاطئ وقال الانكليزي
ان البلدة التي سنسكنها هي بشاطئ النهر وبعدها من باريز يوم
في البحر ونصف ساعة بسكة الحديد فخيّر الخواجا الشيخ بين النزول
في البحر وركوب سكة الحديد فاختار طريق البحر لما فيها من
الاطلاع على الفوائد الجمة بخلاف سكة الحديد فلا يطلع معهـا
على شيء فركبوا البحر في مركب تسر الناظر وتشرح الخاطر ثم ان
الشيخ كلما التفت يمينا رأى منازل مشيدة وتحتها دكاكين وخانات
منظمة ملئت باصناف البضاعة وكلما التفت يسارًا نحو النهر رأى
اناسا كثيرين ما بين بائع كتب واوراق حوادث وبائع لعب
اطفال ودفاتر سجارة وما يشبه ذلك منهم من وضع بضاعته على
الارض ومنهم من هيأ لها دكاكين من خشب واذا نظر الى البحر
لا يرى الا مراكب صادرة وواردة لا يرى الماء من خلالها لكثرتها

فقال كنت وانا بمصر اذا رأيت المراكب التي علي سواحلها اعجب من كثرتها والان لا اعدها شيئا بالنسبة لما اراه هنا فقال الخواجا ومع ذلك ما تراه ليس شيئا بالنسبة لما يرد ويصدر بسكة الحديد وذلك لان باريز صارت الان مخزنا عاما لكل ما يلزم لسائر الجهات

فقال الشيخ وهل بفرانسا نهر غير هذا فقال انهارها كثيرة احدها نهر السين وهو هذا وليس هو معدودًا من الانهر الكبيرة وبها نهر يسمى نهر اللوار يخرج من جبال يقال لها جربيدجون مرتفعة عن سطح المالح بقدر الف وخمسمائة واثنين وستين مترًا ويسير اولا من الجنوب الى الشمال بين جبال شامخة كانت قديما بركانية ويمر على مدن وقرى وقلاع وله فيضان عنيف حتى انه يتسبب عنه في بعض الاحيان خراب البلاد كنيل مصر اذا فاض وينصب فيه من جهتيه خلجان كثيرة كلها واردة من الجبال المحددة لواديه وله انعطافات كثيرة ويمر بثمانية عشرة مديرية ثم يصب في بحر يقال له البحر الاطلنطيقي ومن منبعه الى مصبه تسعمائة كيلومتر الصالح للملاحة منها الثلثان وارتفاع منبعه عن سطح المالح ستة وثلاثون الفا واربعمائة متر وليس عميقا وارض قاعه رمليـة وجزوءه المنحط جسوره عالية لوقاية اراضي الزراعة وبها ايضًا نهر يقال له نهر الرّين منبعه جبل سانجوتار ومصبه البحر الابيض المتوسط وارتفاع منبعه عن مصبه نحو الف وسبعمائة

واربعة وخمسين مترًا واولاً يكون في وادٍ ضيق عميق ويتجه بين
الشمال الغربي والجنوب الغربي في وسط جبال الالب الشامخة
وفي طول مائة واربعة واربعين الف متر من ابتداء مصبه يكون
اللسان المتكلم به على ضفته الشرقية اللسان الالماني وفي الاخرى
اللسان الفرنساوي وله انعطافات كثيرة وفي مروره يخترق ليمان
العظيمة وطولها من الشرق الى الغرب اثنان وسبعون كيلومترًا
وعرضها اربعة كيلومترات في اضيق محل منها وفي اوسع محل منها
اثنى عشر كيلومترًا وارتفاعها فوق سطح المالح اربعمائة متر تقريبًا
ويفصل ما بين فرانسا واقليم سفوى واقاليم سويسرا وينصب فيه
اربعون نهرًا جميعها من الجهة الجنوبية وليس عليه في هذه المسافة
مدينة كبيرة سوى مدينة يقال لها لوزَان وبعد خروجه من تلك
البحيرة عند مدينة جنوه يدخل ارض فرانسا ويأخذ نحو الجنوب
ويسير بين الجبال وبعد مسافة كبيرة من سيره يتكوّن عنه مع
نهر اخر يقال له نهر الساوون بحيث جزيرة بها مدينة ليون التي
تلي باريز في الشهرة بفرانسا فيكون جانب من تلك المدينة على
احد النهرين والجانب الاخر على النهر الاخر وعليها قناطر للمرور
وكانت هذه المدينة ايام الرومانيين تحت تسلط الغول وعدد اهلها الان
مائة الف وخمسة وستون الف نفس وهي مدينة عظيمة ذات
ورَش ومعامل خصوصًا للحرير وقد مر عليها من الحوادث الطيبة
وضدها ما لم يمر على مدينة غيرها خصوصًا ايام الامم المتبربرة التي

كانت تغلبت على ارض الغول عند تضعضع دولة الرومانيين وعند تقسيم مملكة شارلماني كانت تختًا لمملكة البرغوني ولم تدخل في حكم مملكة فرانسا الا سنة الف وثلثمائة واثنى عشر ايام الملك فيليب الملقب بالجميل فلما قامت الفرنساوية ارادت الخروج عن الطاعة فحصروها حتى دخلت تحت طاعتهم وفيها معمل بارود ومدرسة وورشة للطوبجية وهذا النهر بعد خروجه من المدينة ينعطف نحو نهر الساوون على زاوية قائمة وبعد ذلك ينعطف من الشمال الى الجنوب وهو نهر كبير العرض قوي الانحدار لحبسه بين الجبال التي ترسل له تيارات قوية من السيول فيزيد بها بغتة وتكبر سرعته وجريانه فيمرّ بمدن وقرى وحصون كثيرة الى ان يصل مدينة ارل ثم ينقسم قسمين احدهما يسمى الرون الكبير يسير الى الجنوب الشرقي والاخر يسمى الرّون الصغير يسير الى الجنوب الغربي ثم ينقسم الكبير قسمين احدهما يسمى الرون العتيق والاخر يستمر على اسم الرون الكبير ثم ينقسم الرون الصغير قسمين احدها يستمر له اسم الرون الصغير والاخر يسمى الرّون الميت وجميع هذه الاقسام تصبّ في البحر المالح وطول النهر من مبدئه الى منتهاه ٨٠٠ الف متر منها ما هو صالح لسير السفن وهو خمسمائة وعشرون الف متر ومنها ما لا يصلح وهو الباقي ولا نعلم باوروبا نهرًا اقوى منه جريا لكثرة الانهار التي تنصب فيه ويمر من ارض فرانسا على تسع عشرة مديرية ونهر الساوون المذكور عبارة

عن احد نهيراته وعليه بلاد ومدن وقلاع وحصون كثيرة كغيره
من الانهار وفي ذكرها تطويل على حضرتكم

واما نهر السين فمنبعه من الكوتدور ومصبه البحر الملح وارتفاع
منبعه عن مصبه اربعمائة وستة واربعون مترًا ويمر من جهة الجنوب
الشرقي الى الشمال الغربي مستقيما الى ان يتجاوز مدينة تروى
فيأخذ من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وهناك يصلح لسير السفن
وهو يمر بمدن شهيرة وبلاد كثيرة وارض متسعة الى ان يصل
باريس ويتجاوزها فيمر بمدينة سانكلو التي فيها متنزهات الملوك
وعلى يساره على بعد ثمانية الاف متر مدينة ورساي التي كانت
مقر الملك لويز الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر وهي
المشهورة بحادثة قيام فرانسا وعلى بعد اربعة الاف متر من جهة
الغرب مدينة سانسير المشهورة بمدرسة البياده المعدة لتحضير
ضباط البياده الفرنساوية ويمر ايضًا بمدينة ساندنيس المعدة من
قديم الزمان لدفن ملوك فرانسا الى الان ومدينة روان التي
كانت في الزمن القديم مقر حكومة النورمندي وهي من
المدن الشهيرة وعدد اهلها مائة الف نفس وفيها ورش ومعامل
وكانت سابقًا من القلاع الحصينة وجميع السفن ترسو عندها ثم
ينعطف هذا النهر انعطافات كثيرة الى ان ينصب في البحر
الملح قريبًا من مدينة هافر وطوله من مبدئه الى مصبه ستمائة
واربعون الف متر والقابل لسير السفن منها اربعمائة وثمانون

الف متر وينصب فيه من جانبيه انهار صغيرة فعلم مما ذكر ان
نهر السين ليس اكبر انهار فرانسا وان كان اكثر منها نفعاً
لكثرة المدن ذات الصنائع والمعامل والتجارة على شاطئه لاسيما مدينة
باريس هذا هو سبب شهرته

فقال الشيخ في هذا الاوان يفيض نهر النيل ويروي ارض
مصر عموما صعيداً وبحيرة وتبتدئ زيادته بعد النقطة القبطية ويتم
ارتفاعه في شهر توت بخلاف باقي الانهر وللنيل خواص كثيرة
منها انه لا يعلم مبداه ومنها ان سيره من الجنوب الى الشمال مع
ان جميع الانهار تجري من الشرق الى الغرب او بالعكس ومنها
انه من الخرطوم الى ان ينصب في بحر الروم لا ينصب
فيه غير نهر ادبرا

ومما اختص به هذا النهر ما ياتي معه من الزبد الذي
لولاه ما كانت ارض مصر ولا سكنها انسان ولا عاش بها حيوان
حتى قيل انه اعظم الانهار طولاً وجريا واكثرها للارض فائدة وريًّا
وخصبا وطمياً

فقال له الخواجا هناك ما هو اعظم منه طولاً واسرع جريا
لان غاية ما يبلغ طول النيل من مبتدئه الى مصبه تسعمائة
وسبعون الف متر واكثر اتساعه الف متر ولا تزيد سرعته
عن اربعة كيلو مترات في الساعة الواحدة وغاية ما يصرف في
الدقيقة الواحدة تسعة وثلاثون متراً مكعباً وربع متر مع ان

باوروبا نهر فولجا طوله ثلاثة ملايين وثلثمائة واربعون الف متر ومنافعه ببلاد الروس كثيرة لانه اعظم طريق لنقل تجارتهم الداخلة والخارجة من المديريات الى التخت فضلاً عن نقل التيل والكتان والحديد والطوب والشاي والمشروبات وكذلك نهر الدانوب (الطونة) بالمانيا فان طوله مليونان وسبعمائة وخمسون الف متر ونهر الدون بالدال المهملة ببلاد الروسيا طوله مليون وسبعمائة وثمانون الف متر ونهر الدنيبر في بلاد الروس ايضا طوله مليونان من الامتار ونهر يانج تسي كيانج باسيا طوله خمسة ملايين وثلاثمائة وثمانون الف متر ونهر الكنك وطوله مليونان واربعمائة الف متر وعرضه خمسمائة وخمسون متراً وهذا النهر اعظم طريق لسير المراكب للتجارة في هذه الجهات وقد قدروا عدد الملاحين به فوجدوهم ثلثمائة الف نفس وقيمة ما ينقل منه في السنة الواحدة من البضائع قريب من ثلاثمائة مليون من الفرنكات وقد اخذت منه الشركة الانكليزية خليجاً كبيراً لاصلاح زرعهم طوله الف واربعمائة واثنان وثلاثون كيلو متراً

وبافريقيا انهار غير نهر النيل منها السنيجال طوله الف ومائة وخمسة وعشرون فرسخاً واعظم من ذلك كله انهار امريقا واكبرها نهر مسيسيبي فان طوله سبعة ملايين متر وعرضه في اضيق طريقه ثلثمائة متر ويعظم الى ان يبلغ الفاً وخمسمائة بل ٢٥٠٠ متر وعمقه

في بعض المواضع من خمسة عشر متراً الى عشرين ويبلغ في بعض الجهات ستين مترا وثمانين ويمر بارض تقرب من مائة وثمانين الف فرسخ مربع اي مقدار سعة فرانسا سبع مرات ويقطع في الساعة الواحدة ايام تقصيره اربعة اميال أنكليزية وايام زيادته يعسر ركوبه لشدة جريه وفي كل مائة متر من طوله يكون انحدار مجراه جزأ من مائة جزء من المتر واكبر فروعه نهر المصوري وعرضه من الف متر الى الفين وسرعته في الساعة الواحدة الفا متر وهناك انهار اخرى منها نهر الاورينوك طوله خمسمائة وخمسة وسبعون فرسخًا ونهر البلاتا طوله نحو ثمانية فراسخ

واعظم من جميع ذلك نهر الامزون فانه يجلب الى المالح جميع الامطار الواقعة على الوادي المتسع العظيم الذي قدر مساحتة سبعة ملايين كيلو متر مربع وهو عميق جدا لان المحس الذي طوله مائة متر لا يصل الى قاعه وعرضه كبير جدا حتى ان اكبر سفن المالح تصعد فيه الى مسافة الف فرسخ وفي جميع هذه المسافة لا ترى شواطئه لعظمه وسرعته شديدة يقطع في الساعة الواحدة ثمانية الاف متر وما يصرفه في اللحظة الواحدة من الماء قدر ما يصرفه ثلاثة الاف نهر مثل نهر السين في تلك اللحظة وفي ارض كندا بامريقا نهر سانلوران عرضة عند مصبه عشرون الف متر وبعد اربعمائة وخمسين الف متر من المصب يكون عرضه اثنى عشر الف متر ويخرج منه ثمانية خلجان اكبرها خليج

ويلاند المـار من بحيرة ايرية الى بحيرة اونتاريو بعد ان يجاوز شلالات نياجارا وطول هذا الخليج خمسة واربعون الفـ متر وعرضه ايام زيادته مائة متر وايام نقصه تسعة وعشرون مترا وثلثا متر وعرض قاعه ثلاثة عشر متراً وثلثا متر وعليه سبعة وعشرون هويساً موزع عليها الانحدار الكلي بين البحيرتين وهو سبعة وعشرون متراً واما من خصوص عظم السرعة والجريان فليس هناك نهر اعظم من نهر دجلة والاندوس (سيحون) والدانوب (الطونـة)

وفي جميع هـذه الانهر تنصب انهر كثيرة فنهر الدانوب ينصب فيه مائتا نهر بين صغير وكبير ونهر وولجا ينصب فيه ثلاثة وثلاثون نهراً وهذه الانهر كلها مع كثرتها وغزارة مائها واتساعها طولاً وعرضاً ليست شيئا بالنسبة للبحر الملح فانـه لو فرض جفاف البحر المالح ونضوب المـاء عنه وسلطت عليه جميع انهر الارض فلا تملاءه كما هو الان الا في اربعين الف سنة

فقال الشيخ قد افدتني في الانهر ما لم يكن يخطر بالبال ولا كان له في النفس خيال فلله درك من حبر خبير وعارف بصير ولكن مع ذلك فالنيل اعظم الانهار بركة واكثرها فائدة وقد ورد عندنا في السنة المحمدية والشريعة الاسلامية انه افضل انهار الدنيا كما قيل في ذلك

وافضل المياه مـاء قد نبع
بين اصابـع النبي المتبع
يليه مـاء زمزم فالكوثرِ
فنيل مصر ثم باقي الانهرِ

وللنيل مزايا انفرد بها منها انه يكتفى بسقيه فانه يزرع عليه ثم لا يسقى الزرع حتى يبلغ منتهاه ولا يعلم ذلك في نهر سواه ويزيد عند الحاجة وينقص كالعاقل المدبر الشفوق فياتي الى الارض في اوان اشتداد القيظ والحر ويبس الهوا وجفاف الارض فيسقيها ويرطب الهوا وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا يخرج عنه ولا يطغى على البلاد بالفساد والانهار تاتي من جهة المشرق الى المغرب وهو ياتي من جهة الجنوب الى الشمال فيكون فعل الشمس فيه دائما واثرها على اصلاحه متصلاً وليس في الدنيا نهر يزيد ثم يقف ثم ينقص ثم ينضب على الترتيب والتدريج غيره وليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ولا يجئ من خراج غلة زرعه ما يجيء من خراج غلة زرع النيل وهو اخف المياه واحلاها وارواها واعمها نفعا واكثرها خراجا وبالجملة فبطون الدفاتر مشحونة بمزايا النيل ومدحه نظما ونثرا قديما وحديثا فقال الخواجا نحن لا ننكر فضل النيل ولا كثرة مزايا ولكن لو تأمل الانسان لوجد ان كل نهر في الدنيا لا يخلو من خواص ومزايا منها تلطيف حرارة الجو

بالنسبة لكمية مجسم الماء الجاري في كل جهة من الدنيا فان
كان نهر بعيد العمق جدًا اثر ذلك في الجو فتنقص درجة
الحرارة في وقت الشتاء تدريجا ويستحكم البرد الى ان يجمد ماء
النهر فان كانت الاقطار متوسطة البرودة في الشتا بان كانت
لا تزيد على ثلاث درجات ونصف مئينية لم يتجمد الماء الا اذا بلغت
درجة البرودة ثماني درجات او عشرًا تحت الصفر

واما البلاد الموضوعة في ثمانٍ وخمسين الى ستين درجة من
العرض فان بردها يكون شديدًا وقت الخريف لتأخر ذوبان
الثلج فان كانت الانهار كبيرة العرض والعمق والسرعة تأثر الجوّ
بها وفي الغالب تتبع الرياح اتجاه الانهر وينبني على ذلك ان
اتجاه الابخرة الرديئة يتبع اتجاه الانهر وهذا هو السبب في وجود
الحمى عند سكان السواحل والدليل على ذلك المشاهدة فانه في
سنة الف وثمانمائة وتسعة عشر ظهرت الحمى في الاندلس وانتشرت
حتى سرت الى مدينة سويل لان نهري سان لوران وجوادي
الكبير قد نشرا في داخل المديريات ابخرة السواحل فالانهر وان
كانت بمرورها تاخذ عفونة المساكن معها الا انها لفيضانها وحصول
النشع منها وشدة نقصها ورسوب المواد الطينية منها ينشأ عنها
مضار كما يحصل من النيل والكنج والمسيسيبي والامزون فانها بعد
نزولها تترك مناقع وبركًا فيتولد عنها امراض بسبب الابخرة الرديئة
المتصاعدة منها

وقد دلت التجربة على ان طول الاقامة فوق الانهر التي بالبلاد الحارة مضرة ضررًا بينًا ودلت التجربة ايضًا على انه اذا مات واحد من خمسة وثلاثين من سياحي البحر الملح يموت واحد من ثلاثة من سياحي نهر السنجال بخلاف اهل البلاد المعتدلة والباردة

والحكم التي اودعت في المياه كثيرة لم نقف الا على بعضها وعلى الانسان ان يبحث عن خواصها وخواص غيرها على حسب الامكان فان الرب الخالق لم يخلق شيئًا عبثًا

المسامرة (١١٦)

الاحجار الكريمة

وها نحن قد وصلنا فلندع الكلام في هذا الباب الى وقت غير هذا وكانت العربة قد وقفت بهم علي باب عظيم مرتفع

فنزلوا واخذ الخواجا بيد الشيخ حتى وصلا حجرة المامور فلما رآهما قام لهما واجلسهما وامر لهما بقهوة ثم اخبره الخواجا عن سبب مجيهم وان القصد الزيارة فرحب بهم وقام معهم واراهم عنابر المعادن واحدًا واحدًا ثم وقف بهم على طاولة ممرّدة من قوارير وفيها من جميع الاحجار التي يتحلى بها وقال الشيخ ان هذه الاحجار هي مثال الاحجار النفيسة التي يتحلى بها وفي ترتيبنا هنا ان اولها هو حجر الفيروزج وهو نوعان نوع سماوي اللون مركب من اوكسيد الحديد والنحاس والنوع الثاني عظم قد استحجر مع فوسفات الحديد وهو يوجد عروقًا في مادة طفلية في الارض بنواحي نيسابور من بلاد العجم والجوهرية والصاغة يؤلفونه مع الماس واللوءلوء والذهب وحجر العقيق هو هذا الحجر الاحمر اللطيف وهو مركب من ألومين وبعض مواد اخرى ويتنوع لونه فمنه ما يكون احمر يوجد في بلاد البهيم والمجر في الصخور البرقانية وله معامل في بلاد المجر والبهيم والتيرول

والزمرذ المشهور ببلاد المشرق وهو مركب من سيليس وألومين وبعض مواد وانواعه كثيرة منها الاخضر الصافي وهو زمرذ مصر والبيرو ومنها الاصفر والازرق واعلاها الاخضر وهو المرغوب بمصر وغيرها

واحسن زمرذة معلومة الان هي الموجودة في خزانة الامتعة ببلاد الموسكو والزمرذة الموجودة في تاج البابا ويوجد الزمرذ عادة

مغروساً في الصخر

واما الياقوت فهو هذا الحجر الاصفر وهو حجر زجاجي صلب يوجد في اجواف الصخور وانواعه كثيرة منها الاصفر والسماوي ومنها الاحمر القاني البهرماني واعلى انواعه ما يجلب من بلاد الهند وما يرد من السكس ومكسيكو ثم اشار الى حجر ذي الوان متعددة بتعدد طبقاته فقال واما هذا فهو الحجر اليماني

والصنّاع تحتال على تعاقب طبقات الوانه فتجعلها في التحضير قائمة او منحنية او غير ذلك ويوجد ذلك بفرانسا والمانيا واحسنه من بلاد العرب

وحجر اليشم هذا يستعمل في خواتم وقلائد وبعض حلى واقداح للشرب ونحو ذلك ومحل وجوده الطبقات القديمة التكوين من طبقات الارض

ثم قال واعلى هذه الحجارة حجر الماس وهو حجر زجاجي شفاف مجرد عن اللون له لمعان الماسي وهو سهل الكسر صلب يؤثر في جميع الاحجار ولا تؤثر فيه ولا يجلى الا بمسحوقه وثقله النوعي قدر ثقل الماء ثلاث مرات ونصف مرة ويتركب من كربون اعني فحماً نقيا خالصا واول من ظن فيه قابلية الاحتراق العالم نتون ومن بعده سلط عليه بعض الكيماويين تياراً كهربائيا شديداً فانحرق وصار فحما كالذي يوقد به ويوجد هذا النوع في بلاد الهند وبرزيليا والسيبيريا ويوجد بين صخر ارض الرسوب القديمة

التكوين المنقولة بالمياه ومن مدة ثلاثة قرون صار الجد في استخراجه من محاجره ويوجد ايضا في نواحي ديكان وجلوكوند وبانجال وجزيرة بورنيو واستكشافه في بريزيليا كان في القرن السابع عشر في مديرية ميناسجيري والمستخرج منه غشيما كل سنة في جميع الجهات يقرب من ستة كيلوغرامات الا انه اذا صفي ونقي لا يبلغ الا نحو مائة وثمانين غراما

وكيفية استخراجه بالبريزيليا ان تفتت الصخرة التي يظن وجوده فيها ثم تغسل في حيضان ما عمق الماء فيها متر ويجلس الغسال على حافتها وبيده قطعة خشب مجوفة تسع اثنين او ثلاثة من الكيلوغرامات من الرمل فلا يزال يحركها في الحوض حتى يعثر بشيء منه ومن اعتياد العبيد على غسله لا يفوت الواحد منهم شيء منه ولو صغيراً جداً ومن عاداتهم ان كل من وجد شيئا منه ينادي باعلى صوته قائلاً قدس الله روح المسيح . ثم يسلم ما وجد للملاحظ فان كانت قطعة كبيرة كافأه عليها وربما اعتقه في نظير ذلك

وقال بعض المؤرخين ان حك الالماس واستعماله قديم لكن كان على غير قانون من حيث الانتظام والشكل وقال بعضهم لم يكن ذلك الا من سنة الف واربعمائة وستة وسبعين من الميلاد فان المخترع له رجل من اهل بروج مع ان هذا الحجر وجد في بركة الدوك دنحو سنة الف وثلثمائة وثمانية وستين محكوكا فلذا حكم بقدم طرق حكه

وآلة حكه عبارة عن قرص من الفولاذ افقي الوضع يتحرك بسرعة شديدة وفوق القرص تراب الماس الحاصل من حك حجرين منه طبيعيين غير قابلين للتصليح ولهم في ذلك طرق والمعلوم الان ان الماس المستعمل بين الناس على هيئتين

الاول الشكل المعروف بالروزة ومعناها الوردة

والثاني المعروف بالبرلانتا فاول وجهه الظاهر هرمي الشكل ذو اسطحة مثلثية والوجه الثاني مستو يختفي في مادة التركيب سواء كانت من الفضة او الذهب واما النوع الثاني وهو البرلانتا فكلا وجهيه مسطح الوسط وفي دائر ذلك السطح اسطحة مثلثية او معينة والمجموع عبارة عن هرمين ناقصين والعادة ان يبقى مكشوفا في تركيبه مع الفضة او الذهب ويرى من الاعلى كما يرى من الاسفل واختلاف قيمته باختلاف مائه وصفائه وكبره وشكله والحجارة التي لا تصلح للاستعمال يساوي قيراطها ثلاثين او ستة وثلاثين فرنكا وقدر القيراط مائتان وخمسة ونصف من المليغرام وقيمة القيراط المستعمل في الحلى تساوي ثمانية واربعين فرنكا اي ان قيمة الغرام منه تساوي مائتين وثلاثة وثلاثين فرنكا وذلك اذا كان وزن الحجر قيراطا فان زاد وزنه عن ذلك فتقدر القيمة بضرب مربع الوزن في ثمانية واربعين واما المصوغ فقيمته تابعة لهيأته وكبر حجمه كما ذكرنا واكبر حجر منه ما وجد بخزانة

ذخائر فرانسا وكانوا قد عثروا به على بعد خمسة واربعين فرسخًا من جنوبي جلوكند ووزنه غشيما قبل حكه كان اربعمائة قيراط وعشرة قراريط واقاموا في حكه سنتين وبعد الحك صار مائة وسبعة وثلاثين قيراطًا وبلغت قيمة ذلك الحجر ثلاثمائة واثنى عشر الفًا وخمسمائة فرنك وصرف عليه في الحك مائة وخمسة وعشرون الفًا فاشتراه الدوك دورليان بثلاثة الاف الف وثلاثمائة وخمسة وسبعين الف فرنك وهو الان يساوي ثمانية الاف الف فرنك

ومن الحجارة المشهورة حجر يعرف بالنظام عند ملك جلوكوند غشيمه وزنه ثلاثمائة واربعون قيراطًا وقدروا قيمته خمسة ملايين فرنك وفي ذخائر الروسية حجر وزنه مائة وثلاثة وتسعون قيراطًا وكان مجعولا عينًا لصنم بمعبد براهمة فاخذه احد عسكر الفرانساوية وباعه بخمسين الف فرنك ثم صار ينتقل من يد الى اخرى حتى وقع في يد القراليجة كاترين فاخذته بالفي الف ومائتين وخمسين الف فرنك

وفي ذخائر النمسا حجر وزنه مائة وتسعة وثلاثون قيراطًا ونصف قيراط ويقال ان عند ملك البرتقال حجرًا قدر بيضة الدجاجة وزنه الف وستمائة وثمانون قيراطا ولم يره احد ممن اخبر عنه

ثم دخل بهم عنبر الطير واراهم ما فيه ومنه الى عنبر الحشرات

والافاعي ثم الى عنبر الحيوانات الوحشية ثم محل المواد
الكيماوية ومنها الى محل الالات واراهم بعض خواصها فكان كل
ما انتقل بهم من مكان الى مكان يرى على الشيخ عدم رغبته في
الانصراف من المكان الاول حتى يستوفي البيان عما فيه الا انه
لضرورة المرافقة كان مجبورا على الموافقة وكان في جملة ما رآه
في عنبر الافاعي ثعابين (حيات) ممتدة في السقف ففزع منها فزعاً
شديداً ولكنه تجلد حين رآهم لم يكترثوا بها ومما رآه في عنبر
الحيوانات الوحشية انواع السباع والضباع والنمورة والظبا والقردة
والفيلة والزرافة والأيل والحُمُر والبقر الوحشية وكذلك انواع
الطير والحيوانات البحرية كالدرفيل وفرس البحر والتماسيح فرأوا
حولها اطفالاً ترمي لها خبزًا فتجتمع عليه ورأوا حول بيوت القردة
خلقاً كثيرين يضحكون على العابها ثم طاف بهم في البستان واطلعهم
على خواص ما به من نبات وشجر واخبرهم باسم نبات كل بلد
ودرجة حرارتها وما يستخرج منها من الزيوت والادهان العطرية
وغيرها واراهم نباتاً مغطى بسقف من زجاج وبيّن لهم الطرق التي
تزيد في الحرارة وبالجملة فلم يدع شيئاً بالبستان الا اطلعهم عليه
وذكر لهم ما يعلمه من خواصه ثم رجع بهم الى مكانه وطلب لهم
قهوة فشربوا ثم قال المأمور اريد ان اتشرف بحضرة الشيخ في يوم
غير هذا لاريه ما يحب ان يراه مما لم يرَهُ في هذا اليوم فقال
الشيخ لا بد من ذلك لاحظى برؤيتكم واستفيد من معلوماتكم

فقال المأمور للشيخ الا اخبرك باصل هذا المكان قبل ان يعد لما رأيته به من انواع النبات والحيوان قال نعم فقال اصله كان فضاء من فضاآت باريز فلما جاء لويز الثالث عشر اصدر امره بانشاء جنينة في خطة من خطط باريز تكون ادارتها ونظارتها بعده لمن يقوم مقامه من عقبه فانشأ هذه الجنينة ثم ما زالت تتقدم كل سنة عن السنة التي قبلها الى ان جاءت سنة الف وستمائة واثنين وثمانين فجعلها بوفون موءلف كتاب حياة الحيوان والتاريخ الطبيعي في هيئة جديدة وقسم طرقها وأحدث فيها مدرسة لتدريس العلم

ثم في سنة الف وسبعمائة واثنين وتسعين عمل لها مجلس الملة لوائح وقوانين وامر بنقل جميع الحيوانات التي كانت بويرساي اليها فازداد بذلك رونقها ومن ذلك العهد لا يمر عليها عام الا ويجلب اليها من المستغربات وانواع الطير والحشرات ما لا يحصى

١٤٠٠

المسامرة (١١٧)

الهواء والماء

ثم استأذنوا في الانصراف وقاموا فودعهم الى الباب ووقف هناك الى ان ركبوا وكانت الشمس قد أذنت بالغروب والسماء مطبقة بالسحاب وبعد ان ساروا مسافة قليلة خرجت عليهم ريح باردة من جهة الشرق فقال الانكليزي هذه علامة المطر فالاولى ان ندخل قهوة نستكن بها حتى يسكن فما دخلوا القهوة الا والمطر قد نزل كافواه القرب

فقال الشيخ ان اهل مصر الان يشكون من الحر ونحن نشكو من البرد فقال الخواجا ذلك ناشيء من اختلاف الاوضاع الجغرافية للبلاد ارتفاعا وانخفاضا ففي بعض الجهات المنخفضة قـد يشتد

البرد حتى تجمد منه الانهار وتكسى الارض بالثلج وتكثر الامطار وربما تستمر اشهرًا وفي تلك المدة يضطر اهل تلك الجهات الى الاستمرار على ايقاد النار فيكون في كل مكان منقد او اكثر ويلبسون ثقيل الثياب كالفرآء والمضربات وكلما نزل الانسان الى الشمال ازداد عليه البرد والثلج وكلما صعد قل برده وادرك الحرارة

وشرح تلك المسئلة يحتاج الى مقدمة اقصها عليك اذا اوينا الى مبيتنا فلما هدأ المطر وركبوا الى محل اقامتهم قال الشيخ للخواجا انجز لي ما وعدتني فقال اعلم ان الهوآء ولو كان في غاية من الصفا لا بد ان يحمل معه ابخرة مائية متصاعدة من الانهار والبحار والريح توزعها في الجهات فزرقة الجو الممتد في السماء الى ستين الف متر ناشئة من هذا البخار المتصاعد وذلك الجو محيط بجميع كرة الارض والخلق على اختلاف انواعهم تعيش فيه ومن فوائد البخار تلطيف حرارة الجو فيكون الهواء صالحا للاستنشاق وكل حين يتصاعد من البحار مقدار من البخار لاجل تلك الفوائد الجليلة ولولا ذلك لهلك ما على وجه الارض من حيوان ونبات وقد غلط من جعل البخار والضباب والسحاب شيئا واحدا بل هما متغايران فان البخار عبارة عن غاز يرتفع من الانهار والبحار الى الجو بكمية تقل وتكثر فعلى كل مستودع ماء من نهر او بركة وكذا على الثلج ونحوه يتكون البخار فاذا تشبع الجو منه تحول بواسطة الهواء الى رطوبة محسوسة ودرجة التشبع تختلف

قلة وكثرة باختلاف درجة الحرارة التي في الجو ففي درجة عشرين
تحت الصفر لا يكون في المتر المكعب من الهوا زيادة عن غرام
واحد اي ثلث درهم وفي درجة ذوبان الثلج يكون فيه خمسة
غرامات ومن درجة عشرة الى ثلثين تكون غرامات البخار التي
يمتصها الهواء موافقة لارقام اقسام الترمومتر فان زادت درجة
الحرارة عن ثلاثين زاد قبول الهواء للبخار فاذا بلغت مائة قبل من
البخار بقدر حجمه وساوت حينئذٍ قوة الهواء قوة البخار وبعد ذلك
تزيد قوة البخار على قوة ضغط الماء فيحصل الغليان في الماء ثم ان
كمية البخار التي في الجو ولو انها قليلة وتابعة لدرجة الحرارة لكنها
مع ذلك قد تكثر كمية البخار المتصاعد من احد مائعين متساويين
في الحرارة عن تصاعدها من الاخر بسبب هبوب الريح على احدها
دون الاخر او كثرته عليه اكثر من الاخر فكلما مر عليه ريح تشبع
منه وترك مكانه الى غيره وهكذا بخلاف ما اذا كان واقفاً او قليلا
وحينئذٍ فتصاعد الابخرة وتوزيعها في الجهات تابع ايضاً لكثرة
هبوب الرياح ثم ان الهواء يكون فوق سطح البحر متشبعا من البخار
او قريبا من التشبع وكلما صعد من جهة الاستواء الى جهة الاقطاب
يأخذ في النقص وكذلك يكون تشبعه في السواحل اقل منه
فوق البحر وفي داخل الولايات اقل منه في السواحل وذلك
بحسب توزيع الانهر والخلجان والبرك والجبال والغابات واختلاف
الرياح واتجاهاتها فمقدار البخار في جو كل بقعة يخالف مقداره

في الاخرى ففوق ارض بلاد الانكليز يكون الجو متشبعا بالبخار
او قريبا من ذلك وفوق صحاري آسيا يكون جافا ليس له الاّ
خمسة عشر جزءًا او عشرون جزءًا من مائة مما يمكن ان تتشربه وعلى
العموم فمقدار البخار في جو الارض القارة ثلاثة اخماس مقدار
التشبع ومع كونه على هذه القلة فوجوده في الجو من اهم المهمات
وبيان ذلك ان الارض تميل الى ضياع ما تشربته من الحرارة
مدة النهار بردّه ثانيا الى الجو في الليل فاذا ردته التقطته الابخرة
المائية فتزيد حرارة الجو ولاحاطته بكرة الارض احاطة الظرف
بمظروفه كان لها كغطاء حافظ لها من البرد ولولا هذا البخار
لهلك ما على وجه الارض كما مر وكلما جف الجو اشتدت حرارة
الارض ففي النهار توءثر اشعة الشمس في الارض فتلبسها حرارة
وفي الليل ينبعث من الارض نحو الجو ما كمن فيها من تلك
الحرارة فكلما اشتدت درجة الحرارة في النهار في بقعة كان ليلها
شديد البرد لان كمية البخار في تلك البقاع تكون قليلة جدًا فلا
تمنع الاشعة المتصاعدة من الارض من النفوذ فيها الى جهة السماء
ومما سبق يعلم ان البخار الماءي ملطف لحرارة الاشعة الشمسية
الساقطه على الارض ومانع لها عند انعكاسها من الارض الى الجوّ
من ان تضيع في السماء ومن فوائد ذلك حفظ درجة الحرارة
الكافية للحياة

فقال الشيخ لماذا لم يمنع البخـار اشعة الشمس الساقطة الى

الارض ويمنعها اذا كانت منعكسة منها فهلا منعها جميعا او لم
يمنع واحدًا منهما

فقال الخواجا هذا لا يرد الا لو كانا على صفة واحدة اما
اذا كانا على صفتين مختلفتين كما هنا فلا وذلك ان الاشعة المنبعثة
من الشمس الى الارض حارة مضيئة بخلاف المنعكسة من الارض
الى الجو فانها مظلمة خالية من الضوء فلذا كان تشرب البخار
للاشعة المنعكسة اكثر من تشربه للاشعة المنبعثة الا ترى انا
لو عرضنا لوحا من زجاج الى الشمس لنفذت اشعتها منه سريعا
ولا يسخن الا بعد مدة وما ذاك الا لمنعه حرارتها دون ضوئها
فكذلك بخار الماء في الجو فانه يمنع اشعة الشمس المنعكسة من
الارض لظلمتها ولا يمنع اشعتها المنبعثة منها لوجود الضوء فيها

ومن الحكمة الالهية والالطاف الربانية وجود البخار في الجوّ
لانه يجعل الدرجة المتوسطة للحرارة في كل بقعة اكثر من حرارة
اشعة الشمس وحدها اي بدون بخار الجو لا صعوبة في تخليص
الهواء من الابخرة المائية الممتزجة به فان ذلك يحصل بتبريده كما
لو أخذت قلة ماء مثلاً وجعلتها في مكان حار وتركتها برهة
من الزمن فانك ترى سطحها قد كسي بابخرة كالندى فكذلك
يكون الجو اذا برد الهواء بعد غيبوبة الشمس فان الابخرة المائية
تجمع وتصير ندى رقيقا ومن تأمل في الخارج من فمه من
النفَس في وقت البرد رأى بخارًا ظاهرًا للعيان وكذا اذا نظر

الى الابخرة المتصاعدة من دسوت الآلات البخارية فانه يرى البخار
يرتفع ثم ينزل علي الارض في هيئة مطر خفيف هذا ما تيسر ايراده
من الكلام على البخار

واما السحاب والضباب فكل منها عبارة عن تجمع كرات
صغيرة حاصلة في الجوّ ولم تتفق اراء الحكماء من الطبيعيين في
تلك الكرات على شيء فمنهم من يقول انها هوائية وفي جوفها ماء
ومنهم من يقول انها نفسها ماء ثم ان بعض الناس يقول الضباب
منافٍ للصحة ومؤذٍ للاجسام وهذا حق لان الضباب علامة على
كثرة الرطوبة في الجوّ وانهـا متكونة في هواء راكد قريب من
سطح الارض تجمع فيه الابخرة المتصاعدة من القرى والمدن
والمستنقعات واكثر ما يكون الضباب في الليل بسبب برودة
الجو وقد يكون فوق المراعي الواسعة بقرب غروب الشمس ومتى
صادف تكوّنه في الجو سقوط ريح باردة من الطبقات العليا من
الجو حبسته اياماً واسابيع ومن وقف على مرتفع من الارض رأى
الجبال بارزة نافذة من خلاله فيرى السماء صافية لخلو الجهـة
العليا منه

واما السحاب فهو ضباب كثير العلو فوق سطح الارض يتميز
عن الضباب بارتفاعه عنه في الجو وكثيراً ما يتكون من ابخرة
ثلجية ولا حصر للصور والاشكال التي يكون عليها وتتقطع السحابة
الواحدة الى قطع عديدة تسير في جهات مختلفة وينضم لها غيرها

ثم تتمزق ثانيًا وكثيرًا ما ينفصل السحاب ماآ ينزل على الارض مطرًا قليلاً او كثيرًا فذلك الماء هو البخار الذي يحمله الجو

فقال الشيخ وما الذي يفصل ذلك البخار من السحاب حتى يسقط على الارض فقال له قد عرفنا مما سبق انه لا بد لفصل الماء من الهوآ من تبريد الهواء فالبرودة هي التي تفصله عنه والحرارة تبقيه فيه وبانكماش الهواء وانضمام بعضه الى بعض تزداد حرارته وبانبساطه وتمدده يبرد وقد جربوا ذلك بان وضعوا قطعة صوفان في انبوبة مسدودة من احد طرفيها وادخل فيها من الطرف الاخر مكبس فكلما زيد في كبسه انضم الهواء وتناقص وازدادت حرارته فما انتهى الكبس الى الاخر الا وقد انتهت الحرارة فاحرقت الصوفانة فدل ذلك على ما قلنا من ان انضمام الهواء ونقص حجمه يزيد حرارته وبضدها تتميز الاشياء ففي الطبقات العليا من الجوّ تكون درجة الحرارة اقل منها في الطبقات القريبة من الارض لاتساع العليا وقلة البخار فيها فلا يكون بينهما توازن فترتفع طبقات الهواء القريبة من الارض الى الاعلى فتنبسط وتترك مـا فيها من الابخرة فتسقط ثلجًا او بردًا او مطرًا على حسب شدة البرودة وضعفها فلو هبت ريح فصدمها جبل لم تقف عن سيرها بل ترتفع في الجو وحينئذٍ يقل الضغط عليها وتنبسط وتبرد وتنفصل عن ابخرتها فتصير الابخرة مطرًا ونحوه ومن المشاهد انها عند مصادمتها لنحو غابة يحصل سقوط المطر وعند مصادمتها

لجبل يسقط ثلج ونحوه بحسب زيادة الارتفاع وقلته وتصادم تيارات
الهوا بعضها ببعض فوق سطح البحر المالح يحصل منه مثل ما يحصل
بصادمه الاهوية للموانع المارة فسقوط المطر حينئذٍ تابع لحركة
الهواء وكل سحابة شاهدناها انما هي تاج لعمود من الابخرة صاعد
من الارض الى السماء ثم ان المطر يكون اول نزوله نقطا صغيرة
بحيث لو اجتمع منه ثلاثون نقطـة لا تزيد عن مليمتر وبسبب
تحرك الهوا تتلاطم تلك النقط فيلتحم كل جملة منها وتصير نقطـة
كبيرة وكلما قربت من الارض كبرت حتى تكون النقطة الواحدة
قدر سانتيمتر فاكثر لان النقطة كلما كانت صغيرة لعب بها الريح
شمالاً ويميناً فاذا نزلت انضمت الى غيرها وكبرت وزادت ثقلاً
بحسب قوة الهواء ولا تنزل في خط رأسيٍّ بل تكون في نزولهـا
مائلة قليلاً او كثيرًا وقد يشاهد عند سكون الريح سحاب مرتفع
ارتفاعًا عظيما وذلك ناشىء عن تبادل حاصل بين السحابة وما
تحتها من الابخرة فيقع من الطبقات العليا نقط ما الى اسفل منها
فاذا وصلت الى طبقة حارة تبخرت وارتفعت ثانيا وهكذا فيكون
بين السحاب والابخرة ذهاب واياب فاذا تغيرت درجة الحرارة في
جو السحابة يأخذ شكلها في التغير ومن يتأمل في السما بعد الظهر
يرى السحاب يتجمع ويتفرق او يأخذ في الزوال ويتكون عن
ذلك صورة بهجة حسنة وارتفاع السحاب وانخفاضه يختلف باختلاف
البلاد تبعاً لطقس الجو واتجاه الرياح في جميع فصول السنة

فتارة تكون الرياح قريبة من المساكن وتارة تعلو رووس الجبال وتارة ترتفع في الجو واكثر ما يبلغ ارتفاعها احد عشر الف متر وخمسمائة واربعين مترًا كما اعتبر بالوسائط الفلكية وذلك يفوق على ارتفاع اعلى جبل في الارض بثلاثة الاف متر وبعض السحاب يرتفع في الجو اكثر من ذلك بكثير وارتفاع السحاب في اوروبا يختلف بين ألفيّ متر وثلاثة الاف فلا يقطع من جبالها الا جبال البيريني وجبال الالب وهذا الارتفاع يكون كثيرًا في فصل الصيف قليلاً في فصل الشتاء ويختلف ايضًا سمك طبقات السحاب فتارة يعظم عظمًا هائلا وتارة يقل عمقه وعلى العموم فتختلف حالته الوسطى في جهات البيريني من ثلثمائة متر الى خمسمائة بحسب البقاع وكثيرًا ما تكون طبقات السحاب متراكمة بعضها فوق بعض بابعاد تقل وتكثر على حسب الاحوال وكمية الامطار الساقطة سنويًا على الارض تختلف قلة وكثرة بحسب الممالك او جهات المملكه الواحدة وبالتجربة قد وجدت مناسبة لدرجة عرض الجهة وارتفاعها عن سطح البحر المالح وانها كثيرة في جهة القطبين قليلة عند دائرة الاستواء وسبب ذلك اختلاف درجة الحرارة وظهر من التجارب العديدة ان كمية المطر بجزائر الانتي تبلغ مائتين واربعة وستين مترًا مكعبًا وبجهة بونباي تبلغ مائتين وثمانية وفي كلكتا تبلغ مائتين وخمسة وفي كاندا من بلاد الانكليز تبلغ مائة وستة وخمسين وفي نابولي من ايطاليا تبلغ خمسة

وتسعين وفي وندليك واحدا وثمانين وفي لوندرة ثلاثة وخمسين وفي
باريز مثلها وفي مرسيليا سبعة واربعين وان ما ينزل بالجبال اكثر
مما ينزل بغيرها بسبب ان الجبال لارتفاعها وشده بردها تجذب
السحاب اليها فيساعد البرد تكوين الامطار والناس في البلاد
الجبلية يهتدون في معرفة احوال الوقت بالنظر الى شواشي الجبال
الشامخة لانها قبيل تغيير الوقت تحيط بها دخنة عظيمة رطبة
حاصلة من تراكم السحاب حولها فيعلمون بذلك حالة الجو وكمية
المطر في البقعة الواحدة تابعة للارتفاع فقد قدر اهل رصدخانة
باريز ما نزل على سطوح الدور وما نزل بساحتها فوجدوا
ما نزل بالساحة اكثر مما نزل بالسطح وذلك ان حبات
المطر كلما طالت مسافة نزولها انضم بعضها الى بعض فيكبر
حجمها كلما قربت من الارض وقد تحدث دوامات هوائية تجمع
حب المطر بعضه الى بعض وكذا في مدينة باريز وجد ارتفاع
ماء المطر فوق السطوح خمسمائة مليمتر وعلى سطح الارض خمسمائة
وستين وفي برلين يزيد النازل في الساحات عن النازل على
الاسطحة بنحو التسع وكلما ارتفعت ارض الولاية عن سطح البحر
الملح كانت بعيدة عن الابخرة البحرية ولهذا كان ما ارتفع من الجبال
في غاية الجفاف ولا يحصل من السحاب الملاطم لسفحها والابخرة
الفاعلة في طبقاتها السفلى فعل على الثلج الدائم المتكون بها وقد
اخبروا مقدار المطر النازل بالولايات المستوية الارضية باوروبا

والولايات التي بها جبال فوجدوا النازل بالولاية المستوية باعتبار سنة واحدة خمسمائة وخمسة وسبعين مليمتر والنازل بغيرها الفًا وثلثمائة مليمتر واختبروا ما نزل في وادي نهر الران فوجدوه من خمسمائة وستين الى خمسمائة وثمانين مترًا مع ان ما ينزل في جبال الغوج يختلف من الف مليمتر ومائة جزء الى الف مليمتر ومائتين ومما يفعل في درجة الرطوبة بالقلة والكثرة القرب او البعد من الغابات الكبيرة والمياه العظيمة ومهاب الرياح وجنس الارض التي تمر عليها ولذلك كان ما يقع من الامطار على سواحل البحار اكثر مما يقع في داخل الارض وبالتجربة وجد ان ما يقع في المديريات الواقعة بين نهر الرين ونهر الساوون في السنة الواحدة خمسة واربعون اصبعًا مع ان ما ينزل بباريز لا يزيد عن اثنين وعشرين والرياح الجنوبية والغربية تاتي بابخرة البحر الاطلنطيقي والمتوسط الى اوروبا ولكثرة الغابات واتساعها وعلو الجبال الشامخة يشاهد بجهات نورويج وسواحل افريقا الغربية ضباب مستمر وامطار كثيرة ولعلو جهة مدينة مدريد بالاندلس على سطح البحر الملح كانت في جفاف تام ثم ان الامطار تنقسم الى منتظمة وغير منتظمة تبعًا لكيفية سقوطها في الولايات المختلفة فغير المنتظمة تكون غالبًا في الاقاليم المعتدلة الحرارة بسبب تقلبات الفصول فيها مع مناسبة هيئة الارض فيقع منها في الاوقات الحارة اكثر مما يقع في الاوقات الباردة واما المنتظمة

فيبتدئ سقوطها في المنطقة الحارة متى سامتت الشمس الرأس بتقدمها الى المنقلب الصيفي وتنتهي الامطار متى رجعت الشمس الى المسامتة الاولى وتكون متوسطة في شهر يوليو الافرنجي وتقوى في شهري اغسطس وستنبر وتقل في شهر اوكتوبر وعلى العموم تظهر الامطار وتقوى في فصل الخريف ففي مصر تبتدئ من شهر اوكتوبر وتستمر الى شهر دسنبر وفي الاقطار التي في عرض ثلاثين درجة الى عرض خمس واربعين كبلاد اليونان والاندلس والبروانس من فرانسا يكون اكثر نزولها في فصل الخريف واما في فصلي الربيع والصيف فتضعف حرارة تلك الجهات بسقوط الندى الغزير ويقل مطرها وفي الجهات التي من عرض خمس واربعين الى خمسين كبلاد فرانسا والمجر تنزل الامطار الغزيرة في فصل الربيع وتكون مدتها قليلة وفي البلاد التي من عرض خمسين الى خمس وخمسين كبلاد الفلمنك والمانيا ينزل المطر ويكثر الضباب في فصل الخريف والتي من عرض خمس وخمسين الى ثمان وستين كبلاد الدانمرك وسويد ونورويج اكثر مطرها في فصل الربيع مدة قليلة ايضاً والتي من عرض ثمان وستين الى عرض سبعين كبلاد لابوني وسبسبور وكمشكا اكثر نزول مطرها في فصل الصيف وما ينزل باوروبا ليلاً اكثر مما ينزل بها نهارًا والاقاليم الموارية على العكس من ذلك وغير المنظمة تقع في غير فصل الشتا وهي قليلـــة عند دائرة الاستواء كثيرة في الاقاليم المعتدلة

وتكون مدة المطر في هذه الجهات اكثر من غيرها وتكثر الرطوبة في الجو وتكون ملطفة لحرارته بخلاف الاقطار التي يكون زمن نزوله بها قليلاً ودفعة واحدة كالبلاد الحارة وقد استدلوا على ان للبقعة تأثيراً في قلة المطر وكثرته بما شاهدوه في جهة السنيجال حين وجدوا كمية المطر النازل بها في كل السنة اقل ما ينزل بغيرها من البلاد البعيدة عن الاستواء ففي جزيرة كيّن تكون مدة المطر ثمانية اشهر او تسعة وارتفاع ما يسقط منه في السنة مائة وثمانية اصابع مع ان ارتفاع الساقط في جزيرة بوربون تسعة وثلاثون اصبعاً وفي جزائر اللانتي ثمانية وسبعون ويقع اكثره في الزمن القليل وليس في الجهات اكثر مطراً من سواحل مالابار واركان وجبال حملايا لان اكثر اسبابه موجودة بها لشدة الحرارة وارتفاع الجبال فيصعد من بحر الهند وحده من الابخرة اكثر مما يصعد من جميع الابحر وتسير به الرياح الى سواحل افريقة وسواحل اسيا فاذا مرت بجبل ارتفعت به حتى تصل الى الطبقة الباردة وعند ذلك يتحلل وينزل حتى يملأ الاودية وتفيض منه الانهار وقد قدروا ما نزل بجهة هنالك مرتفعة عن المالح بقدر الف وثلثمائة وستين متراً فوجد بعد عدة تجارب عملت في اربع عشرة سنة ان متوسط ارتفاع المطر سبعة امتار وثلثان في السنة الواحدة وفي بلد اخر من هذه الجهة كان متوسطه في السنة الواحدة خمسة عشر متراً الا خمس متر وذلك مقدار ما ينزل بالاسكندرية في

مدة مائة سنة وفي تلك البلاد مما يلي حملايا كان ارتفاع ما سقط في شهر يوليو سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين ثلاثة امتار وثلاثة ارباع المتر وفي بعض تلك الجهات لا ينقص متوسطه في سبعة اشهر من السنة عن اثني عشر مترًا ونصف متر وقد شوهد في هذه النواحي سيل عظيم استمر اربع ساعات فقط فغطى الارض بطبقة من الماء قدرها ثلاثة ارباع المتر واذا نسبت ذلك الى ما يقع على ارض فرانسا وجدته مقدار ما يقع فيها في سنة كاملة وارتفاع ما يقع في سواحل الهند متر واربعة اخماس المتر وما يقع على الجبال الداخلة فيها يكون قدره ثماني مرات ثم انهم بالتجربة وجدوا اللیتر الواحد من ماء المطر يشتمل على ثلاثة وعشرين سانتي متر مكعبة من الغاز الذي في كل مائة حجم منه اثنان وثلاثون من الاكسوجين وثمانية وستون من الازوت بعد تنزيل اثنين واربعة اعشار من غاز حمض الكربون

وهذه المقادير تختلف باختلاف الارتفاع ففى الارض المساوية لسطح البحر يكون قدر الازوت والاكسوجين خمسة وثلاثين وفي الارض المرتفعة عنه بنحو الفين وستمائة واربعين مترًا يكون قدر هذين الغازين اربعة عشر فقط وفي الارض المرتفعة عنه بنحو ثلاثة الاف متر يكون قدرها احد عشر فقط وكذا حمض الكربون يختلف قدره في ماء المطر بحسب الارتفاع ايضًا وقد يكون في المطر ايضًا ملح الطعام وذلك فيما يقرب من البرك وسواحل البحر

المالح ومتى سقطت مياه المطر على ارض اثرت فيها الحرارة وتسحب معها في سيرها بواقي حيوانات وحشرات وحشائش فتكون غير صالحة لمخزن بخلاف المطر المأخوذ من فوق سطح المالح فانه يصلح للخزن لخلوه من ذلك ولذلك لما حلل بعض الكيماويين ماء المطر في جهات مختلفة وجد فيه مقادير مختلفة من الاتربة ففي بلاد الانكليز وجد فيه من تراب الفحم وقد يوجد فيه مركبات نشادرية كالكربونات والنترات وذلك اكثر مما يكون منها في ماء الانهار وهذه المواد وان كانت سريعة التطاير والصعود الا انها تنزل ثانيا مع ماء المطر

فقال الشيخ سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا فان هذا من الحكم الربانية والاسرار الالهية التي لا يقف على حقيقتها عقل ولا يحيط بكنهها نقل فالانسان وان بحث ودقق واستكشف وحقق فمثله كمثل طائر نقر في البحر نقرة فهو وان روي بها ما اخذ منه مثقال ذرة ويكفي في ذلك دليلاً قول الله تعالى وما اوتيتم من العلم الا قليلاً ومن استنارت بصيرته وخلصت سريرته يرى جميع ذلك مما اندرج تحت مفهوم قوله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون .

فقال الخواجا وازيدك انك اذا تاملت في المطر حال نزوله وجريانه في مجاريه وجدت ذلك شبيهاً بتقطير الماء في الانبيق فان اشعة الشمس تكون كانها الفرن له والبحر الملح كانه الانبيق والجوّ المرتفع كانه تاجه والجهات الباردة من الجوّ وشواشي الجبال الشمالية المغطاة بالثلوج والبحور المنجمدة هي المبرد له والانهر والخلجان والبرك ونحوها هي الاوعية التي تردّ الى المالح جميع ما اخذته منه وهذا مستمر الى ما شآء الله فكلما اندفقت مياه الاوعية في الانبيق تصاعدت ثانياً ورجعت الى الاوعية ثم منها الى الانبيق وهكذا فالمآء الحلو الزلال الذي يشربه المصريون من نيلهم والباريزيون من نهرهم بل وسائر انهار العالم اصله من البحر الملح وانما حلا بتكرير الصعود والهبوط كما ذكرنا لانه يصعد اولاً بخاراً ثم ينعقد سحاباً ثم ينقلب بخاراً ثم مآء ثم ينزل ويجري في مجاريه ثم يعود الى البحر كما كان وهكذا ولذلك شبه بعضهم البحر برجل بخيل لان جميع ما يخرج منه لا بد ان يعود اليه حتى البخار الذي يخرج من الفم فانه يرجع اليه في صورة قطرة مآء

ومن عجيب لطف الله ان الابحر الاستوائية بفعل حرارة الشمس الشديدة على مياهها تسخن وتكون لها من ذلك درجة كافية تحفظها حتى تصل معها الى البلاد الباردة لتلطيف شدة بردها وقبل ان تكون مياه الامطار في الانهر والخلجان تقع على سطح الارض فتكون في المجاري الصغيرة التي في خلالها وتدخل في

الارض الهشة وبين الاحجار وفي جدور النبات وسيقانه وفي هذه السياحة تذيب ما فيها من المواد المعدنية المختفية في جوف الارض ثم تاخذها معها وتوزعها الى انواع الحيوان والنبات وقد تحد بغيرها فتكون مواد يسميها الكيماويون الادرات اوانها تكون في المناقع فتحلل البواقي النامية او تساعد في تعفين المواد النباتية وتخميرها ويتحصل عنها مواد فحمية وليس من دابها الدوام على حالة من الحالات وبعد ما تكون في جسم الحيوان والنبات بالصورة السائلة تخرج منه في صورة بخار وترجع الى الجوّ ومنه ترجع الى سائل او ثلج او بَرد او جليد ثم تنتقل عن ذلك وتكون بخارا ثم تنتقل الى ان تكون سائلا وهكذا فهي السائل الذي يجري في جدور النبات وعروقه والندى الذي يرى على ورق الشجر والدم الذي يجري في جسد الحيوان والرطوبة التي نحس بها والبخار المحرّك للوابورات والضباب المرتفع من اراضي المراعي وغيرها فهي المنبع الذي ياخذ منه كل حي قوامه فتكون جامدة وسائلة وبخاراً فلا تتغير من صورة من هذه الصور الا لتاخذ ما بعدها فاذا تركت البحر كانت على الارض لنفع الخلق وان تركت الارض ترجع الى البحر فتعلو الى الطبقات العليا من الجو وتنزل الى الطبقات السفلى من الارض وتصاحب الريح وتتبع ميل الارض وتكون في جوفها فتكتسب حرارتها وتخرج منها حامية حاملة من ذخائرها فلا يعوقها الصخر حتى تصقله وفي سيرها تنقل ثقاوي النباتات

وبيض الحشرات من ارض الى ارض وتقلب الرمل والتراب والزلط وتقلع الحجر والشجر وتخرق الارض وتهدم الجبل وجميع هذه الاعمال لاسباب دبرتها الارادة والقدرة لبقاء نظام هذا الكون والكلام في شرح ما وصل اليه علم الانسان من ذلك طويل وان شاء الله نجعل بقية الكلام في ذلك بكرةً فوق نهر السين ثم اوى كل الى فراشه وكانت ليلة ماطرة فناموا الى الصباح فاخذوا ملابسهم واشياءهم وتوجهوا الى النهر فركبوا السفينة وكان يعقوب قد اتخذ لهم في مقدمها خزانة فسيحة بامر الخواجا له فدخلوها وبعد برهة اخذت اطراف السفينة وشرعت تسبح فوق الماء واخذت كفات الطارة تضرب فى الماء فيحدث فيه رغوة ويزبد والسفينة تسرع في سيرها فصار الشيخ وولده ينظران الى البر والى الجبال والاشجار التي على طرفي النهر ويسرحان الطرف في النهر وما حواليه وخرير الماء يسمع بين الحشائش واحجار البر وتذكر الشيخ ما ذكره الخواجا بالامس وما ابداه من الاسرار والحكم واللطائف التي ترتاح لها النفوس وتطمئن لها القلوب فالتفت لابنه وقال له يابني العلم رأس مال الانسان وتجارة لا يعتريها كساد ولا خسران وبه حياة النفوس وهو اجل ما تحلت به الطروس وبه استنارت البصائر وهو الذي تنافست فيه الاوائل والاواخر ولقد احسن من قال

العلم يغرس كل فضل فاجتهد

ان لا يفوتك فضل ذاك المغرس

واعلم بان العلم ليس يناله

من همه في مطعم او ملبس

واحرص لتبلغ فيه حظا وافرًا

واهجر له طيب المنام وغلس

لتعز حتى لو حضرت بمجلس

أكرمت فيه وصرت صدر المجلس

ان الخليّ من العلوم مقامه

عند النعال له صموت الاخرس

فالعلماء مصابيح الازمنة كل عالم مصباح زمانه وذلك انه لا يرى شيئًا الا بحث عن اصله وسببه وما يؤول اليه امره وما يترتب عليه من خير وشرّ ونفع وضر هكذا دابه وديدنه ما دام حيًا فان مات بقي ذكره واما الجاهل فتراه لا يلتفت الى شيء الا عند احتياجه اليه فيشرب الماء ولا يعلم من امره الا عذوبته او ملوحته ويسقي به الزرع ولا يعلم سبب نموه منه ويأكل الثمر ولا يدري من اين اتته الحلاوة واذا مر بنهر عجب من اتساعه وتلاطم امواجه وتغير لونه وفيضانه ولا يبحث عن سبب ذلك فكم من خلق تولد وتلد وتموت على شاطئه وهم على فطرتهم الاصلية من الجهل بخلاف اهل العلم فان احدهم متى وقع بصره على شيء لا يهدأ له سر الا ان وقف على سره وكشف حقيقة امره فمن

ذلك النهر الذي نحن فيه فان اصله كما قال حضرة الخواجا
قطرات تصاعدت الى السماء ثم نزلت متفرقة فاجتمعت حتى
صارت نهرًا يجري على وجـه الارض يقتلع مـا قابلـه
من نبات وشجر واذا مرّ بارض تلوّن بلونها فتارة يكون اصفر
او الى الصفرة اقرب وتارة يكون اخضر او الى الخضرة اقرب وكلما
قرب من مصبه وهو البحر الملح تشعبت مجاريه وربما رجعت الى
خلف ثم استقامت وكما تختلف الوانه بحسب الارض التي يمر بها
كذلك تختلف اسماؤه على حسب ما على شواطئه من الجزائر
والعمران واذا جرى رويت منه الاشجار وشربت منه الزروع
فضلاً عن الاستعانة به في الاسفار وتقريبه ما بعد من الاقطار
فسبحان من دبر الكون بحكمته وسخر ما شآء كما شاء بقدرته لا اله
الا هو الفرد الصمد المنزه عن الشريك والمعين والولد

ثم التفت وقال للخواجا ارجو من جنابكم الاطناب في هذا
الباب

فقال ان ثلاثة ارباع الدنيا مغمورة بالماء ولكن منه المغذي
يرتوى به ومنه غير المغذي فالاول لا رائحة له وانما فيه جزء من
الهواء ذائب فيه وان طبخ به الخضراوات نضجت وصلحت وان حلل
به الصابون تحلل سريعًا وان غلي لا يتكدر وان قطّر لا يرسب
في اسفل انائه الا شيء قليل من مواد جيرية تلزم لتكوين
الحيوان ونموه فان كان فيـه جبس فلا تطبخ به الخضراوات لان

الجبس حينئذ يلتف عليها كالغلاف بعد تصاعد الماء فيمنع نضجها ويمنع ايضا ترغية الصابون واما الماء الذي لا يروي فليس فيه من الهواء الا شي يسير وبه مواد نامية متحللة فيه وذلك كما آلبحر المالح وما غالب الابار وماء البرك الراكدة واصفى المياه وانقاها ماء المطر الا انه لا يصلح للغذاء لخلوه عن القدر الكافي من الاملاح والهواء الذي يجعله سهل الهضم فبناء على ذلك تقدر ان نحكم بان جميع المياه الموجودة غير نقية فاذا كان الماء متكدرًا بالطمي والاتربة ونحوها ترك مدة حتى يروق بنفسه او بشيء يضاف عليه فان ظهر له رائحة كريهة حاصلة عن تحليل بعض المواد النامية وضع فيه قليل من فحم العظام المكلسة في افران مخصوصة داخل اوانٍ مقفولة فتشرب تلك الروائح وتلتقط ما فيه من المواد التي ينشأ عنها ذلك وتخلص الماء وتجعله نافعًا للاستعمال ويلزم تغيير الفحم متى ضاعت خاصته ومن المياه ما يشتمل على معادن متنوعة وغالبًا لا يشتمل الماء الواحد على اكثر من ثمانية او سبعة منها ولكن الحكم لاكثرها فيه ظهورًا فيسمى الماء باسمه كالمياه الكبريتية تعرف لكثرة الكبريت فيها برائحة تشبه رائحة البيض المذر واذا غمس فيه شيء من الفضة اسود والمياه الحديدية طعمها كطعم المداد ومنها ما يكون حارًا ومنها ما يكون باردًا وتختلف حرارة الحار منها بسبب بعد الطبقة الارضية النابع منها عن سطح الارض وعدم بعدها

فقال ابن الشيخ فالماء الذي تستعمله الاطباآ اي نوع هو

فقال الخواجا ذلك ليس منها وان كان لا يخرج عنها لان لهم فيه قبل استعماله اعمالا وذلك بان يضعوه في معوج من زجاج ثم يوقدوا عليه نارا فيصعد منه بخار فيجمعونه في زجاجة موضوعة في اناء فيه ماء بارد فمن ترك بعضه على بعض وفعل البرودة عليه ينحل الى الماء المطلوب ويسمى بالماء المقطر وهذا اذا كان اللازم منه قليلاً فان كان كثيرًا قطروه بالانبيق وهو عبارة عن اناآء من نحاس له غطاء مثقوب ركب على ثقبه ماسورة قد سلطت على كرة من زجاج موضوعة في ماء بارد وفي تلك الكرة ماسورة حلزونية تدور على نفسها داخل ذلك الماء البارد فحين يصل اليها البخار ينقلب ماء فيصب في اناء اخر وبقرب الالة ماسورة اخرى لتغيير الماء اذا ضعفت برودته فالماء المقطر خال عن الرائحة والاملاح والهواء ولذلك يكون ثقيلاً على المعدة ولو القي فيه سمك لمات وبالجملة فلا حصر لما اودع في هذا الجوهر اللطيف من الاسرار

فقال الشيخ وحسبنا في ذلك قول الله تعالى وجعلنا من الماء كل شيء حيّ حيث لم يقيد الماء بعذب ولا غيره ولا الشيء بانسان ولا غيره

فقال الخواجا ومن وصل الى شواشي الجبال الشامخة الموزعة فوق كرة الارض يطلع على الحكم العظيمة التي اودعها الباري

سبحانه في هذا الجوهر العظيم ففي شواشي تلك الجبال تكون منابع الانهر والخلجان الجارية في جميع الارض وهي عبارة عن بحائر صغيرة بين جبال فيجتمع في تلك البحائر ما ينزل من السماء وما يذوب من الثلج الدائم المكسوة به رووس الجبال الشامخة فترى للجبال حكمة تجمع المياه التي استعارتها السماء من البحر بواسطة الشمس وحكمة ردها الى البحر ثانيًا بواسطة الانهر والخلجان ونحوها فوضع الجبال على الارض تابع لقاعدة ثابتة وقانون لا يخل به نظام العالم فترى سير الانهر دائمًا تابعًا لسير الجبال فسلاسل الجبال الاصلية من الدنيا القديمة خط سيرها من الغرب الى الشرق وفروع الجبال الخارجة عنها من الشمال الى الجنوب فنهر الفرات وخليج لعجم والنهر الاصفر والنهر الازرق وسائر انهار الصين اتجاه سيرها من الشرق الى الغرب وانهر اوروبا وافريقا واسيا والبرك والابحر المتوسطة كبحر الروم والبحر الاحمر تسير من المشرق الى المغرب او من المغرب الى المشرق ولم يخرج عن ذلك الا نيل مصر وبعض خلجان ببلاد المغاربة وماء المطر الذي ينزل على سطح الارض منه ما تشربه الارض ومنه ما تبتلعه فيجري في جوفها الى ان يصادف طبقة لا يقدر على النفوذ منها فينبع سطحها ويتجمع ويتكون منه ماء متسع فاما ان ينصرف الى البحر او الى الانهر او يبقى في هيئة برك تفعل عليها احوال موضعية تردها الى سطح الارض وهناك انهار وخلجان تكون اولاً على سطح الارض

ثم تغوص في باطنها بعد مسافة عظيمة من سيرها ومنها ما يختفي
ولا يعلم امره ومنها مــا يختفي مسافة ثم يظهر كنهر جوديانا ببلاد
الاندلس يختفي في ارض مستوية مكسوة بالعشب والمرعى ثم يظهر
ثانيًا بعيدًا عنهــا ونهر الموز في فرانسا يختفي بالقرب من
بلدة باروى ونهر الدروم منها ايضًا في ولاية النورماندي يختفي
في وسط ارض مستوية وينصرف في جوف الارض في فتحة قدرها
عشرة امتار وامثال ذلك كثيرة ومن البحائر ما يجف في بعض
الازمنة ويغور ماؤه في جوف الارض ويزرع موضعه ثم في الوقت
المعين ينبع الماء فيملأها ثانيا كما كان كبحيرة كيركينتز من ارض
الكارينول وقدرها فرسخ عرضا وفرسخان طولاً فتكون في فصل
الشتا غامرة بالماء وفيها من السمك والسفن ما لا يحصى فاذا جاء
الصيف تفتحت لها عيون من اسفل الجبال المحيط بها فتبتلعهــا
بعد اربعة اسابيع وتزرع ارضها فاذا تم الحصاد تفتحت تلك
العيون بعينها وجرى المــاء حتى تمتلىء وتعود كما كانت وكان
بالقرب من قرية سبليه في ولاية الانجو عين ماء قطرها من خمسة
امتار الى ثمانية كانت تغور تارة فتظهر معها انواع شتى من السمك
وسطح الارض مركب طبقات بعضها فوق بعض فيها مجار للماء
متنوعة على ابعاد مختلفة وقد قابل المجس بقرب ناحية دبيب في
قرية سنّيقولا مجاري مياه تقرب من ماء يجري مفصولاً بعضها عن
بعض بطبقات الارض ووجدوا بهــا اغصانا عليها ورقها وهذا

دليل على انها لم تمكث زمنا في باطن الارض وان للماء الذي على وجه الارض اتصالاً بما في باطنها وقد يحصل في بعض العيون زيادة ونقص ولكن لا تظهر الزيادة الا بعد نزول سيل في جهات بعيدة فيعلم ان تلك الزيادة من ذلك السيل ويختلف سير الماء في جوف الارض سرعة وبطئًا وكلما بعد عن سطح الارض اشتدت حرارته فلذا تجد ماء العيون يتفاوت في الحرارة ويختلف ايضا في كثرة المواد الذائبة فيه وقلتها والان قد استعمل الاطباء كثيرا منه في معالجة علل مختلفة

وقد بلغني عن بعض السياحين انه رأى عيونًا في اسلنده تنفجر من باطن الارض فتتدفق دفقات بين الدفقة والاخرى نحو نصف ساعة وكل دفقة عمود من الماء غلظه نحو ثمانية عشر قدما فيرتفع في الجو نحو مائــة وخمسين قدمًا ثم ينحني وينزل على الارض فيختفي في جوفها فتنفتح لها عيون فتبتلعها وقبل تدفقها يسمع لها دوي وقرقعة وقد ينتشر فوق تلك العيون من الابخرة سحابة حاصلة من تبخر الماء وفي زيلندة الجديدة لا حصر للعيون التي تدفق الماء والبخار وبعضها عظيم جدًا تملأ الدفقة منه حوضًا محيطه نحو ثمانين مترًا فمن كل ذلك يعلم ان الماء كما يجري على وجه الارض يجري في باطنها وان له اعمالاً في باطنها كما له في ظاهرها فاذا كان على وجه الارض دخل في اخليتها ومسامها فان تسلطت عليه البرودة جمد واثر في الصخور فيفصلها عن [illegible]

ويلقيها في الوديان وفي الارض اللينة يذيب المواد القابلة للذوبان ويأخذها معه في سيره وبملامسته للصخور الهشة والاحجار اللينة يدخل بين جواهرها فيحللها ويزيل تماسكها فتتفتت وتنعدم وتنتقل اجزاؤها الى غير مواضعها والحصى والاحجار المسحوبة مع الماء تنبري بملامستها لقاع مجرى الماء واحتكاكها مع ما يوجد به من الحجارة وغيرها ودائمًا تأخذ في صغر الحجم وقلة الوزن حتى تدق وتعلق بالماء فالصوان وجميع انواع الاحجار مهما كان تماسكها وشدة صلابتها لا تقاوم قوة الماء ويقلب الماء في سيره المستقيم المواد العائمة فيه وبملامسته للبرور يسويها وينظمها وبدخوله في اخلية الاجسام ومسامها يفتتها وكذلك اذا انتقل الماء من السيولة الى الجمودة ومن كل هذه الامور تتغير صورة الارض ولا ريب في ان الماء يأخذ معه كل ما اذابه من الاحجار لما هو مقرر من ان زنة الشيء في الماء اخف من زنته في الهواء وقد اثبت ارشميد الحكيم ان الجسم اذا وضع في الماء خف بقدر زنة الماء الذي حل الجسم محله

وحيث كان الثقل النوعي لكثير من الاحجار لا يزيد عن ضعف الثقل النوعي للماء علمنا ان كل ما يأخذه الماء معه ينقص من ثقله قدر نصفه

وقد اختبروا الانهار بالنسبة لما فيها من المواد الطينية فوجدوا في كل مائة وستين جزءًا من وزن ماء نهر (البو) جزءًا من الطين وفي كل مائة جزء من ماء النهر الاصفر جزءًا من

الطين واما نهر الكنج الذي يصب في الملح وقت فيضانه ففي كل ثانية من الماء الفان وثمانمائة وخمسون طولوناته فيصب من الطين في كل عشرة ايام ما قدر ضلعه الف متر واما في غير وقت فيضانه فيقذف هذا القدر في ثلاثة اسابيع وقد قدروا حجم ووزن ما يلقيه هـذا النهر في كل سنة فوجدوه قدر الهرم المصري الكبير باثنتين واربعين مرة وما يلقيه في اربعة اشهر فيضانه قدر اربعين هرماً وهذه المقادير التي يلقيها هذا النهر في البحر ولا يشاهدها الانسان تحتاج في نقلها الى مائة سفينة كل سفينة تحمل مليونا واربعمائة الف طولوناته وذلك بالنسبة لما يقذف به هذا النهر في وقت الفيضان فما بالك لو اضيف الى ذلك ما يقذفه في السنة وكذا ما يقذفه كل نهر وخليج من الانهر والخلجان الموزعة على سطح الارض فان ذلك يوقع الفكر في الحيرة ويحقق ان الماء من آيات الله القوية الموكول اليها تغيير احوال الارض واوضاع الخلق

وحيث كانت مياه جميع الانهار مجمعة من جهات مختلفة بعضها على سطح الارض وبعضها خفي يجري تحت الارض فيلزم ان تشتمل المياه على مواد كذلك ذائبة فيها كالجير والجبس وانواع الاملاح كالمنيزيا والسلجم وتراكيب حديدية وغيرها وبانصباب تلك المياه في البحر تتغير ملوحته وتضر بحياة ما فيه من الحيوانات ان لم يكن هناك من حكم الله تعالى ما يمنع ذلك ويبقي له حالته

الطبيعية وتلك الحكم اودعت فيما ينبت في قاعه وشواطئه من النباتات فانها تاخذ الاملاح المعدنية وتقصرها على نفسها فيتخلص منها الماء ويكون على حالته الاولى موافقاً لطبيعة ما فيه من الحيوانات

وحيوانات المحار والشعوب لا تتغذى الا من المواد الجيرية فبعد ان تاخذها في جوفها وتسد بها جرعتها تقذفها في البحر محاراً وشعوباً فانظر الى نقط المطر الصغيرة الواقعة فوق قمم الجبال في سيرها كيف تحمل المواد الجيرية وغيرها لتكون طعمة للحيوانات الاخطبوطية الصغيرة ثم تقذفها تلك الحيوانات من اجوافها فتجعلها مسكناً لها ثم تتراكم شيئاً فشيئاً فتصير حجراً ثم شعباً الى ان تصير جزيرة وتكسى بالنبات ويستحوذ عليها الانسان فيكون منه مسكنه وقوته

ثم ان اندفاع مياه الامطار يختلف قوة وضعفا باختلاف عظم الانحدار وقلته وفي اندفاعها قد تقلقل الصخور الكبيرة وكثيراً ما تسحب معها احجاراً قدر الحجر منها متر مكعب فاكثر فمن الحجارة ما يتراكم بعضه على بعض ومنها ما ينحدر مع الماء حتى يستقر في اودية بعيدة ومنها ما يجره السيل حتى يلقيه في البحر فيفتته حتى يصير رملاً فيدفعه الموج الى الشاطئ او الى الجزائر فيكون في وسطها او في سواحلها وكثبات الرمل التي نشاهدها في السواحل انما هي حاصلة من الصخور التي جلبها السيل من الجبال البعيدة

وفي الدنيا الجديدة انهر عظيمة العرض تجري في ارض غير

مستوية وتنحدر من المحلات الشامخة بسرعة شديدة واهل تلك البلاد لا يخشون الملاحة فيها وفي كثير من الجهات يفعل تيار الماء على الارض فياخذ معه الطين منها وفي سيره يتلف الشواطئ والبرور وياخذ فيه الطين بالتدريج حتى يصير نهرًا من طين

وفي سنة ١٨٥٣ شوهد تيار من الطين في جهة جبال الالب فكان اسود اللون قليل الماء وانصب في نهر الرون فاوجب فيضانه

وكثيرا ما شاهد السياحون من ذلك تيارات في بلاد البيرو وجاوى حتى صارت طبقة جديدة على وجه الارض وقد تجمد انهار البلاد الباردة فينحبس فيها كثير من الاحجار وغيرها وينتقل معها حيث سارت

وفي كثير من الانهر توجد شلالات مختلفة ينشأ عنها نقل المواد الترابية وغيرها وتغير شكل الاراضي فمن ذلك انهم رأوا قطعة الثلج طولها سبعة امتار فكسروها فوجدوا في جوفها حجرا ضلعه نحو متر

ومن ذلك نهر النياجارا بامريقة الخارج من بحيرة ايريه فانه بعد اثنى عشر فرسخًا منها ينصب من علوّ في منخفض عظيم الانخفاض وينحدر ويسيل حتى يختلط ببحيرة اونتاريو وهناك ينقسم بجزيرة الى هدارين عظيمين يسمع لدويهما صوت كصوت الرعد فياخذان ما قابلهما من حجر ومدر فبعضه يرسب في مجراهما

وبعضه يلقيه الماء على الشاطئ فيتراكم كالبناء فانظر كيف تسلطن الماء على ما انخفض وما ارتفع وفرق ما كان مجتمعًا وجمع ما كان متفرقًا فسبحان من خص ما شاء بما شاء وعمّ باحسانه من احسن ومن اساء ثم لا يخفى ان جريان الماء بهذه الكيفية يوجب غور مجراه وتاخر المصب عن موضعه

وقد شوهد سنة الف وثمانمائة وعشرين ان مصب نهر نياجارا المذكور تأخر عن موضعه الذي كان فيه منذ خمسين سنة نحو اربعين مترًا فلو فرض ان التاخر في الماضي كان على هذا النسق كانت مدة حفره للعشرة الاف متر التي حفرها نحو عشرة الاف عام وان كان لا يقال ذلك الا بعد علم ما كان عليه الوادي في مبداء امره نعم ان استمر التقهقر على هذا النسق امكن معرفة الزمن الذي كان يصب فيه بحيرة ايريه وان استمر الحال على ذلك فعمّا قريب تجف البحيرة المذكورة لان غاية عمقها لا يزيد عن ارتفاع الشلال ومن هذا القبيل نهر زنبيز بافريقه لان به شلالات مرتفعة جدًا يسمع لمائها دوي من بعيد ويرى على النهر بخار ورغاوي ترتفع وتنخفض وعرضه الف وستمائة متر فاذا وصل الى محل الشلالات تقطع وخرج من بين الصخر وهبط الى مكان عميق حوله جبال فيكون للماء حينئذٍ دوامات وتتلاطم امواجه فيسمع لها صوت مزعج ويصعد منها عُمُد من الماء بيضاء القواعد سوداء الرؤوس فاذا وصلت تلك العُمُد الى اعلى الصخور المحيطة به

انحدرت في مضيق هناك مع السرعة الشديدة والمزاحمة فمن تلاطم المياه ترى فوق الصخور سحابة من الزبد والرغوة وبسبب تراكم الصخور في ذلك المجرى الضيق جدًا ترى المزاحمة والملاطمة تكثر وتزداد فيرتفع الماء عن قاعه ويفيض على الشواطئ وتارة ينحبس في تلك الفوهة ويفعل في قاعها مع الشدة فيحفرها ويقلقل صخورها وبتمادي ذلك يتسع المجرى

وفي ارض السنيجال شلال نهر فيلو فان ماءه ياخذ معه حجارة حمراء من حجارة شواطئه ومن كثرة تقلبها فيه وشدته واستمراره يؤثر فيها ويصنعها على صور مختلفة فقد راوا على شواطئه في وقت التحاريق احجارًا متقوبة واحجارًا تشبه الصور والتماثيل واحجارًا عليها رسوم تشبه المعابد وصور حيوانات واشجار حتى اغتر بذلك العبيد القاطنون هناك وغلبت عليهم الاوهام الفاسدة فعبدوها ويوجد ببلاد سويجرة وجبال البيريني مصاب عجيبة الطفها شلال نهر الران القريب من شافوز والطف من ذلك الاثنا عشر مصبا النازلة من جبل باستدارة تعرف باستدارة جوارانى وهي عبارة عن حائط في شكل قوس ارتفاع دائره نحو الف ومائتي قدم وفي اعلاه الثلج دائما وفي خلاله اثنتا عشر فتحة كالطاقات تسيل منها المياه بالملامسة للحائط فلا يسمع لها الا صوت لطيف مع انها نازلة من مسافة اربعمائة واثنين وعشرين مترًا فاذا هب عليها النسيم لعب بها فيكون لها عند ذلك روية تسر الناظر

وتشرح الخاطر ومن اعمال الماء ايضًا ما يعمله في بعض السنين وهو انه اذا فاض من الثلوج او الامطار والسيول يعلو البرور والشواطىء ويهجم على اراضي الوديان ويكسوها بطبقة منه ولا يرحل عنها الا وقد ترك فيها طبقة من الزبد او مما كان اتى به من الطين ونحوه وبتوالي ذلك ترتفع الارض او قاع البحيرات وبجوار المالح تحدث ارض جديدة تزيد بالتدريج بما يلقيه البحر من جوفه فيها فتسكنها الناس وتكون مديرية في ولاية او ولاية كاملة جديدة يستحوذ عليها الناس وتكسى رونق العمارة بالمزارع والمباني والمنشآت الفخيمة وما يحدث من المواد الراسبة من المياه ثلاثة انواع من الاراضي الاول في قاع البرك والثاني في الابحر المتوسطة والثالث في افواه الابحر عند مصبها في المالح وقدر الطين الراسب من نهر الرون عند مصبه كبير جدًا حتى ان مدينة برتوس بعد ان كانت على شاطىء بحيرة جنوه قبل الان بثمانية عشر قرنًا صار بينها وبينه نحو الفي متر وكل حين تاخذ في الزيادة بما يلقيه النهر في البحيرة وفي الامريقا الشمالية في ارض كندا يرسب من البحيرة العليا التي هي اكبر بحائر الدنيا وهي قدر سعة اوربا بتمامها كمية عظيمة كل سنة من المواد فطمت ارضها واتسعت واستمرت آخذة في الزيادة والاراضي التي تتكوّن في مصاب الانهر تختلف بحسب الانهر فنهر الرون كوّن من رسوبه ارضا متسعة عند مصبه في البحر الرومي ويمكن قياس تلك الاراضي ومعرفة مساحتها من الاثار الموجودة الى يومنا

هذا وذكرها المؤرخون فمن ذلك برج تنيومين الذي كان بناوه سنة ١٧٣٧ من الميلاد فانه كان فوق البحر فصار بينه وبين البحر الان الف وستمائة متر وكذلك نهر البرونهر الاريج اللذان يصبان في البحر الادرياتيكي فقد حصل عن مصابها اراضي متسعة حتى ان بعض المين التي كانت تقف عندها السفن زمن اغسطس رُدمت بالطين وصارت مدينة بعيدة عن البحر عدة فراسخ وكذلك مدينة سبينا وكانت قبل الميلاد على شاطئه فصار الان بينه وبينها نحو اربعة فراسخ وخليج ايزوترول فانه تحوّل عن مجراه الاصلي وسلك طريقًا في غربي مجراه الاصلي بنحو فرسخ وامثال ذلك كثيرة

وهناك انهار لا تحول عن مجراها ولكنها برسوب الطين في نفس المجرى تأخذ في العلو والارتفاع وترتفع شواطئها فيكون النهر دائمًا منحبسًا فيها كنيل مصر ونهر المسيسبي ففي وقت الفيضان يكون سطح مياه النهر اعلى من سطح الارض بحيث لو انكسر جوفه لغرقت الارض وبسبب كثرة ما به من الطمي يرسب على سطح الاراضي طبقة منه فتعلو بها كل سنة وذلك هو السبب في ضياع كثير من الاثار القديمة والمباني فلو كان انصباب الانهر واقعًا في البحر المحيط عوضًا عن انصبابها في الانهر المتوسطة لدخل البحر الملح في الانهار بالمد والجزر الى بعد عظيم من النهر فلا يتمكن النهر من احداث اراضي بقرب مصبه .لان البحر ياخذ حينئذٍ جميع ما تأتي به الانهر من المواد ومن تمادي هذا الفعل يأكل مصب

النهر شيئًا فشيئًا ويدخل المالح في الاراضي ويتكون عنه خليج كبير ومينا عظيمة وقد يكون النهر قوي السرعة والحجم ويدافع عن مواده الراسبة في مصبه الا انها تتكون على التدريج ارضًا وتدخل في البحر كما شوهد ذلك في مصب نهر الكنج فانه تولد منه في البحر المالح لسان من الارض طوله نحو ثمانين فرسخا في عرض اثنين وسبعين وفي خلاله خلجان مالحة كبيرة وصغيرة وصار ارضا تأوي اليها الوحوش وكما ان الانهر تكسب الارض خصوبة وعمارا واهلها ثروة كذلك قد يحصل منها القحط وغلاء الاسعار وخراب البلاد وهلاك العباد وذلك اذا زاد فيضانها عن حده المعتاد وسبب الفيضان اما كثرة السيول واما الزلازل التي تنقلها عن مواضعها واما ذوبان الثلج الحابس لمستودع عظيم من المياه وكثيرا ما شوهد ان السيول تكسو الارض الخصبة بالاحجـــار والزلط والحصى وجذوع الشجر ونحوه فتصبح محلة بعد خصوبتها ومثل ذلك يحصل من ذوبان الثلوج وتيارها واهل كل بقعة تعلم اسباب فيضان نهرها ولهم طرق ووسائل لوقاية بلادهم من مضاره وتحصيل منافعهم من فيضانه

ومن عجيب فعل الماء ان منه ما يقلب كل ما القي فيه سواء كان حجرًا او نباتًا او حيوانًا او غير ذلك

فقال الشيخ واين يوجد ذلك وهل تخرج تلك الاشيا عن حقيقتها الاصلية عند صيرورتها حجرًا فقال له الخواجا اما وجود

هذا الماء فكثير واما انقلاب الحيوانات وغيرها فقد كثر فيه كلام المتقدمين والمتأخرين فمنهم من زعم انها تمسخ وتنقلب حقيقتهــــا ومنهم من قال ان تغيرها ليس الا في ظاهرها فقط وهي باقية على حقائقها وهذا هو الموافق للعقل لان في تلك المياه مواد جيرية مكيفة بحيث لو لمست شيئا لصقت به والبسته ثوبا غير ثوبه وعلى طول الايام تستحجر تلك المواد ومن هذا القبيل ما وجد بعيون نابعة جهة كليرمون وسانتالبر وسانتنكتير من فرانسا متى ألقي فيها شيء كسي بمادة جيرية على قدر صورته ثم يستحجر

وفي اسيا الصغرى بمدينة هيروبوليس عين بسفح الجبل من هذا القبيل يتكون عنها شلالات بسفح الجبل وكذلك بعض مياه الامطار التي تبتلعها الارض متى قابلت فجوةً في الارض او مغارات دخلت فيها وحدثت عنها اشكال عجيبة وسبب ذلك ان الماء يكون محملاً بحمض الكربون فيصادف في طريقه مواد جيرية فتحللها وتاخذها معها فمتى انصبت في مغارة او فجوة صادمت الهوا الجوي فينصاعد حمض الكربون وترسب المواد الجيرية في هيئات كثيرة وفي بعض المغارات الطبيعية يشاهد في سقوفها اشكال على هيئة الابر نازلة الى اسفل وهي حادثة من ماء معدني نفذ في خلال احجارها فيميل الى السقوط نحو ارضها لكن يبقى معلقا زمنا قبل السقوط وفي زمن تعلقه يفعل عليه الهوا الموجود في المغارة فيتبخر ويتخلص حمض الكربون وتبقى المادة

الجيرية وكلما نزلت نقطة حصل لها مثل ما حصل لما قبلها فيزداد بذلك الحجم والارتفاع وبعد زمن تكون تلك النقط في هيئة ساق ريشة طائر قاعدتها وهي ما غلظ منها بسقف المغارة وراسها نحو ارضها وبانضمام هذه الصور الى بعضها يكون لها هيآت واشكال لطيفة وبعد مدة ينسد الثقب ويسيل الماء عليها من ظاهرها بعد ان كان يسيل من باطنها وتصير مخروطية بعد ان كانت اسطوانية وما نزل منها الى الارض يتشكل باشكال تعلو فوقها وتكون مقابلة للاولى منها ما يكون طويلاً ومنها ما يكون قصيرًا غليظا او رقيقا وبعضها يتصل بالاولى او يقرب منها حتى ان من لا خبرة عنده بذلك اذا دخل تلك المغارات ورأى تلك العمد على هذه الهيئات ظن ان ذلك من اعمال القدما الذين محيت اثارهم وغابت عنا اخبارهم وامثال ذلك كثيرة منها ما هو في مغارات جبال البيريني قرب بيزنسون من فرانسا ومنها ما هو بجزائر اليونان بمغارة انتباروس ومغارة حان ببلاد الفلمنك ومغارة ارسي في بلاد سفوا ومغارة كردال ببلاد الانكليز وبالمديرية التي بها مغارة حان نهير صغير يجري الى ان يصل جبلاً شاهقا هناك فيسير تحته الفا ومائتي متر ثم يظهر صافيا لا كدورة فيه بعد ان كان محملاً بالطين والمواد الارضية فالمواد التي كانت فيه شربتها الصخور التي مر عليها فكانه في سيره يمشي فوق تلك المغارة وهي مركبة من اثنين وعشرين عنبرًا

عبارة عن مغارات واولها تحت الارض بنحو خمسمائة قدم وطولها مائتان وعرضها ثلاثمائة وخمسون يقولون ان سبب تلك العنابر زلازل حصلت من قديم الزمن وفي قاع بعض البرك المعدنية حجارة عجيبة اصلها رمل يرتفع عند طغيان الماء فتلتف عليه المواد المعدنية فينقل ويقع في القاع وياخذ في الكبر بما يرسب فوقه منها وبعد مدة يصير صخورًا ضخمة عبارة عن تجمع حجارة كروية كما راءوا ذلك في بركة ويشي وكرلسباد وفي تيفولي قرب رومة

المسامرة (١١٨)

فسحة خارج باريس

وبينما هم في الحديث وقفت بهم السفينة فنزلوا واحضر يعقوب لهم عربة فركبوا وسارت بهم وسط غابة واسعة ارضها غير منتظمة

الى ان وصلوا مدينة عالية البنا واسعة الارجآء تشبه باريز في
طرقها وحوانيتها واسواقها فسال الشيخ عنها فقيل له انها تسمى
باللغة الافرنجية فنتين بُلُو اي العين الزرقاء ولها شهرة عند الامة
الفرنساوية وذكر في تاريخهم لما فيها من الاثار الغريبة ثم وصف
الخواجا لسائق العربة المحل الذي يقصدونه فسار حتى وقف
ببابه وكان صاحب المنزل غائباً فخرجت لهم زوجته وقابلتهم بالبشر
وحيّتهم وادخلتهم الى محل الجلوس فاجلستهم وامرت لهم بالقهوة
ثم ارسلت الى زوجها فحضر فسلم عليهم ورحب بهم وزاد في اكرامهم
وقال للخواجا لقد طوقتني مننًا لا اقوم بشكرها حيث شرفت منزلي
بحضرة الشيخ وولده فاجابه الخواجا بكلمات تستجلب المحبة وتجري
في العادة بين الاحبة وكان ذلك كله باللغة الفرنساوية فلم
يفهم الشيخ منه شيئًا فلما رأى صاحب المنزل عدم فهمه لكلامه
حول الكلام الى اللغة العربية الا انها بلسان اهل المغرب لانه
اقام بالجزائر عشر سنين فلما سمعها الشيخ قال للانكليزي لقد
قلدتني قلائد الامتنان اذ عرفتني بمن يعرف هذا اللسان فقال له
الخواجا هذا بعض ما يجب علينا وسنرى منك في بلدك ما تراه منا
هنا فتبسم الشيخ وقال لانت اعلم مني باحوال بلدي

ثم التفت الى ابنه فرأى سيدة البيت تتكلم معه ايضاً
باللغة العربية فقال لزوجها اظن ان الست كانت معك حين
كنت بالجزائر فقال لا ولكنها ولدت بمصر ولم اتزوجها الا بعد

خروجي من العسكرية ورجوعي الى بلدي مرسيليا وهي اعلم باللغة
العربية مني فقال لها هل كانت اقامتك بالقاهرة نفسها او بقرية
من قراها فقالت كانت ولادتي باسكندرية وكانت بها اقامتي الاّ
ان والدي كان في فصل الشتاء يتوجه الى مصر وياخذنا معه
فنقيم بها مدة الشتاء بسبب متجر كان له وكثيرًا ما سافرت معه الى
دمياط والمنصورة وطندتا والمولد الاحمدي وسافرت معه مرة الى
الوجه القبلي ورأيت الاثار القديمة التي باسنا وادفو والكرنك
فقال لها الشيخ لانت بارض مصر اعلم مني فاني لم اسافر الى الجهات
القبلية بل يظهر ان علمك بتلك البلاد اكثر من علم اهلها بها
فقال زوجها وكذلك كان لها عليّ حق التعليم فاني ما تعلمت
الخط العربي ولا المطالعة في الكتب العربية الا منها لاني حين
خرجت من العسكرية ببلاد الجزائر كنت لا اعرف الا الكلام
المتعارف دون القرآءة فقال الشيخ وحينئذٍ تعرف الست القرآءة
والكتابة فقالت نعم كان والدي حال صغري يرغب في تعليمي
اللغة العربية فاحضر لي معلمًا فكان ياتيني كل يوم فعلمني
القراءة والمطالعة وقرات عليه القران والاجرومية وشرح الشيخ
خالد في علم النحو وعندي بعض من كتب العربية بخط اليد
ساطلعك عليها وكان معلمي عليه الرحمــة بارعًا في فن الخط
فتعلمت منه الثلث والرقعة والنسخ ولكن الان ضاعت مني القاعدة
ومع ذلك اكتب خطا مناسبا واغلب مـــا اكتبه هنا الخط

الفرنساوي فقال الشيخ هذا من اعجب المصادفات وانسر لذلك
واكثر من شكر الخواجا على تعريفه بهم فقال صاحب البيت ان
فرحنا بك اشد من فرحك بنا فاني مولع بحب مصر واهلها وكثيراً
ما تحدثني زوجتي باخبارها فتزداد رغبتي في التوجه اليها ولا بد
ان شاء الله ان نسافر اليها ونجتمع هناك فان الست مشتاقة الى
زيارة قبر اخ لها مدفون هناك بل كلما جاء الشتاء واشتد البرد
وتجرّدت الاشجار من زينتها وكسيت غصونها بالثلج تحنّ الى مصر
وطيب هوائها وتذكر كثرة خيرها وقناعة اهلها وما زالوا يتحادثون
في هذا المعرض حتى حضرت المائدة فاكلوا ثم دخلوا البستان
وطافوا في نواحيه فكانت الست تتكلم مع ابن الشيخ فتارة تصف
له ما يستغربه من الشجر والنبات وتارة تحادثه في مصر واحوالها
الى ان رجعوا فقال صاحب المنزل للشيخ لا بأس ان تستريح هنا
من وعثاء السفر واخذ بيده وادخله غرفة مهيأة وقال له كن
عندنا كما تكون في بيتك وها هو انطوان الخادم تحت امرك وطوع
يدك ونادى انطوان وامره بطاعة الشيخ في كل ما يريد وكان
يعرف اللسان العربي تعلمه بالجزائر فشكر الشيخ هذا الصنيع ودخل
الغرفة ونزع ثيابه وطلب ماء فتوضأ وقام فصلى ثم نام فلما اصبح
دخل عليه ولده وقبّل يده كعادته فقال له والده ماذا رأيت
في هذا المكان وكيف صحتك فقال احمد الله على كمال الصحة
ووالدي كيف كان نومه الليلة فقال من احسن ما يكون وشتان

ما بين هوآ هذه الدار وهواء مدينة باريز وان شاء الله نقيم هنا مدة
فقال لابيه وماذا تصنع في الدرس الذي وظفته على نفسك فقال
ان هما الا يومان في الجمعة وقد اخبرني حضرة الخواجا ان بين ما
هنا والمدرسة بباريز بعض دقائق في السكة الحديدية فنتوجه
للدرس ونعود مع الخواجا ففرح ابنه بذلك لانه كان يحب الاقامة
بباريز لكثرة ما بها من المستغربات

ثم حضر الخواجا الانكليزي وبعد ان سأله عن صحته
قال يلزم ان نقسم الايام التي نقيمها هنا على الاشياء التي
تحب ان تراها فهل نجعل وقت التفرج قبل الظهر ام بعده فقال
الشيخ الامر لك فانك بذلك ادرى ولكن اظن ان جعلها بعد
الظهر اولى لنجعل ما قبل الظهر للمراجعة وللتصحيح ووافقهم صاحب
البيت على ذلك ايضًا وقال ان اكثر التفرج يكون في الغابة
فتارة نمشي على الاقدام وتارة في العربة بحسب قرب الاماكن
وبعدها وتارة نستعمل الاثنين معًا وقد اخذت من الان في
ترتيب الفرج وكيفيتها حتى تطلعوا على جميع ما يلزم
فكانوا كل يوم يخرجون على هذا النسق وكانت تخرج صاحبة
المنزل مع ابن الشيخ ويخرج زوجها والخواجا مع والده واقاموا نحو
شهرين على هذه الحال حتى نسوا ألم الغربة وفراق الاهل والاحبة
لان ابن الشيخ كان عند صاحبة المنزل بمنزلة اولادها خصوصًا
وقد كانت تعلمه اللسان الفرنساوي وتشرح لهُ جميع ما يقع عليه

نظره مع الفصاحة والمعرفة ولكن ما انساه حب باريز واهلهـا زيادة الا ابنة لهم تسمى مريم كانت تدخل وتخرج معه وكانت ذات حسن وجمال وقد واعتدال تخجل البدر بطلعتها تعلق قلبها به وتعلق بها فكانت تهواه ويهواها ويرى خيالها اذا غابت عن عينيه حتى كان اذا جاء يوم التوجه الى باريز للدرس يتعلل بتعللات موجبة للتخلف بعد ان كان لا يوءثر شيئاً على التوجه الى باريس فكان يترك والده مع يعقوب عند الست ويذهب الى الدرس فيكون تارة مع الست وتارة مع البنت ويقضي الاوقات في انواع المسرات وازداد افتتانه بالبنت وتمكنت بينهما الألفة وكان كما قال القائل

تولع بالعشق حتى عشق   فلما استقر به لم يطق
رأى لجة ظنها موجـــة   فلمّا تمكن منهـا غرق

وفي ذات يوم توجه والده الى باريز للدرس واخذ معه يعقوب وترك ابنه في البيت فامرت الست خادمها انطوان ان يخرج به وباولادها الى التنزه فاركبهم جميعاً عربة وسار بهم واخذ برهان الدين ومريم باطراف الاحاديث والمفاكهة ثم نزلوا ومشوا وهي تحادثه وتساله عما اعجبه في فرانسا ويجيبها وهو غريق في بحار جمالها الى ان وصلوا هضبة كسيت بالاشجار ونبع ماؤها من بين الاحجار فصعدوا عليها فكانت مريم تري برهان الدين نهر السين والبلاد التي عليه والطرق الموصلة لباريز فكان نظره في خلال وصفها لا يفارق وجهها وكذلك هي

لا تفتر عن النظر اليه كما قال الشاعر

نظر العيون الى العيون هو الذي

جعل الهلاك الى الفؤاد سبيلا

ثم وصلوا الى مخدع سقفه غصون الاشجار وفرشه انواع العشب والازهار فاطمأنوا فيه برهة ثم نزلوا من فوق الاكمة وداروا في ارجاء الغابة الى ان وصلوا فضاءً بين ثلاث اكمات فصعدوا احداها فراى برهان الدين حول الغابة ارضاً منزرعة ليس فيها شيء مما في الغابة فسال الخادم عنها فقال هذه الارض كانت قبل الان مغطاة بالاشجار المرتفعة وفي كتب التاريخ ان اشجارها كانت متواصلة وكلما تنعطف الى الشمال تزداد التحاماً والتفافاً وارتفاعاً والارض الخالية من الاشجار كانت بركاً ومناقع كما قاله استرابون فكان البرد يزداد بسببها حتى يبلغ درجة يعسر معها نبت شجر الزيتون والتين والعنب ولم تكثر بها الزراعة الا بعد استيلاء الدولة الرومانية عليها فزرع بعضها وبقي بعضها غابات يأوي اليها الفارّون من ظلم الرومانيين فلما اتت دولة القوم المتبربرة وهم الالمانيون وذلك سنة ٢٥١ للميلاد واستولوا على ارض الجول قسم روءساوهم تلك الغابة بينهم وابقوها على ما هي عليه وجعلوها محلاً للصيد ومنعوا غيرهم من الصيد منها وجعلوا قصاصات شديدة على من يخالف ذلك فكان كل من قتل حيواناً يقتل فيه فكثرت بها السباع والوحوش والضباع حتى كانت تفترس الناس وتفسد

عليهم زرعهم وتهلك ضرعهم من غير ان يكون في قدرتهم منعها فكان نصف الارض للوحوش ونصفها الاخر تشارك فيه الاهالي لانها كانت تسطو عليهم فتهلك الاطفال والزرع وتقطع السبيل ومن شغف الملوك والامراء بها كانوا يتهادون بها فيما بينهم فمن كان في قسمه وحش ليس في قسم الاخر هاداه به فيرسله في غابته ويخلي سبيله لينتج فيها ويكثر واستمر الامر على هذه الحال الى القرن الرابع عشر من الميلاد ثم اخذت الغابة في النقص وارض الزراعة في الزيادة وبعد ان كانت هذه الغابة وغابة وانسين وبولونيا متصلة ببناء باريز صار بينها وبينها ما ترى هذا حاصل ما قيل في هذا المكان وما كان عليه من اول الامر الى ما هو عليه الان

فقال ابن الشيخ هكذا الدهر كله عبر ولكن لمن تامل واعتبر الدهر لا يبقى على حالة فطوراً يضر وطوراً يسر

المسامرة (١١٩)

القطن

ثم رجعوا وكان برهان الدين متغيرًا مشغول الخاطر بالغرام ولما وصلوا وجد والده مع الخواجا موريس يتمشيان في طرف البستان قريب شجرة ارتفاعها نحو خمسة امتار وهي كثيرة الاغصان والورق وعليها ما يشبه القطن الهندي وكان بيد والده شيء من ثمرها فناوله لابنه وساله عنه فقال هذا يشبه ثمر القطن فقال الخواجا موريس هذه هي شجرة القطن التي تنبت في الهند والصين

فقال الشيخ ان القطن يزرع بمصر ولكن لا يكبر لهذا الحد فان غاية ارتفاعه متر ونصف او متران ومع ذلك ثمره اكبر من ثمر هذا

فقال الخواجا موريس انواع القطن ثلاثة احدها يكون شجراً كهذه ولوزه قليل ولكنه اجود الانواع والثاني النوع الهندي وهو الذي يزرع بارض مصر والثالث نوع اقصر من الهندي واغصانه تمتد على الارض ويعطي محصولاً كثيراً ثم تأمل في الحوض الذي فيه شجرة القطن فوجد النوعين الاخرين وبقربهما النيل والكتان فقال هذه النباتات المباركة وردت لنا من الشرق فالنيل ورد لنا من جهات العجم ومن زمن قديم يزرع باوروبا واول من زرع الكتان المصريون كما قال مرسيانوس وفي زمن موسى بن عمران كانت اقمشة الكتان معروفة وفي زمن الرومانيين كان الممدوح اقمشة الكتان المصرية وفي جميع الجهات قبل اشتهار زراعة القطن كان لباس الناس الكتان او الصوف ولكن الان صار القطن هو المستعمل غالباً لكثرة زرعه في الجهات فبعد ان كان لا يوجد باوروبا اصلاً كثر الان حتى صار يزرع في الجهات الجنوبية من ايتاليا وفي بلاد الاندلس وجزيرة صقليه وجزائر اليونان فقال الشيخ ان اول من ادخل في مصر القطن الذي هو بها الان المرحوم محمد علي باشا وقبل ذلك كان يزرع نوع منه يعرف بالقطن البلدي كانت الاهالي تزرعه حول اراضيها وفي قطع ارض قليلة فتاخذ الاغنياء منه لكبس المساند والوسائد والطوالات وكان بعض الاهالي يغزلونه ويصنعون منه اقمشة غليظة للملابس ومما يتعجب منه ان الاهالي لم تزرع القطن الهندي الا

برغم انفها بعد ان عين المرحوم محمد علي باشا لذلك مفتشين وحكامًا وعين مقادير تزرع كل سنة في كل جهة وتوعد كل من تاخر في شيء من ذلك بالعقاب الشديد فكانوا يعدون ذلك اذ ذاك ظلما فلما علموا فوائده رغبوا فيه بانفسهم ولولاه ما امكنهم التحصل على ما يسددون به ما يطلب منهم للميري وغيره

فقال الخواجا هكذا كان حالنا مع اهل الجزائر وحصل مثل ذلك ايضا في جهات كثيرة وفي الازمان القديمة كانت هذه النباتة النافعة معلومة في بلاد الهند وكانت تنبت وحدها بارض مصر والشام وبلاد العجم وهي التي تكلم عليها استرابون الجغرافي وبلين المؤرخ وسمياها صوفًا حيث قالا انه يوجد في هذه البلاد الصوف على الاشجار بكثرة وكان قسيسوا مصر في زمن الفراعنة والبطلموسيين يجعلون منه الملابس الرسمية وثيابه معروفة في الهند وقد تكلم عليه المؤرخون كثيرًا وكانت العرب تتجر به الا ان اليونان والرومانيين الى اخر القرن الاول من الميلاد كانوا لا يعتنون به في الملابس بل كانوا يلبسون حسب درجتهم فبعضهم يلبس الكتان وبعضهم الصوف وبعضهم الحرير وبقيت اوروبا ثلاثة عشر قرنًا ميلاديًا لا تعرف القطن ولا اقمشته وانما كانوا يستعملونه فتائل للقناديل

وفي سنة ١٢٥٢ ميلادية ظهر ببلاد القريم والمسكوف وكان يجلب اليهم من بلاد التركستان وكان له في تلك الازمان ورش ببلاد

الارمن والعجم ولم يعرفه الصينيون الى اخر القرن الثالث عشر مع
انهم بجوار الهند ومن ذلك الوقت اشتغلوا بزراعته اشتغالاً كليًا
حتى تركوا من اجله جميع المزروعات وتسبب عن ذلك قحط لم
يسمع بمثله فصدرت اوامر سلطانية بتحديد قدر ما يزرع منه ومنع
الزيادة عليه وعقاب من تعدى بالموت فقل الاحتفال به
شيئًا فشيئًا حتى صار يزرع ما يلزم لاهالي تلك المملكة منه
وفي وقتنا هذا يشترونه من خارج مملكتهم وقد حصروا ما يتحصل
لهم من زرعه كل سنة فوجدوه خمسمائة الف بالة وذلك عبارة
عن خمسة وسبعين مليونًا كيلوجراما وهذا قليل جدًا بالنسبة
لما يكفي لوازمهم فحصروا ما يرد اليهم محلوجًا من جهة الايتازوني
فوجدوه خمسة واربعين مليونا كيلوجراما غير ما يرد منها ومن
الهند مشغولاً وذلك نحو عشرة ملايين كيلوجرام فجميع محصول
زراعتهم وما يرد لهم من الخارج مشغولاً وغير مشغول نحو مائة
وثلاثين مليونا ولا شك ان هذا القدر قليل بالنسبة لهم لان
عدد اهالي بلادهم يبلغ نحو اربعمائة مليون ويؤخذ من سير
السياحين ان تسعة اعشار الاهالي من نسآ ورجال يلبسون
القطن وكلهم يجعلون منه بنطلونات واسعة فاذا اعتبرنا ذلك
مع ما يستهلكه كل شخص من جهات الدنيا غيرهم يمكن
ان نحكم بان قدر القطن المصنوع في ورش الصين والوارد
من الخارج يقرب من سبعمائة وخمسين مليونا كيلوجراما اي

قدر مـا يستهلكه اهل اوروبا بتمامها والايتازوني من الامريكا

والى الان لا يعلم قدر ما تستهلكه اهل الهند بالضبط بل اختلف فيه المؤلفون وقدر لكل شخص من المائة والخمسين مليونا من الاهالي عشر ليورات انكليزية وبناء على ذلك جعل اللازم لهم من القطن الفًا وخمسمائـــة مليون ليوره في خصوص الكسوة ونحوها خلاف الاشياء التي تصنع منه

ثم ان وجود القطن في الازمان القديمة بجهات امريكا لا شك فيه والدليل على ذلك ان اكفان الموتى الذين اخرجوا من قبورهم كانت من القطن

ولما استكشف كرستوف كلومب الامريكا وجد اهلها لابسين من اقمشة القطن ولما استكشف الشهير فيرناندكورتيز ارض المكسيك وجده مزروعًا بها وارسل الى الملك شرلكان هديـة من اقمشتهم منه وكانت مناديل وثيابًا ملونة باجمل الالوان متقنة الصنعة والصباغة وقد قيل انه كان يصنع بهذه البقعة ورق الكتابة من القطن في سالف الازمان وكذلك كان القطن معروفا عند اهالي بريزيليا كما اشار الى ذلك ماجيلان الملاح عند استكشافه البغاز المسمى باسمه ووجد السياحون شجرة القطن نابتة بنفسها بشواطئ نهر المسيسيبي

فقال الشيخ وقد وقع لي بعض رسائل في هذا المعنى فرايت

فيها ان هذه الشجرة كانت معروفة ببلاد الاندلس ايام كانت في يد المسلمين وانها كانت تزرع في جهات كثيرة منها وكان لنسجه معامل في مدن عديدة منها كغرناطة وكوردو وغيرها وكانت الاقمشة الاندلسية تساوي الشامية وربما فاقتها في الجودة وحيث كانت الاندلس من اوروبا فلا بد ان الاوروباويين انما اخذوا منافع هذه الشجرة عن الاندلسيين وقد سمعنا ممن ساحوا بافريقيـــة الداخلية وبلاد الحبشة ان القطن ينبت في ارضهم بنفسه

فقال الخواجا ان ذلك حق فان السياحين كتبوه وذكروا انه يوجد بالسواحل القريبة من افريقه مثل ارض السينيجال وعنام وغيرها

واما وجوده في اوروبا فكان في اواخر القرن العاشر وكانوا قد اخذوه عن العرب ولكن كان غير مستعمل بسبب اوهام دنيئة كانت تدخلها النصارى على الناس لكراهتهم في دين من نشر زراعته

واول ظهور معامل نسجه كان في اواخر القرن الرابع عشر من الميلاد ببلاد ايتاليا واول من نقل منه الى بلاد الانكليز تجار البندقانيين

وفي سنة الف واربعمائة وثلاثين ابتدا ظهور اقمشته ببلاد الانكليز ورغبت فيه الناس وكثرت معامله من حينئذٍ والى سنة

الف وستمائة واثنين وخمسين كان لا يلبسه غير الخدم والرعاع والى سنة الف وسبعمائة وثلاثة وسبعين كانوا يجعلون منسوجاتهم قيامها من الكتان واللحمة من القطن ومع ذلك لم يكثر كثرة عظيمة الا من وقت ورود محصول امريكا الى بلاد الانكليز

ومما يستغرب من امر القطن ان اول من زرعه بكثرة بامريكا للتجارة قوم مهاجرون من اوروبا استوطنوا راس فيار من ارض الغلوريد ولما رأت الاهالي نجاحه اخذوا يزرعونه واكثروا منه شيئا فشيئا الى ان صار اساس الزراعة بامريكا الجنوبية والشمالية واولا كانوا يزرعونه خطوطا متباعدة ثم راوا ان التقارب يفيد محصولاً اكثر فصاروا يقربون الخطوط من بعضها ويمدونه فزاد المحصول وحسن الزرع ومكثوا زمنا يفضلون في تقاويه البذر المجرد عن الوبر ثم اتضح لهم من تجاريب عديدة ان البذر المكسو بالوبر اكثر محصولا واجود لانه اكثر شعرًا واصغر بذرًا فمن ذلك العهد صاروا لا يستعملون الاّ البذر المكسو بالوبر ثم تحصلوا على نوع منه طويل الشعر ذي صلابة ونعومة فوجدوه اجود انواعه لان شعره يتصل بعضه ببعض في النسج بسهولة ويتيسر تدقيق عزله الى الغاية المطلوبة وقد تحصلوا من نصف كيلوجرام من قطن السيلان على فتلة رقيقة جداً بلغ طولها قريبا من ثمانين فرسخا وقطن مصر من هذا الجنس الطويل الشعر والذي جلب

لهم بذره رجل فرنساوي اسمه جوميل سنة ١٨٢٠ بامر المرحوم محمد علي باشا فاتى به من دنقلا ببلاد النوبة ثم جلب بذرًا من الجويرجي من امريكا من قطن يسمى بقطن سيا اسلند اي قطن الجزائر (وقد حرفتم الكلمة وقلتم سيلان) وهو احسن الموجود المرغوب فيه كثيرًا بالفوريقات ولذلك تزيد قيمته على غيره بنحو الربع بل اكثر

فقال الشيخ انواع القطن بمصر كثيرة مختلفة لونًا وحجمًا فمنها الاسمر والابيض والاصفر والاهالي لا تفرق بينها بل كل يبذر بارضه ما تيسر له من غير تحرٍّ ولكن الان ابتداؤا ان يميزوا بين الانواع وتنبهوا لزرع السيلان وكثير منهم لا يزرع الا ما لبذره وبر لما راوا من فائدته وتركوا البذر الاسود لانه قليل المحصول وسمعت من بعض الناس ان القنطار من ذي البذر الاسود اذا حلج يخرج منه تسع كيلات بذرًا ومن ذي الوبر خمس ووزن البذر الثلثان والشعر الثلث

فقال الخواجا ان الوان الاقطان النابتة بسواحل الكارولين الجنوبية والجويرجي تميل الى الصفرة بخلاف النابت داخل ارض تلك الجهات فانه ابيض ناصع واقل من الاول جودة لقلة صلابته فلا يتحصل منه على الغزل الدقيق ولون اقطان الهند يقرب من لون الزبدة الطرية واما اقطان الجهات المشرقية كقطن بنغال ومدراس وازمير ورودس وسالونيك فضعيفة اللون باهتة وقد

حللوا ببلاد الانكليز تراب عود القطن وبعد حرقه وجدوا في المائة جزء اربعة وستين جزءًا من المواد القابلة للذوبان في الماء وهي ٨٨و٤٤ كربونات البوتاسة وعشرة اجزاء موريات البوتاسة وتسعة اجزاء سلفات البوتاسة ووجدوا الباقي وهو ستة وثلاثون جزءًا لا تذوب في الماء وهي تسعة من فوسفات الجير واحد عشر كربونات الجير وثمانية عشر فوسيفات المغنزيا وثلاثة اجزاء بروتو اكسيد الحديد والباقي من الشب وبناء على هذا التحليل يظهر سبب جودة خواصه في سواحل الجزائر المخالطة بالبحر الملح وفي بعض الجزائر يسمدونه بالطين المخرج من قاع البرك المالحة كالطين الذي يخرج من قاع بركة المنزلة مثلاً وفي جهة الكارولين يستعملون في السباخ الجير او الطين الذي يرسب في قرار البرك والخلجان بعد نضوب مائها

فقال الشيخ الاهالي عندنا كانوا لا يعرفون امر تسبيخه والان عرفوه واستعملوا لذلك اتربة التلال القديمة وما يخرج من تحت البهائم وحقيقة وجدوا لتسبيخه فائدة عظيمة

ثم قال الخواجا وشجرة القطن تعيش في الهند اربع سنين او خمسا وفي الايتازونلي سنة واحدة وابتداء جنيه اول شهر سبتمبر ويستمر الى اخر السنة فاذا جاء الثلج مات لوزه وكلما قلت صعوبة الشتاء وقصر زمنه كان محصول القطن كثيرًا واذا فتح اللوز رايت كأن الارض مستورة بثوب ابيض والعبيد هم الذين يجمعونه من

روؤوس اشجاره فيشتغلون من الصباح الى المسا ويرخص لهم في
ترك الشغل ساعة وقت الزوال للاستراحة والاكل وذلك في
غير وقت الصيف ففيه يرخص بساعتين ويرخص لهم ايضاً بالذهاب
الى منازلهم لياكلوا فيها ويعطى لكل عبد مقدار من الذرة او من
الارز ومقدار من العسل والسمك ولحم الخنزير ويوءذن لهم في اخذ
بعض فواكه من الاشجار ومدة بذره تستمر من اول شهر مايو الى
نصفه وبعد تمام زرعه يشتغل العبيد ايضاً بتنقيته من الحشائش
الغريبة والشغل عندهم بالمقطوعية ويعطى لكل عبد قطعة ارض
يزرعها ما شاء وينتفع بما يخرج منها اما ببيعه لسيده او انه يرعى فيه
ماشيته وفراخه وما اشبه ذلك ومن ذا يتحصل العبد على بعض
دراهم يشتري منها ملابسه وما يلزم له فجميع اشغال القطن على
العبيد فلذا يقتنون العبيد بكثرة فقد يجتمع عند بعضهم نحو الفي
عبد فتراهم عند توجههم الى الشغل يكونون فرقاً الفرقة عشرون
عبداً او عشرة وعلى كل فرقة رئيس منهم او من غيرهم فان كان
منهم كان شديد القسوة ويخافونه والمفروض على الرجل منهم في
كل يوم ان يجمع مائتي ليورا وعلى كل صبي من ثلاثين ليورا الى
اربعين وكل ما جمع يوضع بالمخزن عند غروب الشمس

وكان الناس في مبداء الامر يفصلون الشعر من البذر بايديهم
فكان الشخص الواحد يفصل في اليوم ليورا واحدة من الشعر
ووزن البذر ثلثا وزن الاصل

ولما رأوا صعوبة ذلك اخترعوا دواليب الحلاجة وبها تمكن الرجل ان يحلج في اليوم الواحد ثلاثين كيلوجرام ثم اخترعت الات تدور بالحيوان او بالماء فصار يحصل بواسطة ثلاثة اشخاص اربعمائة وخمسون كيلوجرام في اليوم الواحد ثم في سنة ١٧٦٣ اخترعت الآت احسن من تلك واستعملت الى الان في جميع امريكا الجنوبيـــة

وبعد انفصال الحب من الشعر ينقون الشعر مما خالطه من الاجسام الغريبة بنتفه في دواليب اسطوانية تدور بسرعة ثم يكبسونه بمكابس في اكياس تجعل بالات وينقلونه في مراكب بنهر المسيسبي الى اورليان الجديدة وهناك كل من لهُ شيء يضع عليه اسمه ونمرته وهكذا فمن يرى المدينة من بعد يراها كأنها مدينـــة من القطن مقسومة حارات ممتدة مسافة عظيمة

وقد علم من دفاتر الاحصاء ان قدر العبوّات المتحصلة من زراعة جهات الجنوب كل سنة خمسة ملايين بالة

فقال الشيخ هل يمكن معرفة مقدار القطن المتحصل من كل بقاع الارض

فقال الخواجا يؤخذ من دفاتر الاحصاء سنة ١٨٥٨ ميلادية انه تحصل ١١٤٠٠٠٠٠ بالة ووزن البالة يختلف من مائة وثمانية وستين كيلوجرام الى مائة وسبعين اي وزن محصول سنة ١٨٥٨ كان ١٩٣٦ مليونًا و٦٧٥ الف كيلوجرام وبيانه

كيلـــوجرام	محصول
٥٨٨،٠٠٠،٠٠٠	الايتازوني
٣٢،٠٠٠،٠٠٠	البريزل
٩،٠٠٠،٠٠٠	جهات من اميريكا الجنوبية
٤٤١،٠٠٠،٠٠٠	الهند الشرقي
٧٥٠،٠٠٠،٠٠٠	بلاد الصين وبلاد سيام
٢٩،٤٥٠،٠٠٠	بلاد مصر
١٨٠٠٠٠	بلاد الجزائر
٤٥٠٠٠	سياراليونا من افريقا
٥٠،٠٠٠،٠٠٠	بلاد التركستان والقرني
٣٠،٠٠٠،٠٠٠	جهات من افريقا
٦،٠٠٠،٠٠٠	اوروبا الجنوبية
١٩٣٦٦٧٥٠٠٠	كيلوجرام

واول ظهور قطن امريكا ببلاد الانكليز كان في سنة ١٥٦٩ واكثر من اشتغل به اهل مدينة منشستر فهي المركز العمومي لصناعة القطن وتجارته في جميع بلاد الانكليز وبعد ان كان عدد اهلها في القرن السابع عشرين الف نفس اتسعت حتى بلغ اهلها الان زيادة عن اربعمائة الف نفس وابتداء صنعة القطن بها سنة ١٧٨٩ ايام ثورة الفرنسيس الاولى ومن ذاك العهد اخذ يظهر في المدن المجاورة وفي مدة قليلة كثرت ورشه وصارت تلك البلاد مدنا

عظيمة بعد ان كانت قرى صغيرة لا يلتفت اليها وبلغ اهلها من الثروة اعلى درجة وفي مبداء الامر كانت انواله متفرقة في جهات كثيرة وكان كل صاحب نول يشتري لنفسه ويتجر بمصنوعه فكان يحصل لهم تعطيل وضياع اوقات فتيقظت اهالي منشستر الى ذلك وتحيلت حتى احتكرته وصار فيها الان نحو مائتي ورشة تدور كلها بالبخار وعدد الشغالة يبلغ الفا وخمسمائة نفس في الورشة الواحدة ويوجد غير ذلك مائتا ورشة للغزل فقط وهذا غير ورَش كثيرة بالضواحي ولو حصرنا الورَش الموجودة في المدينة وضواحيها مع جميع الورَش المختصـــة بالغزل والحياكة في جميع بلاد الانكليز لوجدنا الثلاثة الاخماس لهذه المدينة ويتحصل من اثمان ما يصنع فيها ويوزع على جميع الجهات والاقاليم نحو الف مليون من الفرنكات كل سنة ومقدار ما يدخل في ورَشها من القطن الشعر كل سنة مائتا الف طن اي اربعة ملايين واربعمائة الف قنطار مصري وجميع ذلك وارد من مدينة ليوربول لانها المينا العموميـــة لهذا الصنف وكانت الوَرش في بادىء الامر تدور بالحيوان ثم كثرت الاختراعات لتسهيل صنعته ولم توجد الوابورات الا سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٢٣ فناب الوابور مناب الآلات القديمة جميعها وقبل كثرة زراعته بامريكا كان يرد لمعامل اوروبا من الهند التابع للانكليز ومن الاندلس ومن نابولي من ايتاليا ومن المرتينيك وغواديلوب التابعين لفرنسا وقبل قليل كان يجلب من جزيرة صقلية

وبعد اشتهاره بامريكا تركت اكثر هذه البلاد زرعه لكثرة تكاليفه ورخص الوارد من امريكا لقلة المصرف عندهم لان عبيدهم تشتغل تقريبًا بلا اجرة والجهات التي تزرعه الان الهند الانكليزي ومصر والدول المجتمعة من امريكا وجهات من بلاد المشرق

فقال الشيخ على حسب ما نسمع ببلادنا ان اكثر الاقمشة الواردة الينا ولسائر جهات الدنيا هو من ورش الانكليز وجزء قليل من ورش الدول الاوروباوية وذلك يقتضي ان يكون عدد الورش بتلك المملكة والشغالة بها شيئًا كثيرًا جدًا

فقال الخواجا قد استحوذ الانكليز على جميع انواع التجارة لا سيما تجارة القطن ففي سنة ١٨٥٠ حرّر كشف بامر البرلامنتو اتضح منه ان الورش بالمملكة كانت الفًا وتسعمائة والشغالة ٣٢١ الف شخص وان ما يرد لهذه الورش من قطن الشعر ٢٧٧ مليون كيلوجرام ويخرج منها اقمشة وغزل ٢٤٧ مليون كيلوجرام يباع منه على البلاد الاجنبية ١٧٤ مليون كيلوجرام ويستهلك في داخل البلد على الاهالي ٧٣ مليونًا باعتبار ان كل شخص يستهلك كيلوغرامين ونصفا وفي تلك الازمنة كان جميع ما يخرج من بلاد اوروبا لا يعدل عشر ما يخرج من بلاد الانكليز فكان ما يخرج من بلاد فرانسا ستة ملايين كيلو ومن بلاد السويس سبعة ملايين ومن باقي اوروبا مليونين فقط ومع ذلك فلم تقف الانكليز عنده بل اجتهدت كل الاجتهاد حتى صار عدد الورش سنة ١٨٥٦

الفين ومائتين وعشرة وكانت القوة المستعملة في ادارتها ٩٧ الفا و١٣٢ حصانا منهـا بالبخار ٨٨ الفا وبالماء ٩١٣٢ وهذه القوة تعادل مليونا ونصفا من الرجال وقد بلغ عدد الشغالة بالورَش في تلك المدة ٣٨٠ الف نفس نساء ورجالاً صغاراً وكباراً والمشتغلون بتجارته بانواعها ببلاد الانكليز يقربون من مليونين اي جزء من اربعة عشر جزءًا من الامة الانكليزية وما من يوم الا وتظهر ورَش جديدة ويزيد ما يصنع بها ومن ثم ترى الاجتهاد متزايدًا في جلب القطن الشعر الى الورَش ففي سنة ١٨٥٧ بلغ الوارد لها اربعمائة مليون كيلوغرام صنع منه ٣٦١ مليونا اقمشة وخرج منه غزل ٨٥ مليونا والباقي وهو ١٨٤ مليونا صنع شيتا وغيره وخرج للتجارة واستهلك في البلد ٩٢ مليونا وتحصل من ذلك ١٤٣٨ مليون فرنك وقدّر بعض العارفين قيمة جميع ما صنع من القطن ببلاد الانكليز سنة ١٨٥٦ بنحو ٦٥ مليون جنيه يخرج منها قيمة القطن الخام المشترى اربعة وعشرون مليونا فيبقى للربح والمصاريف نحو اربعين مليونا وقد قارن بعض المهندسين بين عمل الآلات والادمي فوجد انه لو بقي الامر في صناعة القطن على عمل الرجال للزم لذلك واحد وتسعون مليونا من الرجال وذلك قدر اهالي فرانسا والبروسيا والنمسا واحصى بعض المؤرخين جميع ما يصنع من القطن بجهات اوروبا فوجد ما يصنع منه ببلاد الانكليز مليون ونصف مليون بالة وفي فرنسا ٣٣٦ الف بالة

وفي بلاد الفلمنك وبلجيك ٥٩ الف بالة وفي باقي بلاد اوروبا
١٤٧ الف بالة وفي المانيا ٢٤٩ الفا وفي الروسية ١٢٠ الف بالة
فجميع بلاد اوروبا لم تصنع الا ثلاثة اخماس ما تصنع بلاد الانكليز
وفي سنة ٥٧ كان مصنوع بلاد الانكليز ضعفي مصنوع
جميع بلاد اوروبا تقريبا لانه كان الوارد في هذه السنة الى جميع
بلاد اوروبا من جميع الجهات قريبا من ثلاثة ملايين من بالات
قطن الشعر وفي السنة المذكورة كان محصول الايتازوني وحدها
ثلاثة ملايين من البالات نصفه يسافر الى الانكليز والربع يبقى
في البلد يصنع في فوريقاتها والربع يوزع على سائر جهات الدنيا وقد
امعن بعض المؤرخين النظر فيما يرد للانكليز من بلاد الايتازوني
فوجده آخذاً في النقص عندهم وفي الزيادة في باقي الجهات مثلاً
وجد متوسط الداخل الى بلاد الانكليز في مسافة سنتين من ابتداء
سنة سبعة وعشرين ٥٩٦ جزءاً من الف من محصول الايتازوني
والموزع على الدنيا جميعها اربعمائة واربعة اجزاء من الف وفي السنين
الخمس التالية الى سنة ٣٨ كان وارد الانكليز ٥٦٥ والموزع على الدنيا
٤٣٥ وفي السنين الخمس كان وارد الانكليز ٥٣٨ والموزع على
الدنيا ٤٦٢ ومن سنة ٤٥ الى سنة ١٨٥٠ كان وارد الانكليز
٥٠٦ والموزع على الدنيا ٤٩٤ ثم من سنة ٤٨ الى
سنة ٥٠ كان داخل الانكليز ٤٨٧ والموزع على الدنيا
٥١٣ فيعلم من ذلك ان صناعة القطن اخذت في التقدم في

جميع جهات الدنيا وقد نسبوا الوارد من القطن لفرانسا
الى الوارد منه الى الانكليز فوجدوا النسبة بينهما كنسبة مائة
الى ٤٧٩ ونسبوا ما تصنعه الايتازوني في ورشها الى ما يصنع
في ورش فرانسا فوجدوه كنسبة ١٧٣ الى ١٠٠ ونسبة المستهلك
في ورَش الانكليز الى المصنوع في ورَش الايتازوني من
محصول تلك البلاد كنسبة ٢٧٣ الى ١٠٠ ونسبة المصنوع في
الايتازوني الى المصنوع في اوروبا كنسبة ١٠٠ الى ٤٥٢ ومن
سنة ٥٠ الى ٥٧ ورد ثلثا محصول الايتازوني الى الانكليز والثلث
لجميع جهات اوروبا منه الى فرانسا ثلثه وثلثاه لباقي اوروبا
ومن تامل حركة الورش وقوتها ببلاد الانكليز حكم بان في
قدرتها ان تكفي جميع اهل الدنيا وليس في طوق دولة من
الدول مشاركتها في تجارة هذا الصنف وصناعته لانها باستعداد
ورَشها وكثرة مراكبها وقوة الاتها يمكن لها ان تنقص السعر حتى
لا تتجاسر دولة على مجاراتها مع ان مدة الشغل عندهم عشر ساعات
ونصف بخلافها في الدول الاخر فانها اثنتا عشرة ساعة بل
ثلاثة عشر وفي سنة ١٨٥١ كان قدر المصنوع من القطن
باوروبا والايتازوني ٤٨٥ مليون كيلو وقيمة ذلك بلغت ثلاثة
الاف مليون فرنك فزاد قدر المشغول سنة ٥٧ حتى بلغ سبعمائة
وخمسين مليونا وبلغت قيمته اربعة الاف مليون من الفرنكات
من ذلك قيمة القطن الخام ثمانمائة مليون من الفرنك وقدر

ربا المال المنصرف ثلثمائة مليون فيبقي للارباح والاجر المتنوعة ٢٩٥٠ مليونًا من الفرنك

ومقدار الشغالة بورَش اوروبا والايتازوني ١٢٥٠٠٠٠ نفس وباعتبار اجرة الشخص في السنة الواحدة خمسمائة فرنك يكون المدفوع للشغالة كل سنة ٦٢٥ مليونًا من الفرنك

ومن حين انتشار هذه النباتة والتفات الناس اليها قل زرع الكتان والتيل وصار اغلب الملابس والفرش منها بواسطة الالات المخترعة للغزل والنسج حتى وصل سعرها الى قيمة واهية ولذلك تمكن الفقير من شرا مايقيه البرد بادنى القيمة وانتفع بذلك عموم الناس لانا نعلم في التاريخ انه في سنة ١٨١٦ كانت قيمة الكيلو ١٢ فرنكًا وفي سنة ١٨٣٤ نزلت الى ستة فرنكات ثم في سنة ١٨٥١ نزلت الى ثلاثة فرحم الله من عرّف الناس بشجرة القطن ومن علمهم زرعها وصناعتها وعلى الاوروباويين ان يشكروا فضل العرب اناء الليل واطراف النهار فانهم هم الذين نقلوهم من خشونتهم الى السعادة التي هم فيها الان

المسامرة (١٢٠)

الثمـار

ومن حقق النظر في الاشجار والنباتات المغروسة في هذا البستان وجد اكثرها انما وصل الى هنا من بلاد العرب او من بلاد المشرق بواسطة السياحين مثلاً شجرة البرقوق هذه اصلها من الشام من ارض دمشق وقد تكلم عليها بلين المؤرخ فذكر ان اول دخولها في ايتاليا كان زمن قاطون وانها باوروبا انواع منها الاصفر والاخضر وما بعضه اصفر وبعضه احمر وتارة تكون كروية وتارة مستطيلة وتوكل طرية وناشفة ويسمونها القراصية و لي تجارة عظيمة لجهات كثيرة من ارض فرانسا وكذلك شجرة الكريز المعتدلة القد الملساء الجلد واردة من جهة سيرازونه

من الشام الى رومه ايام القيصر لوكولوس قبل المسيح بثمان وستين سنة وانتشرت في ظرف خمس وعشرين سنة بجميع جهات اوروبا وانتقلت من ايتاليا حتى وصلت جزيرة الانكليز الباردة والان يوجد منها انواع كثيرة وعند اثمارها تجد عناقيدهـا مدلاة نحو الارض نابتة من جدور الاوراق تجذب اعين الناظرين بلطيف لونها ومنها نوع عظيم الساق يبلغ في الطول عشرة امتار عنا قيده سود ويستخرج منه شراب الكرز وشجرة اللوز الموجودة في جميع جهات اوروبا اصلها من بلاد أفريقا ومنها الحلو والمر ويستخرج منهـا دهن اللوز وهي مغذية ومبردة وتدخل في الطب ويوجد دهن اللوز بجميع الاجزاخانات

واما شجرة الخوخ فاصلها من بلاد الفرس ويوجد منها ثلاثة انواع نوعان على ثمرها وبرة خفيفة والثالث لا وبرَ على ثمره واخذنا من الارمن شجر المشمش

واما شجر التفاح والكمثرى والسفرجل والمشملا فهي تنبت بطبيعتها في بلادنا وليست مجتلبة من الجهات ومن التفاح نوع حريف الطعم يستعمل في بعض جهات فرانسا بدل العنب ويستخرج منه شراب يسد مسد النبيذ ومن الكمثرى انواع كثيرة منها نوع يستخرج منه الشراب والسفرجل اصله من جزيرة بريد وهذه الشجرة الصغيرة المسماة بالقشطة واردة من امريكا الجنوبية والتين من البلاد المشرقية وكان ابتداء وروده في الجهات الجنوبية من فرانسا قبل

المسيح بستمائة سنة والذي غرسه هم الفينيقيون حين توطنوا مرسيليا ثم تنوع انواعًا كثيرة ويؤكل اخضر وناشفًا والتجار يرسلونه الى جميع جهات الدنيا واصل شجرة البرتقال هذه من الصين والهند وهو انواع كثيرة ومنها اليوسف افندي ويزرع في الاندلس من زمن مديد وغالب هذه الخضراوات وهذه الرياحين الزكية نقلها السياحون الى اوروبا الا انهم تفننوا هنا في زرعها حتى كثرت انواعها

المسامرة (١٢١)

العنب

واعظم الشجر عندنا نفعًا والذه طعمًا شجرة العنب هذه ومنبتها الحقيقى بلاد الجرجستان نبتت فيها بالطبيعة في صخور الجبال

الشامخة مثل جبال القوقاز وجبال ارارات وجبال توروس وهو
الان يزرع في غالب اقطار الدنيا ولكن منه ما يزرع للتفكه رطبا
ومنه ما يجفّف واغلب جهات اوروبا وامريكا وبعض الجزائر
يستخرجون منه النبيذ والمشروبات الروحية وليست خواص النبيذ
واحدة بل متفاوتة طعماً ورائحة وتأثيراً على حسب الارض والهواء
وكيفية زرعه وعصره وقدر الارض المشغولة بزرعه في فرنسا مليونان
هيكتاراً وهو عبارة عن خمسة ملايين فدان مصري وبحسب الرغبة
في النبيذ الفرنساوي رغب الاهالي في زيادة زرع العنب واتسعت
متاجره حتى سار الى جميع بقاع الارض وقدر ما يتحصل من عصير
المزروع منه بفرانسا يبلغ ستة واربعين مليونا هيكتولتر (مائة لترا)
من النبيذ الاحمر والابيض ومليون وربع من العرقي وكل ذلك
قيمته تبلغ اربعمائة وستة وسبعين مليونا من الفرنك وبهذا السبب
تعد مملكة فرانسا اول مملكة بالنسبة لزرعه ويوجد منه ببلاد
الاندلس والبرتغال وايتاليا انواع مقبولة عالية الاثمان ولكن نبيذها
العادي لا يفوق النبيذ العادي الفرنساوي وفي بلاد النمسا والمانيا
والموسكو والفلمنك وامريكا يزرع العنب ويستخرج منه النبيذ غير
ان الزائد عن لزوم الاهالي قليل جداً وفي هذه الايام الاخيرة صار
تجربة زرعه في جهات الجزائر فنجح نجاحا تاما فاتسعت زراعته
وحصل لزراعه ارباح عظيمة خصوصا لما ظهر لهم في نبيذه من
الخواص الجيدة فلذا ترى اهل اوروبا وغيرهم يرغبون فيه

وعمليات استخراجه اربع الاولى تقطيع العنب قطعا صغيرة ثم يعصر بين اسطوانتين من حديد تدور كل منها على الاخرى والعملية الثانية تصفية المائع الخارج وذلك بعد تركه ثمانية ايام حتى يتخمر ثم يصفى في براميل ولا يملأ البرميل بل يوضع فيه الى نحو اربعة اخماسه ويترك حتى يصفو ويرسب تفله وهـذه العملية تكون في شهري مايو وابريل وربما استعانوا على كمال صفائه بقليل من الدم او بياض البيض هذا هو النبيذ الجاري بيعه بين الناس سواء كان ابيض اواحمر والنبيذ الابيض يحصل من الاحمر ولا تختلف طرق عمله الا بفصل المائع عن التفل في اول الامر وقت الدوس ولا يترك ليتخمر معه بل يجري تخميره وحده فيكون ابيض لان المادة الملونة ليست حينئذٍ في العصارة وكذلك النبيذ المعروف بالشمبانية وانبذة اخرى يحصل عند فتح قارورتها فرقعة فطرق استخراجها كما وصفنا مع اختلاف قليل وانما عند ملء القارورات يضعون في كل قارورة قطعة من السكر النباتي ثم يحكمون سدادها فيتخمر بالسكر بعد عدة اشهر ويزيد النبيذ جودة ويحدث منه في القارورة جزء كبير من غاز الكربون فهذا هو سبب الفرقعة التي تسمع واعلى انواعه واغلاها مـا عصر بعد التذبب والجفاف لانه بذلك يقل ماؤه وتكثر مادته السكرية

المسامرة (١٣٣)

شراب التفاح والكمثرى

وطريقة استخراج شراب التفاح تقرب من طريق استخراج نبيذ العنب واكثر استعماله في البلاد التي لا ينبت بارضها العنب ويغلو فيها سعر النبيذ وكان العرب مدة اقامتهم بالاندلس يستخرجونه فتعلمه منهم سكان المديريات المجاورة لهم من فرانسا مثل اهالي توار وغيرهم وقال بعضهم انه كان معروفا من زمن قديم وفي بعض الكتب ان الملكة رادغوند ملكة فرانسا كانت تشربه دائما وكانت في القرن السادس من الميلاد والمحقق انه لم يظهر بجهات النورماندي في فرانسا الا في القرن الرابع عشر وكان مشروبهم قبل ذلك البيرا

فلما قام مقامها شربه غالب اهل فرانسا ومنها وصل الى الالمانيين والانكليز والروس وامريكا حتى بلغ مقدار المستخرج منه في السنة الواحدة ثمانية ملايين هيكتولتر وقيمة ذلك ستون مليونا من الفرنك

وانواع التفاح المستعمل في ذلك ثلاثة الحلو السكري والحامض والغض وهو الذي يستخرج منه احسن الاشربة ويبقى زمناً بخلاف المستخرج من النوعين الاخرين فانه لذيذ الطعم ولكنه قليل البقا

وليس في عمل هذا الشراب صعوبة فانه بعد جمع التفاح يترك نحو ستة اسابيع حتى يتم نضجه وتكثر مادته السكرية ثم يهرس في مهاريس كبيرة ثم يوضع في الهواء كيانا اربعا وعشرين ساعة فيكسبه الهواء اللون الكهربائي ثم يعصر ويوضع في براميل قائمة يخمّر فيها ويخلص من المواد الباقية فيه فبعضها يرسب في القاع لثقله وبعضها يعوم على السطح لخفته فاذا خلص من ثفله صبوّه من حنفيات في براميل ليتم تخميره فيها ثم يستعمل

ومن الشراب ما يستخرج من الكمثرى واستخراجه كالذي قبله الا انه يبقى لهُ لون البياض الحاصل من عصر المواد بعد هرسها من دون تعريضها للهواء وهذا الشراب كلما عتق كان اشد اسكاراً من جميع الانبذة

واما المشروبات الالكولية مثل العرقي والكونياك والكرش والجن فتستخرج من النبيذ والسكر والبنجر (اي الشمندور) ونحو ذلك ويستخرج منها انواع اخر من المشروبات ولا حاجة لنا الى

شيء من ذلك لانها تمنعنا عن الاطلاع على باقي ما هو في هذا البستان من انواع النباتات الغريبة وايضا فمعرفة عمل المشروبات الروحية لا تخصكم في شيء

فقال الشيخ لا يلزم من العلم بالشيء استعماله ولا يخفى عليكم قولهم العلم بالشي ولا الجهل به فحيث تكلمتم على كيفية استخراج النبيذ فلا باس بشرح عمل الالكول ونحوه

المسامرة (١٢٣)

الكوءل

فقال الخواجا الالكول مائع يوجد في تركيب السكر ويخلص منه بالتخمير مثلاً لو اذبنا قطعة سكر في قدح واضفنا اليها بعض

شيء من خميرة البوزة ثم تركناه في مكان درجة حرارته ٢٠ او ٢٥ او في الشمس مدة قليلة رأينا المائع قد اضطرب وتصاعد منه غاز يكون قليلاً في اول الامر ثم يزداد شيئًا فشيئًا ثم ينقطع بعد عدة ايام فاذا صُفّي وركز حتى يهدأ وذقناه فانا نجد الطعم طعم الشراب والرائحة رائحة النبيذ ولا نجد للسكر اثرًا فلو قطرناه بالانبيق لتحصلنا منه على مائع طيار ولا لون لهُ يقبل الالتهاب فهذا هو الالكول وهو يستخرج من كل ما فيه مادة سكرية كعصارة العنب والتفاح والكمثرى والكريز ونحو ذلك وهذه لا تحتاج لوضع خميرة فيها لان في ضمن تركيبها مادة ازوتية متى مسها الهواء انقلبت الى خميرة وتحللت المادة السكرية التي في العصارة الى الالكول واذا تقطر النبيذ او البوزة او نحوهما من الانبذة يتحصل مائع تختلف فيه كمية الالكول بكثرة الماء وقلته فان قطرناه مرة ثانية قلت كمية الماء وزادت كمية الالكول وهكذا

وللمشروبات الروحية اسماء مختلفة في التجارة بحسب مقدار الالكول الموجود فيها فما كان الكوله النصف او اقل قيل لهُ عرقي وما كان الكوله اكثر قيل لهُ روح فالعرقي عبارة عن ماء ممزوج بالالكول والالكول الخالص هو المجرّد عن الماء بالكلية ولا يتحصل عليه الا بعد تقاطير عديدة وهو عديم اللون اكثر ميوعة من الماء يلتهب منه الفم رائحته لطيفة ولهبه باهت ضعيف الضوء

وانواع العرقي وخواصه تختلف باختلاف المادة المستخرج من عصارتها واحسنه المستخرج من عسل القصب او العنب او الكريز واقل منه جودة المستخرج من التفاح او الكمثرى او الحبوب وقيمة العرقي تختلف باختلاف درجة الالكول وتميز هذه الدرجات في التجارة باستعمال آلة بسيطة عبارة عن قضيب من الزجاج عليه علامات وارقام اولها الصفر واخرها مائة وفي اسفله كرة من الزجاج فيها زئبق فاذا اريد معرفة مقدار ما في المائع الروحي من الالكول فتغمس الالة في المائع وتترك فتقف عند درجة من الدرجات التي في القضيب فان وقفت عند رقم من هذه الارقام علم ان المائة جزء من المائع تشتمل على اجزاء من الالكول بقدر ذلك العدد وهذا في الحجم لا في الوزن وان الباقي ماء عادي وتلك الالة تسمى مقياس الالكول وعند الفرنج تسمى الكولومتر ولاجل تقسيمه غمسوه اولاً في الالكول الخالص من الماء ورقموا عليه عدد مائة ثم غمسوه في مائعات درجتها اقل بخمسة ثم بعشرة ثم بخمسة عشر وهكذا فعرفوا درجة ٩٥ و ٩٠ و٨٥ و٨٠ و٧٥ و٧٠ وهكذا

ويقال ان اختراع المشروبات الروحية كان من الملك لويز الرابع عشر عند هرمه لاجل انتعاشه وعود قوته وجميعها عبارة عن عرقي سكري مختلط بمواد عطرية مثلاً الماء الذي تسميه الفرنج ابيزيت هو عبارة عن الكوئل وماء وسكر ينقع فيه من غصون هذه النباتة الصغيرة التي اصلها على ما يقال من مصر وتخرج في ايتاليا

وتزرع الان في جهة من فرانسا وما يسمونه كاسيس هو عرقي وسكر وفاكهة ويصنع ايضاً شراب يدخله نوى المشمش او الخوخ او البرقوق والشراب المعروف بشراب الكوراثا يوخذ من عرقي قديم ويوضع فيه قشر برتقان مع اضافة مقدار من السكر اليه وشراب الابسنت حاصل من جعل زهر الشيبة او ورقها في الالكول ثمانية ايام ويضاف الى ذلك لاجل التقطير حب الانيسون او غيره وهو من السميات يقتل عند الاكثار منه

المسامرة (١٣٤)

البوزة او (البيرا)

واما البوزة (البيرا) فقد اتفق المؤرخون على ان المخترع لها في الزمن القديم المصريون وقيل ان اول استعمالها كان بمدينة

بيلون المعروفة عندكم بالطينة وهي من زمن مديد شراب اهل
الجهات الشمالية من فرانسا والانكليز وجميع الممالك الشمالية يستعملونها
كثيرًا ومقدار ما يستهلك بلوندرة من هذا الصنف كل عام
مائتان وخمسون مليونا من الليتر وبباريز مقدار ذلك اربع عشر
مرة وهي من بين الخمور تشتمل على خاصتين التغذية والتنبيه وقد
امتحنها بعض مشاهير الكيماويين فوجد في كل مائة جزء منها ثمانية
واربعين جزءًا من مادة جامدة مركبة من مواد ليست ازوتية
كالنشا ومن مواد اخرى ازوتية كالتي في الحبّ المستعمل فيها
فلذلك يحصل لمن يشرب من جيدها غذاء بقدر ما يحصل له من
اكل ثمانية واربعين جراما من الخبز اي ستة عشر درهما

وطريقة عملها ان يوضع حب الشعير في حياض مبنية ويوضع
عليه من الماء قدر حجمه اربع مرات ويترك الى ان ينتفخ فينقل من
الماء ويوضع في اماكن فيها هواء درجة حرارتها من خمسة عشر الى
ستة عشر حتى تنبت واحسن الفصول لصنعها فصلا الخريف
والربيع فما صنع منها فيهما فهو المقبول عند الناس اكثر مما صنع
في غيرهما فاذا نبت اخذ وجفف سريعا كي لا يذهب نشاؤه
ويكون تجفيفه اما بوضعه في الهواء او في محل يمرّ عليه هواء حار لطيف
ثم اذا تم التجفيف يفرك وينخل نخلا يفصل به الحب من النبات ثم
يدش دشا خفيفا وبعد ذلك يوضع في حياض من الخشب بعضها
فوق بعض في كل حوض خرق يصب في الاخر ثم يصب عليه

في الماء فبواسطة تلك الخروق يسهل مرور الماء في المادة وينفصل عنها ولكن في ابتداء العملية تكون الخروق مسدودة ويصب على المادة ماء حرارته ستون درجة مئينية وتقلب وتدلك وتترك حتى تهداء ثم بعد ذلك يصب عليها ماء حرارته تبلغ تسعين درجة ويصنع بها كما سبق حتى يسخن الجميع وتكون درجة حرارته سبعين او خمسًا وسبعين ثم يقلب ويدلك وتغطى الحياض وتترك ثلاث ساعات تقريبًا ففيها يكتسب الماء جميع ما يلزم ان يكتسبه من المادة السكرية التي في الشعير فيؤخذ حينئذ ويغلى مع عروق النباتة المعروفة بحشيشة الدينار واوراقها لتكتسب المرارة والخاصة التي تبقى بها زمنًا بدون تغير شيء من صفاتها ثم بعد تلك العملية ينقل المائع الى حياض اخرى لبيرد فيها ولا يبقى في محله لئلا يتلف ثم توضع عليه الخميرة ويترك زمنًا يختلف من اربع وعشرين ساعة الى ثمان واربعين وهذه هي التخميرة الاولى وفي تلك الساعات يظهر على الماء رغوة كثيرة ثم يؤخذ المائع ويوضع في براميل يستمر فيها التخمير ويظهر على الماء رغوة ايضًا فاذا اخذت وعصرت يضعونها في كيس وتكون هي الخميرة للبوزة التي تستعملها الفطاطرية والخبازون ويستعملونها في البوزة للتخمير وفي المشروبات المحتاجة للتخمير ولا تكون البوزة نقية رائقة ذات لون لطيف كما يشاهد فيها الا بعملية اخرى وهي ان يضاف من غراء السمك على

المائع فبذلك يحصل بعد مدة رسوب جميع المواد وتصفو المادة
المائعة الصفاء الذي ترى به عند التجار

المسامرة (١٣٥)

الاشجار والزهور

وعند هذا حضرت الست وابنها فقالت للخواجا أيجوز لك
حرمان الشيخ من الاطلاع على ما في هذا البستان من الاشجار

والازهار التي قل ان يجتمع مثلها في بستان وحرماننا من الانس
به ويا ليتك شغلت وقته بالاطلاع على النباتات العطرية والرياحين
الزكية فانها في جميع حياض البستان من خلفك وامامك وعن
يمينك وشمالك وكان بيدها صحبة فاهدتها الى الشيخ فقبلها وبعد
ان تامل فيها قال حقيق انه لم يكن لنظام هذا البستان نظير
فاني لم ارَ فيه شيئين متجاورين من نوع واحد وارى وضع
النبات على اصول الهندسة حتى انها حوت من اختلاف الوان
الازهار المجتمعة صحبًا مختلفة الشكل والحجم وبتوزيعها وسط
الحياض بين الاشجار وبجافات الطرق كان لها صور ومناظر
مختلفة باختلاف المواضع التي يقف فيها الناظر وما من صورة
الا تسر الناظر وينشرح لها الخاطر ثم قال للست واني لاشكر
فضلك ومعروف حضرة الخواجا لانه حصل لي من مجلسه
فوائد ما كنت اعلمها قبل وقال لها الخواجا حيث اشرقت هنا
طلعتك فينبغي لنا ان نتكلم في النبات العطري فقالت ان
اكثر الورد والنبات الغريب والرياحين في الجهة المقابلة لنا من
البستان وهناك كشك صغير قريب من مجرى الماء يسمع منه
تغريد الطير فاظن ان لو رآه الشيخ لتمنى الاقامة فيه لانه فوق
ربوة صغيرة ويرى من شبابيكه الطريق السلطاني والزراعين
بالاراضي المجاورة له فاجابوها لدعوتها واخذ الخواجا بيدها واخذ
الشيخ بيد ابنه وساروا حتى وصلوا مكانًا مستدير الشكل في وسط

حوض ماء فيه نوفرة عظيمة مركبة من صور حيوانات وطيور
والماء يخرج من افواهها في اتجاهات مختلفة واشكال عجيبة فكان
تارة ينزل في دوائر الحوض وتارة يخرج عموديًا او منحنيًا
قليلاً بحيث لا يتجاوز سقوطه رؤوس الصور القاذفة له فيكون
لصوت الماء عند سقوطه على المعدن الحامل لتلك الصور في
الحوض رنات لطيفة وينشا عن امتزاجها بالاصوات الحاصلة
من اهتزاز الاشجار ومن تغريد الطيور نغمات مطربة فمروا من
جانبها فراءوا طريقًا فسلكوه الى علوية محفوفة بالشجر وعليها قبة
من انضمام اغصان الاشجار وراءوا اغصان الشجر منتظمة انتظامًا
تامًا وبجانبي الطريق صفين من اشجار الورد وانواع الرياحين
كالفل والياسمين وكل ماله رائحة طيبة مرتبة ترتيبًا حسنًا بحيث
لا يحجب نوع ما وراءه بل كل نوع خلف ما هو دونه وراءوا
اغصان الفل والياسمين ملتفة على اغصان الاشجار ممتدة معها
في دوائر القبة كانها مصنوعة بيد مصور ومن نفوذ الاشعة
الشمسية في خلالها رسمت صورتها على ارض الطريق ثم جاءت
صاحبة البيت فسلمت على الشيخ وابنه وقالت للشيخ باللغة
الفرنساوية على ما ترجمه له الخواجا ما معناه ارجوك الاَّ تواخذني
في عدم مصاحبتي لك فان اكبر عذري جهلي باللغة العربية فقبل
الشيخ عذرها واطنب في الثناء على زوجها ثم قال وضع هذا
البستان على هذه الصورة الفائقة في حسن الرونق والبهجة يقتضي

شدة الاعتناء به وزيادة الالتفات اليه وصرف اموال جسيمة فترجموا لها ما قاله فقالت ان زوجي لا يكتفي بخدمة الخدَمة بل يتولى الخدمة فيه بنفسه وكلما يسمع بنباتة ليست فيه بادر الى جلبها اليه بدون التفات الى كثرة ما يصرفه عليها واكثر اوقاته مصروفة في ذلك خصوصاً معرفة خواصها وكثيراً ما سافر الى بلاد بعيدة وقطع جبالاً واودية وبحاراً للاطلاع على ما فيها من النبات والاشجار وامتحانها لمعرفة خواصها وليعرف طرق ترتيبها وحفظها وهو الذي رتب هذا البستان وزرع ما فيه من انواع النباتات وليس هنا نباتة الا وعليها نمرة ولها قيد بدفتر النبات عنده وفي دروسه التي يلقيها للتلامذة في كل اسبوع يبين لهم ما يتعلق بالنبات وان كان لبعضه خواص بينها لهم كالنباتات الطبية والعطرية وغير ذلك وخلف هذا المكان محل التجربة والامتحان واماكن معدة للتدريس وخزانة كتب

فقال الشيخ قد اودع الله في النبات من العجائب والاسرار ما يبهر اولي الابصار ولا يبعد ان المعلوم منها الان اقل من المجهول ثم ان كثيراً من النبات بعد زمن يزول وينبت غيره من غير جنسه فلو لم يقيّض الخالق لهذه النباتات من يشتغل بالكشف عن اسرارها ويبين فوائدها وينشرها لحرمت الخلق من تلك الفوائد ولبقيت اسرارها مجهولة مع انها هي المعينة لنا على اعمالنا براً وبحراً اذ منها اقواتنا وبها يعالج ما اختل من ابداننا وفيها ما تنتعش بشمه ارواحنا

فجزى الله عنا المشتغلين خيرًا اذ لولاهم ما عرف النافع من الضار ولا البارد من الحار. فقال الخواجا من تأمل رأى انه مامن شيء الا وتعتريه احوال غير متناهية ففي السماء تحدث سحابات وتظهر نجوم مختلفة وفي الارض تظهر نباتات وحيوانات كذلك ولا شيء مما نراه اولاً نراه الاّ وفيه شيءٌ من سر الحياة ففي البعض تكون ظاهرة تدل عليها حركة الاعضاء وتنقل الجسم ونحوه وفي البعض تكون كامنة خفية فلا ندركها فالحياة في الحيوان امر وقف عنده علم الانسان وكذلك في النباتات وكما ان بعض الحيوانات يظهر في بعض الفصول ثم يزول ولا يظهر الا في ميعاده وبعضها يظهر في الظلمة ولا يهوى النور وبعضها على عكس ذلك فكذلك النباتات بعضها يخرج زهره في وقت معين دون غيره وكثير منها في هذا الوقت نفسه اما ان يتجرد من ورقه او ييبس عوده ولا يعود لحالته الاولى الا في السنة القابلة مع الانتظام

ومن هنا رأى بلين الروماني ان يرتب الاشهر والفصول على حسب تزهير النبات ولكن لم يتم هذا المشروع الا في زماننا هذا بواسطة بعض العلماء وبملاحظته اتضح لهُ ايضًا ان لكل اربعة انواع من الازهار ساعة معينة تنفتح فيها ولا تتعداها وبعض المتوحشين القاطنين بالبراري الشاسعة لا يعلمون الوقت الا من الزهور فيوزعون اعمالهم على حسب ذلك وبعض النبات لا يتفتح زهره الا بحادث من الحوادث مثلاً القوقحان اذا احس بنزول

المطر انضمت اكمام الزهر عليه انضماماً جيداً ليحفظ نفسه منه وبعض النبات لا يهوى الشمس مثل النباتة المعروفة بالبقلة اليهوديه وتسميها الفرنج لترُن وتنبت بارض السيبريا فانهـا اذا احست بالشمس انضمت اكمامها ضماً جيداً حفظاً للزهر من الشمس ولا ينفتح الا اذا اظلم الجو وتغطت السماء بالسحاب ومما يزداد تعجب الانسان منه ان هذه النباتات بانواعها وهذه الاشجار مع غلظها وارتفاعها اصلها خلايا صغيرة نامية وفي داخلها حويصلات صغيرة بحيث لا ترى الا بالنظارة المعظمة وهذه الحويصلات عبارة عن فقاقيع دقيقة كروية الشكل ثم من تأثير بعضها على بعض تكبر وتنمو فتصير اجساماً ذات اسطحة متعددة بعد ان كانت كروية ولا ترى بالبصر لصغرها لكن قوة الحياة فيها عظيمة بحيث انها تزداد في اقرب وقت زيادة عظيمة فينشأ عنهـا الياف النبات والجذوع والغصون والاوراق وبواسطة النظارة المعظمة وجدوا داخل الخلية الواحدة مع دقتها جذور اجسام من مواد مختلفة وشاهدوا في الورق حباً كثيراً ومن الوانه اخذت الاوراق الوانها وبعض الطبيعيين رأى في بعض النبات المائي حيوانات كالذر وفي المنسوج الخلوي يشاهد غالبا دقيق كالذي يستخرج من الحنطة وهذا الدقيق يكون في جميع اجزاء النبات سواء كانت جذوراً اوغصوناً اوفاكهة وسكان جزيرة تايتي يصنعون الخبز من فاكهـة تخرج في جزيرتهم فياخذونها ويحمصونها على النـار ثم ياكلونهـا

فيجدون طعما كطعم الخبز ولذا تسمي السياحون هذه الشجرة شجرة الخبز ويصل وزن الواحدة منها الى اقة مصرية بل اقتين وثلاث وكثير من جزائر المحيط كجزيرة جافا وجزائر الملوك وجزيرة بندا وغيرها من الجزائر اكثر غذاء اهلها من جزع شجر يزرعونه في جزائرهم فمتى بلغ عمره خمسة عشر عاما قطعوه واخذوا مخه بواسطة مغارف يغرفونه بها ثم يضعونه في حياض منحوتة من هذه الاشجار ثم يسدون اطرافها بمادة ليفية فاذا امتلأ الحوض من المادة المستخرجة من المخ اضافوا عليه ماء وقلبوه حتى يمتزج الماء بالدقيق الموجود مع المخ ويمر من المادة الليفية فينزل في حوض اخر فيفعل به ما فعل بالاول ويتلقى في حوض غيره فاذا عرف ان مادة المخ تخلصت من جميع دقيقها واجتمعت في الحوض الاخير مع الماء تركت فيه لترسب ثم يصفى الماء من فوقها ويوءخذ الدقيق طريا ويحفظ في اوعية تصنع في الحال من اوراق هذه الشجرة يسع الوعاء الواحد منها من احد عشر كيلوغرام الى اربعة عشر ولا يتركون الاوعية الى ان تجف خوفا من تلف ما فيها ومع ذلك فيغمسونها في الماء مرة بعد مرة واهل جهات الاوسترالي يعرفون جدور نباتات يتعاطونها فتقوم عندهم مقام الخبز ويخزنونها للقوت

فقالت صاحبة البيت ما من يوم الا ويذكر لي زوجي في بعض مسامراته احوالاً جديدة للنبات مستفادة من استكشافات اهل هذا العصر من العلماء والسياحين الذين جابوا الارض

وان رأيتم الفرجة على المدرسة ومحل التجربة فها انا مستعدة لخدمتكم وان رأيتم ان تنظروا باقي البستان الى ان يحضر الخواجا ويريكم بنفسه فلا باس

فقال الشيخ الرأي ما ترينه وايها تختارين فهو الموافق واني لاحب الاطلاع على الجهتين وفي وجودي بين جهابذة الفن مثلكم فرصة لا بد من ان انتهزها واغترف من بحور علمكم الغزيرة ما تنتعش به روحي من الفوائد الكثيرة التي منها معرفة الحكم التي اودعها سبحانه في عالم النبات فان هذه المعلومات من نتائج هذا العصر السعيد الذي هو في اتساع دائرة المعارف البشرية فريد وما ذكر من ذلك في كتب الاقدمين يوجد منتشرا في الكتب العربية فضلاً عن كونه قليل الجدوى لقلته على انه لم تثبت صحة نقله خصوصا وان يد الجهل اضافت اليه خرافات كثيرة

فقال الخواجا الرأي المناسب ان نطوف في ارجاء البستان ونختار منه الجهة التي بها المشمومات فان في ذلك مناسبة للستات فتبسمت ثم قالت هذا هو الراي الحسن ولكن من الواجب اتباع راي الشيخ فقال الراي ما رآه الخواجا فان النفس الى الروائح الزكية اميل فساروا قليلاً ثم وقف الخواجا حذاء خطوط الورد وقال قد جمع المعلم ههنا كثيراً من مالوف النباتات ثم مد يده وقطف وردة وناولها اياها فطلبا منه ان يتكلم على بعض الازهار ليجمعا بين اللذة والفائدة فقال لا باس بذلك والاحسن ان نبداء بالورد لانه

هو الذي بايدينا فنقول الورد انواع منه ما يزرع بالبلاد الحارة كالبلاد التي بساحل البحر الابيض من اوروبا وافريقا وهذا النوع هو الذي يستخرج منه ماء الورد وعطره الذي تالفه الغيد والستات في جميع بقاع الارض ومنه هذه الوردة التي تراها بيضاء وزهرتها قليلة الورق وفي نهاية كل ورقة جزء اصفر فقد منحها الله كثرة العطر بدل ما نقص من ورقها وجعل نوعها افضل الانواع ولذا تختار في استخراج عطر الورد واما اصلها فمن بلاد المشرق وقد اهدت الينا جبال القوقاز هذه الشجرة العظيمة المسماة بالورد المثيني لكثرة ورق زهرته واما هذا الورد السبعاوي الذي لا ينقطع زهره صيفًا ولا شتاء فاصله من دمشق الشام ومنذ ثلثمائة عام اخذنا من بلاد المشرق هذا الورد المسكي وادخلناه في ضمن الازهار التي تتحلى بها بساتيننا وهذا النوع يكبر كبرًا زائدًا في جهة تونس حتى يبلغ عشرة امتار وبالتفنن في زرع الورد ظهر نوع يعرف بالورد المجوز ويلي هذا النوع شجر البنفسج وهو اوروباوي الاصل ويوجد في الغابات تحت ظل الاشجار وزهره وان كان عزيزًا الاّ انه لا يتجرد من عطره وقد تعسر عليهم هنا استخراج عطره كما استخرجوا عطر الورد والياسمين وتبتدئ للسائر روائح ازهاره الزكية ويعطر البساتين والحدائق من اول شهر فبرايو ويستمر يهدي الينا من طيبات انفاسه الزكية مدة شهر مرس وابريل ثم اشار الى شجر الياسمين وقال

واما هذا النوع فلم يوجد باوروبا الاَّ في القرن السادس واصله من الجهات الحارة الواقعة فيما بين المدارين وهو نوعان بحري وطبري فكبر زهره ولطف لونه الابيض الوردي واستطالة شكله السنبلي وتجمع ازهاره وحمله حمله فوق ساق وحيد وذبوله التدريجي المتعاقب الذي يبقي لنا التمتع باستنشاق ريحه الطيب عدة اسابيع كل ذلك جعل هذا النوع الطبري فائقا على ما حوله من الازهار واختارته ايدي الحسان على غيره ثم اشار الى نوع اخر منه وقال

واما هذه الشجرة ذات الوريقات البيضاء المخمسة التي يعطر الجو شذاها فقد نقلها الاوروباويون من اسيا الكثيرة العطريات فزرعوها باراضيهم واستخرجوا دهنها واكثر الموجود منها في التجارة يستخرج من الياسمين الزنبقي او العربي وهو كثير بالهند ثم ان احدى السيدات مدت يدها الى شجرة قصيرة ذات وبر شوكى ولها زهر مجتمع اجتماعا لطيفا ورائحة تشبه رائحة الفانيليا وقطفت منها زهرة وناولتها للشيخ فراى لها رائحة زكية وكان لم يسبق له رؤيتها فسال الخواجا عنها فقال لهُ هذه النباتة غريبة واصلها من البيرو من بلاد الامريقا واسمها في بلادنا الهليوطروب وفسرها في القاموس بدوار الشمس والصغيرة من هذا النوع تسمى عندنا تنوم بمثناة فوقية فنون ثم واو فميم والكبيرة منه تسمى صامر يوما وعلى ورقها من الجهتين وبرّ والوبر الذي على الجهة العليا اقصر واحد

وازهاره الصغيرة متجمعة فوق الساق في هيئة صحبة ولونها ازرق سنجابي وكل زهرة على حدتها فوق ساق بمفردها ويكون عن المجموع فوق الساق الاصلي شكل كالمظلة بهج المنظر تميز به هذه النباتة عن غيرها وباوروبا من هذا النوع ما ينبت بنفسه الا أن زهره ابيض قليل الرائحة

ثم التفت الخواجا الى نبات اخر وقال ومن هذا النوع الذي تسمونه في بلادكم بالتفاح يستخرج بالتقطير من ازهاره البنفسجية اللون المشكلة في شكل السنبلة في اخر الغصون ماء شديد زكاء الرائحة في مبداء امره ويقل ذلك تدريجًا بالمكث وطعمه حريف ولكن اذا اضيف اليه ماء وشرب فانه يترك في الفم رطوبة خاصة به والمشهور ان التفاح الفلفلي هذا ورد الينا من بلاد الانكليز وهو كثير بالبساتين

ثم قال وهذا النوع الذي تسمونه في مصر بالسنبل والخزامى ونحن نسميه ثوند اصله موجود من قديم الزمن في الجهة الجنوبية من ارض فرانسا ويقال ان له ميلاً الى الحر وهو نبات عطري طيب الرائحة الى الغاية وفيه حدة ومرارة قليلة وفروعه مستطيلة نحيفة مربعة بيضاء مزينة في اسفلها بالاوراق وفى اعلاها بالازهار الصغيرة البنفسجية اللون ويكون في اعلا تلك الازهار اوراق خضراء

ثم نظر الى نبت فروعه كانها ذر عليها من تراب الافران

وقال هذه النباتة هي التي تسمونها السعتر ونحن نسميها الثن ولها فروع دقيقة مستديرة مجملة باوراق صغيرة منضمة اطرافها الى جهة اسفل وفي اعلاها نقط ولون اسفلها ابيض وزهرها في اخر السيقان على هيئة سنبلة دقيقة ومنه البنفسجي والابيض ويستخرج منه ماء السعتر وينبت بكثرة في سفح الجبال فيعطر سماها ويطيب هواها

(انتهى الجزء الرابع)

فهرس

الجزء الرابع
من كتاب
علم الدين

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/١١٢٠٣

I.S.B.N 977-01-3615-8



